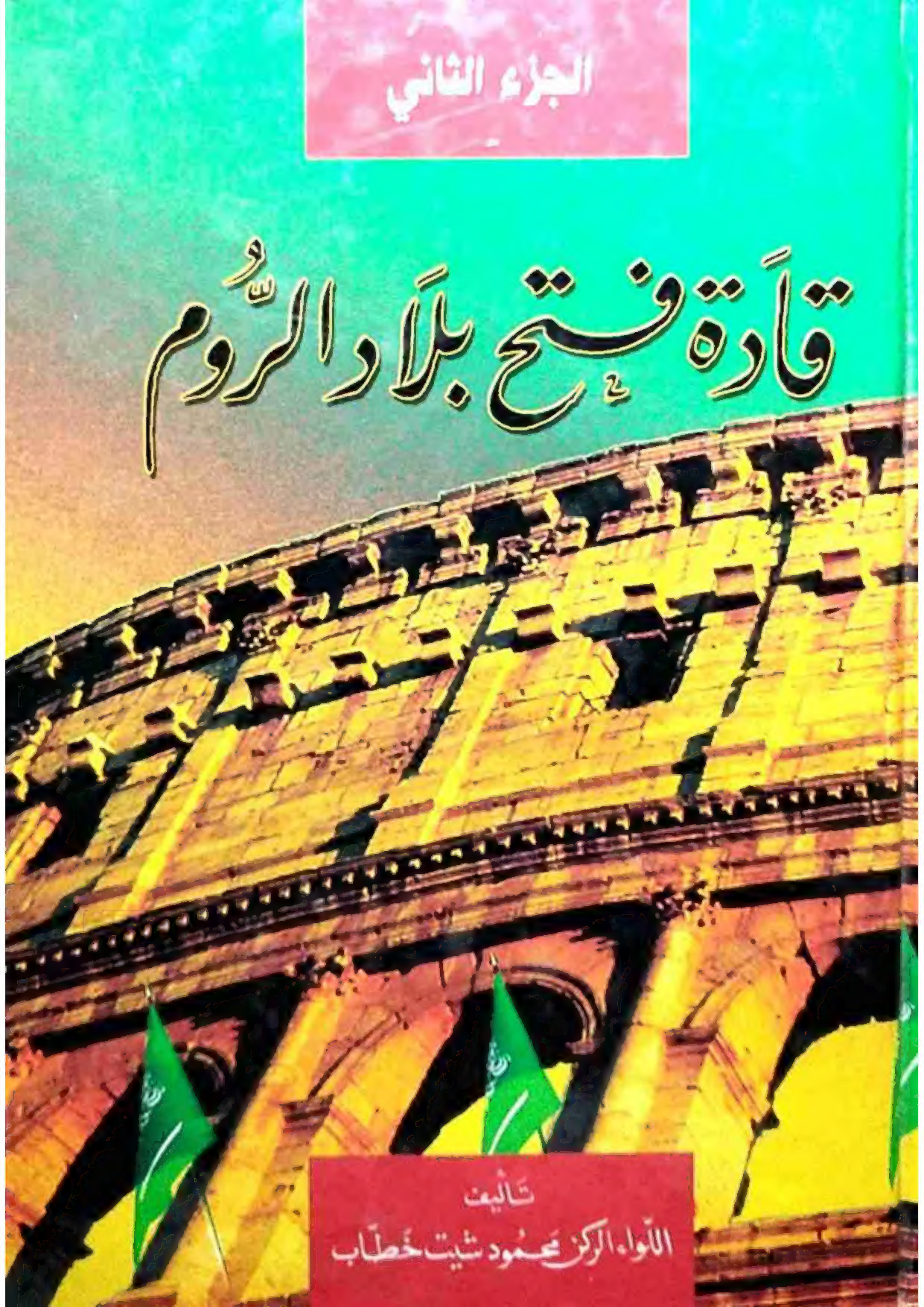


الجزء الثاني

قادة فتح بلاد الروم

تأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

قادة فتح بلاد الرُّوم

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

الجزء الثاني

قادة فتح بلاد الرُّوم

تأليف

اللّواء الركن محمود شيت خطّاب



بسم الله الرحمن الرحيم

قادة فتح بلاد الرّوم

حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرِيّ
سلمان بن ربيعة الباهِلِيّ
محمد بن مروان بن الحَكَم
مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان
عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان
العبّاس بن الوليد بن عبد الملك
عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك
داود بن سليمان بن عبد الملك
معاوية بن هشام بن عبد الملك
مروان بن محمد بن مروان بن الحَكَم
محمد الفاتح.. فاتح القُسْطَنْطِينِيّة

* * *

حبيب بن مَسْلَمة الفِهْرِيّ
فاتح شطر إرْمِينيَة[1] وشطر بلاد الرّوم

إسلامه

هو حبيب بن مَسْلَمَة بن مالك الأكبر بن وَهْب بن ثَعْلَبَة بن وائِلة ابن عَمْرو بن شَيْبان بن مُحارب[2] بن فِهر بن مالك القرشيّ الفِهْرِيّ، ويكنّى: أبا عبد الرحمٰن[3].

---

(١) إرمينية بلاد واسعة بين أذربيجان وبلاد الروم. ذات مدن وقلاع وقرى كثيرة، وهي أربع إرمينيات: الأولى والثانية والثالثة والرابعة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٠٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٩٥).

(٢) جمهرة أنساب العرب ( ).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٠٩) والإصابة (١/ ٣٢٣) وأسد الغابة (١/ ٣٧٤).

أتى النبيّ ﷺ وهو بالمدينة، فأدركه أبوه فقال: يا رسول الله ﷺ! يدي ورجلي، فقال النبيّ ﷺ: إرجع معه، فإنه يوشك أن يهلك، فهلك أبوه في تلك السنة[1].

وفي رواية: أنّ حبيباً قدم على النبيّ ﷺ غازياً، وأنّ أباه أدركه بالمدينة، فقال: يا نبيّ اللّه! إنه ليس لي ولد غيره يقوم في مالي وضيعتي وعلى أهل بيتي، فرده معه وقال: لعلّك أن يحلو لك وجهك في عامك، فارجع يا حبيب مع أبيك، فرجع حبيب ومات مَسْلمة في ذلك العام، وغزا حبيب فيه[2].

وكان حبيب مع النبيّ ﷺ في غزاة (تَبُوك) وهي آخر غزوة غزاها النبيّ ﷺ[3]، وأنكر بعض العلماء أن يكون غزا مع النبيّ ﷺ لأنّ النبيّ ﷺ قبض وحبيب ابن اثنتي عشرة سنة[4].

وفي رواية: أنّ النبيّ ﷺ قبض وحبيب ابن اثنتين وعشرين[5]، وهذا ما أُرجِّحه، لأنّ حبيباً لا يمكن أن يأتي النبيّ ﷺ للغزو وهو ابن عشر سنين أو إحدى عشرة سنة، ولأنه لا يمكن أن يصرِّف أمور والده الإدارية في مثل هذه السن المبكرة، ولأنه تولّى قيادة كردوس في معركة (اليرموك) الحاسمة التي كانت سنة ثلاث عشرة الهجريّة، ولا يمكن أن يتولى مثل هذه القيادة وهو ابن أربع عشرة سنة، لذلك فمن المعقول جداً أن يكون عمره حين قبض رسول الله ﷺ اثنتين وعشرين سنة.

والظاهر أنه أسلم عام الفتح، وكان فتح مكّة سنة ثمان الهجريّة، فأتى النبي ﷺ في تلك السنة ليشارك في الجهاد تحت لوائه، ولكنّ النبيّ

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٠٩) وتهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥) وانظر طبقات ابن سعد (٧/ ٤١٠).
(٥) المحبر (٢٩٤).

ﷺ ردَه، فمات أبوه فحضر غزوة (تبوك) التي كانت سنة تسع الهجريَّة.

لقد سمع حبيب من النبيّ ﷺ[1] وروى عنه حديثاً واحداً[2]، فهو صحابي جليل[3]، نال شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد، عليه أفضل الصلاة والسلام، وكان من أصحاب الفتيا من الصحابة[4].

جهاده

١ - شهد حبيب معركة (اليرموك) الحاسمة قائداً لأحد الكراديس[5]، وكان ذلك سنة ثلاث عشرة الهجريَّة (٦٣٤م)، فأظهر في تلك المعركة بسالة فائقة.

وشهد في السنة نفسها فتح دمشق، فشارك في فتح (الغُوطة)[6].

وشهد أكثر معارك فتح أرض الشَّام، وحين سار أبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه من (حَلَب) إلى (أنطاكية) - وقد تحصّن بها خلق كثير - صالحوه على الجلاء أو الجزية، فجلا بعضهم، وأقام بعض فآمنهم، ثم نقضوا فوجّه إليهم أبو عبيدة عِيَاض بن غَنْم وحبيب بن مَسْلَمَة، ففتحاها على الصلح الأول، وكان ذلك سنة خمس عشرة الهجريَّة[7] (٦٣٦م).

---

(١) أسد الغابة (١/ ٣٧٤).
(٢) الإصابة (١/ ٢٣) والإستيعاب (١/ ٣٢١).
(٣) أسد الغابة (١/ ٣٧٤) والإصابة (١/ ٣٢٣)، وقال الإمام البخاري: له صحبة.
(٤) أصحاب الفتيا من الصحابة - ملحق جوامع السيرة لابن حزم - (٣٢٢).
(٥) الطبري (٥٩٣).
(٦) الغوطة: من الغائط وهو المطمئن من الأرض، وجمعه غيطان وأغواط، والغوطة: هي الكورة التي منها دمشق، فيها عدة أنهر تسقيها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣١٤) وهي لمنتزه دمشق ومجمع بساتينها، ومكانها معروف اليوم. وانظر الطبري (٢/ ٦٠٢) حول هجوم حبيب على الغوطة.
(٧) ابن الأثير (٢/ ٤٩٥).

وبعث أبو عبيدة بن الجرّاح جيشاً مع حبيب إلى (قاصرين)[1]، فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء، فجلا أكثرهم إلى بلاد الرّوم وأرض (الجزيرة) وقرية جسر (مَنْبِج)[2] واشترط عليهم أن يخبّروا المسلمين بخبر الروم[3].

وسيّر أبو عبيدة بن الجرّاح ﷺ جيشاً مع حبيب إلى حصن (الحَدَث)[4]، وإنما سمّي (الحَدَث) لأنّ المسلمين لقوا غلاماً عليه حدثاً فقاتلهم في أصحابه، فقيل: (درب الحَدَث). وقيل: لأنّ المسلمين أصيبوا به فقيل: ـ درب الحدث)، وكان بنو أُميّة يسمونه: (درب السّلامه) لهذا المعنى[5]، ففتحه حبيب في أيام عمر بن الخطّاب[6] ﷺ سنة خمس عشرة الهجريّة (٦٣٦م).

وأمدّ عمر بن الخطّاب ﷺ عِيَاض بن غَنْم بحبيب، فقدم على عِيَاض في (الجزيرة)[7]، فقاتل حبيب تحت لواء عِيَاض وفتح (شمشاط)[8] و(مَلَطْيَة)[9] عنوة[10]، واستعمله عمر بن الخطّاب على عجم

---

(١) قاصرين: بلد كان بقرب بالس، انظر معجم البلدان (٧/ ١٣).

(٢) منبج: مدينة كبيرة بينها وبين حلب عشرة فراسخ، انظر معجم البلدان (٨/ ١٦٩).

(٣) ابن الأثير (٢/ ٤٩٦)، ومعنى: أن يخبروا المسلمين خبر الروم، نقل المعلومات العسكرية عن نيات الروم وتحرّكاتهم.

(٤) حصن الحدث: قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش من الثغور، ويقال لها: الحمراء، لأن تربتها جميعها حمراء، وقلعتها على جبل يقال له: الأحيدب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٣١).

(٥) ابن الأثير (٢/ ٤٩٧) وانظر ابن خلدون (٢/ ٩٤٧).

(٦) معجم البلدان (٣/ ٢٣١).

(٧) الجزيرة: هي المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات، وتشمل على ديار مضر وديار بكر وديار ربيعة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٩٦) والمسالك والممالك (٥٠).

(٨) شمشاط: مدينة في بلاد الروم على شاطىء الفرات: انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٩٣).

(٩) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم أرض الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٥٠).

(١٠) ابن الأثير (٢/ ٥٣٥).

(الجزيرة) وحربها واستعمل الوليد بن عُقبة على عرب (الجزيرة) وحربها، فأقاما بـ(الجزيرة) على أعمالها[1]، وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجريَّة (٦٣٨م). ولكنّ أهل (مَلَطْيَة) نقضوا الصلح، فلمّا ولي معاوية بن أبي سفيان الشّام لعمر بن الخطّاب وجّه إليها حبيباً ورتّب فيها جنداً من المسلمين مع عاملها[2].

وصرف عمر بن الخطّاب حبيباً من (الجزيرة)، إلى منطقة (باب الأبواب)[3] مدداً لسُراقة بن عمرو، فشهد فتح (باب الأبواب)[4]، وكان أحد الشهود الذين وقعوا على وثيقة الصلح بين سراقة بن عمرو وملك (باب الأبواب)[5] وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين الهجريَّة (٦٤٢م).

وبعد أن اطمأن سُراقة في منطقة (باب الأبواب)، وجّه حبيباً إلى (تَفْلِيس)[6] فلم يستطع حبيب فتحها[7] في هذه المرة، لأنّ قواته لم تكن كافية للنهوض بالفتح، فقد كانت قليلة بالنسبة إلى ضخامة قوات العدو.

٢ ـ وارتبكت أمور (إِرْمِينِيَة) في أيام عثمان بن عفان ﷺ، وكان على الكوفة الوليد بن عقبة، فكتب إليه عثمان: إنّ معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أنّ الرّوم قد أجلبت على المسلمين في جموعٍ كثيرة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فابعث إليهم رجلاً له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه، والسلام[8].

---

(١) الطبري (٣/ ١٥٧) وانظر ابن الأثير (٢/ ٥٣٢).
(٢) ابن الأثير (٢/ ٥٣٥).
(٣) باب الأبواب: ميناء كبير على بحر الخزر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٩).
(٤) الطبري (٣/ ٢٣٦).
(٥) الطبري (٣/ ٢٣٧) وابن الأثير (٣/ ٢٩) وابن خلدون (٢/ ٩٨٣ ـ ٩٨٤).
(٦) تفليس: مدينة بإرمينية الأولى، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة أزلية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٩).
(٧) الطبري (٣/ ٣٧).
(٨) ابن الأثير (٣/ ٨٣).

وقام الوليد بن عقبة في الناس وأعلمهم الحال، وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلي، فانتدب معه ثمانية آلاف ومضوا حتى دخلوا مع أهل الشّام إلى أرض الرّوم، فشنّوا الغارات على أرض الرّوم وأصاب الناس ما شاؤوا وافتتحوا حصوناً كثيرة[1].

وقيل إنّ الذي أمدّ حبيب بن مَسْلَمَة بسلمان بن ربيعة الباهلي كان سعيد بن العاص[2]. وكان سبب ذلك أنّ عثمان بن عفان ﷺ كتب إلى معاوية بن أبي سفيان يأمره أن يغزي حبيب بن مَسْلَمَة في أهل الشَّام (إِرْمِينِيَة)، فوجّهه إليها، فأتى حبيب (قالِيْقَلا)[3] فحصرها وضيّق على مَن بها، فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجزية، فجلا كثيراً منهم ولحقوا ببلاد الرّوم، وأقام فيها فيمن معه أشهراً[4]، لا يستطيع إدامة زخم الفتح لقلة قواته.

كما بلغه أنّ بطريق (أرمِيناقس)[5] وهي بلاد (مَلَطْيَة) و(سيواس)[6] و(قونية)[7] وما والاها من البلاد إلى خليج (القُسْطَنْطينيَّة)[8] واسمه

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٨٣ ـ ٨٤).

(٢) الصواب أنّ الذي بعث سلمان هو الوليد بن عقبة، لأنّ سعيداً تولى الكوفة سنة ثلاثين الهجرية.

(٣) قاليقلا: مدينة بإرمينية العظمى من نواحي خلاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٧)، وإنما سميت: (قاليقلا) لأنّ امرأة بطريق أرميناقس كان اسمها: (قالي) بنت هذه المدينة، فسمتها: (قالي قلَة)، تعني (إحسان قالي)، فعربتها العرب فقالت: (قليقلا)، انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤).

(٤) ابن الأثير (٣/ ٨٤).

(٥) أرميناقس: هي بلاد ملطية وسيواس وأقصرا وقونية وما والاها من البلاد إلى خليج القسطنطينية، انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤).

(٦) سيواس: بلدة كبيرة تبعد عن القسطنطينية (٤٤٠) ميلاً إلى شرق جنوبها الشرقي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٦٢). وهي بلدة معروفة في تركيا.

(٧) قونية: من أكبر بلاد الروم، وهي مدينة كبيرة، انظر معجم البلدان (٧/ ١٨٦)، وهي قريبة من سيواس في تركيا.

(٨) خليج القسطنطينية: البسفور.

(الموريان) قد توجّه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم[1]، فكتب إلى معاوية بن أبي سفيان ـ وهو على الشّام لعثمان بن عفان رضي الله عنه ـ فكتب معاوية إلى عثمان، فأرسل عثمان إلى الوليد بن عقبة يأمره بإمداد حبيب، فأمدّه بسلمان بن ربيعة الباهلي في ثمانية آلاف. وأجمع حبيب على تبييت الروم[2]، فسمعته امرأته أم عبد اللّه بنت يزيد الكلبيّة[3] فقالت: أين موعدك؟!، فقال: سرادق المَوْريان، ثم بيّتهم حبيب، فقتل مَن وقف له، حتى أتى السرادق، فوجد امرأته قد سبقته إليه، فكانت أوّل امرأة ضرب عليها حجاب سرادق[4]، وكانت هذه المعركة سنة خمس وعشرين الهجريّة (٦٤٥م).

ولما انهزمت الرّوم عاد حبيب إلى (قَالِيقَلا)، ثم سار منها فنزل (مربالا)[5]، فأتاه بطريق (خلاط)[6] بكتاب عِيَاض بن غَنْم بأمانه، فأجراه عليه، وحمل إليه البطريق ما عليه من مال[7].

ونزل حبيب (خلاط)، ثم سار منها فلقيه صاحب (مُكْس)[8] وهي من (البسفر جان)[9]، فقاطعه على بلاده. ثم سار منها إلى (أردَشاط)[10]

---

(١) ابن خلدون (٢/ ١٠٠١) وزاد ابن الأثير (٣/ ٨٤): ملطية وسيواس وأقصرا... إلخ.
(٢) بيّت: دبر ليلاً، ومعناها: القيام بالهجوم الليلي على العدو.
(٣) مات عنها حبيب فخلف عليها الضحّاك بن قيس، فهي أم ولده: انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤).
(٤) انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).
(٥) مربالا: ناحية بإرمينية قرب خلاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٠).
(٦) خلاط: قصبة إرمينية الوسطى، فيها الفواكه الكثيرة والمياه الغزيرة، وببردها في الشتاء يضرب المثل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٥٣).
(٧) ابن الأثير (٣/ ٨٤) وانظر ابن خلدون (٢/ ١٠٠١).
(٨) مكس: موضع بإرمينية من ناحية البسفر جان قرب قاليقلا، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٣٢).
(٩) البسفر جان: كورة بأرض أرّان ومدينتها النّشوى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٨١).
(١٠) أردشاط: وردت في ابن الأثير (٣/ ٨٥): أزدشاط، ووردت في ابن خلدون =

وهي القرية التي يكون بها القرمز الذي يُصبغ به، فنزل على (دبيل)[1] وسرّح الخيول إليها فحصرها، فتحصّن أهلها، فنصب عليهم منجنيقاً، فطلبوا الأمان، فأجابهم إليه[2].

ثم أتى حبيب (النّشوى)، ففتحها على مثل صلح (دَبِيْل).

ووجه حبيب سرية إلى (سراج طيْر)[3] و(بَغْر وَنْد)[4]، فصالحه بطريقها على إتاوة، وقدم على حبيب بطريق (البسفر جان)، فصالحه على جميع بلاده.

وأتى حبيب (السِيْسَجان)[5]، فحاربه أهلها فهزمهم وغلب على حصونهم.

وسار إلى (جرْزَان)، فأتاه رسول بطريقها يطلب الصلح، فصالحه.

وسار إلى (تَفْلِيسْ)، فصالحه أهلها، وفتح عدّة حصون ومدن تجاورها صلحاً[6].

وبعث حبيب سلمان بن ربيعة الباهلي إلى (أرّان)[7]، ففتح

= (٢/ ١٠٠١): اردستان، والصحيح هو: اردشاط: وهي قرية في منطقة البسفر جان وهي قرية القرمز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٨٤).

(١) دبيل: مدينة بإرمينية تتاخم أرّان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٥).

(٢) ابن الأثير (٣/ ٨٥) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١) وانظر فتوح البلدان (٢٨٢) حول فتح النشوى.

(٣) سراج طير: هي كورة في إرمينية الثالثة وقيل الثانية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٥٨).

(٤) بغر وند: بلد معدود في إرمينية الثالثة، انظر معجم البلدان (٢/ ٢٤٥).

(٥) السيسجان: بلدة بعد أرّان، انظر التفاصيل معجم البلدان (٥/ ١٩٦).

(٦) ابن الأثير (٣/ ٨٥) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١) انظر البلاذري (٢٠٠ ـ ٢٠٧).

(٧) أرّان: اسم لولاية كبيرة واسعة وبلاط كثيرة منها جنزة وبرذعة وبيلقان وهي من أصقاع إرمينية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٧٠).

(البَيْلقَان)[1] صلحاً على أن أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم، واشترط عليهم الجزية والخراج.

ثم أتى سلمان مدينة (بَرْذَعَة)[2]، فعسكر على (الثّرثُور)[3]، نهر بينه وبينها نحو فرسخ، فقاتله أهلها أياماً، وشنّ الغارات في قراها، فصالحوه على مثل صلح (البيلقان) ودخلها.

ووجه سلمان خيله، ففتحت رساتيق[4] الولاية، ولاية (أرّان)، ثم وجّه سرية إلى (شمكور)[5] ففتحوها، وسار سلمان إلى مجمع (أرس)[6] و(الكر) ففتح تلك المناطق وصالحه صاحب (شرْوَان)[7] وسائر ملوك الجبال وأهل (مَسْقَط)[8] و(الشابَران)[9] ومدينة (باب الأبواب) ثم امتنعت بعده[10].

---

(١) البيلقان: مدينة قرب (باب الأبواب). تعد من أرمينينة الكبرى قريبة من شيروان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٤٠)، وهي من مدن أرّان.

(٢) برذعة: هي قصبة أرّان في إرمينية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١١٩ ـ ١٢٢!).

(٣) الثرثور: نهر بينه وبين برذعة نحو فرسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٠) وابن الأثير (٣/ ٨٥).

(٤) رساتيق: حمع رستاق، وهو كلّ موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، وهو أخصّ من الكورة والأستان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٨٣).

(٥) شمكور: قلعة بنواحي أرّان، وهي مدينة قديمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٩٥).

(٦) مجمع (أرس) و(الكر): ملتقى النهرين أرس والكر، ولم أجد لأرس ذكراً، ووجدت الكر: نهر بين إرمينية وأرّان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٣٧).

(٧) شروان: مدينة من نواحي (باب الأبواب) بينهما مائة فرسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٥٨).

(٨) مسقط: رستاق بساحل بحر الخزر دون (باب الأبواب)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٥٤).

(٩) الشابران: مدينة من أعمال أرّان، بينهما وبين شيروان نحو عشرين فرسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٠٥).

(١٠) انظر ابن الأثير (٣/ ٨٥ ـ ٨٦)، ابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

وهكذا استعاد حبيب بمعاونة سلمان بن ربيعة الباهلي فتح مناطق شاسعة من إِرْمينِيَة وفتحا مناطق شاسعة أخرى لأول مرة، وكان ذلك الفتح في سنة خمس وعشرين الهجريَّة (٦٤٥م).

وقيل: فتحت إِرْمينِيَة على يد حبيب سنة إحدى وثلاثين الهجريَّة[١] (٦٥١م). والصواب هو ما ذكرناه سابقاً.

٣ ـ وفي سنة اثنتين وثلاثين الهجريَّة (٦٥٢م)، كان عبد الرحمٰن بن ربيعة الباهلي على (باب الأبواب)، فخاض معارك قاسية استشهد في أحدها عبد الرحمٰن أخو سلمان[٢] فخلفه سلمان على (باب الأبواب).

فأمدّه عثمان بن عفان ﷺ بأهل الشّام على رأسهم حبيب، وذلك سنة اثنتين وثلاثين الهجريَّة (٦٥٢م).

وأراد سلمان أن يتأمّر على الجيش كلّه، فأبى حبيب حتى قال أهل الشّام: لقد هممنا بضرب سلمان، فقال الكوفيون: إذن واللّه نضرب حبيباً ونحبسه، وإن أبيتم كثرت القتلى فينا وفيكم، فقال أوس بن مغراء في ذلك:

إن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم ... وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل
وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا ... وهذا أميرٌ في الكتائب مُقْبلُ
ونحن ولاة الأمر كنّا حماته ... ليالي نرمي كل ثغر ونَعْكِلُ[٣]

وأراد حبيب أن يتأمّر على الجيش كما يتأمر أمير الجيش إذا جاء من

---

(١) ابن الأثير (٣/ ١١٩).
(٢) ابن الأثير (٣/ ١٣١).
(٣) عكل الشيء: جمعه بعد تفرقه، وهي لغة من عقل، أي أنهم يغلبون على الثغور ويحسنون ضبطها وإحكام أمرها، إشارة إلى قوتهم ومنعتهم. ابن الأثير (٣/ ١٣٣)، وفي الطبري (٣/ ٣٥٣) ورد عجز البيت الثالث: ليالي ترمي كل ثغر ننكيل، وانظر البداية والنهاية (٧/ ١٦٠).

الكوفة، فكان ذلك أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة والشّام[١].

ولم يكن الحق مع حبيب، لأنه جاء مدداً لسلمان، وهو الأصيل، وحبيب المدد، والأصيل يتأمر على المدد.

واستشهد سلمان بن ربيعة الباهلي في معركة (بَلَنْجر)[٢]، فهمّ عثمان أن يولي حبيباً جميع إِرْمينِيَة، ثم رأى أن يجعله غازياً بثغور الشّام والجزيرة[٣]، فأرسله إلى تلك المنطقة التي كان خبيراً بأرضها وبأساليب قتال الرّوم، حتى أطلق عليه: (حبيب الروم)، لكثرة دخوله إليهم ونيله منهم[٤]، فولاّه (قِنّسْرين)[٥] سنة خمس وثلاثين الهجريَّة[٦] (٦٥٥م)، ولكنه لم يكد يستقرّ في هذه المدينة حتى بعثه معاوية بن أبي سفيان على رأس جيش من أهل الشّام لنصرة عثمان بن عفّان رضي الله عنه[٧]، فلمّا بلغ (وادي القُرى)[٨]، لقيه الخبر بقتل عثمان، فعاد أدراجه إلى الشّام[٩].

---

(١) ابن الأثير (٣/ ١٣٣) وانظر الطبري (٣/ ٣٥٣)، وكان من ثمرات هذا الاختلاف أن توقّف الفتح فلم يستعيدا فتح منطقة نقضت ولم يفتحا (سلمان وحبيب) فتحاً جديداً، وقد ذكر التاريخ أنّ حذيفة بن اليمان كان معهما، فغزا بقواته ثلاث غزوات وقتل عثمان وهو في الغزوة الثالثة، انظر الطبري (٣/ ٣٥٣).

(٢) بلنجر: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٧٨).

(٣) البلاذري (٢٠٧).

(٤) أسد الغابة (١/ ٣٧٥) والاستيعاب (١/ ٣٢٠) وتهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).

(٥) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٨ ـ ١٧٠).

(٦) ابن الأثير (٣/ ١٨٦).

(٧) ابن الأثير (٣/ ١٦٠).

(٨) وادي القرى: وادٍ بين الشام والمدينة من أعمال المدينة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٧٥).

(٩) أسد الغابة (١/ ٣٧٥)، الاستيعاب (١/ ٣٢١) وانظر ابن الأثير (٣/ ٢٧٠).

عاد حبيب إلى الشَّام، فوجدها تضطرم حماسة وغيظاً على قتلة عثمان رضي الله عنه.

ولم يزل في الشَّام مع معاوية بن أبي سفيان في حروبه كلها[1]: كان معه في (صِفِّين)[2]، على الميسرة[3]، وقد حمل بميسرته على ميمنة رجال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهزمهم وانكشف الناس من قِبَل الميمنة، حتى لم يبق منهم إلا عبد اللَّه بن بُدَيْل في مائتين أو ثلاثمائة من القراء، قد أسند بعضهم إلى بعض، وانجفل الناس[4]. وحضر اجتماع الحكمَيْن مع كبار أنصار معاوية بن أبي سفيان[5]. وقيل إنّ معاوية حضر الحَكَمَيْن، وإنه قام عشية في الناس فقال: أما بعد! مَنْ كان متكلماً في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، قال عبد اللَّه بن عمر: فأطلقت حبْوتي[6] فأردت أن أقول: يتكلم فيه رجال قاتلوك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرّق الجماعة ويُسْفك فيها دم، وكان ما وعد اللَّه فيه من الجنان أحبّ إليّ من ذلك. فلمّا انصرفت إلى المنزل جاءني حبيب بن مَسْلَمَة فقال: ما منعك أن تتكلم حين سمعت هذا الرجل يتكلم؟! قلت: أردت ذلك ثم خشيت! فقال حبيب: وُفِّقْت وعُصِمْت[7].

وكان من الذين يستشيرهم معاوية في الأمور العظيمة[8] وقد ردّ

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٤٧٠) وأسد الغابة (١/ ٣٧٥).
(٢) صفين: موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٧٠).
(٣) ابن الأثير (٣/ ٢٩٤).
(٤) ابن الأثير (٣/ ٢٩٨).
(٥) ابن الأثير (٣/ ٣٢١).
(٦) احتبى بالثوب اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها، والاسم: ....
(٧) ابن الأثير (٣/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤) وانظر الإصابة (١/ ٣٢٤).
(٨) ابن الأثير (٣/ ٣٥٤).

شبيب بن عامر الذي اجتاح أرض الشَّام حتى وصل (بَعْلَبَك)[1] ـ ردّه على أعقابه[2]. وكان معاوية لا يردّ شفاعته[3]، أثيراً عنده.

صحب النبيّ ﷺ، وروى عنه، وخرج إلى الشَّام مجاهداً في حياة أبي بكر الصديق ﷺ، ثم دخل دمشق، وكانت داره بها عند طاحونه السقفيين مشرفة على نهر (بَرَدَى)[4]، وكان شريفاً له ولد كثير في (حوران)[5]، وهو من أشراف قريش[6]، وكان عظيم القدر[7] ذكياً من أصحاب الفتيا بين صحابة النبيّ ﷺ، وكان كالمشرف من دابة لطوله[8]، وكان جيد البدن، دخل على عمر بن الخطّاب ﷺ، فقال له: إنك لجيد القَنَاة، فقال: إني جيد سنانها، فأمر به عمر أن يدخل دار السِّلاح، فأُدخل وأخذ منها سلاح رجل[9]. وقدم على عمر بن الخطّاب ﷺ حاجاً، فقال له عمر: إنك لفي قناة رجل، فقال: إي واللَّه وفي سنانه، فقال: افتحوا له الخزائن، فليأخذ ما شاء، فأعرض حبيب عن الأموال وأخذ السِّلاح[10].

وكان أهل الشَّام يثنون عليه[11]، قال شُرَيح بن الحارث فيه:

ألا كلّ مَنْ يُدْعى حبيباً ولو بدت ... مروءته يَفْدِي حبيبَ بني فِهْر

---

(١) بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٢٦)، وهي مدينة في بلاد الشام معروفة، لا تزال آثارها قائمة تابعة للبنان اليوم.
(٢) ابن الأثير (٣/ ٣٧٩).
(٣) ابن الأثير (٣/ ٤٨٤).
(٤) نهر بردى: نهر في دمشق، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٧١٨).
(٥) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٦).
(٦) أسد الغابة (١/ ٣٧٤).
(٧) المعارف (٦١٥).
(٨) المعارف (٥٩٢).
(٩) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٦).
(١٠) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٧).
(١١) الإستيعاب (١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١).

همامٌ يقود الخيل حتى كَأنما يطأن ... بِرَضْراض[1] الحصى جاحِمَ[2] الجمر

ويُروى أيضاً:

شهاب يقود الخيل حتى يُزيرها ... حياض المنايا لا يثيب على وتر
تهبطن فاستصعدن حتى كأنما ... يطأن برضراض الحصى جاحم الجمر[3]

وكان معاوية بن أبي سفيان قد وجّهه في جيش لنصرة عثمان بن عفان رضي الله عنه فلقيه حسان بن ثابت شاعر النبيّ ﷺ فقال:

إلاّ تنيبوا لأمر اللّه تعترفوا ... كتائباً عُصَباً من خلفها عُصَب[4]
فيهم (حبيب) شهاب الموت يقدمهم ... مشمِّراً قد بدا في وجهه الغضب[5]

وقد أفرط محبوه فقالوا: إنه مستجاب الدعوة[6]، قال شُرَيْح بن الحارث: كان حبيب بن مَسْلَمَة فاضلاً كان مجاب الدعوة[7].

وفرط فيه مبغضوه حتى نسجوا حوله التهم المختلفة والقصص الملفّقة، فقد ذكروا على لسان الحسن بن علي رضي الله عنه أنه عاتبه مرة فقال: يا حبيب! رُبّ مسير لك في غير طاعة اللّه، فقال حبيب: أما مسيري إلى أبيك فلا!، قال: بلى واللّه! ولقد طاوعت معاوية على دنياه، وسارعت في هواه: فلئن قام بك في دنياك، لقد قعد بك في دينك: إذ أسأت الفعل أحسنت القول، فيكون كما قال اللّه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٠٢﴾[8]، ولكنك كما قال اللّه تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم

---

(١) الرضراض: الحصى الصغار في مجاري المياه.
(٢) الجاحم: الجمر الشديد الاشتعال.
(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٦).
(٤) ديوان حسان (١/ ١٢٠) ـ تحقيق د. عرفات.
(٥) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٦)، وانظر ديوان حسان (١/ ١٢٠).
(٦) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٨).
(٧) الإستيعاب (١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١).
(٨) الآية الكريمة في سورة التوبة (٩: ١٠٢).

﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[1][2].

ومن الواضح أنّ الذي أدار هذا الحوار جعله على لسان الحسن بن علي ﷺ، وهو مَن هو مكانة وقدراً في قلوب المسلمين وعقولهم، ليصم حبيباً وصمة لا ينهض من كبوتها بعدها أبداً.

ولكن الذي يدقق في الحوار يجد أنه مختلق للحط من شأن حبيب، وفي الوقت الذي يقود هذا الحوار الحسن بن علي ﷺ في بعض المصادر، يقوده في مصادر أخرى ولد شرَحْبيل بن السِّمْط[3]، دون ذكر اسم هذا الولد ـ وكان لشرحبيل عدة أولاد[4]، وجاء الحوار مع ولد شرحبيل: أنّ حبيباً حضر جنازة شرحبيل بن السمط، فقال له ولد شرحبيل، رب مسير لك في غير طاعة اللّه.... إلخ مع اختلاف في بعض ما جاء في الحوارين الأول والثَّاني في اللفظ دون المعنى!

وليس من المعقول أن يحضر المرء جنازة أبٍ من الآباء، فيقابله أولاده بمثل هذا الحوار العنيف!

ثم إنّ شرحبيل بن السمط كان من رجال معاوية بن أبي سفيان[5]، فكيف يقف أحد أولاده هذا الموقف من حبيب وهو وأبوه من رجال معاوية أيضاً؟!

ومَنْ أدار هذا الحوار وقاده؟ أهو الحسن بن علي ﷺ، أم هو أحد أولاد شرحبيل؟ وأي ولد من أولاد شرحبيل أدار هذا النِّقاش؟!

ومتى وأين واجه الحسن بن علي ﷺ حبيباً؟

---

(١) ران عليه: غلبه وغطّاه.
(٢) الآية الكريمة في سورة المطفّفين (٨٣: ١٤)، وانظر ما جاء عن هذا الحوار في الاستيعاب (١/ ٣٢١) وانظر أيضاً البيان والتبيين (٢/ ٩٩).
(٣) شرحبيل بن السمط، صحابي جليل، انظر التفاصيل في أسد الغابة (٢/ ٢٩١).
(٤) جمهرة أنساب العرب (٤٢٦).
(٥) أسد الغابة (٢/ ٢٩٢).

إنّ الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فتحت الباب على مصراعيه للذين يريدون الانتقاص من رجالات العرب والمسلمين والغنم كله لأعداء العرب والمسلمين.

ولاه عمر بن الخطّاب على (الجزيرة)[١] سنة سبع عشرة الهجريَّة (٦٣٨م)، وكان على عجم (الجزيرة)، ثم ضمّ إليه (إِرْمِينِيَة) وأذربيجان[٢] وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين الهجريَّة (٦٤٢م).

وبقي على (إِرْمِينِيَة) في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى سنة خمس وثلاثين الهجريَّة (٦٥٥م)، فولاّه (قنّسرين)، وكان عليها حين استشهد عثمان رضي الله عنه.

وشغلته الفتنة الكبرى بعد ذلك، حتى ولاّه معاوية بن أبي سفيان (إِرْمِينِيَة) سنة إحدى وأربعين الهجريَّة، (٦٦١م) فمات فيها[٣].

ولد قبل الهجرة باثنتي عشرة سنة (٦١٠م)، لأنّ النبيّ ﷺ قبض وحبيب ابن اثنتين وعشرين[٤]، إذ لا يمكن أن يكون مع الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام في غزوة (تبوك) وهي آخر غزوة غزاها النبيّ ﷺ وهو ابن إحدى عشرة سنة[٥]، كما لا يمكن أن يكون قائداً لكردوس في معركة (اليرموك) الحاسمة وهو ابن ثلاث عشرة سنة على اعتبار أن

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٧).

(٢) أذربيجان: حدها من برذعة مشرقاً إلى أرزنجان مغرباً ويتصل من جهة الشمال ببلاد الديلم والجبل والطرم وهو إقليم واسع من مدائنها تبريز والمراغة وخُوى وسهاس وأرمية ومرندة وغير ذلك، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٥٩ ـ ١٦١) وانظر تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٧) حول توليه إرمينية وأذربيجان.

(٣) أسد الغابة (١/ ٣٧٥) والإصابة (١/ ٣٢٣) وطبقات ابن سعد (٧/ ٤١٠) والاستيعاب (١/ ٣٢١) وابن الأثير (٣/ ٤٢٤) وفي المحبر (٢٩٤): أن معاوية وجهه إلى المدينة فمات فيها، وليس بشيء.

(٤) المحبر (٢٩٤).

(٥) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).

النبي ﷺ توفي وهو ابن اثنتي عشرة سنة[١] وأنه ولد قبل سنتين من الهجرة[٢] (٦٢٠م) كما يدّعي بعض المؤرخين.

وتوفي سنة اثنتين وأربعين الهجريَّة[٣] (٦٦٢م)، فكان عمره يوم توفي أربعاً وخمسين سنة قمرية، وكانت حياته قليلة في تعداد السنوات، كثيرة في تعداد جلائل الأعمال، قصيرة في عمر الزمن، باقية آثارها على الزمن.

وكان سبب وفاته أنه دخل الحمام فأطال المكث فيه، فبدت علّته التي مات بسببها[٤] فربما أصيب بالبرد من جرّاء ذلك فأثر في رئته فمات بذات الرئة، أو أنه مات بمرض من أمراض جهاز التنفس.

القائد

ليس هناك من شك في كفاية حبيب قائداً متميزاً، فقد كان على صغر سنّه يتنقَّل من ساحة عمليَّات إلى ساحة عمليَّات أخرى، فاتحاً مرة، ومدداً مرة أخرى، وكان النصر حليفه في كلِّ معركة خاضها.

قدم على النبيّ ﷺ وهو بالمدينة غازياً، وكان يومئذ صغيراً، وشهد غزوة (تبوك) تحت لواء الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وبهذه الغزوة بدأ جهاده الأصغر وهو يناهز العشرين من عمره القصير[٥].

وحين رآه عمر بن الخطّاب صلب العود قويّ البدن، جرّبه تجربة عملية ليرى أيّ نوع من الرجال هو، فعرض عليه خزائن المال وخزائن السلاح، فاختار السلاح وعفّ عن المال.

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥) وطبقات ابن سعد (٧/ ٤١٠).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).
(٣) أسد الغابة (١/ ٣٧٥) والإصابة (١/ ٣٢٣) وطبقات ابن سعد (٧/ ٤١٠) والاستيعاب (١/ ٣٢١) وابن الأثير (٣/ ٤٢٤) وابن خلدون (٢/ ٢٨٨).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٨).
(٥) كان عمر حبيب يوم تولى منصب قيادة عرب الجزيرة وإدارتها (٢٨) سنة.

وتفضيل السلاح على المال من مزايا القائد الذي يغلغل حبّ الجندية في أعماق نفسه.

وقد تولى قيادة كردوس في معركة (اليرموك) الحاسمة وهو ابن أربع وعشرين سنة، ممّا يدلّ على ظهور سماته القيادية مبكراً وهو في ريعان الشباب.

وولاّه عمر بن الخطّاب ﷺ عجم (الجزيرة) إدارياً وقائداً، وليس من السهل أن يولّي عمر كل إنسان مثل هذا المنصب الرفيع، لأنّ عمر كان يلتزم بصفات معينة في القائد قلّ أن تتوفر في الرجال.

وأخيراً ولاه عمر بن الخطّاب ﷺ (إِرْمِينِيَة) و(أذربيجان)، وهي مناطق شاسعة وقيادة مهمة للغاية، نظراً لشدّة شكيمة أهلها ولبعدها عن قواعد المسلمين الرئيسة والمتقدّمة[1].

ومارس القيادة والإدارة معاً بعد عمر بن الخطّاب ﷺ، حتى توفّاه اللّه وهو قائد أخطر منطقة في حدود الدّولة الإسلاميّة الشماليّة: إِرْمِينِيَة.

ولقد كان شجاعاً غاية الشجاعة، مقداماً غاية الإقدام: لمّا توجّه لقتال (الموريان) كان في ستة آلاف، وكان (الموريان) في سبعين ألفاً، فقال حبيب لمن معه: أن يصبروا وتصبروا، فأنتم أولى باللّه منهم: وإن يصبروا وتجزعوا فإنّ اللّه مع الصابرين. ولقيهم ليلاً، فقال: اللّهم أجّل لنا قمرها، واحبس عنّا مطرها، واحقن دماء أصحابي، واكتبهم شهداء، ففتح اللّه له[2]، فكان من أسباب انتصاره على عدوه ـ بالإضافة إلى عامل الإيمان ـ هو الهجوم الليلي الذي باغت به العدو وجعل معنوياته تنهار ثم يولي الأدبار.

---

(١) كان عمر حبيب حين تولى (إرمينية) و(أذربيجان) ثلاثة وثلاثين سنة.

(٢) أعمال حبيب العسكرية خطط مدبرة ولم تكن خططاً إرتجالية وكان صاحب كيد وكان حبيب مؤمناً صادق الإيمان.

وكان مثالاً شخصياً حياً لرجاله في الشجاعة والإقدام، فقد كان يقود رجاله من الأمام ويقول لهم: اتبعوني، ولا يبقى في الخطوط الخلفية مؤثراً السلامة والعافية وحين عزم أن يُبيِّت (الموريان) سمعتْه امرأته يذكر ذلك، فقالت له: وأين الموعد؟، فقال: سرادق موريان أو الجنة. وجد امرأته قد سبقته إليها[1]: فلم يكن وحده بطلاً يضرب لرجاله بأعماله البطولية أروع الأمثال، بل كانت امرأته أيضاً بطلة يقتفي الأبطال آثارها في التضحية والفداء.

وكان يستشير رجاله ويتقبّل مشورتهم، وكان لا يستأثر بالرأي دونهم، بل كان يتصنّت ليتلقّف آراء رجاله، ويطبّق ما يراه حسناً، وينفِّذ ما يجده صواباً، بالإضافة إلى عقد مؤتمرات الشورى، قبل المعارك وفي أثنائها وبعدها.

سمع يوماً أحد رجاله يقول: لو كنت ممن يسمع حبيب مشورته، لأشرت عليه بأمر يجعلُ اللّه فيه لنا وله نصراً وفرجاً إن شاء اللّه. واستمع حبيب لقوله، فقال أصحابه: وما مشورتك؟! فقال: أشير عليه أن ينادي بالخيول فيقدمها، ثم يرتحل بعسكره فيتبع خيله. وتوافيه الخيل في جوف الليل وينشب القتال، ويأتيهم حبيب بسواد عسكره مع الفجر، فيظنون أنّ المدد قد جاءهم، فيرعبهم اللّه، فيهزمهم بالرعب[2].

ونادى حبيب بالخيول، فوجّهها بليلة مقمرة مطيرة، ثم ارتحل وراء خيوله، ولكنه عاد إلى عدوّه في السحر، فحمل وحمل أصحابه، فانهزم العدو وأصابوا غنائم كثيرة[3].

---

(١) الطبري (٣/٣٠٩) والبلاذري (٣٠٩)، وكم نحن بحاجة اليوم إلى قادة يتقدمون جيوشهم ولا يتأخرون عنها.

(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧).

فهو حين بعث بخيوله ليلاً ثم سار على أثر الخيل مبتعداً عن ساحة المعركة، ظنّ العدو أن قوات حبيب قد انسحبت بعيداً عنهم، لذلك لجأوا إلى الراحة والاطمئنان واستمتعوا بالأمن والدعة.

ولكنهم لم يكادوا يستقرون، إلاّ وفاجأهم حبيب بهجومه الليلي: قاتلت خيوله أولاً، ثم دخلت قواته الأخرى المعركة كأنها مدد جديد، ممّا فتَّ في عضد عدوّه، واضطره على الفرار.

وتلك خطة عسكريَّة بارعة، تيسّر فيها مبدأ: (المباغتة)، وهو أهمّ مبدأ من مبادىء الحرب على الإطلاق.

وكان حبيب صاحب كيد[1]: يفكِّر ويُقدِّر ثم يستشير رجاله ويستطلع ساحة القتال ويحصل على المعلومات المستفيضة عن العدو، ثم يبني من بعد ذلك خطته العسكريَّة على هدى وبصيرة.

غزا حبيب الرّوم في خلافة عمر بن الخطّاب ﷺ، وكان على جماعة من المسلمين، فاهتمّ عمر بأمرهم، فلمّا بلغه خروج حبيب ومَن معه، خرّ للّه ساجداً[2].

ومن الواضح أنّ جيش المسلمين يومذاك كان في خطر داهم، لذلك اهتمّ عمر بمصيرهم وأهمّه أمرهم.

ولكن قيادة حبيب الواعية الحكمية، أدّت إلى خروج جيش المسلمين من المأزق الذي كان فيه ونجاته من الخطر الذي كان يُحدق به.

إنّ أعمال حبيب العسكريَّة خطط مدبّرة، ولم تكن خططاً ارتجالية، لذلك رافق النصر أعلامه في أخطر ساحات القتال في الفتح.

وبالإضافة إلى تلك المزايا أو قبلها، وكان حبيب مؤمناً حقاً صادق الإيمان.

---

(١) الطبري (٣/ ٣٠٩).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٧).

كان إذا لقي عدوّاً أو ناهض حصناً يحب أن يقول: لا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم[1].

وكان قد أُمِّر على جيش، فلمّا لقي العدو قال للناس: إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: لا يجتمع ملأ فيدعو بعضهم ويؤمِّن بعضهم ـ أو قال سائرهم ـ إلاّ أجابهم اللّه، ثم إنه حمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: اللّهم احقن دماءنا واجعل أجورنا أجور الشهداء[2].

وكان ذكيّاً ألمعيّ الذكاء، خبيراً بالحروب لطول ممارسته لها، يطبق أكثر مبادىء الحرب أهمية، وكان صحيح القرار سريعه، يثق برجاله ويثقون به ثقة لا مزيد عليها، وكان يحبّهم ويحبّونه حبّاً لا مزيد عليه: فقد اختلف هو وسلمان بن ربيعة الباهلي، فتواعد بعضهم بعضاً، فقال أهل الشّام لأهل العراق: لقد هممنا بضرب سلمان[3]، وذلك لشدّة حبهم لقائدهم حبيب وحرصهم على سنده ودعمه.

وكان ذا شخصية قوية نافذة، وقابلية بدنية متفوقة[4]، ونفسية رصينة لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار.

لقد كان حبيب قائداً فذّاً، جمع مزايا القائد الفذّ: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العملية.

حبيب في التاريخ

فتح حبيب المناطق التي كان يسكنها غير العرب من (الجزيرة) وقد كانت (الجزيرة) تسكن من العرب ومن غيرهم قبل الفتح الإسلامي، ولا تزال كذلك حتى اليوم.

---

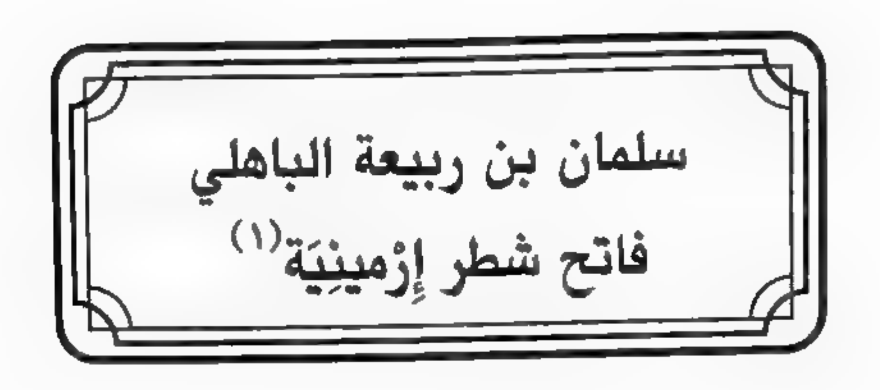
(١) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٧).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٨).
(٣) الطبري (٣/ ٣٥٣) وانظر الإستيعاب (١/ ٣٢٠).
(٤) الإصابة (١/ ٣٢٣).

وفتح معظم (إِرْمينِيَة)، واستعاد فتحها أكثر من مرة، حتى بلغ قريباً من ساحل البحر الأسود.

وهذه الفتوح لسرعة إنجازها، وسعة رقعتها، وقلة تكاليفها الماديَّة والمعنويّة، تعتبر من الأعمال العسكريَّة الباهرة.

إنّ حبيب بن مَسْلَمَة، أسدى للفتح الإسلامي ـ قائداً وإدارياً ـ خدمات لا تنسى، فهو بدون شك من ألمع قادة العرب والمسلمين، ومن ألمع إداريّيهم أيضاً.

رضي اللّه عن الصحابي الجليل، الإداريّ الحازم، السياسي المحنك، القائد الفاتح، حبيب بن مَسْلَمَة الفهري.



سلمان بن ربيعة الباهلي
فاتح شطر إِرْمِينِيَة[1]

(ابعث إليهم رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه)

(عثمان بن عفان)

الصّحابي

هو أبو عبد اللَّه سلمان بن ربيعة بن زيد بن عمرو بن سَهْم بن نَضْلَةَ بن غَنْم بن قُتَيْبَة بن مَعْن بن مالك بن أَعْصُر بن سَعْد بن قَيْس عَيْلان بن مُضَر بن نزار الباهلي الكوفي[2].

كان صحابياً جليلاً[3]، لأنهم لم يكونوا يؤمّرون في الفتوح إلاّ الصحابة[4]، خاصة وأنه تولى قيادة الجيوش والقضاء في عهد عمر بن الخطّاب ﷺ، الذي كان يحرص غاية الحرص على تولية مثل هذه المناصب الخطيرة.

---

(١) إرمينية: بلاد واسعة بين أذربيجان والروم، ذات مدن وقلاع وقرى كثيرة، وهي أربع إرمينيات: الأولى والثانية والثالثة والرابعة، انظر التفاصيل في آثار البلاد وأخبار العباد (٤٩٥) معجم البلدان (١/ ٢٠٤).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٨) القسم الأول، وانظر جمهرة أنساب العرب (٢٤٥ ـ ٢٤٧).

(٣) الإصابة (٣/ ١١٢) وأسد الغابة (٢/ ٣٢٧)، وقد ورد في أسد الغابة أيضاً: أنه أدرك النبي ﷺ وليست له صحبة، ولكن جاء في أسد الغابة أيضاً: ونرجّح أنه صحابي لأنهم كانوا لا يؤمرون إلاّ بالصحابة، وانظر الاستيعاب (٢/ ٦٣٢).

(٤) الإصابة (٤/ ١٩٥).

ولكن لم يرد له ذكر في غزوات النبي ﷺ، ممّا يدلّ على أن إسلامه كان متأخراً، لذلك نال سلمان شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام.

جهاده

١ ـ برز اسم سلمان في الجهاد لأول مرة في فتوح العراق، فقد ولاّه سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قيادة (المُجَرَّدَة)[١] في مسير الاقتراب إلى ميدان (القادسية)[٢] المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب العراق للمسلمين، وكان ذلك سنة أربع عشرة الهجريَّة (٦٣٥م).

وأبلى سلمان في معركة (القادسية) بلاء عظيماً، فلمّا انهزم الفرس لحق سلمان وأخوه عبد الرحمٰن بطائفة منهم قد نصبوا راية وقالوا: لا نبرح حتى نموت! فقتلهم سلمان ومَن معه[٣].

وكان سعد بن أبي وقّاص قد جعل على قسمة الغنائم سلمان، فجمع ما في القصر والإيوان[٤] والدور، وأحصى ما يأتيه به الطلب، وكان أهل (المدائن)[٥] قد نهبوها عند الهزيمة وهربوا في كلّ وجه، فما أفلت أحدهم بشيء إلاّ أدركه الطلب فأخذوا ما معه[٦].

وقسمت الغنائم، وأصاب كل واحد من الفوارس تسعة آلاف درهم

---

(١) المجردة: هي قوة عسكرية من الفرسان تتحرك أمام المقدمة لاستطلاع قوات العدو والحصول على المعلومات عنه وحماية المقدمة.
(٢) الطبري (٣/ ٩) وابن الأثير (٢/ ٤٥٢) وابن خلدون (٢/ ٩١٨).
(٣) ابن الأثير (٢/ ٤٨٣).
(٤) قصر كسرى وإيوان كسرى ولا تزال آثارهما باقية حتى الآن في سلمان باك (المدائن) قرب بغداد.
(٥) المدائن: عاصمة الفرس، مؤلفة من عدة مدن، تقع على نهر دجلة على بعد ستة فراسخ من بغداد، وفيها قبر سلمان الفارسي رضي الله عنه، وآثارها باقية حتى اليوم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٤١٣ ـ ٤١٥).
(٦) ابن الأثير (٢/ ٥١٥) وابن خلدون (٢/ ٩٤١).

وتسع من الدواب. وقيل: إنّ الغنيمة كانت ثلاثين ألف درهم، فقسّمها سلمان، وبعث سعد بن أبي وقّاص بالأخماس إلى عمر بن الخطّاب، وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجريّة[1] (٦٣٨م).

٢ ـ حشد هِرَقل ملك الرّوم قوات كبيرة من (الجزيرة) وغيرها براً ومن (الإسكندرية) بحراً، فلمّا علم أبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه بذلك حشد قوّات المسلمين في (حِمْص)[2]، وكتب إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يعلمه بهذا الموقف العصيب، فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنهما: اندب الناس مع القعقاع بن عمرو[3]، وسرِّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى (حِمْص)، فإنّ أبا عبيدة قد أحيط به، وتقدّم إليهم في الجد والحث[4].

وكان عمر بن الخطّاب قد اتخذ في كل مصر خيولاً على قدرة من فضول أموال المسلمين، عدة للطوارىء، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس، وكان القيِّم عليها سلمان بن ربيعة الباهلي ونفر من أهل الكوفة[5].

وتحرك القعقاع بن عمرو التميمي على رأس أربعة آلاف فارس من يومهم الذي أتاهم فيه كتاب عمر بن الخطّاب إلى (حِمْص)[6] وكان سلمان مع هذه القوة.

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٥٢).

(٢) حمص: مدينة كبيرة بين دمشق وحلب في نصف الطريق، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣٩).

(٣) القعقاع بن عمرو: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٣١ ـ ٣٥٥).

(٤) الطبري (٣/ ٥٣٠).

(٥) ابن الأثير (٢/ ٥٣٠).

(٦) حركة أربعة آلاف فارس في يوم واحد إلى هدف بعيد ليس سهلاً! إنه يكاد يكون مستحيلاً في أيامنا الحاضرة، وقد أنجزه المسلمون قبل أربعة عشر قرناً!!

وشهد سلمان معارك الإنقاذ في أرض الشَّام التي استحقت ثناء عمر فقال: جزى اللّه أهل (الكوفة) خيراً، يكفون حوزتهم، ويمدّون أهل الأمصار[1].

وقد بعثه أبو عبيدة بن الجرَّاح إلى حِمْص بـ(قُوْرُس)، فنسب إليه، فهو يعرف بحصن سلمان[2].

وقد ورد لسلمان ذكر في فتوح الشَّام[3]، وكان فتح (مَنْبِج) على يد سلمان[4].

وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجريَّة (٦٣٨م) على الأغلب.

٣ ـ وعاد سلمان من أرض الشَّام ليتولى القضاء في الكوفة، ثم صُرِف من القضاء[5] لينتقل إلى ميدان الجهاد في (أَذْرَبَيْجَان)[6] و(إِرْمِينيَة)[7]، فقد بعث عمر بن الخطَّاب سنة اثنتين وعشرين سُراقة بن عمرو الذي كان يدعى: (ذا النور) إلى (باب الأبواب)[8]، وجعل عمر بن الخطَّاب سلمان في هذه الغزوة على المقاسم[9]، فشهد سلمان فتح (باب الأبواب) وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين الهجريَّة (٦٤٢م).

---

(١) الطبري (٣/ ١٥٠).
(٢) ابن الأثير (٢/ ٤٩٦)، وقورس: مدينة بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٨١).
(٣) الإصابة (٣/ ١١٢).
(٤) ابن خلدون (٢/ ٩٤٧).
(٥) الطبري (٣/ ٢٣).
(٦) أذربيجان: صقع جليل ومملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال. أشهر مدنها: تبريز وهي قصبتها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٥٩) والمسالك والممالك (١٠٨).
(٧) إرمينية: بلاد واسعة بين أذربيجان وبلاد الروم، ذات مدن وقلاع وقرى كثيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٠٤).
(٨) باب الأبواب: ميناء كبير على بحر الخزر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٩).
(٩) ابن الأثير (٣/ ٢٨).

ولما فرغ سُراقة بن عمرو من فتح (باب الأبواب)، أرسل قادته إلى المناطق المحيطة بها، وكان من أولئك القادة سلمان الذي ذهب إلى الجبال المحيطة بـ(إِرْمينِيَة)، فلم يفتح أحد من أولئك القادة إلاّ بكير بن عبد اللَّه[1]، فإنه انتصر على أهل (مُوْقَان)[2] الذين فرضت عليهم الجزية عن كل حالم ديناراً[3].

٤ ـ وفي سنة خمس وعشرين الهجريَّة (٦٤٥م) كان الوليد بن عُقْبَة[4] على الكوفة لعثمان بن عفان ﷺ، حيث عزل سعد بن أبي وقَّاص عن الكوفة وولاّها الوليد[5]، وكان أهل (أذربيجان) قد نقضوا، فغزاهم الوليد في هذه السنة، وأغار على أهل (موقان) و(بَرْزَند)[6] و(الطّيْلسان)[7]، ففتح وغنم وسبى. لذلك طلب أهل كور (أذربيجان) الصلح، فصالحهم على صلح حُذَيفَة بن اليمان[8]، وهو ثمانمائة ألف درهم، وقبض المال.

وبث الوليد سراياه، وبعث سلمان إلى أهل (إِرْمينِيَة) في اثني عشر ألفاً، فسار في (إِرْمِينِيَة) يقتل ويسبي ويغنم، ثم انصرف وقد ملأ يديه حتى

---

(١) بكير بن عبد اللَّه: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٠٥ ـ ٢٠٨).

(٢) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي، فأكثر أهلها منهم، وهي بأذربيجان يمر بها القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٩٨).

(٣) ابن الأثير (٣/ ٢٩) وابن خلدون (٢/ ٩٨٣ ـ ٩٨٤).

(٤) الوليد بن عقبة: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٩٣ ـ ٥١٢).

(٥) ابن الأثير (٣/ ٨٢).

(٦) برزند: وردت (البير) في ابن الأثير (٣/ ٨٣)، وهذا خطأ، وقد وردت (برزند) في ابن خلدون (٢/ ١٠٠٠) وهو الصحيح، وهي بلد من نواحي تفليس من أعمال جرزان من إرمينية الأولى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٢٤).

(٧) الطيلسان: إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحي الديلم والخزر، انظر معجم البلدان (٦/ ٨٠).

(٨) حذيفة بن اليمان: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (١٠٨ ـ ١١٧).

أتى الوليد، فعاد الوليد وقد جعل طريقه على (الموصل)[1] فوصل إلى (الحدِيثة)[2] ونزلها[3].

وفي (الحديثة) أتى الوليد كتاب عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي جاء فيه: إنّ معاوية بن أبي سفيان كتب إليَّ يخبرني أنّ الرّوم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فابعث إليهم رجلاً له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه والسلام.

وقام الوليد في الناس، وأعلمهم الحال وندبهم مع سلمان، فانتدب معه ثمانية آلاف مضوا حتى دخلوا مع أهل الشّام في أرض الرّوم، فشنّوا الغارات على أرض الرّوم، وأصاب الناس ما شاؤوا وافتتحوا حصوناً كثيرة.

وقيل: إن الذي أمدّ حبيب بن مَسْلَمَة بسلمان كان سعيد بن العاص[4]، وكان سبب ذلك، أنّ عثمان بن عفان رضي الله عنه كتب إلى معاوية بن أبي سفيان يأمره أن يغزي حبيب بن مَسْلَمَة في أهل الشّام (إِرْمينِيَة)، فوجهه إليها.

وأتى حبيب (قالِيْقَلا)[5]، فحصرها وضيّق على مَن بها، فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجزية، فجلا كثيراً منهم ولحقوا ولحقوا ببلاد

---

(١) الموصل: مدينة كبيرة على دجلة شمالي بغداد، وقد كانت عربية قبل الإسلام ولا تزال، تبعد عن بغداد إلى الشمال (٣٩٧) ك م.

(٢) الحديثة: هي حديثة الموصل، وهي بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٤)، وهي الآن خراب.

(٣) ابن الأثير (٣/ ٨٣) وابن خلدون (٢/ ١٠٠٠).

(٤) الصواب أن الذي بعث سلمان هو الوليد بن عقبة، لأن سعيد بن العاص تولى الكوفة سنة ثلاثين الهجرية، فهو وجه سلمان في الغزوة الثانية كما سيأتي.

(٥) قاليقلا: مدينة بإرمينية العظمى من نواحي خلاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٧)، وإنما سميت (قاليقلا): لأن امرأة بطريق أرميناقس كان اسمها: (قالي) بنت هذه المدينة فسمتها (قالي قلة)، تعني: إحسان قالي، فعربتها العرب فقالت: قليقلا، انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤).

الرّوم، وأقام بها حبيب بن مَسْلَمَة فيمن أقام معه أشهراً[1]، لا يستطيع إدامة زخم الفتح لقلة قواته.

ثم بلغ حبيب بن مَسْلَمَة أن بطريق (أرْميناقس)[2] واسمه (الموريان) قد توجّه نحوه في ثمانين ألفاً من الرّوم، فكتب إلى معاوية بن أبي سفيان ـ وهو على أرض الشّام لعثمان بن عفان رضي الله عنه ـ فكتب معاوية إلى عثمان، فأرسل عثمان إلى سعيد بن العاص يأمره بإمداد حبيب، فأمدّه بسلمان بن ربيعة الباهلي في ستة آلاف[3].

وأجمع حبيب على تبييت[4] الرّوم، فنفّذ خطة هجومه الليلي بنجاح باهر، ممّا أدّى إلى هزيمة الروم[5].

ولما انهزمت الرّوم عاد حبيب وسلمان إلى (قليقلا)، ثم سار حبيب منها فنزل (مربالا)[6]، فأتاه بطريق (خلاط)[7] بكتاب عِيَاض بن غَنْم الفِهْرِيّ[8] بأمانة، فأجراه عليه وحمل إليه البَطريق ما عليه من مال.

ونزل حبيب بن مَسْلَمَة (خلاط)، ثم سار منها فلقيه صاحب (مُكس)[9] وهي من (البُسْفُرْجان)[10]، فقاطعه على بلاده. ثم سار منها

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٨٣ ـ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠٠ ـ ١٠٠١).

(٢) أرميناقس: هي بلاد ملطية وسيواس وقونية وما والاها من البلاد إلى خليج القسطنطينية، انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤).

(٣) ابن الأثير (٣/ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(٤) تبييت: دبر ليلاً، ومعناه القيام بالهجوم الليلي على العدو.

(٥) انظر ابن الأثير (٣/ ٨٣) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(٦) مربالا: ناحية بإرمينية قرب خلاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٥).

(٧) ابن الأثير (٣/ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(٨) عياض بن غنم: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩ ـ ٤٧٩).

(٩) مكس: موضع بإرمينية من ناحية البسفرجان قرب قاليقلا، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٣٢).

(١٠) البسفرجان: كورة بأرض أران ومدينتها النشوى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٨١).

إلى (أرْدَشاط)[1]، وهي القرية التي يكون بها القرمز الذي يُصْبَغ به، فنزل على (دَبْيَل)[2] وسرّح الخيول إليها فحصرها، فتحصن أهلها، فنصب عليها منجنيقاً، فطلبوا الأمان فأجابهم إليه[3].

وجّه حبيب سرية إلى (سِراج طَيْر)[4] و(بَغْرَوَنْد)[5]، فصالحه بطريقها على إتاوة.

وقدم حبيب على (البسفرجان)، فصالحه بطريقها على جميع بلاده. وأتى حبيب (السِيْسَجَان)[6] فحاربه أهلها فغلبهم.

وسار إلى (جُرْزَان)[7]، فأتاه رسول بطريقها يطلب الصلح، فصالحه.

وسار حبيب إلى (تَفْلِيس)[8]، فصالحه أهلها، وفتح عدّة حصون ومدن تجاورها صلحاً[9].

لقد كان سلمان الساعد الأيمن لحبيب في فتح هذه البلاد الشاسعة.

---

(١) أردشاط: وردت في ابن خلدون (٢/ ١٠٠١)، أردستان، ووردت في ابن الأثير (٣/ ٨٥): أزدشاط، والصحيح هو: أردشاط: وهي قرية من منطقة البسفرجان، وهي قرية القرمز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٨٤).

(٢) دبيل: مدينة بإرمينية تتاخم أران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٥).

(٣) ابن الأثير (٣/ ٨٥) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(٤) سراج طير: هي كورة من إرمينية الثالثة وقيل الثانية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٥٨).

(٥) بغروند: بلد معدود من إرمينية الثالثة، انظر معجم البلدان (٢/ ٢٤٥).

(٦) السيسجان: مدينة بعد أران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٩٦).

(٧) جرزان: اسم جامع لناحية بإرمينية قصبها تفليس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٨٣).

(٨) تفليس: مدينة بإرمينية الأولى، وبعض يقول: بأران، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٩).

(٩) ابن الأثير (٣/ ٨٥) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١)، وانظر البلاذري (٢٠٠ ـ ٢٠٧).

وبعث حبيب سلمان إلى (أرّان)[1]، ففتح (البَيْلَقَان)[2] صلحاً بعد أن أمّنَهُم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم، واشترط عليهم الجزية والخراج.

وأتى سلمان مدينة (بَرْذَعَة)[3]، فعسكر على (الثُّرْثُور)[4] نهر بينه وبينها نحو فرسخ، فقاتله أهلها أياماً، وشنّ الغارات في قراها، فصالحوه على مثل صلح (البيقان) ودخلها.

وجّه سلمان خيله، ففتحت رساتيق[5] الولاية: ولاية (أرّان) ثم وجّه سرية إلى (شَمْكُور)[6] ففتحوها.

وسار سلمان إلى مجمع (الرّسّ) و(الكُرّ)[7]، ففتح تلك المناطق، وصالحه صاحب (شروان)[8] وسائر ملوك جبال وأهل (مسقط)[9]

---

(١) أران: اسم لولاية كبيرة واسعة منها جنزة وبرذعة وبيلقان، وهي من أصقاع إرمينية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٧٠).

(٢) البيلقان: مدينة قرب (باب الأبواب)، وهي تعدّ مدن إرمينية الكبرى قريبة من شيروان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٤٠).

(٣) برذعة: قصبة أران في إرمينية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١١٩ ـ ١٢٢).

(٤) الثرثورة: نهر بينه وبين برذعة نحو فرسخ واحد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٠) وابن الأثير (٣/ ٨٣).

(٥) رساتيق: جمع رستان: وهو كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك لمدن كالبصرة وبغداد، وهو أخصّ من الكورة والأستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٨).

(٦) شمكور: قلعة بنواحي أرّان، وهي مدينة قديمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٩٥).

(٧) مجمع أرس والكر: ملتقى النهرين الرس والكر، الكر: نهر بين إرمينية وأرّان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٣٧). والرّسّ: يمر بأرّان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٦٥٠).

(٨) شروان: مدينة من نواحي (باب الأبواب) بينها مائة فرسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٨٥).

(٩) مسقط: رستاق بساحل بحر الخزر دون (باب الأبواب) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٥٤).

و(الشابَران)[1] ومدينة (باب الأبواب) ثم امتنعت بعده[2].

وهكذا استعاد حبيب بن مَسْلَمَة بمعاونة سلمان فتح مناطق شاسعة من إِرْمينِيَة، وفتحا مناطق شاسعة جديدة لأول مرة، وكان هذا الفتح في سنة خمس وعشرين الهجريَّة (٦٤٥م).

لقد كان التعاون وثيقاً بين حبيب وسلمان، فكان هذا الفتح العظيم من ثمرات هذا التعاون الوثيق في هذه الغزوة العظيمة في تلك المناطق النائية عن قواعد المسلمين الرئيسة والمتقدمة.

وكل تعاون واتفاق يأتي بخير، وكل تنابذ واختلاف يؤدي إلى شر.

٥ ـ وفي سنة اثنتين وثلاثين الهجريَّة (٦٥٢م) استشهد عبد الرحمٰن بن ربيعة أخو سلمان بن ربيعة في (بَلَنْجَر)[3]، فافترق الناس الذين كانوا بقيادته فرقتين: فرقة اتجهت نحو (الباب)[4]، فلقوا سلمان الذي كان قد سيره سعيد بن العاص مدداً للمسلمين بأمر عثمان بن عفان ﷺ، فلمّا لقوه نجوا معه، وفرقة اتّجهت نحو (جيلان)[5] و(جُرْجان)[6] فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة ﷺ، وهذه الفرقة قاتلت وتكبّدت خسائر فادحة بالأرواح[7].

---

(١) الشابران: مدينة من أعمال (أرّان) بينها وبين شيروان نحو عشرين فرسخاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٠٥).

(٢) ابن الأثير (٣/ ٨٥ ـ ٨٦) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(٣) بلنجر: مدينة ببلاد الخزر خلف الباب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٧٨).

(٤) الباب: هي باب الأبواب، واسمها اليوم: دربند، مدينة من المدن الإيرانية المعروفة تقع على بحر الخزر.

(٥) جيلان: اسم بلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، وليس في جيلان مدينة كبيرة، إنما في قرية في مروج بين جبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٩٤).

(٦) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٧٥).

(٧) الطبري (٣/ ٣٥١) وابن الأثير (٣/ ١٣٢).

وفي رواية أخرى، أن سلمان كان مع أخيه عبد الرحمٰن في (بلنجر) حين استشهد، فأخذ الراية وقاتل بها، ونادى مناد، صبراً آل سلمان!، فقال سلمان: أوَ ترى جزعاً!! وخرج سلمان ومعه أبو هريرة على (جيلانّ)، فقطعوها إلى (جُرْجَان)، منسحباً من معركة خاسرة[1]، بعد أن دفن أخاه عبد الرحمٰن بنواحي (بلنجر)، وبهذا الانسحاب أنقذ سلمان البقية الباقية من جيش أخيه عبد الرحمٰن. وأرجح الرواية الثَّانية[2].

ولما أصيب عبد الرحمٰن بن ربيعة استعمل سعيد بن العاص سلمان على (الباب) واستعمل على الغزو بأهل الكوفة حُذَيْفَة بن اليمان، وأمدّهم عثمان بن عفان ﷺ بأهل الشَّام عليهم حبيب بن مَسْلَمَة. وأراد سلمان أن يتأمر على الجيش كله، فأبى حبيب حتى قال أهل الشَّام: لقد هممنا بضرب سلمان. فقال الكوفيون: إذن واللّه نضرب حبيباً ونحبسه، وإن أبيتم كثرت القتلى فينا وفيكم.

قال أوس بن مغراء في ذلك:

إن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم	وإن ترحلوا نحو بن عفان نرحل
وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا	وهذا أمير في الكتائب مقبل
ونحن ولاة الأمر كنا حماته	ليالي نرمي كل ثغر ونَعْكل[3]

وأراد حبيب أن يتأمر على صاحب (الباب) كما يتأمر أمر الجيش إذا جاء من (الكوفة)، فكان ذلك أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة وأهل

---

(١) الطبري (٣/ ٣٣٨) وابن الأثير (٣/ ١٣٢).
(٢) انظر أسباب هذا الترجيح في سيرة عبد الرحمٰن بن ربيعة الباهلي.
(٣) عكل عليه الأمر: التبس. وعكل الشيء: جمعه بعد تفرقه. وعكل الدابة: ضم رسغ يدها إلى عضدها وربطهما معاً. وهي لغة من عقل. والمعنى: أنهم ولاة الأمر وحماته الذين يهاجمون الثغور ويستولون عليها، إشارة إلى أنهم ذوو بأس شديد، انظر ابن الأثير (٣/ ١٣٣). وقد ورد عجز البيت الثالث في الطبري (٣/ ٣٥٣): ليالي نرمي كل ثغر وننكل.

الشَّام[1].

وكان من ثمرات هذا الاختلاف، أنّ التاريخ لم يحدثنا عن فتح جديد على يد حبيب أو سلمان في هذه المدة الزمنية، بل حدثنا عن استشهاد سلمان في تلك الأيام في (بلنجر) أيضاً، فكان أخوه عبد الرحمٰن السابق في الشهادة، وكان سلمان اللّاحق في الاستشهاد.

ومن الإنصاف أن نذكر أن سلمان كان على حق حين أراد أن يتأمّر على جميع الجيش لأنه أمير المنطقة ـ منطقة (الباب)، ولأن حبيباً جاءه مدداً وحلّ في منطقته، فسلمان هو الأصيل، وحبيب هو المدد، والأصيل يتأمّر على المدد كما هو معلوم.

الإنسان

كان سلمان أول من قضى بالكوفة[2]، فقد بعثه عمر بن الخطّاب ﵁ قاضياً بالكوفة قبل شُرِيْح[3]. فلمّا ولى سعد بن أبي وقّاص الكوفة الولاية الثّانية في أيام عثمان بن عفان استقضى سلمان أيضاً[4]، وقد شهد (القادسية) فقضى بها، ثم قضى بـ(المدائن)[5].

قال أبو وائل: اختلفت إلى سلمان بن ربيعة حين قدم على قضاء الكوفة أربعين صباحاً لا أجد عنده فيها خصيماً[6].

وليس كل إنسان يصلح للقضاء ـ خاصة في أيام عمر بن الخطّاب ﵁، أو يصلح لأهل الكوفة التي كانت حينذاك تعجّ برجالات العرب

---

(١) الطبري (٣/ ٣٥٣) وابن الأثير (٣/ ١٣٣) وانظر البداية والنهاية (٧/ ١٦٠).
(٢) أسد الغابة (٢/ ٣٢٧) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ٢١٠) والمعارف (٤٣٣).
(٣) الاستيعاب (٢/ ٦٣٢) والإصابة (٣/ ١١٢).
(٤) أسد الغابة (٢/ ٣٢٧).
(٥) المعارف (٤٣٣).
(٦) أسد الغابة (٢/ ٣٢٧) والاستيعاب (٢/ ٦٣٢).

وكبار الصحابة من جهة، وبأخلاط شتى من أُمم وأقوام وقبائل مختلفة من جهة أخرى، وهذا دليل على غزارة علم سلمان بالدِّين الحنيف واستقامته وعدله وتدينه، وتمتعه بعقليَّة راجحة متزنة وشخصية قوية نافذة، ممَّا جعله موضع ثقة الناس جميعاً.

كما أنه تولى المقاسم في فتح (المدائن) وفي غزوة (الباب) أيضاً، ممَّا يدلّ على تمتّعه بالنزاهة المطلقة.

كان رجلاً صالحاً يحجّ كل سنة[1]، وروى عنه بعض كبار التابعين[2]، وكان مثالاً نادراً للخلق القويم، كريماً مضيافاً شهماً غيوراً وفياً صادقاً محباً للخير، يحبّ الناس ما يحبه لنفسه، ولم يترك حين استشهد ديناراً ولا داراً، بعد أن عاش كل حياته مجاهداً وقاضياً وأميراً.

وأخيراً أكرمه اللّه بالشهادة سنة اثنتين وثلاثين الهجريَّة (٦٥٢م) أو سنة ثلاث وثلاثين الهجريَّة[3] (٦٥٣م)، فقد كان أميراً على (باب الأبواب) سنة اثنتين وثلاثين الهجريَّة[4].

القائد

لما بعث عثمان بن عفان ﷺ، كتاباً إلى الوليد بن عقبة عامله على الكوفة، يأمره به أن يرسل نجدة من أهل الكوفة إلى أهل الشَّام بقيادة

---

(١) الإصابة (٣/ ١١٢).
(٢) الاستيعاب (٢/ ٦٣٣) والإصابة (٣/ ١١٢).
(٣) جاء في أسد الغابة (٢/ ٣٢٧) والاستيعاب (٢/ ٦٣٣): أنه استشهد سنة ثمان وعشرين الهجرية في خلافة عثمان بن عفان رضي اللّه عنه، وقيل سنة تسع وعشرين، وقيل سنة ثلاثين، وقيل سنة إحدى وثلاثين. كما جاء في الإصابة (٢/ ١١٢): أنه استشهد قبل الثلاثين أو بعدها. أقول: إنه استشهد بعد سنة ثلاثين الهجرية، فقد تولى (باب الأبواب) بعد أخيه الذي استشهد سنة اثنتين وثلاثين الهجرية، انظر الطبري (٣/ ٣٥١)، فلا بد أنه استشهد في هذه السنة أو بعدها.
(٤) الطبري (٣/ ٣٥٠).

رجل: ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه، لم يتردّد الوليد لحظة في اختيار سلمان لهذا الواجب البالغ الخطورة، فاختاره من بين عدد كبير من القادة أصحاب الفتوح والأيام الذين كانوا معه أو كانوا في الكوفة، ذلك لأنّ سلمان كان حقاً مثالاً رائعاً من أمثلة النجدة والبأس والشجاعة بالإضافة إلى ورعه وتقواه.

لقد كان شجاعاً مقداماً سريعاً إلى النجدة خبيراً بفنون الحرب لممارسته الطويلة لها وله تجارب طويلة في قيادة الرجال، وكان: أبصر بالمضارب من الجازر بمفاصل الجزور[١]، ممّا يدلّ على أنه كان من الرماة الماهرين.

وكان ماهراً في الفروسية، خبيراً بالخيل، وكان يلي الخيل لعمر بن الخطّاب ﷺ، فكان يقال له: سلمان الخيل[٢]، فقد كان عمر بن الخطّاب ﷺ، قد أعدّ في كلّ مصر من أمصار المسلمين خيلاً كثيرة معدّة للجهاد، وكان في الكوفة أربعة آلاف فرس، فإذا داهم العدو الثغور الإسلاميّة، ركبها المسلمون المجاهدون وساروا مجدّين لقتاله[٣]، وكان سلمان يتولى الخيل بالكوفة[٤].

وكان سلمان أول من فرّق بين العِتَاق والهجن[٥]، فقد فرّق بينهما بالأعناق، إذ دعا بطست من ماء، فوضعت بالأرض، ثم قدّمت الخيل

---

(١) الطبري (٣/ ٣٥١) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ٢١٠).
(٢) أسد الغابة (٢/ ٣٢٧) والاستيعاب (٢/ ٦٣٢) والإصابة (٣/ ١١٢).
(٣) الطبري (٣/ ١٥٤).
(٤) أسد الغابة (٣٢٧).
(٥) الإصابة (٣/ ١١٢) والمعارف (٤٣٣). والعتاق: جمع عتيق، وجواد عتيق: فرس رائع أصيل. والهجن: جمع هجين، والهجين: غير الأصيل، والهجنة في الناس والخيل إنما تكون من قبل الأم، فإذا كان الأب عتيقاً أي كريماً والأم ليست كذلك، كان الولد هجيناً.

إليها واحداً واحداً، فما ثني سُنْبُكُه[1] ثم شرب هجّنه، وما شرب ولم يثنِ سنبكه جعله عتيقاً[2]، لأنّ أعناق الخيل العتاق طوال، فهي لا تثني سنبكها لطول أعناقها، ولأن أعناق الهجن قصار فهي لا تنال الماء إلاّ بثني سنبكها[3].

وكان شجاعاً في فروسية، قال سلمان: قتلت بسيفي هذا مائة مستلئم، كلهم يعبد غير اللَّه، ما قتلت رجلاً منهم صبراً[4].

إنه لا يقتل حتى عدوه الكافر باللَّه، الذي يعبد غير اللَّه ـ لا يقتله في ساحة القتال صبراً، بل ينذره ثم يصاوله مصاولة الأنداد، ويقتله عندما يجد فرصة لقتله، فلا يكون هذا القتل غدراً، ولا يكون صبراً.

وحمي الوطيس يوماً، واشتدّ الخطر وكثر القتل فنادى المنادي: صبراً آل سلمان بن ربيعة، فقال مستنكراً، أو ترى جزعاً!.

وكان شديد الضبط، يفرض سيطرته الكاملة على رجاله، ولا يسكت أبداً على مخالفة، وتلك مزية من أهم مزايا القائد الفذ: التمسك بالضبط المتين، وحمل المرؤوسين على الطاعة وفرض السيطرة التامة. قال أبو وائل: غزونا مع سلمان بن ربيعة (بلنجر)، فحرّج علينا أن نحمل على دواب الغنيمة، ورخّص لنا في الغربال والحبل والمنخل[5]، فهو قائد مسيطر، يتوخى المصلحة العامَّة، ولا يفرط بها قيد أنملة.

وكان من القادة الذين يبيّتون عدوهم (يهاجمونهم ليلاً)، والهجوم الليلي يحتاج إلى تمتع القطع المقاتلة بالضبط المتين والتدريب الجيد،

---

(١) السنبك: طرف الحافر.
(٢) حلية الفرسان وشعار الشجعان (٧٢)، تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢١٠).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢١٠).
(٤) الاستيعاب (٢/ ٦٣٣)، والمستلئم: الجندي الذي لبس عدّته وأصبح جاهزاً للقتال.
(٥) الاستيعاب (٢/ ٦٣٣).

وتمتّع القائد بالسيطرة الكاملة والمقدرة الفائقة والكفاية والعالية.

كما أنّ الهجوم الليلي يؤمن مبدأ: (المباغتة)، أهم مبادىء الحرب على الإطلاق. وكان يتميز بإعطاء القرارات السريعة الصائبة، يستشير رجاله، ويحبهم ويحبونه، ويثق بهم ويثقون به، له شخصية قوية نافذة وإرادة صلبة.

وكان يقود رجاله من (الأمام)، يقول لهم: اتبعوني، ولا يقودهم من (الخلف)، يقول لهم: تقدّموا، ثم يبقى هو في الخلف.

لقد كان مثالاً حياً للمجاهد الصادق المحتسب، الذي يجاهد لتكون كلمة اللّه هي العليا، لا يبالي على أي جنب كان في اللّه مصرعه، وأخيراً سقط مضرجاً بدمائه ولم يسقط السيف من يده.

إنه قدوة حسنة لكل جندي ولكل قائد في ماضيه المشرف المجيد، وفي أعماله الفذة الخالدة[1].

سلمان في التاريخ

يذكر التاريخ لسلمان أنه كان أول قاضٍ في العراق، قضى في (القادسية) و(المدائن) و(الكوفة).

ويذكر له أنه كان على القِسْمَة في (المدائن) و(باب الأبواب)، ويذكر له آثاراً جيدة في فتوح العراق وأرض الشّام.

---

(١) جاء في المعارف (٤٣٣)، ويقال إنّ عظامه عند أهل (بلنجر) في تابوت، إذا احتبس عليهم المطر أخرجوه فاستسقوا به، فسقوا. قال ابن جمانة الباهلي:

وإن لنا قبرين: قبر بلنجر ... وقبراً بأعلى الصين يا لك من قبر

فهذا الذي بالصين عمّت فتوحه ... وهذا الذي بالترك يسقى به القطر

وأراد بالقبر الذي بالصين قبر قتيبة بن مسلم الباهلي. أقول: وهذا دليل على مبلغ اعتزاز الناس بسلمان حياً وميتاً.

ويذكر له فتوحاته في (أذربيجان) و(إِرْمينِيَة) وبلاد (الخزر).

ويذكر له مسارعته في نجدة أهل الشَّام عندما أحدق بهم خطر الرّوم من الشمال، فخشي المسلمون أن يستعيد منهم الرّوم (أرض الشَّام).

ويذكر له أنه ضحى بنفسه من أجل مبادئه، ولم يضح بمبادئه من أجل نفسه، فجاد بروحه مقبلاً غير مدبر، ونام نومه الأبدي في منطقة نائية عن بلاده وأهله، ولكنه ظل قريباً من نفوسهم ونفوس العرب والمسلمين كافة.

رضي اللَّه عن الفقيه المحدّث، القاضي العادل، الأمين النزيه، الإداري الحازم، الفارس المغوار، البطل الشهيد، القائد الفاتح سلمان بن ربيعة الباهليّ.

مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان
فاتح شطر الأنضول[1]
ومحاصر القُسْطَنْطينيَّة[2]

الفصل الأول

نسبه وأيامه

هو مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصيّ القرشي الأموي[3].

---

(١) الأنضول أو الأنطول، لفظة يونانية، معناها: المشرق، اسم لشبه جزيرة كبيرة، هي عبارة عن آسيا الصغرى كما نطلق عليها اليوم. يحدها من الشمال الغربي الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود، ومن الشرق جبال إرمينية وفروعها الجنوبية إلى الإسكندورنة، ومن الجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب الأرخبيل اليوناني، وهي ما نسميه: تركيا، عدا القسم الأوروبي منها، انظر التفاصيل في منجم العمران (٢/ ٦٣ ـ ٦٥) والجغرافية العمومية (١٨١ ـ ١٨٥).

(٢) القسطنطينية: مدينة شهيرة جداً، كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الشرقية، بناها قسطنطين سنة (٣٣٠م)، وهي مسوّرة بسور حصين، ارتفاعه ما بين أربعة عشر قدماً وعشرين قدماً، ومحيطها أكثر من اثني عشر ميلاً، انظر التفاصيل في منجم العمران (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠١).

(٣) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ ـ ١٠٥) وفوات الوفيات (٢/ ٣١) وقادة فتح المغرب العربي (٢/ ٩٥).

أبوه: أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان[1]، وأمه من أمهات الأولاد[2]، ويريدون بكلمة أمهات الأولاد: الجواري والإماء اللّواتي ولدن لمواليهن ذكراناً.

وقد ذكر الإمام أبن حَزْم الأندلسي[3] في رسالته: (أسماء الخلفاء والولاة وذكر مُدَدِهم) ما نصه: وفي أيامه ـ يريد أيام سليمان بن عبد الملك ـ حوصرت (القُسْطَنْطينيَّة)، وحاصرها أخوه مَسْلَمَة، وسنُّ مَسْلَمَة أربع وعشرون سنة[4]، وكان حصار القُسْطَنْطينيَّة سنة ثمان وتسعين الهجريَّة[5] (٧١٧م).

ومعنى ذلك أنّ مَسْلَمَة ولد سنة أربع وسبعين الهجريَّة (٦٩٣م).

ولست مع الإمام ابن حزم الأندلسي فيما ذهب إليه، لأنّ أوّل قيادة تولاّها مَسْلَمَة كانت سنة ست وثمانين الهجريَّة[6]، وليس من المعقول أن يتولى مَسْلَمَة قيادة جيش من جيوش المسلمين في أخطر جبهة من جبهات القتال بالنسبة للدولة الأموية، وهي جبهة مقاتلة الرّوم في عقر دارهم، وهو في سن الثَّانية عشرة!!

والمعقول أن يكون عمره حينذاك عشرين سنة على الأقل، أي أنّ ولادة مَسْلَمَة كانت حوالي سنة ست وستين الهجريَّة (٦٨٥م) لا سنة أربع وسبعين الهجريَّة.

---

(١) انظر سيرته المفصلة في: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٩٥ ـ ١٥٢).
(٢) ابن الأثير (٤/ ٥١٩) وابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٩٢) ـ تاريخ ـ (٢٢/ ٤٨٩) وانظر الطبري (٦/ ٤٢٠).
(٣) الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٤ هـ ـ ٤٥٦هـ).
(٤) أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم (٣٦٢) ـ ملحق جوامع السيرة.
(٥) ابن الأثير (٥/ ٢٧) وابن خلدون (٣/ ١٥٥) وفتح القسطنطينية (٣٨) والإمبراطورية البيزنطية (٣٦٦).
(٦) ابن الأثير (٤/ ٥٢٤) والعبر (١/ ١٠١).

ومهما يكن من أمرِ تاريخ مولد مَسْلَمَة الذي أغفله المؤرخون، فإن أبناء الخلفاء لم يكونوا يتولون القيادة ويشهدون المعارك الطاحنة قبل أن يبلغوا السادسة عشرة من سنيّ حياتهم، ولكنهم لا يتأخرون عن العشرين إلاّ نادراً، خاصة إذا كانوا من ذوي الكفايات القيادية العالية التي تظهر عليهم مبكراً، كما هو الحال في مَسْلَمَة وأمثاله من بني أميّة ومن الذين تولوا القيادات العسكريَّة في عهدهم كمحمد بن القاسم الثقفيّ[1] الذي تولى القيادة وعمره سبع عشرة سنة كما هو معروف.

نشأ مَسْلَمَة وترعرع في ظروف ملائمة لاستكمال متطلبات شخصيته فكرياً وإدارياً وسياسيّاً وعسكريّاً، فهو من بيت السلطة والملك ـ بني أميّة ـ وأهله أمراء وقادة وخلفاء، وظروفهم الإدارية والعسكريَّة والسياسية لا تخلو من مشاكل وصعوبات تعين على التعلّم والتدريب، وكان التعليم لاستيعاب الثقافة المتيسّرة حينذاك ميسوراً لبني أميّة ولغيرهم من الناس، لذلك نشأ في دمشق عاصمة الخلافة ليتعلم القرآن ويروي الحديث ويحفظ الأخبار ويتقن علوم اللّغة وفنون الأدب شعراً ونثراً، ثم ليمارس القضايا الإدارية والسياسية عن كثب ويرى كيف تُصرّف الأمور وتعطى القرارات. كما تدرب على ركوب الخيل والفروسية والسباحة والرمي بالنبال والضرب بالسيف والطعن بالسنان، حتى أضحى في الميادين الثقافية والإدارية والسياسية والعسكريَّة ذا مرتبة سامية ومكانة مرموقة ومنزلة رفيعة.

ولعلّ ممّا زاد في فرص مَسْلَمَة وتدريبه، أنه تلقّى علومه وتدريبه في كنف والده أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بعد استقرار ملكه في الدَّولة الإسلاميَّة واستعادة (الوحدة) سنة ثلاث وسبعين الهجريَّة، إذ قضى على الخوارج في (البحرين) وأعاد بناء (الكعبة) بمكّة المكرّمة على ما كانت عليه قبل عبد اللّه بن الزبير، فانطلقت الجيوش الإسلاميَّة لفتح

---

(١) انظر سيرته في مجلة المجمع العلمي العراقي ـ المجلد السادس عشر (١٢٧ ـ ٢٤٨) ـ بغداد ١٣٨. وهو ضمن القادة الذين يشملهم كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.

واسترداد المناطق التي سُيْطِر عليها في إيران وبلاد الرّوم وإفريقية، وكان من ثمرات استعادة (الوحدة) أن أعادت الدَّولة الإسلاميَّة بقيادة عبد الملك ـ بعد ما عاناه من فتن داخلية واضطرابات وحروب أهلية ومشاكل خارجية ـ كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون، بعد ما كان عبد الملك يدفع الأتاوة لإمبراطور القُسْطَنْطينيَّة منذ تولّيه الخلافة حتى استعادة (الوحدة) وكان يدفعها له أيام الفتن الداخلية والحروب الأهلية[1].

وتربى مَسْلَمَة في كنف أبيه بعد استعادة (الوحدة) للدولة الإسلاميَّة بجو كله استقرار وأمن ودعة وبناء علمي وإداري وسياسي وعسكري، في بداية العصر الذهبي لحكم بني أمية، برعاية والده الحصيف العالم الداهية الذي يُعَدُّ بحق أبرز خلفاء بني أميّة في الشَّام علماً وعملاً ومقدرة وذكاءً، فأفاد مَسْلَمَة من رعاية والده في وقت تفرّغ فيه عبد الملك لرعاية شؤونه الخاصة أكثر من السابق ـ يوم كان في دوامة الفتن والقلاقل والاضطرابات ـ وبقي يحظى بالرعاية الأبوية والعائلية الكاملة، حتى توفي عبد الملك سنة ست وثمانين الهجريَّة (١٢) (٧٠٥م)، فأرسى عبد الملك أسس شخصية ابنه مَسْلَمَة، وبدت ملامحها واضحة جليّة في وقت مبكّر من عمره، تلك الأسس التي كانت عبارة عن: الدِّين والتفقه فيه والتمسك بتعالميه، والعربيَّة وإتقان علومها، والسياسة وممارسة قضاياها، والإدارة وحلّ مشاكلها، والعسكريَّة والتدريب على متطلباتها، فكان مَسْلَمَة بحق نسخة طبق الأصل من والده عبد الملك وأشبه الناس به عدا الخلافة التي حرم منها، لأن أمّه من أمهات الأولاد، وكان لا يتولى الخلافة إلا أموي أمه عربية حرة، بالرغم من: إنه كان أحق بالملك من سائر إخوته[2].

---

(١) انظر التفاصيل في: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ١١٣ ـ ١١٤) وانظر ابن خلدون (٣/ ١٥٢).

(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٩١) وتاريخ الخميس (١/ ٣١١).

وحين اشتد مرض عبد الملك جمع بنيه وهو على فراش الموت وأوصاهم قائلاً: أوصيكم بتقوى اللّه، فإنها أزين حلية وأحصن كهف ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حقَّ الكبير، وانظروا مَسْلَمَة[1] فأصدروا عن رأيه، فإنه نابكم[2] الذي عنه ترمون، وأكرموا الحجاج فإنه الذي وطّأ لكم المنابر، ودوَّخ لكم البلاد، وأذلَ الأعداء. وكونوا بني أم بُرْدة لا تدبّ بينكم العقارب، وكونوا في الحرب أمراراً، فإن القتال لا يقرِّب ميتة، وكونوا للمعروف مناراً، فإنّ المعروف يبقى أجره وذكره[3]، وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب، فإنهم أصون له وأشكر لمّا يُوتَى إليهم منه، وتمغدوا[4] ذنوب أهل الذنوب، فإن استقالوا فأقيلوا، وإن عادوا فانتقموا[5].

لم يذكر الخليفة الداهية عبد الملك بن مروان في وصيته لبنيه وهو يحتضر تلك الوصية التي تعتبر خلاصة تجاربه في الحياة، صاغها بكلمات معدودات ـ لم يذكر غير مَسْلَمَة من بين أولاده، وقد ذكره بالثناء العاطر والتقدير البالغ، ممَّا يدل على مبلغ ثقته به واعتماده عليه.

وليس من السهل على أحد أن يستحوذ على ثقة شخصية فذّة واعية كعبد الملك، ولولا أنّ مَسْلَمَة كان حَرِيّاً بالثقة الكاملة والاعتماد المطلق، لمّا أشاد به أبوه ـ وهو على فراش الموت ـ هذه الإشادة النادرة.

لقد تهيّأ لمَسْلَمَة الطبع الموهوب والعلم المكتسب والتجربة العملية، فنال ما نال من تقدير والده بخاصة وأهل بيته بعامَّة والمؤرخين من بعده، فكان الرجل المناسب للمناصب المناسبة التي تولاها سياسيّاً وإداريّاً وعسكريّاً.

---

(١) دول الإسلام (١/ ٦٢) وانظر الأعلام (٨/ ١٢) ومسلمة بن عبد الملك (٤٥).

(٢) الناب: السن في جانب الرباعية، وللإنسان نابان في كل فك. وناب القوم: سيدهم.

(٣) في رواية: ذخره.

(٤) تمغد الشيء: امتصه، استوعبه.

(٥) ابن الأثير (٤/ ١١٧ ـ ١١٨).

الفصل الثّاني

جهاده

١ ـ أرض الروم

أ ـ في سنة ست وثمانين الهجريَّة (٧٠٥م) غزا مَسْلَمَة أرض الروم[١]، وفي سنة سبع وثمانين الهجريَّة (٧٠٦م) غزا الرّوم فأثخن فيهم بناحية (المَصِّيْصَة)[٢] وفتح حصوناً كثيرة منها: حصن (بُولَق) و(الأخْرم)[٣] و(بُولُس) و(قَمْقِيم)[٤] وقتل من المستعربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم[٥].

ب ـ وفي سنة ثمان وثمانين الهجريَّة (٧٠٧م) غزا مَسْلَمَة والعباس بن الوليد بن عبد الملك بلاد الرّوم، وكان الوليد بن عبد الملك قد كتب إلى صاحب (إِرْمِينِيَة) يأمره أن يكتب إلى ملك الرّوم يُعَرِّفه أنّ (الخَزَر) وغيرهم من ملوك جبال (أرمينية) قد أجمعوا على قصد بلاده، ففعل ذلك، وأكثر الوليد من قواته القاصدة أرض الرّوم، فساروا نحو

---

(١) الطبري (٦/ ٤٢٦) وابن الأثير (٤/ ٥٢٤) وابن خلدون (٣/ ١٥٣)، والنجوم الزاهرة، وفيه افتتح مسلمة بن عبد الملك حصن بولق وحصن الأخرم، وانظر العبر (١/ ١٩١) وفيه: افتتح مسلمة حصنين في بلاد الروم، وفي تاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ٣٠٢): وأول ما ولي غزو الروم في آخر دولة أبيه، فافتتح ثلاثة حصون، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢٩٣).

(٢) المصيصة: مدينة على شاطىء نهر (جيحان) من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم وتقارب طرسوس، وكانت ذات سور وخمسة أبواب، انظر معجم البلدان (٨/ ٨٠) والمسالك والممالك (٤٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) وكانت تسمى (Mopsuestia).

(٣) انظر الطبري (٦/ ٤٢٩) وابن الأثير (٤/ ٥٢٨)، وفي ابن خلدون (٣/ ١٥٥): الأخزم، وهو حصن في منطقة المصيصة لا ذكر له في الكتب الجغرافية التي بين أيدينا.

(٤) قمقيم: وردت كذا في ابن خلدون (٣/ ١٥٤)، ووردت في الطبري (٦/ ٤٢٩) وابن الأثير (٤/ ٥٢٨): قمقم.

(٥) ابن خلدون (٣/ ١٥٥)، وانظر الطبري (٦/ ٤٢٩) وابن الأثير (٤/ ٥٢٨)، وحصون بولق والأخرم وبولس وقمقم لا ذكر لها في الكتب الجغرافية القديمة التي بين أيدينا، ومن الواضح أنها حصون صغيرة في المنطقة الجبلية المحيطة بالمصيصة.

(جزيرة ابن عمر) ثم عطفوا منها إلى بلاد الرّوم. واصطدم الطرفان، فانهزم الرّوم، ثم أعادوا الكرّة فانهزم المسلمون، ولكن العباس بن الوليد بن عبد الملك ثبت على رأس (السّاقة) صارخاً: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنّة؟!، فقيل له: نادهم يأتوك، فنادى يا أهل القرآن! فأقبلوا جميعاً، فهزم اللّه الرّوم حتى دخلوا (طُوانَة)[1]. وحاصرهم المسلمون في هذه المدينة، وفتحوها في جمادى الأولى من هذه السنة وشتوا فيها[2]، كما فتح مَسْلَمَة في هذه السنة (حرثومة)[3]، وفي هذه السنة غزا مَسْلَمَة الرّوم أيضاً ففتح ثلاثة حصون: أحدها حصن (قُسْطَنْطِين) و(غزالة) و(الأخرم) وقتل من المستعربة نحواً من ألف وأخذ الأموال[4].

وقد تكرر فتح حصن (الأخرم) سنة سبع وثمانين وثمان وثمانين الهجريتين، ومن المحتمل أن الرّوم استعادوه فعاد إليه مَسْلَمَة وفتحه ثانية.

ج ـ وفي سنة تسع وثمانين الهجريَّة (٧٠٨م)، غزا مَسْلَمَة والعباس بن الوليد بن عبد الملك الرّوم، فافتتح مَسْلَمَة حصن (عَمُوريّة)[5] ولقي من الرّوم جمعاً فهزمهم. وقيل: إن مَسْلَمَة قصد (عمورية)، فلقي جمعاً من الرّوم كثيراً، وافتتح (هِرَقْلة)[6] و(قَمُوْنِيَة)[7].

---

(١) طوانة: بلد بثغور المصيصة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٦٥) والعبر (١/ ١٩٣) وفي المعارف (٣٥٩): وفي سنة ثمان وثمانين فتحت الطوانة ● وكانت تسمى (Tyana).

(٢) الطبري (٦/ ٤٣٤) وابن الأثير (٤/ ٥٣١) والعبر (١/ ١٠٣) وفي الطبري (٦/ ٤٣٤): أن فتح طوانة كان في جمادى الآخرة.

(٣) العبر (١/ ١٠٣) والظاهر أنها قرية أو بليدة في منطقة طوانة لا ذكر لها في الكتب الجغرافية القديمة التي بين أيدينا.

(٤) في الطبري (٦/ ٤٣٦): حصن قسطنطينية، وانظر ابن الأثير (٤/ ٥٣٢).

(٥) عمورية: بلدة من الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٦ ـ ٢٧)، وكان اسمها: Ammorium.

(٦) هرقلة: مدينة ببلاد الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤) وكانت تسمى Heraclia.

(٧) الطبري (٦/ ٤٣٥): وفيه قمودية وابن الأثير (٤/ ٤٣٤)، وفي ابن خلدون (٣/ ١٥٤) =

وفي هذه السنة أيضاً، غزا مَسْلَمَة الترك حتى بلغ (الباب)[١] من ناحية (أذَرْبيجان)[٢]، ففتح حصوناً ومدائن هناك[٣].

د ـ وفي سنة تسعين (٧٠٩م)، غزا مَسْلَمَة أرض الرّوم، ففتح

= قمولية: ولم أجد لقمونية ذكراً في الكتب الجغرافية التي بين أيدينا في منطقة بلاد الروم، بل ذكرها في إفريقية: انظر معجم البلدان (٧/ ١٦٢).

(١) الباب: مدينة باب الأبواب، ميناء كبير على بحر الخزر، وهي مدينة كبيرة محصنة، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١٠٩ ـ ١١٩) ومعجم البلدان (٢/ ٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٦)، وهي مدينة دربند كما يطلق عليها في الوقت الحاضر.

(٢) أذربيجان: كلمة أذربيجان في الفارسية معناها: أرض النار أو معابد النار، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك. وأذربيجان: صقع جليل ومملكة عظيمة، والغالب عليها الجبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٥٩) والمسالك والممالك للإصطخري (١٠٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤).

(٣) الطبري (٦/ ٤٤١) وابن الأثير (٤/ ٤٤٩) وابن خلدون (٣/ ١٤٤). وفي فتوح البلدان (٢١٨): ولما كانت سنة (٨٩) اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم، وأتاهم قوم من الروم من قبل الإسكندرونة ورودس، فوجه الوليد بن عبد الملك إليهم مسلمة بن عبد الملك، فأناخ عليهم في حلق من الخلق، فافتتحها على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجري على كل امرىء منهم ثمانية دنانير، وعلى عيالاتهم القوت والقمح والزيت، وهومديان من قمح، وقسطان من زيت، وعلى أن لا يكرهوا ولا أحد من أولادهم على ترك النصرانية، على أن يلبسوا لباس المسلمين، ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينقلوا أسلاب من يقتلون مبارزة، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين، فأخرب مدينتهم ونزلوا مناطق (حمص)، ونزل بطريق الجُرجُومة في جماعة معه أنطاكية، ثم هرب إلى بلاد الروم... انتهى.
وفي معجم البلدان (٣/ ٨٠): الجرجومة: مدينة يقال لأهلها الجراجمة، كانت على جبل اللكام بالثغر الشامي فيما بين بياس وبوقة قرب أنطاكية. والجراجمة: جبل... انتهى.
أقول: هؤلاء كانوا يسكنون ما يسمى: جبل لبنان في الوقت الحاضر مع امتداده إلى أنطاكية وكانوا نصارى وما يزالون، ولكن من الصعب تصديق: أن مسلمة نهض بالقضاء على هذه الفتنة الداخلية سنة (٨٩) هـ، لأنه كان مشغولاً في تلك الأيام بغزوتين كبيرتين، ومن المحتمل أنه قضى عليها في فرصة سنحت له قبل خوضه لتلك الغزوتين أو بعدهما.
وفي تاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢): غزا مسلمة (عمورية) والتقى بالمشركين فهزمهم.

الحصون الخمسة التي بـ(سُورِيّة)[1]، ومن تدقيق سير الفتح الذي نهض به مَسْلَمَة في تلك الأيام يتّضح أنّ الحصون الخمسة تقع شمالي (جزيرة ابن عمر) متاخمة لمدينة (ديار بكر) من الشمال.

هـ - وفي سنة إحدى وتسعين الهجريَّة (٧٠٩م) غزا عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الصائفة[2]، وكان على ذلك الجيش مَسْلَمَة. وفيها عزل الوليد بن عبد الملك عمّه محمد بن مروان بن الحكم عن (الجزيرة) و(إِرْمينِيَة) واستعمل عليها أخاه مَسْلَمَة، فغزا مَسْلَمَة الترك من ناحية (أذربيجان) حتى بلغ (الباب)، وفتح مدائن وحصوناً ونصب عليها المجانيق[3].

و - وفي سنة اثنتين وتسعين الهجريَّة (٧١٠م) غزا مَسْلَمَة أرض الرّوم، ففتح حصوناً ثلاثة، وجلا أهل (سُوسَنة) إلى بلاد الروم[4].

ز - وفي سنة ثلاث وتسعين الهجريَّة (٧١١م) غزا مَسْلَمَة الرّوم،

---

(١) الطبري (٦/ ٤٤٢) وابن الأثير (٤/ ٥٤٧) وابن خلدون (٣/ ١٥٤) والنجوم الزاهرة (١/ ٢١) والعبر (١/ ١٠٤). وسورية: موضع بالشام بين خناصرة وسلمية والعامة تسميها: سوية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧١) ومن الواضح أن الحصون الخمسة التي فتحها في سورية هي التي تقع في الإقليم المتاخم لجزيرة ابن عمر من الشمال، أي شمالي مدينة ديار بكر الحالية الواقعة في الجمهورية التركية، وانظر تاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢) وانظر تاريخ ابن خياط (١/ ٣٠٦).

(٢) الصائفة: الغزوة في الصيف، وبها سميت غزوة الروم، لأنهم كانوا يغزون صيفاً إتقاء البرد والثلج.

(٣) الطبري (٦/ ٤٥٤) وابن الأثير (٤/ ٥٥٥) وابن خلدون (٣/ ١٥٤) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٢) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢).

(٤) الطبري (٦/ ٤٦٨) وابن الأثير (٤/ ٥٦٩) وابن خلدون (٣/ ١٤٥) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢)، وسوسنة حصن من حصون الروم، هو أكبر الحصون التي فتحها مسلمة في تلك الغزوة، وفي النجوم الزاهرة (١/ ٢٢٥) نص على: ويقال إنه بلغ الخليج، والخليج بحر دون القسطنطينية، انظر معجم البلدان (٣/ ٤٦٠)، ومعنى هذا أن سوسنة تقع في المنطقة الجنوبية لمدينة القسطنطينية وأحد الحصون المنيعة للدفاع عنها من الجنوب.

فافتتح (ماسة) وحصن (الحديد) و(غزالة) و(بَرْجَمة)[1] من ناحية (مَلَطْيَة)[2]، وكان مَسْلَمَة قد فتح حصن (الغزالة) سنة ثمان وثمانين الهجريَّة كما ذكرنا سابقاً، والظاهر أنّ الرّوم استردوها من المسلمين فاستعادها مَسْلَمَة ثانية.

ح - وفي سنة أربع وتسعين الهجريَّة (٧١٢م)، غزا مَسْلَمَة أرض الرّوم، ففتح (سَنْدَرَة)[3]، وهي حصن من حصون الرّوم التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن عاصمتهم (القُسْطَنطينيَّة) من الجنوب، ومن الغزو مباشرة عاد مَسْلَمَة إلى الديار المقدسة، فحج بالناس في هذه السنة[4].

ط - وفي سنة خمس وتسعين الهجريَّة (٧١٣م)، غزا مَسْلَمَة مدينة (باب الأبواب) وفتحها وخرّبها ثم بناها بعد ذلك[5] بعشر سنين[6] أو تسع سنين[7]. وكانت هذه المدينة للمسلمين من قبل، وقد انتقض أهلها فأعادها مَسْلَمَة للمسلمين.

ي - وفي سنة ست وتسعين الهجريَّة (٧١٤م) غزا مَسْلَمَة الصّائفة[8] في بلاد الرّوم.

---

(١) برجمة: حصن الروم، ورد ذكره في شعر جرير، انظر معجم البلدان (٢/ ١١٢).

(٢) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم بلاد الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٥٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٩٧)، والبلدان (٢٥) لابن الفقيه وتقويم البلدان (٣٨٤)، وانظر ما جاء عن هذه الغزوة في الطبري (٦/ ٤٦٩) وابن الأثير (٤/ ٥٧٨) وابن خلدون (٣/ ١٥٤) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٦) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٠٩).

(٣) العبر (٦/ ١٠٩)، ولا ذكر لسندرة هذه في الكتب الجغرافية القديمة.

(٤) الطبري (٦/ ٤٩١) وابن الأثير (٤/ ٥٨٢) وانظر تاريخ ابن خياط (١/ ١٣٠).

(٥) النجوم الزاهرة (١/ ٢٢٩) والبداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

(٦) البداية والنهاية (٩/ ١١٧)، والصحيح بتسع سنين لأنه بناها سنة ثلاث عشرة الهجرية، انظر المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣١١).

(٧) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

(٨) البداية والنهاية (٩/ ١٤٢) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٣٣) وتاريخ ابن خياط (١/ ٣١٨).

ك ـ وفي سنة سبع وتسعين الهجريَّة (٧١٥م)، غزا مَسْلَمَة أرض (الوضّاحيّة)، ففتح الحصن الذي فتحه الوضاح[١]. وفيها أيضاً غزا مَسْلَمَة (بَرْجَمَة) وحصن (ابن عوف) وافتتح أيضاً حصن (الحديد) و(سَرُورَا)[٢] وشتى بأرض الروم[٣]، وكان مَسْلَمَة قد فتح حصن (الحديد) وحصن (برجمة) سنة ثلاث وتسعين الهجريَّة كما ذكرنا، والظاهر أنّ هذين الحصنين انتقضا، فأعادهما مَسْلَمَة للمسلمين سنة سبع وتسعين الهجريَّة.

٢ ـ حصار القُسْطَنْطينيَّة

١ ـ أدرك المسلمون أنّ حدودهم الشماليَّة الغربيَّة مهدّدة بالرّوم، وأنّ فتح القُسْطَنْطينيَّة يزيح عن كاهل الفاتحين أعباء الدِّفاع عن تلك الحدود، ويجعلها حدوداً مستقرة آمنة كما أن أرض الشَّام وفلسطين والأردن وسوريَّة ولبنان من جهة، ومصر والمغرب العربي من جهة أخرى، كانت من أملاك الإمبراطورية البيزنطية الشرقيَّة التي كانت عاصمتها القُسْطَنْطينيَّة، وقد عانى المسلمون ما عانوا من أهوال ومصاعب في فتحها والحفاظ عليها، وما دامت القُسْطَنْطينيَّة بيد الرّوم، فهذه الأصقاع الواسعة معرضة للغزو، وكلّما ضعف المسلمون أو تفرّق شملهم قوي الرّوم واشتدّ ساعدهم.

لذلك جرت عدّة محاولات لفتح هذه المدينة، لأنها القاعدة الرئيسة للرّوم.

أول تلك المحاولات جرت سنة اثنتين وثلاثين الهجريَّة (٦٥٠م) في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكانت هذه الحملة بقيادة معاوية بن أبي

---

(١) الوضاح: قائد من قادة مسلمة، انظر ابن الأثير (٥/ ٨١ ـ ٨٢)، والظاهر أنه من القادة المرؤوسين غير المشهورين، وانظر ابن الأثير (٥/ ٢٦) حول هذا الفتح.

(٢) برجمة وحصن ابن عوف وحصن الحديد وسرورا، حصون في منطقة (ملطية)، انظر الطبري (٦/ ٤٦٩) وابن الأثير (٥٧٨) وابن خلدون (٣/ ١٥٤).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٧٠) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥)، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣١٩).

سفيان أمير الشَّام آنذاك[1]، فاخترق آسيا الصغرى حتى ضفاف البسفور، كما قصدها أسطول إسلامي بقيادة بُسْر بن أبي أرْطأة لدعم الجيش الإسلامي البري، فتحرك من طرابلس الغرب صوب القُسْطَنْطينيَّة، ولكن هذه المحاولة لم تنجح[2].

وفي سنة أربع وأربعين الهجريَّة (٦٦٤م) كانت الحملة الثَّانية في عهد معاوية بن أبي سفيان حين أصبح خليفة، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضاً.

والمحاولة الثالثة جرت في أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان أيضاً سنة تسع وأربعين الهجريَّة (٦٦٩م) وكانت المحاولة بقيادة سفيان بن عوف ومعه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان[3].

ولكن هذه الحملات لم يكتب لها النجاح[4].

وفي سنة سبع وتسعين الهجريَّة (٧١٥م) بدأ سليمان بن عبد الملك بتجهيز الجيوش لفتح القُسْطَنْطينيَّة[5] بعد أشهر معدودات من توليه

---

(١) العبر (١/ ٣٢).

(٢) ابن الأثير (٣/ ٥٠).

(٣) العبر (١/ ٥٦)، وشارك في هذه الحملة عدد من كبار الصحابة، منهم: الحسين بن علي ﷺ، وأبو أيوب الأنصاري الذي توفي في أثناء الحصار ودفن قرب القسطنطينية حيث يوجد قبره الآن، وعبد اللّه بن العباس وعبد اللّه بن الزبير وعبد اللّه بن عمر ﷺ.

(٤) بعد حصار القسطنطينية سنة خمسين الهجرية وإخفاق هذا الحصار، عسكر المسلمون في ميناء كيزيكوس (Cyzicos) واتخذوه قاعدة أمامية لأعمالهم العسكرية في سبع سنوات، وإلى ذلك يشير ابن الأثير في حوادث سنة أربع وخمسين الهجرية: وفيها كان مشتى محمد بن مالك بأرض الروم وصائفة معن بن يزيد السلمي، وفيها فتح المسلمون ومقدمهم جنادة بن أبي أمية جزيرة (أرواد) قرب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين، وكان معهم مجاهد بن جبر فلما مات معاوية وولي ابنه يزيد أمرهم بالعودة فعادوا قرب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين، انظر ابن الأثير (٣/ ٤٩٧)، ومما يفهم منه أن المراد بجزيرة (أرواد) هي جزيرة (كيزيكوس).

(٥) النجوم الزاهرة (١/ ٢٣٥)، وابن خلدون (٣/ ١٥٥)، والبداية والنهاية (٩/ ١٦٩) وأبو الفدا (١/ ٢٠٠) وانظر الطبري (٦/ ٥٢٣).

الخلافة، فقد توفي سلفه الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين الهجريَّة (أواخر شباط ـ فبراير ـ ٧١٥م)، فاقتفى سليمان خطة سلفه بضرب عاصمة الرّوم ضربة كبيرة بقوة جسيمة[١] تلك الخطة التي لم يستطع سلفه تحقيقها في أيامه لانشغال جيوشه في حمل مهمة الفتح في جبهات مختلفة شرقاً وغرباً وشمالاً، بالرغم من أنه مهّد لفتح القُسْطَنْطينيَّة بتعرضه المستمر طيلة أيام حكمه بالجبهة الرومية على حدود دولته من الشمال، ففتح كثيراً من بلاد الرّوم وأضعف جبهتهم، ولولا هذا التمهيد لمّا استطاع سليمان أن يفعل شيئاً.

ب ـ وكان حرص سليمان على فتح القُسْطَنْطينيَّة عظيماً، حتى كأنه لم يتول الملك أو لم يخلق إلاّ لتحقيق هذا الحلم الذي راود الخلفاء من أيام عثمان بن عفان ﷺ إلى أيامه. والواقع هو أن الخلفاء جميعاً الذين واتتهم ظروفهم الداخلية والخارجية فكروا في فتح القُسْطَنْطينيَّة، والسبب أن البيزنطيين لم ينسوا أبداً البلاد الشاسعة الغنيَّة التي كانت تابعة لهم وفتحها المسلمون، وأنهم بذلوا قصارى جهدهم لاستردادها، وأن هذه البلاد آمنة من غزو الرّوم واستردادها ما بقيت للرّوم دولة عاصمتها القُسْطَنْطينيَّة، وهي البلدة الحصينة التي يسهل الدِّفاع عنها براً وبحراً، وهي القاعدة الرئيسية لعمليَّاتهم العسكريَّة.

---

(١) ولها وزن ـ الدولة العربية وسقوطها (٢٠٩)، والواقع أن المسلمين كانوا يستهدفون فتح القسطنطينية، فقد ذكر (فازلييف) في تاريخه الكبير للدولة البيزنطية، أن العرب بعد أن أخفقوا في الاستيلاء على القسطنطينية سنة (٦٧٠م) في عهد قسطنطين الرابع (٦٦٨ ـ ٦٨٢م)، بسبب استعمال الروم للنار الإغريقية التي اخترعها إذ ذاك رجل سوري يدعى (جالينيكوس) ظلوا يترددون على القسطنطينية كل عام حتى سنة (٦٧٧م)، وقد مني الأسطول العربي بكارثة كبيرة، إذ هَبّت عليه عاصفة عنيفة، فتحطمت معظم سفنه على الشاطىء الشمالي لآسيا الصغرى. وفي نفس الوقت أخفقت كل المحاولات البرية التي قام بها العرب إذ ذاك، فاضطر الخليفة إلى استرجاع جنده وعقد معاهدة مع الدولة البيزنطية تعهدت الدولة بمقتضاها أن تدفع له ضريبة سنوية. انظر (Vasilier: Hist. de Empire. Byzntin I.PP ٢٨٣ ـ ٢٨٤).

وكانت الخطة السّوقية[١] للمسلمين تتلخّص في مهاجمة الرّوم في عقر دارهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لأنّ الهجوم هو أنجع وسائل الدِّفاع.

وأمضى سليمان سنة سبع وتسعين الهجريَّة في إعداد قواته الضاربة مادياً ومعنوياً، لتكون قادرة على النهوض بواجب فتح القُسْطَنْطينيَّة[٢].

واستشار سليمان القادة المجربين، ومنهم موسى بن نصير اللّخمي[٣] عن الخطة المناسبة لفتح القُسْطَنْطينيَّة، فأشار عليه موسى بأن يفتح ما دونها من المدن والرساتيق[٤] والحصون حتى يبلغ المدينة، فلا يأتيها إلا وقد هدمت حصونها، ووهنت قوتها، وقال موسى، فإذا فعلت ذلك، لم يبق بينك وبينها مانع، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد[٥].

ثم استشار أخاه مَسْلَمَة، فأشار عليه بأن يدع ما دونها من البلاد ويفتحها عَنْوة، فمتى ما فتحت فإنّ باقي ما دونها من البلاد والحصون تصبح بيد المسلمين، فقال سليمان: هذا هو الرأي[٦].

وأمضى الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة يعمل بكل جد ونشاط

---

(١) السوقية: الإستراتيجية (Strategy)، انظر المعجم العسكري الموحد (٨٤٢) ـ إنكليزي ـ عربي.

(٢) ورد في تاريخ: العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٤): وقيل: إن سليمان لما ولي الخلافة حدثه جماعة من العلماء، أنّ الخليفة الذي يفتح القسطنطينية اسمه اسم نبي، ولم يكن من ملوك بني أمية من اسمه نبي غيره، فطمع فيها، فاستعد لذلك، ولم يشك أنه يلي ذلك.

(٣) انظر سيرته في: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢١ ـ ٣٠٩).

(٤) الرساتيق: جمع رستاق، وهي كلمة فارسية، وهو كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك لمدن كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٧ ـ ٣٨).

(٥) انظر البداية والنهاية (٩/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

(٦) انظر البداية والنهاية (٩/ ١٧٥)، العنوة: أخذ الشيء بالغلبة، وهو ضد الصلح، انظر معجم البلدان (١/ ٤٠).

وعزم لإنجاز استحضارات قواه وإعدادها للجهاد، وكان الخليفة حين يعتزم أمراً خطيراً له ما بعده في مجال الإعداد العسكري تطبيقاً لخطة سَوْقِيَة، يكتب إلى امرائه على الأمصار ليعدّ كل أمير أو وال الجيش المناسب للعمل العسكري المناسب، وهذا ما فعله سليمان سنة سبع وتسعين الهجريَّة، واتّخذ من مدينة (دابِق)[1] بعيداً عن عاصمة (دمشق) مقراً له، لئلا يشغل بأمور الدَّولة الأخرى، وليكون كل وقته من أجل إعداد القوات العسكريَّة القادرة على الفتح، إذ تفرّغ لهذا الهدف الحيوي تفرغاً كاملاً، وبذل كلّ طاقاته الماديَّة والمعنويّة لتحقيقه.

وحسب سليمان أنه قضى مدة خلافته بـ(دابق)، من أجل إنجاز استحضارات قوات فتح القُسْطَنْطينيَّة قبل الحملة، ومن أجل الإشراف على سير القتال في أثنائها، حتى توفّاه اللّه هناك، فدفن فيها شهيداً بحق، من شهداء فتح عاصمة الرّوم.

لم يبق أمام سليمان بعد إكمال استحضارات قواته وحشدها غير اختيار القائد المناسب لمثل هذه المهمة الحيوية، فاختار أخاه مَسْلَمَة.

ج ـ وفي سنة ثمان وتسعين الهجريَّة (٧١٦ ـ ٧١٧م) ولّي سليمان أخاه مَسْلَمَة قائداً عاماً على القوات الغازية للقسطنطينية[2]، فسار مَسْلَمَة على رأس جيشه اللّجب المؤلف من مائة وعشرين ألفاً[3] في رواية، ومن

---

(١) دابق: قرية بقرب حلب من أعمال (عزاز)، بينها وبين (حلب) أربعة فراسخ، عندها مرج معشب كان ينزله بنو مروان، إذا غزوا الصائفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣).

(٢) الطبري (٦/ ٥٣٠) وابن الأثير (٥/ ٢٧) والبداية والنهاية (٩/ ١٧٤) وأبو الفدا (١/ ٢٠٠) والعبر (١/ ١١٦) وابن خلدون (٣/ ١٥٥) ومختصر تاريخ الدول لابن العبري (١١٤)، وفي تاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ٣٠٢): قال زيد بن الحباب: أنبأ الوليد بن المغيرة عن عبيد اللّه بن بشر الغنوي عن أبيه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: (لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها)، قال: فدعاني مسلمة فحدثته بهذا الحديث، فغزاهم ●، رواه أبو كريب وأحمد بن الفرات عن زيد.

(٣) دول الإسلام (١/ ٥٨) ومختصر تاريخ الدول (١١٥) والبدء والتاريخ (٦/ ٤٣).

مائة وعشرين ألفاً في البر ومائة وعشرين ألفاً في البحر[1]، يؤيد ذلك المصادر غير العربيَّة[2]، وأرجح الرواية الأولى، لصعوبة حشد مثل هذه القوات الجسيمة بالنسبة لذلك الوقت في جبهة واحدة، وبصعوبة نقل مائة وعشرين ألفاً في البحر لعدم تيسر السفن الكافية لنقلهم.

كما أنّ المصادر الأجنبيَّة تبالغ بتعداد قوات المسلمين ـ خاصة البحرية منها ـ لتبرز أهمية النصر على تلك القوات وردّها خائبة عن القُسْطَنْطينيَّة دون أن تحقق أهدافها المرسومة.

لقد زعمت بعض المصادر الأجنبيَّة أنّ المسلمين حملوا قواتهم البحرية التي تعدادها مائة وعشرون ألف مقاتل على ألف وثمانمائة سفينة[3]، وهذا العدد الضخم من السفن لا يتيسر للمسلمين حينذاك.

ومع هذا، فقد كان جيش مَسْلَمَة المؤلف من مائة وعشرين ألفاً، برياً في أكثره وبحرياً منقولاً بالسفن في أقله، حتى فرض الحصار براً وبحراً في آن واحد على القُسْطَنْطينيَّة، كما سنجد ذلك في خطة مَسْلَمَة في الحصار حسب مجرى الحوادث للمعركة.

وكانت مدينة (دابق) هي القاعدة المتقدِّمة لحشد جيش مَسْلَمَة، فقد سار مَسْلَمَة حتى نزل (دابق) وجاءته الأجناد من كل ناحية[4] من الشَّام والجزيرة[5]، فسار إلى أرض الرّوم وانضم إليه فيها جيش المسلمين الذين

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٧٥) وانظر خطط الشام (١/ ١٢٣) وفوات الوفيات (١/ ٣٦١).

(٢) فتح القسطنطينية (٣٨): تعلم المسلمون من حصارهم تجربة الحصار الأول، أن ليس في استطاعتهم خرق الأسوار المنيعة، لذلك بنوا خطتهم هذه المرة على إنزال بحري، ويقال: إنهم أعدوا لذلك ألفاً وثمانمائة سفينة تنقل مائة وعشرين ألف محارب جاهزين للإنزال.

(٣) فتح القسطنطينية (٣٨).

(٤) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥).

(٥) البداية والنهاية (٩/ ١٧٥).

كانوا هناك[1]، وسلك طريق (مرعش)[2] فافتتح مدينة (الصَّقالِبَة)[3]، وهجم الشتاء. فانحرف مَسْلَمَة بجيشه إلى مدينة (أَفِيق) وشتى بها، وهي ليست القريبة من (حوران) في طريق (الغور) وهو غور (الأردن) المعروف، إذ ليس من المعقول أن يعود إلى (الأردن) ليقضي الشتاء فيه، والظاهر أن (أفيق) تقع في منطقة (عمورية) في السهل الواقع شمالي جبال (طوروس)، وهذا السهل أقل برداً في الشتاء من جبال (طوروس) التي تغطيها الثلوج شتاءً وفي أكثر شهور الربيع أيضاً.

ولما خرج الشتاء، سار مَسْلَمَة إلى (القُسْطَنْطينيَّة) حتى نزل (عمورية)، وبَطْرِيقها[4] (لِيُون) بن قُسطنطين المرْعشي، فوادعه مَسْلَمَة وأعطاه رَهْناً وأخذ منه مثل ذلك، على أن يناصحه ويظاهره على أهل (القُسْطَنْطينيَّة) ويكون عوناً له، وملك القُسْطَنْطينيَّة يومئذ (ثيودوسيوس الثالث) الذي حكم من سنة ٧١٥م إلى سنة ٧١٧م وهو من أسرة (هِرَقل)[5] المشهورة.

وكان (ليون) أو (ليو) هذا نصرانياً من سكان مدينة (مرعش) وله بها

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

(٢) مرعش: مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٥) وهي مدينة صغيرة انظر تقويم البلدان (٢٦٢) بينها وبين مدينة (الحدث) وهي من الثغور خمسة فراسخ، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (٢١٦) وهي مدينة رومانية كان اسمها مراسيون (Maresion).

(٣) الصقالبة: جيل حمر الألوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٧٢) والقاموس المحيط (١/ ٩٣) ولسان العرب (٢/ ١٤) وهم السلاف (Slaves) أو الجنس السلافي، وجبال الروم هي: جبال طوروس، ومدينة الصقالبة: مدينة تقع بين (دابق) و(عمورية) في جبال طوروس.

(٤) البطريق: رتبة عسكرية في جيش الروم، وهو قائد فرقة، والفرقة في جيش الروم تتألف من عشرة آلاف رجل بقيادة بطريق، ويشابه البطريق في التنظيم الحديث قائد فرقة برتبة لواء، انظر عقبة بن نافع الفهري (٥٨) ـ الطبعة الرابعة.

(٥) انظر الإمبراطورية البيزنطية (٤٠١ ـ ٤٠٣).

كنيسة مشهورة تنسب إليه، أتى القُسْطَنْطينيَّة في أيام الفتن التي كانت بها، فصار مشهوراً ببيع الخمر، وكان فصيحاً بالعربيَّة والروميّة. ثم إنه انخرط في سلك الجندية وشهد المعارك الدائرة بين المسلمين والرّوم وأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة، فقدمه الرّوم، ولم يزل ينتقل في المنزلة إلى أن صار (بطريق) مدينة (عمورية) وقيل: إنه لمّا جاء إلى (عمورية) بكتاب الملك على أنه (بطريق) ردّوه وقالوا له: مثلك لا يلينا، لأنك نبطي من أنباط العرب، فقال لهم: إني لا أتولى عليكم إلا بأمركم، وقد بلغكم حالي ورُجلتي وغنائي، وحالكم مختلط، ومُلككم مضطرب، والفتن كثيرة، وهذا مَسْلَمَة بن عبد الملك قد شارف بلادكم، وهو يُوقِعُ بكم، فأدخلوني فوّضوا إليَّ أمركم، فإن قمتُ فيه كما تُؤثرون وإلاّ فأخرجوني واصنعو بي ما أردتم. فقالوا: صدق، فأدخلوه إليهم وولّوه أمرهم، فنزل به مَسْلَمَة وهو يريد (القُسْطَنْطينيَّة)[1].

ولا تختلف هذه الرواية العربيَّة كثيراً عن الرواية الأجنبيَّة التي جاء فيها: أنّ (ليو) نشأ فلاحاً ثم أصبح جندياً مرتزقاً، وتقدم في الجندية لشجاعته في القتال، حتى توصل إلى القمة بفضل مقدرته وحدها، وكان ما يزال شاباً[2].

ولكن كيف اتصل مَسْلَمَة بليون، هل اتصل به مباشرة كما ذكرنا، باعتبار أنّ مَسْلَمَة كان قد فتح (عموريّة) سنة تسع وثمانين الهجريَّة (٧٠٨م) فهو يعرف مداخلها ومخارجها وأهلها[3]؟

---

(١) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٣٦ ـ ٣٧)، وانظر سني ملوك الأرض والأنبياء (٦٩).

(٢) فتح القسطنطينية (٣٨ ـ ٣٩)، وفي تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٢١): أن مسلمة شتى بضواحي الروم.

(٣) جاء في البداية والنهاية (٩/ ١٧٤): ثم إن مسلمة داخل رجلاً من النصارى يقال له: إليون وواطأه في الباطن ليأخذ له بلاد الروم ●، وانظر أيضاً البدء والتاريخ (٦/ ٤٣ ـ ٤٤).

هناك رواية تذكر أن (ليون) أتى الخليفة سليمان بن عبد الملك من (أذربيجان) وضمن له فتح الرّوم، فوجّه مَسْلَمَة معه، فسارا إلى (القُسْطَنْطينيَّة)[1].

وأرجح أنّ مَسْلَمَة اتصل مباشرة بليون، الذي كان المسؤول عن المنطقة الأماميَّة للدفاع عن (القُسْطَنْطينيَّة) بصفته بطريق (عمورية)، لذلك لم يذكر المؤرخون أنّ مَسْلَمَة صادف مقاومة تذكر في صفحة مسير الاقتراب تقدمه من (عمورية) حتى (القُسْطَنْطينيَّة)، ممَّا يدل على نجاح مَسْلَمَة في استمالة (ليون) إلى جانبه، ومن الواضح أنّ (ليون) كان طموحاً جداً، وكان يتطلّع إلى أن يكون إمبراطور الرّوم، فوادع مَسْلَمَة كمرحلة من مراحل خطته لتولي السلطة تحقيقاً لمطامعه ـ خاصة بعد وفاة إمبراطور الرّوم السابق (ثيودوسيوس الثالث) أخر أباطرة أسرة (هرقل).

واستصحب مَسْلَمَة (ليون) ليدلّه على الطريق والعورات، وأخذ عهوده ومواثيقه على الوفاء والمناصحة (٧٧)، وكان (ثيودوسيوس) ضعيف الرأي، سيىء التدبير عاجزاً فيما تقلده من أمر الرّوم، وكان أمر الرّوم مضطرباً وأيامهم هرج ومرج[2].

أما جيش المسلمين بقيادة مَسْلَمَة، فقد كان موضع اهتمام الخليفة سليمان بن عبد الملك أخرج لهم الأعطية، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة، وأعلمهم بغزو (القُسْطَنْطينيَّة) والإقامة إلى أن يفتحوها. ثم سار سليمان من (بيت المقدس) إلى (دمشق) وقد اجتمعت له العساكر، فأمّر عليهم أخاه مَسْلَمَة ثم قال: سيروا على بركة اللّه، وعليكم بتقوى اللّه والصبر والتناصح والتناصف. ثم سار سليمان حتى نزل (مُرْج دابِق)، فاجتمع إليه

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٢٧) وابن خلدون (٣/ ١٥٥) وانظر الطبري (٦/ ٥٣١) الذي ذكر أن (ليون) قدم من (إرمينية).

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٤٤).

الناس أيضاً من المتطوعين والمحتسبين أجورهم على اللّه، فاجتمع له جند عظيم لم يُرَ مثله[1].

د ـ وانطلق مَسْلَمَة بهذا الجيش: فلمّا دنا من (القُسْطَنْطينيَّة)، أمر كل فارس أن يحمل معه مُدَّيْن[2] من طعام إلى عجز فرسه إلى (القُسْطَنْطينيَّة) ففعلوا، فلمّا أتاها أمر بالطعام فألقى أمثال الجبال، وقال مَسْلَمَة للمسلمين: لا تأكلوا منه شيئاً، وأغيروا في أرضهم وازرعوا، وعمل بيوتاً من خشب، فشتى فيها وصاف، وزرع الناس وبقي الطعام في الصحراء أرزاقاً احتياطية، والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات ومن الزرع[3] ولا يأكلون من أرزاقهم الاحتياطية.

هكذا كان جيش مَسْلَمَة من الناحية الإدارية منظماً تنظيماً جيداً، وكانت خطته الإدارية خطة جيدة أيضاً، وللخطة الإدارية الجيدة أثر بالغ في إحراز النصر، لأن الجندي يمشي على بطنه كما يقول المثل العسكريّ المشهور.

ولكنّ أرزاق جيش مَسْلَمَة لم تقتصر على ذلك، بل جاءته العُلُوفَة

(١) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٣٦).
(٢) المد: من المكاييل الإسلامية، يختلف من قطر إسلامي إلى آخر، والمد السوري يساوي (٨٤، ٢) كغم، انظر التفاصيل في هنز (Walther Hinz) ـ والمكاييل والأوزان الإسلامية (٧٤ ـ ٧) ـ منشورات الجامعة الأردنية ـ ترجمة الدكتور كامل العسلي ـ عمان ـ ١٩٧٠م، وانظر ترتيب القاموس المحيط (٤/ ١٩٢) ومعجم متن اللغة (٥/ ٢٦)، وتنفيذاً لأمر مسلمة يحمل كل فارس مدين، أي يحمل ما يساوي (٦٨، ٥) كغم، وحمل مثل هذه الكمية القليلة غير معقول ولا يؤدي إلى الغرض المطلوب، وهو تكديس كميات كافية من الطعام لغرض حصار مديد وأرى أن مسلمة في قوله: يحمل كل فارس مدين، لا يريد المعنى الحرفي، بل يريد: أن يحمل كل فارس ما يستطيع من أرزاق، والمقدار الذي يحمله الفارس هو عشرون كيلوغراماً كمعدل، وهذا نتيجة لخبرتي الشخصية باعتباري ضابطاً في صنف الخيالة (سلاح الفرسان) (٨١).
الطبري (٦/ ٥٣٠) وابن الأثير (٥/ ٢٧)، وفي التنبيه والإشراف (٢٩٠)، وكان مسلمة بن عبد الملك لما بنى مدينته التي على خليج القسطنطينية سماها: مدينة: (القهر).
(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٧٥).

والأطعمة ونقلت إليه من الضواحي ومن الرّوم وجاءته في المراكب[١] أيضاً: كما كدّس لجيشه السّلاح، فجمع آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك[٢] وهكذا استكمل مَسْلَمَة قضاياه الإدارية تسليحاً وتجهيزاً وأرزاقاً وعلفاً وإسكاناً، فأعدّ بخطته الإدارية هذه متطلبّات النصر إدارياً.

تلك هي مجمل خطة مَسْلَمَة الإدارية، فما خطته العسكريَّة في الحصار؟

هـ ـ تحتل مدينة (القُسْطَنْطينيَّة) موقعاً سَوْقياً فريداً، حبته الطبيعة بأهم عوامل الدِّفاع الطبيعية التي تساعد المدافعين عنها على الثبات. تحوطها من الشرق مياه البسفور، وتحدها من الغرب والجنوب مياه (المرمرة)، ويقسمها (القرن الذهبي) إلى قسمين عظيمين هما: (بيرا) وهو القسم الشمالي الشرقي، و(إستانبول)[٣] وهو المدينة البيزنطية الحقيقة. تحتل (إستانبول) مثلثاً عظيماً من المرتفعات الصخرية، تشرف قاعدته على (المرمرة) وضلعه الأيمن على مياه (القرن الذهبي) والميناء، وكان من هذين الجانبين يحرسها سور واحد. أما الضلع الثالث وطوله ستة أميال، فهو الجانب المتّصل بالقارة الأوروبية، يحميه خط مزدوج من الأبراج والحصون المنيعة، وخندق واحد مزدوج، وفيه عدة أبواب، وفي كل

---

(١) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٤).

(٢) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٦).

(٣) إستانبول: يسمى المسلمون (Constan tinople) بالقسطنطينية، أما فيما يتصل باسمها البيزنطي الذي يقال إن منه اشتق لفظ (استانبول) وهو الاسم التركي الحديث، فإن المسعودي في النصف الأول من المئة الرابعة الهجرية والعاشرة الميلادية كتب في كتابه: (التنبيه) ص ١٣٨ الروم في أيامه كانوا عاصمتهم: (بولن) ـ Polin أي Bulin ومعناها: المدينة: وإذا أرادوا عنها أنها دار الملك لعظمها قالوا: (استن بولن)، ولا يدعونها القسطنطينية، وإنما المسلمون يعبّرون عنها بذلك، واستن معناها: دار الملك أو العاصمة، وإستن بولن معناها مدينة دار الملك، المدينة العاصمة. و(إستن بولن) هي: (استانبول) وسماها المسلمون بعد فتحها: (إسلام بول).

زاوية من زوايا المثلث الثلاث قلعة منيعة، وكانت مياه (القرن الذهبي) الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي، تغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور (غَلَطة) وسور (إستانبول).

وهكذا تهيأت أسباب الدِّفاع المديد لهذه المدينة، أسباب طبيعية، وأسباب صناعية، ممَّا جعلها موقعاً حصيناً وقلعة آمنة من الصعب على الغزاة احتلالها[١].

وكان بنو أميّة دولة وجيشاً يهتمون كثيراً بجمع المعلومات المفصّلة الدقيقة عن أعدائهم، وكانت وسائلهم وأساليبهم للحصول على هذه المعلومات كثيرة ومتعددة، كالعيون والأسرى والتجار والمرابطين والمجاهدين ونحوهم، فكانت القيادتان السياسية والعسكريَّة لبني أمية في الشَّام تعمل لتحقيق أهدافها الحيوية وهي على بصيرة من أمرها، فهي تعمل مفتوحة العينين في النور لا مغمضة العينين في الظلام.

لقد كانت مخابرات المسلمين تعرف كل شيء عن الرّوم، قواتهم، قياداتها، وتنظيمها، وتسليحها، وتدريبها، وما تعانية من ثغرات، وطبيعة بلادها، ومواردها التموينية، ومشاكلها الداخلية والخارجية، وغيرها من المعلومات المفصّلة الدقيقة.

وبعد أن جعل مَسْلَمَة من (عمورية) قاعدة متقدمة، اتّجه شمالاً نحو (القُسْطَنْطينيَّة) فلاقى مقاومة في طريقه[٢] تغلب عليها بسهولة، حتى وصل إلى (الخليج) وهو المضيق الذي يصل بين بحر (بُنْطُس)[٣]، وهو الذي

---

(١) بين العقيدة والقيادة (٣٥٥ ـ ٣٥٦) وانظر مواقف حاسمة (١٧٥).

(٢) انظر (M- A Cheira - La Lutte Entre Et Byzantins) وفيه: قامت الحملة بأعمال ضد نيقيا وبرغر وساردوس.

(٣) بحر بنطس: بحر يعرف بهذا الاسم عند اليونانيين، وهو البحر الذي يتفرع منه خليج القسطنطينية أوله في أطراف بلاد الترك في الشمال ويمتد إلى ناحية المغرب والجنوب حتى يتصل ببحر الشام، وقبل اتصاله ببحر الشام يسمى: بنطس، انظر معجم البلدان (٢/٦٦) و(٢/٢٩٣)، وهو البحر الأسود، كما يطلق عليه اليوم.

نطلق عليه اليوم (البحر الأسود) يقع بين (القُسْطَنْطينيَّة) والبحر الأبيض المتوسط، فقطع (الخليج) حتى نزل (القُسْطَنْطينيّة)، وعبر من موضع يقال له (أبِدس)[1]، يكون عرض (الخليج) هناك غَلْوَة[2] سهم ـ مقدار ثلاث مئة ذراع إلى أربع مئة ـ وهو الخليج الذي يدعي بحر (بُنْطُس) يقبل من(إِزْمينِيَة)، حتى إذا صار إلى (القُسْطَنْطينيَّة) افترق من وجهين: شمالاً وشرقاً، فإذا بلغ (أبدُس) ضاق حتى يصير مقدار غلوة بين جبلين وبين (أبدُس) و(القُسْطَنْطينيَّة) مئة ميل (الميل العربي ـ كيلومتران)[3] في مستوى من الأرض وسهولة[4].

ومن الواضح أنّ مَسْلَمَة عبر من غربي القُسْطَنْطينيَّة، فمدينة (أبدُس) تقع بعد القُسْطَنْطينيَّة بالنسبة للبحر الأسود استناداً إلى نص ما جاء عن العبور: وورد مَسْلَمَة الخليج وقطعه حتى عزل القُسْطَنْطينيَّة، وعبر من موضع يقال له (أبدُس) يكون عرض الخليج هناك غَلْوة سهم، وهو الخليج الذي يدعى: بحر شطس، يُقبل في إِزْمينِيَة حتى إذا صار إلى القُسْطَنْطينيَّة (يريد البحر الأسود) افترق من وجهتين: شمالاً وشرقاً، فإذا بلغ (أبدُس) ضاق... إلخ، فهو ـ أي مَسْلَمَة قد عبر من المضيق الغربي للقسطنطينية كما أنه لا مضايق شمالي هذه المدينة يمكن عبورها بسهولة ويسر. ثم إنّ (أبدُس) التي ورد ذكرها في هذا النص هي مدينة (أندُس)، وهي مدينة على غربي خليج القُسْطَنْطينيَّة بين جبلين، بينهما وبين القُسْطَنْطينيَّة ميل في مستوى من الأرض[5].

---

(١) لم أجد لها ذكراً في المصادر الجغرافية العربية القديمة التي بين أيدينا، والموجود هو (أندس) مدينة على غرب القسطنطينية، وهي (Abydo).

(٢) الغلوة: مقدار رمية سهم، وتقدر بثلاث مئة ذراع إلى أربع مئة.

(٣) الميل: أربعة آلاف ذراع شرعي، انظر معجم البلدان (١/ ٣٥) وهو كيلو متران، انظر المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري (٩٥).

(٤) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٦) وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤).

(٥) انظر معجم البلدان (١/ ٣٤٧)، ومن المحتمل أن تكون (أبدس) قد حرفت إلى (أندس).

ولا أتصور أنّ هناك مسوِّغاً لعبور مَسْلَمَة على بعد مئتي كيلومتر (مئة ميل عربي) من القُسْطَنْطينيَّة، فهذه مسافة شاسعة جداً من ناحية، ولا وجود لمضيق على بعد مئتي كيلومتر من القسطنطينة شمالاً أو جنوباً يمكن عبوره بجيش ضخم مع تجهيزاته العسكريَّة ووسائل تنقله البرية ومواده الإعاشية ونحوها، والظاهر أنه عبر من مسافة ميل عربي واحد (كيلومترين) من غربي القُسْطَنْطينيَّة. لأنه عبر عن (أندس)، وهذه المسافة مناسبة حقاً والموقع بين جبلين يخفي العبور عن رصد العدو، وقد استفاد مَسْلَمَة من السفن التي رافقت حملته في العبور، والظاهر أنه لم يلق مقاومة تذكر في عبوره.

وبذلك أنهى مَسْلَمَة مرحلة (مسير الاقتراب)[١] من خطته التي رسمها لفتح القُسْطَنْطينيَّة، وبدأ مرحلة جديدة، هي مرحلة: (فرض الحصار) في سنة ثمان وتسعين الهجريَّة (١٥ أب ـ أغسطس ٧١٦م)[٢].

طوّق مَسْلَمَة بقواته البرية والبحرية مدينة (القُسْطَنْطينيَّة)، فقد طوّقت قواته البرية هذه المدينة بالقرب من الخندق الذي يحيطها من جوانبها البرية يجري الماء فيه[٣]. كما سدّت هذه القوات المنافذ البحرية من الشمال، بوضع مراكز مراقبة برية قوية على الساحل مزوّدة بالمنجنيقات، ومن المحتمل جداً أن تستفيد هذه المراكز من السفن المحلية التي يعمل فيها المسلمون أو المرتزقة للمعاونة في سد المنافذ البحرية للقسطنطينية من الشمال، ولكن هذه المراكز لم تكن كافية، وهي ثغرة في خطة الحصار، لأنّ تلك المنافذ البحرية يجب أن تغطى بمراكز مراقبة بحرية قوية لا مراكز برية قوية وقوات بحرية غير كافية.

---

(١) مسير الاقتراب: تقدم الجيش من قواعده الرئيسة أو قواعده الأمامية أو المتقدمة إلى ساحة القتال حتى التماس بالعدو.

(٢) (Byzantin. st La Lutte Entre Arabes Ev) انظر التفاصيل في (١٨٠ ـ ١٨٥).

(٣) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٧).

أما البحرية الإسلاميَّة التي جاءت من سوريَّة ومصر، فقد قاتلت أسطول الرّوم في (رودس) وأسرت بعض سفنه ودمّرت أخرى، وكان بحّارة الأسطول الرومي في عصيان حينذاك، ينقصهم الضبط والنظام، كما هاجمت البحرية الإسلاميَّة سواحل آسيا الصغرى حتى وصلت إلى قرب القُسْطَنْطينيَّة، فسدّت المنافذ الجنوبيَّة البحرية لهذه المدينة سداً محكماً استكمالاً لخطة تطويقها.

وعند حلول موسم الشتاء أمر مَسْلَمَة أن يبني رجاله بيوتاً من الخشب[1]، لتقيهم المطر والثلج والبرد، وأمر الناس بالزراعة، فصاف وشتى وهم يأكلون من زراعتهم وطعامهم الذي استاقوه مُدَّخراً[2].

وكان هدف مَسْلَمَة من خطته الإدارية وخطته للعمليَّات، هو ما ذكره علناً لرجاله: إنا لا نرجع عن هذا البلد إلا أن نفتحها إن شاء اللَّه[3]، وكان سبيله لتحقيق هدفه: فرض الحصار المديد، لكي يستسلم المحاصَرون جوعاً.

و ـ ومنذ فرض الحصار على القُسْطَنْطينيَّة حتى انسحب المسلمون عنها إلى قواعدهم، جرت حوادث القتال في صفحات ثلاث.

أولاً: الصفحة الأولى من تاريخ فرض الحصار في أواخر سنة ثمان وتسعين الهجريَّة (١٥ أب ـ أغسطس ٧١٦م) حتى تولى ليون الثالث عرش القُسْطَنْطينيَّة في سنة ثمان وتسعين الهجريَّة (٢٥ مارت ـ مارس ٧١٧م)[4]، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم: صفحة (المبادرة).

---

(١) الطبري (٦/ ٥٣٠) وابن الأثير (٦/ ٢٧) وابن خلدون (٣/ ١٥٥) والبداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

(٢) ابن خلدون (٣/ ١٥٥) وانظر الطبري (٦/ ٥٣٠) وابن الأثير (٥/ ٢٧) والبداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

(٤) البحر الزاخر (٢/ ٣٦٧).

وبالرغم من أنّ المصادر التاريخية العربيَّة وغير العربيَّة لا تذكر معلومات وافية عن أعمال الجيوش الإسلاميَّة والرومية خلال هذه المدة، إلا أننا نستطيع أن نذكر أنّ مَسْلَمَة في هذه الصفحة هاجم أسوار القُسْطَنْطينيَّة مرتين: الأولى بحشد أربعة آلاف مقاتل، وكان اتجاه هجومه منطقة (باب الذهب)، والثَّانية بحشد ثلاثة آلاف مقاتل وكان اتجاه هجومه هو نفس اتجاه هجومه الأول ولكنه لم ينجح في هذين الهجومين[1].

واستطاع المسلمون أن يؤثروا في الرّوم المحاصرين تأثيراً شديداً، فأرسل الرّوم إلى مَسْلَمَة يعطونه عن كل رأس ديناراً ليرحل عنهم، فلم يقبل مَسْلَمَة[2] بهذا العرض، وأصرّ على فتح المدينة.

وأقام مَسْلَمَة محاصراً القُسْطَنْطينيَّة قاهراً لأهلها[3]، مانعاً لهم من كل مرفق براً وبحراً[4]، وكان معتمداً على جيش المسلمين وعلى جمعة من الرّوم على رأسهم ليون الذي عاون مَسْلَمَة في هذه الصفحة حتى استحوذ على ثقته التامة.

وبعث مَسْلَمَة ليون إلى أهل القُسْطَنْطينيَّة في رسالة، فلمّا دخل عليهم ليون قالوا له: ردّه عنا ونحن نملكك علينا[5]، فاستوثق منهم وتولّى عرشهم[6]، وبذلك تكللت جهود ليون التي بذلها لتولي العرش بالنجاح.

---

(١) La lutte entre Arabes Et Byzantine انظر التفاصيل في (١٨٠ ـ ١٨٥).

(٢) ابن الأثير (٥/ ٢٧) وابن خلدون (٣/ ١٥٩).

(٣) الطبري (٦/ ٥٣٠).

(٤) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٧).

(٥) البداية والنهاية (٩/ ١٧٤) وفي ابن الأثير (٥/ ٢٧): فقالت الروم لليون: إن صرفت عنا المسلمين ملكناك.

(٦) ابن الأثير (٥/ ٢٧) والبدء والتاريخ (٦/ ٤)، وقد جاء في ابن الأثر (٥/ ٢٧)، أتى ليون مسلمة فقال له: إنّ الروم قد علموا أنك لا تصدقهم القتال، وأنك تطاولهم ما دام الطعام عندك، فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم فأمر به فأحرق فقوي الروم وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون، وقيل: إنما خدع ليون مسلمة بأن سأله أن يدخل =

لقد كان بإمكان مَسْلَمَة أن يحقق إنجازات عسكريَّة رائعة في هذه

= الطعام إلى الروم بمقدار ما يعيشون به ليلة واحدة ليصدقوه بأن أمره وأمر مسلمة واحد، وأنهم في أمان من السبي والخروج من بلادهم، فأذن له، وكان ليون قد أعد السفن والرجال، فنقلوا تلك الليلة الطعام فلم يتركوا في تلك الحظائر إلا ما لا يذكر، وأصبح ليون محارباً، وقد خدع مسلمة خديعة لو كانت امرأة لعيبت بها. وفي ابن خلدون (٣/ ١٥٥): قال ليون لمسلمة: لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنك قصدتهم بالقتال، فتأخذهم باليد، وهم الآن يظنون مع بقاء الزرع أنك تطاولهم، فأحرق الزرع، فقوي الروم، وغدر ليون، فأصبح محارباً وجاء في الطبري (٦/ ٥٣١) ما جاء في ابن الأثير (٥/ ٢٧ ـ ٢٨)، ومن المعلوم أن ابن الأثير نقل نص ما جاء في الطبري. وفي البداية والنهاية (٩/ ١٧٤): قال ليون لمسلمة: إنهم ـ أهل القسطنطينية ـ ما داموا يرون هذا الطعام يظنون أنك تطاولهم في القتال، فلو أحرقته لتحققوا منك العزم، وسلموا إليك البلد سريعاً، فأمر مسلمة بالطعام فأحرق، ثم انشمر ليون بالسفن، فأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيش في الليل، وأصبح في البلد وهو محارب المسلمين وفي البدء والتاريخ (٥/ ٤٤): قال ليون لمسلمة: لا يفتحون ما لم يتنح عنهم، فارتحل مسلمة وتنحى إلى بعض الرساتيق، فدخل ليون ولبس التاج وقعد على سرير الملك وأمر بنقل الطعام والعلوفات من خارج، فملؤوا الأهراء وشحنوا المطامير. وفي العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٨): أن مسلمة أرسل ليون مع جماعة من أهل القسطنطينية يقول لهم: لست أرحل عنكم حتى تملكوا مولاي ليون ويسلم إليه ملككم ثم أرحل عنكم وأدعكم وبلادكم ودينكم وكنائسكم.

وأرى أن هذه الروايات أشبه بالأساطير منها بالحقائق التاريخية، فليس هناك قائد يحرق مواد جيشه الغذائية، وليس هناك قائد يفسح المجال لعدوه بأخذ مواد جيشه التموينية، وليس هناك قائد يتخلى عن الحصار ويذهب بعيداً تاركاً غلاب جيشه نهباً للعدو كما أن الحجة التي قدمها ليون لمسلمة لا تقنع عاقلاً، إذ كيف يستسلم العدو لجيش إذا أحرقت المواد التموينية لذلك لجيش؟! بينما المعقول أن يستسلم العدو إذا وجد خصمه قد كدس الأرزاق الكافية لإدامة حصار طويل، وكل محاصر يستسلم غالباً من الجوع، ولا نعرف أحداً استسلم من الشبع!! وليس إجماع المؤرخين حجة دامغة على صحتها، فالخلف ينقل عن السلف، وقد اتهم بنو أمية بكثير من التهم ـ خاصة وأن تاريخهم سجل بعد زوال ملكهم وتولي أعدائهم من بعدهم، فلا يستبعد أن يفتري مفتر، فيروي ما سمعه المؤرخ، فيأتي من بعده من المؤرخين فينقلون تلك الفرية. وقد كان مسلمة معروفاً بالدهاء، فكيف تجوز عليه خدعة لا تجوز على أي إنسان حتى لو كان من أغبى الأغبياء! ثم إن المواد التموينية لا يمكن أن تبقى بدون حماية قوية وحراسة شديدة، فكيف يستطيع ليون أن ينهبها، فيخسرها المسلمون بهذه السهولة ويربحها أعداؤهم لتكون قوة لهم على المسلمين؟؟!!.

الصفحة أكثر ممَّا حققه عملياً فيها، لولا ثقته بليون الذي منّاه بفتح القُسْطَنْطينيَّة بالمكر والخداع فاستنام مَسْلَمَة لتلك الأماني العذاب، وأخيراً ظهر له أنّ ليون لم يكن حريّاً بكل هذه الثقة، فقد كان يعمل لنفسه مسخّراً مَسْلَمَة لتحقيق مصالحه الذاتية.

والمهم هو أن نذكر أنّ قسماً من المؤرخين صوروا أن مَسْلَمَة كان ضحية لمكيدة من مكايد ليون جعلته يحرق أكداس الأرزاق والعلف لجيش المسلمين، وهذه مكيدة لا يقع بها عاقل كمَسْلَمَة، بل لا يقع بها أي عاقل، كما أنّ اختلاف الروايات لمختلف المؤرخين يؤدي إلى زعزعة الثقة بتلك الروايات، هذا بالإضافة إلى أنها روايات متهافتة لا يصدقها عاقل، فهي أقرب إلى حكايات الأخباريين منها إلى حقائق المؤرخين.

ولعل مصدر تلك الروايات أعداء الأمويين، وما أكثرهم عدداً وما أشد عداوتهم وأعظمهم لدداً.

تلك هي الصفحة الأولى من صفحات حصار القُسْطَنْطينيَّة وهي صفحة (المبادرة)، وهي المبادرة التي لم يستفد منها مَسْلَمَة كما ينبغي، لتحقيق نصر عسكري حاسم للمسلمين على الرّوم.

ثانياً: أما الصفحة الثّانية فتبدأ بتولي (ليون الثالث)[1] عرش

---

(١) ليون الثالث: ليون المرعشي، انظر البدء والتاريخ (٦/٤٣ ـ ٤٤) وهو ليون ابن قسطنطين المرعشي، انظر العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥)، نشأ فلاحاً مرتزقاً وتقدم في الجندية لشجاعته في القتال، ووصل إلى القمة بفضل مقدرته وحدها، وكان ما يزال شاباً، انظر فتح القسطنطينية (٣٨ ـ ٣٩). وفي ٢٥ مارت (مارس) ٧١٧م جلس ليون الثالث على عرش الإمبراطورية البيزنطية الشرقية وأسس عائلة جديدة عرفت بالعائلة (الأيسوريانية)، وكان من أهل (أيسوريا) واسمه الأصلي كونون، وقد قدح فيه المؤرخون الذين من عادتهم القدح والذم، ووصفوه بأنه كان طوافاً على حمار له في الأمصار يبيع الفراخ، وأن أباه هاجر من آسيا الصغرى وأقام في نواحي (ثراسة) وعمل في بيع الحشيش. عمل ليون وترقى بالتدريج واشتهر اسمه وعلا قدره في الحرب، فعينه نسطاس قائداً للفرق الأنضولية حتى اختير إمبراطوراً، انظر البحر الزاخر =

القُسْطَنْطينيَّة في سنة ثمان وتسعين الهجريَّة (٢٥ مارت ـ مارس ٧١٧م) إلى

= (٣/٣٦٧) وكان نصرانياً من سكان (مرعش)، فأتى (القسطنطينية) في أيام الفتن التي كانت بها وصار مشهوراً ببيع الخمر وكان فصيحاً بالعربية والرومية، وقد حضر الحرب الدائرة بين المسلمين والروم، فأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة، فقدّموه ولم يزل ينتقل في المنزلة إلى أن صار (بطريق) عمورية. وقيل: إنه لما جاء إلى عمورية بكتاب الملك على أنه (بطريق) ردوه وقالوا له: مثلك لا يلينا، لأنك نبطي من أنباط العرب. فقال لهم: ● إني لا أتولى عليكم إلا بأمركم، وقد بلغكم حالي ورجلتي وغنائي، وحالكم مختلط، وملككم مضطرب والفتن كثيرة، وهذا مسلمة بن عبد الملك شارف بلادكم، وهو يوقع بكم، فأدخلوني وفوضوا إلي أمركم، فإن قمت به كما تؤثرون، وإلا فأخرجوني واصنعوا بي ما أردتم ●، فولوه أمرهم، انظر العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥ ـ ٢٦).

وبدأ سلطته بالمدافعة والمحافظة الكبيرة على القسطنطينية، ولما خلص المملكة وأنقذها من العرب عكف على إحياء رسومها وتقويتها، فنتج من إدخال القوانين والأنظمة الجديدة فيها عصر جديد في سعادة المملكة وفلاحها، واستتب السلم والأمن فيها، وقد حكم البلاد أربعاً وعشرين سنة، وبعد موته خلفه ابنه قسطنطين الخامس وتولى العرش في (١ حزيران ٧٤١م) سنة ثلاث وعشرين ومائة الهجرية، انظر البحر الزاخر (٣/٣٦٧)، وانظر أيضاً تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء (٦٩) وابن الأثير (١/٣٣٥)، وليون الثالث هو (Leo the Isaurian) وظل المؤرخون يعتبرون أسرة (ليو الثالث) إيسورية حتى نهاية القرن التاسع عشر، ولكن في سنة ١٨٩٦م كتب العالم الألماني (شينك) في مجلة الأبحاث البيزنطية في مؤسس هذه الأسرة، فجعله سورياً لا إيسورياً، انظر ما جاء حول ذلك في: (Schenk, K, Kaiser, Leones, III, Byz, V ٢٩٦ FF). ثم جاء بعده من أيده، انظر:

(Jorgam N. Origines de ĹIconoclasme Buletin Acard, Roumaine X ١٩٢٤)، ١٤٧). وجاء بعده من عارضه، انظر: (Kulakoveky, JA, Hist. of Byzantium, III ٣١٩). والسبب في هذا الاختلاف أن (ثيوفانس) المرجع الرئيس في سيرة (ليو) قال عنه إنه من أبناء مرعش (جرمانيكية) ومن أصل أيسوري انظر: (Theophanes, Chronographia, Eb. Boor ٣٩١). وكان انسطاسيوس الذي نقل كتاب ثيوفانس إلى اللاتينية في منتصف القرن التاسع قال في ترجمته: إن ليو كان من أبناء جرمانكية، وإنه كان سوري المولد، انظر ما جاء حول ذلك في: (Chronographia, Tripertila, Ed, Boor ٢٥١) والواقع أن اسطفانوس الأصغر يؤيد القول بالأصل السوري ويوافقه على ذلك المؤرخ العربي المجهول صاحب كتاب: العيون والحدائق (٢٥)، انظر كتاب: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم (١/٢٨٩ ـ ٢٩١).

حلول شتاء سنة تسع وتسعين الهجريَّة (كانون الأول ـ ديسمبر ٨١٨م)، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم: صفحة (المصابرة).

ومهما اختلفت الروايات في حقيقة علاقة (ليو الثالث) بمَسْلَمَة بن عبد الملك والطريقة التي اعتلى بها عرش القُسْطَنْطينيَّة وتاريخ حياته قبل اعتلاء العرش وبعده، إلاّ أنه كان إمبراطوراً عظيماً وقائداً محنكاً، وكان حاذقاً في وضع الخطط العسكريَّة[1].

فقد قدّر أنّ الرّوم سيواجهون حصاراً طويلاً، لذلك بذل جهده في تكديس المواد التموينية، ولما كان هناك خطر الموت جوعاً عند نجاح الحصار البحري الذي فرضه المسلمون على القُسْطَنْطينيَّة، عمل جهده لتقوية سفنه ـ وكان عددها قليلاً جداً بالنسبة لأسطول المسلمين، فهي ليست قادرة على النهوض بمهاجمة الأسطول الإسلامي، لذلك أمّن حمايتها بسلسلة حديدية هائلة أقامها لسد مدخل المرفأ، فمنع أي سفينة قادمة من الخارج من دخوله، وكانت هذه السلسلة هي: (السد البحري)[2] الذي تعلّمه منه المدافعون عن القُسْطَنْطينيَّة من بعده حتى فتحت على يد محمد الفاتح. وكان لهذا السد دور كبير في الدِّفاع عن المدينة المحاصرة، وأثّر في منع الأسطول الإسلامي من التغلغل في المياه القريبة من هذه المدينة، وفي حماية السفن البيزنطية التي تجمعت وراءه من غارات أسطول المسلمين.

ولكن تكديس المواد التموينية وإقامة السد البحري، مع الاحتماء بأسوار حصينة منيعة، والاستفادة من موقع القُسْطَنْطينيَّة الحصين المساعد على الدِّفاع، غير كافية لترجيح كفّة الرّوم على المسلمين وأخذ (المبادرة)

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٨ ـ ٣٩).
(٢) السد البحري هو سد لإغلاق ممر القرن الذهبي: يبدأ من شمالي المدينة، وينتهي عند حي (غلطة) وبالطبع استعملنا الأسماء الجغرافية الحديثة التي ما تزال مستعملة حتى اليوم، لإمكان إيضاح موضع هذا السد البحري بالنسبة للدارسين المحدثين.

نهائياً منهم، لأنّ كل هذه العوامل ـ على أهميتها ـ عوامل دفاعية وليست تعرضيّة، لذلك ركز (ليون الثالث) طاقاته لابتكار سلاح جديد تعرضي، فتهيأ له سلاح سري فتّاك هو: (النار اليونانية)، ذلك السلاح الذي نقل (المبادرة) من أيدي المسلمين إلى أيدي الرّوم وأثر في مصير المعركة كلها تأثيراً حاسماً.

والمظنون أن رجلاً من أهل الشَّام اسمه (كالينكوس) هو الذي نقل هذا السلاح إلى الرّوم، في وقت كان الرّوم فيه بأمسِّ الحاجة إلى هذا السلاح[1].

والمعتقد أن: (النار اليونانية) خليط من النفط والكبريت والقار، ولكن نسب التركيب كانت سرية، فكانت ألسنة القائمين بإعداد هذا الخليط تقطع لأغراض الأمن والكتمان. وكان هذا سراً خاصاً بالقُسْطَنطينيَّة فقط، احتفظت به طيلة أربع مئة عام[2].

وقد أفادت هذه النار المدافعين مادياً ومعنوياً، فاستفادوا منها لفتح ثغرات برية وبحرية بين صفوف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية تسربت منها المواد التموينية للمحاصرين من الرّوم، كما رفعت معنويات الرّوم التي كانت منهارة.

كما أضرَّت هذه النار بالمسلمين مادياً ومعنوياً أيضاً، فكبدتهم خسائر فادحة بالأرواح والمواد والسفن، ممَّا أدّى إلى زعزعة معنوياتهم التي كانت عالية في الصفحة الأولى من الحصار: صفحة المبادرة.

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي (١/ ١٧٩).

(٢) فتح القسطنطينية (٣٩)، وفي تاريخ التمدن الإسلامي (١/ ١٨٠): أن هذا النار مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والأدهان في شكل سائل يطلقونه من أسطوانة نحاسية مستطيلة، كانوا يشدونها إلى مقدم السفينة، فيقذفون منها السائل مشتعلاً، أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان المتلوث بالنفط، فيقع على السفن أو البيوت فيحرقها.

لقد أصبح موقف الجانب المدافع بقيادة الإمبراطور الجديد الذي أعاد تنظيم قواته، وادّخر لهم ما يكفيهم من مواد تموينية، مستفيداً من أسوار قوية ودفاعات منيعة تحيطهم من كلٍ جانب، ومن سفن جيدة في مرفأ محمي حماية قوية، توافرت لهم النار اليونانية المؤثّرة.

أما موقف المسلمين، فلم يكن ميؤساً منه، فكانت الإمدادات تصلهم بانتظام ولكنها لم تكن بشكل تجعل التفوق التمويني إلى جانبهم، وكان أملهم باستعادة المبادرة كبيراً، فقاوموا وصبروا انتظاراً لقوات ضاربة متفوقة تصلهم من القاعدة المتقدمة (دابق) التي يرابط فيها سليمان بن عبد الملك ليشرف على الإمدادات بنفسه.

ثالثاً: أما الصفحة الثالثة وهي صفحة: (المكابرة)، فتبدأ من شتاء سنة تسع وتسعين الهجريَّة (كانون الثَّاني - يناير ٧١٨م) إلى انسحاب المسلمين من حصار القُسْطَنْطينيَّة في بداية حكم عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

كان موقف الرّوم في هذه الصفحة أفضل من موقف المسلمين بكثير، وكان عامل الوقت بجانب الرّوم على المسلمين، فكلما تقدم الوقت ازداد الرّوم قوة وازداد المسلمون ضعفاً.

فقد أدّى شتاء عام تسع وتسعين الهجريَّة (٧١٨م) القارس البرد بثلوجه وأمطاره الغزيرة، إلى موت آلاف المسلمين، لأنهم تعوّدوا الطقس الحار الدافىء، كما شلّت الرياح الهوج العاتية والتيارات البحرية الجارفة في (البسفور) سفنهم عن العمل[1].

ونفدت المواد التموينية للمسلمين ولم يبق منها إلاّ أقلّ القليل، فأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر وكل شيء غير التراب[2].

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٩).

(٢) الطبري (٦/ ٥٣١) وابن الأثير (٥/ ٢٨) وابن خلدون (٣/ ١٥٥)، وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤).

كما انهارت معنوياتهم، حتى كان الرجل منهم يخاف أن يخرج من المعسكر وحده[1].

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك ما يزال مقيماً في (دابق)، فلم يقدر أن يمدَّ المسلمين بشيء من الأزواد لكثرة البرد والثلوج[2].

لقد كانت الظروف قاسية بالنسبة للمسلمين في صفحة (المكابرة) بقدر ما كانت مؤاتية بالنسبة للرّوم.

ولعلّ الشتاء القارس[3] كان من أقوى حلفاء الرّوم على المسلمين، ولكن تحملوا وصبروا إلى درجة (المكابرة)، حتى ضاق بهم الأمر، فكان لا بد لهم من التخلي عن الحصار والانسحاب إلى قواعدهم.

ولكن لم تكن هذه العوامل وحدها هي التي جعلت كفة الرّوم ترجح على كفة المسلمين في ميدان القُسْطَنْطينيَّة بالرغم من أهميتها، إذ كان لتشبثات (ليو الثالث) التعبوية والإدارية أثر ملموس في رجحان كفّة الرّوم في ذلك الميدان.

فقد كان من ترتيبات (ليو) التعبوية قصف تجمعات المسلمين بالنار اليونانية، فأدّى ذلك إلى ابتعاد قواتهم عن الأسوار، فأصبح موقفها موقف المراقب، ولم يعد لها تأثير مباشرة على المدينة المحاصرة[4].

---

(١) الطبري (٦/ ٥٣١) وابن الأثير (٥/ ٢٨).

(٢) العيون والحدائق (٣٣) وانظر الطبري (٦/ ٥٣١) وابن الأثير (٥/ ٢٨) وابن خلدون (٣/ ١٥٥).

(٣) كان شتاء سنة ١٩٤١م قارساً في روسيا، فكان من أهم عوامل إخفاق المحور في هجومهم على الإتحاد السوفياتي.

(٤) يبدو أن (ليو الثالث) حرض الصقالبة على المسلمين الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية، لكي يخفف الحصار عن المدينة المحاصرة.
فقد جاء في البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨): أن مسلمة غزا القسطنطينية فحاصرها، وافتتح مدينة الصقالبة وكسر ملكهم البرجان، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية... انتهى.
وفي معجم البلدان (٥/ ٣٧٢): الصقالبة بلاد بين بلغار وقسطنطينية.... انتهى. =

كما أنّ (ليو) دأب على شن الغارات الليلية على قوات المسلمين، كما دأب على وضع الكمائن لهم، وهذا أدّى إلى تردي معنويات المسلمين كما ذكرنا، كما حرّض (ليو) البلغار فهاجموا جيش المسلمين، ولكنهم هزموا!.

كما بذل جهداً في وضع الكمائن لضرب مؤخرة قوات المسلمين وطُرق تموينهم، ممّا أدّى إلى حرمانهم من المواد التموينية في وقت هم بأمسّ الحاجة إليها.

وعندما حلّ الربيع، كانت قوات المسلمين قد ضعفت كثيراً، ولكنهم كانوا يأملون في استعادة (المبادرة) إلى أيديهم بالاستفادة من تفوقهم في البحر، فأعدوا خطة هجومية من اتجاه البحر. وكان (ليو) ينتظر هذا الهجوم لإنزال ضربته الكبرى بالبحرية الإسلاميَّة فقد سدت السلسلة الضخمة المرفأ طيلة الشتاء فقام ليو بفتحها لإغراء المسلمين بتنفيذ خطتهم الهجومية المرسومة. ولما اقتربت سفن المسلمين من المرفأ كانت سفن (ليو) بانتظارهما، فغمرتهم بالنار اليونانية، وكانت النتيجة دماراً كاملاً

= أقول: ليس من المستبعد أن يستعين (ليو الثالث) بجيرانه لمحاربة المسلمين المحاصرين للقسطنطينية، ليشغل قواتهم ويكبدها الخسائر تخفيفاً لضغطها على مدينته، فأجبر مسلمة على تخصيص قوة مناسبة من قواته لمحاربتهم، مع إبقاء قواته الضاربة محاصرة للقسطنطينية، والمصادر الأجنبية تؤكد أنّ (ليو الثالث) تلقى مساعدات حربية من الصقالبة، وهذا من جملة محاولات (ليو الثالث) لكسب المعركة وجعل المسلمين يخفقون في مهمة فتح القسطنطينية.

والصقالبة هم ما يسمون: (Sulaves).

والمصادر الأجنبية تؤكد معاونة البلغار لليو الثالث، ولكنها تبالغ كثيراً في جدوى تلك المعاونة، فتدّعي أن البلغار فاجؤوا جيش مسلمة من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً، انظر التفاصيل في (The Ophanes, Chron, ٣٩٥ - ٣٩٩).

فكم كان عدد المهاجمين حتى يقتلوا عشرين ألفاً من المسلمين! وكيف استطاع البلغار أن يفاجئوا جيش مسلمة من الوراء! وهل كان جيش المسلمين نائماً!.

إن المصادر الأجنبية التي ذكرت هذا الخبر لا تخلو من مبالغات غير منطقية ولا تستقيم مع الفكر العسكري ولا المنطق السليم.

للسفن المهاجمة فقد انهالت عليها النار اليونانية من كل جهة: من السفن، ومن أسوار المدينة، ومن البر. وفي الارتباك الذي نتج عندما حاولت سفن المسلمين الانسحاب طلباً للنجاة، أخذت تصطدم الواحدة بالأخرى، فقفز الرجال إلى البحر وغرقوا فيه، وتحطمت هياكل السفن، وهوت الصواري، وضاعت المجاديف، وفي تيار البسفور القوي انقلبت سفن كثيرة وغرقت. وعندما انتهت المعركة، لم تبق سفينة من سفن المسلمين في مدى النظر سالمة، ويقال: إن خمس سفن منها فقط نجت وعادت إلى سوريَّة لتروي القصة. وكانت القصة هي قصة النار اليونانية التي تصب على سفن المسلمين من قدور كبيرة موضوعة على دكاك، أو تقذف بكرات متوهجة حمراء من الحجارة أو الحديد، أو ترمى بالأسهم أو الرماح المغمورة بالسائل الملتهب، أو تنفخ في أنابيب طويلة من النُّحاس مثبتة في مقدم السفن، فتحدث دخاناً أسود ثم انفجاراً يصمّ الآذان، ومن ثم ينتشر لهيب لا يمكن إيقافه ويسير حتى على الماء[1].

لقد كانت هذه المحاولة الهجومية آخر سهم في جعبة مسلمة، استعمله لاستعادة (المبادرة)[2] من الرّوم، ولكن لم يكتب لمحاولته النجاح.

ز ـ ولم يكن مَسْلَمَة بدرجة من الغفلة بحيث لا يدري ما حلّ بجيشه مادياً ومعنوياً، وبخاصة بعد نجاح (ليو) في تكديس الأرزاق الكافية لقواته، وكان مَسْلَمَة يعلم إنّ المسلك الوحيد المفتوح أمامه هو: الانسحاب.

ولكن أمر هذا الانسحاب لم يكن بيده، بل بيد الخليفة سليمان

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٩ ـ ٤٠).

(٢) تشبه هذه المحاولة ما فعله الجيش الألماني سنة ١٩٤٤م في الهجوم على قوات الحلفاء المتفوقة في الجبهة الغربية، وأطلق على عملياته هذه اسم: تعرض الأردين، انظر التفاصيل في كتابنا: المشير فون ونشتد (٢٧٠ ـ ٢٨٨).

الذي كان مرابطاً في (دابق)، معنياً بفتح القُسْطَنْطينيَّة أشد العناية، ولا يرضى بالانسحاب ولا يوافق عليه.

ومات سليمان بن عبد الملك بدابق لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين الهجريَّة[(١)]، فتولى الخلافة من بعده عمر بن عبد العزيز ﷺ، فوجّه إلى مَسْلَمَة - وهو محاصر للقسطنيطينية - وأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين[(٢)]، ووجّه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً، وحثّ الناس على معونتهم، وكان عدد الخيل التي وجّهها لمَسْلَمَة خمس مئة فرس[(٣)]، لأنه كان قد أصاب المسلمين مجاعة فقواهم بذلك[(٤)].

---

(١) الطبري (٦/٥٤٦) وابن الأثير (٥/٣٧) والعبر (١/١١٨) والمسعودي (٣/١٨٢)، وفي شذرات الذهب (١/١١٦) والعيون والحدائق (٣٣): أن سليمان توفي لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين الهجرية، وكذلك في التنبيه والإشراف (٢٧٥).

(٢) تبالغ المصادر الأجنبية في خسائر مسلمة، ومجمل ما ذكرته تلك المصادر: جاء شتاء سنة ٧١٧ - ٧١٨م بثلج دام ثلاثة أشهر، فمات عدد كبير من جنود مسلمة بالبرد وداء الزحار، وفي ربيع سنة ٧١٧م، وصل اسطول احتياطي من مصر وجيش جديد من طرسوس. واحتل هذا الجيش شاطىء البسفور الآسيوي، ورسا الأسطول في مياهه، فتسللت سفن النار الرومية إلى مرسى الأسطول المصري فأحرقته ونزلت قوة من الروم وراء الجيش الجديد فباغتته ومزّقته إرباً. وبدأت المجاعة تهاجم صفوف مسلمة، ثم فاجأه البلغاريون من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً، فتراجع عن عاصمة الروم بعد أن فقد معظم جيشه، وتعرض الباقي من أسطوله لعاصفة في بحر إيجة، فلم يعد إلى شواطىء الشام سوى خمس سفن فقط، انظر التفاصيل في:
(Canrd, M., Expretions Arbaes, Journal. Asiatique ١٩٢٩م، ٨٠ - ١٠٢)
والمبالغة واضحة للغاية، إذ كيف تسلّلت سفن النار الرومية إلى مرسى الأسطول المصري فأحرقته!!
أكان هذا الأسطول في سبات عميق؟ ألم يدافع عن نفسه؟! وكيف فاجأ البلغاريون جيش مسلمة من الوراء!! ألم يتخذ مسلمة تدابير الحماية، ألم يكن له دوريات وأرصاد! ثم كيف يمكن أن يتسلل البلغاريون من وراء جيش مسلمة ومن أين! تلك مبالغات لا تستحق الرد عليها، لأنها لا يمكن أن تحدث في الحرب فعلاً.

(٣) الطبري (٦/٥٥٣) وانظر ابن الأثير (٥/٤٣) والعيون والحدائق (٣٩) وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢) وانظر المعارف (٣٦٠) والبداية والنهاية (٩/٣٢٨) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٣٢٦).

(٤) العيون والحدائق (٣٩)، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢).

وكان قرار عمر بن عبد العزيز بانسحاب مَسْلَمَة حصيفاً صائباً، لا لأنّ عمر غير ميال إلى حروب الفتح والاستيلاء[1]، بل لأن موقف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية كان ميؤساً منه، فأمر بانسحابهم حقناً لدمائهم، بعد أن بلغ بهم الجهد[2]، إذ لم يغفل عمر أبداً عن غزو الرّوم دفاعاً عن حدود أرض الشَّام الشماليَّة الغربيَّة. وليس صحيحاً أنه لو طال أجله لأجلى المسلمين عن الأندلس، لأنه رأى مقامهم فيها غير طبيعي لإحاطة الأعداء بهم[3]، لأن (ناربون) من أعمال الأندلس فتحت في أيامه وحصنت[4]، كما سمح بامتلاك الفاتحين للأرض في الأندلس، مستهدفاً تعلّق المسلمين بأرضهم عن طريق امتلاك الأرض، وقيل: إنه اتّخذ عمر بن الخطَّاب ﷺ مثالاً له فيما عمله بالهند، فلو لم يعط عمر بن الخطَّاب المحاربين الأرض في الهند، لكان الدِّفاع عن القطر مستحيلاً[5]. وبالطبع لم تفتح الهند في أيام عمر بن الخطَّاب، والمقصود بالهند المناطق المتاخمة لها من بلاد فارس، والضفَّة للخليج العربي الذي كان يطلق عليه قسم من المؤرخين والجغرافيين اسم: الهند.

أما سبب رد جيوش المسلمين من الشرق، ومنعهم من التوغل فيه قائلاً: يكفي ما فتح اللّه على المسلمين من فتوح[6]، فسببه المباشر تردي الأوضاع العسكريَّة في تلك المناطق.

والواقع أنّ عمر بن عبد العزيز ورث تركة مثقلة بالفوضى، فكان همه الأول موجّهاً إلى السياسة الداخلية، فأحدث تغييراً فيها[7]، إذ ليس

---

(١) يوليوس ولهاوزن ـ الدولة العربية وسقوطها (٢١٨).
(٢) خطط الشام (١/ ٥٥٢).
(٣) خطط الشام (١/ ٥٥٢).
(٤) الدولة العربية وسقوطها (٢١٨).
(٥) Dozy, Recherches (1881), I. 76.
(٦) خطط الشام (١/ ٥٥٢).
(٧) الدولة العربية وسقوطها (٢١٨).

من المعقول أن تعجّ بلاده بالفوضى وهي قاعدة الفتح ومرتكزه، ثم يصرف همه إلى الفتح الخارجي، فيكون كالذي يشيد قصراً على جرف هارٍ.

كما أنّ مدّ الفتح الإسلامي كان قد بلغ أوجه، وفقد الدّافع الأول لاستمراره، وهو الجهاد في سبيل اللَّه، فغيّر الناس ما بأنفسهم، وأصبح أكثرهم يشهد الفتوحات للغنائم.

ح ـ لقد أحسن سليمان بن عبد الملك في الإعداد والإمداد، فقد وضع مهمة فتح القُسْطَنْطينيَّة فوق كل مهماته العسكريَّة والإدارية، وجعل لها الأسبقية الأولى على كل أعماله الأخرى، وقضى أيام خلافته كلّها في (دابق)، وأرسل ولده داود إلى القُسْطَنْطينيَّة مع مَسْلَمَة[١]، دليلاً على شدّة حرصه على فتحها، وأمر مَسْلَمَة أن يقيم على القُسْطَنْطينيَّة حتى يفتحها أو يأتيه أمره[٢]، فلم يأمره بالانسحاب حتى توفاه اللَّه دليلاً على إصراره البالغ على تحقيق الفتح.

كما أحسن مَسْلَمَة في قيادته، فبقي محاصراً للقسطنطينية ثلاثين شهراً حتى أكل عسكره الميتة والعظم، وقُتل منهم خلق كثير[٣]، فما وهن

(١) العيون والحدائق (٣٨) وبقي مع مسلمة إلى نهاية الحملة.
(٢) العيون والحدائق (٣٢) ومختصر تاريخ البشر لأبي الفدا (١/ ٢٠٠).
(٣) البدء والتاريخ (٦/ ٤٤)، وقد بدأ الحصار في ١٥ آب (أغسطس) ٧١٦م وانتهى في ١٥ آب (أغسطس) ٧١٨م، كما تنص على ذلك المصادر الأجنبية وبذلك يكون حصار المسلمين للقسطنطينية عامين لا ثلاثين شهراً.
أما المصادر العربية فتنص على أن الانسحاب جرى في أيام عمر بن عبد العزيز أي تشرين الأول (أكتوبر) ٧١٨م، أي أن حصار المسلمين للقسطنطينية دام سنتان وشهران. وأرى أن المسلمين لا يمكن سحبهم بعد استلام أمر الانسحاب مباشرة، أي بعد تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة مباشرة، فلا بدّ من اتخاذ تدابير الانسحاب حسب خطة مرسومة حتى لا ينقلب الانسحاب إلى هزيمة، وهذا يستغرق ما لا يقل عن أربعة أشهر، لإمكان ترقيق الجبهة والانسحاب تدريجياً، وبذلك يكون ما جاء في البدء والتاريخ، من أن حصار المسلمين للقسطنطينية دام ثلاثين شهراً صحيح وأقرب =

ولا توانى ولا ضعف عن النهوض بواجبه.

كما أحسن عمر بن عبد العزيز في قراره بانسحاب المسلمين عن القُسْطَنْطينيَّة، لأنّ الموقف العسكري كان يتطلّب إصدار مثل هذا القرار، ولو كانت كفة المسلمين راجحة في حينه، لكان من المستحيل عليه الأمر بانسحاب المسلمين، ولكان هناك مسوِّغ للادعاء بأنّ عمر بن عبد العزيز غير ميال لحروب الفتح، دون تمحيص للموقف العسكري الراهن.

إنّ عمر بن عبد العزيز مظلوم بهذا الادعاء الذي صدر عن مؤرخين غير عسكريين ذوي اختصاص بالقضايا العسكريَّة، ومثل هذا الحكم خارج عن نطاق اختصاص المدنيين، وفاقد الشيء لا يعطيه، ولم يكن عمر بن عبد العزيز وشهرته كلها في حرصه على تطبيق تعاليم الدِّين الحنيف ليجمِّد فرض الجهاد، وهو روح الإسلام الحركي وبدونه يبقى الإسلام جثة هامدة بدون روح ولا حراك.

= إلى المنطق العسكري، وانظر أيضاً مختصر تاريخ الدول (١١٤) حول حصار المسلمين للقسطنطينية لمدة ثلاثين شهراً.

وفي البداية والنهاية (٩/٣٢٨): فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم بالبريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام، فحلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية، فبنوا له جامعاً ومنارة، فهو بها إلى الآن يُصلي فيه المسلمين الجمعة والجماعة... انتهى.

أقول: لا نستبعد أن الروم بالرغم من رجحان كفتهم في الأشهر الأخيرة من حصار القسطنطينية، إلاّ أنهم كانوا يتمنون انسحاب المسلمين عنهم، لطول بقائهم محاصرين، ولخوفهم من قدوم إمدادات جديدة من الرجال والأرزاق ترجح كفة المسلمين عليهم، لذلك رضخوا لشرط مسلمة وبنوا جامعاً، ومما يدل على ضعف قوة الروم في أيام انسحاب مسلمة، عدم قيام الروم بمطاردة المسلمين في أثناء انسحاب المسلمين.

لقد كانت قوات الروم قادرة على تحمل أعباء حرب دفاعية، ولكنها لم تكن قادرة على تحمل أعباء حرب تعرضية، لذلك لم يستطيعوا مطاردة المسلمين بعد انسحابهم.

وفي حوادث سنة خمس وخمسين وأربع مئة أن ملك الروم عَمَّرَ جامع مسلمة في القسطنطنية إرضاة لطغرلبك، وعلق فيه القناديل، وجعل في محرابه قوساً ونشابة، انظر ابن الأثير (٢٨/١).

ولم يستطع المسلمون الذين كانوا بقيادة مَسْلَمَة فتح القُسْطَنْطينيَّة من جراء أخطاء سَوْقِيَة أو تعبوية ارتكبتها قيادتهم القادرة، ولا من جراء تهاون قواتهم وضعفها، ولكنهم أخفقوا في فتحها لأسباب عسكريَّة قاهرة، منها مناعتها الطبيعية والاصطناعية التي سهّلت أمر الدِّفاع عنها، ولرصانة أسوارها وخنادقها المحيطة بها قوة ومتانة، ولأنّ الحصار من جراء ذلك طال أمده كثيراً فاستغرق ثلاثين شهراً، والعرب في طبيعتهم لا يصبرون على حصار طويل الأمد، ولأنّ برد شتاء سنة تسع وتسعين الهجريَّة (٨١٨م) كان قارساً شديداً بصورة غير اعتيادية[١]، والعرب لا يتحملون البرد القارس الشديد، وهذا البرد غير الاعتيادي حرمهم من الإمدادت العسكريَّة والتموينية، والجندي لا يقوى على البرد وهو جائع، وأخيراً وليس أخراً مقاومتهم بسلاح جديد لا علم لهم بأسلوب الوقاية منه وليس لديهم سلاح يقاومه، وهو النار اليونانية التي فتّ استعمال الرّوم لها بعضد العرب وأثر في معنوياتهم وكبّدهم خسائر فادحة بالأرواح والسّفن والمعدّات.

وتاريخ الحرب في جميع العصور يقرّر أنّ من أهم أسباب النصر هو استعمال سلاح فتّاك جديد لا يتوقعه الخصم، أو استعمال أسلوب قتالي جديد لا يتوقعه الخصم، أو استعمالهما معاً في الزمان والمكان المناسبين بشكل لا يتوقعه الخصم، وكل ذلك يباغت هذا الخصم ويربك قيادته وخططها المرسومة، والمباغتة كما هو معروف هي أهم مبادىء الحرب على الإطلاق.

ومن الإنصاف أن نضيف إلى عوامل انتصار الرّوم في الدِّفاع عن القُسْطَنْطينيَّة عاملاً آخر هو: كفاية (ليو الثالث) المتميزة في القيادة، وتشبعه بمزية إرادة القتال.

---

(١) العيون والحدائق (٣٢).

وإذا كان هناك ما يلام عليه مَسْلَمَة في معركة حصار القُسْطَنْطينيَّة، فهو عدم استفادته كما ينبغي من الصفحة الأولى من صفحات حصار (القُسْطَنْطينيَّة) وهي: صفحة: (المبادرة)، في التركيز بالهجوم على المدينة المحاصرة وإدامة زخم الهجوم عليها أولاً، وثقته غير المحدودة بحليفه (ليو)، لأنّ الذي يخون بلاده وقومه أولى به أن يخون غير بلاده وغير قومه، فكانت هذه الثقة العمياء في العميل لا مسوِّغ لها ثانياً، فالحرب من القضايا المصيرية، ولا بد من إدخال أسوأ الاحتمالات في ما يؤثر في نتائجها من قريب أو بعيد(١).

إن حصار القُسْطَنْطينيَّة(٢) كان ملحمة من ملاحم تاريخ العرب المهمّة

---

(١) ورد في كتاب: فتح القسطنطينية، ص (٤٠) ما نصه: لو سقطت القسطنطينية عام (٧١٧م)، لما عاشت المسيحية، ولذلك فالعالم المسيحي مدين إلى (ليو الثالث) بالحفاظ على المدينة والمسيحية (٥٠٠) سنة أخرى، ولولاه لكان من المحتمل جداً أن يتبدل مجرى التاريخ، فلو نجح المسلمون (٧١٧م)، لكان من المحتمل أن يكون عالمنا إسلامياً بحتاً، أقول: وهذا الادعاء لا يخلو من مبالغة والمبالغة من أجل تضخيم انتصار الروم وجعله من الانتصارات الحاسمة وقد فتحت القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح فما أصبحت أوروبا إسلامية بحتة وما يزال المسيحيون على دينهم، في تلك المدينة وفي البلاد التي فتحها العثمانيون، وقد فتح المسلمون أرض الشام والعراق ومصر في الصدر الأول للإسلام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وما يزال المسيحيون في تلك البلاد حتى اليوم!

(٢) أفاض (بروكس E. W. Brooks) في سرد غزوات المسلمين في آسيا الصغرى، مستقياً معلوماته مع التعليق عليها في بحثه الموسوم: العرب في آسيا الصغرى من سنة (٦٤١م) إلى سنة (٧٥٠م)، وعنوان بحثه:
The Arabs in Asia Minor، ٦٤١ to ٧٥٠ ص ٢٢ المنشور في مجلة الدراسات الهلنية Journal of Hillenis Studies المجلد (١٨) سنة (١٨٩٨م).
وقد عالج موضوع حصار القسطنطينية العظيم في أيام خلافة سليمان بن عبد الملك في مقال نشره في مجلة الدراسات الهلنية أيضاً (المجلد ١٩ لسنة ١٨٩٩م) بعنوان: حملة سنة (٧١٦م إلى سنة ٧١٨م) بحسب المراجع العربية●: From Arabis Sources The Campain of ٧١٨ to ٧١٦.
وتناول هذا الموضوع من الجانب البيزنطي الأستاذ (بوري J. B. Bury) في كتابه: (The History of the Later Roman Empire) المجلد الثاني ص (٤٠١). =

ولكنها لم تكن معركة حاسمة من معارك تاريخ الحرب، على الرغم من محاولات المؤرخين الأجانب اعتبارها معركة حاسمة، بادّعائهم أنّ المسلمين لو فتحوها لأصبحت أوروبا قارة إسلامية[١].

والواقع أنها كانت معركة تعبوية، ولو فتحها المسلمون حينذاك لأصبحت حدود الدَّولة الشماليَّة الغربيَّة أكثر أمناً واستقراراً، وربما امتدت الفتوح إلى قسم من البلاد التي تقع في أوروبا، لأنّ أوضاع الدَّولة الإسلاميَّة داخلياً، لم تكن مستقرّة في تلك الأيام، بل كانت مضطربة تسودها الفوضى والفتن والقلاقل والاضطرابات فكانت الدَّولة في شغل شاغل لإقرار الأمن الداخلي، ولم تكن في موقف يسمح لها بالانطلاق في مجالات الفتوح.

وقد استفاد الرّوم من دروس حصار القُسْطَنْطينيَّة استفادة كبيرة، فكانوا يطبقونها في الدِّفاع عن مدينتهم منذ انسحب المسلمون عنها بقيادة مَسْلَمَة، لصدّ محاولات غيره من القادة المسلمين من بعده لفتحها، وفي دفاعهم عنها حتى أيام السلطان محمد الفاتح[٢]، وهذا مكسب عظيم للرّوم.

= وهناك دراسات في هذا الموضوع كثيرة، ترجم بعضها إلى العربية، وكلها تجعل حصار القسطنطينية معركة حاسمة، وهي ليست بحال من الأحوال.

(١) انظر مثلاً ما جاء في كتاب: فتح القسطنطينية - برناردين كيلتي Bernardine Kielty ص (٤٠)، وقد ذكرنا نص ما جاء في هذا الكتاب سابقاً.

(٢) انظر سيرته في كتابنا: بين العقيدة والقيادة - ص (٣٥١ - ٤٦٦)، وانظر ما جاء فيه حول غلق القرن الذهبي بسلسلة حديدية هائلة في (   ) هذا الكتاب وهو درس عسكري استفاد في ذلك الزمن المتأخر إمبراطور الروم حينذاك من (ليو الثالث) الذي كان أول من استعمل مثل هذه السلسلة في أيام حصار القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك.

ومن المعلوم أن السلطان محمد الفاتح فتح القسطنطينية يوم الثلاثاء (٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٧٥ هـ - ٢٩ مايس - مايو - ١٤٥٣م)، انظر ص (٤٠٦) من كتابنا: بين العقيدة والقيادة.

لقد كان حصار القُسْطَنْطينيَّة ملحمة رائعة بالنسبة للمسلمين والرّوم على حد سواء، ولكنها في الواقع كانت ملحمة تعبوية وليست ملحمة سوقية، كما يدعي المؤرخون الغربيون الأجانب.

٣ ـ توطيد الأمن الداخليّ

أ ـ القضاء في حركة شَوْذب الخارجيّ:

في سنة مئة الهجريَّة (٧١٨م)، خرج شَوْذَب الخارجيّ، وهو بِسْطام من بني (يَشْكُر)[١] في (جُوْخي)[٢]، وكان في ثمانين رجلاً.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطَّاب عامله بالكوفة، ألاّ يُحرّكهم حتى يُسْفِكوا دماء ويُفسدوا في الأرض، فإن فعلوا وجّه إليهم رجلاً صليباً حازماً في جُند.

وبعث عبد الحميد والي الكوفة محمد بن جرير بن عبد اللّه البَجَليّ[٣] في ألفين، وأمره بما كتب عمر بن عبد العزيز إليه، كما كتب عمر إلى بِسْطام الخارجي، يسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر إلى بسطام وقدم عليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يتحرك.

وكان في كتاب عمر بن عبد العزيز إلى بسطام: بلغني أنك خرجت غضباً للّه ولرسوله، ولستَ أولى بذلك مني، فهلمّ إليّ أُناظرك، فإن كان الحقّ بأيدينا، دخلتَ فيما دخل الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك.

وكتب بسطام إلى عمر: قد أنصفْتَ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك.

---

(١) هو يشكر بن بكر بن وائل، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٠٨).

(٢) جوخي: وردت في معجم البلدان (٣/ ١٦١) جوخا: اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد، ولم تكن ببغداد مثل كورة جوخا.

(٣) انظر سيرة والده: جرير بن عبد اللّه البجلي في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ ـ ٣٧١).

وصل الرجلان إلى عمر، وناظراه فاقتنعا بوجهة نظره[1].

ومات عمر بن عبد العزيز ﷺ سنة إحدى ومئة الهجريَّة[2] (٧١٩م) ومحمد بن جرير مقابل الخوارج لا يتعرّض إليهم ولا يتعرّضون إليه، كل منهم ينتظر عودة الرُسل من عند عمر بن عبد العزيز، فتوفي عمر والأمر على ذلك[3].

وتولى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة بعهد من أخيه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز[4]، فأحب عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطَّاب أمير الكوفة أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك، فكتب إلى محمد بن جرير يأمره بمناجزة شَوْذب.

ولما رأى الخوارج محمداً يستعدّ للحرب، قالوا: ما فعل هؤلاء هذا إلاّ وقد مات الرجل الصالح يريدون عمر بن عبد العزيز ﷺ.

ونشب القتال بين الطرفين، فأُصيب من الخوارج نفر، وقتل الكثير من أهل الكوفة وانهزموا، وجرح محمد بن جرير فدخل الكوفة، وتبعهم الخوارج حتى بلغوا الكوفة، ثم رجعو إلى مكانهم.

ووجه يزيد بن عبد الملك تميم بن الحُباب في ألفين، فحاربه الخوارج وقتلوا أصحابه، ولجأت فلول جيشه إلى الكوفة وإلى يزيد بن عبد الملك هاربين.

وأرسل يزيد قوة بقيادة نَجْدَة بن الحَكَم الأَزْدِيّ فقتلوه وهزموا أصحابه. فوجّه يزيد السَجَّاح[5] بن وَداع في ألفين، فقتلوه وهزموا أصحابه أيضاً.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٥٥) وابن الأثير (٥/ ٤٥ ـ ٤٨).
(٢) الطبري (٦/ ٥٦٥) وابن الأثير (٥/ ٥٨) والعبر (١/ ١٢٠) وشذرات الذهب (١/ ١١٩).
(٣) ابن الأثير (٥/ ٤٨).
(٤) ابن الأثير (٥/ ٦٧).
(٥) في الطبري (٦/ ٥٧٦): الشحاج، وفي ابن الأثير (٥/ ٦٩): السجاح.

وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مَسْلَمَة بن عبد الملك الكوفة، فشكا إليه أهل الكوفة مكان شوذب، فأرسل إليه مَسْلَمَة سعيد بن عمرو الحَرَشيّ، وكان فارساً في عشرة آلاف، وأتاه وهو بمكانه، فرأى شوذب وأصحابه ما لا قِبَل لهم به، فقال لأصحابه: مَن كان يريد الشهادة فقد جاءته، ومَن كان يريد الدنيا فقد ذهبت. وكسر الخوارج أغماد سيوفهم وحملوا، فكشفوا سعيداً وأصحابه مراراً، حتى خاف سعيد الفضيحة، فوبّخ أصحابه وقال: من هذه الشرذمة لا أبَ لكم تفرّون! يا أهل الشّام! يوماً كأيامكم! وحمل أصحاب سعيد على الخوارج، فطحنوهم طحناً، وقتلوا بسطاماً ـ وهو شوذب ـ وأصحابه[1].

وهكذا قضى مَسْلَمَة على حركة من حركات الخوارج، استعصت على الآخرين، وكان يمكن أن تتطوّر فتصبح خطراً داهماً يهدّد أمن الدّولة واستقرارها.

ب ـ القضاء على فتنة يزيد بن المُهَلّب:

في سنة مئة الهجريّة (٧١٨م)، كتب عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى عَدِيّ بن أرْطَاة والي البصرة لعمر[2]، يأمره بإنفاذ يزيد بن المُهلّب إلى دمشق موثقاً. وكان عمر قد كتب إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عمله ويُقْبِل إليه، فاستخلف مَخْلَداً ابنه وقدم من (خُراسان)[3] ونزل (واسِطاً)[4]، ثم ركب السّفن يريد (البصرة)، فبعث عَدِيّ بن أبي أرْطَأة

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٧٥ ـ ٥٧٨) وابن الأثير (٥/ ٦٨ ـ ٧٠).
(٢) جمهرة أنساب العرب (٢٥٦).
(٣) خراسان: بلاد واسعة يتاخمها العراق من الغرب وأفغانستان والهند من الشرق، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها، وتمتد من الشمال إلى أقصى تخوم إيران. من أمهات مدنها: نيسابور وهراو ومرو وبلخ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١٤٥ ـ ١٦٠) ومعجم البلدان (٣/ ٤٠٧).
(٤) واسط: مدينة كبيرة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي، وسميت واسطاً لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٧٨ ـ ٣٨٧)، وقد أطلق اسم =

موسى بن الوَجِيه الحِمْيَرِيّ، فلحقه في نهر (مَعْقِل)[1] عند الجسر، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز في دمشق.

ودعا به عمر، وكان يبغض يزيد وأهل بيته ويقول: هؤلاء جبابرة، ولا أحبّ مثلهم، وكان يزيد يبغض عمر ويقول: إنه مُراء، فلمّا ولي عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء. ولما دعا عمر يزيد، سأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك، فقال: كنت مع سليمان بالمكان الذي قد رأيت، وإنما كتبتُ إلى سليمان لأسمعَ الناس به، وقد علمت أنّ سليمان لم يكن ليأخذني به! فقال عمر: لا أجد في أمرك إلا حبسك، فاتّق اللّه وأدّ ما قِبَلك، فإنها حقوق المسلمين، ولا يسعني تركُها.

وحبسه في حصن (حلب)، وبعث إلى الجرّاح بن عبد اللّه الحَكَمِيّ فسرّحه إلى (خُراسان) أميراً عليها، فبقي يزيد في محبسه حتى بلغه مرض عمر[2].

ولما اشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز ﷺ، خاف يزيد بن المهلّب من يزيد بن عبد الملك[3]، فأرسل إلى مواليه يخبرهم بعزمه على الهرب

= واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث، وهي محافظة الكوت على نهر دجلة.

(١) نهر معقل: منسوب إلى معقل بن يسار المزني، صاحب النبي ﷺ، وهو نهر معروف بالبصرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦)، وفيه: أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أمر أبا موسى الأشعري أن يحفر نهراً بالبصرة وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني، فنسب إليه.
وأقول: ولا يزال النهر موجوداً حتى اليوم وعليه ضاحية (المعقل) التي هي من ضواحي البصرة حالياً في شمالي البصرة وبالقرب منها، وهي معروفة جداً في الوقت الحاضر، يقصدها السائحون خاصة في الشتاء، وفيها مناظر خلابة جميلة.

(٢) الطبري (٦/ ٥٥٦ ـ ٥٥٨) وابن الأثير (٥/ ٤٨ ـ ٥٠) وانظر كتاب الوزراء والكتاب (٣١).

(٣) كان بين اليزيدين عداوة شخصية قبل أن يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة، وقد توعد كل منهما صاحبه، انظر ابن الأثير (٥/ ٥٧).

من السجن، فأعدّوا إبلاً له وخيلاً. وواعدهم مكاناً يأيتهم فيه، وبعث إلى عامل (حلب) مالاً وإلى الحرس الذين يحفظونه وقال: إنّ أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجاء، وإن ولي يزيد بن عبد الملك يسفك دمي، فأخرجوه، فهرب إلى المكان الذي واعد أصحابه فيه، وركب هناك الدّواب وقصد (البصرة). وكتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول فيه: إني واللَّه لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك، ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شرّ قتلة، فورد الكتاب وبه رمق، فقال: اللّهم إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فألْحِقْه به وهِضْهُ فقد هاضني، وكان هروب يزيد ابن المهلب سنة إحدى ومئة الهجريّة[1] (٧١٩م).

وكتب يزيد بن عبد الملك بعد توليه إلى عبد الحميد ابن عبد الرحمٰن بن يزيد بن الخطَّاب عامله على الكوفة وإلى عَدِيّ بن أَرْطأة عامله على البصرة يأمرهما بالتحرّز من يزيد ويعرّفهما هربه، وأمر عَدِياً أن يأخذ مَنْ بالبصرة من آل المهلّب، فأخذهم وحبسهم.

وأقبل يزيد حتى ارتفع إلى (القُطْقُطَانة)[2]، وبعث عبد الحميد جنداً إليهم عليهم هشام بن مُساحِق العامِريّ القرشيّ ـ عامر بني لؤيّ، فساروا حتى نزلوا (العُذَيْب)[3]. ومرّ يزيد قريباً منهم، فلم يقدموا عليه. ومضى يزيد نحو (البصرة) وقد جمع عَدِيّ بن أطاة أهل البصرة وخندق عليها، وبعث على خيل البصرة المُغيرة بن عبد اللَّه بن أبي عَقِيل الثقَفِيّ.

وبعث عَدِيّ على كل خمس من أخماس البصرة رجلاً: خُمس

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٦٤ ـ ٥٦٥) وابن الأثير (٥/ ٥٧ ـ ٥٨) وابن خلدون (٣/ ١٦٦).

(٢) القطقطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٥).

(٣) العذيب: ماء بين القادسية والمغيثة بينه وبين القادسية أربعة أميال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٣١)، والمغيثة منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٠٦).

الأزْد، وخمس تَمِيم، وخمس بَكْر بن وائل، وخمس عبد القَيْس، وعلى خمس العالية من قُريش وكنانة والأزْد وبَجيْلة وخثْعَم وقيس عَيْلان كلها ومُزَيْنَة، فأقبل يزيد لا يمرّ بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلا تنحوا له عن طريقه حتى نزل داره.

واختلف إلى يزيد الناس، فأرسل إلى عَدِيّ: أن ابعث إليّ إخوتي وإني أُصالحك على البصرة وأخليك وإياها حتى آخذ لنفسي من يزيد ما أُحبّ، فلم يقبل منه.

وسار حُمَيد بن عبد الملك بن المهلّب إلى يزيد بن عبد الملك، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ بأمان يزيد بن المهلّب وأهله.

وأخذ يزيد بن المهلّب يُعْطي من أتاه قطع الذهب والفضة، فمال الناس إليه، وكان عَدِيّ لا يُعْطي إلا دِرْهَمَيْن درهمين ويقول: لا يَحِلّ لي أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك، ولكن تَبَلّغوا بهذه حتى يأتي الأمر بذلك، وفي ذلك يقول الفرزدق:

أظُنُّ رجال الدِرْهَمَين تقودهم ... إلى الموت آجال لهم ومَصَارع
وأكيَسُهم مَن قرّ في قعر بيته ... وأيقَنَ أنّ الموتَ لا بُدّ واقعُ

وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب عديّ، فنزلوا (المِرْبَد)[1]، فبعث إليهم يزيد بن المهلّب مولى له يقال له: دارِس، فحمل عليهم، فهزمهم.

وخرج يزيد بن المهلب حين اجتمع الناس له، حتى نزل جبانة بني يَشْكر وهي النصف فيما بينه وبين قصر الإمارة في البصرة، فلقيه قيس

---

(١) المربد: مربد البصرة من أشهر محالها، وكان يكون فيه سوق الإبل قديماً، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجلس الخطباء، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١١ ـ ١٣).

وتميم وأهل الشَّام واقتتلوا هنيهة، ثم حمل عليهم أصحاب يزيد فانهزموا. وتبعهم ابن المهلّب حتى دنا من القصر، فخرج إليهم عَدِيّ بنفسه، ولكن أصحابه انهزموا بعد قتال تكبدوا فيه خسائر كبيرة.

وجاء يزيد بن المهلّب حتى نزل داراً إلى جنب القصر، وأتى بالسلالم وفتح القصر وأُتي بعَدِيّ بن أرطاة فحبسه وقال له: لولا حبسك إخوتي لمّا حبستك.

فلما ظهر يزيد، هرب رؤوس أهل البصرة من تميم وقيس وغيرهما، فلحقوا بالكوفة، ولحق بعضهم بالشَّام. فخرج المغيرة بن زياد بن عمرو العَتَكِيّ نحو الشَّام، فلقي خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ ومعهما حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب قد أقبلوا بأمان يزيد بن المهلّب وكلّ شيء أراده، فسألاه عن الخبر فخلا بهما سراً من حُمَيْد وأخبرهما: بأن يزيد بن المهلّب قد ظهر على البصرة، وقتل القتلى، وحبس عَدياً، فارجعا، فرجعا وأخذا حُميداً معهما.

وأصبح الموقف خطيراً للغاية، فأرسل يزيد بن عبد الملك إلى الكوفة شيئاً من المال ومَنّى أهلها الزيادة، وجهز أخاه مَسْلَمَة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في سبعين ألف مقاتل من أهل الشَّام وجزيرة ابن عمر، وقيل: كانوا ثمانين ألفاً، فساروا إلى العراق. وقدما الكوفة ونزلا (النُّخَيْلة)[1].

ولما سمع أصحاب ابن المهلّب بوصول مَسْلَمَة وأهل الشَّام راعهم ذلك، فبلغ ابن المهلّب، فخطب الناس يشجّعهم ويهوّن من أمر أهل الشَّام. وكان الحسن البصريّ يسمع، فرفع صوته يقول: والله لقد رأيناك والياً ومُوَلّى عليك، فما ينبغي لك ذلك!، فوثب أصحابه وأخذوا بفمه

(١) النخيلة: موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشام انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٧٦ - ٢٧٧).

وأجلسوه، وكان النَضَر بن أنس بن مالك يثبِّط أهل البصرة كما يثبطهم الحسن البصري منعاً لاقتتال المسلمين فيما بينهم وقطعاً لدابر الفتن. وسار يزيد من البصرة، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلّب، وأتى (واسطاً) فلما نزل (واسطاً) أقام بها أياماً وخرجت سنة إحدى ومئة الهجريّة[1].

ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجريّة (٧٢٠م)، فسار يزيد من (واسط) واستخلف عليها ابنه معاوية وجعل معه بيت المال والأسرى، وسار على فم (النيل)[2] حتى نزل (العَقْر)[3]. وقدّم أخاه عبد الملك بن المهلّب نحو الكوفة، فاستقبله العباس بن الوليد بن عبد الملك في (سُوْرَا)[4]، فاقتتلوا قتالاً شديداً، كانت الجولة الأولى منه لآل المهلب، ولكن تغيرت المعركة لصالح العباس بن الوليد، فانكشف جيش ابن المهلّب، وانهزموا عائدين إلى يزيد بن المهلّب. وأقبل مَسْلَمَة يسير على شاطىء الفرات إلى (الأنبار)[5]، فعقد عليها الجسر وعَبر، ثم سار حتى نزل على ابن المهلّب.

وأتى إلى ابن المهلّب ناس من أهل (الكوفة) كثير ومن الثغور، فقسّمهم أقساماً وجعل على كل قسم منهم قائداً، وكان هذا التقسيم بالنسبة للقبائل العربيّة الأزْد ومَذْحج وأسَد وكِنْدة وربيعة وتميم وهَمْدان، وجعل أمر كل تلك الأقسام إلى المُفَضّل، وأحصى ديوان يزيد بن المهلّب مئة

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٧٨ ـ ٥٨٩) وابن الأثير (٥/ ٧١ ـ ٧٧) وابن خلدون (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٩) وانظر خلاصة الذهب المسبوك ص (٢٦).

(٢) النيل: بلدة في سواد الكوفة قرب (حلة) بني مزيد، يخرقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير، انظر معجم البلدان (٨/ ٣٦٠).

(٣) العقر: عقر بابل، قرب كربلاء من الكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

(٤) سورا: موضع بأرض بابل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٦٨).

(٥) الأنبار: مدينة على الفرات في غرب بغداد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٤٠ ـ ٣٤٢) وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم.

ألف وعشرين ألفاً، فقال: لوَدِدْت أنّ لي بهم مَنْ بِخُراسان من قومي، ثم قام في أصحابه وحرّضهم على القتال.

وكان عبد الحميد قد عسكر بالنُّخَيْلة، وشقّ المياه، وجعل على أهل الكوفة الأرصاد لئلا يخرجوا إلى ابن المهلّب، وبعث بعثاً إلى مَسْلَمَة مع سَبْرَة بن عبد الرحمٰن بن مِخْنَف: ولكن مَسْلَمَة عزل عبد الحميد عن الكوفة واستعمل عليها محمد بن عمرو بن الوليد بن عُقْبَة بن أبي المُعَيْط، وهو ذو الشّامة.

ومن الواضح أنّ عبد الرحمٰن لم يكن مسيطراً على الكوفة، لذلك تسرّب أكثر أهلها إلى ابن المهلّب، كما لم يكن ذا كفاية قيادية ولا يتحلّى بمزية المبادرة، وكان ضعيفاً متردداً، لذلك عزله مَسْلَمَة وولّى قائداً متميزاً، ليضمن قاعدته الأماميّة: الكوفة.

وجمع يزيد بن المهلّب رؤوس أصحابه فقال: قد رأيت أن أجمع اثني عشر ألفاً، فأبعثهم مع أخي محمد بن المهلّب حتى يبيّتوا مَسْلَمَة، ويحملوا معهم البراذع والأكف والزبُل لدفن خندقهم، فيقاتلهم على خندقهم بقية ليلته، وأُمدّه بالرجال حتى أصبح، فإذا أصبحتُ نهضتُ إليهم في الناس فأناجزهم ، فإني أرجو عند ذلك أن ينصرنا اللّه عليهم، فأجابه أحد أصحابه[١] قائلاً: إنا قد دعوناهم إلى كتاب اللّه وسنة نبيّه ﷺ، وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منا، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا، فثنّى على قوله آخر[٢] قائلاً: صدق! وهكذا ينبغي. فقال يزيد: ويحكم! . . . إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم، فلا يسبقوكم إليه! إني لقيت بني مروان، فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد غدراً من هذه الجرادة الصفراء، يعني مَسْلَمَة، فقالوا: لا نفعل ذلك حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا.

---

(١) اسمه: السميذع.
(٢) هو أبو رؤبة رأس الطائفة المرجئة، ومعه أصحاب له.

وكان مروان بن المهلّب بالبصرة يحثّ الناس على حرب أهل الشّام، والحسن البصري يثبِّطهم، فهدّد مروان الحسن بالعقوبة الصارمة وتوعّده، فقال الحسن: واللّه ما أكره أن يكرمني اللّه بهوانه[1]، فقال ناس من أصحابه: لو أرادك ثم شئتَ لمنعناك، فقال لهم: فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه! آمركم ألاّ يقتل بعضكم بعضاً مع غيري، وآمركم أن يقتل بعضكم بعضاً دوني!.

وكان اجتماع يزيد بن المهلّب ومَسْلَمَة بن عبد الملك ثمانية أيام، فلمّا كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر، بعث مَسْلَمَة من يحرق الجسر.

وخرج مَسْلَمَة معبئاً[2] أهل الشّام، ثم قرب من ابن المهلّب، ثم عبأ العباس بن الوليد رجاله، وكان مَسْلَمَة على الناس قائداً عاماً، وعبّأ يزيد بن المهلّب رجاله أيضاً.

ولما أُحرق الجسر، سطع دخانه، وقد أقبل الناس ونشبت الحرب ولم يشتد القتال، فلمّا رأى الناس الذين مع ابن المهلّب الدخان، وقيل لهم: أُحرق الجسر، انهزموا! فقيل ليزيد: قد انهزم الناس! فقال: ممّ انهزموا؟! هل كان قتال يُنْهَزَمُ من مثله؟!، فقيل له أحرق الجسر فلم يثبت أحد! فقال: قَبحَهم اللّه! بَقّ دُخّنَ عليه فَطار!.

وخرج يزيد مع أصحابه المقربين إليه في محاولة لردّ المنهزمين من جيشه، ولكنه أخفق في محاولته.

ونزل يزيد يقاتل، فجاءه مَنْ ينعي إليه أخاه حبيباً الذي قتل في المعركة، فقال يزيد: لا خير في العيش بعده، قد كنتُ واللّه أبغض الحياة بعد الهزيمة، وقد ازددت لها بغضاً، امضوا قُدُماً ●، فعلموا أنه قد

---

(١) يريد بعقوبته وتوعده.

(٢) كانت التعبئة حينذاك، ميمنة وميسرة وقلباً ومقدمة ومؤخرة.

استقتل، لذلك تسلل عنه من يَكره القتال، وبقي معه جماعة حسنة، وهو يتقدّم، فكلما مرّ بخيل كشفها، أو جماعة من أهل الشَّام عدلوا عنه.

وأقبل يزيد نحو مَسْلَمَة لا يريد غيره، فلمّا دنا منه أدنى مَسْلَمَة فرسه ليركب، فعطفت على يزيد خيول أهل الشَّام وعلى أصحابه، فقتل يزيد ومحمد بن المهلّب.

وكان المُفَضَّل بن المهلب يقاتل أهل الشَّام وما يدري بقتل يزيد ولا بهزيمة الناس، وكان كلما حمل على الناس انكشفوا، ولكن أصحابه تخلّوا عنه هاربين فقيل له: ما تصنع ها هنا وقد قتل يزيد وحبيب ومحمد وانهزم الناس منذ طويل؟!

ولما تفرّق الناس عنه مضى إلى (واسط)، ولكم يكن في العرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئة لحرب ولا أغشى للناس منه.

وأسرَ مَسْلَمَة نحو ثلاث مئة أسير، فسرّحهم إلى الكوفة، فحبسوا بها. وجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة والي الكوفة يأمره بضرب رقاب الأسرى، فبدأ بالتنفيذ وقتل قسماً من الأسرى، فجاء رسول بكتاب من عند مَسْلَمَة يأمره بترك قتل الأسرى، ثم أقبل مَسْلَمَة حتى نزل (الحِيْرَة)[1].

ولما أتت هزيمة يزيد إلى (واسط)، غادرها آل المهلّب إلى البصرة، ومن هناك حملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية ثم لجّوا في البحر، فلمّا كانوا بجبال (كَرْمان)[2] خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب، وكان المقدَّم عليهم المُفَضّل بن المهلّب.

---

(١) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يقال له النجف، انظر التفاصيل معجم البلدان (٢/٢٨٦)، والنجف اليوم قريبة من الكوفة، وفيها مرقد الإمام علي بن أبي طالب ـ وتقع في الصحراء.

(٢) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى واسعة في إيران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٤١) والمسالك والممالك للإصطخري (٩٧ ـ ١٠٠).

وكان بكرامان فلول كثيرة اجتمعوا إلى المفضّل، فبعث مَسْلَمَة قوات من أصحابه، فقاتلوا فلول المفضّل وانتصروا عليهم وكبّدوهم خسائر فادحة بالأرواح.

ومضى آل المهلّب ومَنْ معهم إلى (قَنْدابيل)[1]، فطاردهم أصحاب مَسْلَمَة، فتفرق الناس عن آل المهلّب، ولكن آل المهلّب تقدّموا بأسيافهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، منهم: المفضّل، وعبد الملك، وزياد، ومروان بنو المهلّب وثلاثة من أبنائهم، فبعث مَسْلَمَة برؤوسهم إلى يزيد بن عبد الملك.

وحين بلغ يزيد بن عبد الملك خبر مقتل يزيد بن المهلّب وكثير من آل المهلّب سرّه هذا النصر سروراً عظيماً[2].

وهكذا انتصر مَسْلَمَة على يزيد بن المهلّب وآل بيته، فخدم الدَّولة خدمة لا تقدّر، لقضائه على ثورة يزيد الذي خلع يزيد بن عبد الملك وقاد أخطر ثورة هدّدت كيان الأمويين.

ومن الإنصاف أن نذكر أنّ يزيد بن المهلّب كان قائداً فذاً وإدارياً حازماً، ولكنه خسر حياته وحياة أكثر آل المهلّب، لأنه قاد جيشاً لا يثق به ولا يعتمد عليه، أفراده مرتزقة، كل همهم كسب المال، لذلك لم ينفذوا أوامره ولم يطبقوا تعليماته ولم يكن يجهل قابلية جيشه المتضعضعة ومعنوياتهم المنهارة، وأدرك في أول المعركة بأنه خسرها، ولكنه قاتل عن شرفه وأحسابه، ولم يرض لنفسه الفرار أو الاستسلام.

وكان مَسْلَمَة أيضاً يقود جيشاً أكثرهم من المرتزقة، ولكنهم كانوا

---

(١) قندابيل: مدينة بالسند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٧).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٩٠ ـ ٦٠٤) وابن الأثير (٥/ ٧٧ ـ ٨٩) وابن خلدون (٣/ ١٦٦ ـ ١٧٢) وانظر المسعودي (٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠ ـ ١٦) والمعارف (٤٠٠).

ملتزمين بدولة قائمة، أما جيش يزيد بن المهلّب فكان من المرتزقة غير الملتزمين، لأن مصيرهم مرتبط بيزيد شخصياً. لذلك كان جيش مَسْلَمَة يتحلى بإدارة القتال فانتصر، وكان جيش يزيد لا يتحلى بهذه المزيّة فانهزم.

وقد خسرت الدَّولة بالقضاء على يزيد بن المهلّب وبني المهلّب خيرة قادتها وأحسن جنودها وأقدر أمرائها وولاتها، وهي خسارة كبيرة بلا مراء[1].

وأدهى من ذلك وأمرّ، أن الاقتتال الذي نشب بين الإخوة أدّى إلى عداء عميق الجذور بين القبائل العربيّة في العراق قاعدة الفتح الإسلامي الرئيسة في المشرق الإسلامي، وفي فارس قاعدة الفتح الإسلامي المتقدمة، ممّا أدّى إلى انصراف الفاتحين عن الفتح إلى الاقتتال فيما بينهم، فأصبحت طاقاتهم موجّهة إلى أنفسهم بدلاً من توجيهها إلى أعدائهم، فانحسر مدّ الفتح وتقلّص نفوذ الدَّولة في العراق وفارس وفي السند وفيما وراء النَّهر.

وانتهز هذه الفرصة السانحة العباسيون على الأمويين، وأصبح دعاة بني العباس يسرحون ويمرحون في بلاد فارس بخاصة بحريّة كاملة دون رقيب فعال وحسيب مؤثر.

---

(١) في العبر (١/ ١٢٤): أن يزيد كان ممدّحاً كثير الغزو والفتوح، وانظر أيضاً شذرات الذهب (١/ ١٢٤) وفي يزيد وآل المهلّب يقول الشاعر:

نزلت على آل المهلب شاتياً ... غريباً عن الأوطان في زمن المحل
فما زال بي احسانهم وافتقادهم ... وبرهم حتى حسبتهم أهلي

انظر مختصر تاريخ البشر لأبي الفدا (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢)، وفي النجوم الزاهرات (١/ ٢٦٩)، قال الفرزدق:

إن المهالبة الكرام تحملوا ... دفع المكاره عن ذوي المكروه
زانوا قديمهم بحسن حديثهم ... وكريم أخلاق بحسن وجوه

لذلك كان انتصار مَسْلَمَة في هذا الاقتتال تعبوياً، ولكنه هزيمة سَوْقِيَة (استراتيجيّة) على المدى البعيد.

والانتصار التعبوي لا قيمة له بالنسبة للهزيمة السّوقِيَة كما هو معروف.

ج ـ ترصين الجبهة الشرقيَّة:

لما فرغ مَسْلَمَة بن عبد الملك من حرب يزيد بن المهلّب، جمع له أخوه يزيد بن عبد الملك ولاية الكوفة والبصرة وخُراسان وذلك سنة اثنتين ومئة الهجريَّة[1].

كانت مهمة مَسْلَمَة صعبة، لتناحر القبائل ونشوب العداوة بينها، وضياع الأمن والاستقرار، ممّا أدّى إلى توقّف الفتح وتهديد الفاتحين في البلاد المفتوحة في بلاد فارس والسند وما وراء النَّهر.

لذلك عمل مَسْلَمَة على اختيار الرجال الذين يثق بهم ويعتمد على كفاياتهم، لغرض معاونته في ترصين الجبهة الشرقيَّة للدولة، فأقرّ محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط على الكوفة لأنه سيطر على الكوفة في أيام نشوب القتال بين مَسْلَمَة ويزيد بن المهلب سيطرة كاملة، وأمدّ مَسْلَمَة بالرجال والمواد التموينية، وحمى خطوط مواصلاته، وجعل من الكوفة قاعدة متقدمة لقوات مَسْلَمَة المقاتلة.

وكان قد قام بأمر البصرة بعد آل المهلّب شبيب بن الحارث التميمي، فبعث عليها مَسْلَمَة عبد الرحمٰن بن سلميان الكلبيّ، وعلى شرطتها وأحداثها عمرو بن يزيد التميميّ[2].

---

(١) الطبري (٦/ ٦٠٤) وابن الأثير (٥/ ٨٩) وانظر المعارف (٥٧١) وفيه أن مسلمة كان بين أول من جمع له المصران: الكوفة والبصرة، وانظر التنبيه والإشراف (٢٧ ـ ٢٧٨).

(٢) في ابن الأثير (٥/ ٨٩): ورد اسمه عمرو، وفي الطبري (٦/ ٦٠٤) ورد اسمه عمر.

والظاهر أنّ عبد الرحمٰن بن سليمان الكلبيّ كان والياً ناقماً منتقماً، لأنه أراد استعراض أهل البصرة ليقتلهم انتقاماً منهم لميلهم إلى آل المهلّب وعطفهم عليهم ومعاونتهم لهم مادياً ومعنوياً. فنهاه عمرو بن يزيد التميمي، وكتب إلى مَسْلَمَة بالخبر، فعزله وولّى البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم، وأقرّ عمرو بن يزيد التميمي على الشُّرَط والأحداث[1].

لقد كان مَسْلَمَة بعيد النظر حقاً، لذلك كان يحاول تضميد الجروح لا تعميقها، فلم يرض عن أسلوب عامله على البصرة باتجاهه إلى الصرامة والانتقام، فقد كانت الجروح غائرة وهي ليست بحاجة إلى تعميق، فعزل عامله فوراً وبعث مكانه عاملاً جديداً.

واستعمل مَسْلَمَة على خُراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أُميّة وهو الذي يقال له: سعيد خُذَيْنَة[2]، وكان سعيد زوج ابنة مَسْلَمَة. وقد غزا سعيد الترك وعبر النّهر وغزا (الصُّغْد)[3]، وأراد السيطرة على تلك المناطق وترصين قواعد الفتح المتقدمة، ولكن نجاحه كان محدوداً، لأن كفايته لم تكن بالمستوى المطلوب[4].

ولم يكد مَسْلَمَة يمضي بضعة أشهر على العراق وخُراسان[5]، حتى عزله أخوه يزيد بن عبد الملك سنة اثنتين ومئة الهجريَّة.

---

(١) الطبري (٦/ ٦٠٤ ـ ٦٠٥) وابن الأثير (٥/ ٨٩).

(٢) خذينة بالفارسية هي الدهقانة ربة البيت، انظر ابن الأثير (٥/ ٩٠)، هو من أبناء عمومة مسلمة يلتقي نسبهما بالحكم والد مروان بن الحكم، انظر أنساب الأشراف (١/ ١٦١) وفتوح البلدان (٦٠٠).

(٣) الصغد: كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل هما صغدان: صغد سمرقند وصغد بخارى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٦٢).

(٤) الطبري (٦٠٥ ـ ٦١٥) وابن الأثير (٥/ ٩٠ ـ ٩٧)، وفي أنساب الأشراف (٣/ ١٦٢) أن أهل خراسان شكوا خُذَيْنة فعزله.

(٥) المعارف (٣٥٨)، وفي العيون والحدائق (٧٥): أنه بقي ثمانية أشهر، وقيل ستة أشهر.

وكان سبب عزله أنه ولي العراق وخراسان، فلم يرفع من الخراج شيئاً إلى يزيد بن عبد الملك. واستحيا يزيد أن يطالبه أو يحاسبه، كما استحيا أن يعزله، فكتب إليه: استخلف على عملك وأقْبِل.

ولم يلبث مَسْلَمَة حتى أتاه عزله بعمر بن هُبَيْرَة الفزاريّ الذي تولّى مكانه العراق وخراسان، فعزل عمّاله واستعمل الغلظة عليهم، فقال الفرزدق:

راحت بِمَسْلَمَة البغال عشيّة فارعَى فزارة لا هَنَاكِ المرتعُ

عُزِلَ ابن بِشْر وابن عمروٍ قبله وأخو هَراة لمثلها يتوقّعُ

يعني بابن بشر: عبد الملك بن بِشْر بن مروان بن الحكم، وبابن عمرو محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط ذا الشّامة، وبأخي (هراة) سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة[1]، وهم عمال مَسْلَمَة.

والذي يبدو أنّ يزيد بن عبد الملك عزل أخاه مَسْلَمَة، لأنه لا يستطيع السيطرة عليه في تصرفه بالأموال وفي توجيهه سياسة الدَّولة في تلك البلاد الشاسعة الغنيَّة، فأراد أن يولّي مَنْ يستطيع السيطرة عليه ويوجِّهه كما يريد[2].

كما أن خراج العراق وفارس كان مصدراً غنيّاً من مصادر تمويل الدَّولة، فلا يمكن السكوت عمن يتصرف به كما يشاء دون قيد أو شرط.

---

(١) الطبري (٦/ ٦١٥) وابن الأثير (٥/ ٩٧ ـ ٩٨)، وفيهما رواية أخرى عن سبب عزل مسلمة عن العراق وخراسان لا تتفق مع المنطق ولا يصدقها العقل، وانظر المعارف (٣٦٤) عن تولية عمر بن هبيرة العراقين، وانظر أنساب الأشراف (٣/ ١٨١) حول عزل عبد الملك بن بشر بن مروان ابن الحكم وشعر الفرزدق.

(٢) في العيون والحدائق (٧٥)، قدح فيه عند يزيد، وقالوا: إنه غير مأمون على الخراج فعزله. . . . انتهى.
يقصد: قدح في مسلمة عند الخليفة يزيد بن عبد الملك.

ولم يكن مَسْلَمَة ممن يَضَعُ أموال المسلمين في غير مواضعها، فمن المحتمل أن يكون الخراج في تلك السنة قد تأثر بظروف الحرب في العراق وظروف التسيّب في خراسان، ممَّا أدّى إلى ضعفه وقلّة موارده، خاصة وأنّ جبايته في تلك الظروف مع تغيير الولاة من موالين لبني المهلّب إلى موالين لبني أميّة، وقتل قسم من أولئك الولاة ضيّع المسؤولية وأدّى إلى ذهاب الأموال بدداً.

فلما تولّى مَسْلَمَة، كان عليه أن ينفق ما جباه في التعمير وتأليف القلوب وتقوية جيشه، لذلك لم يبق في يديه ما يبعث به إلى الخليفة في الشَّام، ولو بقي منه شيء لفعل.

لقد استفاد يزيد بن عبد الملك من أخيه مَسْلَمَة في أيام الشدة والحرب، وبعد أن استقرت الأمور أو كادت تخلّى عنه في أيام الرخاء والسّلم.

ولم يكن بمقدور أحد من رجال يزيد، أن ينهض بمهمة القضاء على ثورة يزيد بن المهلّب، وهي ثورة عارمة هدّدت الدَّولة تهديداً خطيراً جداً، ولو كان بجعبة يزيد بن عبد الملك من يستطيع النهوض بمثل هذه المهمّة الصعبة، لرمى به ابن المهلّب دون تردّد.

ولم يكن بمقدور كل قائد أن يسدّ ثغرة في قلب الدَّولة أيام الحرب كما فعل مَسْلَمَة، فبمجرد قدومه على رأس جيشه إلى العراق، جعل معنويات جيش ابن المهلّب تنهار ويتخلّى عنه رجاله، كما جعل معنويات رجاله ترتفع، وازداد الإقبال عليه.

ولكن بمقدور كثير من الولاة أن يحلّوا محلّ مَسْلَمَة في أيام السلام.

إن مَسْلَمَة خلق ليكون غازياً، ولم يخلق ليكون والياً.

ويظهر أن يزيد بن عبد الملك تخلّى عن مَسْلَمَة والياً، ولكنه لم يتخل عنه ناصحاً ومستشاراً، فاستبقاه إلى جانبه في (دمشق) يستنصحه ويستشيره في إدارة شؤون الدَّولة وتصريف أمورها، فكان له نعم الناصح

المخلص والمستشار الأمين.

وممّا يدلّ على ثقة يزيد بن عبد الملك بمَسْلَمَة، أنه بايع لهشام بن عبد الملك ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك باستشارة مَسْلَمَة[(١)].

وحين عزل يزيد عبد الرحمٰن بن الضحّاك عن المدينة ومكة لغضبه عليه، لم يجد ملجأ يلجأ إليه غير مسلمة الذي أجاره وكلم أخاه يزيد بن عبد الملك ليعفو عنه[(٢)].

وكان يزيد بن عبد الملك يحبّ جارية اسمها: (حَبَابة)، فلمّا توفيت وجد عليها وجداً شديداً، وخرج مشيعاً جنازتها ومعه أخوه مَسْلَمَة ليسليه ويعزيه. وقيل أن يزيد لم يطق الركوب من الجزع وعجز عن المشي، فأمر مَسْلَمَة أن يصلي عليها، وقيل: منعه مَسْلَمَة من الصلاة عليها لئلا يرى الناس منه ما يعيبونه به[(٣)] ومكث يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس، أشار عليه مَسْلَمَة بذلك، وخاف أن يظهر منه ما يسفهه عندهم[(٤)].

ولما مات يزيد سنة خمس ومئة الهجريَّة، صلى عليه مَسْلَمَة[(٥)]، وهذا يدلّ على أنه كان أقرب المقربين إلى يزيد حتى توفاه اللّٰه[(٦)].

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٩١) وابن خلدون (٣/ ١٧٤) والأغاني (٧/ ٢).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١١٦) وابن خلدون (٣/ ١٨٢)، وقد أجار أيضاً عمر بن هبيرة على يزيد، فقبل شفاعته، انظر العيون والحدائق (٨٥).

(٣) ابن الأثير (٥/ ١٢٠) والعيون والحدائق (٧٨).

(٤) ابن الأثير (٥/ ١٢١) وتاريخ الموصل (٢٠).

(٥) ابن الأثير (٥/ ١٢٠).

(٦) لقد ذكرت هذه الحوادث لأفند ما زعمه أحد المؤلفين في كتابه: مسلمة بن عبد الملك (٥٦) ونصه: ويبدو أن يزيد بن عبد الملك، كان يخشى مسلمة ويتوقع منه شراً، إذ وجدناه يعزله عن العراقين، ومما يدل على خوف يزيد من مسلمة وحذره الشديد منه، أنه لم يستعمل مسلمة على ولاية طيلة خلافته... ولا سند لهذا الادعاء ولا دليل عليه، فلم يعرف من مسلمة أنه كان يريد أن يشق عصا الطاعة ولا أن يفرق جمع المسلمين.

لقد استأثر يزيد بمَسْلَمَة لرجاحة عقله واتزانه وإخلاصه له وللدولة، ولم يعزله عن العراق لأنه كان يخشاه ويتوقّع منه شرا، إذ ليس من شأن مَسْلَمَة ولا من سماته إشعال نار الفتن وضرب إخوته وأهل بيته من الخلف وتفريق صفوف المسلمين.

٤ - في إرْمِينِيَة[١] وأَذْرَبِيجَان[٢]

في سنة سبع ومئة الهجريَّة (٧٢٥م)، استعمل هشام بن عبد الملك أخاه مَسْلَمَة على إِرْمِينِيَة وأذربيجان خلفاً للجرّاح بن عبد اللّه الحَكَمِيّ، فاستعمل مَسْلَمَة الحارث بن عمرو الطائي، فافتتح رستاقاً[٣] وقرى كثيرة

---

(١) إرمينية: بكسر أوله ويفتح، وسكون ثانية، وكسر الميم، وياء ساكنة، وكسر النون، وياء خفيفة، مفتوحة، اسم صقع عظيم واسع، وقيل: هما إرمينيتان: الكبرى والصغرى، وحدهما من برذعة إلى باب البواب (دربند) من الجهة الأخرى، إلى بلاد الروم وجبل القبق وصاحب السرير. وقيل: إرمينية الكبرى خلاط ونواحيها وإرمينية الصغرى تفليس ونواحيها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٠٣ - ٣٠٦) والمسالك والممالك للإصطخري (١٠٨) وتقويم البلدان (٣٨٧) ومختصر كتاب البلدان (٢٨٦ - ٣٠١) والمسالك والممالك لابن خردابة (١٢ - ١٢٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤) وكتاب الأقاليم (٧٩) والبلدان لليعقوبي (١٠٦) والأعلاق النفيسة (١٠٦). وإرمينية اليوم في الجزء المتاخم لإيران - تركيا - الإتحاد السوفياتي، وهي في هذه البلاد جميعاً وأهلها أرمن.

(٢) أذربيجان: كلمة في الفارسية ومعناها أرض النار أو معابد النار، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك. وأذربيجان صقع جليل ومملكة عظيمة، والغالب عليها الجبال وأشهر مدنها تبريز وهي قصبتها، وأكبر مدينة فيها أربيل، ومن مدنها: المراغة وأرمية وخوي وسلماس ومرند وموقا... إلخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٥٩ - ١٦١ والمسالك والممالك للإصطخري (١٠٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤ - ٣٧٨) وكتاب الأقاليم (٧٩ - ٨٥) والاعلاق النفيسة (١٠٦) والبلدان لليعقوبي (١٠٦) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (١١٨ - ١٢١) وتقويم البلدان (٣٨٦ - ٤٠٧) ومختصر تاريخ البلدان (٢٨٤ - ٢٨٦)، وأذربيجان اليوم في إيران والاتحاد السوفيتي، بينهما الحدود التي تفصل بين البلدين، وإحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي هي: جمهورية أذربيجان، وهي القسم الذي ضمن حدود من هذه البلاد الشاسعة.

(٣) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، فهو =

وأثر فيها أثراً حسناً[1].

ومن المعروف أن تلك المناطق قد فتحها عُتْبَة بن فَرْقد السُلَمِيُ[2] وبُكَيْر ابن عبد اللّه اللّيْثِيّ[3] وسُراقة بن عمرو ذو النور[4] في أيام عمر بن الخطّاب ﷺ، فيكون دور مَسْلَمَة وقائده في هذا المجال هو: القضاء على اضطرابات داخلية، وتوطيد أركان الأمن، في منطقة من المناطق المفتوحة.

وفي سنة ثمان ومئة الهجريَّة (٧٢٦م)، غزا مَسْلَمَة الرّوم ممّا يلي (الجزيرة)[5]، ففتح (قَيْسَاريّة)[6] وهي مدينة مشهورة[7]، كما بعث

= عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد، وهو أخص من الكورة والاستان، انظر معجم البلدان (١/ ٣٧)، والكورة: اسم فارسي بحت يقع على قسم أقسام الاستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للاستان فالكورة والاستان واحد. والكورة: كل صقيع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة، لقولهم دارا بجرد مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته: كورة دارا بجرد، ونحو ذلك نهر الملك، فإنه نهر عظيم مخرجه من الفرات ويصب في دجلة عليه نحو ثلاث مئة قرية، ويقال لذلك جميعه: كورة نهر الملك، انظر معجم البلدان (١/ ٣٦). وأما الاستان والكورة واحد، وانظر معجم البلدان (١/ ٣٧).

(١) ابن كثير (٥/ ١٣٧ ـ ١٣٨) والعبر (١٣٠) وشذرات الذهب (١٣٤) وتاريخ الموصل (٢٥) وتاريخ ابن خليفة (٢/ ٣٥٠)، وانظر سيرة الحارث بن عمرو الطائي في تهذيب ابن عساكر (٣/ ٤٥٦).

(٢) انظر ترجمته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤١٥ ـ ٤٢٢).

(٣) انظر ترجمته في كتابنا، قادة فتح فارس (٢٠٥ ـ ٢٠٨).

(٤) انظر ترجمته في كتابنا: قادة فتح فارس (٢٠٩ ـ ٢١٣).

(٥) الجزيرة: هي جزيرة ابن عمر.

(٦) قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم تقع مدينة سبواس في شرقيها وينتقل منها إلى قونية، انظر معجم البلدان (٧/ ١٩٥) وتقويم البلدان (٣٨٢ ـ ٣٨٣) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٦٤ ـ ٣٦٥).

(٧) ابن الأثير (٥/ ١٤٠)، وفي العبر (١/ ١٣١) وشذرات الذهب (١/ ١٣٤): أن قيسارية فتحها مسلمة سنة سبع ومئة الهجرية في رمضان عنوة، وكذلك في تاريخ الموصل (٢٦) وانظر النجوم الزاهرة (١/ ٢٦٢).

الحارث بن عمرو الطائي إلى (ورتان) فاستعاد فتحها[1] وفي سنة تسع ومئة الهجريَّة (٧٢٧م)، غزا مَسْلَمَة الترك[2] من ناحية (أذربيجان)، فغنم وسبى وعاد سالماً[3].

وهذه غزوة أخرى من غزوات توطيد سيطرة الدَّولة في البلاد المفتوحة وإشاعة الأمن والاستقرار في (أذربيجان) الجبلية ذات البرد القارص.

وفي سنة عشر ومئة الهجريَّة (٧٢٨م)، غزا مَسْلَمَة الترك من باب (اللّان)[4]، فلقي (خاقان)[5] في جموعه، فاقتتلوا قريباً من شهر، وأصابهم مطر شديد، فانهزم خاقان، ورجع مَسْلَمَة على مسلك (ذي القَرْنَيْن)[6] منتصراً[7]. وهذه الغزوة تسمى غزوة (الطِّين)، وكانت ملحمة عظيمة في سابع جُمادى الآخرة من هذه السنة[8]، ويبدو أنها سميت غزوة (الطِّين) لهطول أمطار غزيرة جعلت ساحة المعركة أوحالاً من الطين.

وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجريَّة (٧٢٩م) استعمل هشام بن

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٣/ ٤٥٦).
(٢) في تاريخ الموصل (٢٩): أنه غزا الخزر لا الترك، والخزر أصلهم من الترك، فلا خلاف بين الروايتين.
(٣) ابن الأثير (٥/ ١٤٥) وتاريخ الموصل (٢٩) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٢).
(٤) اللان: بلاد واسعة في طرف إرمينية قرب (باب الأبواب) مجاورون للخزر، انظر معجم البلدان (٧/ ٣١٦) وتقويم البلدان (٤٠٤).
(٥) خاقان: لقب ملك الترك، ومعناه: الملك.
(٦) ذو القرنين: أحد الفاتحين العظام، ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف، واختلف المؤرخون في اسمه الحقيقي وتاريخ حياته، وهو الذي بنى سد الصين المشهور، ويسمى سد يأجوج ومأجوج، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٦٢ ـ ١٦٤).
(٧) ابن الأثير (٥/ ١٥٥).
(٨) النجوم الزاهرة (١/ ٢٦٧) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢).

عبد الملك، هشام الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ على إِرْمينِيَة وعزل أخاه مَسْلَمَة[١]، فدخل الجرّاح بلاد الخزر من ناحية (تَفْليس)[٢]، ففتح مدينتهم (البيضاء)[٣] وانصرف سالماً، فجمعت الخزر وحشدت وسارت إلى بلاد الإسلام، وكان ذلك سبب استشهاد الجرّاح[٤] سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريَّة (٧٢٩م)، وكان الجرّاح خيّراً فاضلاً من عمال عمر بن عبد العزيز، ورثاه كثير من الشعراء[٥].

ولا يذكر المؤرخون سبباً لعزل مَسْلَمَة، ويبدو أن مَسْلَمَة كان في (دمشق) سنة إحدى عشرة ومئة الهجريَّة، فلم يَغز في تلك السنة، كما أن الترك سارت إلى (أذربيجان) فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم، ممَّا يدل على أنّ مَسْلَمَة كان بعيداً عن ميدان القتال، فقاد المعركة قائد من قادته الذين يعملون بإمرته، وهذا يدل على أن مَسْلَمَة كان في (دمشق) لأسباب قاهرة، وقد يكون مريضاً، لأنّ هشام بن عبد الملك لا يمكن أن يستغني عن مَسْلَمَة وهو يده اليمنى في تلك المناطق النائية، كما لا يمكن أن يعزله بدون رغبته إلاّ لأسباب قاهرة.

ولو أن هشام بن عبد الملك عزله لريبة أو لأنه قصّر بواجبه، لمّا أعاده إلى منصبه سنة اثنتين عشرة ومئة الهجريَّة (٧٢٩م) والياً على (إِرْمينِيَة) و(أذربيجان)، فوصل إلى بلاد الترك في شتاء شديد حتى جاء

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١٥٨) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٠) وابن خلدون (٣/ ٢٩٩) وتاريخ الموصل (٣٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٣).

(٢) تفليس: بلد بإرمينية الأولى، وبعض يقول بأران، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة، انظر معجم البلدان (٢/ ٣٩٦) وتقويم البلدان (٤٠٢ ـ ٤٠٣) وكتاب صور الأرض (٢٩٢ ـ ٢٩٤).

(٣) البيضاء: مدينة ببلاد الخزر خلف مدينة باب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٣٦) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٧٧ ـ ٧٨).

(٤) ابن الأثير (٥/ ١٥٨) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٠).

(٥) ابن الأثير (٥/ ١٥٩) وابن خلدون (٣/ ٢٩٩) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧١) وتاريخ الموصل (٢٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٤).

(الباب)[1] في آثارهم[2].

وثبت مَسْلَمَة لمدينة (الباب) ففتحها، وكان في قلعتها ألف رجل من بيوتات الخزر، فحاصرهم ورماهم بالحجارة، ثم رماهم بقنابل من الحجارة، ولكنه لم ينتفع بذلك، فعمد إلى العين التي تجري منها الماء إلى صهريجهم، فذبح البقر والغنم وألقى فيه الفرث والمواد الأخرى التي لا ينتفع بها الناس، فلم يمكث ماؤهم إلاّ ليلة حتى دوّد وأنتن وفسد، فلمّا جنّ عليهم الليل هربوا وأخلوا القلعة. وأسكن مدينة (الباب) أربعين ألفاً من أهل الشّام على العَطاء، وبنى هُرْياً للطعام وهُرياً للشعير وخزانة السلاح، وأمر بكبس الصهريج ورمّ المدينة[3].

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٠م)، فرّق مَسْلَمَة الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مدائن وحصون على يديه، وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق، ودان له من وراء جبال (بَلَنْجَر)[4]، وقتل ابن خاقان[5]؛ فاجتمعت تلك الأمم جميعها: الخزر وغيرهم في جمع لا يعلم عددهم إلاّ اللّه، وقد جاوز مَسْلَمَة (بلنجر)، فلمّا بلغه خبرهم، أمر أصحابه، فأوقدوا النيران، ثم ترك خيامهم وأثقالهم، وعاد وعسكر وأبقى جريدة، وقدّم الضعفاء وأخّر الشجعان، وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة، حتى وصل إلى (الباب) في آخر رمق[6]، فأكمل بناء (الباب)[7] وحصّنها.

وفي سنة أربع عشرة الهجريَّة (٧٣١م) استعمل هشام بن عبد الملك،

---

(١) الباب: وهي باب الأبواب (دربند)، ميناء على بحر الخزر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٩) وتقويم البلدان (٤٠٤ ـ ٤٠٥).

(٢) ابن الأثير (٥/١٦٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٧).

(٣) فتوح البلدان (٢٩١).

(٤) بلنجر: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٧٨).

(٥) في المعارف (٣٦٥)، أنه قتل خاقان ملك الترك.

(٦) ابن الأثير (٥/١٧٣ ـ ١٧٤).

(٧) المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٩).

مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمه على (الجزيرة) و(أذربيجان) و(إِرْمينِيَة) وعزل مَسْلَمَة[1]، فأقبل بعد ما هزم خاقان وأحكم ما هناك وبنى (الباب)[2].

فما هو سبب عزله؟

لقد كان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ـ وهو آخر خلفاء بني أميّة ـ مع عسكر مَسْلَمَة بإِرْمينِيَة حين غزا الخزر، فلمّا عاد مَسْلَمَة إلى (الباب) سار مروان إلى هشام بن عبد الملك، فلم يشعر به حتى دخل عليه، فسأله عن سبب قدومه، فقال: ضِقْتُ ذرعاً بما أذكره، ولم أر مَنْ يحمله غيري! قال: وما هو؟ قال مروان: قد كان من دخول الخَزر إلى بلاد الإسلام وقتْل الجرّاح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين، ثم رأى أمير المؤمنين أن يوجِّه أخاه مَسْلَمَة بن عبد الملك إليهم، فواللّه ما وطىء من بلادهم إلا أدناها، ثم إنه لمّا رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك، فكتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر فاستعدّ القوم وحشدوا، فلمّا دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية، وكان قصاراه السّلامة، وقد أردتُ أن تأذن لي في غزوة أُذهب فيها عنّا العار وأنتقم من العدو. قال هشام: قد أذنت لك، قال: وتمدّني بمئة وعشرين ألف مقاتل؟، قال: قد فعلتُ، قال: وتكتم هذا الأمر عن كل واحد؟ قال: قد فعلتُ، واستعملتك على إِرْمينِيَة[3].

وقد خرج مروان مختفياً عن مَسْلَمَة إلى هشام[4]، أي أنه عاد إلى الشّام من الجبهة الأماميَّة دون إذن مَسْلَمَة ودون علمه!!!

---

(١) ابن الأثير (١٧/٥) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٣) وتاريخ الموصل (٣٤) والعبر (١/ ١٤١) وشذرات الذهب (١/ ١٤٧) وابن خلدون (٣/ ٣٠٠).

(٢) ابن الأثير (١٧٩/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٩/٢).

(٣) ابن الأثير (١٧/٥) وابن خلدون (١٩٧/٣).

(٤) ابن خلدون (١٩٧/٣).

وفي رواية أخرى: لمّا أقبل مَسْلَمَة، زحفت إليه الخزر، فلم يشعر مَسْلَمَة حتى طلعوا عليه، فقاتلهم وحال بينهم اللّيل، وبات المسلمون يحْيون×، وانصرف الخزر وقفل مَسْلَمَة واستخلف مروان بن محمد، وذلك كله سنة ثلاث عشرة ومئة الهجريّة[1].

والتناقض بين الروايتين واضح، فإنّ مَسْلَمَة عاد بعد أن قتل خاقان وأحكم ما هناك[2]، فلم يدخل الوهن على المسلمين إذاً، كما أنّ مَسْلَمَة تغلغل في بلاد الخزر، فكيف لم يطأ من بلادهم إلاّ أدناها؟!

أما أنه كتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر، حتى استعدّ الخزر فليس ذلك معقولاً، إذ لا يمكن أن يتصرّف أي قائد هذا التصرّف، فينذر عدوّه بالحرب، ويفسح له المجال للاستعداد، ثم يتراخى عن العدو ثلاثة أشهر!!

أما أنّ مَسْلَمَة لم تكن له نكاية بالخزر، فهذا ما يدحضه سير القتال، وما أنجزه مَسْلَمَة في الحرب.

يبقى ما ورد عن خروج مروان بن محمد مختفياً من مَسْلَمَة إلى هشام بن عبد الملك، فلو كان مروان مبيتاً الوشاية بابن عمه مَسْلَمَة، لاستأذنه في القفول إلى دمشق لسبب من الأسباب ثم يعود أدراجه إلى دمشق، إذ ليس من المعقول أن يعود من (الباب) إلى دمشق، وهو قريب القربى من مَسْلَمَة، فيبقى أمر عودته سراً مكتوماً على مَسْلَمَة ولا يعرف مَسْلَمَة عن رحيله شيئاً!!

كما أنّ العلاقة الوثيقة بين مَسْلَمَة ومروان من جهة، والعلاقة الوثيقة بين هشام ومَسْلَمَة من جهة أخرى، تجعل من الصعب على مروان أن يشي بمَسْلَمَة، وتجعل من الصّعب على هشام أن يصدّق وشاية مروان، خاصة وأنها تناقض الحقائق الناصعة ولا يصدقها عاقل.

---

(1) تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٩).
(2) ابن الأثير (٥/١٧٩).

كل ذلك يجعلنا نعتمد الرواية الثَّانية، وهي أنّ مَسْلَمَة بعد أن أنهى واجبه على أحسن ما يرام، قفل راجعاً إلى دمشق، واستخلف مروان على ولايته.

ويبدو أنّ مَسْلَمَة بعد عودته اقترح على هشام أن يولي مروان مكانه، فاستجاب هشام لاقتراح مَسْلَمَة.

ولم يكن هشام ليعزل مَسْلَمَة الذي كان الرجل الثَّاني في الدَّولة الأموية، وليس من المعقول أن يعزل مَسْلَمَة لعدم كفايته، لأنّ كفايته فوق الشبهات، ولأنّ هشام بن عبد الملك ولاه لكفايته حتى يعيد سيطرة الدَّولة على تلك الأصقاع النائية.

وممَّا يلفت النظر أنّ مَسْلَمَة لم يَغْزُ ولم يتول ولاية منذ سنة أربع عشرة ومئة الهجريَّة، حتى توفّاه اللَّه سنة عشرين ومئة الهجريَّة أو سنة إحدى وعشرين ومئة الهجريَّة.

وغيابه عن تحمل الجهاد وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً على النهوض بهذا الفرض - ليس طبيعياً، بالرغم من ثقة هشام به ثقة مطلقة، وبالرغم من حاجة الدَّولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ.

وإذا كان بالإمكان أن يتخلى عن تولي المناصب الإدارية، فليس بالإمكان أن يتخلّى عن تولي المناصب القيادية، وهو الذي حمل السيف قائداً ولم يتجاوز العشرين من عمره وقضى كل سني حياته في ساحات الجهاد قائداً حتى سنة أربع وعشرة ومئة الهجريَّة، فمن المعقول أنه تخلى عن المناصب القيادية لأسباب اضطرارية خارجة عن إرادته.

والذي يبدو أنّ تخليه عن القيادة مكرهاً، كان لاعتلال صحته وإصابته بالمرض، ومن المعروف أنّ من مزايا القائد المتميِّز تمتعه بالقابلية البدنية المتميزة، ليستطيع تحمل مشاق التنقّل وأعباء الجهاد، وإلا فليس هناك ما يسوِّغ ابتعاده عن ساحات الوغى غير المرض الذي أقعده عن قيادة الجيوش.

وعلى كل حال، فقد أدّى ما عليه من واجبات قيادية وإدارية، بما فيه الكفاية، وخدم الدَّولة في ميداني القيادة والإدارة على حد سواء بشرف وأمانة وإخلاص وقوة.

الإنسان

١ ـ ظهرت مزايا مَسْلَمَة وألمعيّته مبكِّراً وهو صغير السن، فركّز أبوه عبد الملك بن مروان عليه بخاصة في وصيته أبناءه وبنيه وهو على فراش الموت، فقال فيه: .... وانظروا مَسْلَمَة فاصدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذي عنه تفترون، ومِجَنّكم الذي عنه ترمون[١]، فهو قائد من قادة الفكر، وقائد من قادة الجهاد، بالنسبة لبني أميّة، لا يخالفون له رأياً، ولا يعصون له أمراً، ويلجؤون إليه في أيام المحن والحروب.

لقد كان من رجال بني أميّة[٢] المعدودين، موصوفاً بالشجاعة والإقدام، والرأي والدهاء[٣]، وصفه يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة فقال: .... إني لقيتُ بني مروان، فما لقيت منهم أمكر ولا أبعد غدراً من مَسْلَمَة[٤]؛ فهو داهية من الدُّهاة، بعيد الغور، شديد الذكاء.

تولّى العراقَيْن مرة واحدة وتولى (إِرْمينِيَة) وأذربيجان) و(الجزيرة) ثلاث مرات، في أحرجَ الظّروف وأصعب الأيام، فوطّد الأمن فيها وأعاد الاستقرار إليها، وفرض عليها سيطرة الدَّولة وهيبة الحكم: فكان إدارياً حازماً، ورجل دولة من الطّراز الأول، وقائداً متميِّزاً، ومن أقواله التي تشير إلى هذه المزايا: مُروءتان ظاهرتان: الرياسة والفصاحة.

فلا عجب أن يهتم أبوه به حيّاً، ويوصي به وهو يحتضر، ويفرض

---

(١) العبر (١/ ١٥٤) وشذرات الذهب (١/ ١٥٩).
(٢) الطبري (٦/ ٥٩٣) وفيه: أبعد (غوراً) لا أبعد (غدراً)، وانظر ابن الأثير (٥/ ٨٠).
(٣) عيون الأخبار (١/ ٢٥٦).
(٤) المعارف (٥٥٦).

شخصيته على من تولى الخلافة بعد أبيه وعلى بني أمية كافة، وجميع الحكّام والمحكومين على حد سواء.

بل إنه فرض شخصيته على أعدائه أيضاً، داخل حدودها وخارجها، فكانوا يحسبون له ألف حساب.

فقد أسر الرّوم عبد اللَّه بن كُلَيْب من بني عامر بن صَعْصَعة، وكان مع مَسْلَمَة في غزوة من غزواته الكثيرة، فأراد قيصر ملك الرّوم قتله، فقال له عبد اللَّه: واللَّه لئن قتلتني لا تبقى بَيْعَة في بلاد الإسلام إلاّ هُدمت، فخشي قيصر مغبة قتله، لأنه من رجال مَسْلَمَة الذي يدافع عن رجاله ويحميهم، ولا يتخلّى عنهم حتى ولو كانوا أسرى بيد الأعداء، وينتقم لهم إذا ما أُصيب أحدهم بسوء ظلماً.

٢ ـ لقد كان مَسْلَمَة ذا شخصية قوية رصينة، تستند على أسس ثابتة رصينة هي: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العلمية.

أما عن الطبع الموهوب، فقد كان ذكياً ألمعيّ الذكاء، ومن أحضر الناس جواباً. فقد مرّ مَسْلَمَة وكان من أجمل الناس بمُوَسْوِسٍ على مَزْبلة، فقال له الموسوس: لو رآك أبوك آدم، لقَرّت عينُه بك، فقال مَسْلَمَة: لو رآك أبوك آدم لأذهبت سَخنةُ عينه بك قُرّة عينه بي[١].

وكان بعيد النظر، لا يكاد يترك شاردة ولا واردة إلاّ ويمعن فيها الفكر بعمق وشمول، فقد قدّر أنّ ثورة يزيد بن المهلّب ليست هيِّنة، وربما تعصف بالدَّولة، فخاف الحرب النفسية بالإشاعات، ومنها الادعاء بوفاة الخليفة يزيد بن عبد الملك، فيفت ذلك في عضد الجيش، لذلك اقترح أن يولي هشام بن عبد الملك من بعده، لكي يكون مسؤولاً عن تولّي الخلافة، فيدير الدَّولة، ولا يبقى عرضة للهزّات، فبايع يزيد لأخيه

---

(١) العقد الفريد (٤/ ٤١).

هشام، وبعده لابنه الوليد بن يزيد[1].

٣ ـ أما عن العلم المكتسب، فقد كان مَسْلَمَة محدِّثاً، روى الحديث عن عمر بن عبد العزيز وروى عنه أبو واقد صالح بن محمد الليثي وعبد الملك بن أبي عثمان وعبيد اللَّه بن قزعة وعُيَيْنَة والد سفيان بن عُيينة وعتبة بن أبي عِمران الهلالي ويحيى بن يحيى الغسّاني، وذكره ابن سميع في الطبقة الرابعة من تابعي الشَّام[2].

وكان شاعراً مُقِلاً كما يبدو، من شعره:

أرقتُ وصحراء الطَوانة بيننا ... لبرق تَلألأ نحو غَمرة يلمحُ
أزاول أمراً لم يكن ليطيقه ... من القوم إلاّ اللوْذَعِيّ الصَّمَحْمَحُ[3]

وقد كتب بها إلى الوليد بن عبد الملك من القُسْطَنطينيَّة[4]

فإذا صحّ أنّ هذين البيتين من شعر مَسْلَمَة، فلا يصحّ أنه كتب بها إلى الوليد بن عبد الملك، لأنّ مَسْلَمَة لم يكن في القُسْطَنْطينيَّة أيام الوليد، بل كان فيها أيام سليمان بن عبد الملك كما هو معروف، وكما ذكرنا في الحديث عن: حصار القُسْطَنْطينيَّة، وقال:

إني إذا الأصوات في القوم عَلَتْ ... في موطن تخشى به القوم العَنَتْ
مُوَطِّنٌ نفسي على ما خَيّلتْ[5] ... بالصبر حتى تنجلي عما انْجَلَتْ[6]

وشعره على قلّه ما وصل إلينا منه، يجعله من الشعراء الفرسان، أو من شعراء الفروسية ولا يمكن وضعه في مكانه اللائق به بين الشعراء

---

(١) تهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤) وانظر البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨) والعبر (١/ ١٥٤) وشذرات الذهب (١/ ١٥٩).
(٢) ابن الأثير (٥/ ٩٥) وابن خلدون (٣/ ١٧٤) وانظر الأغاني (٧/ ٢).
(٣) الصمحمح: الرجل الشديد المجتمع الألواح، انظر ترتيب القاموس المحيط (٢/ ٧٨٢).
(٤) معجم الشعراء (٢٧٨).
(٥) خيلت: شبهت. وعلى ما خيلت: أي على كل حال.
(٦) الحيوان للجاحظ (٥/ ٦٠٢).

استناداً على هذا الشعر القليل، كما لا يمكن تقدير قابليته الشعرية للسبب نفسه.

ولكنه كان يحب الشعر، ويقدِّر الشعراء، ويعرف قابلياتهم الشعرية، ويثمِّن إنتاجهم الشعري، ويكرم وفادتهم ويثيبهم على شعرهم ويحميهم من السلطان.

ومن أقواله في تقويم الشعراء: ثلاثة لا أسألُ عنهم، أنا أعلم العرب بهم: الأخطل والفرزدق وجرير. فأما الأخطل فيجيء سابقاً أبداً، وأما الفرزدق فيجيء مرة سابقاً، ومرة ثانياً، وأما جرير فيجيء سابقاً مرة وثانياً مرة وسُكيتاً مرة[١].

ومن أمثلة إكرامه للشعراء، ما حكاه كُثَير[٢]، قال: شخصتُ أنا والأحْوص[٣] ونُصَيْب[٤] إلى عمر بن عبد العزيز رحمه اللَّه، وكل واحد منا يدلّ عليه بسابقة له وإخاء ونحن لا نشك أنه يشركنا في خلافته، فلمّا رفعت لنا أعلام خُناصرة[٥] لقينا مَسْلَمَة بن عبد الملك جائياً من عنده، وهو يومئذ فتى العرب، فسلّمنا عليه، فردّ علينا السلام، ثم قال: أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر! قلنا: ما وضح لنا خبر حتى انتهينا إليك. ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا، فقال: إنّ يكُ ذو دِينِ بني مروان وليَ وخشيتم حرمانه، فإنّ ذا دنياها قد بقى، ولكم ما تحبّون، وما ألبثُ

---

(١) الشعر والشعراء (١/ ٣٩٣).

(٢) كثير بن عبد الرحمٰن بن أبي جمعة، من خزاعة.

(٣) الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٨٢)، وقد جاء نسبه في كتاب: الشعر والشعراء: الأحوص بن مالك بن جعفر بن كلاب، وقد زاد اسم مالك في نسبه، انظر الشعر والشعراء (١/ ٣٢٢)، والأول أصح.

(٤) نصيب بن رباح أبو محجن الشاعر، انظر خلاصة الذهب المسبوك (٣٤)، وكان عبداً أسود لرجل من أهل وادي القرى، انظر الشعر والشعراء (١/ ٣٢).

(٥) بليدة من أعمال حلب، انظر معجم البلدان (٢/ ٤٦٧) وترتيب القاموس المحيط (٢/ ١١٢).

حتى أرجع إليكم، فأمنحكم ما أنتم أهله. فلمّا قدم كان رحالنا عنده بأكرم منزل وأفضل منزول به، فأقمنا عنده أربعة أشهر، يطلب لنا الإذن هو وغيره، فلم يُؤذن لنا. إلى أن قلتُ في جمعة من تلك الجُمع: لو أني دنوت من عمر، فسمعتُ كلامه فحفظته كان ذلك رأياً، ففعلت، فكان ممَّا حفظت من قوله، لكل سفر زاد لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدّ اللَّه له من ثوابه وعقابه، فترغّبوا وترهّبوا، ولا يطولنّ عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم... في كلام كثير... ثم قال: أعوذ باللَّه أن آمركم بما أنهى عنه نفسي، فتخسر صفقتي وتظهر عَيْلتي[1] وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلاّ الحقُ والصدق... ثم بكى حتى ظننا أنه قاضٍ نحبه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء والعويل. وانصرفتُ إلى صاحبيّ، فقلت لهما: خذا في شرح[2] من الشعر غير ما كنا نقوله لعمر وآبائه، فإن الرجل أُخرويّ ليس بدنيويّ. إلى أن استأذن لنا مَسْلَمَة في يوم جمعة، فأذنَ لنا بعد ما أذن للعامَّة، فلمّا دخلتُ عليه سلمتُ، ثم قلت: يا أمير المؤمنين! طال الثواء، وقلت الفائدة وتحدّثت بجفائك إيانا وفود العرب، فقال: يا كثير! ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[3]، أفي واحد من هؤلاء أنت؟ فقلت: ابن السبيل منقطع به، وأنا ضاحك، قال: أو لستَ ضيف أبي سعيد[4]، قلت: بلى! قال: ما أرى من كان ضيفه منقطعاً به[5].

---

(١) العيلة: الفقر والحاجة، انظر المعجم الوسيط (٢/ ٦٤٠).

(٢) شرح: الضرب واللون، وقد جاء في الشعر والشعراء (١/ ٤١٢): شرح، وهو تصحيف.

(٣) الآية الكريمة في سورة التوبة: ٦٠.

(٤) أبو سعيد: مسلمة بن عبد الملك، وهذه كنيته، انظر تهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤).

(٥) الشعر والشعراء (١/ ٤١١ ـ ٤١٢) والعقد الفريد (٢/ ٧٦ ـ ٨٨)، والنص منقول عن الشعر والشعراء.

ومن أمثلة إكرامه للشعراء، أنه قال يوماً لنُصَيْب الشاعر: سَلْني!، قال: لا!، قال: ولِمَ؟، قال: لأنّ كَفَك بالجزيل أكثر من مسألتي باللّسان!، فأعطاه ألف دينار[1].

ومن أمثلة حمايته للشعراء، أنّ الكُمَيْت بن زيد[2] كان يمدح بني هاشم ويُعَرِّض ببني أميّة، فطلبه هشام بن عبد الملك، فهرب منه عشرين سنة، لا يستقر به القرار من خوف هشام، وكان مَسْلَمَة بن عبد الملك له على هشام حاجة في كل يوم يقضيها له ولا يردّ فيها. فلمّا خرج مَسْلَمَة بن عبد الملك يوماً إلى بعض صُيوده، أتى الناس يُسَلِّمون عليه، وأتاه الكُمَيت بن زيد فيمن أتى، فقال: السلام عليك أيها الأمير ورحمة اللّه وبركاته. أما بعد:

قِفْ بالديارِ وُقوفَ زائِرْ ... وتأنّ إنك غير صاغِرْ

حتى انتهى إلى قوله:

يا مَسْلم بن أبي الوليد ... لميِّتِ إن شِئْتَ ناشِرْ
عَلِقَتْ حَبَالي في حِبَا ... لك ذِمّة الجار المجاوزْ
فالآن صرتُ إلى أُميّة ... والأمور إلى المصايرْ
والآن كنتُ به المُصِيبَ ... كَمُهْتَدٍ بالأمسِ حائر

فقال مَسْلَمَة: سبحان اللّه! من هذا الهِندِلِي[3] الجِلْحَاب[4] الذي أقبلَ من أُخريات الناس، فبدأ بالسلام، ثمّ أما بعد، ثم الشعر؟، قيل له: هذا الكُميت بن يزيد، فأعجب به لفصاحته وبلاغته: فسأله مَسْلَمَة عن خَبره، وما كان فيه طولَ غيبته، فذكر له سُخط أمير المؤمنين عليه، فضمن له مَسْلَمَة أمانه، وتوجّه به حتى أدخله على هشام، وهشام لا يعرفه. فقال

---

(١) البداية والنهاية (١٠/٣٢٩) وتاريخ الإسلام (٤/٣٠٣).
(٢) الكميت بن زيد، من بني أسد، وكان معلماً، انظر الشعر والشعراء (٢/ ٤٨٥).
(٣) الهندلي: (بكسر الهاء والدال): الرجل من أهل الهند.
(٤) الجلحاب: الشيخ الكبير.

الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللّه وبركاته. الحمد للّه! فقال هشام: نعم! الحمد للّه يا هذا!. وتكلم الكميت مستعطفاً، فرضي عنه هشام وأمر له بجائزة[1]، إكراماً لمَسْلَمَة.

لقد كان مَسْلَمَة شاعراً، يعرف للشعراء مكانتهم، ويقدِّرهم حق قدرهم.

٤ ـ وقد مدحه الشعراء: ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الشاعر أبو نُخَيْلة التميمي فيه:

أمَسْلُم إني يا ابنَ خير خليفةٍ ... ويا فارس الدنيا ويا جَبَل الأرض
شكرتك إنَّ الشُكر حَبْل من التُقى ... وما كل مَنْ أوليتَه نعمةً يَقضي
وألقيتَ ـ لمّا جئتُ بابك زائراً ... رواقاً مديداً سامق الطول والعرض
وانبهت لي ذكرى وما كان خاملاً ... ولكنّ بعض الذكر أنبه من بعض[2]

ومدحه العجّاج بقصيدة طويلة من بحر الرَّجز في أربعة وسبعين بيتاً نقتطف منها[3]:

مَسْلَم، لا أنْساكَ ما بَقِيْتُ
فَضْلَكَ والعَهْدَ الذي رضِيْتُ
لو أَشْرَبُ السُلْوانَ ما سَلِيْتُ
ما بِيْ غِنىً عنكَ وإنْ غَنِيْتُ
لو أنَّني صَمِمْتُ أو عَمِيْتُ

وكان لا يلحن كاتباً وشاعراً وخطيباً، ومن أقواله في اللحن: اللحن في الكلام أقبح من التّفتيق في الثوب النفيس[4]، وكان فصيحاً[5]. ومن

---

(١) العقد الفريد (٢/ ١٨٣ ـ ١٨٥) وفيه تفاصيل استعطاف الكميت.
(٢) طبقات الشعراء (٢/ ١٨٣ ـ ١٨٥) وفيه تفاصيل استعطاف الكميت.
(٣) ديوان العجاج (٤٦٤ ـ ٤٧١).
(٤) عيون الأخبار (٢/ ١٥٨).
(٥) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٩).

أقواله: ما قرأت كتاباً قط لأحد إلا عرفت عقله منه[1].

فلا عجب أن يوصي بثلث ماله لأهل الأدب قائلاً: إنها صنعة جحِف[2] أهلها[3].

وكان كريماً[4] غاية الكرم، ومن الأمثلة على كرمه أنه دخل على عمر بن عبد العزيز ﷺ في المَرْضَة التي مات فيها، فقال: يا أمير المؤمنين! إنك فطمت أولاد ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة، ولا بد لهم من شيء يُصْلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نُظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم إن شاء اللّه. فقال عمر: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: الحمد للّه! أبالفقر تخوِّفني يا مَسْلَمَة! أمَّا ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم. وأمَّا ما سألتَ من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي فإن وصيتي بهم إلى اللّه الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى اللّه، فجعل اللّه له من أمره يُسراً ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غيّر وفجر، فلا يكون عمر أوّلَ من أعان على ارتكابه! ادعوا إليّ بَنيَّ، فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً، فجعل يُصَعِّد بصره فيهم ويصوِّبه حتى اغرورقت عيناه بالدّمع، ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم. يا بنيّ! إني قد تركتم من اللّه بخير، لأنكم لا تمرون على مُسلم ولا مُعاهد، إلاّ ولكم عليه حق واجب إن شاء اللّه. يا بَنيّ! مَثّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دُخول أبيكم يوماً واحداً في النار، قوموا يا بَنيّ، عَصمكم اللّه ورزقكم، قال: فما احتاج

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٥١).
(٢) جحف الشيء برجله: رفسه حتى يرمي به جانباً. وجحف أهلها: غبنهم.
(٣) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٩).
(٤) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٩)، وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٣).

أحدٌ من أولاد عمر ولا افتقر[1].

وأهدى إلى الحسن البصري رحمه الله خَمِيصة[2] لها أعلام، وكان الحسن يُصلّي فيها[3].

وكان إذا كثر عليه أصحاب الحوائج، وخاف أن يضجر، قال لآذنه: إيذن لجلسائي فيأذن لهم، فيفتن ويفتنوا في محاسن الناس، فيضطرب لها ويهتاج، ويصيبه ما يصيب صاحب الشَارب، فيقول لآذنه: إيذن لأصحاب الحوائج، فلا يبقى أحد إلاّ قضيت حاجته[4].

٥ ـ وكان سمحاً يفتح بابه وقلبه لكل غادٍ ورائح، فيقضي حاجة المحتاج، ويأخذ بيد المضطر، ويغيث الملهوف، ويجير مَنْ يستجير به حتى على الخلفاء.

فقد غضب هشام بن عبد الملك على عمر بن هُبيرة، فأُتي به إلى خالد بن عبد اللّه القَسْرِيّ وهو والي العراق مغلولاً مُقَيّداً في مِدْرَعة[5]، فلمّا صار بين يَدَي خالد ألقته الرجال إلى الأرض، فقال: أيها الأمير! إنّ القوم الذين أنعموا عليك بهذه النعمة، قد أنعموا بها عليّ من قَبْلك: فأنْشُدك اللّه أن تَسْتَنَّ فيَّ بسُنّة يَسْتَنّ بها فيك مَنْ بعدك، فأمر به إلى الحبس. وأمر ابن هُبيرة غلمانه، فحفروا له تحت الأرض سِرْداباً، حتى خرج الحَفْر تحت سريره، ثمّ خرج منه ليلاً، وقد أُعِدَّت له أفراس يُدَاولها، حتى أتى مَسْلَمَة بن عبد الملك، فاستجار به، فأجاره. واستَوْهبه مَسْلَمَة من هشام بن عبد الملك، فوهبه إيّاه، فلمّا قدم خالد بن عبد اللّه

---

(١) العقد الفريد (٤/ ٤٣٩).
(٢) الخميصة: كساء أسود أو أحمر له أعلام.
(٣) العقد الفريد (١/ ٢٧٤).
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ـ نسخة دار الكتب برم ٤٩٢ ـ ج ٣٢.
(٥) المدرعة (كمكنسة): ثوب ولا يكون إلا من صوف.

القَسْري على هشام، وجد عنده ابنَ هُبَيرة، فقال له: إباقَ[1] لعبد أبِقْتَ!، قال له: حين نمتَ نومة الأَمَة[2].

ولعلَّ من المفيد إيراد قصة لجوء عمر بن هُبَيْرة إلى مَسْلَمَة، لأنها تبرز مزايا جديدة لمَسْلَمَة، منها قوة شخصيته وشهامته ومروءته، إذ لا يمكن لأيّ إنسان أن يجير على الخليفة إلاّ إذا كان نِدّاً له مقرباً إليه موثوقاً به مُعْتَمداً عليه، ومنها ورعه وتقواه، ومنها إكرامه للضيف والاهتمام براحته والسّهر على رعايته حتى ولو كان من المغضوب عليهم من الخليفة بالذات.

فقد روى خادم مَسْلَمَة الذي كان يشرف على وَضوئه[3] تلك القصة فقال: كان مَسْلَمَة بن عبد الملك يقوم من اللّيل فيتوضا ويَتَنَفّل[4] حتى يُصبح فيدخل على أمير المؤمنين، فإني لأصبّ الماء على يديه من آخر اللّيل وهو يتوضّأ، إذ صاح صائح من وراء الرُّواق: أنا باللّه وبالأمير! فقال مَسْلَمَة: صوت ابن هبيرة، أخرُج إليه، فخرجت إليه ورجعتُ فأخبرته، فقال: أدْخِله، فدخل، فإذا رجل يَمِيد نُعاساً، فقال: أنا باللّه وبالأمير، فقال: أنا باللّه! وأنت باللّه، ثم قال: أنا باللّه وبالأمير! قالَ: أنا باللّه وأنت باللّه، حتى قالها ثلاثاً. ثم قال: أنا باللّه! فسكت عنه، ثم قال لي انطلق به فوضّئه وليُصَلّ، ثم اعرض عليه أحبَّ الطعام إليه فأته وافرش له في تلك الصُّفّة[5] ـ لصُفّة بين يدي بيوت النساء، ولا تُوقِظْه حتى يقوم متى قام. فانطلقت به فتوضّأ وصلّى، وعرضتُ عليه الطعام، فقال: شَرْبَة سَويق[6]، فشرب. وفرشت له ونام، فجئت إلى مَسْلَمَة فأعلمتُه، فغدا إلى

---

(1) أبق أبقاً وإباقاً: هرب، فهو آبق وأبوق.

(2) العقد الفريد (٢/ ١٨٥) وانظر العيون والحدائق (٨٤ و٨٥).

(3) الوضوء (بفتح الواو): الماء يتوضأ به.

(4) تنفل المصلي: صلى النوافل. والنفل: ما شرع زيادة على الفريضة والواجب. والنافلة: ما زاد على الفرض، يقال: هو يصلي النافلة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾، جمعها: نوافل.

(5) الصفة: البهو الواسع العالي السقف.

هشام، فجلس عنده حتى إذا حان قيامه، قال: يا أمير المؤمنين إليَّ حاجة، قال: قُضِيَت إلا أن تكون في ابن هُبيرة، قال: رَضِيْتُ يا امير المؤمنين؟! ثم قام منصرفاً، حتى إذا كاد أن يخرج من الإيوان رجع، فقال: يا أمير المؤمنين! عوّدتني ألاّ تَسْتثني في حاجة من حوائجي؟ وإني أكره أن يتحدّث الناس أنك أحدثتَ عليّ الاستثناء! قال: لا أستثني عليك، قال: فهو ابن هبيرة، فعفا عنه[1].

٦ ـ وما دمنا قد ذكرنا النوافل التي يؤديها مَسْلَمَة ليلاً، وهي سمة من سمات الصالحين، فمن المستحسن أن نركِّز على الورع في مَسْلَمَة بن عبد الملك.

قال مَسْلَمَة: لو رأيتني أنا وعمر بن عبد العزيز، ننتهي إلى الزّرع، فيقحم عمر فرسه، وأكفّ فرسي[2]، والذي يبدو أن مَسْلَمَة يتحدّث عن عمر قبل توليه الخلافة، يوم كان كأمثاله من الشباب.

ومن الواضح أن مَسْلَمَة، كان يعتبر عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة المثل الأعلى له في الورع، ويحاول أن يتعلّم منه ويقتدي به.

أمر عمر بن عبد العزيز مَسْلَمَة أن يبكِّر عليه، وأمر بطبيخ ثريد عدس وبألوان من لحم، فلمّا غدا عليه مَسْلَمَة أقام عنده حتى تعالى النهار ووجد الجوعَ، فقام ليذهب، فحبسه عمر وقال له: اجلس. ثم أقام حتى انتصف النهار، ثمّ قام، فقال له عمر: اجلس، حتى إذا بلغ من مَسْلَمَة الجوع فيما يُرى عمر، دعا بطعامه، فقربت ثريدة العدس، فأقبل عليها مَسْلَمَة، فأكل أكل مجهود قد بلغ منه الجوع، ولم يأل حتى تملأً، فأمر عمر أن يرفع، ودعا له بطعام طيّب، فقال له: كُلْ، فقال: قد شبعت ما فيّ فضل، قال له: فكيف بالسّرف في الطعام، والتَقَحُم في النار، وهذا

---

(١) السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، يسمى بذلك لانسياقه في الحلق.
(٢) العقد الفريد (٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧).
(٣) تاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٣) وكتاب المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٢٦).

يُجزي عنه!!. وأراد عمر رحمه اللَّه عظته وتأديبه، فقصر بعد ذلك مَسْلَمَة عما كان يكون عليه[١].

وقال مَسْلَمَة: دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه فلا يدخل عليه أحد، فجاءت جارية بطبق تمر صبحانيّ ـ وكان يعجبه التمر فرفع بكفيه منه فقال: يا مَسْلَمَة! أترى رجلاً لو أكل هذا، ثم شرب عليه الماء، فإن الماء على التمر يطيب، أكان إلى الليل يجزيه؟ فقلت: لا أدري! فرفع أكثر منه فقال: فهذا؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين كان كافيه دون هذا حتى ما يبالي أن لا يذوق طعاماً غيره. قال: فعلامَ ندخل النار؟ قال مَسْلَمَة: فما وقعت مني موعظة ما وقعت مني هذه[٢].

وكما كان مَسْلَمَة يثق بورع عمر بن عبد العزيز، فقد كان عمر يثق بورع مَسْلَمَة. دخل مَسْلَمَة على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه، فأوصاه عمر أن يحضر موته، وأن يلي غسله وتكفينه، وأن يمشي معه إلى قبره، وأن يكون ممن يلي إدخاله في لحده. ثم نظر إلى مَسْلَمَة، فقال: انظر يا مَسْلَمَة بأيِّ منزل تتركني، وعلى أيِّ حال أسلمتني إليه الدنيا! فقال له مَسْلَمَة: فأوصِ يا أمير المؤمنين، قال: ما لي من مالٍ فأوصي فيه! قال مَسْلَمَة: هذه مئة ألف دينار، فأوصِ بها بما أحببتَ، قال: أو خير من ذلك يا مَسْلَمَة؟... أن تردّها من حيث أخذتها، قال مَسْلَمَة: جزاك اللَّه عنّا خيراً يا أمير المؤمنين! واللَّه لقد ألنتَ لنا قلوباً قاسية وجعلت لنا ذكراً في الصالحين[٣].

ومن المعلوم أنّ المرء لا يوصي أحداً بأن يحضر موته، ويلي غسله وتكفينه، ويمشي معه إلى قبره، ويدخله في لحده، إلا إذا كان يثق بورعه وتديُّنه.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز (٤٣ ـ ٤٤).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز (١٣٤).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز (١٠٥)، وانظر العقد الفريد (٤/ ٤٣٩).

وقال مَسْلَمَة دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده، فإذا هو على فراش من ليف، وتحته وسادة من أديم مسجًى بشملة، ذابل الشفة، كاسف اللون، وعليه قميص وسخ، فقلت لأختي فاطمة وهي امرأته: اغسلوا ثياب أمير المؤمنين! فقالت: نفعل. ثم عدتُ فوجدت القميص على حاله، فقلت: ألم آمركم أن تغسلوا قميصه؟! فقالت: واللَّه ما له غيره!! فسبّحتُ اللَّه وبكيت، فقال: يرحمك اللَّه! لقد خوّفتنا باللَّه عزّ وجلّ، وأبقيت لنا ذكراً في الصالحين[1].

وقال مَسْلَمَة: رحم اللَّه عمي ـ يريد عمر بن عبد العزيز ـ واللَّه لقد هلك وما بلغ ما ناله قط شرف العطاء، إنه واللَّه عضّ على مقدَم قميصه، ثم شقي في الدنيا حتى خرج منها، ثم قال رافعاً صوته: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2].

وقال خالد بن صَفْوان: لقيت مَسْلَمَة بن عبد الملك بالحيرة بعد هلاك ابن المهلب، فقال: يا خالد! أخبرني عن حَسَنِ أهل البصرة ـ يريد حسن البصريّ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ قلت: أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في حلقته وحديثه، وأعلم مَنْ قِبَلي به: كان أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام بأمر قعد عليه وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيءٍ كان أترك الناس له، وجدته مستغنيّاً عن الناس، ووجدت الناس محتاجين إليه، قال مَسْلَمَة: حَسْبُك حَسْبُك! كيف ضلّ قوم كان هذا فيهم؟![3]، يعني كيف اتبعوا يزيد بن المهلب؟

ودخل مَسْلَمَة على يزيد بن عبد الملك صاحب حبابة و(سلاّمة)،

---

(١) مختصر تاريخ الدول (١١٥) وانظر كتاب المعرفة والتاريخ (١/ ٦٠٠).
(٢) الآية الكريمة من سورة القصص (٨٣)، وقوله من كتاب المعرفة والتاريخ (١/ ٥٧٩).
(٣) كتاب المعرفة والتاريخ (٢/ ٥١ ـ ٥٢)، وأردها أبو نعيم عن طريق محمد بن ذكوان أيضاً، انظر حلية الأولياء (٢/ ١٤٧ ـ ١٤٨).

وكان قد ترك لشغله بالله والظهور للناس وشهادة الجمعة، فقال له مَسْلَمَة أخوه: يا أمير المؤمنين! قد تركت الأمور، وأضعت المسلمين، وقعدت في منزلك مع هاتين الأمتَين، فارعوي قليلاً واظهر للناس[1]، وهذا يدلّ على أمره بالاستعانة والمعروف ونهيه عن الانحراف المنكر، كما أنه يدل على أنه كان رجل دولة من الطراز الرفيع، يعرف واجب الحاكم تجاه المحكومين، ولا يرضى لحاكم أن يغمط حقوق المحكومين. وحاصر مَسْلَمَة حصناً، فندب الناس إلى نَقْب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عُرْض الجيش، فدخله، ففتحه اللَّه عليهم، فنادى مَسْلَمَة: أين صاحب النَّقْب؟!، فما جاءه أحد! فنادى: إني قد أمرتُ الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلاّ جاء! فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير، فقال له: أنت صاحب النَّقْب؟ قال: أنا أخبركم عنه! فأتى مَسْلَمَة فأخبره عنه، فأذن له، فقال له: إنَّ صاحب النَّقْب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألاّ تسوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيءٍ، ولا تسألوه ممن هو؟، قال مَسْلَمَة: فذاك له، قال: أنا هو. فكان مَسْلَمَة لا يصلّي بعدها صلاة إلاّ قال: اللّهم اجعلني مع صاحب النَّقْب[2].

ومن أقواله في الزّهد: إنّ أقل الناس همّاً في الدنيا، أقلّهم همّاً في الآخرة[3]، يريد الهم الذي يورثه التكالب على جمع المال وإدارته وتنميته، والهم الذي يعقب ارتكاب ما حرم اللَّه ورسوله، والهم الذي يورثه ارتكاب المعاصي والآثام، والهم الذي يعانيه مرتكب الظلم والعدوان، والهم الذي يشقى به المرء من جرّاء ترك الفرائض والسنن، والهم الذي يؤرِّق المتخلِّف عن الجهاد، والهم الذي يشعر به المتولي يوم الزحف، ونحو ذلك.

---

(١) الشعر والشعراء (١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).
(٢) عيون الأخبار (١/ ١٧٢).
(٣) تاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٣) وكتاب المعرفة وتاريخ (٢/ ٢٢٦).

ومن أقواله التي تدل على عمق إيمانه بالطهر المطلق للأنبياء: الأنبياء لا يتنابّون[1] كما يتنابّ الناس ما ناب نبيّ قط[2]، أي أن الأنبياء بدرجة من السمو الخلقي بحيث لا ينتقد بعضهم بعضاً ولا يغتابون أحداً من البشر، فذلك ليس من شأنهم ولا من صفاتهم، كسائر الذين ينتقدون ويغتابون ويتنكرون للجميل وينسون المعروف ويجفون العَشِير، تبعاً للواعج نفوسهم الأمّارة بالسوء، وانصياعاً لأهوائهم الشخصية وعواطفهم المتأرجحة دوماً بين الخير والشر.

وكان يؤدي فريضة الحج، ويقصد بيت اللّه في مكّة المكرَّمة مُحْرماً ويشد الرِّحال إلى مسجد النبي ﷺ إذا وجد إلى ذلك سبيلاً، وقد تولى إمارة الحج سنة أربع وتسعين الهجريَّة في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك[3].

وكان كريماً لا يقتصر كرمه على الشعراء والأدباء، وذوي القربى والأصدقاء والمحتاجين والفقراء، بل الأعداء أيضاً، وحسبك بذلك كرماً أصيلاً.

فقد أعطى ألف دينار إلى محمد بن علي العباسي[4] جد الخلفاء العباسيين، وهو يعلم أنه يعمل بنشاط على الأمويين، وفي رواية أعطاه أربعة آلاف دينار[5].

ولم تذهب هذه الأريحية سدى، ففي سنة ثلاث وستين ومئة الهجريَّة، تجهز الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي

---

(١) نبب الشيء: عضه بنابه. يتنابون: يعضّ بعضهم بعضاً.
(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٩).
(٣) الطبري (٦/ ٤٩١) وابن الأثير (٤/ ٥٩١)، البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨) والمحبر (٢٦) وتاريخ ابن خياط (١/ ٣١٦).
(٤) هو محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٠).
(٥) ابن خلدون (٣/ ٤٤٧) وابن الأثير (٦/ ٦٠).

العباسي لغزو الرّوم، فخرج وعسكر بـ(البَرَدَان)[1]، وجمع الأجناد من (خُراسان) وغيرها. ثم سار عنها، بعد أن استخلف على (بغداد) ابنه موسى الهادي، وسار على (الموصل) و(الجزيرة). ولما حاذى قصرَ مَسْلَمَة بن عبد الملك، قال العبّاس بن محمد بن علي المهدي: إن لمَسْلَمَة في أعناقنا مِنّة، وكان محمد بن علي مرّ به، فأعطاه أربعة آلاف دينار، وقال له: إذا نفدت، فلا تحتشمنا، فأحضر المهدي ولد مَسْلَمَة ومواليه، وأمر لهم بعشرين ألف دينار، وأجرى عليهم الأرزاق[2].

وكانت أرض (بَغراس)[3] ملكاً لمَسْلَمَة، فوقفها في سبيل البر[4]، وهذا يدل على كرمه وتديُّنه معاً.

٧ ـ أما التجربة العملية لمَسْلَمَة فكانت غنيَّة إلى أبعد الحدود، فقد شهد كيف تدار الدَّولة في أعلى المستويات. مع أبيه عبد الملك بن مروان ومع إخوته من بعده، وكان الخلفاء من إخوته يحرصون على أن يبقى إلى جانبهم مستشاراً، يتعلّمون منه أكثر ممَّا يتعلم منهم، إلاّ إذا حزبهم أمر يهدّد أمن الدَّولة ومصيرها تهديداً خطيراً، فيبعثونه ليقضي على الثورات، وليقمع الاضطرابات، وليعيد الأمن والاستقرار.

وبالإضافة إلى ذلك، ومن أجل ذلك، كانت تجاربه العملية طويلة مستفيضة في اتجاهين: الاتجاه الإداري، والاتجاه العسكري.

وتجربته في الاتجاه العسكري مكان الحديث عنها في مجال الحديث عن قيادته الذي سيأتي وشيكاً.

---

(١) البردان: قرية من قرى بغداد على سبع فراسخ منها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١١٣/٢ ـ ١٦).

(٢) ابن الأثير (٦/ ٦٠).

(٣) بغراس: مدينة بلحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية أربعة فراسخ على عين القاصد إلى أنطاكية من حلب في البلاد المطلّة على نواحي طرسوس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٤٥).

(٤) فتوح البلدان (٢٠٣).

أما الاتجاه الإداري، فقد ذكرنا أنه تولى (الجزيرة) و(إِرْمِينِيَة) و(أذربيجان) ثلاث مرّات في أعقاب اضطرابات مريرة، وهذه البلاد الشاسعة التي تشمل (جزيرة ابن عمر) وشمالي إيران وتمتد شمالاً متغلغلة في الاتحاد السوفيات حتى (بُخارى) و(سَمَرقند) وتضم عدّة جمهوريات من جمهوريات الاتحاد السوفياتي أهمها جمهورية (أذربيجان) و(أزبكستان) و(تركستان)، هي القسم الشمالي الشرقي من الدَّولة الإسلاميَّة حينذاك.

كما أنه تولّى مرة (العراقَيْن) وهي (العراق) و(خُراسان)، وتضم ولايته (الأفغان) و(السِّند) بالإضافة إلى (إيران) الجنوبي والعراق، وهي القسم الشرقي من الدَّولة الإسلاميَّة حتى حدود (الصِّين). وتولى هذه الأصقاع في أيام ثورات عارمة واضطرابات قاسية، فأثبت وجوده بالحزم والحكمة والكفاية، فكان بحق إدارياً حازماً، ورجل دولة من الطراز الرفيع.

وبإمعان النظر في أسلوب إدارته، نجده يأخذ بالحزم والشدّة، حتى تستقيم له الأمور كما يريد، فإذا استقامت الأمور، عالج المشاكل بالحكمة والتسامح والبناء والتعمير، فيعيد بذلك القلوب النافرة إلى الصفاء، والنفوس المتغيِّرة إلى الرضى، ويبني الرجال ولا يحطِّمهم، ويسترضي الأعداء بالعفو والحسنى.

هدم (باب الأبواب) ليقضي على عصيانها، فلمّا استعاد فتحها أعاد بناءها وزاد في عمارها، وحصّن أسوارها[1]، فأصبحت أكثر عمراناً وأقوى تحصيناً.

وما يقال عن (باب الأبواب)، يقال عن سائر المدن الأخرى.

أما عن بناء الرجال واستمالة قلوبهم، فمن الأمثلة على ذلك أنّ

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

مَسْلَمَة أقسم أن يبيع ذرية آل مهلب إذا انتصر عليهم في حرب يزيد بن المهلب. وانتصر مَسْلَمَة وأراد أن يبرّ بقسمه، فقال له الجرَّاح بن عبد اللَّه الحَكميّ: فأنا أشتريهم، فاشتراهم منه الجرَّاح بمئة ألف وخلّى سبيلهم، ولم يأخذ مَسْلَمَة من الجرّاح شيئاً[1].

ومن الواضح أنّ مَسْلَمَة أراد أن يفت في عضد آل المهلّب وهو يُقْسم أن يبيع ذراريهم ويؤثر في معنوياتهم، وهذه هي جزء من الحرب النفسية التي مارسها مَسْلَمَة ضد يزيد بن المهلب وآل بيته في محاولة لإجبارهم على الاستسلام.

ولكنه حين انتصر، أراد أن يتحلَّل من قسمه، فباع ذريّة آل المهلب بيعاً صورياً، لرجل من أخلص الرجال وأنبلهم وأكثرهم مروءة وشهامة، لكي يخلي سبيلهم ليصبحوا أحراراً، ومن المؤكد أنّ الذي اشتراهم أخلى سبيلهم برغبة مَسْلَمَة وموافقته، والدليل على ذلك أنّ مَسْلَمَة لم يأخذ ثمنهم ممن اشتراهم، وليس بمقدور مَن اشتراهم أن يخالف أوامر مَسْلَمَة أو يحقق غير رغباته.

وكما كان للخلفاء كتَّاب وهيئة من الإداريين، كان لمَسْلَمَة كتابه وهيئته الإدارية، كأي رجل دولة أمين حصيف.

فقد كان يكتب لمَسْلَمَة سميع مولاه، وعلى ديوان الرسائل اللّيث بن أبي رُقَيّة مولى أم الحكم بنت سُفْيان بن حرب، وعلى ديوان الخراج سليمان بن سعد الخشَنيّ، وعلى ديوان الخاتم نُعَيْم بن سلامة مولىً لأهل اليمن من (فِلَسْطِين)، وقيل: بل رجاء بن حَيْوَة كان يتقلد الخاتَم[2].

ولا نكاد نعرف شيئاً عن الأسماء التي ذكرناها، عدا رجاء بن حَيْوَة

---

(١) الطبري (٦/ ٦٠٢) وابن الأثير (٥/ ٨٦).
(٢) الطبري (٦/ ١٨١).

الذي هو أشهر من أن يُعَرَّف، وحسبنا أن نذكر عنه أنه كان من أبرز فقهاء عصره وأكثرهم ورعاً واستقامة، وكان عالماً عاملاً محافظاً على كرامة العلماء، لذلك كان المستشار الأول لعمر بن عبد العزيز ﷺ والموجِّه الأول لسياسته الشرعيّة، وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك أن يستخلف من بعده عمر بن عبد العزيز، فكان له ما أراد[1]، ووقف موقفاً حاسماً مشرِّفاً بعد موت سليمان لكي يبايع بنو أمية عمر بن عبد العزيز منعاً للفتنة وحقناً للدماء، فكان بحق رجل الساعة في ذلك اليوم العصيب[2] وكان مَسْلَمَة بن عبد الملك يقول في رجاء: في كِنْدة ثلاثة رجال إنّ اللّه لينزل الغيث بهم وينصرهم على الأعداء: رجاء بن حيوة وعبادة بن نسيء وعَديّ بن عَدي[3].

فإذا عرفنا سيرة رجاء بن حيوة وجهلنا سير زملائه في الهيئة الإدارية لمَسْلَمَة، فقد يكون ما عرفناه عن رجاء مؤشراً واضحاً لأسلوب مَسْلَمَة في اختيار زملاء رجاء العاملين مع مَسْلَمَة والمتعاونين مع رجاء، وهو أسلوب اختيار الصفوة كفاية وأمانة وقدراً وجلالاً.

٨ ـ وكانت همته عالية في استطلاح الأرض لتكون صالحة للزراعة، فقد انبثقت البُثُوق[4] أيام الحجّاج بن يوسف الثقفيّ، فكتب الحجّاج إلى الوليد بن عبد الملك يُعْلمه أنه قدَّر لسدِّها ثلاثة آلاف ألف درهم، فاستكثرها الوليد، فقال مَسْلَمَة: أنا أُنفق عليها، على أن تقطعني الأرض، المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق ثلاثة آلاف درهم، يتولى إنفاقها

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٣٩).
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٥٠ ـ ٥٥٣) وابن الأثير (٥/ ٣٩ ـ ٤٠) وابن خلدون (٢/ ١٦١ ـ ١٦٢)، وانظر ما جاء عن رجاء في: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٩٠) والبداية والنهاية (٩/ ١٩٠).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٩٠).
(٤) البثوق جمع البثق، وهي موضع انبثاق الماء من نهر أو نحوه.

ثقتك ونصيحك الحجّاج، فأجابه إلى ذلك، فحصلت له أرضون من طساسيج[1] متّصلة، فحفر السَّيبَين[2] وتألّفَ الأكَرة[3] والمزارعين، وعمر تلك الأرضين، وألجأ إليها ضياعاً كثيرة للتعزز[4] به[5].

والأرض التي استصلحها مَسْلَمَة بعدما كانت مستنقعات، هي في سواد مدينة (الكوفة) على نهر الفرات الأوسط، فأنجز بذلك مشروعاً زراعياً كبيراً على حسابه الخاص، بعد أن استكثرت الدَّولة الإنفاق عليه، وتلك همّة عالية في إعمار الأرض واستصلاحها يندر أن نجد لها مثيلاً.

ولما توجّه مَسْلَمَة غازياً للرّوم باتجاه الثغور الجزريّة، عسكر في (بالس)[6]، فأتاه أهلها وأهل (نُويلس)[7] و(قاصرين)[8] و(عابِدِين)[9]، و(صِفِّين)[10]، وهي قرى منسوبة إلى (بالس)، فأتاه أهل الحد الأعلى، فسألوه جميعاً أن يحفر لهم نهراً من (الفرات) يسقي أرضهم، على أن

---

(١) الطساسيج: جمع الطسوج (بوزن قدوس): جزء من أجزاء الكورة. والكورة: كل صقع يشتمل على عدة قرى.

(٢) اليب: مفرد السيبين، كورة من سواد الكوفة، وهما سيبان الأعلى والأسفل. انظر معجم البلدان (٥/ ١٩٠).

(٣) الأكرة: جمع الأكار، والأكار الحراث والفلاّح.

(٤) عززه: شده وقواه. واعتز به: تشرف وعد نفسه عزيزاً به. وتعزز فلان: عز، وتعزز به: اعتز.

(٥) فتوح البلدان (٤١٣).

(٦) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٤٦).

(٧) نويلس: كذا في فتوح البلدان (٢٠٥)، أما في معجم البلدان (٢/ ٤٦) فقد جاءت (بويلس)، وهي قرية من قرى بالس، انظر فتوح البلدان (٢٠٥)، ولم يرد لها ذكر في معجم البلدان.

(٨) قاصرين: بلد كان بقرب بالس، كان له ذكر في الفتوح، انظر معجم البلدان (٧/ ١٣)، وفي فتوح البلدان (٢٠٥): أنها قرية من قرى بالس.

(٩) عابدين: قرية من قرى بالس، انظر فتوح البلدان (٢٠٥)، ولم يرد لها ذكر في معجم البلدان.

(١٠) صفين: موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، انظر معجم البلدان (٥/ ٣٧٠)، وهي قرية من قرى بالس، انظر فتوح البلدان (٢٠٥).

يجعلوا له الثُّلث من غلاّتهم بعد عشر السلطان الذي كان يأخذه، فحفر لهم النَّهر المعروف بنهر (مَسْلَمَة)، ووفوا له، ورمَّمَ سور (بالس) وأحكمه. ويقال: بل كان ابتداء العرض من مَسْلَمَة، وأنه دعاهم إلى هذه المعاملة، فلمّا مات مَسْلَمَة صارت (بالس) وقراها لورثته، فلم تزل في أيديهم حتى جاءت الدَّولة العباسية، فقبض عبد اللَّه بن علي بن عبد اللَّه بن العباس أموال بني أُميّة، فدخلت فيها[1].

ولعلّ من أسباب نجاحه إدارياً، قوة شخصيته ومزاياه الرفيعة بالإضافة إلى قرابته القريبة من الخلفاء والأمراء.

ففي سنة إحدى ومئة الهجريَّة تُوفي محمد بن مروان بن الحكم أخو عبد الملك بن مروان، وكان قد ولي (الجزيرة) و(إِرْمينِيَة) و(أذربيجان) وغزا الرّوم وأهل (إِرْمينِيَة) عدّة دفعات، وكان شجاعاً قوياً، وكان عبد الملك يغبطه لذلك، ولما انتظمت الأمور لعبد الملك، أظهر ما في نفسه له، فتجهز محمد ليسير إلى (إِرْمينِيَة)، فلمّا ودّع عبد الملك، سأله عن سبب مسيره فأنشد:

وإنَّــك لا تَــرى طــرداً لــحــرٍ كــإلــصـاقٍ بـه بـعـضَ الـهـوانِ
فـلـو كـنّـا بـمـنـزلـة جـمـيـعـاً جـريـتُ وأنـت مـضـطـربُ الـعِـنـانِ

فقال له عبد الملك: أقسمتُ عليك لتقيمنّ، فواللَّه لا رأيتَ مني ما تكره ثم صلح له. ولما أراد الوليد عزله، طلب مَنْ يسدّ مكانه، فلم يقدم أحد عليه إلا مَسْلَمَة بن عبد الملك[2].

ذلك هو مبلغ شخصية مَسْلَمَة قوّةً ونفوذاً، فلا عجب أن يحظى بكل هذا النجاح إدارياً وقائداً.

---

(١) فتوح البلدان (٢٠٥ ـ ٢٠٦) ومعجم البلدان (٢/٤٦).
(٢) ابن لأثير (٥/ ٧٠).

٩ ـ وما دام مَسْلَمَة أحرز كل هذا النجاح بكفايته ومزاياه الأخرى، حتى أصبح محطّ أنظار الناس حكاماً ومحكومين، وأصبحت له شعبية كاسحة ونفوذ عظيمٌ، فلماذا وثق به الخلفاء بخاصة والناس بعامَّة، والحكام يخشون مَنْ نال حظوته وشعبيته ومزاياه.

إنّ المتبع لسيرته يجد أنه كان مخلصاً غاية الإخلاص لبني أمية، ويدين بالولاء المطلق للخلفاء، ولم يكن يطمع بتولي الخلافة لأنّ بني أمية لم يكونوا يبايعون لبني أمهات الأولاد، ولم يكن لعبد الملك بن مروان ابنٌ أَسَدّ رأياً، ولا أذكى عقلاً، ولا أشجع قلباً، ولا أسمح نفساً، ولا أسخى كفاً من مَسْلَمَة، وإنما تركوه لهذا المعنى[1].

وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الإماء، وقالوا: لا تصلحُ لهم العرب. وقد سابق عبد الملك بن مروان بين ولديه: سليمان ومَسْلَمَة، فسبق سليمان مَسْلَمَة، فقال:

ألم أنهكم أن تحملوا هُجَناءكم ... على خَيْلكم يوم الرِّهان فتُدْرِكُ
وما يستوي المرآن، هذا ابن حرَّة ... وهذا ابن أُخرى ظهرها مُتشرّك
وتَضعُف عَضْداهُ ويَقْصُر سوطُه ... وتَقْصُر رجْلاه فلا يَتَحرَّك
وأدركْنَه خالاتَه فنَزَعْنَه ... ألاّ إنَّ عِرْقَ السّوء لا بُدَّ يُدْرَكُ

ثم أقبل عبد الملك على مَصْقَلة بن هُبيرة الشّيباني فقال: أتدري مَنْ يقول هذا؟، قال: لا أدري!. قال: يقول الشّنّيّ[2]. قال مَسْلَمَة: يا أمير المؤمنين! ما هكذا قال حاتم الطائيّ!، قال عبد الملك: ماذا قال حاتم؟، قال مَسْلَمَة، قال حاتم:

وما أنحكونا طائعين بناتهم ... ولكن خَطَبناها بأسيافنا قَسْرا
فما زادها فينا السِّباءُ مَذلّةً ... ولا كُلِّفت خُبزاً ولا طَبخت قِدْرا

---

(١) العقد الفريد (٦/ ١٣١).
(٢) في المرزباني (٢٤٠): أن الشعر لعمرو بن مبردة العبدي.

ولكنْ خلطناها بخير نسائنا | فجاءت بهم بيضاً وجوهُهُم زُهرا
وما أن ترى فينا من ابن سَبِيّة | إذا لَقِيَ الأبطالَ يَطْعنهم شَزْرا
ويأخذ رايات الطِّعان بكفِّهِ | فيُوردها بيضاً ويُصدرها حُمرا
أعزَّ إذا اغبرّ اللئامُ رأيتَهُ | إذا ما سَرَى ليلَ الدُّجَى قمراً بدرا

فقال عبد الملك كالمُستحي:

وما شرّ الثلاثة أمّ عمرو | بصاحبك الذي لا تَصْبَحينا[1]

ومهما يقال في صحة هذه المحاورة أو عدمها، فهي تدل على اتجاه بني أمية المعروف، وهو عدم استخلاف بني الإماء.

وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قد بايع لابنيه الحَكَم وعُثْمان، وهو أوّل مَن بايع لابن أمَةٍ، ولم يكونوا يفعلون ذلك[2].

لم يكن لمَسْلَمَة أمل في تولي الخلافة، مع أنه كما يقول الذَّهبِي: كان أحقّ بالملك من سائر إخوته ●، وكان ذا عقل راجح ورأي سديد يحولان بينه وبين مغامرة تشق صفوف المسلمين، وكان بحق من أكثر الناس حرصاً على رصّ الصفوف والوحدة، كما أنه كان يعتبر الخلافة (وسيلة) من أجل خدمة الأمَّة لا (غاية) من أجل أطماع شخصية وأمجاد أنانية، وهو بحق أيضاً خدم الأمّة أجلّ الخدمات، وبذلك حَقَّقَ (الوسيلة) واستغنى عن (الغاية).

ويخيّل إليّ أنه كان مخلصاً لأبعد الحدود إلى أقربائه وأصحابه وأصدقائه وأترابه، الأحياء منهم والأموات، ولعلّ هذه الأبيات من شعره تدل على هذا الإخلاص.

قال مَسْلَمَة:

قدْ كنتَ أبكي على ما فات من سَلَفي | وأهلِ وِدّي جميعاً غيرَ أشْتاتِ

---

(١) الأغاني (٦/ ١٣٠ ـ ١٣١).
(٢) الأغاني (٧/ ٧١).

فما حياةُ امرئٍ أضحَتْ مدامِعُه نوى بكيت على أهلِ المودَّاتِ
فالآن إذ فرّقت بيني وبينهمُ مقسومةٌ بين أحياء وأموات[1]

فمثل هذه النفسية المخلصة بالطبع لا بالتطبّع، لا يمكن أن تضرب أحداً من الخلف، لأغراض شخصية وأمجاد ذاتية.

كما كان يرضخ للحق بسهولة ويسر دون مكابرة ولا مجادلة، قال مَسْلَمَة: أليس قد أُمرتُم بالطاعة يعني ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2]، فقيل له: إنّ اللّه قد انتزعه منكم إذا خالفتم الحق، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[3]، قال: فأين اللّه؟ فقيل له: الكتاب، قال: فأين الرّسول؟ فقيل له: السُّنّة[4]، فرضخ مَسْلَمَة للحق فوراً دون مماراة!

فهو يعلم أنّ الحق المعمول به حينذاك هو عدم توليه الخلافة لابن أَمَة، فهو يقرّ هذا الحق ويعترف به.

لذلك لم يكن الخلفاء يخشونه على سلطتهم، فأولوه ثقتهم الكاملة.

١٠ ـ بقي عليَّ أن أتحدّث عنه رجلاً له سمات شخصية تختلف عن الرجال الآخرين، أو بتعبير آخر التحدث عن شؤونه الشخصية الخاصة به.

هو مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان القرشي الأموي[5] أبو سعيد

---

(١) ابن شاكر الكبتي ـ عيون التواريخ ـ نسخة مخطوطة بدار الكتب ـ رقم (١٤٩) حوادث سنة ١٢٩ هـ.
(٢) من سورة النساء (٤ : ٥٩).
(٣) من سورة النساء (٤ : ٥٩).
(٤) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ـ نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٩٢) ـ (ج٣٢).
(٥) البداية والنهاية.

وأبو الأصبغ[1]، وكان يلقب بالجرادة الصّفراء[2] لصفرة كانت تعلوه[3]، ومع ذلك فإن الجرادة الصفراء من أنهَم الجراد في اكتساح المزارع والزروع، فإذا ألمّت بزرع أو نبات أتت عليه ولم تُبق منه على شيءٍ، وهذا يرمز لضراوة مَسْلَمَة في الحروب وشدّة وطأته على الأعداء.

وكان جميل الصورة حسن الوجه صبيحاً، من أجمل الناس[4]، وهو معدود من الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشّام[5].

تزوج مَسْلَمَة بالرَّباب بنت زفر[6] بن الحارث بن عبد عمرو بن معاذ بن يزيد بن عمرو الصَّعِق[7] الفَزاري[8]، فكان يؤذن لأخويها: الهُذَيل والكُوْثر في أول الناس[9] وقد يتبادر إلى الأذهان أنّ مَسْلَمَة يتحيّز لهما لأنهما أخوا زوجة الرَّباب، والواقع أنهما كانا من الرؤساء، كما أنّ الهُذَيل هو قاتل يزيد بن المهلّب يوم (العَقْر) وقيل غير ذلك[10].

وتزوج مَسْلَمَة أمَّ سَلَمة بنت يعقوب بن سلمة المخزومية، وقيل

---

(١) جمهرة أنساب العرب (١٠٣) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢) والمعارف (٣٥٨) وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤).

(٢) نسب قريش (١٦٥) والبداية والنهاية (٩/ ٣٢٨) والمعارف (٣٥٨)، وتاريخ الإسلام (٩/ ٣٥٨) وتهذيب التهذيب (١/ ١٤٤).

(٣) المعارف (٣٥٨)،وعظماء من ذوي العاهات (٩٩)، وفيه: وكان مسلمة أصفر الجلد كأنه جرادة صفراء.

(٤) العقد الفريد (٤/ ٤١).

(٥) تهذيب التهذيب (١٠/ ١٤). والتابعي: من لقي الصحابة مؤمناً بالنبي ﷺ ومات على الإسلام ج: التابعون.

(٦) ابن الأثير (٤/ ٣٤٠) وأنساب الأشراف (٥/ ٣٠٧).

(٧) الصعق: هو خويلد بن نفيل بن عمرو بن كلاب، كان سيداً يطعم الطعام بعكاظ، وأحرقته صاعقة فلذلك سمي: الصعق، جمهرة أنساب العرب (٢٨٦).

(٨) جمهرة أنساب العرب (٢٨٦).

(٩) ابن الأثير (٤/ ٣٤٠).

(١٠) جمهرة أنساب العرب (٢٨٦).

تزوجها عبد اللّه بن عبد الملك[1]، ولم تذكر المصادر التي وصلت إلي شيئاً عن زوجاته الأخرى.

ولمَسْلَمَة عَقِب[2] كثير[3] باقٍ بقرب (حَرَّان)[4] في حصن يقال له: (حصن مَسْلَمَة). وله من الولد: يزيد بن مَسْلَمَة، وإبراهيم بن مَسْلَمَة قتل، وشراحِيل بن مَسْلَمَة سُمَّ هو وإبراهيم الإمام العباسي فماتا جميعاً في سجن مروان[4] في (حرّان)، ومحمد بن مَسْلَمَة كان من أكرم الناس وأشجعهم، وشهد مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يوم التقى مع عبد اللّه بن علي العباسيّ، وكان صديقاً لعبد اللّه، فأمّنَه، فلحق به، فلمّا رأى فعل أهل (خُراسان) في أهل (الشّام)، حميتْ نفسه، فقال:

ذُل الحياة وخِزْيُ المَمات ... فكلاّ أراه شراباً وبِيلا

فإن كان لا بدَّ إحْداهما ... فَسيرا إلى المَوتِ سَيْراً جميلا[5]

ثم لحق بمروان، فقاتل معه حتى قُتل. ومن أولاده إسحٰق بن مَسْلَمَة[6].

و(حصن مَسْلَمَة)[7] الذي كان يعيش فيه عقب مَسْلَمَة، حصين من

---

(١) المحبر (٤٤٥).

(٢) العقب: الولد، وولد الولد الباقون بعده (ج): أعقاب.

(٣) المعارف (٣٥٨).

(٤) حران: مدينة عظيمة مشهورة، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٤٢).

(٥) قالهما متمثلاً، والبيتان لبشامة بن الغدير من قصيدة في المفضليات (٥٩).

(٦) انظر تفاصيل ولد مسلمة في: جمهرة أنساب العرب (١٠٣ ـ ١٠٥).

(٧) حصن مسلمة: حصن بالجزيرة، بينه وبين البليخ ميل ونصف، وشرب أهله من مصنع فيه طوله مئتا ذراع في عرض مثله، وعمقه نحو عشرين ذراعاً، معقود بالحجارة، وكان مسلمة قد أصلحه. الماء يجري فيه من (البليخ) في نهر مفرد من كل سنة مرة حتى يملأه، فيكفي أهله بقية عامهم، ويسقي هذا النهر بساتين حصن مسلمة، وفوهته من (البليخ) على خمسة أميال. وبين حصن مسلمة وحران تسعة فراسخ، وهو على القاصد للرقة من حران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٨٦)، والمصنع: حوض =

أعمال (جزيرة ابن عمر) بين رأس عَيْن[1] و(الرَّقَّة)[2]، بناه مَسْلَمَة[3]، فورثه أولاده عنه، وكان هذا الحصن قد بني على قدر جَرِيب[4] من الأرض، وارتفاعه في الهواء أكثر من ثلاثين ذراعاً[5].

وقد أطلق على عقب مَسْلَمَة لكثرتهم: (بنو مَسْلَمَة)، وهم من بطون بني أمية، من قريش، من العدنانيّة، مساكنهم مع قومهم بني أميّة بـ(تَنْدَة)[6] من بلاد (الأشْمُونين)[7] في الصعيد المصري[8]، ولا تناقض بين

= يجمع فيه ماء المطر ونحوه، انظر المعجم الوسيط (١/ ٥٢٦). والبليخ: اسم نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون، وأعظم تلك العيون عين يقال لها: الذهبانية في أرض (حران)، فيجري نحو خمسة أميال، ثم يسير إلى موضع قد بنى عليه مسلمة بن عبد الملك حصناً يكون أسفله قدر جريب وارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً، وأجرى ماء تلك العيون تحته، فإذا خرج من تحت الحصن يسمى: بليخاً، ويتشعب من تلك الموضع أنهار تسقي بساتين وقرى ثم تصب في الفرات تحت (الرقة) بميل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣) وصورة الأرض (٢٠٦ ـ ٢٠٧).
وقد جاء ذكر: (حصن مسلمة) في كتاب: بلدان الخلافة الشرقية ـ لسترنج، فقال: ينسب هذا الحصن إلى مسلمة بن عبد الملك الخليفة الأموي، انظر (١٢٦) ولم يكن مسلمة خليفة من خلفاء بني أمية، بل كان أميراً من أمرائهم.

(١) رأس عين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين، بينهما وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً وقريب من ذلك بينها وبين حران، وفي رأس عين عيون كثيرة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور (خابور الفرات)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٠٥ ـ ٢٠٧) وصورة الأرض (٢٠٠).

(٢) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣).

(٣) معجم البلدان (٣/ ٢٨٦).

(٤) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة، وهنا يراد به مساحة من الأرض يعادل ثلث أيكر: انظر بلدان الخلافة الشرقية (١٣٦).

(٥) بلدان الخلافة الشرقية (١٣٦).

(٦) تندة: قرية كبيرة في غربي النيل من الصعيد الأدنى، انظر معجم البلدان (٢/ ١٤٤)، وانظر زبدة كشف الممالك (٣٣) عن الصعيد.

(٧) الأشمونين: هكذا يسميها أهل مصر، وهي (أشمون): بلدة قديمة عامرة آهلة، وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٦).

(٨) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (٤٣١).

سكنى بني مَسْلَمَة في (حصن مَسْلَمَة) وفي صعيد مصر، فقد سكن قسم منهم هنا، وقسم منهم هناك.

ولـمَسْلَمَة دار في دمشق[1] في حجلة القباب عند باب الجامع القبلي[2]، والجامع هو جامع بني أمية بدمشق الذي يطلق عليه اليوم: الجامع الأمويّ.

وكان يوسّع على أهل بيته إسكاناً وإطعاماً وإكساء، ومن أقواله: العيش في ثلاث: سعة المنزل، وكثرة الخدم، وموافقة الأهل[3]، ولا عجب في ذلك، فقد كان يوسِّع على مَنْ يعرف ومَن لا يعرف من ضيوفه وقاصديه.

وتوفي في سنة عشرين ومئة الهجريَّة[4] (٧٣٧م)، وفي رواية أخرى أنه توفي سنة إحدى وعشرين ومئة الهجريَّة[5] (٧٣٨م)، بعد أن ترك آثاراً كثيرة[6].

وكانت وفاته بالشَّام[7]، ودفن بموضع يقال له: (الحانوت)[8] وفي رواية أنّ عبد اللّه بن علي العباسيّ لمّا هزم مروان بن محمد بن الحكم آخر خلفاء بني أميّة نبش قبور الأمويين، فاستخرج مَسْلَمَة بـ(قنّسْرين) من

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢).
(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).
(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (٣/ ١٨٦).
(٤) تاريخ الموصل (٤٠) وتاريخ الإسلام (٥/ ٤٠٣) وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٥)، ولكن ابن خياط أخطأ في ذكر غزوات لمسلمة سنة إحدى ومئة الهجرية (٢/ ٣٦٧)، وكان على المحقق تصحيح ذلك، والصواب أن مسلمة بن هشام بن عبد الملك هو الذي غزا في تلك السنة.
(٥) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٩) وتاريخ الإسلام (٥/ ٢٧) ودول الإسلام (١/ ٥٨) والعبر (١/ ١٥٤) وشذرات الذهب (١/ ١٥٩).
(٦) نسب قريش (١٦٥).
(٧) خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٥) وابن الأثير (٥/ ٢٢٨).
(٨) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٩).

قبره سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريَّة، فلم يجد غير جمجمة فأحرقها[1]!

فإذا كان مولده حوالي سنة ست وستين الهجريَّة كما ذكرنا سابقاً، فإنه مات عن عمر يناهز الرابعة والخمسين.

وهكذا خلّفت النار رماداً، وأدّى الحقد الأسود إلى إحراق الموتى وصلبهم وقتل الأحياء وتشريدهم، في محاولة لإفناء بني أميّة الأحياء منهم والأموات!!

وقد رثاه الوليد بن يزيد بن عبد الملك فقال:

أتانا بريدانِ من واسِطِ ... يخبَّان بالكُتُب المُعْجَمَه
أقول وما البعدُ إلاّ الرّدى ... أمَسْلَم لا تَبْعَدَن[2] مَسْلَمه
فقد كنت نوراً لنا في البلاد ... تُضيء فقد أصبحت مُظلِمَه
كتَمْنَا نَعِيّكَ نَخْشَى اليَقِين ... فَجَلّى اليقين عن الجَمْجَمه[3]
فكم من يتيم تلاقيتَه ... بأرض العدوّ وكم أيِّمه[4]
وكنت إذا الحربُ درّتْ دماً ... نَصَبْتَ لها رايةً مُعْلَمَه[5]

وقال الوليد في رثائه أيضاً:

أَهَيْنَمَةٌ حديثُ القوم أم هُمْ ... سُكُوتٌ بعدما مَتَعَ[6] النّهارُ
غزيرٌ كان بينهمُ نبيّاً ... فقول القوم وحيٌ لا يُحارُ
كأنا بعد مَسْلَمَة المُرجّى ... شُروبٌ طوَّحتْ بهمُ عُقَارُ

---

(١) تاريخ الموصل (١٣٨) وقد توفى مؤلفه سنة (٣٣٤هـ) (٩٤٥م).
(٢) لا تبعدن: لا تهلكن.
(٣) جلى عن الشيء: كشفه وأظهره. والجمجمة: إخفاء الكلام.
(٤) الأيمة: الأرملة.
(٥) الأغاني (٦/٧) ونسب قريش (١٦٥) وانظر تهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤) والبداية والنهاية (٩/١٢٦٨) وتاريخ الإسلام (٤/٣٠٣).
(٦) متع النهار: بلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال ـ وقيل: متع النهار: طال وامتد.

أو الأَفُّ هــجــانُ فــي قــيــودِ تَــلَــفَّـتُ كــلّــمــا حــنّــت ظُــؤار[1]

فــلــيــتَــك لــم تَــمُــتْ وفــداك قــومٌ تُــريــح غــبــيّــهــم عــنّــا الــدِّيــار

ســقــيــمُ الــصَّــدر أو شَــكِــسٌ بَــلــيــدٌ وآخــــر لا يَــــزُور ولا يُـــــزار[2]

ومن حسن الكلام ما قاله الوليد لمّا مات مَسْلَمَة، فإن هشاماً[3] قعد للعزاء، فأتاه الوليد، فوقف على هشام فقال: يا أمير المؤمنين! إنّ عُقْبَى مَنْ بقيَ لحوقُ مَنْ مضَى، وقد أَقْفَرَ بعد مَسْلَمَة الصَّيْدُ لمن رَمَى، واختَلَّ الثّغْرُ فوهى، وعلى أَثَر مَنْ سَلَفَ يمضي من خَلَف: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[4]، فأعرض عنه هشام ولم يُجِزْ جواباً، وسكتَ النّاس فلم ينطقوا[5].

وصدق الوليد: فقد مات فتى العرب[6]، ورجل بني أميّة[7]، ومثله يُرْثى وعلى أمثاله يبكي الناس.

القائد

١ ـ كانت لمَسْلَمَة مواقف مشهورة، ومساعٍ مشكورة، وغزوات متتالية منثورة، وقد افتتح حصوناً وقلاعاً، وأحيا بعزمه قصوراً وبقاعاً، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد[8] في أيامه، في كثرة

---

(١) الظؤار: جمع نادر: مفرده ظئر، وهي الناقة العاطفة على ولدها المرضعة له.

(٢) الأغاني (٧/٧ ـ ٨)، ويريد بسقيم الصدر: يزيد بن الوليد، ويعني بالمشاكس: هشاماً، والذي لا يزور ولا يزار مروان بل محمد.

(٣) هشام بن عبد الملك.

(٤) الآية في سورة البقرة (٢: ١٩٧).

(٥) ابن الأثير (٥/ ٢٩٠) الأغاني (٨/٨).

(٦) الشعر والشعراء (٤١).

(٧) نسب قريش (١٦٥) وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤).

(٨) انظر سيرة خالد بن الوليد في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٥٠ ـ ٢٣٧)، وانظر سيرته في كتابنا: خالد بن الوليد المخزومي.

مغازيه، وكثرة فتوحه، وقوّة عزمه، وشدّة بأسه، وجودة تصرّفه في نقضه وإبرامه، وهذا مع الكرم والفصاحة[1] وهو بطل كرّار[2]، وشجاع مهيب له آثار حميدة في الحروب[3]. وكان موصوفاً بالشجاعة والإقدام والرأي والدهاء[4]، وكان من رجال بني أميّة، وله آثار كثيرة في الحروب ومكانة في الروم[5].

وكان مَسْلَمَة باسلاً، سأل هشام بن عبد الملك مَسْلَمَة: يا أبا سعيد! هل دخلك ذُعر قطّ لحرب أو عدوّ؟ قال: ما سَلِمْتُ في ذلك من ذعر يُنَبِّهُ عليَّ حِيَلي[6]، ولم يَغْشَني ذُعر قطّ سلبني رأيي، فقال هشام: صدقتَ، هذه والله البسالة[7].

وكان حازماً بعيد النظر، يحسب لكل شيء حسابه، ويتّخذ لكل أمر عدّته، ويتقن المكيدة في الحرب، ومن أقواله في ذلك: ما أخذتُ أمراً قطُّ بحزم فَلُمتُ نفسي فيه، وإن كانت العاقبة عليّ، ولا أخذت أمراً قطّ وضيعت الحزم فيه، إلاّ لُمْتُ نفسي عليه، وإن كانت العاقبة لي[8].

وقد تحدثنا عن مزاياه إنساناً: الشخصية القوية النافذة، الذكاء، المحدِّث، الشاعر، السخاء، الكرم، الشهامة، المروءة، التديُّن، قابليته الإدارية، ثقة الناس به حكاماً ومحكومين، الحدب والعطف، وتقدير الناس له وإعجابهم به.

---

(1) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩). (2) .... ـ (١/ ٥٨).
(3) تاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢) وانظر المعارف (٣٥٨).
(4) العبر (١/ ١٥٤) وشذرات الذهب (١/ ١٥٩).
(5) تهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤) والبداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).
(6) في عيون الأخبار (١/ ١٧٤): حيلة.
(7) العقد الفريد (١/ ١٠٤) وعيون الأخبار (١/ ١٧٤).
(8) العقد الفريد (١/ ١٢٢).

وهذه المزايا لها وزن في صفات القائد المتميز في أيام مَسْلَمَة، ولا تزال من صفات القائد المتميز حتى اليوم.

٢ ـ والحق أنه كان فتى العرب[١] بحق، ولكنه ليس نظير خالد بن الوليد كما ذكر ابن كثير وغيره، فليس لخالد نظير في طبقات القادة العرب المسلمين، فيما أعرف، غير المُثَنّى بن حارثة الشيباني[٢] في مزايا القيادة، أما في سعة فتوحاته، فلا نظير لخالد في القادة العرب المسلمين، إذا استثنينا الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام؛ باعتباره قائداً ورسولاً.

ولكن يمكن أن نقول: إنّ مَسْلَمَة بن عبد الملك هو خالد بن الوليد زمانه، أي هو خالد زمانه لا خالد كل الأزمان، لأن مَسْلَمَة كان قائداً مبرزاً في زمانه بالنسبة للقادة الآخرين ولم يكن أبرز قائد في أيام قُتَيْبَة بن مُسْلم الباهلي[٣] ومحمد بن القاسم الثقَفِيّ[٤]، فلمّا رحلا عن هذه الدنيا في مأساة دَامية مؤلمة، أصبح مَسْلَمَة من بعدهما رجل الساعة في القيادة وأبرز القادة المعاصرين له على الإطلاق.

ومن المعلوم أن المؤرخين المسلمين غالباً ما يغفلون تفاصيل المعارك التي تلقي ضوءاً ساطعاً محدّداً على سمات مزايا القادة، ولا تظهر سمات القائد إلا بإيراد الخطة التفصيلية لكل معركة، وكيف جرى تنفيذها، وأثر القائد الشخصي في إدارة المعركة، بحيث يمكن استنتاج مزايا القائد بسهولة ويسر.

والمؤرخون المحدثون عرباً ومسلمين وأجانب الذين اعتمدوا المصادر التاريخية، أغفلوا مزايا القائد الحربيّة أو تحدّثوا عنها باقتضاب

---

(١) الشعر والشعراء (٤١١).

(٢) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٧ ـ ٥٠) ـ ط ٢.

(٣) انظر سيرته في العدد الثاني عشر (٤١ ـ ٧٢) والعدد الثالث عشر (١٤٥ ـ ١٦٥) من مجلة المجمع العلمي العراقي ـ ١٣٨٤ هـ و١٣٨٥ هـ.

(٤) انظر سيرته في العدد السادس عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي (١٢٧ ـ ١٤٨) ـ ١٣٨٨ هـ.

وغموض، أو قارنوا مزايا القادة القدامى بمزايا القادة المحدثين، فحمّلوا الأمور فوق ما تطيق، أو جعلوا القادة الأقدمين كما يريد أولئك المؤرخون لا كما كانوا، وربما كان المؤرخ المحدث غير عسكري، فقلب الحقائق رأساً على عقب، لأنه أقحم نفسه في قضايا عسكريَّة ليست ضمن اختصاصه، فجاءت استنتاجاته خاطئة غير ذات موضوع.

إنّ استنتاج مزايا القائد العسكريَّة صعب جداً بالنسبة للتاريخ المدوّن الذي بأيدينا، ولكن وطأة هذه الصعوبة تخف كثيراً إذا رست المعارك التي خاضها القائد كافة، الواردة في شتى المصادر لا في مصدر واحد، لأنّ الاقتصار على دراسة معركة واحدة خاضها القائد لا على معاركه كافة، وعلى مصدر واحد لا على مصادر شتى، لا يبرز مزايا القائد العسكريَّة بوضوح ولا يزيل الغموض التي يكتنف تلك المزايا، وبالرغم من ذلك فقد لا يستطيع الباحث المدقّق أن يعطي القائد حقّه كما كان فعلاً، نظراً لإهمال المؤرخين القدامى هذه الناحية إهمالاً كاملاً.

ومع ذلك، فما لا يدرك كلُّه لا ينبغي يهمل، فبعض الشيء خير من لا شيء، هذا إذا درس المعارك كلّها في المصادر كلها عسكريّ مختص، يستطيع بخبرته الطويلة وعمله أن يستنبط مزايا القائد من دراسته، وأشك كثيراً في مقدرة غير عسكري أن يستنبط ما يستنبطه العسكري في هذا المجال، وقد أحسن قسم من غير العسكريين في جمع تاريخ قسم من القادة، وجمع التاريخ شيء، واستنباط المزايا العسكريَّة شيء آخر.

ولست أحاول أن أقلِّل من شأن المؤرخين غير العسكريين في مجالات الدراسات العسكريَّة، ولكنني أحاول ألاّ أحملهم ما لا يستطيعون ولا أكلِّفهم ما لا يقدرون.

لقد كان مَسْلَمَة يتحلى بأركان القيادة الثلاثة: الطّبْع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العملية.

٣ ـ وقد تحدّثنا عن سماته الموهوبة فيما سلف: حزماً وعزماً،

وكرماً وفصاحة، وشجاعة وإقداماً ورأياً ودهاءً، وفطنة وذكاءً، وبعد نظر وسخاءً، وتديناً وورعاً، وشهامة ومروءة، وشخصية قويّة، وقابلية إدارية، وحدباً وعطفاً.

وأضاف إلى مزاياه الطبيعية الموهوبة، علماً مكتسباً، فكان أديباً شاعراً، ومحدثاً عالماً. وتعلم الرِّماية والفروسية، وتنظيم الجيش وإدارته، وأساليبه التعبوية والسّوْقيّة، كما أتقن الأساليب الإدارية للجيش: تدريباً وتسليحاً، وتجهيزاً وتموينا، وإسكاناً وتنقلاً، وتَنظيماً وقيادة.

ولعل إعداد جيشه واستحضاراته المتقنة، وإسكانه وتموينه، قبل حصار القُسْطَنْطينيَّة وبعد حصارها في صفحة (المبادرة)، خير دليل على ذلك.

أنّ الخلفاء، وبخاصة بني أميّة، كانوا يعدون أولادهم إعداداً المشاق، فإذا قضوا هذه المرحلة بنجاح بدؤوا المرحلة الثَّانية، مرحلة مرافقة القادة المشهود لهم بالكفاية في الحروب، للاطلاع عن كثب على أساليب إدارة المعارك من الناحيتين الإدارية والتعبوية، والتشبّع بجو المعارك والقتال.

فإذا انتهت هذه المرحلة التي غالباً ما تصل ذروتها في سن العشرين، بدؤوا مرحلة تحمل المسؤولية في القيادة الفعلية للجيوش.

ومن الطبيعي أن الذي لا يثبت جدارته في تحمل المسؤولية ومقدرة، لا يتولى المناصب القيادية، فما كل أبناء الخلفاء وأهل بيتهم تولوا مناصب قيادية، وقسم منهم لم يمارس هذه المناصب أبداً.

وقد مرّ مَسْلَمَة بهذه المراحل الثلاث في عهد أبيه عبد الملك بن مروان[1]، الذي كان رجل بني أمية بحق في القضايا العسكريَّة، بالإضافة

---

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح المغرب (٢/٥٩ ـ ١٥٢).

إلى مزاياه الأخرى.

واستطاع مَسْلَمَة أن يجتاز هذه المراحل بتفوُّق باهر، فأصبح موضع ثقة والده عبد الملك، فقال فيه وهو على فراش الموت في وصيته بنيه وآل بيته: .... وانظروا مَسْلَمَة، فاصدروا عن رأيه، فإنه نابكم[1] الذي إليه تفترون[2]، ومِجَنّكم[3] الذي عنه تَرْمُون .....[4]، وما أعظمها من شهادة وما أضخمها من ثقة وما أكبرها من تقدير.

إنه يقول: مَسْلَمَة أسدّكم رأياً وأرجحكم عقلاً، فلا تخالفوه في شيء، وهو سيّدكم الذي يشيع فيكم السكينة والأمن والاطمئنان، وهو حاميكم من كل سوء في أيام الحرب والسلام، ولا أظن أنّ هناك والداً بلغت ثقته بولده ما بلغت ثقة عبد الملك بمَسْلَمَة، وهذا هو منتهى النجاح الذي حقّقه مَسْلَمَة على يد والده ومعلّمه الأول قائداً وإدارياً وإنساناً.

فلا عجب أن يردّد مؤرخوه بأنه كان أحقّ أبناء عبد الملك بالخلافة، لولا أنه ابن أمة، ولم يكونوا يولّون الخلافة لبني أمهات الأولاد!

أما التجربة العملية قائداً، فقد تولى القيادة سنة ست وثمانين الهجريَّة في أواخر حياة أبيه عبد الملك بن مروان، ليس لأنه ابن الخليفة وحسب، فمن المعلوم أنّ قسماً من إخوته لم يتولّوا مناصب قيادية ولا شهدوا معركة في حياتهم كلّها قادة أو جنوداً، منهم على سبيل المثال أبو بكر بن عبد الملك الذي كان اسمه بَكّاراً[5]، ومحمد بن عبد الملك وسعيد بن

---

(١) ناب القوم: سيدهم.
(٢) تفترون: تطمئنون وتسكنون. فتر إلى الشيء: اطمأن وسكن. وفي الحديث: من فتر إلى سنتي فقد نجا.
(٣) المجن: الترس، وفلان مجنكم: حاميكم.
(٤) ابن الأثير (٤/ ١١٧ ـ ١١٨).
(٥) انظر المعارف (٣٥٨).

عبد الملك وكانا ناسكَيْن[1].

كما أن أي خليفة أو ملك أو رئيس لا يمكن أن يتولى أولاده المناصب القيادية إلاّ إذا كانوا قادرين على تحمل أعبائها بكفاية، لأن توليتهم مثل هذه المناصب بدون أن يكونوا أهلاً لها تؤدي حتماً إلى التضحية برجالهم في مجزرة لا تعرف نتائجها الوخيمة دون مسوِّغ معقول أو منطقي، ممّا يزعزع أركان سلطانهم ويلحق بسمعهم أفدح الأضرار. ومن المحتمل أن يولوهم مناصب إدارية مع إعانتهم برجال قادرين يستعينون بهم في تسيير أعمالهم، أما أن يولوهم مناصب قيادية، فلا!

ومن المعلوم أنّ المرء يكون قادراً على حمل السلاح وخوض غمار الحرب وممارسة القتال في سن العشرين من عمره كمعدل نسبيّ، وقد يكون المرء جاهزاً قبل سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر جندياً، أما أن يكون قائداً له مسؤولياته القيادية، فلا يتولى القيادة قبل العشرين من عمره، إلاّ نادراً كما هو الحال بالنسبة لأسامة بن زيد ﷺ ومحمد بن القاسم الثقفي اللذين توليا منصب القيادة قبل أن يبلغا العشرين، وهذا أمر يعتبر شاذاً، ولا قياس على الشواذ.

ومضى مَسْلَمَة من سنة ست وثمانين الهجريَّة حتى تقاعد سنة أربع عشرة ومئة الهجريَّة قائداً دون توقف إلاّ في سنة إحدى عشرة ومئة الهجريَّة، وأحسب أن توقفه في هذه السنة كان لأسباب مرضيّة، كما أحسب أن تقاعده بعد سنة أربع عشرة ومئة الهجريَّة حتى توفّاه اللّه سنة عشرين ومئة الهجريَّة أو سنة إحدى وعشرين الهجريَّة كان لمرضه أيضاً، ومعنى هذا أنه أمضى كل سني حياته قائداً، فإذا توفي عن عمر يناهز الرابعة والخمسين كما ذكرنا سابقاً، وتولى القيادة بعد أن بلغ العشرين من عمره، فإنه كان قادراً على تولي القيادة أربعاً وثلاثين سنة، مارس منها

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٨٩).

القيادة سبعاً وعشرين سنة، وأقعده المرض عن ممارسة الجهاد سبع سنوات فقط!

ولا أعتقد أنّ هناك قائداً مارس القيادة أربعة أخماس سِنِيِّ حياته في ساحات القتال، وتخلّف خُمس سِنيّ حياته عن تلك الساحات مضطراً.

إنّ مَسْلَمَة قضى أكثر حياته في التجربة العملية قائداً، وكان بمقدوره أن يتولّى إمارة الأمصار والياً، فينعم بالسلطة والراحة بعيداً عن أهوال القتال، ولكن مَسْلَمَة خُلق ليكون غازياً لا ليكون والياً.

٤ ـ فماذا عن مَسْلَمَة القائد في رسم الخطط العسكريَّة؟

من المعلوم أنّ الخطّة العسكريَّة قسمان: قسم إداري، وهو الجانب الإداريّ من الخطّة: حشداً للمصادر البشريَّة، وتجهيزها، وتموينها، وإسكانها، ونقلها، وطبابتها، وتسليحها، ومرتّباتها. وقد برز مَسْلَمَة في ذلك بشكل ملموس في حصار (القُسْطَنْطينيَّة) كما ذكره المؤرخون بالتفصيل في تلك الملحمة، ممّا يدل على كفايته الفذّة في هذا المجال.

والواقع أنه اهتمّ بأدق التفاصيل من الجانب الإداريّ لخطّته في حصار (القُسْطَنْطينيَّة) بمعاونة سليمان بن عبد الملك، ومن الإنصاف أن نسجِّل لسليمان تلك المعاونة الصّادقة السخية بالتقدير والإعجاب.

وليس معنى إغفال المؤرخين للجانب الإداري من خطط مَسْلَمَة العسكريّة الأخرى أنه أهملها ولم يعرها اهتمامه البالغ وعنايته الفائقة، فلو أنه أهملها لمّا انتصر أبداً.

أما قسم العمليّات في رسم الخطّة العسكريَّة، فيبدو أنه كان ماهراً في تطبيق مبدأ (المباغتة) وهي أهمّ مبادىء الحرب على الإطلاق.

فقد تحرّك سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريَّة (٧٢٩م) على رأس قواته إلى (إرْمينيّة)، و(أذربيجان) بعد استشهاد قائدها وأميرها الجرّاح بن عبد اللّه الحكميّ وتمزيق جيش المسلمين فيها، فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك

الذين قتلوا الجرّاح ومزّقوا جيشه ـ في شتاء شديد، حتى جاز (الباب) في آثارهم، وبذلك باغت الترك المنتصرين مباغتة كاملة، فقلب نصرهم إلى هزيمة، لأنّ الترك لم يكونوا يتوقعون أن يقاتلهم المسلمون شتاء في مناطق قارسة البرد، فكانت حركة مَسْلَمَة في الشتاء مباغتة في الزمان للترك.

والمباغتة إما أن تكون بالزمان، في وقت لا يتوقعه العدو، وإما أن تكون بالمكان، من اتجاه لا يتوقعه العدو، وإما أن تكون بالأسلوب، وهو اتخاذ أسلوب قتالي لا يتوقعه العدو، أو باستخدام سلاح جديد لا يتوقعه العدو.

ومن الأمثلة على تطبيق مَسْلَمَة مبدأ (المباغتة) بالأسلوب، ما نفّذه سنة ثلاث عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٠م) في الانسحاب أمام تفوّق (الخزر) العدديّ، إذ أمر أصحابه بإيقاد النيران، وترك خيامهم وأثقالهم، ثم قدّم الضعفاء وأخرَّ الشجعان، وطوى المراحل: كل مرحلتين في مرحلة واحدة، وبذلك أنقذ قواته بهذا الأسلوب في الإنسحاب من خطر مطاردتها وإلحاق الخسائر الفادحة بها، وحرم (الخزر) من إحراز إنتصار ساحق على جيشه.

لقد وجد الخزر نيران المسلمين مضرمة، وخيامهم قائمة وأثقالهم باقية، فحسبوا أنّ قواتهم الضاربة في مكانها، بينما أخلى مَسْلَمَة الضعفاء، وأبقى الشجعان ليغطوا حركة الإنسحاب السريع المنظم، فلمّا اكتشف الخزر انسحاب المسلمين كان الوقت المناسب للقيام بمطاردة المسلمين مطاردة مؤثرة قد فات، وبهذا باغت مَسْلَمَة أعداءه بالأسلوب.

ولم يتحدّث المؤرخون عن أسلوب انسحاب مَسْلَمَة من محاصرة (القُسْطَنْطينيَّة)، ولكنهم لم يتحدثوا عن مطاردة الرّوم للمسلمين بعد انسحابهم، ممّا يدل على أنّ مَسْلَمَة انسحب بالمسلمين وفق خطّة مرسومة محكمة، إلى القواعد المتقدمة، فحرم الرّوم من مطاردة توقع أفدح الخسائر بالمسلمين.

وقد كان انسحاب المسلمين من حصار (القُسْطَنْطينيَّة) مباغتة للرّوم بالأسلوب أيضاً.

ولعل من المفيد أن نذكر أنّ إدارة معركة الانسحاب، أصعب بكثير من إدارة معركة مسير الإقتراب، والدِّفاع، والهجوم والمطاردة، لأن الإنسحاب يؤدي إلى زعزعة المعْنَوِيَّات، كما أن احتمال تعرض المقاتلين للأخطار عند الانسحاب أكبر من احتمال تعرضهم في صفحات القتال الأربع الأخرى.

فإذا أثبت أي قائد وجوده في معركة انسحابية، فهو قادر على إدارة أي معركة أخرى تقدماً أو دفاعاً أو هجوماً أو مطاردة.

ولكن مَسْلَمَة لم يقتصر على تطبيق مبدأ (المباغتة) من مبادىء الحرب، بل طبق مبادىء الحرب الأخرى بنفس الكفاية والحرص الذي طبّق بهما مبدأ المباغتة.

فقد كان (يختار مقصده ويديمه)، فهو دائماً يعرف ما يريد، ويسعى جاهداً للحصول عليه من أقصر الطرق وبأقل الخسائر الماديَّة والمعنويّة.

وكان قائداً (تعرُّضياً)، لم يلجأ إلى الدِّفاع في معاركه، وكانت المعارك التي خاضها تعرضية، عدا حصار (القُسْطَنْطينيَّة) الذي كان تعرضاً حقيقياً لم يكتب له النجاح، ولم يمارس (الانسحاب) إلاّ مرتين كما ذكرنا سابقاً، ولو أن الانسحاب أيضاً لا يتم إلاّ بتعرض تعبويّ محليّ، ويمارسه القائد لإنقاذ جيشه من المطاردة، لذلك اعتبر قسم من أساطين العسكريين الانسحاب تعرضاً معكوساً.

وكان (يحشد) قواته من الناحيتين الماديَّة والمعنويّة في المكان والزمان الجازمين، وقد استطاع حشد عشرين ومئة ألف في غزوة (القُسْطَنْطينيَّة) عدا ما وصل إليه من مدد متعاقب متّصل، وهذا العدد يعتبر ضخماً بالنسبة للحشود في أيامه، والأرقام التي توردها المصادر التاريخية القديمة فيها مبالغة كبيرة في أكثر الأحيان.

وكان يحرص غاية الحرص على (الاقتصاد بالمجهود)، فلا يستخدم غير القوات المناسبة للواجب المناسب، وهذا أدّى إلى عدم تكبّد قواته خسائر لا مسوَّغ لها.

وكان يهتمّ كثيراً بمتطلبات (الأمن). فيوفِّر الحماية الكافية لقواته لمواصلاتها خوفاً من (المباغتة)، لذلك لم يستطيع أعداؤه أن يباغتوا قوّاته أبداً. وكان يخرج المقدمات والمجنبات في مسير الاقتراب، ويؤمِّن السَّاقات في الانسحاب، ويخصِّص القطع العسكريَّة اللازمة لحماية خطوط مواصلاته وقواعده المتقدِّمة.

وكان (التعاون) من أهدافه في كلِّ معاركه، فكانت قواته تتعاون فيما بينها، وكانت تتعاون مع القوات الأخرى التي تقاتل في ساحة القتال من أجل تخفيف الضغط على جيشه، كما كان يتعاون مع الخلفاء تعاوناً وثيقاً لإمداده بالرجال والمعدّات.

وكان (يديم معنويات) رجاله، ووجوده بين هؤلاء الرجال قائداً يرفع معنويات رجاله من جهة، ويزعزع معنويات عدوه من جهة أخرى.

وقد رأينا كيف تزعزعت معنويات قوات يزيد بن المهلب، بمجرد علمهم بأنه يقود الحملة التي جاءت لحربهم، ممَّا جعل يزيد بن المهلب يخطب رجاله في محاولة لرفع معنوياتهم، ولكن محاولته باءت بالإخفاق.

وقبيل خوضه المعركة الحاسمة ضدّ يزيد بن المهلب، أحزق الجسر الذي يمثل الشريان الرئيس لخطوط انسحاب قوات ابن المهلب، وبذلك زعزع معنوياتهم فهرب أكثرها قبل نشوب القتال.

وحين غزا مَسْلَمَة (عَمُّورِيّة) حمل معه نساءه إرادة الجدّ في القتال للغيرة على الحرم[١]، حتى يديم معنويات قواته ويسمو بها إلى أعلى الدرجات.

---

(١) فتوح البلدان (٢٢٩).

وحمل النساء في الحرب ـ بالرغم من الأخطار الي يمكن أن يتعرّض له ـ يعتبر دليلاً واضحاً على تحلّي مَسْلَمَة بإرادة القتال، التي هي الرغبة الأكيدة في الثبات عند القتال من أجل تحقيق النصر وتحمل أعباء الحرب بذلاً للأموال والأنفس، واستهانة بالأضرار والشدائد، وصبراً في البأساء والضرّاء وحين البأس، مهما طال الأمد وبَعُدَ الشّوط وكثر العناء وازدادت المصاعب وتكاثرت التضحيات[١].

والقائد الذي لا يتحلّى بمزية: إرادة القتال، قد يهرب عند الصدمة الأولى لينجو بنفسه، فلا ينتصر أبداً، لأن رجاله يقتدون به في الهروب، ولم يقاتل جيش انهزم قائده أبداً.

والذي يبدو هو أنّ مَسْلَمَة يتفق مع خالد بن الوليد في شدته القاسية أثناء القتال، ويختلف معه في رحمته لأعدائه بعد أن تضع الحرب أوزارها، فكان يحنو على المغلوبين، ويترضى المنهزمين ويعفو عن المحاربين، كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وبهذا التسامح الذي يكون من موطن القوة لا من موطن الضعف، جعل أعداءه يأملون بالعفو والحياة الكريمة الرضيّة حتى في حالة هزيمتهم، إذا استسلموا وأخلصوا للدولة وللحكم القائم، ممّا يؤدي إلى عدم استقتالهم إلى آخر سهم وآخر مقاتل.

كما أن مَسْلَمَة كان يخرّب لمصلحة النصر، ولكنه يعود بعد النصر، فيعمّر ما خرَّب ويشيِّدها، يهدم ويبني ما هدم. وقد علمنا أنه هدم مدينة (باب الأبواب) ليقضي على عصيانها، فلمّا استسلمت أعاد بناءها وزاد في عمارها، وحصّن أسوارها، فأصبحت أكثر عماراً، وأقوى تحصينا.

إنه يخرِّب لا من أجل التخريب، ولا من أجل الانتقام، ولا من

---

(١) انظر كتابنا: إرادة القتال في الجهاد الإسلامي ص (١٦).

أجل إخافة سائر الأعداء، بل ليكون التخريب عبرة لمن اعتبر، وكان يخرّب لضرورة حربية، فإذا زالت تلك الضرورة عاد فبنى ما خرّب، وأصلح ما دمر.

وبهذا الأسلوب وهذه الطريقة يقضي على الأحقاد والضغائن، ويجمع الصفوف وينقّي القلوب من الحقد الدفين.

وثمة سمة أخرى تميِّز قيادة مَسْلَمَة، وهي أنه كان يقود بعقله أكثر ممَّا كان يقود بسيفه، فلا يباشر القتال إلاّ نادراً، بينما كان خالد بن الوليد يقود بعقله ويقود بسيفه، ويباشر القتال بنفسه، ويستهدف قائد العدو، فينقض عليه كالصّاعقة، فيأسره أو يقتله.

وقد كان قادة بني أمية يقودون بعقولهم أكثر ممَّا كانوا يقودون بسيوفهم، وأقصد بقادة بني أمية القادة الأمويين نسباً، لا القادة الذين تولّوا قيادة الجيوش في عهدهم، فقد كان بين هؤلاء من يقود بعقله وسيفه على حد سواء، كقتيبة بن مُسلم الباهليّ ومحمد بن القاسم الثقفيّ.

والقادة في رأيي ثلاثة أنواع: قائد يقود بعقله، وقائد يقود بسيفه، وقائد يقود بعقله وسيفه.

أما القادة الذين يقودون بعقولهم، فهم قادة متميِّزون وليسوا جنوداً متميِّزين، وأما القادة الذين يقودون بسيوفهم فهم جنود متميّزين وليسوا قادة متميّزين، وأما القادة الذين يقودون بعقولهم وسيوفهم معاً، فهم قادة متميّزون وجنود متميزون في آن واحد.

والقادة الأمويون على الأكثر قادة متميِّزين، وقد يكونون جنوداً متميِّزون أيضاً. ولكن صفة القيادة المتميِّزة فيهم أظهر وأبرز.

وكان بإمكان مَسْلَمَة أن يكون قائداً متميّزاً، وجندياً متميّزاً، لأنه كان فارساً شجاعاً، ورامياً بارعاً، وبطلاً كرّاراً، ومقاتلاً مغواراً، ولكنه آثر - كما آثر بنو أميّة - أن يديروا الألوف من رجالهم بعقولهم لإحراز النصر، لا

أن يصبحوا فرداً من بين تلك الألوف. وقد يموت الفرد شهيداً وهو جندي فينقص تَعْداد الجيش عدداً من الشهداء قل أو كثر، فلا تكون تلك الخسائر إلاّ لبنات في صرح النصر، ولكنّ خسارة القائد باستشهاده تؤدي إلى الهزيمة، وشتان بين استشهاد القائد وهو العقل المدبِّر والرجل المسيطر والعامل المؤثر، وبين استشهاد الجنود وهم لِبَنَات النصر وعدّته، ولا نصر بدون قيادة قادرة وجنود شهداء.

٥ ـ لقد كان لمَسْلَمَة قابليّة على إعطاء القرار السّريع الصائب، لأنه كان ذكياً، حاضر البديهة، عالماً مجرِّباً، لذلك كان القائد الأول في الدَّولة الأموية بعد محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم، والمستشار الأوّل للخلفاء في نفس الوقت.

وكان يتحلّى بالشّجاعة الشخصية، مقداماً غير هيّاب، وبطلاً لا يخشى المصاعب والأهوال.

وكان ذا إرادة قوية، إذا قرّر أمراً واقتنع به ينفذه بحزم وإصرار، ولا نعرف له موقفاً أبدى فيه تردّداً.

وكان يتحمّل المسؤولية بلا تردد أيضاً، ولا يحاول التملّص منها أو إلقاءها على عاتق الآخرين. وقد قبل مسؤوليات ضخمة في أوقات عصيبة، وأثبت جدارة فائقة في تحمل أعبائها، وكمثال على ذلك قبوله مسؤولية حرب يزيد بن المهلب في ثورته العارمة العاصفة، بالرغم من مكانة ابن المهلب داخلياً وخارجياً، وبالرغم من استفحال أمره في العراق وفارس وخُراسان.

والواقع أنه تحمّل مسؤوليات ثقيلة، كان بعضها يهدّد مصير الدَّولة بالزوال.

وكان يعرف (مبادىء الحرب) ويطبقها بكفاية، وحسبنا ما شرحناه في مجال التطبيق.

وكان يتحلّى بنفسيّة لا تتبدل في حالة النصر والاندحار، يتقبل النقد بصدر رحب، ويصغي للناصحين الصادقين، ويستشير أهل الرأي والفطنة في أموره، ويفتح أبوابه للناس، ولا يتعالى على أحد غروراً بانتصاراته أو مكانته الرفيعة بين الحكّام والمحكومين على حد سواء. أما في حالة الاندحار، فيسيطر على أعصابه، ولا ينهار أو يهون أو يتخاذل، ولا يبدو عليه ضعف ولا تظهر عليه استكانة، بل يتحرّك بكل وسيلة ممكنة لإنقاذ الموقف وتبديله من حال إلى حال.

وكان يسبق النظر ويُعدُّ لكل أمر عدّته، ويدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات، حتى لا يُفاجأ بما لا يتوقّعه من أحداث.

ولم يقتصر في سبق النظر على معضلاته العسكريَّة والإدارية، بل يسبق النظر حتى في قضايا الدَّولة العليا، وكمثال على ذلك اقتراحه على الخليفة يزيد بن عبد الملك أن يختار وليّاً للعهد من بعده، فاختار هشام بن عبد الملك ومن بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

وكان يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم، لأنه قضى معظم حياته بينهم، ولأنه كان يخالطهم مخالطة النذّ للندّ، ويقصده كل فرد منهم زائراً أو من أجل قضاء حاجاته، لهذا كان يختار الرجل المناسب للعمل المناسب، كلٌّ حسب كفاياته ومزاياه.

وكان يثق برجاله المرؤوسين له، ويثق برؤسائه من الخلفاء، ويثق به رجاله ورؤساءه ثقة مطلقة، نظراً لإخلاصه وأمانته وسجاياه الأخرى.

وكان يحب الخلفاء ورجاله ويحبونه، فقد كان آلفاً مألوفاً، يعمل للمصلحة العليا للدولة أكثر ممَّا يعمل لنفسه، ويسدي العون الخالص لأتباعه، ويسعى لقضاء حوائجهم وكانت له شخصية قويّة نافذة. تطغى حتى على شخصيات الخلفاء من بعد أبيه، فلا يُرَدّ له طلب، ويدخل عليهم متى شاء، ويقدِّم النُّصح لهم بالحسنى، ويأمر المنحرف منهم

بالعودة إلى الصّواب. أما أنداده وأتباعه فيهابونه من دون خوف، ويخشونه من غير رهبة، يتواضع للصغير، ويوقِّر الكبير، ولا يعصون له أمراً، وينفذونها بحماسة وبطيبة قلب.

ولم تكن شخصيته ذات أثر في محيطه العربي والإسلامي، بل فرضها على الرّوم والترك والفُرس والأقوام الأخرى.

وكانت له قابلية بدنيّة تعينه على تحمّل المشاق العسكريَّة إلى درجة ما، وأحسب أنه لم يكن قوياً جداً بدنياً، إذ أخذه صداع عظيم حين كان يحاصر القُسْطَنْطينيَّة[1]، وكان يومها في مقتبل العمر وفي ريعان الشباب، وسابق الوليد بن عبد الملك بالخيل بحضور والدهما عبد الملك بن مروان، فسبقه الوليد كما ذكرنا سابقاً.

وكان لمَسْلَمَة ماضٍ ناصع مجيد في المجالين العسكري والإداريّ، وفي المجال الشخصيّ، إذ لم يطعن أحد في سلوكه وخلقه واستقامته ونزاهته، بينما شنّع المؤرخون بالمنحرفين أخلاقياً من بني بيته كما هو معروف[2].

لقد كان مَسْلَمَة بحق قائداً متميزاً، ترك بصماته على الدَّولة دفاعاً عنها وإخلاصاً لها ودعماً لمكانتها، كما ترك فتوحاته شاهداً باقياً على كفايته القيادية، فلا عجب أن يترك رحيله فراغاً هائلاً لم يستطع أن يملأه غيره من آل بيته ولا من القادة الآخرين[3].

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

(٢) انظر كتابنا: الرسول القائد (٤٢٨) حول الصفات المثالية للقائد.

(٣) في آثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٨)، ورد في معرض الحديث عن مدينة (باب الأبواب): وخارج المدينة تل عليه مسجد، في محرابه سيف يقولون: إنه سيف مسلمة بن عبد الملك بن مروان، يزوره الناس، ولا يزار إلا في ثياب بيض، فمن قصده في ثياب مصبوغة، جاءت الأمطار والرياح، وكاد يهلك ما حول التل. وعليه حفاظ يمنعون من يذهب إليه بالثياب المصبوغة. =

٦ ـ ولكن لا بدّ لنا من ذكر حقيقة قد لا تؤثر في مزايا قيادة مَسْلَمَة، ولكنها تلقي ضوءاً على سبب مهم جداً من أسباب انتصاراته المتوالية في قتال الأعداء الخارجيين الأجانب قائداً فاتحاً، وفي اقتتاله ضد الأعداء غير الأجانب الخارجين عن الدّولة قائداً إدارياً، وبتعبير آخر، في القتال الخارجيّ، وفي الاقتتال الداخلي فاتحاً في القتال، وموطّداً للأمن الداخلي من الاقتتال.

هذا السبب هو صلته الوثيقة بالخلفاء: الوالد والأخوة وأبناء العم، وهذه الصلة جعلت المجال أمامه مفتوحاً، لتسخير منابع الدَّولة كافة بشرية ومالية ومادية ومعنوية، من أجل تحقيق أهدافه في الفتح خارجياً، وفي توطيد الأمن داخلياً.

لقد كان يقود جيشاً ضخماً في عدده، متكاملاً في عُدَده، تتدفق عليه قضاياه الإدارية تمويناً وتسليحاً وتجهيزاً ونقلاً. وتصرف عليه الأموال الطائلة رواتب ومكافآت وإسكاناً، وليس من شك في أنّ صلته القريبة بالخلفاء، واعتمادهم عليه وثقتهم به اعتماداً وثقة بغير حدود، وتلبية لطلباته واستجابة لرغباته بغير تردّد، كل ذلك كان له أثر أيّ أثر في انتصاراته خارجياً وداخلياً وفي قتاله واقتتاله.

وقد مرّ بنا أنّ مَسْلَمَة عزله الخليفة عن (العراقَيْن) لأنه تصرف بالواردات دون الرجوع إلى الخليفة ولم يبعث منها إلى (دمشق) درهماً ولا ديناراً.

وما كان مَسْلَمَة محتاجاً إلى مراجعة الخليفة فيما يأخذ أو يعطي من

= وبالرغم من وضوح الأسطورة في هذا الادعاء، إلا أنه يظهر مبلغ الأثر النفسي الذي بقي لمسلمة في تلك المناطق، والواقع أنه حصن المدينة وعمرها وأولاها كل اهتمامه، فكان لاهتمامه في إعمارها وتحصينها أثره الباقي في نفوس سكان المنطقة حتى بعد وفاته لمدة قرون طويلة.

المال، لأنه ليس وكما كان الخليفة ينفق من هذا المال دون حسيب أو رقيب، كان مَسْلَمَة كذلك ينفق ما يريد دون حسيب ورقيب.

لقد كان مَسْلَمَة (يأخذ) ولا (يُعْطَى)، وهذا هو الفرق بينه وبين القادة الآخرين.

وكما انتصر مونتكومري في الحرب العالمية الثَّانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) بتفوقه على رومل في شمالي إفريقية بالموارد البشريَّة والماديَّة الأخرى، وعلى كيسرلنك في إيطاليا وعلى رونشتد في غربي أوروبا بعد الإنزال في نورماندي، وبالإضافة إلى المزايا القيادية لمونتكومري، كذلك تغلّب مَسْلَمَة على الرّوم والترك والخزر مقاتلاً، وعلى الخوارج وابن المهلب مقتتلاً، بموارده البشريَّة والماديَّة الأخرى، بالإضافة إلى مزاياه القيادية الأخرى أيضاً.

وهكذا تهيّأ لمَسْلَمَة قائداً مزايا القيادة الأصيلة، ومزايا العناصر البشريَّة والماديَّة، ممَّا جعله في عِداد أعظم القادة على عهد بني أميّة.

وإذا كان لي أن أصنّف قادة الفتح في عهد بني أمية إلى طبقات، فالطبقة الأولى من القادة هم: محمد بن القاسم الثقفيّ وقتيبة بن مُسلم الباهليّ في الجبهة الشرقيَّة، وزهير بن قيس البَلوِيّ[١] وعُقبَة بن نافع الفِهْرِيّ[٢] وحسّان بن النُّعمان الغسّانيّ[٣] وموسى بن نصير اللخمي[٤] وطارق بن زياد[٥] في الجبهة الغربيَّة.

أما الطبقة الثَّانية، فمَسْلَمَة على رأسها بعد معاوية بن أبي سفيان،

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في: قادة فتح المغرب العربي (١/ ١٥٠ ـ ١٧٠).
(٢) انظر تفاصيل سيرته في: كتابنا عقبة بن نافع الفهري، وفي قادة فتح المغرب العربي (١/ ٩٠ ـ ١٣٦).
(٣) انظر تفاصيل سيرته في: كتابنا قادة فتح المغرب العربي (١/ ١٧٢ ـ ٢٢٠).
(٤) انظر تفاصيل سيرته في: كتابنا قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١ ـ ٣٠٩).
(٥) ترد سيرته في كتابنا: قادة فتح الأندلس والبحار.

ومن هذه الطبقة معاوية بن أبي سفيان[١] وعبد الملك بن مروان[٢] ومروان بن محمد[٣] آخر خلفاء بني أميّة في الشَّام.

وقد انتصر قادة الطبقة الأولى بكفاياتهم وحدها، وانتصر قادة الطبقة الثَّانية بكفاياتهم ومواردهم، والطبقة الأولى جنود متميزون وقادة متميزون، والطبقة الثَّانية قادة متميزون وحسب.

مَسْلَمَة في التاريخ

يذكر التاريخ لمَسْلَمَة أنه كان أوسع الأمويين فتحاً برّاً، وأعظم قادتهم بعد معاوية بن أبي سفيان[٤].

ويذكر له أنه كان أبرز شخصية أُمويّة بعد معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان.

ويذكر له أنه أكثر الأمويين فتحاً في الأنضول، وأكثر من غير الأمويين الفاتحين في هذه المناطق، وبذلك أمّن الحدود البرية الشماليَّة الغربيَّة للدولة وحماها من صولة الرّوم.

ويذكر له أنه كان خليفة بغير خلافة، وملكاً غير متوّج من بني أمية.

ويذكر له حماسته الفائقة في جمع الشّمل ورصّ الصفوف ووحدة الكلمة من أجل المصلحة العليا للدولة.

---

(١) انظر سيرته في قادة فتح الشام ومصر (٢٢٩ ـ ٢٣٥).
(٢) انظر تفاصيل سيرته في: كتابنا قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٩٥ ـ ١٥٢).
(٣) ترد سيرته في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.
(٤) انظر سيرته في قادة فتح الشام ومصر (٢٢٩ ـ ٢٣٥).
(٥) انظر سيرته في قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٩٥ ـ ١٥٢).
(٦) ترد سيرته في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.
(٧) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (١٧٤ ـ ١٩٤).
(٨) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (١٧٤ ـ ١٩٤).

ويذكر له أنه سخّر كفاياته الفذة لخدمة الدَّولة، ولم يسخر الدَّولة لخدمة طموحه الشخصيّ.

ويذكر له التفوق على الخلفاء الذين تولوا الخلافة بعد أبيه، دون أن يستغل تفوقه في منافسة على السُّلطة.

ويذكر له أنه طهّر الجبهة الشرقيَّة، والجبهة الشماليَّة، والجبهة الشماليَّة الشرقيَّة والغربيَّة من أعداء الدَّولة، وأخضع تلك المناطق الشاسعة للسّلطة الشرعيّة.

ويذكر له، أنه كان رجل دولة بكل معنى الكلمة، قضى معظم سني حياته مجاهداً من أجل الوحدة وموحِّداً من أجل الجهاد.

ويذكر له أنه كان إدارياً حازماً، بالرغم من أنه لم يخلق والياً بل خلق غازياً.

ويذكر مزاياه الرفيعة خلقاً وسلوكاً وورعا، بالإضافة إلى العلم والأدب والشعر والكرم والمروءة.

ويذكر له أنه قضى أربعة أخماس عمره بعد بلوغه مبلغ الرجال في ساحات الجهاد، ولم يسقط السيف من يده في السنوات الباقية من عمره إلاّ مضطراً مكرهاً.

ويذكر له أنه أعظم من حاصر (القُسْطَنْطينيَّة)[1] من القادة العرب

---

(١) ـ

المنشور في مجلة الدراسات الهلنية (Journal of Helienic) المجلد (١٨) سنة (١٨٩٨م). وقد عالج موضوع حصار القسطنطينية العظيم في أيام خلافة سليمان بن عبد الملك في مقال نشره في مجلة الدراسات الهلنية أيضاً (المجلد ١٩ لسنة ١٨٩٩م) بعنوان: حملة سنة ٧١٦م إلى سنة ٧١٨م بحسب المراجع العربية● (The Campaign From Arabis Sources ٧١٨ to ٧١٦ of) وتناول هذا الموضوع من الجانب البيزنطي الأستاذ جي بي بوري (J.B. Bury) في كتابه: (Histor of the Later Rooman empire) المجلد الثاني ص (٤٠١)، انظر الهامش (٩) من كتاب: بلدان الخلافة الشرقية (١٧٠).

المسلمين.

ويذكر له أنه فتح مدناً وحصوناً كثيرة وبلاداً شاسعة، لا يزال أثر اللغة العربيَّة فيها باقياً حتى اليوم، ولا تزال متمسكة بالدِّين الحنيف.

رحم اللَّه القائد الفاتح، الإداري الحازم، الأديب الشاعر، العالم المحدِّث، المجاهد الإنسان، مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان.

عبد الله بن عبد الملك بن مروان
فاتح حصن سِنَان[١] وطُرَنْدَة[٢]
والمَصِّيْصَة[٣] من بلاد الرُّوم

نسبه وأيامه الأولى

هو عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميّة بن عَبْد شَمْس بن عبد مناف بن قُصَيّ القرشي الأمويّ[٤].

أبوه: عبد الملك بن مروان بن الحكم أمير المؤمنين.

وأمه: من أمهات الأولاد، ويريدون بتعبير أمهات الأولاد: الجواري والإماء اللواتي ولدن لمواليهنّ ذكرانا.

---

(١) حصن سنان: حصن في بلاد الروم، انظر معجم البلدان (٣/ ٢٨٥) و(٥/ ١٤١)، ولم يرد ذكر لمكانه في المصادر الجغرافية القديمة المتيسرة لدينا، ومن دراسة اتجاه فتوح عبد اللّه عبد الملك، نجد أن الحصن في منطقة (ملطية).

(٢) طرندة: مدينة تبعد عن (ملطية) ثلاث مراحل داخلة في بلاد الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٤٦).

(٣) المصيصة: مدينة على شاطىء نهر (جيحان) من ثغور الشام، بين (أنطاكية) وبلاد الروم وتقارب (طرسوس)، وكانت ذات سور وخمسة أبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٨٠) والمسالك والممالك (٤٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤)، وكانت تسمى: (Mapsuestia).

(٤) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (٨٩) وفوات الوفيات (٢/ ٣١) وقادة فتح المغرب العربي (٢/ ٩٥).

نشأ عبد اللّه وترعرع في ظروف ملائمة كل الملاءمة لاستكمال مزاياه الشخصية، فأبوه خليفة من أبرز خلفاء بني أمية إن لم يكن أبرزهم كفاية وعلماً وحزماً وإدارة وسياسة وقيادة، وظروفه الإدارية والعسكريَّة لا تخلو من مشاكل صعبة تُعين على التعلم النظري والتدريب العملي. وكان التعليم النظري لاستيعاب العلوم المتيسِّرة السائدة حينذاك ميسوراً لبني أُمية ولغيرهم من الناس، إذ كان العلماء والشيوخ وقتذاك يعتبرون التعليم والتعلّم من أجل العبادات، والفرق الوحيد بين أبناء الخلفاء وغيرهم من الناس، هو أنّ أبناء الخلفاء يتلقّون العلوم على جهابذة العلماء والشيوخ، لذلك نشأ في عاصمة الخلافة (دمشق) ليتعلم علوم القرآن الكريم ويروي الحديث النبوي الشريف، ويدرس التاريخ والسير وأيام العرب قبل الإسلام وبعده، ويتقن علوم اللغة صرفاً ونَحْواً وبلاغة وعَروضاً، ويتلقى فنون الأدب الرفيع شعراً ونثراً، ويتعلم الحساب والهندسة وتقويم البلدان.

كما أن التدريب العملي بالممارسة كان ميسوراً له في الأمور الإدارية والسياسية، فهو إلى جانب الخليفة المرجع الأعلى لتصريف تلك الأمور، كما أنه إلى جانب الحاكمين من بني أمية، يرى ويسمع كيف تعطى القرارات الخطيرة وكيف تُصَرَّف أمور الدَّولة.

كما تدرب عملياً على الفنون العسكريَّة، ركوب الخيل، والرمي بالسهام، والضرب بالسيوف والطعن بالرماح، والسباحة، وتحمّل المشاق سيراً على الأقدام إلى مسافات طويلة في أيام متعاقبة وفي ظروف جوية قاسية، والحرمان من الطعام والشراب مدة مناسبة وتناول الطعام الخشن والماء العكر، وهو ما نطلق عليه في التعابير العسكريَّة المحدثة: التدريب العنيف.

ولكن هذا التدريب العسكري العملي لا يكفي، لأنه تدريب فردي، فلا بدّ من تلقي التدريب الإجمالي، وممارسة الجهاد جندياً وقائداً، في ساحة القتال، ليطبق ما تعلمه من فنون عسكريَّة عملية منفرداً على القتال

تطبيقاً عملياً، وهذا ما نطلق عليه اليوم: تطعيم المعركة، إذ لا فائدة من التدريب الفردي إلاّ إذا طُبّق عملياً في التدريب الإجمالي، وأفضل أنواع التدريب الإجمالي هو القتال الفِعليّ.

وكما تدرّب على الفنون العسكريَّة العملية، تدرّب على الفنون العسكريَّة النظرية: أساليب القتال، والقضايا التعبوية، واختيار المعسكرات، وطرق الدِّفاع والهجوم والانسحاب والمطاردة، ومعالجة الأمور العسكريَّة في الميدان، والقضايا الإدارية.

وقد طبق الفنون العسكريَّة النظرية عملياً في ميدان الجهاد، وبذلك جمع التدريب الفني النظري والعملي وبهذا وضع معلوماته العسكريَّة في حيِّز التنفيذ.

ولعلّ ممَّا زاد في فرص تعليم وتدريب عبد اللَّه، أنه تلقى علومه وتدريباته في كنف والده أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، بعد استقرار ملكه في الدَّولة الإسلاميَّة واستعادة (الوحدة) الشَّاملة لهذه الدَّولة سنة ثلاث وسبعين الهجريَّة[1] (٦٩٢م)، إذ قضى على الخوارج في البَحْرَيْن، وأعاد بناء (الكَعْبَة) المشرفة بمكة المكرَّمة على ما كانت عليه قبل ثورة عبد اللَّه بن الزبير العارمة، فانطلقت الجيوش الإسلاميَّة للفتح وإعادة المناطق المفتوحة إلى الدَّولة والتي انتقضت في بلاد الرّوم وإيران وفارس والسِّند وإفريقيّة، وكان من ثمرات استعادة (الوحدة) الشَّاملة أن أعادت الدَّولة الإسلاميَّة بقيادة عبد الملك بن مروان ـ بعد ما عاناه من فتن داخلية واضطرابات وحروب أهليّة ومشاكل واعتداءات خارجية ـ كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون قبل عبد الملك، وضم إلى الدَّولة فتوحاً جديدة، بعد ما كان عبد الملك يدفع الأتاوة لإمبراطور (القُسْطَنْطينيَّة)

---

(١) انظر تفاصيل استعادة الوحدة الشاملة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٢/١٠٩ - ١١٧).

مسؤولية الخلافة إلى استعادة (الوحدة) الشّاملة، وكان يدفعها للرّوم أيام الفتن والحروب الداخلية والاضطرابات والمشاكل الأهلية[1].

وقد تربّى عبد اللَّه في كنف أبيه بعد استعادة (الوحدة) الشّاملة للدولة الإسلاميَّة في جوٍّ كلِّه استقرار وأمن ودعة وبناء علميّ وإداريّ وسياسي وعسكريّ، في بداية العصر الذهبيّ لحكم بني أميّة في (الشّام)، برعاية والده الحصيف العالم الأديب القائد الفاتح الداهية المتمرِّس، فأفاد عبد اللَّه من رعاية والده في وقت تفرّغ فيه عبد الملك لرعاية شؤونه الخاصة أكثر من السابق - يوم كان في دوّامة الاضطرابات والقلاقل والمشاكل والفتن والحروب، وبقي يحظى بالرعاية الأبوية والعائلية الكاملة قائداً وإدارياً، حتى توفى عبد الملك سنة ست وثمانين الهجريَّة[2] (٧٠٥م)، فأرسى عبد الملك أسس شخصية ابنه عبد اللَّه على أسس رصينة، تلك الأسس التي كانت عبارة عن: الدِّين والتفقه فيه، والعربيَّة وإتقان علومها، والسياسة وممارسة قضاياها، والإدارة وحلّ مشاكلها، والعسكريَّة والتدريب على متطلباتها، وبذلك أصبح عبد اللَّه قائداً متميزاً وإدارياً محنّكاً.

لقد تهيّأ لعبد اللَّه العلم المكتسب والتجربة العملية، فآتت ثمراتها في مناصبه التي تولاّها قائداً وإدارياً.

في توطيد الأمن الداخليّ:

كان من أهم واجبات الحجاج بن يوسف الثقفيّ بعد أن تولّى (العِراقَيْن): العراق والمَشرق سنة خمس وسبعين الهجريَّة[3] (٦٩٤م)،

---

(١) ابن خلدون (٣/ ١٥٢)، انظر التفاصيل في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ١١٣ - ١١٤).

(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٩١) وتاريخ الخميس (٣/ ٣١١) والعبر (١/ ١٠٢) وشذرات الذهب (١/ ٩٧) والمعارف (٣٥٧).

(٣) العبر (١/ ٨٥) وشذرات الذهب (١/ ٨٣).

هو: القضاء على الفتن الداخلية في العراق وفي بلاد المشرق الإسلامي المفتوحة، واستعادة البلاد المفتوحة التي انتفضت على الدَّولة الإسلاميَّة، وفتح بلاد جديدة.

ومضى الحجّاج ينفِّذ هذه الواجبات بحزم وعزم وإقدام، وكان (رُتبيل) مصالحاً، يؤدي الخراج وربما امتنع منه[1]، فأراد الحجّاج أن يصفي الحساب جذرياً بين الدَّولة وبين (رُتْبِيل)، فأمر والي (سِجِسْتَان)[2] سنة تسع وسبعين الهجريَّة[3] (٦٩٨م) أن يناجزه، ولكنه اندحر أمام قواته متكبداً خسائر فادحة في الأرواح والأموال[4].

ولم يكن الحجاج ليسكت على اندحار قوة من قواته في إحدى الجبهات، لذلك عزم على أن يلقِّن (رُتبيل) في عقر داره درساً قاسياً لا ينساه أبداً، فاستأذن عبد الملك بن مروان في تسيير الجيوش إلى (رتبيل)، فلمّا أذن له بذلك، عكف الحجاج على تجهيز الجيش، فجعل على أهل (الكوفة) عشرين ألفاً، وعلى أهل (البصرة) عشرين ألفاً، وجدّ في ذلك جداً لا هوادة فيه، وأعطى الناس أعطياتهم كاملة، وأنفق فيهم ألفي ألف سوى أعطياتهم، وأنجدهم بالخيل الرائقة والسلاح الكامل، وأعطى كل رجل يُوصَف بشجاعة وغناء، وأمَّر على الجيش بعد الفراغ من إعداده عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشْعَث[5].

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٤٥٠).

(٢) سجستان: اسم منطقة واسعة بينها وبين (هراة) عشرة أيام أو ثمانون فرسخاً، وهي جنوبي (هراة)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٧)، وانظر حدودها في المسالك والممالك للإصطخري (١٣٨) وفيه: أن (سجستان) بفتح السين وانظر: آثار البلاد وأخبار العباد (٢٠١).

(٣) الطبري (٦/ ٣٢٢) وابن الأثير (٤/ ٤٥٠).

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣٢٢ ـ ٣٢٤) وابن الأثير (٤/ ٤٥٠ ـ ٤٥١).

(٥) هو عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن مَعْدِ يَكْرِب الكندي، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٥)، وهو من أبطال العرب وأشرافهم وقادتهم وولاتهم.

وسار عبد الرحمٰن على رأس جيشه، وأحرز نصراً مؤزراً على (رُتبيل)، فكتب إلى الحجاج بما فتح اللَّه عليه وبما يريد أن يعمل[1].

وهناك روايات أخرى في إرسال عبد الرحمٰن لا مكان لها لأنها خارجة عن نطاق الحديث عن سيرة عبد اللَّه بن عبد الملك.

وكان عبد الرحمٰن يرى أن يتركوا التوغّل في بلاد (رُتبيل) حتى يعرفوا طريقها ويجبوا خراجها وكتب بمجمل خطّته هذه إلى الحجّاج.

ولكن الحجاج رفض خطة عبد الرحمٰن، وأمر عبد الرحمٰن بالوغول في أرض (رُتبيل) وهدم حصونهم وقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم.

ودعا عبد الرحمٰن الناس وقال لهم: أيها الناس! إني لكم ناصح ولصلاحكم حكم محبّ ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه ناظر: وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوّي بما رضيه ذوو أحلامكم وأُولو التجربة منكم، وكتبتُ بذلك إلى أميركم الحجّاج، فأتاني كتابه يعجّزني ويضعّفني ويأمرني بتعجيل الولوغ بكم إلى أرض العدو، وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، أمضي إذا مضيتم وآبَى إذا أبيتم.

وثار إليه الناس وقالوا: بل نأبَى على عدوّ اللَّه ولا نسمع له ولا نطيع!!

فوثب الناس إلى عبد الرحمٰن فبايعوه على خلع الحجّاج ونفيه من أرض العراق، وعلى النصرة له، ولم يُذكر عبد الملك.

وعاد عبد الرحمٰن إلى العراق بمن معه، فلمّا بلغ (فارس)[2] اجتمع

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣٢٦ ـ ٣٢٩) وابن الأثير (٤/ ٤٥٤ ـ ٤٥٦).

(٢) فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح، أول حدودها من جهة العراق (أرّجان)، ومن جهة كرمان (السِيرَجان)، ومن جهة ساحل بحر الهند (سيراف)، ومن جهة السِّند (مُكران)، وقصبتها (شيراز)، وفي هذه الولاية من أمهات المدن المشهورة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣٢٤) وتقويم البلدان (٣٢١ ـ ٣٣١) والمسالك والممالك =

الناس بعضهم إلى بعض وقالوا: إذا خلعنا الحجّاج عامل عبد الملك، فقد خلعنا عبد الملك.

واجتمعوا إلى عبد الرحمٰن وخلعوا عبد الملك إلاّ قليلاً منهم، وبايعوا عبد الرحمٰن، وكانت بيعته، نبايع على كتاب اللّه وسنَّة نبيّه ﷺ، وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم وجهاد المحلِّين.

ولما بلغ الحجاج خلعُه كتب إلى عبد الملك بخبر عبد الرحمٰن ويسأله أن يعجِّل بعثة الجنود إليه، ثم سار الحجاج حتى نزل (البصرة).

وجهّز عبد الملك الجند إلى الحجّاح، فسار الحجاج من (البصرة) إلى (تُسْتَر)[1] وقدم بين يديه مقدمة إلى (دُجَيْل)[2] فلقى عنده خيلاً لعبد الرحمٰن، فانهزم أصحاب الحجاج بعد قتال شديد، وكان ذلك يوم الأضحى سنة إحدى وثمانين الهجريَّة (٧٠٠م).

فلما أتى خبر الهزيمة الحجّاج، رجع إلى (البصرة)، ثم أقبل حتى نزل (الزّاوِيَة)[3] وترك (البصرة) لأهل العراق، وفرق في الناس مئة وخمسين ألف ألف درهم.

وأقبل عبد الرحمٰن حتى دخل (البصرة)، فبايعه جميع أهلها، قرّاؤها وكهولها على قتال الحجاج ومَنْ معه من أهل (الشَّام)[4].

وخسر عبد الرحمٰن معركة (الزاوية)، فقصد الكوفة، واستقرّ بها،

= للاصطخري (٦٧ ـ ٨٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٤١ ـ ٤٣) ومختصر كتاب البلدان (١٩٥ ـ ٢٠٥) والأعلاق النفيسة (١٠٦) وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (٤٢٠ ـ ٤٥٩)، وكتاب صورة الأرض (٣٣٤ ـ ٢٧٣).

(١) تستر: أعظم مدينة بخوزستان، وهي تعريب شوشتر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٨٦) والمسالك والممالك للإصطخري (٦٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٧٠).

(٢) دجيل: نهر بالأهواز: انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٤١ ـ ٤٢).

(٣) الزاوية: موضع قرب البصرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٧١).

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣٣٤ ـ ٣٤١) وابن الأثير (٤/ ٤٦١ ـ ٤٦٦).

فاجتمع إليه الناس، وقصده أهل (البصرة).

وسار الحجاج من (البصرة) إلى (الكوفة) لقتال عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، فنزل (دير قُرَّة)[1]، وخرج عبد الرحمٰن من (الكوفة)، فنزل (دير الجماجم)[2].

وتفاقم أمر عبد الرحمٰن واسْتَشْرى خطره، فقال عبد الملك بن مروان وأهل (الشَّام): إن كان يُرْضي أهل العراق نزع الحجّاج عنهم نزعناه، فإنّ عزله أيّسر من حربهم، ونحقن بذلك الدماء، فبعث عبد الملك ابنه عبد اللّه وأخاه محمد بن مروان بن الحكم، وكان محمد بأرض (الموْصِل)، إلى الحجاج في جند كثيف، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وأن يُجْريا عليهم أعطياتهم كما تُجرى على أهل (الشَّام)، وأن ينزل عبد الرحمٰن بن محمد أي بلد شاء من بلاد العراق، فإذا نزله كان والياً عليه ما دام حيّاً وعبد الملك خليفة، فإن أجاب أهل العراق إلى ذلك عزلا الحجاج عنها وصار محمد بن مروان أمير العراق، وإن أبى أهل العراق قبول ذلك، فالحجاج أمير الجماعة ووالي القتال، ومحمد بن مروان وعبد اللّه بن عبد الملك في طاعته.

وحاول الحجاج أن يعيد عبد الملك بن مروان النظر في أمر عزله، فأبى عبد الملك إلاّ عرض عزله على أهل العراق.

وخرج عبد اللّه بن عبد الملك إلى جموع أهل العراق وعلى رأسهم عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث فقال: يا أهل العراق أنا ابن أمير المؤمنين، وهو يعطيكم كذا وكذا......

---

(١) دير قرّة: دير بازاء دير الجماجم، وهو ملاصق لطرف البر، ودير الجماجم مما يلي الكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٦٢).

(٢) دير الجماجم: دير بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها، على طرف البر للسّالك إلى البصرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٣١ ـ ١٣٢).

وخرج محمد بن مروان فقال: أنا رسول أمير المؤمنين، وهو يعرض عليكم كذا وكذا......

فقال أهل العراق: نرجع العشيّة.

واجتمع أهل العراق عند ابن الأشعث، فقال لهم: قد أُعطيتم أمراً، انتهازكم اليوم إياه فرصة، وإنكم اليوم على النَّصَف، فإن كانوا اعتَدّوا عليكم يوم (الزاوية)، فأنتم تعتَدُّون عليهم بيوم (تُسْتَر)، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزّاء أقوياء لقوم هم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون، فواللّه لا زلتم عليهم جُرَآء وعندهم أعزّاء أبداً ما بقيتم إن قبلتم.

ووثب الناس من كل جانب، فقالوا: إن اللّه قد أهلكهم فأصبحوا في الضنك والمجاعة والقلة والذلّة، ونحن ذوو العدد الكثير والسِّعر الرخيص والمادَّة القريبة، لا واللّه لا نقبل!

وأعاد أهل العراق خلع عبد الملك ثانية، فقال عبد اللّه بن عبد الملك ومحمد بن مروان للحجّاج: شأنك بعسكرك وجندك، واعمل برأيك، فإنّا قد أُمرنا أن نسمع لك ونطيع، فقال: قد قلتُ إنه لا يُراد بهذا الأمر غيركم، فكانا يسلّمان عليه بالإمرة ويسلّم عليهما بالإمرة أيضاً.

وجعل كل من الحجاج وابن الأشعث قواته على تعبئة، ميمنة، وميسرة، والخيالة، والرجّالة، والقلب، وجعلا على كل تشكيل من تشكيلات القتال قائداً مسؤولاً، وجعل ابن الأشعث على القرّاء ـ وهم علماء المسلمين وفقهاؤهم ومحدّثوهم ـ قائداً.

وأخذ الطرفان يتزاحفان كل يوم ويقتتلان، وأهل العراق تأتيهم موادّهم التموينية من (الكوفة) وسوادها، وهم في خصب، وأهل الشّام في ضنك شديد، قد غلت عليهم الأسعار، وفُقِدَ عندهم اللحم كأنهم في حصار.

وكان أشد الناس ثباتاً واستبسالاً القرّاء من أصحاب ابن الأشعث، وكانوا قد ألّفوا كتيبة منهم هي كتيبة القرّاء، فعبّأ الحجاج لكتيبة القراء

ثلاث كتائب، فحملوا على القراء ثلاث حملات، كل كتيبة تحمل حملة، فلم يبرحوا وصبروا[1]، وحملوا على كتائب الحجاج حتى أزالوها وفرّقوها، ثم تقدّموا حتى واقعوا صفّهم فأزالوه.

واستمر الاقتتال بين الإخوة مئة وثلاثة أيام، فقد كان نزول عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث (دير الجماجم) لثلاث مضَيْن من ربيع الأول، وكانت الهزيمة لأربع عشرة مضين من جمادى الآخر، حيث انتصر الحجاج على ابن الأشعث بعد قتال مديد مرير.

وعاد محمد بن مروان إلى (الموصل)، وعاد عبد اللَّه بن عبد الملك إلى (الشّام)، ورجع الحجاج إلى (الكوفة).

وأتى عبد الرحمٰن (البصرة) فاجتمع إليه من المنهزمين جمع كثير، وبايعه خلق كثير على الموت، فاجتمعوا بـ(مَسْكِن)[2]، ولكن قواته انهزمت أمام قوات الحجاج[3].

وبدأت مطاردة قوات الحجاج لفلول ابن الأشعث، فقاتلت قوات ابن الأشعث في انسحابها بمواضع كثيرة، حتى وصل ابن الأشعث (رُتْبيل)[4]، وأخيراً مات أو قتل في اختلاف كثير بالروايات، فانتهت حروب داخلية طاحنة، تكبد فيها الطرفان خسائر لا تُعدَ ولا تُحصى[5].

وقضى ابن الأشعث نحبه سنة خمس وثمانين الهجريّة[6] (٧٠٤م).

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٣٤٢ ـ ٣٥٠) وابن الأثير (٤/٤٦٧ ـ ٤٧٢) وانظر ابن خلدون (٣/١١٠) والبدء والتاريخ (٦/٣٦) والتنبيه والأشراف (٢٧٢).

(٢) مسكن: موضع قريب من (أوانا) على نهر (دُجيل) عند دير (الجاثليق)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٥٤) وأوانا: بليدة من نواحي (دُجيل) بغداد بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٦٦)، أقول: وهي بالقرب من (سميكة) أو (الدجيل) الحالية، والمكان معروف.

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٣٦٦ ـ ٣٦٩) وابن الأثير (٤/٤٨٢ ـ ٤٨٣).

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٣٦٧ ـ ٣٨٣) وابن الأثير (٤/٤٨٤ ـ ٤٩٤).

(٥) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٣٨٩ ـ ٣٩٣) وابن الأثير (٤/٥٠١ ـ ٥٠٢).

(٦) الطبري (٦/٣٨٩) وابن الأثير (٤/٥٠١).

وكانت عودة عبد اللَّه بن عبد الملك إلى (الشَّام) بعد انتصار الحجاج على ابن الأشعث في معركة (دير الجماجم) الحاسمة سنة ثلاث وثمانين الهجريَّة (٧٠٢م)، وكان قد قدم إلى العراق سنة اثنتين وثمانين الهجريَّة (٧٠١م).

ولست بصدد البحث عن أسباب ثورة ابن الأشعث، ولا بصدد الحديث في أسباب تهافت أهل العراق على الإقبال عليها والمشاركة فيها، ولا بصدد نتائجها القريبة والبعيدة وأثرها في الدَّولة، ولا بصدد إبراز أسباب انتصار الحجاج على ابن الأشعث، فمكان كل هذه الدراسات والبحوث في الحديث عن هذا الاقتتال بين الإخوة، ممَّا أدّى إلى تعميق العداوة بين القبائل العربيَّة التي كانت مادَّة الفتح وأساسه، وعجّل في نهاية بني أُميّة وتغلّب العنصر الأعجمي على العنصر العربي.

ولكن ما أردته من إبراز أهم معالم هذه الثورة، هو إظهار أثر عبد اللَّه بن عبد الملك فيها، وتأثيرها فيه.

وهدفي من تسليط الأضواء على أهم معالم الاقتتال بين الإخوة في هذه الثورة، هو إظهار أهمية الواجب الذي حمله عبد اللَّه في تلك الأيام العصيبة التي كادت تعصف بالدَّولة عصفاً.

إن عبد اللَّه لم يكن قائداً مسؤولاً في المعارك التي خاضها الحجاج، ولكن الحجاج لا يغفل عبد اللَّه في مجال الرأي ورسم الخطط ودعم قوات الحجاج مادياً ومعنوياً.

أما الدعم المادي، فمن الواضح أن عبد الملك حشد طاقاته الماديَّة لإحراز النصر، وقد كان للمال - وهو عصب الحرب - أثر حاسم في هذا النصر، لأنّ أكثر المقتتلين من الطرفين كان يهتم بمتطلبات جيبه أكثر من اهتمامه بمتطلبات قلبه.

أما الدعم المعنوي، فوجود ابن الخليفة بين المقتتلين يؤثر في

المعْنَوِيّات تأثيراً كبيراً: يرفع معنويات الحجاج وقواته، ويزعزع معنويات ابن الأشعث ورجاله.

وكما أثر عبد اللّه في المعارك ونتائجها، فقد أثرت فيه شخصياً: أغنت تجاربه في القيادة وإدارة القتال وفي معرفة الطبيعة البشريَّة للمقاتلين ومعرفة طاقاتهم وكفاياتهم، كما وضعت معلوماته العسكريَّة في محك التطبيق العملي، وجعلته يعيش المعارك بما فيها من صعوبات ومشاقٍ ومآسٍ، وهو ما نطلق عليه اليوم في المصطلحات العسكريَّة الحديثة: تطعيم المعركة.

في ميدان الجهاد

١ ـ في سنة اثنتين وثمانين الهجريَّة (٧٠١م)، غزا عبد اللّه بلاد الرّوم، ففتح حصن (سِنان) من ناحية (المَصِّيصَة)[١].

والظاهر أن عبد اللّه شهد هذه الغزوة قبل أن يرحل إلى العراق لخوض معركة (دير الجماجم)، ورحل بعد ذلك إلى الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق للسفارة بين عبد الملك بن مروان وأهل العراق، كما ذكرنا ذلك.

٢ ـ وفي سنة ثلاث وثمانين الهجريَّة (٧٠٢م) غزا عبد اللّه بلاد الرّوم، ففتح (طُرَنْدَة)[٢].

وقد قاتل عبد اللّه الرّوم بـ(سُوْرِيَة)[٣] و(لؤلؤة)[٤]، فهزمهم[٥].

والظاهر أنّ عبد اللّه غزا الروم بعد عودته من العراق.

---

(١) تاريخ ابن خياط (١/ ٢٨٩) وانظر معجم البلدان (٣/ ٢٨٥) و(٥/ ١٤١).

(٢) ابن الأثير (٥/ ٤٥) وانظر معجم البلدان (٦/ ٤٦).

(٣) سورية: موضع بالشام بين (خُناصرة) و(سَلَمْيَة)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧١).

(٤) لؤلؤة: قلعة قرب (طرسوس)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣٤٣).

(٥) تاريخ ابن خياط (١/ ٢٩٠).

وقد أمر عمر بن عبد العزيز ﷺ بالقفول من (طُرَنْدَة) سنة مئة الهجريَّة (٧١٨م) لأنها واغلة في البلاد الروميّة من (مَلَطْيَة)[١] بثلاث مراحل، وكان عبد اللَّه قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ثلاث وثمانين الهجريَّة (٧٠٢م)، و(مَلَطْيَة) يومئذ خراب، وكان أهل (طُرَنْدَة) يأتيهم جند من (الجزيرة) يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهم، فلم يزالوا كذلك إلى أن ولي عمر بن عبد العزيز، فأمرهم بالعودة إلى (مَلَطْيَة) وأخلى (طرندة) خوفاً على المسلمين من العدو، وأخرب (طرندة)[٢].

وكان قرار عمر بن عبد العزيز ﷺ في انسحاب أهل (طرندة) منها إلى (مَلَطْيَة) صائباً، لأنّ (طرندة) أصبحت معزولة عن القواعد المتقدّمة للمسلمين، فليس من المستبعد أن يباغتها الرّوم بالهجوم عليها وإبادة سكانها، خاصة وأن الرّوم ارتفعت معنوياتهم بعد انسحاب المسلمين عن (القُسْطَنْطينيَّة)، كما أصبحت للرّوم قيادة قوية حازمة بعد تولي (ليون) عرش الروم[٣].

٣ ـ وفي سنة أربع وثمانين الهجريَّة (٧٠٣م) غزا عبد اللَّه بلاد الرّوم، ففتح (المَصِّيْصَة)[٤]، فبناها[٥] وبنى حصنها على أساسه القديم، ووضع بها سكاناً من الجند، فيهم ثلاثمائة رجل انتخبهم من ذوي البأس

---

(١) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة، تتاخم بلاد الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٥٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٩٧) والبلدان لابن الفقيه (٢٥) وتقويم البلدان (٣٨٤).

(٢) ابن الأثير (٥/ ٥٤) وانظر معجم البلدان (٦/ ٤٦).

(٣) انظر التفاصيل عن الانسحاب من (القسطنطينية) في سيرة مسلمة بن عبد الملك بن مروان.

(٤) الطبري (٦/ ٣٨٥) وابن الأثير (٤/ ٥٠٠) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٠٧) والبلاذري (٢٢٥).

(٥) ابن الأثير (٤/ ٥٠٠) وتاريخ ابن خياط (١/ ٢٩٢).

والنجدة المعروفين، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك، وبنى فيها مسجداً فوق تلّ الحصن[(١)]. ثم سار في جيشه حتى غزا حصن (سِنان) ففتحه، كما وجّه قسماً من قواته فأغارت ثم عادت إليه[(٢)].

والذي يبدو أن حصن (سنان) الذي فتحه عبد اللّه سنة اثنتين وثمانين الهجريّة (٧٠١م) انتقض، فأعاد فتحه ثانية.

وهذا يدل على أن الحدود الشماليّة الغربيّة المتاخمة لبلاد الرّوم لم تكن حدود آمنة، وأن الرّوم كانوا يستعيدون الأماكن المفتوحة إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فحَصَّنَ (المَصِّيصَة) وحشد فيها الجنود واختار الشجعان منهم للدفاع عنها، ولكي تكون قاعدة متقدِّمة آمنة، تصد هجمات الرّوم وتقوى على مصاولتهم، ولتكون منطلقاً قوياً وقاعدة رصينة للفاتحين.

وقد دخل عبد اللّه من درب (أنطاكية[(٣)] حتى أتى (المَصِّيصَة)[(٤)].

٤ ـ ومن المعلوم أنّ منطقة (المصيصة) فتحت أيام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بقيادة أبي عُبَيدة بن الجرّاح[(٥)] رضي الله عنه، ولكن الفتن الداخلية التي استعرت بعد عمر بن الخطّاب، جعلت الرّوم يستعيدونها. ولما استقرت الأمور في أيام معاوية بن أبي سفيان أعاد تلك المنطقة إلى المسلمين، ولكن الرّوم استعادوها ثانية بعد معاوية لانشغال المسلمين بالاقتتال فيما بينهم، حتى تولى عبد الملك بن مروان، فأعادها إلى سيطرة المسلمين على يد ابنه عبد اللّه وبناها وحصّنها، فكان أول من حصن (المصيصة) في الإسلام، وذلك في سنة أربع وثمانين الهجريّة

---

(١) البلاذري (٢٢٥ ـ ٢٢٦) وابن الأثير (٤/ ٥٠٠).

(٢) البلاذري (٢٢٦).

(٣) انطاكية: مدينة عظيمة من أعيان المدن على طرف بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط)، ولها قلعة عالية جداً تتبين من بُعد بعيد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٥٣) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٥٠) وتقويم البلدان (٥٤ ـ ٨١).

(٤) البلاذري (٢٢٥).

(٥) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٥٤ ـ ٨١).

(٧٠٣م)، وقد تمّ بناؤها وشحنها بالرجال وما يحتاجون إليه من قضايا إدارية: تموين، إعاشة، أسلحة، خيل، نقليّة، سنة خمس وثمانين الهجريّة (٧٠٤م)، فكانت الطوالع تطلع عليها كل عام من (أنطاكيّة) فتشتوا بها ثم تنصرف بعد خروج الصّوائف، وعِدّة مَنْ كان يطلع إليها ألف وخمسمائة إلى الألفين. وشخص عمر بن عبد العزيز ﵁ إلى (المصيصة)، فأراد هدمها وسحب حاميتها منها، كما أراد هدم الحصون بينها وبين (أنطاكية) قائلاً: أكره أن يحاصر الرّوم أهلها، فأعلمه الناس أنها إنما عُمرت ليدفع مَنْ بها الرّوم عن (أنطاكية)، فأمسك عن هدمها وبنى لأهلها مسجداً واتخذ فيه صهريجاً، وكان اسمه مكتوباً عليه، وهو يُدعى: مسجد الحصن[1].

وهكذا أصبحت (المصيصة) القاعدة المتقدمة للمسلمين في بلاد الرّوم، كما أصبحت الخط الدِّفاعي الأمامي عن (أنطاكية)، وكان الفضل في جعل (المصيصة) ذات أهمية خاصة في الدِّفاع عن حدود الدَّولة الإسلاميَّة وقاعدة متقدمة للفتح يرجع لعبد الملك بن مروان وابنه عبد اللَّه الذي أعاد فتحها بعد أن استعادها الرّوم، وكان فاتحها الأول أبو عبيدة بن الجرّاح ﵁ ، ولكنه لم يكن فتحاً مستداماً، فجعله عبد اللَّه فتحاً مستداماً.

وكما كان أبو بكر الصديق ﵁ قد مهّد للعصر الذهبي الأول للفتح الإسلامي الذي جرى في عهد عمر بن الخطّاب ﵁ ، كان عبد الملك قد مهّد للعصر الذهبي الثَّاني للفتح الإسلامي في عهد الوليد بن عبد الملك.

وكان عبد اللَّه من أعوان أبيه في التمهيد لانطلاقة العصر الذهبي الثَّاني للفتح الإسلامي.

---

(١) البلاذري (٢٢٦).

تولى عبد اللّه مدينة (حِمْص) لأبيه عبد الملك بن مروان[1]، وقد انفرد ابن خياط في تاريخه بذكر هذه التولية، دون أن يذكر تاريخ تسنّمه هذا المنصب وتاريخ تخليه عنه، والذي يبدو أن تولي هذا المنصب سنة اثنتين وثمانين الهجريَّة (٧٠١م) وهي السنة التي تولى فيها قيادة جيش من جيوش المسلمين لحرب الرّوم، وكان الولاة يتولون الغزو في مناطقهم أو في الحملات التي تحمي مناطقهم أو في غزوات فتح البلاد التي تجاورهم، وقد كان جند (حِمْص) من أهم جنود الشّام، فمن المحتمل أنه تولى قيادة جيش (حِمْص) في غزواته التي بدأت سنة اثنتين وثمانين الهجريَّة (٧٠١م)، وانتهت سنة أربع وثمانين الهجريَّة (٧٠٣م)، باعتباره والياً على (حِمْص).

وفي سنة خمس وثمانين الهجريَّة (٧٠٤م) ولاّه أبوه عبد الملك بن مروان (مِصْرَ)[2] على صلاتها وخراجها[3]، فدخلها يوم الإثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين الهجريَّة (٧٠٤م)، وقيل: من سنة ست وثمانين الهجريَّة[4] (٧٠٥م). وأرجح أنه دخل(مصر) في جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين الهجريَّة، لأن أمير (مصر) السابق عبد العزيز بن مروان توفيّ في جمادى الأولى سنة خمس وثمانين الهجريَّة، وليس من المعقول أن يتأخر وصول عبد اللّه إلى (مصر) سنة وشهراً، إذ لا مسوّغ لهذا التأخير، وبخاصة وأنّ عبد الملك لم يكن مرتاحاً من حكم أخيه عبد العزيز لمصر، وكان يحاول خلعه من ولاية

---

(١) تاريخ ابن خياط (١/ ٣٠١).
(٢) الطبري (٦/ ٤٣٠) والنجوم الزاهرة (١/ ٢١٠) وابن خلدون (٣/ ٢٩٢) وانظر تاريخ ابن خياط (١/ ٣٠٠) وكتاب الولاة وكتاب القضاة (٥٨).
(٣) الولاة والقضاة (٥٨).
(٤) النجوم الزاهرة (١/ ٢١٠)، أما في الولاة والقضاة، فذكر أنه دخل (مصر) في جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين الهجرية، انظر الولاة والقضاة (٥٨).

العهد ويبايع ابنه الوليد بن عبد الملك، ولكن المنيّة عاجلت أخاه قبل أن يمضي قُدُماً في تنفيذ خطّة خلعه[١].

وكان عبد الملك قد أمر ابنه عبد اللّه أن يُعفي آثار سلفه عبد العزيز بن مروان، فاستبدل عبد اللّه عمالاً من الأصحاب بعمّال عبد العزيز، واستبدل قضاة جدداً بقضاة عبد العزيز، ومنع من لُبْس البرانس[٢]، وكانت فيه شدّة وبأس[٣].

وتُوفي أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة ست وثمانين الهجريَّة[٤] (٧٠٥م)، وبُويع ابنه الوليد بن عبد الملك، فأقرّ أخاه عبد اللّه على صلاة مصر وخراجها، وأمر عبد اللّه بالدواوين، فنُسخت بالعربيّة، وكانت قبل ذلك تكتب بالقِبْطِيَّة، وصَرف عن الديوان صاحبه القبطي وولاّه عربياً من أهل (حِمْص) وذلك سنة سبع وثمانين الهجريَّة (٧٠٦م). وابتنى عبد اللّه المسجد المعروف بمسجد عبد اللّه[٥]. وكان موضع هذا المسجد يجلس فيه أهل المدينة يتحدثون فيه، فمرّ بهم يوماً عبد اللّه وهو أميرهم بمصر، فسألوه أن يبني لهم فيه مسجداً، وشكوا إليه ما يلقون من الشمس، فبناه لهم، فكانوا يجتمعون فيه. وجعلت له حوانيت غلّة له، وكتب القاضي وثيقة بنائه وهي: بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب أمر به القاضي عبد الرحمٰن بن

---

(١) الطبري (٦/ ٤١٣) وابن الأثير (٤/ ٥١٣) والبداية والنهاية (٩/ ٥٧) وابن خلدون (٣/ ١٢٦) والنجوم الزاهرة (١/ ١٧٣).

(٢) البرانس: ج بُرْنُس: قَلَنسَوة طويلة، وكان النسّاك يلبسونها في صدر الإسلام. والقلنسوة تلبس في الرأس، انظر الإفصاح (١/ ٣٧٦) وانظر معجم متن اللغة (١/ ٢٨٤) والوسيط (١/ ٥٢).

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ٢١٠) وانظر الولاة والقضاة (٥٨).

(٤) الولاة والقضاة وانظر العبر (١/ ١٠٢) والبداية والنهاية (٩/ ٦١) وشذرات الذهب (١/ ٩٧).

(٥) الولاة والقضاة (٥٨ ـ ٥٩).

عبد اللَّه[1] وهو يومئذ يلي القضاء لأهل (مصر) في صفر سنة ثمانٍ وثمانين ومئة بما ثبت عنده في المسجد الذي يقال له: (مسجد عبد اللَّه) الذي بالظاهر: قِبْلِيّه الطريق الأعظم إلى المسجد الجامع، وبحريّه الطريق الذي يسلك إلى سوق بَرْبَر، وشرقيّه السُّويقة التي يقال لها سويقة: (مسجد عبد اللَّه) على طريق (الموقِف)، وغربيّه الطريق الذي يُسْلَك منه على الجُبّ الذي يقال له: (جُبّ عبد اللَّه)....[2]، وذكرت تفاصيل وثيقة هذا المسجد للدلالة عن موقعه بدقة في مدينة القاهرة.

كما أمر عبد اللَّه بسقف المسجد الجامع أن يُرفع سمكه، وكان سقفه مطأطئاً وذلك سنة تسع وثمانين الهجريَّة[3] (٧٠٧م).

ووقعت سنة سبع وثمانين الهجريَّة (٧٠٥م) بمصر (الشّراقي)[4]، فغلت الأسعار بها إلى الغاية، حتى قيل: إن أهل (مصر) لم يروا في عمرهم مثل تلك الأيام، وقاست أهل (مصر) شدائد بسبب الغلاء، فاستشأم الناس بكعبه، وزعموا أنه جائر وأنه ارتشى[5].

ولما شاع ذلك عنه، طلبه أخوه الوليد بن عبد الملك من مصر، فخرج عبد اللَّه واستخلف على عمله، وكان أهل (مصر) في شدّة عظيمة من عِظَم الغلاء، فأقام عند الوليد مدّة يسيرة ثم عاد إلى (مصر)[6].

ومن الواضح أنّ الوليد حاسب أخاه عبد اللَّه على ما أُشيع عنه:

---

(١) انظر سيرته في الولاة والقضاة (٤٠٦ ـ ٤١١).

(٢) انظر التفاصيل في: الولاة والقضاة (٧٠٢ ـ ٧١٠)، ويراجع كتاب: الانتصار لواسطة عقد الأمصار حول المسجد الجامع (٥٩ ـ ٧١). وسوق بربر (٣٢)، والموقف (٣٤).

(٣) انظر التفاصيل في: الولاة والقضاة (٥٨ ـ ٦٠)، وانظر ما جاء عن تعمير المسجد الجامع في: الانتصار لواسطة عقد الأمصار (٦٣).

(٤) الشّراقي: (ي كلام أهل مصر): الأرض التي لم يصلها ماء النيل، فإذا رويت جادت، وسمّيت: ريّ الشراقي، انظر معجم الوسيط (١/ ٤٨٠).

(٥) النجوم الزاهرة (١/ ٢١٠ ـ ٢١١) والولاة والقضاة (٥٨ ـ ٥٩).

(٦) النجوم الزاهرة (١/ ٢١١) والولاة والقضاة (٥٩).

الظلم، والرشوة، ويبدو أنه خرج بريئاً، ناصع الجبين من ذلك الحساب، فأعاده الوليد إلى عمله ثانية.

والمعروف عن المصريين منذ القدم حتى اليوم، أنهم قد يصبرون على كل شيء إلاّ الغلاء، وهم يغضبون إذا اجتاحهم الغلاء، ويتصدّون لمن يظنون أنه سببه بكل قوة وشجاعة، وهذا يفسّر أسباب تذمرهم من عبد اللّه حين ارتفعت أسعار المواد الغذائية، ولم يكن لعبد اللّه ذنب مباشر أو غير مباشر في الغلاء، إذ لا حيلة له في قلة مياه نهر النيل، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً في زيادة تدفق المياه أو نقصها، ولا يستطيع غيره أن يفعل شيئاً.

كما أن المعروف عن المصريين قديماً وحديثاً، أنهم يرمون كل حاكم من حكّامهم بالظلم إذا اتّسَمَ بالشّدة والبأس في تصريف أمورهم، وقد كان عبد اللّه فيه شدّة وبأس[1].

أما اتهامه بالرشوة، فيبدوا أنها تهمة تبعية لاتهامه بالظلم، إذ أنّ أبناء الخلفاء وإخوانهم لا يُحاسَبون على الخراج من الخلفاء، فلم يُحاسب عبد العزيز بن مروان على خراج مصر، ولم يحاسب مَسْلَمَة بن عبد الملك على الخراج، فإذا كان خراج مصر كله بسيطرة عبد اللّه، وهو خراج ضخم بدون شك، فلماذا يلجأ عبد اللّه إلى تقاضي الرشوة؟!

إنّ اتهام عبد اللّه بالرشوة تشنيع من المصريين الذين اجتاحهم الغلاء وعوملوا بشدّة وبأس، فنفّسوا عن أنفسهم بالتشنيعات والهجاء[2] والافتراء، وبالنُّكَت القاسية قبل كل ذلك وبعده أيضاً.

ولا يمكن أن يرتشي مَن بيده خراج مصر، يتصرّف به كيف يشاء.

---

(١) النجوم الزاهرة (١/ ٢١٠).
(٢) انظر هجاءه شعراً في: الولاة والقضاة (٥٩ ـ ٦٠).

ولكن الوليد بن عبد الملك عزل أخاه عبد اللَّه سنة تسعين الهجريَّة (٧٠٨م) عن (مصر)[1] لا عن ريبة ولكنه أراد أن يولي مَن يستطيع السّيطرة عليه بسهولة ويُسر.

والظاهر أنّ عبد اللَّه سيطر على الخراج سيطرة كاملة، وحجب تدفقه إلى بيت المال في العاصمة (دمشق)، لذلك عزله الوليد بعد أن نفد صبره، وأوصى خلف عبد اللَّه على (مصر) أن يختم على الدواوين وبيت المال[2]، لجرد الحسابات ومقارنة الواردات بالنفقات، لمعرفة ما يمكن أن يكون احتجزه عبد اللَّه من المال لنفسه.

ويبدو أن تدقيق الحسابات، أثبت أنّ عبد اللَّه استأثر بقسم من المال لنفسه، فلمّا عاد من (مصر) إلى أخيه في (دمشق) بعد أن استصحب جميع أمواله، أُحيط به في (الأردن) في طريق عودته وأُخذت جميع أمواله، وحُمِل عبد اللَّه إلى أخيه الوليد في (دمشق)[3].

ولا ندري هل استعاد عبد اللَّه أمواله، أم ضُمّت إلى بيت المال في (دمشق)، فقد سكت المؤرخون عن ذلك.

وقد كان خراج (مصر) الغنيّة هو المعين الوحيد لعمليّات فتح شمالي (إفريقية)، كما كانت (مصر) هي القاعدة الأماميَّة لفتح شمالي (إفريقية) وتوطيد أركان الفتح فيها واستكمال فتحها لتكون المنطلق لفتح الأندلس وأوروبا، فلا بدّ من سيطرة الخليفة على خراج (مصر) أولاً وعلى (مصر) بالذّات ثانياً، ليتصرّف الخليفة بالخراج ليكون عَصَب الفتح، ولا يتم ذلك إلاّ بفرض سيطرته الكاملة على الخراج. ولا بد له من السيطرة الكاملة على (مصر)، لتسخير كل طاقاتها المالية والبشريَّة للفتح، وهذه السيطرة

---

(١) ابن الأثير (٤/٥٤٧) والنجوم الزاهرة (١/ ٢١١) والولاة والقضاة (٦٤).
(٢) الولاة والقضاة (٦٢).
(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢١١ ـ ٣٠٩).

على الخراج وعلى البلاد لا تتم كما ينبغي بوجود أمير عليها يعتبر نفسه نداً للخليفة وصنواً له.

وقد كان على (إفريقية) موسى بن نُصَيْر اللّخمِيّ[1] لعبد الملك بن مروان سنة تسع وسبعين الهجريَّة (٦٩٨م)، وكان على علاقة وثيقة بعبد العزيز بن مروان سلف عبد اللَّه بن عبد الملك، ولكنه لم يكن كذلك مع عبد اللَّه الذي خلف على (مصر) عمّه عبد العزيز بن مروان، فقد كان موسى بن نصير يكاتب عبد العزيز بن مروان، فلمّا توفاه اللَّه ولّى عبد الملك ابنه عبد اللَّه على (مصر)، فلم يكاتبه موسى وكاتب عبد الملك مباشرة، فكتب إليه عبد اللَّه:

أما بعد. فإنك كنت من عبد العزيز وبِشْر[2] مِهَادَيْنِ[3] تعلو عن الحضيض مهودهما[4] ويُدْفِئك دثارهما، حتى عَفا[5] مَخْبَرُك وسمتْ بك نفسك، فلا تحسبني كمن كنت تخلبه وأعداء بيته وتقول: أكفياني أكفِكما، ولا كأضْبُع[6] كنت يمينه بكهانتك! وأيم اللَّه! لأضعنّ منك ما رفعا، ولأُقِلّنَّ منك ما كَثّرا. رُويداً، فكأن قد أصبحت سادماً[7] تعضّ أنامِلَك نادماً، والسلام[8].

وكان جواب موسى لعبد اللَّه: أما بعد. فقد قرأتُ كتابك وفهِمتُ ما

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢١١ ـ ٣٠٩).
(٢) بشر بن مروان بن الحكم.
(٣) المهاد: الفراش، ومهاد الأرض، الأرض المستوية.
(٤) المهود: ج مَهْد: الأرض الستوية السهلة.
(٥) عفا الأرض: كثر نباتها فغطاها. وعفا الشيء: خفي، وعفا الماء: لم يخالطه شيء يكدره.
(٦) أضبع: ج ضَبُع، وهو جنس من السّباع من الفصيلة الضبعية ورتبة اللواحم، أكبر من الكلب وأقوى وهي كبيرة الرأس قوية الفكين وهذه تعرف بالسذاجة والغفلة.
(٧) السادم: المصاب بالهم أو الغيظ مع حزن.
(٨) الولاة والقضاة (٦٠ ـ ٦١).

وصفت فيه من إزكاني إلى أبويك وعمّك، ولعمري إن كنت لذلك أهلا! ولو خبرت مني ما خَبرا لمّا صغرت مني ما عظَّما، ولما جهِلتَ من أمرنا ما عَلِما، فكيف آتاه اللّه لك!! فأما انتقاصك لهما، فهما لك وأنت منهما، ولهما منك ناصِر، لو قال وجد عليك مقالاً، وكفاك جزاء العاق[1]. فأما تهدُّدك إيّايَ بأنك واضع مني ما رفعا، فليس ذلك بيدك ولا إليك، فارعُدْ وأبْرُق لغيري. وأما ما ذكرت ممَّا كنت آتي به عمّك عبد العزيز، فلعمري إنّي ممَّا نسبتني إليه من الكهانة لبعيد، وأنّي من غيرها من العلم لقريب، فعلى رِسْلِكَ، فكأنك قد أظلّك البدر الطّالع والسّيْف القاطع والشهاب السّاطع، فقد تمّ لها وتمّت له، ثم بعث إليك الأعرابي الجلف الجافي، فلم تَشْعُر به حتى يَحُلَّ بِعَقْوتك[2] فيسلبك سلطانك، فلا يعود إليك ولا تعود إليه، فيومئذٍ تعلَم أكاهن أم عالمٌ، وتوقِن أيُّنا النَّادم السَّادم، والسلام.

وقرأ عبد اللّه كتاب موسى، فكتب إلى أبيه عبد الملك كتاباً وأدرج كتاب موسى فيه، فلم يصل الكتاب إلى عبد الملك حتى قُبِض، ووقع الكتاب في يد الوليد بن عبد الملك بعد أن عزل عبد اللّه عن (مصر)، فلمّا قرأه استضحك ثم قال: للّه درّه ـ يقصد موسى ـ إن كان عنده أثَرَة[3] من علم، ولقد كان عبد اللّه غنيّاً أن يتعرّضَه[4].

فإذا صحّ صدور هذا الكتاب عن عبد اللّه، فهو يدل على تمكنه من ناصية اللغة العربيّة وبلاغته وبيانه الرفيع، كما يدل على حبّه للسيطرة واهتمامه بالضبط والنّظام، فهو لا يرضى أن يتخطّاه موسى إلى الخليفة، لأنه يعتبر نفسه المرجع المباشر لموسى.

---

(١) أضاف موسى بعد العاق: فأما ما نِلتَ من عِرْضي، فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك.

(٢) العقوة: الموضع المتّسع أما الدار أو المحلّة أو حولهما.

(٣) الأثرة: المنزلة. وأثرة العلم: بقية منه تؤثر.

(٤) الولاة والقضاة (٦١ ـ ٦٢).

والمهم أن عبد اللّه لم يكن على علاقة حسنة بموسى بن نصير، ممَّا يؤدي إلى عرقلة استكمال فتح (إفريقية) وتوطيد فتحها، لتكون القاعدة الأماميَّة لفتح الأندلس وأوروبا، كما تشل هذه العلاقة السيئة بين عبد اللّه وموسى بن نصير التعاون الوثيق بين القائدين وتلحق بالفتح أفدح الأضرار.

ولا يمكن أن يبقى قائدان في منطقتين متجاورتين تؤثر إحداهما في الأخرى تأثيراً سَوْقِياً إلاّ إذا كانا متعاونين أشدّ التعاون، يتبادلان ثقة بثقة وحبّاً بحب وإخلاصاً بإخلاص.

ويبدو أنّ صغر سن عبد اللّه وعنجهيته هي التي جعلت موسى بن نصير ـ وهو القائد الألمعيّ الحصيف لا يتعاون مع عبد اللّه تعاوناً وثيقاً كما كان يتعاون مع عبد العزيز بن مروان وغيره من أمراء (مصر).

كما يبدو أن موسى استشف أخبار العلاقة غير الوطيدة بين الأخوين: الوليد وعبد اللّه، وأنّ مكانته عند الوليد أقوى من مكانة عبد اللّه، وأنّ الوليد لا محالة سيعزل عبد اللّه عن (مصر) اليوم أو غداً، لذلك لم يكترث بعبد اللّه ولم يُوْلِهِ العناية الكافية.

وقد كانت ولاية عبد اللّه على (مصر) ثلاث سنين وعشرة أشهر[1].

وإخوة عبد اللّه بن عبد الملك: الوليد، وسليمان، ومروان الأكبر مات صغيراً، وعائشة، أمهم ولاّدة بنت العبّاس بن جَزْء بن الحارث بن زهير بن جَذِيمة بن رَوَاحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قُطَيعة بن عَبْس بن بَغِيْض.

ويزيد، ومعاوية مات صغيراً، وأم كلثوم، وأمهم عاتكة بنت يزيد بن أبي سُفْيان.

---

(١) النجوم الزاهرة (١/ ٢١١)، وفي الولاة والقضاة (٦٣): أنّ ولايته كانت عشرة أشهر، وهذا بدون شك خطأ مطبعي أو خطأ ناسخ الكتاب، وكان على مهذبه ومصححه (رفن كست) ألاّ يغفل عن مثل هذا الخطأ، والكتاب بعد ذلك يعجّ بالأخطاء بشتى أنواعها ومختلف أشكالها مما يدعو إلى الأسف الشديد.

وهشام، وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، واسم أم هشام، عائشة بنت هشام المخزوميّة.

وأبو بكر واسمه: بكّار، أمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبد اللّه.

والحكم مات صغيراً، وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان.

وفاطمة بنت عبد الملك، أمها أم الغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن الغيرة.

وعبد اللّه ومَسْلَمَة والمُنْذِر وعَنْبَسَة ومحمد وسعيد الخير، لأمهات أولاد[١].

ولا ذكر لأولاده، وورد ذكر قسم من أولاد عبد الملك بن مروان، ولم يذكر قسم آخر منهم، إذ: ليس في أعقاب سائر ولد عبد الملك من اشتهر فيذكَر[٢].

وقد تولى عبد اللّه (مصر) سنة خمس وثمانين (٧٠٤م) كما ذكرنا، وكان عمره حينذاك سبعاً وعشرين سنة[٣]، ومعنى ذلك أنه ولد سنة ثمان وخمسين الهجريَّة (٦٧٧م)، وقتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريَّة[٤] (٧٤٩م)، أي أنه عاش أربعاً وسبعين سنة قمرية واثنتين وسبعين سنة شمسية.

---

(١) الطبري (٦/٤١٩ ـ ٤٢٠) وانظر جمهرة أنساب العرب (٨٩) والنجوم الزاهرة (١/ ٢١١).

(٢) جمهرة أنساب العرب (١٠٤).

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ٢١٠).

(٤) تاريخ ابن خياط (٢/ ٤٣٥).

كان في عبد اللّه شدّة وبأس كما وصفه المؤرخون، وهذا يدل على قوّة شخصيته والتحلي بالضبط المتين.

والشخصية القوية من سمات القائد التميِّز، كما أنّ الضبط المتين من مزايا الجندي والقائد المتميِّزين، إذ لا جيش يُعتمد عليه وقوّة يُعتدّ بها إذا لم تتّسم بالضبط المتين.

والفرق الرئيس بين العسكريين والمدنيين، هو تمتع الأولين بالضبط المتين، وعدم تمتع الآخرين بهذا الضبط.

فإذا كان القائد منضبطاً، سرت هذه السجيّة إلى رجاله، وبذلك يحقق القائد لجيشه أول أسباب النصر.

ويبدو أنّ سفارة عبد اللّه إلى العراق لكبح جماح ثورة ابن الأشعث أو لإقرار الصلح بين رجاله ورجال الحجاج، وتصرفه في قيامه بواجبه في السفارة أولاً وتعاونه مع الحجاج في معركة (دير الجماجم) ممَّا أدّى إلى إحراز النصر ثانياً، وقيادته الواعية في غزواته المتعاقبة بأرض الرّوم ثالثاً، ومحاولة ترسيخ أقدام الفاتحين في المناطق التي فتحها ليصبح الفتح مستداماً ولا يبقى فتحاً مؤقتاً أخيراً، هو الذي لفت إليه نظر أبيه عبد الملك بن مروان، فولاّه (مصر) وأوكل إليه أمر إدارتها بأسلوب جديد غير الذي كان يتبعه في إدارتها عبد العزيز بن مروان.

وأهمية (مصر) في فتح المغرب وإفريقية، كأهمية (العراق) في فتح المشرق، واعتماد فتح المغرب على خراج (مصر)، كاعتماد فتح المشرق على خراج (العراق)، لذلك كان اهتمام الخلفاء باختيار ولاة (مصر) و(العراق) فائقاً جداً، لأنّ (مصر) القاعدة الأماميَّة الرئيسة في فتح المغرب، وشأنها في ذلك شأن (العراق)، ولا فتح بدون قاعدة رصينة، وهذا يحتاج إلى ولاة قادرين من ذوي الكفايات العالية والإدارة الحازمة.

إن اختيار عبد اللّه من بين إخوته لولاية (مصر)، دليل على نجاحه في المهام الإدارية والقيادية التي ألقيت على عاتقه قبل أن يتولى هذا المنصب الحيوي الرفيع، وهي التي رشحته لتولي هذه المهمة الجديدة الصعبة، ورشحته لاقتلاع آثار سياسة عبد العزيز بن مروان في (مصر) من جذورها، تلك الجذور التي تغلغلت إلى الأعماق، لأنّ عبد العزيز حكم (مصر) عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً[١]، امتدت من سنة خمس وستين الهجريَّة[٢] (٦٨٤م) حتى سنة خمس وثمانين الهجريَّة[٣] (٧٠٤م)، فأمر عبد الملك ابنه عبد اللّه أن يُعَفِّيَ آثار عبد العزيز في[٤] (مصر)، وهذه مهمة صعبة جداً، لا يستطيع تنفيذها غير الرجال القادرين.

وإذا علمنا أن عبد اللّه تولى (مصر) وعمره سبع وعشرون سنة[٥]، وأنه بدأ حياته العملية قائداً وسفيراً سنة اثنتين وثمانين الهجريَّة[٦] (٧٠١م)، وكان عمره يومئذ أربعاً وعشرين سنة، فمعنى ذلك أنه أظهر كفاية متميِّزة في سنة مبكِّرة، ثم قضى ثلاث سنوات لوضع كفايته في محك التجربة العملية، فنجح في إحراز ثقة أبيه فولاّه أكبر منصب مرموق بعد منصب الخليفة، وهو ولاية (مصر)، ممَّا يدل على تمتّعه بالطبع الموهوب الذي أثبت نجاحه في ميدان التطبيق العملي.

ولا شك في أنّ علمه المكتسب كان له نصيب كبير في صقل طبعه الموهوب وفي تجربته العملية قائداً وسفيراً وإدارياً، وبذلك اجتمعت لعبد اللّه الصفات الثلاث للقائد والسياسي والإداري: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب والتجربة العملية.

---

(١) النجوم الزاهرة (١/ ١٧٤) والولاة والقضاة (٥٥).
(٢) العبر (١/ ٧١) وشذرات الذهب (١/ ٧٣).
(٣) العبر (١/ ٩٩) وشذرات الذهب (١/ ٩٥).
(٤) النجوم الزاهرة (١/ ٢١٠) والولاة والقضاة (٥٨).
(٥) النجوم الزاهرة (١/ ٢١٠).
(٦) تاريخ ابن خياط (١/ ٢٨٩) ومعجم البلدان (٣/ ٢٨٥).

ولا يستطيع متتبّع سيرته قائداً، إلاّ أن يتوقف أمام ميزة بارزة لقيادة عبد اللّه، وهي محاولته جعل الفتح مستداماً، ورفضه الاكتفاء بالفتح المؤقت الذي هو أشبه بالمعارك السيارة والغارات منه بالفتح المستدام.

لقد فتح المسلمون (المَصِّيصه) بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح في عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، ولكن الرّوم استعادوها مرات، وأعاد المسلمون مرات فتحها، لذلك قرّر عبد الملك بن مروان أن يحرم الرّوم من استعادتها، لأهمية موقعها السَّوْقِيّ، حيث تعتبر الخط الدِّفاعي الأمامي عن (أنطاكية) أهم الثغور الشَّاميَّة، فإذا استعادها الرّوم أصبحت (أنطاكية) مكشوفة تحت رحمة الرّوم فيستعيدها الرّوم بيسر وسهولة. وأمر عبد الملك ابنه عبد اللّه أن يعيد بناء (المصيصة) ويحصِّنها ويعمر قلعتها ويحشد الجنود فيها، فنهض عبد اللّه بهذا الواجب على أحسن وجه، واختار من رجاله الشجعان المغاوير، وجعلهم حامية ثابتة لهذا الثغر المتقدِّم الذي يحمي (أنطاكية) بخاصة، والحدود الشماليَّة الغربيَّة للدولة بعامَّة[١].

وذهب عبد اللّه إلى مدى أبعد من ذلك، فتغلغل شمالاً إلى (طُرَنْدَة) لتكون خطاً دفاعياً أمامياً للدفاع عن (المصيصة)، وبذلك أصبح خطّان دفاعيان أماميان للدفاع عن (أنطاكية) وعن حدود الدَّولة، يصعب على الرّوم اختراقهما للوصول إلى (أنطاكية) وحدود الدَّولة الشماليَّة الغربيَّة، وبهذا حمى البلاد الإسلاميَّة حماية مثالية من الرّوم، كما أمّن قواعد متقدِّمة للفتح في بلاد الرّوم.

وقد ارتكز مَسْلَمَة بن عبد الملك على (المصيصة) في انطلاقه شمالاً لحصار (القُسْطَنْطينيَّة)، وكانت هذه المدينة من أهم قواعده المتقدمة التي ارتكز عليها لتحقيق أهدافه في الفتح.

وأخفقت حملة (القُسْطَنْطينيَّة) وبدأ المسلمون بالانسحاب منها،

---

(١) انظر التفاصيل في البلاذري (٢٢٥).

فكانت (المصيصة) أرصن قواعد المسلمين المتقدِّمة في حماية الانسحاب.

ومات عبد اللّه ومات مَسْلَمَة بن عبد الملك، وانتهت أيام الدَّولة الأموية في الشَّام، وبدأت أيام الدَّولة العباسية في (بغداد)، وذكر (المصيصة) يتردّد في الصراع بين المسلمين والرّوم، وبقيت صخرة صلدة بوجه الرّوم، فلم يستطيعوا استعادتها إلى حكمهم، كما لم يستطيعوا أن يُقلِّلوا في أهميتها الحيويّة في الدِّفاع عن (أنطاكية) وحماية الحدود الشماليَّة الغربيَّة من هجمات الرّوم وغاراتهم.

والفضل في ذلك يعود إلى عبد الملك بن مروان صاحب فكرة تحصينها وحشد المقاتلين فيها، وإلى ابنه عبد اللّه الذي وضع تلك الفكرة في حيِّز التنفيذ.

كما أن الفضل في جعل فتح هذا الثغر فتحاً مستداماً يعود إلى عبد اللّه دون مراء.

إنَّ عبد اللّه في فتحه يفكِّر في الحاضر وفي المستقبل، ولا يكتفي بالتفكير في الحاضر فقط، وهذه صفة من صفات القائد الذي يتّسم بِبُعد النظر.

وقد كان عبد اللّه قائداً تعرضيّاً، يطبّق الحرب السيّارة، ويدافع عن الحدود والثغور بالتعرّض لا بالدِّفاع المُستَكين، ويرى بحق أنّ الهجوم أفضل أساليب الدِّفاع.

وبالأسلوب التعرضي حمى عبد اللّه الحدود والثغور، ونقل القتال من مواضع المسلمين إلى مواضع الرّوم، وجنّب بلاد المسلمين خسائر الحرب، وأوقع تلك الخسائر في بلاد الرّوم، وفتح مناطق من أرض الرّوم، جعلت أرض المسلمين بعيدة عن أسلحة الرّوم ورجالهم.

وكان يطبق مبدأ (التَّحشُّد) في غزواته، فيحشد القوة المناسبة للعمل المناسب، كما يحشد القوات المناسبة في الثغور، للدفاع عنها في حالة تعرضها لهجوم معادٍ.

وكان يطبق مبدأ (الأمن) في مسيرة الاقتراب، وفي صفحة الاشتباك بالعدو، كما يضع الحاميات في الثغور، لكي لا يباغتها العدو في هجوم غير متوقّع، وبهذه التدابير الأمنية صان رجاله من مباغتة العدو لهم في مختلف صفحات القتال التي خاضها.

وكان يطبق مبدأ (القضايا الإدارية) تطبيقاً مثالياً في غزواته ابتداء من تقدمه لمجابهة العدو، إلى عودته إلى قواعد المسلمين، فلا نعلم أنّ قواته احتاجت إلى أي نوع من أنواع القضايا الإدارية تموينًا وسلاحاً ونقليّة وطبابة ومرتبات.

وكان يديم معنويات رجاله العالية، بالنصر، والأمن، والحماية، وحرمان العدو من الحصول على المعلومات عن قواته، وبالحاميات القوية القادرة، وبالتعرض والقتال السيار، ونقل المعركة إلى أرض العدو، وبالاستعدادات المتكاملة.

وكان يثق برجاله ويثقون به، ويحبهم ويحبونه، ويعتمد عليهم ويعتمدون عليه.

والذي يبدو أنّ أهم مزاياه العسكريّة في القيادة هي: بُعْدُ نظره الذي جعله ينفّذ الخطط الضرورية التي أدّت إلى ترسيخ ما فتحه من بلاد الرّوم، فأصبح فتحاً مستداماً ولم يبق فتحاً مؤقتاً.

كما أنه كان ذا شخصية نافذة مُسَيْطرة، تفرض نفسها بقوة وصرامة على رجاله وعلى أسلوب عملهم في القتال والإدارة على حدٍّ سواء.

كما أنه كان يتحلّى بالضبط المتين، فلا يغضّ الطرف عن مخالفات رجاله ولا يرضى منهم بغير الالتزام الصّارم بمتطلّبات الضبط المتين.

تلك مزايا ثلاث بارزة في عبد اللّه، لفتت إليه نظر أبيه عبد الملك، فولاّه مصر ليعيدها إلى سيطرة أبيه الكاملة، فخسرته القيادة ولم تربحه الإدارة.

عبد اللَّه في التاريخ

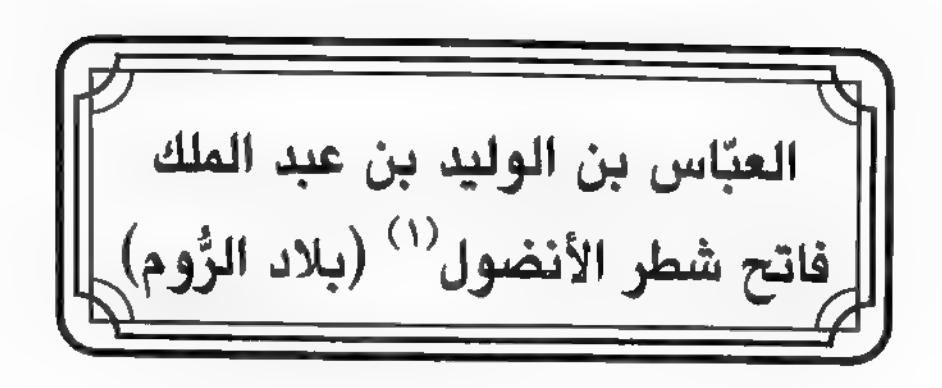
يذكر التاريخ لعبد اللَّه أنه فتح منطقة حيوية من بلاد الرّوم بقيت ردحاً من الزمن تنتقل من أيدي الرّوم إلى أيدي المسلمين، ومن أيدي المسلمين إلى أيدي الرّوم، حتى استقرت أخيراً بأيدي المسلمين بفضل عبد اللَّه، وأصبح فتحها فتحاً مستداماً.

ويذكر له أنه حمى بفتحه المستدام منطقة (أنطاكية)، وهي من أهم الثغور الشَّاميَّة التي تحرس الحدود الشماليَّة الغربيَّة للدولة الإسلاميَّة.

ويذكر له أنه تولى (مصر)، فأعادها إلى سيطرة أبيه الكاملة، بعد أن كانت شبه مستقلّة في أيام عبد العزيز بن مروان.

ويذكر له أنه نجح نجاحاً باهراً في قيادته، ونجح نجاحاً محدوداً في إدارته، فكان قائداً متميّزاً، ولم يكن إدارياً متميّزاً.

رحمه اللَّه جزاء ما قدّم من جهد في قيادته وإدارته.



العبّاس بن الوليد بن عبد الملك
فاتح شطر الأنضول[1] (بلاد الرُّوم)

نسبه وأيامه الأولى

هو العبّاس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ الأمويّ[2].

أبوه: أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، يُكَنّى بأبي العباس[3]، وكان الوليد تسعة عشر ولداً ذكراً[4]، وكان العباس أكبرهم وبه كان أبوه يُكنّى[5]، ومن المعروف أن الأب يكنّى باسم أكبر أولاده

---

(١) الأنضول والأنطول: لفظة يونانية معناها: المشرق، وهي اسم لشبه جزيرة كبيرة، وهي عبارة عن: (آسيا الصغرى) كما نطلق عليها اليوم. يحدّها من الشمال الغربي الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود، ومن الشرق جبال إرمينية وفروعها الجنوبيّة الغربية إلى مدينة الإسكندرونة، ومن الجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب الأرخبيل اليوناني. والأنضول هو ما نسميه اليوم: تركيا عدا القسم الأوروبي منها، انظر التفاصيل في: منجم العمران (٢/ ٦٣ ـ ٦٥) والجغرافية العمومية (١٨١ ـ ١٨٥).

(٢) انظر التفاصيل في: طبقات بن سعد (٥/ ٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (٨٩ ـ ٩٠) وفوات الوفيات (٢/ ٣١) وقادة فتح المغرب العربي (٢/ ٩٥) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٠).

(٣) أسماء الخلفاء والولاة ـ ملحق بجوامع السيرة (٣٦١)، وانظر العيون والحدائق (١٢) والعقد الفريد (٤/ ٤٢٢) والبداية والنهاية (٩/ ١٦١).

(٤) البداية والنهاية (٩/ ١٦٦) وجمهرة أنساب العرب (٨٩).

(٥) العيون والحدائق (١٢) وانظر العقد الفريد (٤/ ٤٢٢).

الذكور، كما تقضي بذلك التقاليد العربيَّة المعمول بها حتى اليوم.

وأمه أم ولد[1] نصرانية[2].

نشأ العباس وترعرع في كنف والده الوليد بن عبد الملك، وكان عهد الوليد متميِّزا بالفتوح التي امتدت شرقاً إلى حدود الصين بقيادة قُتَيْبَة بن مسلم الباهلي وإخوته، وغرباً إلى حدود فرنسا بعد فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نُصَيْر، وكان عهد الوليد بحق العهد الذهبي لدولة الأمويين في الشَّام فتحاً.

فقد فتح الوليد الأندلس كلها، والسِّند[3] كلها، وما وراء النَّهر[4]، وغزا ملك الصين[5] فكان أكثر بني أمية فتوحاً، وأكثر الخلفاء الفاتحين فتوحاً بعد الفاروق القائد عمر بن الخطَّاب[6] رضي الله عنه .

وعاش العباس في جو من الاستقرار لم تشهد له الدَّولة الأموية مثيلاً، والاستقرار عامل من أهم عوامل الفتوح، لأنه ييسِّر للدولة الاتجاه بقواتها الضاربة نحو العدو الخارجي حماية للبلاد المفتوحة وفتحاً جديداً ودفاعاً عن الحدود والسكّان، فتنصرف تلك القوات بكل طاقاتها لواجبها الأصلي، ولا تقتصر على واجبها الثانوي في مجال إخماد الفتن الداخلية والاضطرابات المحلية وتوطيد الأمن والاستقرار داخلياً.

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٦٦) والعقد الفريد (٤/ ٤٢٢).

(٢) المحبر (٣٠٥) والمعارف (٣٥٩) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ١٧١).

(٣) السِّند: بلاد بين الهند وكرمان وسجستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٥١) المسالك والممالك للإصطخري (١٠٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (٩٤ ـ ٩٥) وتقويم البلدان (٣٤٦ ـ ٣٥١). وهي في الوقت الحاضر أكثر مناطق باكستان الغربية.

(٤) ما وراء النهر: هو ما وراء نهر جيحون، فما كان في شرقيه يقال له: ما وراء النهر، وما كان في غربية فهو خراسان وولاية خوارزم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣٧٠) والمسالك والممالك للإصطخري (١٦١) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٧) وتقويم البلدان (٤٨٣ ـ ٥١٥) وأحسن التقاسم (٣١٠).

(٥) جُمل فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة (٣٤٠).

(٦) انظر فتوح عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابنا: الفاروق القائد (٤١ ـ ٤٢).

كما أنّ هذا الاستقرار يثمر ثمرات يانعة في المجال العلمي والاقتصادي، فتطوّرت العلوم وانتشرت المدارس العلمية وبرز العلماء والأفذاذ، كما شاع العمران في أيام الوليد، وبقيت آثاره العمرانية حتى اليوم في الجامع الأموي بدمشق والمسجد الأقصى بالقدس ومسجد النبي ﷺ بالمدينة المنوَّرة: (وكانت همة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك، يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول: ماذا بنيت؟ ماذا عمرت؟)[1]، وبنى المساجد في دمشق، وأعطى الناس، وأعطى المجذومين وقال لهم: لا تسألوا الناس: وأعطى كلَّ مُقْعَد خادماً، وكل ضرير قائداً، وكان يرسل بنيه في كل غزوة إلى بلاد الروم[2].

في هذا الاستقرار تعلم العباس في كنف والده علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والتاريخ والسير والأخبار، وعلوم اللغة وفنون الأدب شعراً ونثراً، كما أتقن الفروسية والرمي بالنبال والطعن بالسيف والرمح، فأصبح فارس بني أميّة[3] دون منازع، وكان الوليد حين يتحدّث عن أولاده يقول: العباس فارسهم[4].

ويحدثنا المؤرخون أنّ الوليد وكان يَجِدُ في العباس وَجْداً شديداً وكان له في قلبه أحسن موقع، فأدبه بجميع الآداب، حتى علمه الرقص وضرب الطبل[5].

ولعلّ الحياة علّمت العباس علماً ليس في الكتب والقراطيس، ولكنه أهم ممّا في الكتب والقراطيس، فقد كان بحكم انتسابه إلى بيت الخلافة يشهد إصدار القرارات الإدارية والسياسية والعسكريَّة من قيادة الدَّولة

---

(١) البداية والنهاية (/١٦٥) وانظر ابن الأثير (٥/ ١٠).
(٢) البداية والنهاية (٩/ ١٦٤) وابن الأثير (٥/ ٩).
(٣) المعارف (٢٥٩) والعيون والحدائق (١٤) وانظر تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٠).
(٤) العيون والحدائق (١٤٩).
(٥) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٧٨).

الأموية العليا، وقد يشارك في إصدار تلك القرارات بشكل أو بآخر، وشارك عملياً في الغزوات والفتوح، فأضاف بذلك إلى العلم المكتسب تجارب عملية، ممَّا جعل لشخصيته في الإدارة والسياسة والقيادة وزناً مرموقاً، نلمس أثرها في سيرته رجل دولة وقائداً فاتحاً، وعالماً وأديباً.

جهاده

١ ـ في بلاد الروم

(أ) في سنة ثمان وثمانين الهجريَّة (٧٠٧م) غزا مَسْلَمَة بن عبد الملك والعباس بلاد الرّوم، وكان الوليد بن عبد الملك قد كتب إلى صاحب (إِرْمِينِيَة)[١] يأمره أن يكتب إلى ملك الرّوم يعرّفه أنّ (الخَزَر) وغيرهم من ملوك جبال (إرمينية) قد أجمعوا على قصد بلاده، ففعل ذلك وأكثر الوليد من حشد قوّاته القاصدة بلاد الرّوم، فساروا نحو (جزيرة ابن عمر)[٢]، ثم عطفوا منها إلى بلاد. واصطدم الفريقان، فانهزم الرّوم أولاً، ثم أعادوا الكرّة فانهزم المسلمون، ولكنّ العباس ثبت على رأس (السّاقة)[٣] صارخاً: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة؟!، فقيل له: نادهم يأتوك، فنادى: يا أهل القرآن!، فأقبلوا جميعاً، فهزم اللَّه الرّوم حتى دخلوا

---

(١) إرمينية: اسم صقع واسع من برذعة إلى باب الأبواب وإلى الروم، وقيل: إرمينية الكبرى خلاط ونواحيها، وإرمينية الصغرى تفليس ونواحيها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٠٣) والمسالك والممالك للإصطخري (١٠٨) وتقويم البلدان (٣٨٧).

(٢) الجزيرة: جزيرة ابن عمر، هي التي بين دجلة والفرات، تشمل على ديار ربيعة، سميت: الجزيرة، لأنها بين دجلة والفرات. وهي صحيحة الهواء جيدة الربيع والنماء واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون وقلاع، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٩٦)، وانظر حدودها بالتفصيل في المسالك والممالك للإصطخري (٥٠).

(٣) الساقة: جماعة من الفرسان والمشاة لحماية مؤخرة القسم الأكبر من القوات العسكرية المتحركة نحو أهدافها. والقسم الأكبر: الجيش المتحرك نحو أهدافه ناقصاً قطع الحماية (المقدمة ـ الساقة ـ المجنبات).

(طُوانة)[1]، وحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً، ففتحوها في جمادى الأولى من هذه السنة وشتوا فيها[2].

وهكذا شارك العباس مَسْلَمَة بن عبد الملك في فتح (طوانة)، وكان أثر العباس بارزاً في إحراز النصر، لأنَّ ثباته قلب الهزيمة إلى نصر، وصان قوات المسلمين من تكبيدها خسائر فادحة في الأرواح، وزعزع معنويات الرّوم.

(ب) وفي سنة تسع وثمانين الهجريَّة (٧٠٨م) غزا مَسْلَمَة بن عبد الملك ومعه العباس أرض الرّوم ودخلاها جميعاً ثم تفرقا، فافتتح العباس (أذروليّة)[3]، ووافق من الرّوم جمعاً فهزمهم، كما غزا العباس الصائفة من ناحية (البُذَندون)[4].

ومن الواضح أنّ مَسْلَمَة والعباس بعد أن قضيا فصل الشتاء في المنطقة، استمرا على الغزو صيفاً قبل أن يعودا أدراجهما إلى قواعد المسلمين، فبقيا للفتح صيف سنة ثمان وثمانين وشتاءه، وصيف سنة تسع

---

(١) طوانة: بلد بثغور المصيصة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٦٥).

(٢) الطبري (٦/ ٤٣٤) وابن الأثير (٤/ ٥٣١) وانظر العبر (١/ ١٠٣)، وفي الطبري (٦/ ٤٣٤): أن فتح طوانة كان في جمادى الآخرة، وانظر العيون والحدائق (٣)، وفي تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٧١): أن العباس كبد الروم ثلاثين ألفاً وفي ذلك مبالغة واضحة، وفيه أنه غنم مئة دينار كأي فرد من أصحابه.

(٣) أذرولية: هكذا وردت في الطبري (٦/ ٤٢٩) وابن الأثير (٤/ ٥٣٥)،ووردت في ابن خلدون أردولية في (٣/ ١٥٤)، ولم أجد لها ذكراً في المصادر الجغرافية القديمة. ومن المحتمل أن يكون موقعها في منطقة (طوانة).

(٤) البذندون: هكذا وردت في الطبري (٦/ ٤٣٩): البذنرون، أما في ابن الأثير (٤/ ٥٣٥) فقد وردت: البذندون، ووردت في ابن خلدون (٣/ ١٥٤) فقد وردت: البلدبدون، والصواب ما جاء في ابن الأثير. والبذندون: قرية بينها وبين طرسوس يوم، من بلاد الثغر، مات بها الخليفة العباسي المأمون، فنقل منها إلى طرسوس ودفن فيها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٩٤)، وانظر الطبري (٦/ ٤٣٩) وابن الأثير (٤/ ٥٣٥) وابن خلدون (٣/ ١٥٤) حول غزو هذه القرية.

وثمانين الهجريتين، ممّا يدل على استمرارية تحمل العباس لأعباء الجهاد على الرغم من قسوة البرد وشدّته في تلك المناطق الجبلية الوعرة.

(ج) وفي شتاء سنة تسعين الهجريَّة (٧٠٩م) غزا مَسْلَمَة عبد الملك أرض الرّوم من ناحية (سُوريّة)[1]، ففتح الحصون الخمسة التي بـ(سوريَة)[2].

وغزا العباس حتى بلغ (الأرْزَن)[3] في رواية، وحتى بلغ (سوريّة) في رواية أخرى، وهناك نصٌّ على أنّ الرواية الثَّانية أصح[4]، أي أنه بلغ (سوريَّة) في هذه الغزوة.

واتفق مع الذين رجّحوا الرواية الثَّانية، لأنّ الخليفة وليد ابن عبد الملك بعث ابنه العباس سنة ثمان وثمانين وتسع وثمانين الهجريتين قائداً برفقة أخيه مَسْلَمَة بن عبد الملك وهو عم العباس، ليتدرب على القيادة بإشراف مَسْلَمَة الذي كان حينذاك أبرز قادة بني أميّة ويمارس فنون القتال وإدارة المعارك تحت توجيه مَسْلَمَة ورعايته، أما في سنة تسعين الهجريَّة، فقد بعثه أبوه إلى أرض الرّوم غازياً على رأس قوة مستقلة قائداً مستقلاً، لتدريبه على تحمل مسؤولية القيادة وممارسة الأعمال القيادية منفرداً بعد إكمال تدريبه تحت إشراف مَسْلَمَة سنتين كاملتين، ولكن

---

(١) سورية: موضع بالشام بين خناصرة والسلميّة: والعامة تسميها: (سوية)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧١).

(٢) الطبري (٦/ ٢٤٢) وابن الأثير (٤/ ٥٤٧) وابن خلدون (٣/ ١٥٤) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢١) والعبر (١/ ١٠٤)، وانظر التفاصيل في جهاد مسلمة بن عبد الملك الخاص بفتحه سنة تسعين الهجرية.

(٣) الأرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة، وكانت من أعمر نواحي إرمينية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٩٠)، وقد عدّ قوم الأرزن من أطراف (ديار بكر) مما يلي الروم، وقوم يعدونها من (جزيرة ابن عمر)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٩١).

(٤) الطبري (ـ / ٢٤٢) وابن الأثير (٤/ ٥٤٧) وابن خلدون (٣/ ١٥٤)، وقد وردت فيه: (أردن) بدلاً من (الأرزن)، وتاريخ ابن خياط (١/ ٣٠٦) والنجوم الزاهرة (١/ ٤٢١).

الخليفة الوليد بن عبد الملك أراد أن تكون الغزوتان، غزوة مَسْلَمَة، وغزوة العباس، على محورين متقاربين تجتمعان في هدف واحد، لكي يجعل مَسْلَمَة أخاه يعاون ابنه العباس عند الحاجة، وبذلك حقق هدفين في آن واحد، الأول تدريب ابنه على القيادة المستقلة، والثَّاني ألاّ يجعله بعيداً عن قوات مَسْلَمَة حتى لا يلقي به إلى التهلكة.

واجتماع القوتين: قوة مَسْلَمَة، وقوة العباس في (سوريَّة) يحقِّق للوليد بن عبد الملك هذين الهدفين، ولا يجعل العباس يتوغل في غزوته إلى (الأرزن) التي هي بعيدة عن (سوريّة)، فيعزله عن سند مَسْلَمَة له، قبل أن يستكمل العباس التجربة العملية على القيادة المستقلة الفعلية كما ينبغي.

والواقع أنّ هناك مدينة: (أرزن) التي تقع بالقرب من مدينة (مَيّافارِقين)[1] وهي من بلاد (جزيرة ابن عمر)، و(أرزن) الرّوم التي تقع على الفرات الغربي[2]، (وأرزن) الرّوم هذه هي التي تسمى اليوم: (أرز روم)[3]، والمدينتان بعيدتان عن (سوريّة)، ومن الصعب أن تبتعد قوات العباس عن قوات مَسْلَمَة هذا البعد الشاسع، وهو - أي العباس - في سنيِّه التدريبية الأولى على القيادة.

(د) وفي سنة ثلاث وتسعين الهجريَّة (٧١١م) غزا العباس أرض الرّوم، ففتح (سَمْسَطِيّة) كما ذكر الطبري، و(سبسطية) كما ذكرها ابن الأثير، و(سبيطلة) كما ذكرها ابن خلدون[4]، أما (سمسطية) و(سبيطلة)

---

(١) مدينة بديار بكر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢١٤)، وانظر أيضاً بلدان الخلافة الشرقية (١٤٣ - ١٤٤).

(٢) يعرف عند الأتراك اليوم باسم: قره صو، أي الماء الأسود.

(٣) أرز روم: أرض الروم، فسماها العرب: أرزن الروم، وعرفها الأرمن باسم مدينة، كرن (Karin)، والروم باسم: ثيودسيوبوليس (Theodosiopolis)، انظر: بلدان الخلافة الشرقية (١٤٩)، وانظر تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٧١).

(٤) الطبري (٦/ ٤٦٩)، وفي ابن الأثير (٤/ ٥٧٨) وردت: (سبسطية)، وفي ابن خلدون (٣/ ١٥٤) وردت: (سبيطلة).

فلا ذكر لهما في المصادر الجغرافية القديمة التي بين أيدينا ولا في المراجع الحَدِيثَة المتيسِّرة لدينا، وأما (سَبَسْطِيَة)[1] فهي مدينة فلسطينية معروفة، ولا تزال آثارها قائمة حتى اليوم على طريق (نابلس) ـ (جِنَين) بالقرب من مفرق طريق (نابلس) ـ (طول كرم) باتجاه مدينة (جنين) في فلسطين.

والظاهر أنّ المدينة التي فتحها العباس في هذه السنة هي مدينة (سُمَيْسَاط)[2]، وممَّا يدل على ذلك أنّ هذه المدينة على محور الفتح حينذاك، وهي في منطقة القتال الناشب بين الرّوم والمسلمين حمايةً للحدود الشماليَّة الغربيَّة لبلاد المسلمين، كما وردت نصوص صريحة أنّ العباس فتح هذه المدينة في تلك السنة[3].

كما فتح العباس في هذه السنة (طرسُوس)[4] و(المرزبانين)[5] ومن الواضح أن (المرزبانين) تقع في منطقة (طرسوس)[6].

وهذه هي المرة الأولى التي يغزو فيها العباس مستقلاً، لا يرافق فيها عمه مَسْلَمَة بن عبد الملك كما حدث سنتي ثمان وثمانين وتسع وثمانين الهجريتين، وبعيداً عن منطقة مَسْلَمَة كما حدث سنة تسعين الهجريَّة، وهذا

---

(١) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٩).

(٢) سميساط: مدينة تقع غربي نهر الفرات، ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٣٨) وتقويم البلدان (٢٤٤ ـ ٢٤٥).

(٣) انظر النجوم الزاهرة (١/ ٢٢٦).

(٤) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، بينها وبين (أذنة) ستة فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣٨ ـ ٣٩) وتقويم البلدان (٢٤٨ ـ ٢٤٩)، وذكرها الطبري في أحداث خمس وتسعين الهجرية باسم (طوس)، انظر الطبري (٦/ ٤٩٢).

(٥) المرزبانين: لا ذكر لها في المصادر الجغرافية التي بين أيدينا، وقد وردت بهذا الاسم في الطبري (٦/ ٤٩٢) وابن الأثير (٤/ ٥٧٨)، ووردت في النجوم الزاهرة (١/ ٢٢٦) باسم: المرزبان.

(٦) ابن الأثير (٤/ ٥٧٨) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٦).

دليل على أن العباس شبّ عن الطّوق، بعد أن استكمل تدريبه العملي على القيادة بإشراف عمه القائد اللاّمع المجرّب مَسْلَمَة، فأصبح مجرّباً في الحروب وموثوقاً بقيادته، وأهلاً لتحمل المسؤولية القيادية مستقلاً.

ولكن أين قضى سنتي إحدى وتسعين واثنتين وتسعين الهجريتين؟ هل بقي إلى جانب والده الوليد بن عبد الملك لتدريبه على القضايا السياسية والإدارية؟ هل غزا فيهما دون أن يرد عن غزواته شيء في التاريخ؟ ذلك ما أغفله المؤرخون!

وأرجح أنّ والده الخليفة استبقاه إلى جانبه، ليشرف على تدريبه العملي في شؤون الحكم، لأنّ المؤرخين حريصون على ذكر الغزوات ونتائجها، فليس من المحتمل أن يغفلوا ذكر غزواته خلال عامين كاملين، لو أنه كان خلالها غازياً.

(هـ) وفي سنة أربع وتسعين الهجريّة (٧١٢م)، غزا العباس أرض الرّوم، ففتح مدينة (أنطاكية)[١] على ساحل البحر الأبيض المتوسط[٢]، وفتح (قارطة)[٣] من الساحل أيضاً[٤].

والمعروف أنّ (أنطاكية) فتحها أبو عبيدة بن الجرّاح لأول مرة سنة خمس عشرة الهجريّة[٥] (٦٣٦م)، ولكن الرّوم استعادوها من المسلمين

---

(١) أنطاكية: مدينة عظيمة من أعيان المدن على طرف بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط)، ولها قلعة عالية جداً تتبيّن من بُعدٍ بعيد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٥٣) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٥٠) وتقويم البلدان (٢٥٦ ـ ٢٥٧).

(٢) ابن الأثير (٤/ ٥٨٢) وابن خلدون (٣/ ١٥٤) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٧) وتاريخ ابن خياط (١/ ٣١٠).

(٣) قارطة: لا ذكر لها في المصادر الجغرافية القديمة المتيسرة، ومن الواضح أنها قريبة من أنطاكية.

(٤) تاريخ ابن خياط (١/ ٣١٠)، وقد انفرد هذا التاريخ بهذا الفتح.

(٥) ابن الأثير (٢/ ٤٩٥)، وانظر كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٦٤).

لنشوب الاضطرابات الداخلية واضطراب أمور المسلمين، فأعاد العباس فتحها.

ولم يتطرّق المؤرخون إلى تفاصيل معركة استعادة فتح (أنطاكية)، ومن المحتمل أن تكون المعركة قاسية، تكبّد فيها الطرفان: المسلمون والرّوم خسائر فادحة، فأحرقها العباس، فأطلق عليها: (أنطاكية المحرقة)[1]، وقد يكون سبب إحراقها شدّة مقاومتها للفاتحين وبقاؤها مدة طويلة ثابتة تقاوم الحصار.

وكانت قد حدثت زلازل عظيمة بالشّام هذا العام دامت في غالب البلاد أربعين يوماً، وكان أولها من عشرين آذار (مارس)، فهدمت الأبنية ووقع معظم (أنطاكية)[2]، فمن المحتمل أنّ إحراقها الذي جرى في صيف ذلك العام جرى لأنها أصبحت ركاماً، ممّا شجّع العباس على الإقدام لإحراق المدينة حتى تنهار مقاومتها، إذ لم يُقدم الفاتحون المسلمون على إحراق المدن العامرة في أيام الفتح الإسلامي.

(و) وفي سنة خمس وتسعين الهجريَّة (٧١٣م) غزا العباس بلاد الرّوم، ففتح (طولس)[3] و(المرزبانين)[4] و(هِرَقْلَة)[5].

وقد تكرر فتح (طولس = طرسوس) و(المرزبانين) مرتين: مرة سنة

---

(١) البلاذري (٢٣٣)، وانظر ما جاء عن فتح أنطاكية في: تهذيب ابن عساكر (١/ ١٧١).

(٢) النجوم الزاهرة (١/ ٢٢٧).

(٣) طولس: لا ذكر لها في المصادر الجغرافية القديمة المتيسرة، وقد ذكرنا أنها مدينة (طرسوس)، انظر ما جاء في فتوح سنة ثلاث وتسعين الهجرية في الفقرة (د) أعلاه، وانظر ما جاء في زبدة كشف الممالك (٥٠).

(٤) المرزبانين: ورد ذكرها في فتوح سنة ثلاث وتسعين الهجرية، انظر ما جاء في فتوح سنة ثلاث وتسعين الهجرية في الفقرة (د) أعلاه.

(٥) هرقلة: مدينة ببلاد الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤)، وهي مدينة (أراكلية) الحديثة حسب تسميتها عند الأتراك، وهي هركلية (Heraclia) عند الروم، انظر الطبري (٦/ ٤٩٢) حول فتح هذه الحصون.

ثلاث وتسعين الهجريَّة كما ذكرنا، ومرة سنة خمس وتسعين الهجريَّة، ولعلّ سبب ذلك اختلاف المؤرخين في التوقيت والاختلاف في هذه الحالة على كل حال طفيف.

وقد يكون سببه، أنّ العباس فتحهما مرة سنة ثلاث وتسعين الهجريَّة، فانتقضتا كما يحدث اعتيادياً في المواقع القريبة من الحدود أو التي تشكّل الحدود، فتكون السيطرة عليها بين مد وجزر وكرّ وفر.

أما (هرقلة) فقد فتحها مَسْلَمَة بن عبد العزيز سنة تسع وثمانين الهجريَّة[1] (٧٠٨م)، فمن المحتمل أنّ الرّوم استعادوها من المسلمين، فجدّد فتحها العباس وأعادها كرّة أخرى إلى حوزة المسلمين.

وفي هذه السنة أيضاً، افتتح العباس مدينة (قِنَّسْرِين)[2]، كما جاء في تاريخ الطبري[3]. ومن المعروف أن أبا عبيدة بن الجرّاح كان قد فتح (قنسرين) في عهد عمر بن الخطّاب ﷺ سنة خمس عشرة الهجريَّة، وقيل سنة ست عشرة الهجريَّة[4] (٦٣٦م ـ ٦٣٧م)، وهي تقع جنوب مدينة (حلب) ومنها إلى (حلب) مرحلة صغيرة، وكان الجند تنزلها من ابتداء فتحها، وهي قاعدة من قواعد أجناد الشّام، فليس من المعقول أن يكتسحها الرّوم فيستعيدها العباس في تلك السنة، بينما كان المسلمون قد تغلغلوا شمالاً في بلاد الرّوم. ومن المحتمل أن الخطأ في ذكر هذا الفتح

---

(١) الطبري (٦/ ٤٣٥) وابن الأثير (٤/ ٥٣٥).

(٢) قنسرين: بلد في أرض الشام جنوب حلب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٨) والمسالك والممالك للإصطخري (٤٦) وتقويم البلدان (٢٦٦ ـ ٢٦٧) والبلدان لليعقوبي (٧٦٢) والعلا النفيسة (٩١) وأحسن التقاسيم (١٥٤) وصورة الأرض (١٦٣) ومختصر كتاب البلدان (١١١) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٧٥).

(٣) الطبري (٦/ ٤٩٣).

(٤) ابن الأثير (٢/ ٤٩١ ـ ٤٩٢)، وقد جاء في معجم البلدان (٧/ ١٦٨)، أنها فتحت سنة سبع عشرة الهجرية، وهذا خطأ، وانظر كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٦٣) حول فتح هذه المدينة.

قد ارتكبه النُسّاخ، والدليل هو ذكر فتحها ليس في أحداث سنة خمس وتسعين الهجريَّة الذي ورد فيه ذكر فتوح العباس، بل جاء ذكر فتحها منفصلاً، ولو أنّ العباس فتحها في هذه السنة لجاء ذكر الفتح مع فتوحه الأخرى لا منفصلاً عنها، وفي سياق أحداث أخرى، ومن المحتمل أنّ الإمام الطبري تحدّث عن فتح آخر لمدينة أو منطقة أخرى، فاشتبه ذلك على النسّاخ، فوقع الخطأ الذي لا يقع في مثله الطبري أبداً.

ولم يرد لهذا الفتح في هذه السنة ذكر في المصادر التاريخية الأخرى.

(ز) وفي سنة ثلاث ومئة الهجريَّة (٧٢١م) غزا العباس أرض الرّوم، ففتح مدينة (رَسْلَة)[١] أو (دلسة)[٢] أو (أواسى)[٣]، ولا ذكر لهذه المدينة بأسمائها الثلاثة في المصادر الجغرافية التي بين أيدينا.

وقد ذُكر للعباس غزوة في أرض الرّوم سنة اثنتين ومئة الهجريّة[٤] (٧٢٠م)، ولا صحة لذلك، لأنه كان في تلك السنة يقاتل يزيد بن المهلّب في العراق، كما سيرد تفصيل ذلك وشيكاً.

كما ذُكرت له غزوة بحريّة إلى (خُراسان) سنة ثلاث ومئة الهجريّة (٧٢١م)، ولا صحة لذلك أيضاً، لأنه كان يغزو في تلك السنة الرّوم كما ذكرنا.

لقد كان لجهاد العباس أثر بارز في حماية الحدود الشماليّة الغربيّة للدولة بالهجوم على الرّوم، والهجوم أنجع وسائل الدِّفاع.

---

(١) الطبري (/٦١٩) وابن خلدون (٣/ ٢٨٤) وانظر تاريخ ابن خياط (١/ ٣٣٦) ولم يذكر فيه اسم المدينة التي فتحها والنجوم الزاهرة (١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).
(٢) ابن الأثير (٥/ ١٠١) و(٥/ ١٠٥).
(٣) تاريخ الموصل (١٧).
(٤) ابن الأثير (٥/ ١٠١) ابن خلدون (٣/ ٢٨٤).

٢ - في توطيد الأمن الداخلي

(أ) في سنة مئة الهجريَّة (٧١٨م) كتب عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عَدِيّ بن أرْطَاة والي (البصرة) لعمر[١]، يأمره بإنفاذ يزيد بن المهلّب بن أبي صُفْرَة إلى (دمشق) موثقاً. وكان عمر بن عبد العزيز قد كتب إلى يزيد أن يستخلف على عمله ويُقْبِلَ إليه، فاستخلف ابنه مَخْلَداً وقدم من (خُراسان)[٢] ونزل (واسطاً)[٣]، ثم ركب السُّفن يريد (البصرة). فبعث عَدِيّ بن أرْطَاة إليه موسى بن الوجِيْه الحِمْيَرِيّ، فلحقه في نهر (مَعْقِل)[٤] عند الجسر، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز في (دمشق).

ودعا عمر بيزيد، فسأله عن مصير الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك، فقال: كنتُ من سليمان بالمكان الذي رأيتَ، وإنما كتبتُ إلى سليمان، لأسمع الناسَ به، وقد علمت أن سليمان لم

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٢٥٦).

(٢) خراسان: بلاد واسعة تتاخم العراق من الغرب، وأفغانستان والهند من الشرق، وتقع (كرمان) و(سجستان) إلى جنوبها، وتمتد من الشمال إلى تخوم إيران. من أمهات مدنها: نيسابور وهراة ومرو وبلخ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١٤٥ - ١٦٠) ومعجم البلدان (٣/ ٤٠٧).

(٣) واسط: مدينة كبيرة بناها الحجّاج بن يوسف الثقفي، وسميت: واسطاً، لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٧٨ - ٣٨٧) وقد أطلق اسم: واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث، وهي محافظة: الكوت (سابقاً) التي تقع على نهر دجلة.

(٤) نهر معقل: منسوب إلى معقل بن يسار المُزَنِيّ رضي الله عنه، صحب النبي ﷺ، وهو نهر معروف بالبصرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٤٥ - ٣٤٦) وفيه: أن عمر بن الخطاب أمر أبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن يحفر نهراً بالبصرة، وأن يجريه على يد معقل بن يسار، فنسب النهر إلى معقل. ولا يزال النهر موجوداً حتى اليوم، وعليه ضاحية (المعقل) التي هي من ضواحي البصرة حالياً، تقع شمالي البصرة وبالقرب منها، وهي معروفة جداً في الوقت الحاضر، يقصدها السّائحون خاصة في أيام الشتاء، وفيها مناظر خلابة جميلة.

يكن ليأخذ به! فقال عمر: لا أجد في أمرك إلاّ حبسك، فاتّق اللّه وأدّ ما قبلك، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها.

وحبس عمر بن عبد العزيز ابنَ المهلّب بحصن (حَلَب)، وبعث إلى الجرّاح بن عبد اللّه الحَكَمِيّ فسرّحه إلى (خراسان) أميراً عليها، فبقي يزيد بن المهلّب في محبسه حتى بلغه مرض عمر بن عبد العزيز[1].

ولما اشتد مرض عمر بن عبد العزيز ﵁، خاف يزيد بن المهلّب موت عمر وتولّى يزيد بن عبد الملك الخلافة من بعده، وكان بين اليزيدين: ابن عبد الملك وابن المهلب عداوة شخصية قبل أن يتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك، وقد توعّد كل منهما صاحبه[2]؛ لذلك أرسل يزيد بن المهلّب إلى مواليه يخبرهم بعزمه على الهرب من سجنه في (حلب)، فأعدّوا له إبلاً وخيلاً. وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه، وبعث إلى قائد الحرس الذين يحفظونه وإلى الحرس مالاً، وقال: إنّ أمير المؤمنين - عمر بن عبد العزيز - قد ثقل وليس برجاء، وإن وليَ يزيد بن عبد الملك يسفك دمي، فأخرجوه، فهرب إلى المكان الذي واعده أصحابه فيه، وامتطى هناك الدّواب، وقصد (البصرة). وكتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول فيه: إني واللّه لو وثقت بحياتك، لم أخرج من محبسك، ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شرّ قتلة. فورد الكتاب وبعمر بن عبد العزيز رمق، فقال: اللّهم إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فألحقه به وهِضّهُ، فقد هاضني، وكان هروب يزيد بن المهلب من سجنه سنة إحدى ومئة الهجريّة[3] (٧١٩م).

---

(١) الطبري (٦/ ٥٥٦ - ٥٥٨) وابن الأثير (٥/ ٤٨ - ٥٠)، وانظر كتاب الوزراء والكتاب (٣١).

(٢) ابن الأثير (٥/ ٧٥).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٦٤ - ٥٦٥) وابن الأثير (٥/ ٥٧ - ٥٨) وابن خلدون (٣/ ١٦٦).

وكتب يزيد بن عبد الملك بعد توليه الخلافة إلى عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن يزيد بن الخطّاب عامله على (الكوفة)، وإلى عَدِيّ بن أرطاة عامله على (البصرة)، يأمرهما بالتحرّز من يزيد بن المهلب ويعرفهما هربه، وأمر عَدِياً أن يأخذ مَنْ بـ(البصرة) من آل المهلّب ويحبسهم، فأخذهم عَدِيّ وحبسهم.

وأقبل يزيد بن المهلب حتى ارتفع إلى (القُطْقُطَانة)[1]، وبعث عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطّاب جنداً إليهم عليهم هُشَام بن مُساحق العامِريّ القرشيّ ـ عامر بني لُؤَيّ ـ، فساروا حتى نزلوا (العُذَيْب)[2]. ومر يزيد بن المهلّب قَريباً منَ جند عبد الحميد، فلم يقدموا عليه.

ومضى يزيد بن المهلّب نحو (البصرة) وقد جمع عَدِيّ بن أرطَاة أهل (البصرة) وخندق عليها، وبعث على خيل (البصرة) المُغِيْرَة بن عبد اللّه بن أبي عَقِيل الثَقَفِيّ.

وبعث عَدِيّ بن أبي أرْطَاة على كل خمس من أخماس (البصرة) رجلاً: خُمس الأزْد، وخُمس تَمِيم، وخمس بَكْر بن وائل، وخمس عبد القَيْس، وخمس العالية من قُريش وكِنَانة والأزْد وبَجِيْلَة وخَثْعَم وقَيْس عَيْلان كلها ومُزَينة، فأقبل يزيد بن المهلّب لا يمرّ بخيلٍ من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم، إلاّ تنحو له عن طريقه، حتى نزل داره في (البصرة).

واختلف الناس إلى يزيد بن المهلّب، فأرسل إلى عَدِيّ بن أرطاة:

---

(١) القطقطانة: موضع بالقرب من الكوفة من جهة البرية بالطف، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٢٥).

(٢) العذيب: ماء بين القادسيّة والمُغِيْثة، بينه وبين القادسية أربعة أميال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٣١).
والمغيثة: منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٠٦).

أن ابعث إليّ إخوتي، وإني أصالحك على (البصرة) وأخليك وإياها حتى آخذ لنفسي من يزيد ما أُحبّ.

وسار حُميد بن عبد الملك بن المهلب إلى يزيد بن عبد الملك، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالداً القَسْرِيّ، وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ بأمان يزيد بن المهلّب وأهله.

وأخذ يزيد بن المهلّب يُعطي مَن أتاه قطع الذهب والفضّة، فمال الناس إليه، وكان عَدِيّ بن أرْطاة لا يُعطي إلا دِرْهَمَين لكل رجل من أصحابه ويقول: لا يحلّ لي أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلاّ بأمر يزيد بن عبد الملك، ولكن تَبَلّغوا بهذه حتى يأتي الأمر بذلك من يزيد، وفي ذلك يقول الفرزدق:

أظُنّ رجال الدرهمين تقودهم ... إلى الموت آجال لهم ومَصَارعُ
وأَكْيَسُهم مَن قَرَّ في قعر بيته ... أيقَنَ أن الموت لا بدّ واقعُ

وخرجت بنو عمرو بن تَمِيم من أصحاب عَدِيّ بن أرطاة أمير (البصرة)، فنزلوا (المِرْبد)[1]، فبعث إليهم يزيد بن المهلّب مولى له يقال له: دارِس، فحمل عليهم، فهزمهم.

وخرج يزيد بن المهلّب حين اجتمع الناس له، حتى نزل جَبّانة بني يَشْكُر، وهي النصف فيما بينه وبين قصر الإمارة، فلقيه قَيْس وتَمِيم وأهل الشّام. واقتتلوا هنيهة، ثم حمل عليهم أصحاب ابن المهلب، فانهزموا.

وتبعهم ابن المهلب حتى دنا من قصر الإمارة في (البصرة)، فخرج عليهم عَدِي بن أرطاة بنفسه، ولكنّ أصحابه انهزموا بعد قتال تكبّدوا فيه خسائر كبيرة.

---

(١) المربد: مربد البصرة من أشهر محالها، وكان يكون فيه سوق الإبل قديماً، ثم صار محلة كبيرة، سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١١ ـ ١٣).

وجاء يزيد بن المهلّب حتى نزل داراً إلى جنب القصر، وأتى بالسّلالم وفتح القصر. وأُتي بِعَدِيّ بن أرطاة فحبسه، وقال له: لولا حبسك إخوتي لمّا حبستك.

ولما ظهر يزيد بن المهلّب، هرب رؤوس أهل (البصرة) من تميم وقيس وغيرهما، فلحقوا بالكوفة، ولحق بعضهم بالشّام.

وخرج المُغِيرة بن زياد العَتَكِيّ نحو الشّام، فلقي خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ ومعهما حُمَيد بن عبد الملك بن المهلب، قد أقبلوا بأمان يزيد بن المهلّب وكل شيء أراده، فسألاه عن الخبر، فخلا بهما سراً من حُمَيْد، وأخبرهما بأنّ ابن المهلب قد ظهر على (البصرة)، وقتل القتلى، وحبس عديّاً، ونصحهما بالرجوع إلى الشّام، فأخذا بنصيحته ورجعا، وأخذا حُميداً معهما، فقال لهما حُميد: أنشدكما اللّه أن تخالفا ما بُعثتُما به، فإنّ ابن المهلب قابلٍ منكما، وإنّ هذا وأهل بيته لم يزالوا لنا أعداء، فلا تسمعا مقالته، فلم يقبلا قوله ورجعا به!!!

فأخذ عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطّاب أمير الكوفة خالد بن يزيد بن المهلب وحَمَال بن زَحر، ولم يكونا في شيء من الأمر، فأوثقهما وسيّرهما إلى الشّام، فحبسهما يزيد بن عبد الملك، ولم يفارقا السجن حتى هلكا فيه.

وأرسل يزيد بن عبد الملك شيئاً من الأموال إلى (الكوفة) لتفرّق على أهلها، ومنّاهم الزيادة في العطاء[1].

وأصبح الموقف في (العراق) خطيراً للغاية، لا يمكن معالجته بالقوات المحلية المتيسّرة فيه والموالية للدولة الأمويّة، فلا بد من تدخل

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٧٨ ـ ٥٨٥) وابن الأثير (٥/ ٧١ ـ ٧٣) وابن خلدون (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٨)، وانظر خلاصة الذهب المسبوك (٢٦).

الخليفة بقواته المركزية الضاربة التابعة للدولة، لمعالجة هذا الموقف الخطير المتدهور، قبل استفحاله في (العراق) وترسيخ أقدامه وتوسعه إلى أقطار الدَّولة الأخرى.

فماذا فعل يزيد للقضاء على ثورة ابن المهلب؟

(ب) جهّز يزيد بن عبد الملك أخاه مَسْلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في سبعين ألف مقاتل من أهل الشَّام و(جزيرة ابن عمر)، وقيل: كانوا ثمانين ألفاً، فساروا إلى (العراق)، وقدموا (الكوفة) ونزلوا بـ(النُّخَيْلة)[1]، وكان ذلك سنة إحدى ومئة الهجريَّة.

ولما سمع أصحاب ابن المهلب بوصول مَسْلَمَة والعباس وأهل الشَّام و(الجزيرة)، راعهم ذلك، فبلغ ابن المهلب، فخطب الناس يشجِّعهم ويهوِّن من أمر أهل الشَّام، وكان الحسن البصري ﷺ يسمع، فرفع صوته قائلاً: واللّه لقد رأيناك والياً ومُوَلّى عليك، فما ينبغي لك ذلك، فوثب أصحاب الحسن وأخذوا بفمه وأجلسوه. وكان النّضر بن أنس بن مالك يثبِّط أهل (البصرة) كما يثبطهم الحسن البصريّ، منعاً لاقتتال المسلمين فيما بينهم وقطعاً لدابر الفتن.

وسار يزيد بن المهلب من (البصرة)، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلب، فأتى مدينة (واسط) وأقام بها أياماً، فخرجت سنة إحدى ومئة الهجريَّة[2].

وكان الموقف العسكري خلال هذه السنة يتلخّص: سيطرة ابن المهلب على (البصرة) سيطرة كاملة وتقدّمه بقواته إلى (النُّخَيْلة) بالقرب من

---

(١) النخيلة: موضع بالقرب من الكوفة على سَمْت الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٧٥ ـ ٥٨٩) وابن الأثير (٥/ ٧٣ ـ ٧٧) وابن خلدون (٣/ ١٦٣ ـ ١٦٩).

(الكوفة) من جهة، وبقاء (الكوفة) تحت سيطرة بني أميّة. واندفع العباس على رأس أربعة آلاف فارس بسرعة فائقة إلى (الحيرة)[1] يبادر إليها يزيد بن المهلب، فسيطر العباس على منطقة (الحيرة) وجعلها قاعدة متقدّمة للعمليّات العسكريَّة بالنسبة للأمويين، بينما سيطر مَسْلَمَة بن عبد الملك على (الجزيرة) وشاطىء الفرات، ثم انطلق في طريقه إلى العراق باتجاه (الحيرة) نحو قوات يزيد بن المهلب[2].

لقد كان لمبادرة العباس بالسيطرة على منقطة (الحيرة) وجعلها قاعدة متقدّمة للعمليّات العسكريَّة المقبلة أثر حاسم في حماية قوات مَسْلَمَة المتقدمة نحو العراق، ممَّا حرم ابن المهلب من محاولة عرقلة تقدّم تلك القوات نحو هدفها، وعجّل بتقدمها دون إزعاج قوات ابن المهلب لها، كما أمن لقوات الأمويين الزاحفة قاعدة متقدمة رصينة، ترتكز عليها في عمليّاتها العسكريَّة بسهولة ويسر وأمان وحماية.

ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجريَّة (٧٢٠م)، فسار يزيد بن المهلب من (واسط)، واستخلف عليها ابنه معاوية، وجعل معه بيت المال والأسرى، وسار إلى فم (النِّيل)[3] حتى نزل (العَقْر)[4]. وقدّم أخاه

---

(١) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يقال له: (النَّجف)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣٨٦). والنجف بلد معروف في الوقت الحاضر، بالقرب من مدينة الكوفة التي تقع على الفرات بينما يقع النجف في الصحراء.

(٢) الطبري (٦/ ٥٨٥).

(٣) النيل: بليدة في سواد الفرات قرب (حلّة) بني مزيد، يخترقها خليج كبير يتخلّج من الفرات الكبير، انظر معجم البلدان (٨/ ٣٦٠). والنيل نهر وبلد معروف بأرض (بابل) العراق، مخرجه من الفرات وعليه قرى كثيرة، حفره الحجاج بن يوسف الثقفي، وسمّاه بنيل مصر، والنيل نهراً نسب إلى مدينته المعروفة، انظر التفاصيل في: المشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٤٣٠). ومدينة (الحلّة) مدينة معروفة تقع بالقرب من أطلال (بابل) القديمة.

(٤) العقر: عقر بابل، قرب (كربلاء) من الكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٥) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣١٢).

عبد الملك بن المهلب نحو (الكوفة)، فاستقبله العباس بن الوليد بن عبد الملك بـ(سُوْرا)[1]، فاقتتلوا قتالاً شديداً: كانت الجولة الأولى من المعركة لصالح ابن المهلب، ولكن ثبات العباس ورجاله غيّر نتيجة المعركة لصالح الأمويين، فكانت الجولة الثَّانية لصالحهم، وانكشف جيش ابن المهلب، وانهزموا عائدين إلى يزيد بن المهلب.

وبذلك ارتفعت معنويات الأمويين، وتزعزعت معنويات آل المهلّب.

وكان مَسْلَمَة وقواته في مرحلة مسير الاقتراب، فسار على طريق شاطىء (الفرات) إلى (الأنبار)[2]، فعقد عليها الجسر وعبر، ثم سار حتى نزل على ابن المهلب.

وأتى إلى يزيد بن المهلب ناس من أهل (الكوفة) كثير ومن الثغور، فقسّمهم أقساماً، وجعل على كل قسم منهم قائداً، وكان هذا التقسيم بالنسبة للقبائل العربيَّة كما كان متّبعاً في تلك الأيام: الأَزْد، ومُذْحِج، وأسَد، وكِنْدَة، وربيعة، وتميم، وهَمْدان، وجعل على كل قسم من هذه الأقسام رئيس القبيلة، وجعل أمْر كل تلك الأقسام إلى أخيه المُفَضَّل بن المهلب.

وأحصي ديوان يزيد بن المهلب، فكان تَعْدَاد رجاله مئة ألف وعشرين ألفاً، فقال يزيد: لَوَدِدْتُ أنّ لي بهم ممَّن بـ(خُراسان) من قومي، ثم خطب أصحابه وحرّضهم على القتال.

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطّاب، قد عسكر بـ(النُّخَيْلة)، وشقّ المياه، وجعل على المتخلّفين من أهل (الكوفة) الأرصاد، لئلا يخرجوا إلى يزيد بن المهلّب، وبعث بَعْثاً إلى مَسْلَمَة بن

---

(١) سورا: موضع بأرض (بابل)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٦٨).
(٢) الأنبار: مدينة على الفرات في غرب بغداد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٤٠ - ٣٤٢)، وهي مدينة (الفلّوجة) كما تسمى اليوم.

عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك مع سَبْرَة بن عبد الرحمٰن بن مِخْنف، ولكنّ مَسْلَمَة عزل عبد الحميد عن (الكوفة)، واستعمل عليها محمد بن عمرو بن الوليد بن أبي المُعَيْط، وهو ذو الشّامة[١].

ومن الواضح أنّ عبد الحميد، لم يكن مسيطراً على (الكوفة)، لذلك تسرّب كثير من الكوفيين إلى معسكر يزيد بن المهلب. كما لم يكن ذا موهبة قيادية لا بد أن يتّسم بها والٍ كبير كوالي (الكوفة) أهم المدن العراقية حينذاك، في مثل الاضطرابات الخطيرة التي تجتاح العراق وتهدِّد مصير الدَّولة الأموية بأوخم العواقب. وكان لا يتحلّى بمزيّة: المبادرة، فاتّخذ موقفاً دفاعياً مُسْتكناً عند وصول يزيد بن المهلب إلى العراق وسيطرته على (البصرة)، فكان عليه أن يبادر إلى مصاولته قبل أن يستفحل أمره ويفرض سيطرته على (البصرة)، ويصبح خطراً داهماً على الدَّولة. وكان متردداً، فضيّع الفرصة السّانحة للقضاء على ابن المهلب قبل أن يستشري خطره، لذلك عزله مَسْلَمَة بن عبد الملك عن (الكوفة)، وولّى قائداً متميزاً عليها، ليضمن أهم قاعدة أمامية من قواعده في العراق.

(ج) وجمع يزيد بن المهلب رؤوس أصحابه، فقال: قد رأيت أن أجمع اثني عشر ألفاً، فابعثهم مع أخي محمد بن المهلب حتي يبيّتوا مَسْلَمَة، ويحملوا معهم البراذع، والأكف والزُّبُل لدفن خندقهم، فيقاتلهم على خندقهم بقيّة ليلته، وأُمدّه بالرجال حتى أُصبح، فإذا أصبحت نهضت إليهم في الناس فأناجزهم، فإني أرجو عند ذلك أن ينصرنا اللّه عليهم، فأجابه أحد أصحابه[٢] قائلاً: إنّا قد دعوناهم إلى كتاب اللّه وسُنّة نبيِّه ﷺ، وقد زعموا أنهم قبلوا ذلك منّا، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى

---

(١) الطبري (٦/ ٥٩٠ ـ ٥٩٢) وابن الأثير (٥/ ٧٩ ـ ٨٠) وابن خلدون (٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩) والعيون والحدائق (٦٨ ـ ٦٩).

(٢) هو رؤبة رأس الطائفة المرجئة، ومعه أصحاب له.

يردّوا ما زعموا أنهم قابلوه منّا، فثنّى على قوله آخر[1] قائلاً: صدق! هكذا ينبغي!، فقال يزيد بن المهلّب: ويحكم!.... إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم، فلا يسبقوكم إليه. إني لقيت بني مروان، فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد غوراً[2] من هذه الجرادة الصفراء، يعني مَسْلَمَة بن عبد الملك الذي كان يلقّب بالجرادة الصفراء، فقالوا: لا نفعل ذلك حتى يردّوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منّا.

وكان مروان بن المهلب بالبصرة يحثّ الناس على حرب أهل الشّام، والحسن البصري يثبطهم، فهدّد مروانُ الحسنَ بالعقوبة الصارمة وتوعّده، فقال الحسن: واللّه ما أكره أن يكرمني اللّه بهوادة[3]. فقال ناس من أصحاب الحسن: لو أرادك، ثم شِئتَ لمنعناكَ، فقال لهم: فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه!! آمركم ألاّ يقتل بعضكم بعضاً مع غيري، وآمركم أن يقتل بعضكم بعضاً دُوني!.

وكان اجتماع يزيد بن المهلب ومَسْلَمَة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك ثمانية أيام، فلمّا كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر سنة اثنتين ومئة الهجريَّة بعث مَسْلَمَة مَن يحرق الجسر، وكان طريق انسحابهم الوحيد في حالة اندحاره، ليظهر قراره الحاسم لرجاله وأعدائه على حد سواء، بأنه قرّر القتال لآخر رجل من رجاله وآخر رمق، فإما النصر أو الموت في ساحة الاقتتال.

وخرج مَسْلَمَة فعبّأ جنود أهل الشّام: جعل على ميمنته جَبَلَة بن مُخْرمة الكِنْدِي، وعلى ميسرته الهُذَيْل بن زُفَر بن الحارث الكِلابيّ.

---

(١) اسمه: السَّمَيْدَع الكندي من بني مالك بن ربيعة من ساكني (عُمان)، وكان يرى رأي أهل الخوارج، فبعث إليه يزيد بن المهلب ودعا إلى نفسه، فأجابه: انظر الطبري (٦/ ٥٨٣).

(٢) الطبري (٦/ ٥٩٣)، وفي ابن الأثير (٥/ ٨٠): غدراً.

(٣) يريد: بعقوبته وتوعده.

وجعل العباس على ميمنته سيف بن هانىء الهمدانيّ، وعلى ميسرته سُوَيْد بن القعقاع التميميّ.

وكان مَسْلَمَة على الناس قائداً عاماً.

وخرج يزيد بن المهلّب فعبّأ رجاله أيضاً: جعل على ميمنته حبيب بن المهلّب، وعلى ميسرته المُفَضّل بن المهلّب.

وقرب مَسْلَمَة بجموعه من جموع يزيد بن المهلّب، فالتحم الجمعان.

ووقّتَ مَسْلَمَة بن عبد الملك موعد إحراق الجسر ببداية نشوب الاقتتال وقبل اشتداده، فلم يكد التّماس الأول يبدأ بالمبارزة، إلاّ وألهب النار في الجسر الموكلُ بإحراقه، فسطع دخانه، وقد أقبل الناس ونشبت الحرب ولم يشتدّ الاقتتال؛ فلمّا رأى الناس الدخان، وقيل لهم: أُحرق الجسر، فانهزم أصحاب يزيد بن المهلّب، فقيل له: قد انهزم الناس! فقال: ممَّ انهزموا!؟ هل كان قتال يُنْهزَم من مِثله؟!، فقيل له: أُحرق الجسر، فلم يثبت أحدٌ فقال: قَبَّحهم اللّه! بَقٌ دُخِّن عليه فطار!. ثم خرج ابن المهلب مع أصحابه، فقال: اضربوا وجوه المنهزمين، ففعلوا ذلك بهم حتى كثروا عليه، واستقبله أمثال الجبال، فقال: دعوهم، فواللّه إنّي لأرجو أن لا يجمعني وإياهم مكانٌ أبداً. . . . دعوهم يرحمهم اللّه! غَنَمٌ عدا في نواحيها الذِئب.

ونزل يزيد بن المهلب يقاتل، فجاءه مَن ينعي إليه أخاه حبيباً الذي قتل في المعركة، فقال يزيد: لا خير في العيش بعده، قد كنت أبغض الحياة بعد الهزيمة، وقد ازددت لها بغضاً. . . أمضوا قُدُماً، فعلموا أنه قد استقتل، لذلك تسلّل عنه مَن يكره القتال، وبقي معه جماعة حسنة، وهو يتقدّم، فكلما مرّ بخيل كشفها، أو جماعة من أهل الشّام عدلوا عنه.

وأقبل يزيد نحو مَسْلَمَة لا يريد غيره، فلمّا دنا منه أدنى مَسْلَمَة فرسه

ليركب، فعطفت على يزيد خيول أهل الشَّام وعلى أصحابه، فقتل يزيد ومحمد بن المهلّب.

وكان المُفضّل بن المهلب يقاتل أهل الشَّام، وما يدري بقتل يزيد ولا بهزيمة الناس، كان كلما حمل على جند الشَّام انهزموا عنه، ولكن أصحابه تخلوا عنه وهو يقاتل، فقيل له: ما تصنع هاهنا، وقد قُتل يزيد وحبيب ومحمد وانهزم الناس منذ أمد طويل؟!

ومضى المفضّل إلى (واسط)، ولم يكن في العرب أضرب بسيف ولا أحسن تعبئة للحرب ولا أغشى للناس منه.

وقيل: بل أتاه أخوه عبد الملك، وكره أن يُخْبره بقتل يزيد فيستقتل، فقال له: إنّ الأمير قد انحدر إلى (واسط)، فانحدر المفضّل بمن بقي معه من ولد المهلّب إلى (واسط)، فلمّا علم بقتل يزيد حلف أنه لا يكلّم عبد الملك أبداً، فما كلّمه حتى قتل بـ(قَنْدَابِيل)[1]. وكانت عينه قد أصيبت في الحرب، فقال: فضحني عبد الملك! ما عذري إذا رآني الناس فقالوا: شيخ أعور مهزوم! ألاّ صَدَقني فَقُتِلْتُ؟، ثم قال:

ولا خير في طعن الصناديد بالقنا ولا في لقاء الحرب بعد يزيد

فلما فارق المفضّل المعركة، جاء عسكر الشّام إلى عسكر يزيد، وأسر مَسْلَمَة والعباس نحو ثلاثمائة أسير، فسرّحهم مَسْلَمَة إلى (الكوفة)، فحبسوا بها. وجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو ابن الوليد بن عُقْبَة والي (الكوفة) يأمره بضرب أعناق الأسرى، فبدأ محمد بالتنفيذ وقتل قسماً من الأسرى، فجاءه رسول بكتاب من عند مَسْلَمَة بن عبد الملك يأمره بالتوقف عن قتل الأسرى، ثم أقبل مَسْلَمَة حتى نزل (الحِيْرَة).

---

(١) قندابيل: مدينة بالسند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٧).

ولما أتت هزيمة يزيد بن المهلب إلى (واسط)، غادرها آل المهلب إلى (البصرة)، ومن هناك حملوا عيالاتهم وأموالهم في السُّفن البحرية، ثم لجّوا في البحر، فلمّا كانوا بجبال (كَرْمان)[1]، خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدّواب، وكان المقدّم عليهم المفضّل بن المهلب.

وكان بـ(كَرْمان) فلول كثيرة اجتمعوا إلى المفضّل، فبعث مَسْلَمَة قوات من أصحابه، فقاتلوا فلول المفضّل وانتصروا عليهم وكبّدوهم خسائر فادحة بالأموال والأرواح.

ومضى آل المهلب ومَن بقي معهم إلى (قَنْدابيل)، فطاردهم أصحاب مَسْلَمَة بن عبد الملك إلى هناك، فتفرّق الناس عن آل المهلب، ولكن آل المهلب تقدموا بأسيافهم فقاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم، منهم: المفضّل، وعبد الملك، وزياد ومروان بنو المهلب، وثلاثة من أبنائهم، فبعث مَسْلَمَة برؤوسهم إلى يزيد بن عبد الملك.

وحين بلغ يزيد بن عبد الملك مقتل يزيد بن المهلب وكثير من إخوته وأبنائهم من آل المهلب، سرّه هذا النصر سروراً عظيماً[2].

ولما فرغ مَسْلَمَة بن عبد الملك من حرب يزيد بن المهلب، جمع له أخوه يزيد بن عبد الملك ولاية (الكوفة) و(البصرة) و(خراسان)، وذلك سنة اثنتين ومئة الهجريّة[3].

---

(١) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة، ذات قرى وبلاد واسعة في إيران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٤١) والمسالك والممالك للإصطخري (٩٧ ـ ١٠٠).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٩٠ ـ ٦٠٤) وابن الأثير (٥/ ٧٧ ـ ٨٩) وابن خلدون (٣/ ١٦٦ ـ ١٧٢)، وانظر مروج الذهب (٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠ ـ ١٦) والمعارف (٤٠٠) والعيون والحدائق (٦٨ ـ ٧٠) وجمهرة أنساب العرب (٨٩)، وفي معجم الشعراء (٢٦٤) أن العباس كان على مقدمة مسلمة يوم العقر.

(٣) الطبري (٦/ ٦٠٤) وابن الأثير (٥/ ٨٩)، وانظر المعارف (٥٧١) وفيه: أنّ مسلمة كان من أول مَن جمع له المصران: الكوفة والبصرة، وانظر التنبيه والإشراف (٢٧٧ ـ ٢٧٨).

أما العباس فقد عاد من العراق أدراجه إلى (حَلَب)، فقد ورد أنّ مَسْلَمَة بن عبد الملك بعث برؤوس قتلى آل المهلّب إلى يزيد بن عبد الملك في الشَّام، فسيّرهم يزيد إلى العباس في (حَلَب)[1]، ويبدو أنه كان على (حلب) قبل الاقتتال مع يزيد بن المهلب، فعاد إليها بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ولكن المؤرخين لم ينصُوا على ذلك فيما سَجّلوه في كتبهم التاريخية المتيسِّرة، بل ذكروا أنّ يزيد بن عبد الملك جهّز أخاه مَسْلَمَة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في سبعين ألف مقاتل من أهل (الشَّام) و(الجزيرة) كما ذكرنا، ومن المعلوم أنّ (حلب) من (الجزيرة) حسب التقسيمات الإدارية والجغرافية القديمة، وهذا يدل على أنّ مَسْلَمَة كان على أهل (الشَّام) والعباس كان على أهل (الجزيرة) في الجيش الزاحف إلى العراق للقضاء على ثورة يزيد بن المهلب، ويفسِّر لنا لماذا كانت لمَسْلَمَة ميمنته وميسرته وكانت للعباس ميمنته وميسرته أيضاً، في معركة (العَقْر) التي قتل فيها يزيد بن المهلب، بالرغم من أن مَسْلَمَة كان على الجيش كله قائداً عاماً كما أسلفنا.

(د) لقد انتصر مَسْلَمَة والعباس في معركة (العَقْر) الحاسمة، فقضينا قضاءً مبرماً على ثورة يزيد بن المهلب، وبذلك خدما الدَّولة الأموية خدمة عظيمة، لأن ابن المهلب خلع يزيد بن عبد الملك وقاد أخطر ثورة هدّدت كيان الأمويين.

ومن الإنصاف أن نذكر أنّ يزيد بن المهلب وكثيراً من إخوته وأبنائه وأبنائهم، كانوا قادة أفذاذاً وإداريين حازمين وأبطالاً مقاتلين، فخسرت الدَّولة الأموية بالقضاء عليهم خيرة قادتها وأقدر ولاتها وأشجع رجالها.

وقد ترك يزيد بن المهلّب وآل بيته أثراً عظيماً في الناس أحياء وأمواتاً.

---

(١) الطبري (٦/ ٦٠٢) وابن الأثير (٥/ ٨٦) وابن خلدون (٣/ ١٧٢).

وبالرغم من نقمة يزيد بن عبد الملك وأهله على آل المهلب وحقدهم عليهم، إلاّ أنهم وجدوا من يصونهم بعد قتلهم، حتى من بني أميه أنفسهم، فقد منع مَسْلَمَة قتل أسراهم خلافاً لأمر يزيد بن عبد الملك[1]، كما وجدوا حتى من بني أميّة من يبيعهم لأنه أقسم أن يفعل ذلك، ولكنه يبيعهم لمن يطلق سراحهم ثم لا يتقاضى أثمانهم[2]، لينفِّذ قسمَهُ (شكلاً) لا (واقعاً).

كما وجدوا من يستشفع لهم بعد نكبتهم، فقد قُدِمَ على يزيد بن عبد الملك بالأسرى من بني المهلب وعنده كُثيِّر عَزّة، فأنشد:

حليمٌ إذا ما نال عاقب مُجْمِلا ... أشدّ العقاب أو عفا لم يثرِّبِ[3]

فعفواً أمير المؤمنين وحِسبةً[4] ... فما تَأْتِهِ من صالح لك يُكْتَبِ

أساءوا فإن تصفحْ فإنك قادر ... وأفضلُ حلمٍ حِسبَةً حلم مُغْضَبِ[5]

وهذا موقف جريء جداً بالنسبة للشاعر، إذ ليس من السّهل أن يستشفع المرء لأسرى أخذوا في ساحة الوغى وهم يقاتلون، ومن أسرة خلعت الخليفة وهدّدت دولته بالزوال.

بل وجدوا مَن يرثيهم أحرّ رثاء وأصدقه، بعد زوال ملكهم وزوالهم، فقد رثى ثابت بن قُطْنَة[6] حين بلغه مقتل يزيد بن المهلب، فقال:

ألاّ يا هند طال عليَّ ليلي ... وعاد قصيره ليلاً تماماً

---

(١) الطبري (٦/ ٥٩٩) وابن الأثير (٥/ ٨٤).

(٢) الطبري (٦/ ٦٥٢).

(٣) أثرب: أفسد وخلّط. وثرّب فلاناً، وعليه: لامه وعيّره بذنبه. وفي التنزيل العزيز: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾. ويقال: ثرّب عليهم، وثرّب عليهم فعلهم: قبّحه.

(٤) فعله حسبة: مدّخراً أجره على الله.

(٥) ابن الأثير (٥/ ٨٧).

(٦) هو ثابت بن كعب بن جابر العتكي الأزدي، أصيبت عينه بخراسان، فجعل عليها قطنة، فعرف بذلك، انظر التفاصيل في كتاب: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/ ٥٢٦).

كـأنّـي حـيـن حَـلّـقَـتِ الـثُـرَيّـا سُقِيْتُ لُعـابَ أسـودَ أو سَـمَـامـا
أَمَـرّ عـلَـيَّ حُـلـوَ الـعـيـش يـومٌ مـن الأيـام شَـيّـبَـنِـي غُـلامـا
مـصـابُ بـنـي أبيـكِ وغِبْتُ عنهـم فـلـم أشـهـدهـمُ ومـضـوا كـرامـا
فــلا والــلّــه لا أنـــســى يـزيــداً ولا الـقـتْـلـى الـتـي قُـتِـلـت حـرامـا

مع قصيدة طويلة[1].

وقال أيضاً يرثي يزيد بن المهلّب:

أبَى طولُ هـذا الـلـيـل أن يـتـصَـرّمـا وهـاج لـكَ الـهـمُّ الـفـؤاد الـمـتـيّـمـا
أرقـتَ ولـم تـأرق مـعـي أم خـالـدٍ وقـد أرقـت عـيـنـايَ حَـوْلاً مُـجـرَّمـا
عـلـى هـالـكٍ هـدَّ الـعـشـيـرةَ فَـقْـدَهَ كـتـائـبُـه واسـتـوردَ الـمـوت مُـعْـلـمـا
أصيبَ ولـم أشـهَـد ولـو كـنـتُ شـاهـداً تَسَلَّيْتُ إن لـم يَجْمَع الحيُّ مأتما
وفـي غِـيَـرِم الأيام يا هـنـدُ فاعـلـمي لـطـالـب وتْـرٍ نـظـرةٌ إن تـلـوّمـا
فَـعَـلِـيّ إن مـالـت بـي الـريـحُ مَـيْـلـةً عـلـى ابـن أبـي ذَبـانِ أن يـتـنـدّمـا
أمَـسْـلَـمُ إن تَـقْـدِرْ عـلـيـك رمـاحـنـا نُـذِقْـمَ بـهـا قـيءَ الأسـاود مُـسْـلـمـا
وإن نـلـق لـلـعـبـاس فـي الـدهـر عـثـرةً نـكـافِـئْـهُ بـالـيـوم الـذي كـان قَـدَّمـا
قصاصاً ولا نَعْدو الذي كان في أتى إلـيـنـا وإن كـان ابـن مـروان أظـلـمـا
سـتَـعـلـمُ إن زلّـت بـك الـنّـعـل زلّـةً وأظـهـر أقـوامٌ حـيـاء مَـجَـمْـجَـمـا
مَـن الـظـالـم الـجـانـي عـلـى أهـل بـيـتـه إذا أُحْـصِـرَت أسـبـاب أمـرٍ وأبْـهَـمـا
وإنّـا لـعـطّـافـون بـالـحـلـم بـعـدمـا نرى الجهلَ من فرطِ اللئيم تكرُّما
وإنـا لـحَـلاّلـون بـالـثّـغـر لا نـرى بـه سـاكـنـاً إلاّ الـخـمـيـسَ الـعَـرَمْـرِمـا
نـرى أنّ لـلـجـيـران حـقـاً وذِمـةً إذا الناس لم يرعَوا لذي الجار مُحْرَما[2]

وليس من المعقول أن يرثي الشاعر بهذه القصيدة يزيداً، وفيها من

---

(١) الطبري (٦/ ٦٠٣).
(٢) ابن الأثير (٥/ ٨٨) مع تصحيح قليل عن الطبري (٦/ ٦٥٣) وفيه تتمة القصيدة.

وعيد وتحدٍ لسلطة مسيطرة قائمة، ويعلنها للناس بالرغم من خطر إعلانها على نفسه وروحه، إلاّ إذا كان ليزيد عليه فضل عظيم يسترخص الشاعر فيها روحه وفاءً واعترافاً بالجميل.

ولهذا الشاعر مرثيات كثيرة في يزيد بن المهلب، ولغيره من الشعراء مرثيات أخرى كثيرة فيه وفي أهل بيته، ومن المستحيل أن يقال هذا الشعر المهموس الصادر عن القلب، القريب من النفس، البعيد عن النفاق والتزلف، إلاّ في رجال يملؤون الأعين قدراً وجلالاً، وفضلاً وكرماً، وبطولة وإقداماً.

أما في حياة آل المهلّب، فقد أكثر الشعراء من مدحهم، ولعلّ في هذين المثلين ما يكفي لإثبات سمة الصدق في المديح.

قال شاعر في يزيد وآل المهلّب:

نزلتُ على آل المهلب شاتياً	غريباً عن الأوطان في زمن المَحْل
فما زال بي إحسانهم وافتقادهم	وبِرُّهُم حتى حسبتهمُ أهلي[1]

وقال الفرزدق في آل المهلّب:

إن المهلبة الكرام تحمّلوا	دفعَ المكاره عن ذوي المكروه
زانوا قديمهم بحسنِ حديثهم	وكريم أخلاق بحسن وجوه[2]

ولا بد من ذكر مثل واحد من أمثلة لبطولة يزيد بن المهلب وشجاعته الخارقة وبطولته الفذّة، فهو مثل يحتذى به حقاً.

عند انكشاف الناس عن يزيد وهروبهم في معركة (العَقْر)، جاءه أبو رؤبة المرجىء فقال: ويأتيك أهل (عُمان) و(البحرين) في السُّفن، وتَضرب خندقا؟. فقال يزيد: قبّح الله رأيك! أَلِي تقول هذا! الموت أيْسَر عليّ من

---

(١) مختصر تاريخ البشر لأبي الفدا (١/٢٠١ ـ ٢٠٢).
(٢) النجوم الزاهرة (١/٢٦٩).

ذلك. فقال أبو رؤبة: فإني أتخوّف عليك لِمَا ترى، أما ترى ما حولك من جبال الحديد!، فقال: أمّا أنا، فما أباليها، جبال حديد كانت أم جبال نار. إذهب عنّا إن كنت لا تريد قتالاً معنا، ثم تمثّل قول الأعشى:

أبالموت خَشَّتني عُبادٌ وإنما رأيت مَنَايا الناس يشفي ذليلُها
فما مِيتَةٌ إِنْ مُتُّها غير عاجزٍ بعجزٍ إذا ما غالتِ النفسَ غولُها[1]

ثم استقتل حتى قُتل مُقبلاً غير مدبر.

حتى غلمان آل المهلب كانوا أبطالاً لا يهابون الموت، فقد قدّم يزيد بن المهلب ثلاثة عشر رجلاً من آل المهلب للقتل، فقتلوا وبقي منهم غلام صغير، فقال الغلام المهلّبي؛ اقتلوني، فما أنا بصغير، فقال يزيد: انظروا أنبت!. فقال: أنا أعلم بنفسي، فقد احتلمت ووطئت النساء، فأمر به يزيد، فقتل[2]!

كما انتهز هذه الفرصة السّانحة دعاة العباسيين، فاستشرى خطرهم وأصبحت دعوتهم مكشوفة في (خراسان).

لذلك كان انتصار مَسْلَمَة والعباس على آل المهلب في هذا الاقتتال انتصاراً تعبويّاً، ولكنه كان هزيمة سَوْقِيّة.

ولا قيمة للانتصار التعبوي بالنسبة للهزيمة السّوْقِيّة كما هو معروف.

(هـ) فما هي أسباب انتصار مَسْلَمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد ابن عبد الملك على يزيد بن المهلّب وآل المهلب؟

لم تكن ثورة ابن المهلب ثورة (مبدئية)، بل ثورة (شخصية)، أي هذه الثورة لم تكن من أجل مبدأ أو مبادىء، ولو أنها تظاهرت بتبنّي الإسلام الصحيح والدِّفاع عن تعاليمه ومقاومة الانحراف عن مبادئه،

---

(١) الطبري (٦/٥٩٦ ـ ٥٩٧).
(٢) ابن الأثير (٥/٨٧).

ولكنها لم تستطيع أن تقنع أحداً من الناس بصدق ادعائها، لأنّ القائمين عليها معروفون جداً، وهم لا يختلفون عن بني أميّة من هذه الناحية بشيء.

لقد كان السبب المباشر لثورة يزيد بن المهلب خوفه من القتل، أما السبب غير المباشر فهو طموحه الشخصي في الحكم لينتفع ورجاله بما تغدقه السلطة من نفوذ وسمعة وثراء على الحاكمين.

فقد مكث في سجن (حلب) من سنة مئة الهجريَّة[1] (٧١٨م) حتى مرض عمر بن عبد العزيز ﷺ، مرضه الذي مات به سنة إحدى ومئة الهجريَّة[2] (٧١٩م)، أي أنه بقي في السجن نحو سنتين، لم يفكِّر في الهرب ـ وكان بإمكانه أن يفعل ـ إلاّ أنه علم أنه لا أمل في لقاء عمر بن عبد العزيز على قيد الحياة، وأنّ الخليفة من بعده يزيد بن عبد الملك سينتقم منه بإزهاق روحه والقضاء على حياته.

ولم يكتم يزيد بن المهلب سرّ هربه، بل كشف عن هذا السِّر بصراحة في رسالته التي بعث بها إلى عمر بن عبد العزيز وهو على فراش الموت، فقال في رسالته: إني واللّه لو وثقتُ بحياتك لم أخرج من محبسك، ولكنّي خفت أن يلي يزيد ـ يريد يزيد بن عبد الملك ـ فيقتلني شرَّ قتلة[3].

وسبب العداوة بين يزيد بن المهلب ويزيد بن عبد الملك، أنّ ابن المهلب عذّب أصهار ابن عبد الملك من آل أبي عَقِيل، وكانت أم الحجّاج بنت محمد بن يوسف وهي ابنة أخي الحجاج بن يوسف الثقفي ـ

---

(١) الطبري (٦/٥٥٦) وابن الأثير (٥/٤٨).
(٢) الطبري (٦/ ٥٦٥) وابن الأثير (٥/٥٨).
(٣) ابن الأثير (٥/٥٨) وانظر الطبري (٦/ ٥٦٤)، وكان يزيد بن عبد الملك والياً للعهد يتولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه.

زوجة يزيد بن عبد الملك، وقد جرى هذا التعذيب في أيام سليمان بن عبد الملك. وكان فيمن أتى به أم الحجاج زوجة يزيد بن عبد الملك، وقيل: أُختها، فعذّبها يزيد بن المهلب ليستخرج ما لديها من أموال للدولة، فأتى يزيد بن عبد الملك إلى ابن المهلب في منزله، فشفع فيها، فلم يشفِّعه، فقال: الذي قرّرتم عليها، أنا أحمله، فلم يقبل منه، فقال لابن المهلب: أما واللّه لئن وليتُ من الأمر شيئاً، لأقطعنّ منك عضواً!، فقال ابن المهلب: وأنا واللّه لئن كان ذلك، لأرمينّك بمئة ألف سيف![1].

وفي رواية أخرى، أن سبب العداوة بين ابن عبد الملك وابن المهلب، أنّ المهلب خرج من الحَمَّام أيام سليمان بن عبد الملك، وقد تضمّخ بالغالية[2]، فاجتاز بيزيد بن عبد الملك وهو إلى جانب عمر بن عبد العزيز، فقال: قبّح اللّه الدنيا، لودِدْت أن مثقال غالية بألف دينار، فلا ينالها إلاّ كل شريف، فسمع ابن المهلب فقال: بل وددت أنَّ الغالية في جبهة الأسد، فلا ينالها إلاّ مثلي، فقال يزيد بن عبد الملك: واللّه لئن وليتُ يوماً لأقتلنّك، فقال ابن المهلب: واللّه لئن وليتَ هذا الأمر وأنا حيّ، لأضربنّ وجهك بخمسين ألف سيف[3].

ومهما يكن من أمر صحة هاتين الروايتين عن سبب العداوة بين اليزيدين: ابن عبد الملك وابن المهلب، فيصدقهما مَن يشاء ويكذبهما من يشاء، فالمعروف أنّ يزيد بن عبد الملك كان يكره ابن المهلب وآل بيته

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٥٧).

(٢) الغالية: من الطيب، أول من سماها بذلك سليمان بن عبد الملك، تقول: تغلّى بالغالية، انظر مختار الصحاح ـ ط ٧ (٤٨٠). والغالية: طيب معروف، وهو أخلاط من مسك وعنبر وبان تغلَى على النار، انظر معجم متن اللغة (٤/ ٣٢١).
والغالية: ضرب من الطيب، وهي مسك وعنبر يعجنان بالبان. انظر الإفصاح في فقه اللغة (١/ ٣٥٦). والغالية: أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر، انظر المعجم والوسيط (١/ ٦٦٠).

(٣) ابن الأثير (٥/ ٨٧).

الذين كانوا موضع ثقة أخيه سليمان بن عبد الملك من قبله، كما كان الحجّاج بن يوسف موضع ثقة عبد الملك بن مروان ومن بعده الوليد بن عبد الملك، بينما كان سليمان بن عبد الملك يكره الحجاج وآل بيته[1]، لأن الوليد أراد أن يخلع سليمان ويبايع لولده، فأبى سليمان، فكتب الوليد إلى عمّاله ودعا الناس إلى ذلك، فلم يُجِبْهُ إلاّ الحجّاج وقُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهليّ وخواص من الناس[2]، وقد جَرّد سليمان أموال الحجاج بن يوسف الثقفي وآل بيته وأوكل ذلك إلى يزيد بن المهلب وصادر الفائض منها[3]، وكان يزيد بن عبد الملك زوج ابنة محمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج بن يوسف الثقفي، فهو لا ينسى ليزيد بن المهلب شدّته على أصهاره في عهد سليمان بن عبد الملك، لذلك آثر يزيد أن ينجو بنفسه خوفاً من نقمة يزيد بن عبد الملك وانتقامه، فهرب من سجنه وخلع يزيد بن عبد الملك وأعلن عليه الثورة في العراق.

وحاول ابن المهلّب أن يسبغ على ثورته صفة الشرعيّة، ليستقطب حوله أهل العقيدة الراسخة والمُثُل العليا الذين يضحّون بأرواحهم من أجل عقيدتهم ومُثُلهم العليا، لأنه يعلم علم اليقين أن أمثال هؤلاء هم الذين يتحملون أعباء الحرب ويصبرون على أهوالها ويصابرون، وهم الذين يقودون إلى النصر ويحرزونه، أما المرتزقة فلا يقودون إلاّ إلى الهزيمة والعار. لذلك تظاهر ابن المهلب بأنه ثار ليعيد للمسلمين سيرة العُمَرَين: أبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب رضي الله عنهما.

وكانت نص بيعة ابن المهلب: تبايعون على كتاب الله وسُنَة نبيّه ﷺ، وعلى ألاّ تطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا، ولا يُعلا علينا سيرة الفاسق الحجّاج، فمن بايعنا على ذلك قبلنا منه، ومَن أبى جاهدناه، ثم جعلنا الله

---

(١) الطبري (٦/٤٩٧) وابن الأثير (٥/١٠).
(٢) ابن الأثير (٥/١٠).
(٣) ابن الأثير (٥/٥٧).

بيننا وبينه، ثم يقول: تبايعوننا؟، فإذا قالوا: نعم، بايعهم[(١)]!

ولما سيطر يزيد بن المهلب على (البصرة)، خطب الناس، فذكر أنه يدعوهم إلى كتاب اللّه وسنّة نبيّه محمد ﷺ، ويحثّ على الجهاد، وأنّ جهاد أهل الشَّام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم[(٢)]!!

وكان حينذاك في (البصرة) علماء عاملون مخلصون محافظون على كرامة العلماء يقولون الحق ولا يخشون في اللّه لومة لائم، منهم الحسن البصري ﵁، فلمّا سمع خطاب ابن المهلب الذي ألقاه في الحشد الحاشد من الناس، دنا من منبر ابن المهلب الذي يلقي من فوقه خطابه بين أنصاره ومؤيديه، فرفع الحسن البصري صوته قائلاً: واللّه لقد رأيناك والياً ومولّي عليك، فما ينبغي لك ذلك، فسمع ابن المهلب رد الحسن البصري، ولكنه لم يلتفت إليه ومضى في خطبته[(٣)].

ولم يكن ابن المهلب ليسكت عن الحسن البصري، لو لم يكن يعرف قوته في الحق وشدّة صلابته في إظهاره، وأنّ قوته بالحق أعظم من قوة السلطان بالباطل، فما كان الحسن يريد شيئاً لنفسه، ولكنه كان يريد كل شيء للمسلمين.

وما كان ابن المهلّب ليسكت لو أنه على حق فيما يدعيه، ولكنه كان يُعلن ما لا يُخْفي، ودعوته للدين مظهر لا مخبر.

وخرج الحسن البصري من المسجد الذي كان ابن المهلب يخطب فيه، فمرّ على أنصار ابن المهلب وهم ينتظرون خروجه، وقد اصطفوا صفّين ونصبوا الرايات والرماح، وهم يقولون: يدعونا يزيد إلى سُنّة العُمَرَين! فقال الحسن: إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين

---

(١) الطبري (٦/ ٥٩٢).

(٢) الطبري (٦/ ٥٨٧) وابن الأثير (٥/ ٧٥).

(٣) الطبري (٦/ ٥٨٧) وابن الأثير (٥/ ٧٥).

ترون، ثم يسرِّح بها إلى بني مروان، يريد بهلاك هؤلاء رضاهم! فلمّا غضب غضبة، نصبَ قَصَباً، ثم وضع عليها خِرقاً، ثم قال: إني قد خالفتهم فخالفوهم! قال هؤلاء: نعم. وقال: إني أدعوكم إلى سُنّة العُمَرَين، وإنّ من سُنّة العُمَرَين أن يوضع قيد في رجله، ثم يردّ إلى محبس عمر ـ يقصد عمر بن عبد العزيز ـ الذي فيه حَبَسَه، فسأله أحد أصحابه ممن سمع قوله: واللّه لكأنك يا أبا سعيد راض عن أهل الشّام؟!، فكان جوابه: أنه غير راضٍ عنهم[1]. ممّا يدل على أنّ الحسن البصري كان يصرح بالحق، غير ملتزم بأحد من الحكّام.

وكما لم يستطع ابن المهلّب بادعائه أنّ ثورته ثورة مبدئية أن يقنع قادة الفكر، أخفق بإقناع قادة الرجال أيضاً، فقد هرب رؤوس أهل (البصرة) من تميم وقيْس ومالك بن المُنْذِر ولحقوا بالكوفة التي كانت لا تزال مع الأمويين كما لحق بعضهم بالشّام[2].

لقد صور الحسن البصري ثورة ابن المهلب أحسن تصوير، فذكر أنها للدنيا الزائلة فقال: أيها الناس! الزموا رحالكم وكفّوا أيديكم، واتّقوا اللّه مولاكم، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة وطمع فيها يسير.......، ثم وصف ثورة ابن المهلب بأنها فتنة من الفتن التي ينبغي الابتعاد عن المشاركة فيها[3].

لقد التف حول ابن المهلب رجال لا يعرفهم أحد[4]، يتبعون كل مَن يقدِّم لهم المال، بل يتبعون من يقدِّم لهم مالاً أكثر ممَّا يقدِّم لهم غيرُه، وفي الوقت الذي كان يقدِّم عامل بني أمية على (البصرة) درهمين

---

(١) الطبري (٦/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨) وابن الأثير (٥/ ٧٥ ـ ٧٦).
(٢) الطبري (٦/ ٥٨٣) وابن الأثير (٥/ ٧٣).
(٣) الطبري (٦/ ٥٩٤).
(٤) الطبري (٦/ ٥٨٧).

لكل رجل ينضوي تحت لوائه، كان يزيد بن المهلب يعطي مَن أتاه قطع الذهب والفضّة، فمال الناس إليه[1].

ولكن أي نوع من الناس مالوا إليه؟ لقد مال إليه المرتزقة الذين يهتمون بجيوبهم ولا يهتمون بقلوبهم، أي أنّ الذين مالوا إليه من أهل (الطمع) الماديّ لا أهل (العقيدة) الراسخة الذين لا يمكن شراء ضمائرهم بالمال وكل متاع الدنيا، وأهل (الطمع) لا يقاتلون ولا يضحّون، لأنّ الروح أغلى من كل مال وكل متاع، وأهل (العقيدة) يستقتلون ويضحّون، لأنّ (العقيدة) أغلى من المال والمتاع، ولئن انتصر أهل (الطمع) ساعة، فلن ينتصروا إلى قيام الساعة.

وعلى الرغم من أنّ تعداد الذين التفوا حول ابن المهلب مئة وعشرون ألف مقاتل ـ كما ذكرنا ـ وهو جيش ضخم بالنسبة لتلك الأيام، ألاّ أنّ ضبطهم كان قليلاً، فهم يعارضونه في كل رأي يبديه[2]، ولا ينفّذون أوامره لغرض التملص من الاقتتال، كما أن ابن المهلب لا يسمع رأي أصحاب الرأي حتى ولو كانوا من آل بيته والمقربين إليه[3]، وهذا يدل على أنّ الثقة لم تكن متبادلة بين القائد ورجاله، وعدم تبادل الثّقة بين الطرفين أول الفشل ويؤدي إلى الهزيمة.

ولم يكن أمر تفسّخ جيش ابن المهلب خافياً عليه، فقد كان بين الخاصة من آل بيته وأصحابه قبل نشوب القتال، فتساءل قائلاً: ترون في هذا العسكر ألف سيف يُضرب به؟!، فأجابه أحد رجاله، إي واللَّه، وأربعة آلاف سيف، فقال: إنهم واللَّه ما ضربوا ألف سيف قط، واللَّه لقد أحصى ديواني مئة وعشرين ألفاً، واللَّه لَوَدِدْتُ أنّ مكانهم الساعة معي مَن

---

(١) الطبري (٦/ ٥٨٠ ـ ٥٨١) وابن الأثير (٥/ ٧٢).
(٢) الطبري (٦/ ٥٨٣) وابن الأثير (٥/ ٨٠).
(٣) الطبري (٦/ ٥٨٨) وابن الأثير (٥/ ٧٧ ـ ٧٨).

بـ(خُراسان) من قومي[1]، وكان ابن المهلب يقصد أنه لا يقاتل ألف رجل من بين جيشه اللّجب[*]، كما يقاتل الرجال!!

وصدق ما توقعه ابن المهلب، إذ انهزم جيشه بعد الصدمة الأولى من غير قتال[2]، لأن هذا الجيش ليست لديه (قضيّة) يدافع عنها ويضحي من أجلها، ولا (مصلحة) حقيقية له في الاقتتال.

لقد تورّط يزيد بن المهلب في معركة خاسرة، ولكنه قاتل عن شرفه وأحسابه، ولم يرض لنفسه الفرار أو الاستسلام.

ولم يكن ابن المهلب وحده يقود جيشاً من المرتزقة، فقد كان أكثر جيش مَسْلَمَة بن عبد الملك والعباس من المرتزقة أيضاً، ومن الواضح أنّ كلا الجيشين لا يخلوان من مقاتلين لهم مصلحة في الاقتتال، ولكن أكثر الجيشين يغلب عليهما الارتزاق.

إلاّ أن جيش الأمويين كان جيش دولة، فهو أكثر ضبطاً ونظاماً وأضمن مصلحة ومستقبلاً، كما كان جيشاً ملتزماً لارتكازه على حكم قائم وسلطة شرعية، لذلك كان هذا الجيش يتحلّى بإرادة القتال فانتصر، بينما كان جيش ابن المهلب لا يتحلى بهذه المزية فاندحر.

ولكن الانتصار والاندحار في الاقتتال بين طائفتين من طوائف الدَّولة سيّان، والمستفيد الوحيد من مثل هذا الاقتتال هو العدو المشترك لتلك الدَّولة.

ولعلّ هذا الدرس يفيد من يقرأ تاريخ هذه الحقبة من أيام العرب والمسلمين.

---

(١) الطبري (٦/ ٥٩٦).

(*) اللجب: لتفسير.

(٢) الطبري (٦/ ٥٩٥) وابن الأثير (٥/ ٨٢).

الإنسان

بعد قضاء الأيام الأولى للعباس من عمره في التعليم والتدريب، بدأ يعطي ثمراته للدولة والناس، وكانت أول هذه الثمرات توليه قيادة جيش يقاتل الرّوم في الجبهة الشماليَّة الغربيَّة للدولة سنة ثمان وثمانين الهجريَّة (٧٠٧م).

وتوالت غزواته ومعاركه بعد ذلك، كما فصلناه في الحديث عن جهاده.

ولكن نشاطه لم يقتصر على الناحية العسكريَّة من أعمال الدَّولة، بل شمل الناحية الإدارية من أعمالها أيضاً.

فقد كان يسكن (حِمْص)، فاستعمله أبوه عليها[١]، وكان عليها سنة ست وتسعين الهجريَّة (٧١٤م) وهي سنة وفاة والده الوليد بن عبد الملك[٢]، ولكننا لا ندري تاريخ تسنّمه هذه الولاية، لأنّ أحداً من المؤرخين لم يتطرق إليه، ومن المحتمل أنه تولاها في هذه السنة، لأنه كان في السنوات التي سبقتها مشغولاً في ميدان قتال الرّوم، كما مرّ بنا في ذكر غزواته، ومن المحتمل أنه بقي في منصبه هذا حتى سنة إحدى ومئة الهجريَّة (٧١٩م)، حيث سيّره عمه يزيد بن عبد الملك مع عمّه مَسْلَمَة بن عبد الملك في هذه السنة لقتال يزيد بن المهلب في العراق، وكان العباس في هذه الحرب قائداً لجيش جزيرة ابن عمر كما ذكرنا سابقاً.

ولما انتهى الاقتتال في العراق بين الأمويين من جهة وابن المهلب من جهة أخرى، لم يعد العباس إلى ولايته في (حِمْص)، بل عاد والياً على (حلب)، ولا نصّ على ولايته هذه في المصادر التاريخية المتيسّرة، غير النص الذي ورد فيه: أنّ يزيد بن عبد الملك بعث برؤوس قتلى آل

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٠).
(٢) تاريخ ابن خياط (١/ ٣١٦).

المهلّب إلى العباس في (حلب)[1]، ومعنى ذلك أنه تولى هذه المدينة، وكان ذلك سنة اثنتين ومئة الهجريَّة (٧٢٠م)، ومن المحتمل أنه بقي على (حلب) سنة وبعض السنة، لأنه غزا الرّوم سنة ثلاث ومئة الهجريَّة (٧٢١م)، كما مرّ بنا في تعداد غزواته.

وقد سار العباس إلى (مَرْعَش)[2] فعمّرها وحصّنها، ونقل الناس إليها، وبنى لها مسجداً جامعاً، وكان يقطع في كل عام على أهل (قِنَّسْرِين) بعثاً إليها[3]، وقد مرّت (مرعش) بأحداث كثيرة أدّى إلى خرابها[4]. ومن الواضح أن هدف تعمير (مرعش) وتحصينها، هو لتصبح قاعدة متقدمة للمسلمين يرتكزون عليها في غزواتهم للرّوم، لذلك حرص العباس على تحصينها لتقوى على الدِّفاع عنها في حالة مهاجمتها من الرّوم، كما أسكنها المسلمين ليدافعوا عنها عند الحاجة، ولكننا لا ندري متى عمّرها وحصّنها وأسكنها المسلمين، ومن المحتمل أنه فعل ذلك في أيام ولايته على (حلب)، لأن (مرعش) تقع في منطقة (حلب) وتابعة لسيطرتها في تلك الأيام، وتعتبر من بلاد الشَّام.

٢ ـ والذي يبدو من سيرة العباس أنه كان يتمتّع بمزيد سبق النظر، وهي مزية لها قيمتها في الرجال قادةً وإداريين.

فيما وجّه يزيد بن عبد الملك الجيوش إلى يزيد بن المهلب، واستعمل عليها مَسْلَمَة بن عبد الملك والعباس، قالا له: يا أمير المؤمنين! إنّ أهل العراق أهل غدر وإرجاف، وقد توجُّهنا محاربين، والحوادث

---

(١) الطبري (٦/ ٦٠٢) وابن الأثير (٥/ ٨٦) وابن خلدون (٣/ ١٧٢).

(٢) مرعش: مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٥)، وهي مدينة صغيرة، انظر تقويم البلدان (٢٦٢ ـ ٢٦٣)، بينها وبين مدينة (الحدث) وهي من الثغور أيضاً خمسة فراسخ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك لابن خرداذبة (٢١٦).

(٣) البلاذري (٢٦٦)، أي يقطع بعثاً على (مرعش).

(٤) انظر التفاصيل في البلاذري (٢٦٥ ـ ٢٦٦).

تحدث، ولا نأمن أن يرجف أهل العراق ويقولوا: مات أمير المؤمنين، فيفت ذلك في أعضادنا، فلو عهدتَ عهد عبد العزيز بن الوليد[1]، لكان رأياً صواباً. ولكن مَسْلَمَة بن عبد الملك بعد إمعان الفكر، قال ليزيد بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين! أيهما أحبّ إليك: أخوك أم ابن أخيك؟ فقال: بل أخي، فقال: فأخوك أحق بالخلافة، فقال يزيد: إن لم يكن في ولدي، فأخي أحق بها من ابن أخي كما ذكرت، فقال: فابنك لم يبلغ، فبايع لهشام بن عبد الملك، ثم بعده لابنك الوليد، وكان الوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة، فبايع بولاية العهد لهشام بن عبد الملك أخيه، وبعده لابنه الوليد بن يزيد. ثم عاش يزيد حتى بلغ ابنه الوليد فكان إذا يراه يقول: اللّه بيني وبين مَنْ جعل هشاماً بيني وبينك[2].

لم يكن ليزيد بن عبد الملك وليّ للعهد يخلفه إذا قضى يزيد نحبه، فكان هناك احتمال كبير لإرجاف المرجفين بموت يزيد في ظروف الحرب العصيبة دون أن يكون له ولي عهد يخلفه ويسيطر على الأمور، ممّا يؤدي إلى الفوضى والضياع. لذلك اقترح مَسْلَمَة بن عبد الملك والعباس على يزيد بن عبد الملك أن يعهد بولاية العهد، فنجحا فيما أرادا، وقطعا الطريق على المرجفين.

٣ ـ وتوفي يزيد بن عبد الملك سنة خمس وعشرين ومئة الهجريّة[3] (٧٢٣م)، فخلفه هشام بن عبد الملك بعد موته.

وتوفي هشام بن عبد الملك سنة خمس وعشرين ومئة الهجريّة[4] (٧٤٢م)، فخلفه الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

---

(١) عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وسترد سيرته المفصّلة باعتباره قائداً من قادة الفتح.

(٢) ابن الأثير (٥/ ٩١ ـ ٩٢ وابن خلدون (٣/ ١٧٤) وانظر الأغاني (٧/ ٢).

(٣) ابن الأثير (ـ / ١٢٠) وابن خلدون (٣/ ١٧٤) وانظر الأغاني (٧/ ٢).

(٤) ابن الأثير (/ ٢٦١) وابن خلدون (٣/ ٢٢٠) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٩٦).

لم يكن الوليد محمود السيرة، وكان خليعاً ماجناً[1]، ولا شكّ في أنّ المبالغات والتزيّد كثيرة في سيرته، لتسويغ قتله أولاً، ولغمز حكم بني أميّة ثانياً.

كره الناس حكم الوليد، وكان أشدّهم كرهاً يزيد بن الوليد بن عبد الملك، الذي كان لا ينفكّ يظهر مسالبه وينتقد تصرفاته، وكان الناس أميل إلى قوله لأنه يُظهر النُسُك ويتواضع[2].

وفاتح قسمٌ من الناس يزيد بن الوليد بن عبد الملك بالبيعة له، فشاور أحد خلصائه بالأمر، فقال له: لا يبايعك الناس على هذا، وشاوِرْ أخاك العبّاس، فإن بايعكَ لم يخالفك أحد، وإن أبى كان له أطوع.

وكان الوباء حينذاك منتشراً بالشّام، فغادرها الناس إلى البوادي، وكان العباس بـ(القَسْطَل)[3]، ويزيد بالبادية أيضاً، بينهما أميال يسيرة.

وأتى يزيد أخاه العباس واستشاره، فنهاه عن ذلك، ولكنه عاد وبايع الناس سرّاً، ثم بثّ دعاته، فدعوا الناس.

وعاود يزيد أخاه العباس واستشاره ثانية ودعاه إلى نفسه، فَزَبَرَهُ[4] وقال: إن عدت لمثل هذا لأشدَّنَّكَ وثاقاً وأحملنّك إلى أمير المؤمنين، فخرج من عنده، فقال العباس: إني لأظنّه أشأم مولود في بني مروان.

وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الذي كان حينذاك على (إِرْمِينِيَة)، فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان، يأمره أن ينهى الناس ويكفّهم ويحذّرهم ويخوّفهم خروج الأمر عنهم، فأعظم سعيد ذلك، وبعث بالكتاب إلى العباس، فاستدعى العباس يزيد وتهدّده، ولكنه

---

(١) انظر التفاصيل في: ابن الأثير (٥/ ٢٨٠ ـ ٢٩١) وغيره من المصادر التاريخية المعتمدة.
(٢) ابن الأثير (٥/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).
(٣) القسطل: موضع بني حمص ودمشق، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٨٦).
(٤) زبره: منعه ونهاه. يُقال: زبر السّائل: انتهره وزجره.

كتمه أمره، فصدّقه العباس، وقال لأخيه بِشر بن الوليد: إني أظنّ أنّ اللَّه قد أذنَ في هلاككم يا بني مروان، ثمّ تمثل:

إنــي أُعـيـذكـمُ بـالـلَّـه مـن فِـتَـنٍ ... مـثـل الـجـبـال تـسـامـى ثـمّ تـنـدفـعُ
إنّ الـبـريّـةَ قـد مـلَّـت سـيـاسَـتـكـم ... فاستمسكوا بعمودِ الدِّين وارتدعوا
لا تُـلْـحِـمُـنَّ ذِئـاب الـنـاس أنـفـسـك ... إنّ الـذّئـاب إذا ما أُلـحـمـتْ رتـعـوا
لا تَـبْـقَـرُنّ بـأيـديـكـم بـطـونَـكـمُ ... فـثـمّ لا حـسـرةٌ تُـغْـنِـي ولا جَـزَعُ

ولما اجتمع ليزيد أمره وهو لا يزال في البادية، أقبل إلى (دمشق)، وكان أكثر أهلها قد بايعوه سراً، فحدثت مناوشات بين أنصاره وأنصار الوليد، فتغلّب أنصار يزيد على أنصار الوليد.

وجهز يزيد جيشاً وسيّرهم إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وجعل عليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

وسيّر الوليد بن يزيد أبا محمد عبد اللَّه بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان إلى (دمشق)، فسار بعض الطريق ثم أقام، وبايع يزيد بن الوليد.

وسار الوليد بن يزيد على رأس جيشه حتى أتى (البَخْراء)[1] قصر النّعمان بن بشير، فنازله عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

وكتب العباس إلى الوليد بن يزيد: إني آتيك، فبلغ عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك مسير العباس إلى الوليد، فأرسل إليه وهو في الطريق من أخذه قهراً ـ وأُتى به عبد العزيز، فقال له: بايعْ لأخيك يزيد، فبايع ووقف.

ونصب عبد العزيز راية وقال للناس: هذه راية العباس، قد بايع

(١) البخراء: ماء منتنة في طرف الحجاز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٨٧)، وهذه ليست المقصودة، بل البخراء القريبة من (تدمر)، انظر تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٨٠) وهي على أميال من تدمر.

لأمير المؤمنين يزيد، فقال العباس: إنَّا لَلَّهُ، خُدْعَةٌ من خُدَع الشيطان، هلك بنو مروان.

وتفرق الناس عن الوليد، وأتوا العباس وعبد العزيز.

وبرز الوليد لجموع عبد العزيز، فقاتهلم قتالاً شديداً، وتكاثروا عليه، فدخل قصر النعمان بن بشير، وجلس يقرأ القرآن، وقال: يوم كيوم عثمان!.

وحاصروا القصر وصعدوا على الحائط، فقتلوا الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم أخذوا رأسه وسيّروه إلى يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فأتاه الرأس وهو يتغدّى، فسجد للّه شكراً.

وكان قتل الوليد سنة ست وعشرين ومئة الهجريَّة، فاضطرب أمر بني أمية ولم ينعم يزيد بن الوليد الذي تولى بعده بالخلافة غير ستة أشهر وليلتين، وقيل: كانت ستة أشهر واثني عشر يوماً، وقيل: خمسة أشهر واثني عشرة يوماً، وكان موته بدمشق[(١)].

لقد وقف العباس هذا الموقف من الوليد بن يزيد بن عبد الملك، على الرغم من نفوره منه وانتقاصه له يوم كان وليّاً للعهد، فقد ذكروا العباس وجماعة من بني أميّة كانوا عند هشام بن عبد الملك وهو خليفة، فذكروا الوليد بن يزيد فحمّقوه وعابوه، وكان هشام يبغضه. ودخل الوليد، فقال له العباس: كيف حُبُّك للروميّات، فإنّ أباك كان مشغوفاً بهنّ، فقال: إني لأحبّهن، وكيف لا يُحْبَبْن وهُنّ يَلِدْنَ مِثْلَك؟!، قال: اسْكُت فلستَ بالفَحْل يأتي عَسْبُه[(٢)] بمثلي[(٣)].

---

(١) انظر التفاصيل في: ابن الأثير (٥/ ٢٨٠ ـ ٢٩٠) وابن خلدون (٣/ ٢٢٥ ـ ٢٣٣)، وانظر تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٨٠ ـ ٣٨٣) والعقد الفريد (٤/ ٤٦١) والأغاني (٧/ ٧٣).

(٢) العسب: ماء الفحل.

(٣) العقد الفريد (٤/ ٢٥) و(٤/ ٤٥٠) مع اختلاف بسيط.

وقد تكون هذه المحاور من اختلاف الأدباء للتسلية والترفيه عن النفوس، ولكن كل الدلائل تشير إلى أنّ الوليد بن يزيد لم يكن محبوباً من الناس لانحرافه عن تعاليم الدِّين والخلق الكريم، ومع ذلك فإنّ العباس لم يشجع أخاه يزيد بن الوليد، حرصاً على وحدة الصف، وحفاظاً على صِلة الرَّحم، وقطعاً لدابر الفتن.

وصدق ما توقعه العباس، إذ اضطرب أمر بني أميّة، وثار أهل (حِمْص)، وخالف أهل فلسطين، وعصى أهل (اليمامة)، وشقّ أهل (خُراسان) عصا الطاعة، واستفحل أمر دعاة العباسيين، وخرج مروان بن محمد عن سيطرة الدَّولة، وضاعت هيبة الحكّام، وقد حدثت كل هذه القلاقل والفتن خلال حكم يزيد بن الوليد الذي كان نحو ستة أشهر[1].

أما العباس، فلم يسلم هو الآخر من شظايا فتنة لم يكن من دعاتها، ولكنه اكتوى بها وبنارها، فقد أغلق أهل (حِمْص) أبوابها بعد مقتل الوليد بن يزيد وأقاموا النوائح والبواكي عليه. وقيل لهم: إنّ العباس أعان عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك على قتل الوليد بن يزيد!! فهدم أهل (حِمْص) دار العباس وأنهبوها وسلبوا حُرَمه، وطلبوه، فسار إلى أخيه يزيد[2]!

لقد كان العباس بعيد النظر، حين نصح بالابتعاد عن الفتنة، والتمسك بالوحدة، والتخلي عن الفرقة. ولكن لا رأي لمن لا يُطاع.

٤ ـ روى العباس عن معاذ بن جبل حديثاً واحداً مرسلاً أنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: مَنْ بنى للَّه مسجداً، بنى اللَّه له بيتاً في الجنّة[3].

وكان العباس شاعراً له ذكر بين الشعراء وطبقاتهم.

---

(١) انظر التفاصيل في: ابن كثير (٥/ ٢٩٢ ـ ٣١٠) وسائر المصادر التاريخية الأخرى.
(٢) ابن الأثير (٥/ ٢٩٢).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٠).

ومن شعره، أنه علم بأن مَسْلَمَة بن عبد الملك يعيبه ويذمّه[١]، ومن المحتمل أنّ سبب ذلك هو سبب اختلافهما في الأساليب القتالية، وهذا ما يحدث كثيراً بين القادة وغيرهم من ذوي المناصب القيادية والسياسيّة والإدارية والعلمية، وهي عداوة أهل المهنة كما يقول المثل العربيّ القديم.

ووقع بينهما اختلاف، فكتب العباس إلى عمّه مَسْلَمَة[٢]:

ألاّ نفسي فداك أبا سعيد[٣] — وتقصر عن مُلاحاتي وعذلي
فلولا أنّ أصلَك حين يُنمى — وفرعَك مُنتهى فرعي وأصلي[٤]
وأنّي إن هُضْتُ عظمي — ونالتْني إذا نالتْك نَبْلِي
لقد أنكرتَني إنكارَ خوف — يقصّر منك عن شتمي وأكلي[٥]
كقول المرء عمرو في القوافي: — أريد حياته ويريد قتلي[٦]

ومن شعره قصيدته التي قالها لأصحابه حين هموا بخلع الوليد بن يزيد[٧]:

يا قومَنا لا تَملُّوا نعمةً لكمُ — إنّ الإله لكم فيما مضى صَنَعُ[٨]

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٧٤).
(٢) ابن الأثير (٥/ ٧٤) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧١) ومعجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤).
(٣) ورد صدر البيت: ألا تقني الحياء أبا سعيد في: تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧١) معجم الشعراء (٢٦٤)، وأبو سعيد: كنية مسلمة بن عبد الملك.
(٤) ورد عجز البيت: وفرعك كان من فرعي وأصلي، في معجم الشعراء (٢٦٤)، وورد في تهذيب ابن عساكر: وقومك كان من فرعي وأصلي.
(٥) ورد عجز البيت: يضم حشاك من أكل وشرب، وفي معجم الشعراء (٢٦٤)، ورد في تهذيب ابن عساكر (٢/ ٢٧١): يضم حشاك عن شرب وأكل.
(٦) في معجم الشعراء ورد بيت يسبق البيت الأخير هو:
(كقول المرء عمرو في القوافي — لقيس حين خالف كل عدل).
ونص البيت الأخير كما ورد في معجم الشعراء (٢٦٤):
(عذيري من خليل من مراد — أريد حياءه ويريد قتلي!).
(٧) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٠).
(٨) صَنَع: ماهر، حاذق في الصنعة.

فأنتم اليوم أهل المُلْكِ مذ حُقُبٍ[١] وأهل دُنْيا ودِينٍ ما به طَمَع

فَانْفُوا عَدُوَّكم عن نَحْتِ أَثْلَتكم[٢] واستجمعوا إنّ أمر الدِّينِ مجتمع

قوموا عليه كما قام الأُلى نصروا حتى تَولّوا وما خافوا وما جزعوا

إنّ الكبير عليكم في ولايتكم أن تُصْبِحوا وعمود الدِّين مُنْصَدِع

لا يُلْحِمَنَّ[٣] ذئابَ الناسِ أنفُسَكُم إنّ الذئاب إذا ما ألحمتْ رُتَعُ[٤]

لا تَبْقَرُنَّ بأيديكم بطونكمُ فَثَمَّ[٥] لا حسرةٌ تُغْني ولا جَزَعُ

لا يلقينَ عليكم من جنايتكم مع الشّقاء يديه الأَزْلَمُ[٦] الجذَعُ[٧]

إني أعيذكم باللّه من فِتَنٍ مثل الجبال تسامى ثمّ تَنْدَفع

لستم كما كان قبل اليوم يسعرها بالمَشْرَفِيّة[٨] بيضاً حين تنتزع

والسَّمهرية[٩] مطرور أسنتها وحومة الموت تغلي وردها شِرَع[١٠]

---

(١) الحقب: المدة الطويلة من الدهر، ثمانون سنة أو أكثر، وفي التنزيل العزيز: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾

(٢) الأثلة: الأصل، والميرة تجلب إلى القوم، ومتاع البيت، والأهْبَة والعُدّة، ويقال: نَحتَ أثلته: عابه وتنقصّه، قال الأعشى.

ألستَ مُنْتَهياً عن نحْتِ أَثْلَتِنا ولست ضائِرَها ما أَطّتِ الإبِلُ

(٣) لَحمَ: اشتهى اللّحم وقَرِمَ إليه، وأكل منه كثيراً. ولحم الصَّقْرُ: اشتهى اللّحم.

(٤) رَتَعَتِ الماشية: رعت كيف شاءت في خصب وسعةٍ. ورتع في لحمه: اغتابه، فهو راتع. (ج): رِتَاعٌ، ورُتّعٌ.

(٥) وردت في الأصل: ثمت، ولا يستقيم البيت.

(٦) الأزلم: الوَعلُ، والدّهر الشديد الكثير البلايا.

(٧) الجذَع: يقال ذهب القومُ جِذَعَ مِذَعَ: تفرّقوا في كل وجه.

(٨) المَشْرَفيّة: هي سيوف منسوبة إلى (مَشارف) الشام: وهي قرى من أرض العرب تدنو من الرّيف، أو كل قرية بين بلاد الريف وبلاد العرب. قال المبرد: نسبت هذه السيوف إلى المشارف من أرض الشام، وهو الموضع الملقّب: (مؤتة) الذي قُتِلَ فيه جعفر بن أبي طالب وأصحابه انظر معجم متن اللغة (٣٠٩/٣).

(٩) السّمهريّ: الرمح الصليب العود، وهو المنسوب إلى (سَمْهَر) وهو رجل له زوجة تسمى: ردينة، يثقفان الرّماح، فنسبت إليهما، انظر معجم متن اللغة (٢١٧/٣).

(١٠) شِرَع: (ج) الشِّرْعة الوتر الدقيق ما دام مشدوداً على القوس. وقيل: أو العود، أو =

إنّ البريّة قد مَلَّت ولايتَكم تمسّكوا بحبال العهد وادّرعوا
فلن تزالوا رؤوس الناس ما صَلحوا وما شكرتُم وأضحى العهد يُتّبَع

وكان الذي همّ بخلع الوليد بن يزيد، هو هشام بن عبد الملك، فكتب إليه العباس بهذا الشعر[1]، والصحيح أن الذي همّ بخلع الوليد هو يزيد بن الوليد[2]، كما ذكرنا سابقاً، فتمثل العباس بأربعة أبيات من هذا الشِّعر مع اختلاف بسيط في ألفاظ تلك الأبيات الأربع وما جاء في تلك الأبيات ضمن القصيدة الكاملة هذه[3]، وقد نص ابن الأثير في تاريخه: أنّ العباس تمثل بهذه الأبيات الأربع، دون أن ينسبها إليه، بينما ورد بيتان منها في معجم الشعراء للمرزباني نسبها إلى العباس، ممَّا يؤيد نسبتها إليه، وأنه هو قائلها، وهي من مَقُوله لا من مَنْقُوله، والبيتان من القصيدة هما[4]:

لا يلقيَن عليكم من سفاهتكم مع الشّقاء يديه الأزْلَمُ الجِذَعُ
لا تُرْتِعُنَّ ذئابَ السُّوءِ ملكَهُمُ إنّ الذّئاب إذا ما أُرتِعت رتع

ومن شعره قوله في زوجته أم سعيد بنت عبد اللّه بن عمرو بن عثمان بن عفّان ﷺ، وكان قد طلقها ثم ندم[5]:

أسعدةُ هل إليك لنا سَبيلٌ وهل حتى القيامة من تلاقي
بلى، ولعلّ ذلك أن يُؤاتي[6] بموتٍ من حَليلِكِ أو فِراقِ

= الوتَر مشدوداً وغير مشدود، انظر معجم متن اللغة (٤/ ٣٠٦).

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٠).

(٢) ابن الأثير (٥/ ٢٨٠) ومعجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤).

(٣) ابن الأثير (٥/ ٢٨٤).

(٤) معجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤)، والاختلاف في بعض كلمات هذين البيتين وبين ما ذكرت في تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٠) واضح.

(٥) معجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤) وتهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧١ ـ ٢٧٢)، ولايمكن أن تكون سعدة بنت عثمان بن عفان لتباعد الزمن، بل هي كما ذكرنا.

(٦) ورد كذلك في معجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤)، أما تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧١)، فقد ورد صدر هذا البيت: بلى ولعلّ دارك أن تؤاتي.

فأرجع شامتاً وتَقرُّ عيني ويُشْعَب صدعُنا بعد اشتياقِ

ومن دراسة شعر العباس، يبدو أنه من الشعراء الهواة، لا يبلغ أن يكون شاعراً يَجري ولا يُجرى معه، ولا أن يكون شاعراً لا تشتهي أن تسمعه، بل هو شاعر يجري بوسط المعمعة.

٥ ـ بقي علينا أن نتحدث عن خاصة نفس العباس إنساناً، فقد قيل عنه أنه يُتّهم في دينه[١]، ونقل ابن عساكر هذه التّهمة عن المرزباني من كتابه: معجم الشعراء، فمصدر التّهمة واحد، والمتّهم يُعْنَى بالأدب لا بالتاريخ.

أما المصادر التاريخية القديمة المعتمدة، فلم تذكر شيئاً عن انحرافه الدِّينيّ، ولم توجِّه إليه مثل هذه التّهمة، بل ذكرت ما يؤكد ميله إلى الدِّين، كموقفه في غزوة (طوانة)، فقد اجتمع عليه نحو مئة ألف من الرّوم، فلمّا ثبت أعداؤه نادى: أين الذين كانوا يلتمسون الشّهادة؟ أي أهل القرآن؟[٢].

كما أنه كان حريصاً على بناء المساجد، كما فعل في بناء المسجد الجامع في مدينة (مَرْعَش).

ولو أن العباس كان يتّهم في دينه، لمّا سكت عنه المؤرخون الثقاة، فهم لم يسكتوا عن أنداده من بني أمية، بل لم يسكتوا عن قسم من خلفاء بني أمية، وسجّلوا انحرافاتهم بصراحة وبكثير من القسوة في بعض الأحيان، وقالوا في قسم منهم ما لم يقله مالك في الخمر، كما يقول المثل العربي المشهور!

وسكوت المؤرخين الثقاة عن العباس، وحديثهم عن جهاده وسيرته

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧١) ومعجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧١).

العطرة بالثناء دون الإشارة إلى اتهامه في دينه، ينفي عنه هذه التهمة التي لا دليل عليها.

وحتى المرزباني الذي اتهمه في دينه، لم يذكر كلمة واحدة دليلاً على صدق هذا الاتهام.

ومن الإنصاف أن نذكر أنّ هذه التّهمة لا دليل عليها، ولو كانت صحيحة لمّا أحجم المؤرخون الثقاة عن ذكرها، فليس هناك سبب لإحجامهم عن ذكرها وإثباتها، كما فعلوا مع غيره من بني أميّة، وكما فعلوا مع غير بني أميّة من ذوي الجاه والسُّلطان.

وقد وصف علي بن عبد اللّه بن العبّاس، وكان لا يحبّ الأمويين، ويعمل سراً وعلناً على تقويض ملكهم وانتزاع السلطة منهم، وكانت الدعوة العباسية قد استشرت في تلك الأيام، ولها دعاة يعملون لتحقيق أهدافها، فقال عليّ: لو قيل لي: إنّ هذا الأمر لا يخرج من آل مروان، ثم قيل لي: اختر رجلاً لهذا الأمر، ما اخترتُ إلاّ العبّاس، فإني ما سمعت منه كلمة خنا منذ جالسته[1]. وهذه شهادة لها وزنها وقيمتها، لأنها صادرة عن أكبر شيوخ بني العباس بحق أمويّ من الأمويين، وهي إن دلّت على شيء، فإنما تدلّ على كذب التهمة في دين العباس. وقد ذكر عنه أنه كان امرأ صدق، ولم يكن في بني أمية مثله، كان يشبه بعمر بن عبد العزيز[2].

والذي يبدو أنه كان مترفاً، يميل إلى الترفيه عن نفسه، ويحب أن يلهو كما يلهو غيره من أولاد الخلفاء، دون الخروج على تعاليم الدّين الحنيف، فهو غير متّهم في دينه، ولكنه ليس تقيّاً ورعاً كعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، الذي اعتبره قسم من المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين.

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧١).
(٢) الأغاني (٧/ ٧٣).

وممّا يروى عنه أنه كان في مجلس عمر بن عبد العزيز، فعرضت على عمر جوار، فكلما مرّت به جارية تعجبه قال: يا أمير المؤمنين! اتخذ هذه!، فلمّا أكثر قال له عمر: أتأمرني بالزنا؟!. فقام العباس من مجلس عمر، فمرّ بأناس من أهل بيته، فقال لهم: ما يجلسكم بباب رجل يزعم أنّ آباءكم زُناة!![1].

ولست أصدِّق هذه الرواية، فقد كان عمر في شغل شاغل عن التوافه، كعرض الجواري عليه، كما كان العباس أذكى من أن يعرض على عمر بن عبد العزيز مثل هذا العرض، فابتعاد عمر عن مثل هذه الأمور معروف للقاصي والداني، ولكن القصة تنمّ على حب العباس لكل ما يرفِّه به عن نفسه، فإذا تخلّى عمر عن أي نوع من الترفيه عن النفس ورعاً، فليس الناس كلهم مثله، وأين في الناس في تلك الأيام مثل عمر؟!

لقد كان العباس فارساً سخياً، شهماً غيوراً، شاعراً أديباً، يقرِّب الشعراء ويعطيهم المال والهدايا على مدائحهم، لذلك مدحه الشعراء وأقبلوا عليه.

مدحه جرير فقال[2]:

إنّ النَّدى حالفَ العبّاس إنّ له نَبْتَ المكارم يَنْمِي جَدُّهُ صُعُدا

ومدحه الفرزدق فقال[3]:

إنّ أبا الحارث العبّاس نَأمُلُهُ مثل السِّماك الذي لا يُخْلِفُ المَطَرا

ومدحه بشير بن عبد اللّه السلمي فقال[4]:

لقد علمتْ حقاً إذا هي حصلت لأحسابها يوماً لمكرمةٍ فِهْرُ

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧١).
(٢) العيون والحدائق (١٤).
(٣) العقد الفريد (٤/ ٤٥٢) العيون والحدائق (١٤).
(٤) تهذيب ابن عساكر (١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).

بـأنّـك يـا عـبّـاسُ غُـرَّة مـالـكِ إذا افتخرت يوماً وقامَ بها الفَخْرُ

فتىً يجعل المعروف من دون عِرْضِهِ ويُنجِزُ ما مَنّى كما يُنْجَزُ النَّذْر

نَـمَـتْـهُ مـن الـعـلـيـا فـتـاةٌ بَـرِيَّـةٌ من العيب والآفات ليس لها فطر

تُـسـامـى الـثّـريّـا أو تـلـمّ فـروعـهـا ويقصر عنها أن يساويها النِّسْر

فـأُقْـسِـمُ لـو كـان الـخُـلـودُ لـواحـدِ من النّاس عن مَجْدٍ لأَخْلَدَكَ الدَّهرُ

وإقبال الشعراء عليه ومدحهم له، دليل على أنّه كان سخياً جواداً، وأنه يميل إلى هذا الفخر ويحبّ الثناء، وليس دليلاً على أنّ المزايا التي ذكرها الشعراء عنه موجودة فيه حقاً، فطالما سرد الشعراء مزايا لأشخاص غير ميَسَّرة فيهم من قريب أو بعيد.

سكن (حِمْص) واستعمله أبوه عليها[1] كما ذكرنا من قبل، وكانت داره بدمشق قِبْلة زقاق العجم ممَّا يلي درب السلّم والخضراء[2].

وكان أحمر أشقر[3] أزرق[4].

والدته نصرانية مسيحية كما مرّ بنا، رومية[5].

وكانت تحته بنت قَطَريّ بن الفُجاءة الخارجيّ الشاعر، سباها وتزوجها[6]، كما كانت تحته سَعْدة بنت عبد اللّه بن عمرو بن عثمان بن عفان ﷺ، طلقها ثم ندم عليها[7]، وكانت تحته رُبَيْحَة بنت عبد اللّه بن الحكم بن حزام وأمها سُكَيْنة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب

---

(١) تهذيب ابن عساكر (١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٠).
(٣) ابن الأثير (٥/ ٧٤).
(٤) المعارف (٥٨٥).
(٥) العقد الفريد (٤/ ٢٥) و(٤/ ٤٥٠).
(٦) العقد الفريد (٤/ ٤٢٢) والعيون والحدائق (١٤).
(٧) معجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤) وانظر تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧١) وفيه: أن سعدة بنت عثمان بن عفان، وهذا خطأ بل هي حفيدته.

ﷺ[1]، وقد ولدت له بنت قُطَرِيّ بن الفُجاءة المؤمّل والحارث[2]، وسكت المؤرخون عن زوجاته الأخريات.

وكان للعباس ثلاثون ابناً ذكوراً منهم: نَصْر دخل الأندلس ثم رجع، والمؤمّل، والحارث[3].

وسجن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية العباس، لأنه خافه على نفسه، وخشي أن يخرج عليه، فقُتِل في سجنه خنقاً[4]، وفي رواية: أنه مات في سجنه بالوباء في مدينة (حَرّان)[5]، الذي كان العباس في سجنها مع جماعة من بني أمية وبني العباس وبني هاشم، وكان موته سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريّة[6] (٧٤٩م).

وأرجح أنه مات بالوباء، إذ لا أتصوّر أن تبلغ القسوة بمروان بن محمد أن يُقْدِم على قتل العباس خنقاً.

ولا ذكر لتاريخ مولد العباس، ولكنه تولى أول منصب قيادي له سنة ثمان وثمانين الهجريّة (٧٠٧م)، وأبناء الخلفاء وأمراء البيت المالك الأمويون لا يتولون مثل هذا المنصب القيادي اعتيادياً قبل أن يبلغوا سنّ العشرين من أعمارهم يزيد ذلك قليلاً أو ينقص قليلاً، ولكن عمر العشرين هو المعدّل غالباً، كما مرّ بنا في سِيَر قادة الفتح من بني أمية.

نستنتج من هذا أنّ العباس ولد في نحو سنة ثمانٍ وستين الهجريّة

---

(١) جمهرة أنساب العرب (١٢١).
(٢) العقد الفريد (٤/ ٤٢٢) والعيون والحدائق (١٤).
(٣) جمهرة أنساب العرب (٨٩).
(٤) مروج الذهب (٣/ ٢٤٤).
(٥) حرّان: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة ابن عمر، وهي قصبة ديارمضر، بينها وبين الرّها يوم واحد، وبين الرقّة يومان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٤١ ـ ٢٤٢).
(٦) ابن الأثير (٥/ ٤٢٢) وانظر تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٢) وابن خلدون (٣/ ٧٨).

(٦٨٧م)، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريَّة (٧٤٩م)، أي أن عمره حين فارق الحياة كان أربعة وستين عاماً قمريّاً، واثنتين وستين عاماً شمسيّاً.

ومضى العباس إلى جوار ربّه، بعد أن أثرى الفتح الإسلامي، وقدّم درساً لدعاة الفتنة والتفرقة، بأن الفتنة لا تصيب الذين أشعلوها خاصة، بل الذين بذلوا قصارى جهودهم لإخمادها، فتحرق البريء والمجرم، وبأنّ التفرقة تضعف الدول وتؤدي بها إلى الانهيار.

القائد

أثمر التدريب العسكري للعباس على الفروسية، فأصبح العباس: فارس بني أميّة[١] في أيامه وفارس بني مروان[٢] أصحاب السلطة والسلطان.

وقد اهتم الوليد بن عبد الملك بابنه العباس اهتماماً خاصاً، وقد يكون سبب هذا الاهتمام أنّ العباس كان أكبر أولاد الوليد، فَوجَد فيه وجْداً شديداً، وكان قلبه أحسن موقع، فأدَبَهُ بجميع الآداب[٣]. وقد يكون سبب هذا الاهتمام أنّ الوليد وجد في ابنه العباس استعداداً فطرياً ورغبة عارمة في التعلّم وتلقي العلوم والآداب والفنون. ومهما يكن السبب، فقد كان الوليد حين يتحدّث على بنيه، يقول عن العباس: العباس فارسهم أو: العباس أفرسهم[٤]، ممَّا يدل على أن تدريب العباس أثمر أحسن الثمرات، فأصبح فارساً لامعاً في أيامه.

وقد كان للتدريب العسكري في أيام السلام أو في ميادين التدريب

---

(١) العيون والحدائق (١٤) والمعارف (٢٥٩).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٠).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٠).
(٤) العيون والحدائق (١٤٩).

العسكري البعيد عن ساحة الحرب، أسبقيّة مطلقة بالنسبة لأبناء الخلفاء وذكور البيت المالك، وكان هذا النوع من التدريب يقتصر على ركوب الخيل، والرمي، والسباحة، والسير مسافات شاسعة، وتحمل التقلبات الجوية صيفاً وشتاءً، والصبر على الجوع والعطش، والاكتفاء بالقليل من الطعام والماء، وتناول الطعام الخشن وشرب المياه المرّة، والعيش في المعسكرات البعيدة عن الترف، ودراسة الأساليب التعبويّة وفنون القتال، وقراءة تاريخ الحروب وبخاصة غزوات النبي ﷺ وسراياه وأيام العرب قبل الإسلام وبعده وتاريخ الفتح الإسلامي وسِيَر القادة الفاتحين، وقد استطاع العباس أن يبزّ أقرانه في مجال الفروسية التي تشمل الضرب بالسّيف والطعن بالرّمح والتصويب بالسّهام، مع أن التدريب على الفروسية من أصعب التدريبات العسكريّة وأشقّها حينذاك.

إلاّ أنّ التدريب العسكري نظرياً وعملياً، الذي يكون بعيداً عن ساحة القتال، بعيداً عن أخطار الحرب، أقلّ أهمية من التدريب العسكري الذي يتعلّمه الجندي والقائد في ساحة القتال، لأنّ التدريب الأول هو تدريب فرديّ، والثّاني هو التدريب الإجمالي، والأول أساس الثّاني، ولكن الثّاني ثمرة الأول والتطبيق العمليّ للتدريب الفردي، وقد مارس العباس التدريب الإجمالي عملياً في ساحة القتال، وهو ما نطلق عليه اليوم: تطعيم المعركة[1]، فأصبحت له تجربة عملية على ممارسة القتال.

وقد كان للوليد بن عبد الملك مزايا كثيرة، منها: أنه كان يرسل بنيه في كل غزوة على بلاد الروم[2].

وكان للوليد ثلاثة أهداف من إرسال بنيه في كل غزوة، وهي أهداف جليلة لو تعلمناها اليوم لتبدل حالنا إلى أحسن حال.

---

(١) تطعيم المعركة: ممارسة القتال عملياً، للتعود على جوّ المعركة، وتحمل أعبائها عملياً.
(٢) ابن الأثير (٥/ ٩) والبداية والنهاية (٩/ ١٤٦).

الهدف الأول: أن يؤثر بنيه بالخطر في الحرب، ولا يجعلهم يستأثرون بالأمن في السلام، وبهذا يقدِّم القدوة الحسنة لرعيته، فلا يطالبهم بالجهاد بما فيه من تكاليف التضحية والبذل والفداء، دون أن يطالب أولاده بما يطالب به غيرهم من الناس، وحينذاك لا يستطيع أحد أن يتخلّف عن الجهاد، بحجة أنّ الخليفة يطالب غيره بالبِرِّ وينسى نفسه.

والهدف الثَّاني: أن يجعل أولاده يشاركون في شرف الجهاد، وهو شرف عظيم وفرض من فروض الدِّين الحنيف، وشتّان بين المجاهدين والقاعدين.

والهدف الثالث: أن يدربهم عملياً على متطلبات القتال جنوداً وقادة، فليس الذي يدرس تاريخ الحرب كالذي يعانيها.

ولقد كان نصيب العباس بن الوليد بن عبد الملك من الجهاد أوفى نصيب، فقد جاهد ثلاث سنوات (سنة ثمان وثمانين وتسع وثمانين الهجريتين) مع مَسْلَمَة بن عبد الملك وبإمرته المباشرة، ليتعلم فن القيادة من قائد فذ، وغزا سنة تسعين الهجريَّة مستقلاً ولكن في نطاق ساحة قتال عمه مَسْلَمَة أيضاً، ليكون بإشرافه غير المباشر وبذلك استكمل العباس في هذه السنوات الثلاث تدريبه العملي في ساحة القتال على القيادة بإشراف مَسْلَمَة المباشرة وغير المباشر.

وبعد هذه السنوات الثلاث، انطلق العباس قائداً مستقلاً، فافتتح مدناً وحصوناً كثيرة من بلاد الروم[1]، كما سردنا تفاصيل غزواته وفتوحه فيما ذكرناه عن: (جهاده).

ومن المعلوم أنّ القائد المتميِّز يتّصف بثلاث خصال: الطبع الموهوب أولاً، والعلم المكتسب ثانياً، والتجربة العملية ثالثاً وأخيراً.

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧٠) وانظر التفاصيل في: (جهاده)، من هذا البحث.

وقد تيسّرت فيه خصلة: العلم المكتسب، بشكل قلّما تيسّر في غيره من القادة، نظراً لظروفه الخاصة به، وهي رعاية أبيه له في مجال التعليم رعاية بلغت الغاية حقاً.

كما تيسّرت فيه التجربة العملية تدريباً وتنفيذاً في ساحات القتال.

أما اتصاف العباس بالطبع الموهوب، فإنّ المعلومات الواردة في سيرته قائداً وإنساناً لا تعين على إعطاء القرار الصّائب: هل كان قائداً موهوباً، أم كان قائداً موظفاً حسب.

فقد قضى ثلاث سنوات من حياته العسكريَّة غازياً للتدريب على واجبات القائد، وقضى أربع سنوات قائداً مستقلاً: سنة ثلاث وتسعين، وأربع وتسعين، وخمس وتسعين، وثلاث ومئة الهجريَّة، ولكن غزواته كانت غزوات تعبوية لا سَوْقِيَّة (استراتيجيَّة)، بينما كانت ظروفه ابناً لخليفة وأخاً لخليفة تُعِينه ـ لو أراد ـ أن يقضي عدداً من السنين أكثر في الجهاد، وتعينه أيضاً على تولي قيادات كبرى ذات أهداف سَوْقِيَة.

والعهد بالقادة الموهوبين أن يقضوا أكثر سني حياتهم في ساحات القتال، ويتولّوا قيادات كبرى ذات أهداف سَوْقِيَة.

أما سنة اثنتين ومئة الهجريَّة، فقد قضاها في ساحة قتال العراق، لغرض القضاء على ثورة ابن المهلب، وكان العباس في هذا الاقتتال قائداً مرؤوساً، وكان القائد العام هو عمه مَسْلَمَة بن عبد الملك، وكان العباس على مقدِّمة مَسْلَمَة يوم (العَقْر)[1]، الحاسمة إنّ القائد الموهوب، يقضي معظم حياته غازياً لا جابياً، والذي يبدو أنّ العباس قضى معظم حياته جابياً لا غازياً، فتولى (حِمْص) وسكنها، وتولى مدينة (حَلَب).

ولكنه كان يكره (الفتنة) ويحرص على وحدة الصفوف، كما كان

---

(١) معجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤).

دمثاً رضيّ الخُلُق، لا تسمع منه كلمة حنا[١] ولا نابية، وهذا ما يجعله محبوباً من رجاله، يبادلهم حباً بحب، موثوقاً به من الذين يعملون تحت إمرته، يبادلهم ثقة بثقة، وهاتان صفتان للقائد المتميّز.

كما كان لا يستغل سلطانه لمصلحته الشخصية، فيستأثر بالمغانم ويؤثر جنوده بالمغارم، فقد كان نصيب كل جندي من مغانم معركة (طوانة) مئة دينار، فكان سهمه ما أصاب كل واحد من أفراد جيشه[٢]، وهذا يدل على أنه كان يعدل في الرعيّة ويقسم بالسويّة.

وهذه صفة من صفات القائد المتميّز أيضاً.

وحين تولّى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة، كان أول شيء نظر فيه أن كتب إلى العباس أن يأتيَ (الرُّصافة)[٣] ويُحصي ما فيها من أموال هشام بن عبد الملك وولده، ويأخذ أمواله وحَشَمه، ففعل العباس ما أمره به الوليد[٤]، وهذا إن دل على شيءٍ فإنما يدل على أمانة العباس، وهي صفة من صفات القائد المتميّز أيضاً، كما تدل على قوة شخصيته، إذ لا يستطيع أن يقدم على تصفية خليفة راحل له أبناء أشدّاء غير قوي الشخصية عظيم المكانة يهاب.

وقد كان العباس فارساً لا يُشقّ له غبار، شجاعاً مقداماً، لا يَجْبُن أبداً، ويثبت في المعركة ويحرِّض رجاله على الثبات كما حدث في معركة (طوانة) وقتاله في العراق بمعركة (سُوْرا)، إذ كانت الجولة الأولى في

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧١).

(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٢٧١).

(٣) الرصافة: رصافة الشام، وتسمى رصافة: هشام بن عبد الملك بن مروان، تقع في غربي الرّقة بينهما أربعة فراسخ على طرف البريّة، بناها هشام لما وقع الطّاعون بالشام، وكان يسكنها في الصيف، وقد كانت الرصافة موجودة قبل الإسلام بدهر ليس بالقصير، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٥٥) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٤) العقد الفريد (٤/ ٤٥٢).

هاتين المعركتين للعدو، ولكن ثبات العباس غيّر سير المعركة من الهزيمة إلى النصر.

ومن الواضح أنّ العباس قابليّة أدبيّة، استغلّها في تحريض المقاتلين على الثّبات، وهذه القابلية مميزة من ميزات القائد الجيِّد.

لقد كان قائداً تلقى العلوم العسكريَّة والنظرية، ومارس القتال، يتحلّى بالضبط المتين، محبوباً، ثقة، ذا خلق متين، غير مستغل، أميناً، شجاعاً مقداماً، فارساً من الطراز الأول، خطيباً مؤثراً في أتباعه، ولكنني أشك في أنه كان قائداً موهوباً، والدليل على ذلك بقاؤه بعيداً عن حصار (القُسْطَنْطينيَّة) في أيام سليمان بن عبد الملك، ولو كان موهوباً لكان له دور مرموق في ذلك الحصار، ولاستعان به سليمان بن عبد الملك كما استعان بغيره من قادة بني أميّة وغيرهم، ولما أبقاه على الهامش بعيداً عن معاونة مَسْلَمَة بن عبد الملك في الحصار.

ولعلّ مَسْلَمَة كان شك من قابلية العباس القيادية، وهو الذي درّبه على التطبيق العملي في الجهاد، لذلك نشب بينهما الخلاف حين كانا يعملان معاً في ساحة الاقتتال بالعراق، فبلغ ذلك يزيد بن عبد الملك، فبعث إليهما وأصلح بينهما[١].

ولكن فضل العباس في حماية الحدود الشماليَّة الغربيَّة للدولة لا ينكر، وفضله في الفتوح التعبويّة واضح للعيان.

العباس في التاريخ

يذكر التاريخ للعباس تمسّكه الشديد بأهداف وحدة الصف، وابتعاده عن إحداث المشاكل والفتن، في ظروف كثر فيها أصحاب المشاكل ودعاة الفتن.

---

(١) ابن الأثير (٥/٧٥).

ويذكر له أنه لم يشارك في الفتن بلسانه وسيفه، بل بذل أقصى جهوده لإخمادها.

ويذكر له بعد نظره الذي أعلنه لدعاة الفتن، فوقع ما توقّعه وحدث ما كان يخشاه.

ويذكر له مواقفه الصلبة دفاعاً عن مصير الدَّولة في القتال والاقتتال على حد سواء.

ويذكر له صفاته الخلقية الرفيعة والتزامه بالمُثل العليا التزاماً صارماً.

ويذكر له فتوحاته لكثير من الحصون والمدن في بلاد الرّوم، ودفاعه بالهجوم عن الحدود الشماليَّة الغربيَّة للدولة.

ويذكر له أنه ضحّى بحياته من أجل مُثله العليا، ولم يُضحِّ بمُثُله العليا من أجل حياته.

ويذكر له أنه كان إدارياً ناجحاً، ترك آثاراً باقية في (مرعش) تعميراً وتحصيناً ورباطاً.

يرحمه اللّه جزاء ما قدّمه من خدمات مخلصة للدولة في الميادين الإدارية والسياسية والعسكريَّة.

داود بن سليمان بن عبد الملك بن مروان
فاتح حصن المرأة[1] ومحاصر القسطنطينية

نسبه وأيامه الأولى

هو داود سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصيّ القرشي الأموي[2].

أبوه: أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك بن مروان.

وأمه: من أمهات الأولاد[3]، ويريدون بتعبير أمهات الأولاد، الجواري والإماء اللّواتي ولدن لمواليهنّ ذكراناً.

تربّى تربية أبناء الخلفاء، فوالده وجدّه عبد الملك بن مروان وجدّ أبيه مروان ابن الحكم خلفاء، فلا بد أنه تلقّى علوم القرآن والحديث والدِّين والتاريخ واللغة والأدب على أساطين العلماء في أيامه، كما تلقّى العلوم على المبرزين في تلك العلوم.

---

(1) حصن المرأة: لا ذكر له في المصادرالجغرافية القديمة المتيسِّرة، والظاهر أنه حصن من حصون الروم مما يلي (مَلَطْية)، انظر الطبري (٦/ ٥٤٥) وابن الأثير (٥/ ٣٦) وابن خلدون (٣/ ١٥٦).

(2) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ ـ ١٠٥) وفوات الوفيات (٢/ ٣١) وتهذيب ابن عساكر (٣/ ٢٠٣).

(3) العيون والحدائق (٣٤) وانظر تهذيب ابن عساكر (٣/ ٢٠٣).

كما مارس الأعمال الإدارية والسياسية والعسكريَّة عن كثب، وشهد كيف تعالج أمور الدَّولة المختلفة وتعطى القرارات في محيط الخلفاء والأمراء والقادة على أعلى المستويات.

ومن الواضح أنه أصبح موضع ثقة والده، فولاّه قيادة بعض الصوائف[1] وأراد أن يجعله وليّ عهد بعد أخيه أيوب الذي توفي قبل أبيه سليمان بن عبد الملك[2]، وهذا دليل على أنه أصبح أبرز إخوته بعد وفاة أخيه أيوب، وأنّ العلوم النظرية والعملية والتدريب العملي التي تعلّمها في أيامه الأولى أثْرَتْ كفاياته، فأصبح قادراً على تحمل المسؤوليات السياسية والإدارية والعسكريَّة على حد سواء.

لقد كانت أيامه الأولى تعليماً وتدريباً وتجارب تشابه أنداده من أبناء الخلفاء كمَسْلَمَة بن عبد الملك، والعباس بن الوليد بن عبد الملك إلى حد كبير[3].

جهاده

١ ـ في سنة سبع وتسعين الهجريَّة (٧١٥م) جهّز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى (القُسْطَنْطينيَّة)، واستعمل داود على الصّائفة، فافتتح حصن (المرأة)[4].

والظاهر أن داود كان قائد القوات السّاترة لحماية إعداد الجيوش وحشدها بالقرب من الحدود الإسلاميَّة الروميّة، ولحرمان الرّوم من التدخّل المباشر أو غير المباشر في عرقلة الإعداد للجيوش تنظيماً وتجهيزاً وتسليحاً وتدابير إدارية، ولمنعهم من التأثير المباشر أو غير المباشر في

---

(١) الصوائف: جمع الصائفة، وهي الغزوة التي تخرج صيفاً.
(٢) تهذيب ابن عساكر (٣/ ٢٠٣).
(٣) انظر سيرة مسلمة بن عبد الملك وسيرة العباس بن الوليد بن عبد الملك.
(٤) الطبري (٦/ ٥٢٣) وابن الأثير (٥/ ٢٠) وابن خلدون (٣/ ١٥٥).

حشدها استعداداً للحركة إلى (القُسْطَنْطينيَّة)، لكي يتمّ الإعداد والحشد حسب الخطّة المرسومة.

وكانت منطقة إعداد الجيوش في (دابق)[1]، وكانت خطة سليمان بن عبد الملك في ستر هذه المنطقة وحمايتها لاستكمال متطلبات الإعداد والحشد تتلخّص بإرسال الصوائف إلى بلاد الرّوم شمالاً، للسيطرة على الحصون التي تقع في منافذ جبال (طورس) الحصينة، فعملت تلك الصوائف عمل القوات السّاترة بأسلوب (التعرّض) بالحركة، لا بأسلوب (الدِّفاع) المُسْتَكن، وبذلك حقّقت هدفين في آنٍ واحد: الأول حماية منطقة الإعداد والحشد، والثّاني السيطرة على الحصون الجبلية التي تتحكم في الطرق التقريبيّة المؤدية إلى بلاد المسلمين.

وقد نجحت هذه الخطّة نجاحاً كبيراً، وهي خُطّة حصينة بلا مراء.

٢ ـ وفي سنة ثمان وتسعين الهجريَّة (٧١٦م) غزا داود أرض الرّوم، ففتح حصن (المرأة) ممّا يلي (مَلَطيَة)[2] مرة ثانية[3] كما افتتح حصن (الأجرب)[4].

وقد تكرر فتح حصن (المرأة) في هذه السنة، إذ سبق ذكره في فتوح سنة سبع وتسعين الهجريَّة، ممّا يدل على أنّ الرّوم استعادوه في شتاء سبع

---

(١) دابق: قرية بقرب مدينة (حلب)، وهذه القرية من أعمال (عزاز)، بينها وبين (حلب) أربعة فراسخ، عندها مرج معشب، كان ينزله بنو مروان إذا غزو الصائفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣).

(٢) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم أرض الشام شمالاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٥٠) وتقويم البلدان (٣٧٤) والمسالك والممالك للإصطخري (٤٦).

(٣) الطبري (٦/ ٥٤٥) وابن الأثير (٥/ ٣٦) وابن خلدون (٣/ ١٥٦) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٣٦) وتهذيب ابن عساكر (٣/ ٢٠٣).

(٤) تهذيب ابن عساكر (٣/ ٢٠٣)، ولا ذكر لحصن الأجرب في المصادر الجغرافية القديمة، ومن المحتمل أن يكون حصناً صغيراً في منطقة (ملطية) بالقرب من حصن المرأة.

وتسعين الهجريَّة، لقلّة المدافعين عنه وهو الأرجح، أو لانسحاب داود منه بعد فتحه صيفاً، واحتمال الانسحاب منه ضعيف، لأن المسلمين لا ينسحبون من موقع فتحوه إلاّ لأسباب قاهرة.

وكان إعادة فتح هذين الحصنين في هذه السنة هو لتأمين خطوط مواصلات الجيوش الإسلاميَّة الزاحفة لفتح (القُسْطَنْطينيَّة)، لأنها الشريان، الرئيس لتقدم تلك الجيوش نحو هدفها، وهي التي تصل قواعد المسلمين الأماميَّة بالقُسْطَنْطينيَّة، وعليها تتحرّك الإمدادات الإدارية والبشريّة من تلك القواعد الأماميَّة إلى الجيوش الزاحفة، وكل قائد لا بد له من تأمين خطوط مواصلاته بالربايا في المناطق الجبلية والحصون.

والظاهر أنّ داود استعاد حصن (المرأة) وفتح حصن (الأجرب) وهو في طريقه إلى (القُسْطَنْطينيَّة)، فقد كان قائد أحد الأرتال المتقدِّمة لفتح عاصمة الرّوم، بصحبة عمِّه مَسْلَمَة بن عبد الملك الذي تولى القيادة العامَّة سنة ثمان وتسعين الهجريَّة[١].

٣ ـ وكان داود بإمرة عمِّه مَسْلَمَة قائداً مرؤوساً في ملحمة حصار (القُسْطَنْطينيَّة)، وبقي معه من صيف سنة ثمان وتسعين الهجريَّة (٧١٦م) حتى تمّ انسحاب مَسْلَمَة عن (القُسْطَنْطينيَّة) بعد وفاة سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين الهجريَّة[٢] (٧١٧م) وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، فأمر مَسْلَمَة بالقفول منها بمن معه من المسلمين[٣]، بعد أن بقي المسلمون

---

(١) الطبري (٦/ ٥٣٠) وابن الأثير (٥/ ٢٧) والبداية والنهاية (٩/ ١٧٤) وأبو الفدا (١/ ٢٠٠) والعبر (١/ ١١٦) وابن خلدون (٣/ ١٥٥) ومختصر تاريخ الدول لابن العبري (١١٤).

(٢) الطبري (٦/ ٥٤٦) وابن الأثير (٥/ ٣٧) والعبر (١/ ١١٨) والمسعودي (٣/ ١٨٢) وشذرات الذهب (١/ ١١٦) والعيون والحدائق (٣٣) والتنبيه والإشراف (٢٧٥).

(٣) الطبري (٦/ ٥٥٣) وانظر ابن الأثير (٥/ ٤٣) والعيون والحدائق (٣٩) وسيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢) والمعارف (٣٦٠) والبداية والنهاية (٩/ ٣٢٨) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٢٦).

يحاصرون (القُسْطَنْطينيَّة) ثلاثين شهراً[1].

وكان سليمان بن عبد الملك قد أرسل ولده داود مع مَسْلَمَة إلى (القُسْطَنْطينيَّة)[2] وبقي معه إلى نهاية الحملة.

وهكذا أدّى داود واجبه قائداً فاتحاً، ومحاصراً لعاصمة الرّوم، وكان في الحصار الرجل الثّاني على الجيوش الإسلاميَّة بعد عمه مَسْلَمَة بن عبد الملك.

الإنسان

كان لسليمان بن عبد الملك أربعة عشر ذكراً[3]، منهم أيوب أمُّهُ أمّ أبان بنت خالد بن الحكم بن أبي العاص، ويحيى وعبيد اللَّه[4] أمهما عائشة بنت عبد اللَّه بن عمرو بن عثمان، ويزيد والقاسم وسعيد أمهم أم يزيد بنت عبد اللَّه بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وعبد الواحد وعبد العزيز أمهما أم عمرو بنت عبد اللَّه بن أسيد، وداود ومحمد وعمر وعبد الرحمٰن لأمهات أولاد شتَّى، والحارث لأم ولد، وفي أيوب يقول جرير:

إنّ الإمامَ الذي تُرْجَى فَوَاضِلُهُ ... بعدَ الإمامِ وليُّ العَهْدِ أيُّوبُ

وقد مات أيوب في حياة أبيه، وأما محمد فكان صاحب لهو وباطل، أدرك الوليد بن يزيد. وأما عبد الواحد، فولاّه مروان بن محمد المدينة وقتله صالح بن علي بن عبد اللَّه بن العباس وأخذ ماله، وفيه يقول ابن هَرْمَةَ:

إذا قِيلَ مَنْ خَيْر مَنْ يُرْتَجَى ... لِمُعْتَرِ فِهْرٍ ومُحْتَاجِها

---

(1) البدء والتاريخ (٦/ ٤٤).

(2) العيون والحدائق (٣٨) وانظر الطبري (٦/ ٥٥٠) وابن الأثير (٥/ ٣٩) وتهذيب ابن عساكر (٣/ ٢٠٣).

(3) العيون والحدائق (٣٤).

(4) العيون والحدائق (٣٤): عبد اللَّه.

ومَنْ يُعْجِلُ الخيلَ يوم الوَغَى بإلجَامِها قبلَ إسْراجِهَا
أشارت نساءُ بني مَالِكٍ إليكَ به قَبْلَ أزْواجَها

وأما عبد الرحمٰن فمات وهو شاب، وأما الحارث فكان من رجالهم جَلَداً وذِكراً، وأما يزيد فمات قبل تولي العباسين[1].

وأما داود، فقد كان أبرز إخوته بعد أيوب، لأنّ والده أراد أن يعهد إليه ليتولى الخلافة من بعده، على الرغم من أنه ابن أمة، وكانوا يكرهون ذلك ولا يولّون إلاّ ابن حُرَّة[2]، كما هو معروف في تقاليد بني أميّة.

فقد ذكر رَجاء بن حَيْوَة ـ وكان من أعْبَدِ الناس ـ وهو رجل من أهل (الأردن) كان موصوفاً بالحكمة والشدّة، مرضياً في دينه وأمانته، وكانت ملوك بني أمية تثق به لفضله وشرف نفسه[3]، أنّ سليمان بن عبد الملك مَرِض مرضاً شديداً، فلمّا ثَقُل عهد في كتاب كتبه لبعض بنيه وهو غلام ولم يبلُغ، فدخل عليه رجاء وقال: ما تصنع يا أمير المؤمنين! إنه ممَّا يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجل الصّالح، فقال سليمان: أنا استخير اللّه وانظُرُ فيه، ولم أعزم عليه، فمكثَ يوماً أو يومين، ثم خَرَّقه. ودعا سليمان رجاء فقال له: ما ترى في داود بن سليمان؟، فقال رجاء: هو غائب عنك بالقُسْطَنْطينيَّة، ولا تدري أحيٌّ هو أم ميت، فقال: فَمَنْ تَرى؟، فأجابه رجاء: رأيك يا أمير المؤمنين!، فقال سليمان: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟، فقال: أعْلَمُهُ واللّه خيِّراً فاضلاً مسلماً، فقال سليمان: هو واللّه على ذلك، ولئن ولَّيتُه ولم أُوَلّ أحداً سواه، لتكُوننَّ فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلاّ أن يجعل أحدهم بعده، فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر[4].

---

(١) العيون والحدائق (٣٤ ـ ٣٥) وانظر جمهرة أنساب العرب (٩٠ ـ ٩١).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٣/ ٢٠٣).
(٣) العيون والحدائق (٣٨) والبداية والنهاية (٩/ ١٨١ ـ ١٨٢).
(٤) الطبري (٦/ ٥٥٠) وابن الأثير (٥/ ٣٩) والعيون والحدائق (٣٨) وانظر تهذيب ابن عساكر (٣/ ٢٠٣) وابن خلدون (٣/ ١٦١).

وقد كان الناس يقولون عن سليمان بن عبد الملك: سليمان مفتاح الخير[1]، فلا يمكن أن يفكِّر في تولِيَةِ داود الخلافة من بعده وهو على فراش الموت، إلاّ إذا وجد فيه مزايا وكفاية وعقلاً وديناً.

ولم يرد له ذكر في الخلافات والفتن التي تَفَجّرت في داخل بني أمية، ففرّقت صفوفهم وجعلتهم شيعاً، فكان ذلك سبباً من أهم أسباب انتقال الخلافة منهم إلى بني العباس، كما لم يرد له ذكر في تولي المناصب الإدارية والقيادية، منذ عودته من حصار (القُسْطَنْطينيَّة) حتى قُتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريَّة (٧٤٩م) يوم نهر (أبى فُطْرِس)[2]. فقد تتبّع عبد اللّه بن علي بن عبد اللّه بن العباس عم السفّاح أول خلفاء العباسيين ـ بني أميّة من أولاد الخلفاء وغيرهم، فأخذهم ولم يفلت منهم إلاّ رضيع أو مَن هرب إلى الأندلس، فقتلهم بنهر (أبي فُطْرُس)، فلمّا فرغ منهم قال:

بني أميّةَ قد أفنيت جمعَكمُ ... فكيف لي منكمُ بالأوّل الماضي
يُطَيّب النَفسَ أنّ النار تجمعكم ... عُوِّضْتُم من لظاها شَرَّ مُعتاضِ
مُنِيتُم لا أقالَ اللّه عَثرتَكم ... بليثٍ غاب إلى الأعداء نهّاض
إن كان غَيْظي لفَوْتٍ منكمُ فلقد ... مُنِيتُ منكم بما ربّي به راضِ[3]

فإذا صحّ أن عبد اللّه العباسي قال هذا الشعر أو لم يقله، فالأمر سيّان في رأيي، لأنه أفرط في إبادة بني أميّة، لا فرق بين مذْنب وبريء، فاحترق الأخضر واليابس، وقُتل الصالح والطالح، وخسر المسلمون خير قادتهم وإدارييهم ورجال دولتهم دون مسوِّغ.

---

(١) الطبري (٦/٥٤٦) وابن الأثير (٥/٣٧) والعيون والحدائق (١٧).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٩١) وتهذيب ابن عساكر (٣/٢٠٣). ونهر أبي فطرس: موضع قرب مدينة (الرّملة) من أرض فلسطين على اثني عشر ميلاً من (الرّملة) في سمت الشمال نهر أبي فطرس، ومخرجه من أعيُن في الجبل المتصل بمدينة (نابلس) وينصبّ في البحر بين مدينتي (أرسوف) و(يافا)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٣٣).

(٣) ابن الأثير (٥/ ٤٣٠ ـ ٤٣١)، وانظر معجم البلدان (٨/ ٣٣٣).

وعلى الرغم من حمامات الدم التي لطّخ قسم من العباسيين أيديهم بها، وعلى الرغم من الإرهاب الشنيع الذي مارسه هؤلاء دون شفقة ولا رحمة، فقد ارتفعت أصوات شجاعة في رثاء قتلى بني أميّة، ولا جدال في أن الشعر الذي قيل في رثائهم كان شعراً صادقاً، لأنه لا نوال يُرجى من بني أمية ولا زلفى، بعد أن دالت دولتهم، وأصبحوا أحاديث للناس وتاريخاً.

قال إبراهيم مولى قائد العَبَلي يرثيهم:

أفاض المدامعَ قَتْلى كُدَى[1] ... وقتلى بكُثْوَة لم يُرْمَسِ[2]

وقَتْلى بِوَجٍّ[3] وبالَّابَتَين[4] ... بِيَثْرِبَ[5] هم خيرُ ما أنفُسِ

وبالزَّابيَين[6] نفوس ثَوَتْ ... وأُخرى بنهر أبي فُطْرُس

أولئك قومٌ أناخت بهم ... نوائبُ من زَمنٍ متعس

إذا ركبوا زينوا المركبين ... وإن جلسوا زينة المجلس

هم أضرعوني لريب الزّمان ... وهم ألصقوا الرُّغم[7] بالمعطَس

---

(١) كدى: وردت في معجم البلدان: كُدى، ومفتوحة الكاف هي كداء، موضع بمكة المكرمة عند (ذي طُوى)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٢٠ ـ ٢٢٣).

(٢) كثوة: ورد ذكرها في معجم البلدان (٧/ ٢١٨) بدون أن يذكر مكانها.

(٣) وج: هي مدينة الطائف في الحجاز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠).

(٤) اللّابتان: تثنية (لابة) وهي الحَرّة، وجمعها لابٌ. وفي الحديث أنّ النبي ﷺ حرّم ما بين لابَتَيها: يعني المدينة المنورة: لأنها بين الحرَّتين. واللّابة لغة: الأرض التي ألبستها الحجارة السُود، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩).

(٥) يثرب: مدينة رسول الله ﷺ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩)، وهي المدينة المنورة التي فيها مسجد النبي ﷺ وقبره الشريف.

(٦) الزّاب: نهر معروف في العراق الشمال الشرقي، وهما زابان: الزّاب الأعلى، والزّاب الأسفل، وربما قيل لكل واحد من نهري الزاب: زابي، والتثنية: زابيان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٢٢٩ ـ ٢٣٠).

(٧) الرُّغم: الكره والذل والهوان، يقال: فعله على رغمه.

فـمـا أنْـسَ لا أنـسَ قـتـلاهـمُ ولا عـاش بـعـدهـمُ مَـنْ نَـسِـي[1]

وقال:

أبـكـي عـلـى فِـتْـيَـةٍ رُزِئْـتُـهُـمُ ما إن لـهـم في الرجال من خَلَفِ

نـهـر أبـي فـطْـرُسٍ مـحـلـهـمُ وصـبَّـحـوا الـزَّابـيـن لـلـتَّـلَـف

أشـكـو إلـى الـلّـه مـا بـلـيـتُ بـه من فَقْد تلك الوجوه[2] والشَّرف

وقال:

بـكـيـتُ ومـاذا يـردّ الـبُـكـاء وقـلّ الـبُـكـاء لـقـتـلـى كُـدا

أصـيـبـوا مـعـاً فـتـولّـوا مـعـاً كـذلـك كـانـوا مـعـاً فـي رَخـا

بـكـت لـهـم الأرض مـن بـعـدهـم ونـاحـت عـلـيـهـم نـجـومُ الـسَّـمـا

وكـانـوا ضـيـائـي فـلـمّـا انـقـضـى زمـانـي بـقـومـي تـولّـى الـضّـيـا[3]

ولا يمكن أن يصدر مثل هذا الشعر الصادق إلاّ في رثاء مَنْ ظُلِم، لا في رثاء مَنْ ظَلَم، وكان داود ممن ظُلِم حقّاً ومعه من أنداده وآل بيته كثير، إذ لم يشهد الإقتتال في الصراع على الملك بين الأمويين والعباسيين، كما أنّ يوم نهر (أبي فطرس) كان بين قوتين غير متكافئتين: جمعة من بني أميّة عزّل من السّلاح، وقوّة مدججة بالسّلاح من بني العباس وجيشهم، وأكثر الأمويين في تلك المنطقة كانوا ممن اعتزلوا الاقتتال.

وما هكذا كان العرب يقاتلون، ولا بذلك نصّت تعاليم القتال في الإسلام.

وهذا الذي أوردته من شعر في الرثاء لقسم من الذين ظُلموا بغير حقٍ من بني أميّة هو جزء يسير ممّا قاله شاعر واحد في رثاء هؤلاء

---

(١) معجم البلدان (٧/ ٣٠٩) و(٨/ ٣٣٣).

(٢) معجم البلدان (٨/ ٣٣٤).

(٣) معجم البلدان (٧/ ٢٣٣).

المظلومين بعد أن أصبحوا رجالاً بلا غدٍ ولا سلطة ولا مال، فما بالك بما قاله الشعراء الآخرون الذين رثوا المظلومين من بني أميّة، وهم ضخم من الشعراء، عاش شعر بعضهم وطوت الأيام شعر الأكثرين، لم يخشوا السُّلطة الغاشمة، ولم يخافوا الوعيد والسجون والتشريد، بل عبّروا عن شعورهم بشجاعة وصدق وأمانة.

ولم يقتصر رثاء المظلومين من بني أمية على الشعراء وحدهم، بل شمل غيرهم من الأدباء والعلماء وأفراد الشعب العربي، وقد عبّروا كل واحد منهم بطريقته وأسلوبه، ولكن معظم هذا الرثاء دُمِّرَ كما دُمِّرَ بنو أميّة وأبيد كما أبيدوا.

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على ما حاق بالأبرياء من بني أميّة من ظلم شنيع.

ولعل داود كان من جملة المظلومين، فلم يحدثنا التاريخ أنه شارك في الاقتتال بقلبه أو بلسانه أو بسيفه، فلماذا يقتل وترمى جثته في الطُّرقات؟

لقد ذكرنا أنه بدأ حياته العملية في الجهاد سنة سبع وتسعين الهجريَّة (٧١٥م)، وأنه قتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريَّة (٧٤٩)، واعتيادياً تبدأ الحياة لأبناء الخلفاء وأضرابهم في العشرين من سني حياتهم، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً، ومعنى ذلك أنه ولد سنة سبع وسبعين الهجريَّة (٦٩٦م) تقريباً، أي أنه عاش خمساً وخمسين سنة قمرية وثلاثاً وخمسين سنة شمسية.

القائد

١ ـ لم يشهد داود غير غزوتين تمهيديتين لحصار (القُسْطَنْطينيَّة): الأولى لستر إعداد الجيوش وحمايتها بأسلوب التعرض بالحركة لا بأسلوب الدِّفاع المُسْتَكِنّ، والثَّانية بقيادة جيش من جيوش المسلمين في مرحلة:

مسير الاقتراب، لتطهير الجيوب الثابتة للعدو، وتأمين خطوط مواصلات الجيوش.

فلما انتهت مرحلة: مسير الاقتراب، ووصلت جيوش المسلمين إلى (القُسْطَنْطينيَّة)، بدأت مرحلة حصار هذه المدينة، فشهد الحصار منذ بدايته حتى نهايته، وكان في هذه المرحلة السّاعد الأيمن لعمه مَسْلَمَة بن عبد الملك القائد العام للجيوش الإسلاميَّة في مرحلة الحصار، وكان الرجل الثَّاني في تسلسل القيادة بعد مَسْلَمَة، فكانت هذه الغزوة هي الثالثة من غزواته قائداً.

٢ ـ وتدلّ الغزوة الأولى لداود: غزوة فتح حصن (المرأة)، أنه ان قائداً (تعرّضياً)، فقد قام بواجب القِطَع السّاترة لجيوش المسلمين التي يجري إعدادها في القاعدة الأماميَّة (دابِق)، ولكن بأسلوب جديد يتّخذ (التعرّض) بدلاً عن (الدِّفاع)، فيستر قوات المسلمين ويحميها، ويحرم الرّوم من الحصول على المعلومات عن نيات المسلمين وتدابيرهم العسكريَّة، ويسيطر على الطرق التقرُّبيَّة التي تقود الرّوم إلى قاعدة المسلمين الأماميَّة بفتح الحصن الروميّ الذي يسيطر على تلك الطرق.

ونستنتج من ذلك بعض مزايا داود القيادية، فهو يتّسم بمبدأ (التعرّض) من أهم مبادىء الحرب، ويؤدي واجبه بأسلوب تعبوي جديد، إذ المفروض أنّ واجب (السِتار) يتمّ بالدِّفاع أمام الموضع الأصلي بمسافة كافية تمنع العدو من التصدي لذلك الموضع بالنّار والنَّظَر ولكنه أدّى هذا الواجب بالتعرض لا بالدِّفاع، وهذا أسلوب جديد في التعبئة. وهو قدير في ممارسة الحروب الجبلية التي تتطلب كفاية عالية، وهو قادر على التصدي للحصون المنيعة وقادر على فتحها.

وكل هذه القابليات من صفات القائد المُتَميِّز.

٢ ـ وتدلّ الغزوة الثَّانية لداود: غزوة استعادة فتح حصن (المرأة)، وقيادة رَتل من أرتال المسلمين الزّاحف لفتح (القُسْطَنْطينيَّة) في مرحلة

مسير الاقتراب، أنّ داود كان يتّسم بالحذر والحيطة، فيحمي جيشه بالربايا عند اجتياز المناطق الجبلية، وبِقطع الحماية: الميمنة والميسرة والمؤخرة والمقدمة في حركته على المناطق المكشوفة، ويحمي طرق مواصلاته بالسيطرة على المراكز الحصينة التي تتحكّم في تلك الطرق، ويحسب لكل شيء حسابه فلا يفسح المجال للعدو أن يهدِّد المواصلات بالغارات أو بحرب العصابات.

والحذر والحيطة وإدخال أسوأ الاحتمالات في الحساب، من صفات القائد المتميِّز أيضاً.

٤ ـ وتدلّ الغزوة الثالثة لداود، غزوة حصار (القُسْطَنْطينيّة)، أنه كان قائداً يتحلّى بالضبط المتين، لأنّ العرب لا تصبر على الحصار المديد، كما لا تصبر على البرد الشديد، وقد عانى المحاصرون ظروفاً قاسية: النار اليونانية، وقلة الزاد، والخسائر الفادحة بالأرواح، وانهيار المعْنَوِيّات، وكل هذه المعضلات تحتاج إلى قائد مسيطر قادر، يحول دون تسرّب المقاتلين من ساحة المعركة إلى مكان آمن بعيد عن الأخطار.

كما أن ثباته العنيد مدة ثلاثين شهراً يدل على تمتعه بالشّجاعة والإقدام، وتحمله الأهوال والصعاب.

وقد دارت معارك طاحنة بين الطرفين، فتحمّل مسؤولية القتال وصبر وصابر، ممّا يدل على إتقانه القضايا التعبوية بكفاية وإتقان.

كما صادفته مشاكل إدارية قاسية، فعالج تلك المشاكل وتغلّب عليها، ممّا يدل على قابليته في حل المشاكل الإدارية.

وصادف مشاكل تردّي المعْنَوِيّات، فقاوم هذا التردِّي بأناة وصبر، ممّا يدل على تمتعه بالمعْنَوِيّات العالية، فبقي مع الجيوش الإسلاميّة المحاصرة، وكان بإمكانه الالتحاق بوالده في (دابِق) حيث الأمن والرخاء.

كما شارك في قيادة انسحاب الجيوش الإسلاميّة من (القُسْطَنْطينيّة)

إلى قواعد المسلمين، ممّا يدلّ على قابليته التعبوية ومقدرته على تحمل المشاق.

ومن المعروف أنّ القائد المتميز هو الذي ينجح في قيادة معركة الانسحاب، التي تعد بحق من أصعب صفحات القتال، لأنّ الانسحاب يؤثر في معنويات المنسحبين، كما يبذل العدو قصارى جهده ويزج بكل طاقاته في المطاردة محاولاً جعل الانسحاب الذي هو أحد صفحات القتال هزيمة تحطِّم المعْنَوِيَّات وتكبِّد المنهزمين أفدح الخسائر.

لذلك كان نجاح القائد في السيطرة على الانسحاب، وإحباط محاولات العدو لقلبه إلى هزيمة، يحظى ولا يزال بأعظم التقدير، وتعتبر اختباراً صعباً للقيادة القادرة.

تلك هي صفات داود القيادية التي يمكن استنتاجها في غزواته الثلاث، وهي بدون شك ثقيلة الوزن بالنسبة لجميع الموازين.

٥ ـ وبالإمكان إضافة صفة أخرى إلى تلك الصفات، وهي أنّ داود كان راسخ العقيدة، فبقي ثلاثين شهراً في أهلك الظروف والأحوال ثابتاً لا يتزعزع، وأصحاب العقيدة الراسخة وحدهم يصبرون على البأساء والضراء وحين البأس، فهي وحدها تهوِّن الصعاب وتذلِّل العقبات.

كما أن أصحاب العقيدة الراسخة يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه، ويضحّون بهما وهما أعلى ما يحرص عليهما الإنسان، وغيرهم يضحّون بكل شيء حرصاً على أموالهم وأنفسهم، وكل أمر في سبيل العقيدة الراسخة يهون.

ولقد كانت انتصارات المسلمين الأولين في أيام الفتح الإسلامي العظيم، انتصارات عقيدة لا مراء.

٦ ـ ونستطيع أن نتبين بجلاء أنّ مزيّتين من مزايا القائد المتميِّز الثلاث، وهي: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العملية، باديتان للعيان بوضوح، وهما المزية الثَّانية والمزية الثالثة.

أما المزية الأولى، وهي الطبع الموهوب، فمن الصعب أن نتلمسها في شخصيته القيادية، فهو لم يتحمل مسؤولية قيادة كبرى، ولم يمارس القيادة بعد عودته من (القُسْطَنْطينيَّة)، ولا نعرف سبباً لتخليه عن ساحات القتال.

ولست أشك في أنّ والده أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك لم يوله القيادة، لأنه ولده حسب، بل لأنّ فيه مزايا قيادية معينة أهّلته لتولي القيادة، فقد كان لسليمان أربعة عشر ولداً من الذكور، لم يتسنَّم منهم منصب القيادة غير داود، كما يدل ذلك على أنّ داود له مَيْلٌ طبيعيّ لتولي قيادة الجيوش وله رغبة في القضايا العسكريَّة.

ولكن مزايا داود القيادية وميله ورغبته في النهوض بأعبائها، ليس كل شيء في إثبات تحليه بسجيّة: الطبع الموهوب، فالقادة الموهوبون تركوا بصماتهم على الأحداث الكبرى، فتوحاً باقية وانتصارات خالدة.

ولم يترك داود مثل تلك الفتوح والانتصارات.

وإذا جعلنا قادة بني أميّة طبقات، وجعلنا أمثال قُتيبة بن مُسْلم الباهليّ ومحمد بن القاسم الثقفي من قادة المشرق الإسلامي، وعُقبَة بن نافع الفِهْريّ وموسى بن نُصَيْر وطارق بن زياد من قادة المغرب العربي، في قائمة الطبقة الأولى، والعباس بن الوليد بن عبد الملك ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان في قائمة الطبقة الثَّانية، فإن داود وأضرابه يصبح في قائمة الطبقة الثالثة.

وحسبه بهذا التقويم فخراً.

داود في التاريخ

يذكر التاريخ لداود عُزوفه عن تولي الخلافة، ونصحه الصادق الأمين للخلفاء وذوي السلطان.

ويذكر له أنه كان يعتبر المناصب العالية تكليفاً لا تشريفاً، فلم يسع

لتولي منصب القيادة، بل سعى المنصب إليه، فتولاّه بكفاياته لا بنسبه.

ويذكر له أنه لم يشارك في الفتن الداخلية ولا انضم إلى الطامحين بالسّلطة والحكم، فاعتزل الفتن، ولم يثرها بقلبه ولسانه وسيفه.

ويذكر له جهاده التمهيدي لفتح (القُسْطَنْطينيَّة) ومشاركته المؤثِّرة في حصارها، وتحمله الأهوال صابراً محتسباً.

ويذكر له أنه قتل مظلوماً، فاحترق بنار فتنة لم يكن من دعاتها.

يرحمه اللَّه جزاء ما قدّم للمسلمين من جهد وجهاد.

مُعاويَة بن هِشَام بن عبد الملك بن مروان
فاتح شطر بلاد الرّوم

نسبه وأيامه الأولى

هو معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ القرشي الأمويّ[1].

أبوه: هشام بن عبد الملك بن مروان.

وأمه: من أمهات الأولاد[2]، ويريدون بتعبير أمهات الأولاد: الجواري والإماء اللواتي ولدن لمواليهن ذُكراناً.

وقد تربى تربية أبناء الخلفاء في بيت الخلافة أبوه هشام بن عبد الملك خليفة، وجده عبد الملك بن مروان خليفة، وجد والده مروان بن الحكم خليفة أيضاً. فلا بد أنه تلقّى علومه النظرية والعلمية على أكبر الأساتذة والشيوخ، وهذه العلوم يمكن تلخيصها؛ بالقرآن وعلومه، والحديث الشريف، واللّغة، والأدب شعراً ونثراً، وأيام العرب قبل الإسلام وبعده والغزوات والسرايا والتاريخ.

---

(١) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ ـ ١٠٥) وفوات الوفيات (١/٢١) وتهذيب ابن عساكر (٣/٢٠٣).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٩٢) وانظر العيون والحدائق (١٠٧)، وقد جاء فيه أسماء أمهات قسم من إخوة معاوية وأغفل ذكر أمهات قسم منهم، وهؤلاء الذين لم تذكر أسماء أمهاتهم كانوا من أمهات الأولاد.

كما كان أولاد الخلفاء والأُمراء يركِّزون على التدريب العسكري: الرمي بالسِّهام، والضرب بالسيف، والطعن بالرمح، واستخدام آلات الحصار كالمجانيق والدّبابات والعَرّادات[1]، والفروسية، والسباحة، والتدريب على المسيرات الطويلة الشاقة، والتعود على ظروف المعيشة الصعبة الخشنة، وهذا ما نطلق عليه: التدريب الفردي.

أما التدريب الإجمالي، فكيون بالجهاد في ساحات القتال جندياً وقائداً، وقد ولاّه أبوه الغزو مرات عديدة[2] قائداً.

وهناك تعليم عسكري نظري، بالإضافة إلى التدريب العسكري العملي، والتعليم العسكري النظري يشمل الأساليب التعبوية، والكمائن، والربايا، واختيار المعسكرات، والتعسكر، والحماية (مقدمة، مؤخرة، ميمنة، وميسرة، ساقة)، والواجبات الاستطلاعية، وأساليب مسير الاقتراب، والهجوم، والدِّفاع، والانسحاب، والمطاردة، وطُرُق تطبيق مبادىء الحرب كالمباغتة والأمن والتحشد، والمعْنَوِيّات والقضايا الإدارية.

وقد هيّأت ظروف معاوية العائلية تلقي العلوم النظرية والتدريب العسكري والتطبيق العملي للعلوم العسكريَّة النظرية في ساحة القتال، وبذلك استكمل متطلبات العلم المكتسب نظرياً وعملياً.

كما هيأت له ظروفه ممارسة الأعمال الإدارية والسياسية والعسكريَّة عن كثب، فشهد كيف تعالج الأمور الخطيرة للدولة، وكيف تعطى القرارات المهمة في أعلى مستويات الدَّولة.

وهذا وحده من أهم ما تلقاه من تدريب عملي.

---

(١) العرادة: آلة من آلات الحرب القديمة، وهي منجنيق صغير.
(٢) شذرات الذهب (١/ ١٥٦) وانظر دول الإسلام (١/ ٦١) وجمهرة أنساب العرب (٩٢). قنابيل: مدينة بالسند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٧).

لقد كانت أيام معاوية الأولى تعليماً وتدريباً وتجارب تشابه أيام أنداده من أبناء الخلفاء كمَسْلَمَة بن عبد الملك وداود بن سليمان بن عبد الملك إلى حدٍ بعيد في الخطوط الرئيسية، إذا اختلفت قليلاً في التفاصيل فلن تختلف في الأسس.

جهاده

١ - في سنة سبع ومئة الهجريَّة (٧٢٥م) غزا الصائفة معاوية، فعبر إلى جزيرة (قُبْرُص)[١] ثم عاد أدراجه[٢].

ومن المعلوم أنّ جزيرة (قبرص) كان قد فتحها معاوية بن أبي سفيان سنة ثمان وعشرين الهجريَّة (٦٤٨م) في عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه[٣] حين كان معاوية والياً على أرض الشَّام، وبقيت (قبرص) بيد المسلمين حتى تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أبيه، فأقفل الناس عن (قبرص)[٤].

ومن الواضح أنّ هذه الغزوات كانت غارة من الغارات، هدفها تهديد سكّان هذه الجزيرة التي هي قاعدة من قواعد الروم: يهاجمون منها بالسّفن الموانىء الإسلاميَّة بين حين وآخر، ويمدّون منها الرّوم بالرجال والسفن لمهاجمة الحدود الشماليَّة الغربيَّة للدولة الإسلاميَّة، لذلك كان لا بد من تهديد أهل الجزيرة في عقر دارهم، لوضع حدٍ لنشاطهم العدائي على المسلمين.

---

(١) قبرص: جزيرة في بحر الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٦)، وهي جزيرة كبيرة معروفة في البحر الأبيض المتوسط، يقطنها الأتراك واليونانيون في الوقت الحاضر.

(٢) الطبري (٧/ ٤٠) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٦١) والبداية والنهاية (٩/ ٢٤٤)، وفي ابن الأثير (٥/ ١٤١) أن هذه الغزوة جرت سنة ثمان ومئة الهجرية.

(٣) الطبري (٤/ ٢٥٨) وابن الأثير (٣/ ٩٥).

(٤) البلاذري (٢٠٩).

٢ ـ وفي سنة ثمانٍ ومئة الهجريَّة (٧٢٦م) غزا معاوية أرض الرّوم، فبعث البطّال[١] أحد قادته المرؤوسين على جيش كثيف، فافتتح (حَنْجَرَة)[٢] وغنم منها شيئاً كثيرا[٣].

ومن المعروف أنّ هذه المناطق سبق فتحها في عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه سنة سبع عشرة الهجريَّة[٤] (٦٣٨م)، لأنها من مناطق (الجزيرة) التي فتحها عِيَاض بن غَنْم الفِهْريّ القرشيّ[٥] وسُهيل بن عَدِيّ الخزرجيّ[٦] وعبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان الأنصاري[٧] والوليد بن عُقْبَة بن أبي مُعيط الأموي القرشي[٨] وعُمَير بن سعد الأنصاري[٩]، ولكنها بقيت منذ فتحها المسلمون بين مدٍ وجَزْرٍ، يستعيدها الرّوم تارة إذا ضعف المسلمون وتفرقوا، ويعيد فتحها المسلمون تارة أخرى إذا قوي المسلمون وتوحّدوا.

وهذه الغزوة من غزوات الدِّفاع عن الحدود الشماليّة الغربيّة للدولة، لحمايتها من الرّوم، وجرت بأسلوب (التعرّض) بالفتح لا بالدِّفاع المُسْتَكِنّ، وخير أساليب الدِّفاع هو الهجوم.

٣ ـ وفي سنة تسع ومئة الهجريَّة (٧٢٧م) غزا معاوية أرض الرّوم،

---

(١) هو عبد اللّه البطال، انظر ابن الأثير (٥/ ١٧٣).
(٢) حنجرة: موضع بجزيرة ابن عمر في منطقة قنسرين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣٥٠).
(٣) النجوم الزاهرة (١/ ٢٦٢)، والبداية والنهاية (٩/ ٢٥٦) وفيه وردت: جنجرة وتاريخ ابن خياط (٢/ ٣٥٢) وفيه وردت: حنجرة.
(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٤/ ٥٣ ـ ٥٦) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢ ـ ٥٣٤).
(٥) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٢٥ ـ ٤٣٥).
(٦) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٣٦ ـ ٤٤١).
(٧) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٤٢ ـ ٤٤٨).
(٨) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٤٩ ـ ٤٦٨).
(٩) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩ ـ ٤٧٥).

ففتح حصناً يقال له: (طيبة)[1]، وأصيب معه قوم من أهل (أنطاكية)[2] بخسائر في الأرواح[3].

ومِنْ تتبعِ سَيْر الحوادث في الفتح، وتكبد أهل (أنطاكية) بالذّات خسائر في هذه الغزوة، نستنتج أنّ هذا الحصن يقع في منطقة الجبال شمالي (أنطاكية)، وأن الرّوم استعادوه من المسلمين، فهدّدوا باستعادته أمنَ (أنطاكية)، وهي قصبة العواصم من الثغور الشّاميَّة، فكان لزاماً على الدَّولة الإسلاميَّة إعادة فتح هذا الحصن، لحماية (أنطاكية) من تهديد الرّوم لها بالغارات وحرمانهم من استعادتها ثانية إلى سيطرتهم.

٤ ـ وفي سنة عشر ومئة الهجريَّة (٧٢٨م) غزا معاوية أرض الرّوم، ففتح حصنين كبيرين من حصونهم[4]: (صمَلُة) و(البوة)[5]. و(صمَلُة) هذه هي (صِمَالو) التي تقع قرب (المَصّيصَة) و(طَرْسُوسَ)[6] أما (البوة) فلا

---

(١) طيبة: لا ذكر لها في المصادر الجغرافية التي بين أيدينا، ووردت (طيبة) في الطبري (٧/ ٤٦) وابن الأثير (٥/ ١٤٥) ووردت باسم (طبسة) في ابن خلدون (٣/ ٢٨٤)، ووردت باسم (الخطاسين) في تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٥٢)، ووردت باسم (الطيبة) في النجوم الزاهرة (١/ ٢٦٧)، ولا ذكر لهذه الأسماء في المصادر الجغرافية القديمة التي تدل على موضع بعينه يشير إلى سير الحوادث في هذا الفتح.

(٢) أنطاكية: مدينة تعتبر قصبة العواصم من الثغور الشامية، انظر التفاصيل في معجم البلدان.

(٣) الطبري (٧/ ٤٦) وابن الأثير (٥/ ١٤٥) وابن خلدون (٣/ ٢٨٤) وتاريخ ابن خياط (٢/ ٣٥٢) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٦٧) وتاريخ الموصل (٢٨).

(٤) النجوم الزاهرة (١/ ٢٦٧) والبداية والنهاية (٩/ ٢٦٠) وتاريخ ابن خياط (٢/ ٣٥٢).

(٥) تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٥٢)، وفي الطبري (٧/ ٥٤) وردت (صمالة)، وفي ابن الأثير (٥/ ١٥٥) وردت (صملة) وانظر العيون والحدائق (٩٠).

(٦) انظر معجم البلدان (٥/ ٢٨٢). وطرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣٩) والمصيصة: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٨٠).

ذكر لها في المصادر الجغرافية القديمة التي بين أيدينا، ومن المحتمل أن تكون قريبة من (صِمَالو).

٥ ـ وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجريَّة (٧٢٩م)، غزا معاوية أرض الرّوم على الصائفة اليسرى، وغزا أخوه سعيد بن هشام بن عبد الملك أرض الرّوم على الصائفة اليمنى حتى أتى (قَيْساريّة)[1]، فوغل معاوية في بلاد الروم[2]، وانصرف ولم يلق كيداً[3].

والصائفة اليمنى هي التي تنطلق من جزيرة (ابن عمر) أو ما يطلق عليها: (الجزيرة) شمالاً إلى بلاد الرّوم، وتكون قاعدتها الأماميَّة (الجزيرة)، وغالباً ما ينهض بهذه الغزوة جند (الجزيرة).

والصائفة اليسرى، هي التي تنطلق من (أنطاكية) و(طرسوس) شمالاً إلى بلاد الرّوم، وتكون قاعدتها الأماميَّة (أنطاكية) أو (طرسوس)، وغالباً ما ينهض بها جند الشَّام.

وهدف هاتين الغزوتين: اليمنى واليسرى، هو حماية حدود الدَّولة الشماليَّة الغربيَّة من غارات الرّوم وهجماتهم، واتخاذ أسلوب التعرض للحماية بدلاً من أسلوب الدِّفاع.

٦ ـ وفي سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٠م) غزا معاوية بلاد الرّوم، فافتتح (خَرْشَنَة)[4] من ناحية (مَلَطْية)[5]...............

---

(١) الطبري (٧/ ٩٧) وابن الأثير (٥/ ١٥٨) وابن خلدون (٣/ ٢٨٥) والبداية والنهاية (٩/ ٣٠٣).

(٢) النجوم الزاهرة (١/ ٢٧٠).

(٣) تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٥٤).

(٤) خرشنة: بلد قرب (ملطية) من بلاد الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٢٠).

(٥) الطبري (٧/ ٧٠) وابن الأثير (٥/ ١٧١) وتاريخ ابن خياط (٢/ ٣٥٧) وابن خلدون (٣/ ٢١٥)، ورد اسم المدينة: (خرشفة) وهو تصحيف، كما ورد فتحها سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية، وهذا خطأ آخر، لأن ابن خلدون ذكر لمعاوية غزوة سنة ثلاث عشرة =

وحرق (فرندية)[1] من ناحية (مَلَطْيَة) أيضاً[2].

ومن المعروف أن منطقة (مَلَطْيَة) سبق فتحها من المسلمين، والظاهر أن الرّوم استعادوها إلى حكمهم، فأعاد فتحها معاوية حماية لحدود الدَّولة الإسلاميَّة.

ومن المحتمل أن معاوية لاقى مقاومة شديدة في (فرندية)، وربما استعصى عليه فتحها، وقد يكون أهلها ألحقوا خسائر بقوات المسلمين، أو دأبوا على مهاجمة الحدود الإسلاميَّة وتكبيد الثغور الإسلاميَّة والقرى الأماميَّة الواقعة على الحدود الشماليَّة الغربيَّة لبلاد المسلمين خسائر في الأرواح والممتلكات، لذلك أقدم معاوية على إحراقها.

ولكن إحراق المدن يخالف مخالفة صريحة تعاليم الإسلام في القتال[3]، لذلك فإن إحراقها خطأ فاحش لا يغتفر وقع فيه معاوية دون مسوِّغ.

٧ ـ وفي سنة ثلاث عشرة الهجريَّة (٧٣١م) غزا معاوية بلاد الرّوم، فرابط من ناحية (مَرْعش)[4]، ثم رجع[5].

ويبدو أنّ غزو بلاد الرّوم في هذا العام اقتصر على معاوية وحده ولم

= ومئة، والخطأ من الناقل أو المطبعة، وانظر البداية والنهاية (٩/ ٣٠٣) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

(١) فرندية: لا ذكر لها في المصادر الجغرافية القديمة التي بين أيدينا، ومن الواضح أنها تقع قرب (خرشنة) في منطقة (ملطية).

(٢) الطبري (٧/ ٧٠).

(٣) انظر تعاليم الإسلام في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٧٦ ـ ٤٨٨).

(٤) مرعش: مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان ( ) وهي مدينة صغيرة، انظر تقويم البلدان (٢٦٢) بينها وبين مدينة (الحدث) وهي من الثغور خمسة فراسخ، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (٢١٦)، وهي مدينة رومانية كان اسمها (مراسيون Marasion).

(٥) الطبري (٧/ ٨٨) وابن الأثير (٥/ ١٧٦) وابن خلدون (٣/ ٢٨٥).

يشاركه فيه غيره من القادة الآخرين بالنسبة للحدود الشماليَّة الغربيَّة لبلاد المسلمين، لذلك اتجه معاوية نحو (مرعش) وهي تسيطر على محوري الصائفة اليمنى والصائفة اليسرى.

ويمكن اعتبار هذه الغزوة غزوة دفاعية، فقد رابط معاوية على رأس قواته ولم يشهد قتالاً.

ولعلّ انفراده بالغزو في هذه السنة جعله مسؤولاً عن جبهة الرّوم الواسعة وحده، فآثَر خطة الدِّفاع على خطّة التعرض، إذ لم يكن بمقدوره وحده أن يتعرض في جبهة واسعة، ممَّا يؤدي إلى محاولة العدو قطع خطوط مواصلاته بالالتفاف الواسع حول قواته، أو ضرب إحدى أجنحته المكشوفة وتكبيده خسائر فادحة.

٨ ـ وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٢م) غزا معاوية أرض الرّوم على الصائفة اليسرى، وغزا أخوه سليمان بن هشام أرض الرّوم على الصائفة اليمنى ممَّا يلي (الجزيرة)، فأصاب معاوية رَبَض[١] (أقْرُن)[٢]، وبلغ سليمان (قَيْسارِيَة)[٣]. والظاهر أنّ (أقرن) تقع في ناحية (مَلَطْيَة)، استناداً إلى اتِّجاه الصوائف اليسرى، وسير الحوادث في الغزوات.

٩ ـ وفي سنة خمس عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٣م) غزا معاوية بلاد الرّوم على الصائفة[٤] حتى انتهى إلى (أَفْلوغُونِيَا)[٥]، وجرت هذه الغزوة

---

(١) الربض: سور المدينة.
(٢) أقرن: ورد في شعر امرىء القيس، انظر معجم البلدان (١/ ٣١١) ومن المحتمل أن تكون في منطقة (ملطية).
(٣) الطبري (٧/ ٩٠) وابن الأثير (٥/ ١٧٩) وتاريخ ابن خياط (٢/ ٣٦٠) وابن خلدون (٣/ ٢٨٥) والبداية والنهاية (٩/ ٣٠٦) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٤).
(٤) الطبري (٧/ ٩٢) وابن الأثير (٥/ ١٨١) وابن خلدون (٣/ ٢٨٥) وانظر العيون والحدائق (١٩).
(٥) أفلوغونيا: مدينة كبيرة من بلاد الأرمن من نواحي إرمينية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٠٦).

في شهر رمضان[1]، وافتتح حصوناً.

ولم يشهد هذه السنة غزو بلاد الرّوم من القادة غير معاوية، لذلك اتّجه بغزوته نحو محور (مرعش) باتجاه (إرمينية) الصغرى القريبة من (مرعش)، وبذلك استطاع السيطرة على مجالي الصوائف اليمنى واليسرى.

كما أن خروج معاوية للغزو في شهر رمضان يدل على وجود تحركات للرّوم، فبادر معاوية للقضاء عليها ووضع حدّ لها بالتعرّض قبل استفحال أمرها، لأن شهر رمضان غالباً ما يقضى في العبادة بعيداً عن المشقات التي هي من تكاليف الغزو.

١٠ ـ وفي سنة ست عشرة ومئة (٧٣٤م) غزا معاوية بلاد الرّوم على الصائفة[2]، وقد شهد وحده من بين القادة الغزو في بلاد الرّوم خلال هذه السنة، لذلك لابد أن يتّجه بقواته باتجاه (مرعش)، لأن منطقة تلك المدينة تسيطر على محور الصائفة اليمنى ومحور الصائفة اليسرى، لوقوعها في وسط بلاد الرّوم المتاخمة لحدود الدَّولة الإسلاميَّة من الشمال، وبذلك يستطيع مُشَاغَلَةَ قوات الرّوم المعادية التي تتّجه إلى منطقة (الجزيرة) أو تتجه إلى منطقة (أنطاكية) بسهولة ويسر.

والمفروض أنّ معاوية حين يغزو الصائفة وحده، يكون قائداً عاماً على جند (الجزيرة) وجند (الشَّام)، وتكون بإمرته قوات كافية لحماية الحدود المتاخمة للجزيرة وأرض الشَّام شمالاً من غارات الرّوم وهجماتهم التي لا ينفكون يشنونها على بلاد المسلمين حين يجدون فرصة سانحة لهم في حالة عدم غزو الرّوم في عقر دارهم.

١١ ـ وفي سنة سبع عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٥م) غزا معاوية بلاد

---

(١) تاريخ ابن خياط (٢/٣٦١)، وقد وردت فيه: أفلاجونية.

(٢) الطبري (٧/٩٣) وابن الأثير (٥/١٨٢) والنجوم الزاهرة (١/٢٧٦). والبداية والنهاية (٩/٣١٢).

الرّوم على الصائفة اليسرى وغزا أخوه سليمان بن هشام بن عبد الملك بلاد الرّوم على الصائفة اليمنى من (الجزيرة) وفرّق سراياه في أرض الروم[1]، وقد بلغ معاوية في غزوته (سيبرة) وبلغت سراياه (سردة) وأصابوا سبايا[2].

ولا ذكر لهذين المكانين في المصادر الجغرافية القديمة التي بين أيدينا، ومن المحتمل أن يقعا في منطقة (مَلَطْيَة)، لأنّ ميدان الصائفة اليسرى في هذه المنطقة بالذات، وقد تكون (سردة) و(سيبرة) قريتين صغيرتين في بلاد الرّوم أغفلهما الجغرافيون القُدامى لصغرهما وعدم أهميتهما في نظرهم.

١٢ ـ وفي سنة ثمان عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٦م) غزا معاوية وأخوه سليمان بن هشام بن عبد الملك أرض الروم[3].

ومن الواضح أن معاوية كان على الصائفة اليسرى، وسليمان كان على الصائفة اليمنى، لأنّ الأول أصبح مختصاً بمنطقة الصائفة اليسرى، والثّاني مختصاً بمنطقة الصائفة اليمنى، فقد نهضا بأعباء الجهاد كل في منطقته عدّة سنين.

والصائفة اليسرى واجب جند الشّام، والصائفة اليمنى واجب جند (الجزيرة).

وميدان قتال الصائفة اليسرى منطقة (مَلَطْيَة) كما هو معروف.

---

(١) الطبري (٧/ ٩٩) وابن الأثير (٥/ ١٨٦) والبداية والنهاية (٩/ ٣١٣)، وفي ابن خلدون (٣/ ٢٨٥)، أن الذي غزا الصائفة اليسرى هذه السنة هو سفيان بن هشام، وهذا خطأ من المطبعة أو الناسخ، لأنّ هشام بن عبد الملك ليس لديه ولد اسمه سفيان، انظر جمهرة أنساب العرب (٩٢ ـ ٩٣).

(٢) تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣).

(٣) الطبري (٧/ ١٠٩) وابن الأثير (٥/ ١٠٩) وابن خلدون (٣/ ٢٨٥) والبداية والنهاية (٩/ ٣٢٠).

وقد اختتم معاوية في هذه الغزوة حياته القيادية مجاهداً، بعد أن أبلى بلاءً حسناً في حماية الحدود الإسلاميَّة المتاخمة للرّوم وبخاصة الحدود الكائنة شمال (أنطاكية) عبر الحدود الإسلاميَّة والممتدة إلى (مَلَطْيَة) شمالاً وإلى منطقة (مرعش) أيضاً، فحمى الحدود الإسلاميَّة الشماليَّة الغربيَّة من غارات الرّوم وغزواتهم وهجماتهم مدة اثنتي عشرة سنة متوالية دون انقطاع.

لقد أسدى معاوية قصارى ما يقدر عليه قائد مجاهد، فاستحق تقدير الدَّولة حكومة وشعباً[1].

الإنسان

كان لمعاوية تسعة إخوة، إذ ولد هشام بن عبد الملك بن مروان عشرة ذكور[2].

معاوية أمه أم ولد[3] نصرانية، فهو شقيق سعيد بن هشام الذي كانت أمه نصرانية[4]، وقيل: بل أمه أم حكيم بنت يحيى بن الحكم ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس[5]، ولا صحة لذلك.

وسليمان بن هشام يكنى: أبا الغَمْر، أدرك أبا العباس السفّاح أول خلفاء بني العباس فأمّنَه، وحين أتاه أقعده إلى جنبه، فقال سُدَيف الشاعر، شاعر أبي العباس ومولاه.

---

(١) أورد ابن خياط في تاريخه غزوات أخرى لمعاوية سنة تسع عشرة ومئة في (٢/ ٣٦٤) وسنة اثنتين وعشرين ومئة الهجرية في (٢/ ٣٦٩)، وهذا خطأ، لأن معاوية توفي سنة تسع عشرة ومئة الهجرية، انظر جمهرة أنساب العرب (٩٢) وشذرات الذهب (١/ ١٣٦) وتاريخ الإسلام (٤/ ٢٣٠) ودول الإسلام (١/ ٦١).

(٢) المعارف (٣٦٥) وجمهرة أنساب العرب (٩٢ ـ ٩٣) والعيون والحدائق (١٠٧).

(٣) جمهرة أنساب العرب (٩٢).

(٤) المعارف (٣٦٥).

(٥) جمهرة أنساب العرب (٩٢).

لا يَغرَّنك ما تَرى من رجالٍ إنّ تحت الظُّلوع داءً دويّا
فَضَع السَّيفَ وارفع السَّوْط حتى لا تَرى فوقَ ظهرها أُمويّا

فقتله العباس[1]

ومَسْلَمَة، ويزيد، ومحمد، أمهم أمُّ حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس.

ويحيى بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وعثمان بن هشام بن عبد الملك.

وعبد اللَّه، أمه عبدة المذبوحة بنت عبد اللَّه بن يزيد بن أبي سفيان.

ومروان، أمه أم عثمان بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان، وهو شقيق عبد الرحمٰن.

والوليد وقريش لأمهات أولاد شتى.

وخلف، وعُبَيد اللَّه، وعبد الملك، أبناء هشام بن عبد الملك[2].

وعدد هؤلاء الذكور ثلاثة عشر ذكراً، مات ثلاثة منهم في حياة هشام، وخلّفَ عند موته عشرة ذكور منهم[3]، وكان معاوية أحد الذين ماتوا في حياة أبيهم هشام.

وولد لمعاوية بن هشام ثلاثة عشر ذكراً: هشام بن معاوية، ولد بعد موت أبيه، أمه زينب بنت محمد بن عبد اللَّه بن عبد الملك بن مروان.

وعبد الرحمٰن بن معاوية، الداخل بالأندلس، الوالي عليها هو وولده بعده.

وعبد اللَّه بن معاوية، أمه بنت عبد اللَّه بن عبد العزيز بن

---

(١) المعارف (٣٦٥) وجمهرة أنساب العرب (٩٢).
(٢) جمهرة أنساب العرب (٩٢ ـ ٩٣) وانظر المعارف (٣٦٥) والعيون والحدائق (١٠٧).
(٣) المعارف (٣٦٥) والعيون والحدائق (١٠٧).

الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وأمها رَمْلة بنت محمد بن مروان.

والوليد بن معاوية، وعبد اللّه بن معاوية.

ويحيى، وهو شقيق عبد الرحمٰن بن معاوية، قتل يوم (الزّابِيين)[1].

والمنذر بن معاوية، والمُغيرة بن معاوية، وأبان بن معاوية، وهو شقيق عبيد اللّه، أمهما: تميميّة من بني زُرارة، قتله العباسيون هو وابْنَين له في حد الصِّبا.

وأمية بن معاوية، قتله مروان بن محمد صبراً، وإسماعيل، ومعاوية[2].

ومن زوجات معاوية: أم عمرو بنت محمد بن عمر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام[3]، وأمه الحميد بنت عبد اللّه بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان[4]، وابنة الهُذَليّ بن نُعَيْم بن الربيع بن عَتْبَة بن الحارث بن سهاب بن عبد قَيْس بن الكُباس بن جعفر بن يَرْبوع التميمي، تزوجها وهي بالبصرة، وزفّت إلى الشّام[5].

ولكن معاوية توفي وترك زوجتين: ابنة إسماعيل بن جرير وامرأة أخرى، فأخرج أبوه هشام لكل واحدة منهما أربعين ألفاً[6].

---

(١) الزابيان: نهران معروفان في العراق، الشمالي الشرقي، وهما زابان، الزّاب الأعلى والزاب الأسفل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٦٣ ـ ٣٦٤) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٢٢٩ ـ ٢٣٠).

(٢) انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٩٣ ـ ٩٤).

(٣) المحبّر (٤٤).

(٤) جمهرة أنساب العرب (١١٣).

(٥) جمهرة أنساب العرب (٢٢٤).

(٦) الطبري (٧/٢٠٧).

لقد كان معاوية أنبل أولاد أبيه[1]، جواداً ممدّحاً[2]، وكان فارساً يهوى الصيد والقنص[3].

وكان موضع ثقة والده الكاملة، فقد قال عندما سمع نعيه: وكان فارساً لقد أجمعتُ على أن أرشِّحه للخلافة[4]، مع أنه كان ابن أمة، وكان لا يتولى الخلافة إلاّ أمويّ أمه عربية حرّة.

وليس من السّهل أن يستحوذ أحد على ثقة الخليفة هشام بن عبد الملك الكاملة، فقد كان هشام من أفضل خلفاء بني أمية عقلاً وكفاية ونزاهة واستقامة وحلماً، وكان: رجلاً محشواً عقلاً، يتحلّى بالعدل المثالي، وكان حازم الرأي ذكياً بصيراً بالأمور جليلها وصغيرها، ولما مات ملك بني أمية، وتولى وأدبر أمر الجهاد في سبيل اللّه واضطربت أمور الدَّولة[5].

فإذا ما استحوذ معاوية على ثقة أبيه، فلا بد أنه استحوذ عليها بكفايته وذكائه وإخلاصه ومزاياه الأخرى، التي سكت عنها المؤرخون ولم يذكروا منها غير لمحات خاطفة، تكفي للدلالة عليه ولكنها لا توفيّه حقّه كما ينبغي.

وقد توفي معاوية سنة تسع عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٧م)، فتأسف الناس عليه.

وكان سبب وفاته، أنه انطلق بفرسه، فتعثّر به فسقط ميتاً، وقد مات في حياة أبيه هشام بن عبد الملك بن مروان.

---

(١) شذرات الذهب (١/ ١٥٦).

(٢) دولة الإسلام (١/ ٦١) وشذرات الذهب (١/ ١٣٦).

(٣) الطبري (٧/ ٢٠٧).

(٤) الطبري (٧/ ٢٠٧).

(٥) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٢٠٠ ـ ٢٠٨) وابن الأثير (٥/ ٢٦١ ـ ٢٦٤) والبداية والنهاية (٩/ ٣٥١ ـ ٣٥٤).

وهكذا انتهت حياة الأمير أبي شاكر معاوية بن هشام، فخسر المسلمون بموته رجلاً من أغلى الرجال.

وكان معاوية قد تولى أول قيادة عسكريَّة له في بلاد الرّوم سنة سبع ومئة الهجريَّة (٧٢٥م) كما ذكرنا في جهاده.

وكان الخلفاء يولّون من يجدون فيه كفاية في العشرين من عمره، وهذا العمر معدّل للسن الذي يتولى فيه القادة مناصبهم القيادية في الجهاد، قد يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً.

ومعنى هذا أنه ولد حوالي سنة سبع وثمانين الهجريَّة (٧٠٥م).

فإذا تُوفي سنة تسع عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٧م)، فقد عاش اثنتين وثلاثين سنة قمرية وحوالي اثنتين وثلاثين سنة شمسية.

وكانت وفاته في (رَحْبَة أبي شَريك)، وأبو شريك رجل من العجم كانت تنسب إليه هذه الرَّحبة[1]، ودفن فيها، ولا ذكر لهذه الرَّحبة في المصادر الجغرافية التي بين أيدينا، ومن المحتمل أن تكون بالقرب من (الرُّصافة)[2] من أرض (قِنَّسْرِين)[3]، وهي بلدة رومية بنتها الروم[4].

وهكذا انتهت حياة الأمير أبي شاكر[5] معاوية بن هشام، فخسر

---

(١) الطبري (٧/ ٢٠٧).

(٢) الرُّصافة: رصافة هشام بن عبد الملك في غربي (الرّقة) بينهما أربعة فراسخ على طرف البريّة، بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام، وكان يسكنها بالصيف، وقد بناها في مكان مدينة قديمة كانت قبل الإسلام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٥٥ ـ ٢٥٧) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٣) قنسرين: بلد في أرض الشام جنوب حلب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٨) والمسالك والممالك للإصطخري (٤٦) وتقويم البلدان (٢٦٦ ـ ٢٦٧) والبلدان لليعقوبي (٣٦٢) والأعلاق النفيسة (٩١) وأحسن التقاسيم (١٥٤) وصورة الأرض (١٦٣) ومختصر كتاب البلدان (١١١) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٧٥).

(٤) الطبري (٧/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧) وانظر المعارف (٣٦٥).

(٥) شذرات الذهب (١/ ١٥٦).

العرب بموته شاباً في ريعان الشباب ولكنه أبرزهم قدراً وجلالاً، وفقدوا بموته رجلاً من أغلى الرجال جهاداً وكمالاً.

القائد

قاد معاوية الصّوائف عشراً من السنين متّصلة[1] في بلاد الرّوم، وولي الغزو مرّات[2]، وكان غازياً[3]، فاستحق لقب: الأثير بأرض الروم[4] بحق لا ريب فيه.

والواقع هو أنّ معاوية قاد الصّوائف اثنتي عشرة سنة متّصلة في بلاد الرّوم، لا عشراً من السنين متّصلة حسب، وانتهت مدة قيادته سنة ثماني عشرة الهجريَّة، وكان على وشك الاستمرار على مهمته سنة تسع عشرة الهجريَّة لولا أن اغتالته المنون في تلك السنة، فمضى مأسوفاً عليه من الجهاد والمجاهدين.

لقد وهب معاوية كل سني العطاء من عمره للجهاد، لم يدخر منها سنة للراحة، وآثر أن يكون غازياً على أن يكون والياً، وفضّل ميادين القتال على ميادين السلام، واختار سكنى الخيام على سكنى القصور، واستأثر بالأخطار والحياة القاسية على الدعة والحياة الناعمة، ولست أعرف قائداً عربياً ولا مسلماً غير خالد بن الوليد المخزوميّ، والمُثَنّى بن حارثة الشيْبانيّ من قادة الخلفاء الراشدين، وقُتَيْبَة بن مُسْلم الباهليّ ومحمد بن القاسم الثقفيّ ومَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان قدّم تضحيات وعطاء لأمته وعقيدته في ميدان الجهاد مثل ما قدّم معاوية بن هشام من تضحيات وعطاء، بالنسبة لبقائه كل سني حياته بعد بلوغه سنّ الرشد في ميدان

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٩٢).
(٢) شذرات الذهب (١/ ١٥٦ ـ ١٥٧).
(٣) دول الإسلام (١/ ٦١).
(٤) تاريخ الإسلام (٤/ ٢٣٠).

الجهاد، قريباً من الخطر، بعيداً عن الأمن، وهو ابن خليفة يسيطر على مملكة شاسعة وبلاد واسعة، يستطيع أن يؤمِّن السلطة والأمن والراحة لولده الأثير على نفسه، القريب من قلبه، ولكن معاوية اختار لنفسه المسلك الصّعب والطريق الشائك، ممّا يدعو إلى التقدير والإعجاب.

لعلّ اندفاع معاوية نحو الجهاد بكل ما يملك من قوة، يثبت أنه كان يهوى الجهاد بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والفداء، وهذا دليل على تحليه بسجيّة: الطبع الموهوب.

وقد كان متواضعاً، عازفاً عن المظاهر الخلاّبة التي تصاحب أبناء الخلفاء، بسيطاً في مأكله وملبسه، فيُلبِّي دعوة من لا يعرف من الناس، ولا يعرفه الناس بمظاهره ومواكبه، ويتناول أبسط الطعام، ولا تبدو عليه أمارات السلطة من مظهره وملبسه، فقد مرّ بعاصم الضبي، فدعاه إلى تناول الغداء، وكان الطعام الذي قدّمه له مؤلفاً من الخبز واللّبن، فاستجاب معاوية وتناول الغداء، وكان وحيداً لا يصاحبه أحد، ولم يعرفه الداعي! إلاّ بعد تناول طعامه وإقبال مَن يعرفه ويعرف مكانته[1]!

هذا التواضع الجم، والعزوف عن المظاهر والمواكب، والبساطة في المأكل والمشرب والملبس، والابتعاد عن التعالي على أبناء البشر، تجعله محبوباً من رجاله، وتدل على أنه يبادلهم حباً بحب، كما تجعله موضع ثقتهم، وتدل على أنه يبادلهم ثقة بثقة؛ كما تجعله ألفاً مألوفاً، وكل هذه الصفات من سمات: الطبع الموهوب، ومن مزايا القائد الناجح.

وهذه الصفات هي التي جعلت الناس يأسفون عليه حين نَعاهُ نُعَاتُه[2]، فقد كان، أنبل أولاد أبيه، جواداً ممدّحاً[3].

---

(١) انظر الطبري (٧/٢٠٧).

(٢) دول الإسلام (١/٦١).

(٣) شذرات الذهب (١/١٥٦)، وانظر دول الإسلام (١/٦١).

وقد تحدثنا فيما سبق عن تعلمه العلوم الصرفة والعلوم العسكريَّة، وبذلك تحلّى بمزية: العلم المكتسب.

وهذا العلم بالإضافة إلى فوائده العامَّة، فإنه يصقل مزية: الطبع الموهوب.

كما تحدثنا عن جهاده الذي كان تجربة عملية، تضفي على مزيتي: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، ما يضع تلك المزيتين على نطاق: التطبيق العملي، وهذا التطبيق هو الاختبار لمدى مقدرة القائد على إخراج النظريات إلى حيز التنفيذ.

وهكذا توفّرت في معاوية مزايا القائد الأساسية الثلاث: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العملية.

والمتوقع من القائد الذي تتوفر فيه هذه المزايا الثلاث، أن يحقّق على يديه انتصارات ضخمة مدوية، أو بتعبير أدق من الناحية العسكريَّة، أن يحقّق على يديه انتصارات سَوْقِيَة[1]، كما فعل المثنى بن حارثة الشيباني وخالد بن الوليد المخزومي من قادة الخلفاء الراشدين، وموسى بن نُصير وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم الثقفي وقُتيبة بن مسلم الباهلي من قادة الأمويين، ولا يقتصر على تحقيق انتصارات تعبوية كما حقق معاوية.

والواقع هو أن التوقيت عامل حاسم: انتهاز الفرص السانحة التي قد تمر بسرعة خاطفة ولا تعود مرة أخرى، والظروف هل هي مع القائد أم عليه؟ والوقت هل هو أيام حرب أم أيام سلام؟

فكم من قائد لامع عاش ومات ولم يعرفه أحد ولم يسمع به أحد، لأنه عاش في ظروف سلميّة ولم يشهد حرباً، فضاعت طاقاته هدراً.

---

(١) سَوْقية: استراتيجيّة.

وكم من قائد فذ، عاكسته الظروف، فدمرته تدميراً، ولو عاش في ظروف ملائمة، في أمة يبني أصحاب السلطة فيها الرجال ولا يحطمونهم، لأتى بأعمال عسكريَّة فذّة.

ولو أردت لأوردت أمثلة على أمثال أولئك القادة من التاريخ ومن أيامنا هذه، ولكن ليس مكان هذه الأمثلة هذا المكان.

وبالنسبة لمعاوية، فقد عاش في وقت بدأ فيه مدّ الفتح الإسلامي العظيم بالانحسار، وكان هذا المد قد بلغ أقصى مداه في عهد الوليد بن عبد الملك، فتمّ فتح الأندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير، وترصّن الفتح في المغرب العربي، وامتد الفتح شرقاً إلى حدود الصِّين على يد قتيبة بن مسلم، وجنوباً إلى (السِّند) على يد محمد بن القاسم، وإلى الشمال حتى مشارق سيبيريا.

وتوفى الوليد بن عبد الملك سنة ست وتسعين الهجريَّة (٧١٤م)، فظهرت الخلافات بين القبائل العربيَّة، وهي القبائل التي حملت رايات الفتح شرقاً وغرباً، واضطربت أمور البلاد المفتوحة، فاستبدل العرب الاقتتال بالقتال، فكان على الدَّولة أن تخمد الاضطرابات الداخلية بجيوشها التي كانت ترصدها للفتح، وكانت الدول المفتوحة تحشد الجيوش للجهاد، فأصبحت تستنزف طاقات الدَّولة لاستتباب الأمن في ربوعها.

وكان البيت الأموي المالك صفاً واحداً، فأصبح هذا البيت شِيَعاً، لكل شيعة منهم شِيَع تؤيدها وشِيَع تعاديها، ففرّقوا الناس، وفتّتوا المجتمع، وهانوا على أعدائهم في الداخل والخارج.

تلك هي الظروف التي عاناها معاوية، فلم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً غير الدِّفاع عن حدود الدَّولة المتاخمة للرّوم، وكانت تلك الحدود أخطر من الحدود الأخرى للدولة، لأنها تؤدي مباشرة إلى قلب الدَّولة وقاعدتها الرئيسة: أرض الشَّام.

ولكن معاوية دافع عن تلك الحدود بأسلوب الحركة، فاتّخذ (التعرّض) أسلوباً تعبوياً، ولم يتخذ أسلوب (الدِّفاع) المُسْتَكن الذي لا يؤدي إلى النصر أبداً.

ومن الإنصاف أن نذكر أنه أدّى واجبه خير أداء.

معاوية في التاريخ

يذكر التاريخ لمعاوية أنه أنفق كل سني العطاء من حياته في خدمة المصالح العامَّة للدولة، ولم يدَّخر منها أي وقت في خدمة مصالحه الشخصية.

ويذكر له أنه لم يستغل نفوذ الخليفة والده لتولي السلطات الإدارية والإثراء والعيش الليِّن الرغيد، بل تطوع مختاراً للخدمة العسكريَّة بعيداً عن الغنى والعيش المريح.

ويذكر له أنه آثر أن يكون غازياً على أن يكون جابياً.

ويذكر له أنه دافع عن حدود الدَّولة المحاذية لبلاد الرّوم دفاعاً تعرضيّاً ناجعاً.

ويذكر له أنه كان مثالاً للنبل والعفاف والاستقامة، فلم يترك ديناراً ولا داراً، وعامل الناس معاملة الند للند.

رحمه اللّه رحمة واسعة، جزاء ما قدّم لأمته وعقيدته، وجعله قدوة صالحة وأسوة حسنة لأبناء الحاكمين وذوي السُّلطان.

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم
فاتح شطر بلاد الرّوم وشطر إِرْمِينِيَة

نسبه وأيامه الأولى

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ القرشي الأمويّ[١].

أبوه: محمد بن مروان بن الحكم، أخو عبد الملك بن مروان ابن الحكم، من قادة الفتح الإسلامي ومن أبرز ولاة بني أمية ومن البيت المالك.

وأمه: كردية من أمهات الأولاد[٢]، ويريدون بأمهات الأولاد: الجواري والإماء اللّواتي ولدن لمواليهن ذكرانا، واسم أمه: لُبَابة.

ولد سنة ست وسبعين الهجريَّة[٣] (٦٩٥م)، ويومها كان أبوه محمد بن مروان على الجزيرة وإِرْمِينِيَة، فقد استعمله أخوه عبد الملك بن مروان على الجزيرة وإِرْمِينِيَة سنة ثلاث وسبعين الهجريَّة[٤] (٦٩٢م)، وبقي على عمله طيلة حياة أخيه عبد الملك بن مروان الذي توفي سنة خمس

---

(١) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ ـ ١٠٥) وفوات الوفيات (٢/ ٣١).

(٢) المحبّر (٣٢ ـ ٤٥) والبداية والنهاية (١٠ ـ ٤٦).

(٣) الطبري (٦/ ٢٥٦) وابن الأثير (٤/ ٤١٨)، وفي تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٤٢٨)، أنه ولد سنة اثنتين وسبعين الهجرية في الجزيرة.

(٤) ابن الأثير (٤/ ٣٦١).

وثمانين الهجريَّة[1] (٧٠٤م)، وشطراً من حياة الوليد بن عبد الملك الذي عزله سنة إحدى وتسعين الهجريَّة[2] (٧٠٩م)، بعد أن أمضى في ولايته ثماني عشرة سنة متواصلة، فأصبح ابنه مروان خلال هذه المدة شاباً في ريعان الشباب، اكتسب خلالها خبرة عملية في معرفة أرجاء ولاية أبيه على الطبيعة، كما تلقّى علومه النظرية والعملية في محيط يعجّ بقادة الفتح وجنوده، وبقادة الفكر وجنوده، كلهم يجاهدون في سبيل اللّه ومن أجل إعلاء كلمة اللَّه، في ساحة من أخطر ساحات الفتح الإسلامي، وفي وقت هو وقت مدّ الفتح واستعادة الفتح، بالمقر الذي تصدر عنه القرارات العسكريَّة والإدارية المهمّة، إلى جانب والده القائد الإداريّ وأعوانه القادة والإداريين المرؤوسين والعلماء العاملين، فلا عجب أن يتعلم ما ينبغي أن يتعلم لذاته ويتدرّب على ما ينبغي أن يتدرب على أيدي القمة من العلماء المجاهدين والقادة الفاتحين والإداريين المجرّبين، فلا عجب أن تثرى تجاربه العملية بخاصة كفاياته القيادية والإدارية والعلمية، فأصبح أحد البارزين في بني أمية وأحد المرموقين منهم المرشحين بكفاياتهم المتميّزة لتولي أعلى المراكز القيادية والإدارية في الدَّولة.

جهاده

١ ـ في سنة ست ومئة الهجريَّة (٧٢٤م) في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان، تولى مروان أول قيادة عسكريَّة له، وكان عمره يومئذ ثلاثين سنة.

فقد تولى الصائفة اليمنى، وهي التي تنطلق من الجزيرة شمالاً في بلاد الرّوم صيفاً، فافتتح (قُونِيَة)[3] ....

---

(١) العبر (١/١٠٢).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (١/٣٠٧).

(٣) قونية: من أعظم بلاد الإسلام في الروم، وهي من المدن المشهورة، لها جبل في جنوبيها، ولها بساتين من جهة الجبل يقرب من ثلاثة فراسخ، وبقلعتها تربة أفلاطون =

من أرض الرّوم و(كَمْخ)[1] التي تعد من أرض الجزيرة[2].

٢ ـ وكان مروان مع مَسْلَمَة بن عبد الملك من سنة سبع ومئة الهجريَّة (٧٢٥م) حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣١م) في جهاده الذي امتد من الجزيرة إلى بلاد الرّوم وأذربيجان وإِرْمينِيَة[3]، فعزل هشام بن عبد الملك أخاه مَسْلَمَة وولّى مروان بن محمد على الجزيرة وأذربيجان وإِرْمينِيَة[4].

ومضى مروان إلى إِرْمينِيَة والياً عليها، وسيّر هشام بن عبد الملك الجنود من الشَّام والعراق والجزيرة، فاجتمع عند مروان من الجنود والمتطوعين المجاهدين مئة وعشرون ألفاً.

وكان كثير من أقاليم إِرْمينِيَة قد نقضت، فشاع فيها الاضطراب والتمرّد. فأراد مروان أن يعيد الأمن والاستقرار إلى تلك الأقاليم.

وأظهر مروان أنه يريد غزو (اللاّن)[5] وقصد بلادهم وأرسل إلى ملك الخزر يطلب منهم المهادنة، وبلاد اللان مجاورة لبلاد الخزر، فأجابه ملك الخزر إلى ذلك، وأرسل وفداً إليه للاتفاق على شروط الصلح.

= الحكيم، ونهرها يسقي بساتينها ثم تصير مياهه بحيرة ومروجاً، والفواكه بها كثيرة، وهناك المشمش المعروف بقمر الدين، انظر التفاصيل في بحث: مدن بلاد الروم، وانظر معجم البلدان (٧/ ١٨٦).

(١) كمخ: مدينة وقلعة على الفرات الغربي من مدن أعالي الفرات في الجزيرة، على مسيرة يوم أسفل أرزنجان، في يسار النهر أي في ضفته الجنوبية، وهي: (كمخا Camcha) عند الروم. وهي قلعة عظيمة أيضاً، في أسفلها المدينة على ضفة النهر، انظر بحث: بلاد الجزيرة، ومعجم البلدان (٨/ ٢٧٩).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٢٥)، وفي خليفة بن خياط (١/ ٣٣٩).

(٣) انظر التفاصيل في سيرة مسلمة بن عبد الملك في هذا الكتاب.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٥٩) وابن الأثير (٥/ ١٧٧).

(٥) بلاد واسعة في طرف إرمينية، قرب باب الأبواب مجاور للخزر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣١٦).

وأبقى مروان وفد الخزر عنده، إلى أن فرغ من جهازه واستحضاراته، ثم أغلظ لهم القول، ولم يوافق على شروطهم التي عرضوها عليه، وآذنهم بالحرب، وسيّرهم إلى أحد قادته، وأخبره بعزمه على حرب الخزر، لأنهم كرّروا نقض عهودهم ومواثيقهم، وألحقوا بالمسلمين خسائر فادحة بالأرواح والممتلكات من جرّاء نقضهم المتكرِّر، وأمر قائده أن يسيِّر وفد الخزر على طريق بعيد في عودتهم إلى ملكهم لكسب الوقت، وسار هو على رأس جيشه في أقرب الطرق إلى هدفه، فما وصل الوفد الخزريّ إلى ملكهم إلاّ ومروان قد وافاهم وأطبق عليهم.

وكانت هذه العملية العسكريَّة لمروان مباغتة كاملة لملك الخزر وللخزر، شلّت تفكير الملك ومَنْ حوله، وزادت في شللهم الفكري الأخبار التي حملها إليهم وفدهم الذي عاد خائباً من رحلته إلى مروان، فقد حمل هذا الوفد إلى الملك بالإضافة إلى إخفاق المفاوضات، ما جمع له مروان وحشد واستعدّ.

واستشار ملك الخزر أصحابه، فقالوا له: إنّ هذا قد اغترّك ودخل بلادك، فإن أقمتَ إلى أن تجمع، لم يجتمع عندك إلى مدة، فيبلغ منك ما يريد، وإن أنتَ لقيتهُ على حالك هذه هزمكَ وظفر بك، والرأي أن تتأخّر إلى أقصى بلادك، وتدعه وما يريد، أي أنّ خلاصة رأي أصحاب ملك الخزر، أنّ الخزر لا يستطيعون إكمال استعدادتهم للقتال، لأن الوقت المتيسر لديهم غير كاف لإنجاز الاستعدادات، فإذا قبل المعركة بدون استعدادات كاملة، فإنّ الهزيمة ستقع بالخزر، ليس أمامه إلاّ التملّص من القتّال، والانسحاب إلى مجاهل بلاده النائية، استعداداً لفرصة مواتية جديدة.

وقبل ملك الخزر رأي أصحابه، وسار مع رجاله منسحباً من ساحة القتال إلى أقصى بلاده.

ودخل مروان بلاد الخزر، وأوغل فيها، وغنم وسبى، وانتهى إلى

آخرها، وأقام فيها عدة أيام، حتى أذلّ الخزر وانتقم منهم.

ولم يكتف مروان بهذا النصر المؤزّر، بل دخل بجيشه بلاد (ملك السّرير)[1]، وهي بين اللان ومدينة باب الأبواب، فأوقع بأهله وفتح قلاعاً ودان له الملك، وصالحه على مئة ألف مُدّي[2] مع عدد من الجواري والغلمان، على أن تحمل الحبوب إلى أهراء مدينة باب الأبواب في كل سنة وأخذ منه الرّهن.

وصالح مروان أهل (تُومان)[3] على عشرين ألف مُدِّي من الحبوب وعدد من الجواري والغلمان ثم دخل أرض (زريكرن)[4]، فصالحه ملكها.

ثم أتى إلى أرض (حمزين)[5]، فأبى حمزين أن يصالح مروان، فحصرهم وشدّد عليهم الخناق، حتى افتتح حصنهم.

ثم أتى (سُغْدان)[6]، فصالحه أهلها على خمس آلاف مُديٍ في كل سنة تحمل إلى مدينة (باب الأبواب) أيضاً.

---

(١) السرير: مملكة واسعة بين اللان ومدينة باب الأبواب (دربند)، وليس إليها غير مسلكين: مسلك إلى بلاط الخزر ومسلك إلى بلاد إرمينية. وهي ثمانية عشر ألف قرية في جبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٨٠) وملك السرير أيضاً: خان الجبل في إرمينية، انظر فتوح البلدان (٢٧٦) وفيه: ويدعى: وهرارزنشاه.

(٢) المدي: مكيال في الشام ومصر، يسع تسعة عشر صاعاً، والصاع: مكيال تكال به الحبوب ونحوها، وقدّره أهل العراق قديماً بثمانية أرطال.

(٣) لا ذكر لها في المصادر البلدانية العربية، ويبدو أنها مدينة بين اللان ومدينة باب الأبواب.

(٤) زريكران أو زرهكران أو زرنكران أو رزنكران: لا ذكر لها في المصادر البلدانية العربية المتيسرة، ويبدو أنها قريبة من مدينة (باب الأبواب) استناداً إلى سير العمليات العسكرية في تقدم مروان.

(٥) حمزين: اسم صاحب كورة بالقرب من مدينة باب الأبواب.

(٦) سغدان: جاء ذكرها في معجم البلدان (٥/ ٨٦): قرية من قرى بخارى، ولا يمكن أن تكون هي المعنية، لبعدها عن سير العمليات العسكرية، ويبدو أنها مدينة بالقرب من مدينة باب الأبواب.

ووظّف مروان على أهل (طَبَرْ سَرانْشَاه)[1] عشرة آلاف مُدي في كل سنة تحمل إلى أهراء مدينة باب الأبواب أيضاً.

ولم يوظّف على (فِيلاَنشاه)[2] شيئاً، وذلك لحسن غنائه وجميل بلائه، فقد التزم بعهوده ومواثيقه، ولم ينقض عهداً ولا ميثاقاً، وأعان مروان في حربه.

ثم نزل على قلعة صاحب (اللَكْز)[3]، وقد امتنع عن أداء الوظيفة، فخرج ملك اللكز يريد ملك الخزر، فقتله أحد الرعاة بسهم وهو لا يعرفه، فصالح أهل اللكز مروان واستعمل عليهم عاملاً.

وسار مروان إلى قلعة (شَرْوَان)[4] وهي تدعى: (خرش)، وهي على البحر، فأذعن أهلها بالطاعة والانحدار إلى السهل، وألزمهم عشرة آلاف مُدي في كل سنة، وجعل على صاحب شروان أن يكون في المقدِّمة إذا بدأ المسلمون بغزو الخزر، وبالسّاقة إذا رجعوا، وعلى فيلانشاه أن يغزو معهم فقط، وعلى طَبَرْشرانشاه أن يكون في الساقة إذا بدؤوا وفي المقدمة إذا انصرفوا.

وسار مروان إلى (الدُودَانِيّة)[5]، فأوقع بهم وأخضعهم إلى سيطرة

---

(١) طبرسرانشاه: ملك (طبرستران) التي هي من نواحي إرمينية، بالقرب من مدينة باب الأبواب، انظر معجم البلدان (٦/ ٢١).

(٢) فيلانشاه: ملك فيلان، انظر فتوح البلدان (٢٧٦)، وفيلان: بلد وولاية قرب باب الأبواب من نواحي الخزر، يقال لملكها فيلانشاه، وهو ملك السرير، انظر معجم البلدان (٦/ ٤١٣ ـ ٤١٤)، أما فتوح البلدان فيذكر أن ملك السرير يدعى: وهرار زانشاه، انظر فتوح البلدان (٢٧٦).

(٣) اللكز: مدينة تقع في جبل القفقاس خلف مدينة باب الأبواب، ويسكنها قوم يعرفون باللكز أيضاً.

(٤) شروان: مدينة تقع قرب بحر الخزر من نواحي باب الأبواب، بينهما مئة فرسخ.

(٥) الدودانية: يدّعون بأنهم ينتسبون إلى دُودَان بن أسد بن خزَيْمَة، فهم عرب، ومن المحتمل أنهم من العرب الذين نقلهم كسرى أنوشروان من بلاد العرب إلى كورة أران للدفاع عن بلاده من خطر الخزر، فبنى لهم الحصن والقلاع، وأطلق عليهم اسم: أبواب الدُّودانية.

الدَّولة، وأعاد إلى ربوعهم الأمن والاستقرار[1].

ومن الواضح أن مروان في هذه الحملة استعاد فتح كورتي أرّان وباب الأبواب وأعاد المتقضين منهم إلى سيطرة الدَّولة.

وكوة أرّان كما هو معروف تمتد من مدينة: (باب الأبواب) في الشمال الشرقي لإقليم إِرْمِينِيَة، إلى مدينة (تَفْلِيس) غرباً، ويحدّها نهر (الرَّسّ) من الجنوب والجنوب الغربي[2].

وتقع مدينة: (باب الأبواب) على بحر الخزر (قزوين)، وتنتهي حدودها عند جبل (القَبْق).

وتعتبر أرّان من إِرْمِينِيَة الأولى، أما اللكز فتعتبر من إِرْمِينِيَة الثَّانية.

وكان هذه الغزوة التي قادها مروان، من الغزوات الموفّقة إلى أبعد الحدود.

٣ ـ وفي سنة سبع عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٥م) بعث مروان وهو على إِرْمِينِيَة بعثين إلى جبل (القبق)[3]، فافتتح أحد البعثين ثلاثة حصون من (اللاّن)[4]، ونزل الآخر على (تُومان شاه)، فنزل هذا على حكم مروان، فبعث به مروان إلى هشام بن عبد الملك في دمشق، فردّه هشام إلى مروان، فأعاده إلى مملكته[5]، بعد أن اطمأن إلى التزام الملك بالعهود والمواثيق التي قطعها على نفسه للمسلمين.

---

(١) فتوح البلدان (٢٩٢ ـ ٢٩٤) وانظر ابن الأثير (٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦١).

(٢) المسالك والممالك للإصطخري (١٩٠).

(٣) جبل القبق: يمتد في شمالي إقليم إرمينية، ويتكون من عدّة سلاسل تمتد عموماً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بصورة متوازية، حيث تمتد إلى البحر الأسود (بحر بنطس) إلى بحر قزوين.

(٤) اللاّن: بلاد واسعة في طرف إرمينية قرب باب الأبواب، مجاورون للخزر، انظر معجم البلدان (٧/ ٣١٦).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٢) وابن الأثير (٥/ ١٨٦).

وجبل القبق هو جبل القفقاس الكبرى، وهو جبل منيع جداً، يبلغ متوسط ارتفاعه عن سطح الأرض بين (٢٧٠٠ متر - ٣٦٠٠م)، ويضمّ قمماً يتجاوز ارتفاعها (٤٥٠٠ متر) ويبدو أن الذين أرادوا الانتقاض على الدَّولة، استفادوا من مناعة مناطقهم الجبلية التي تساعدهم على الدِّفاع، ولكنهم لم يستطيعوا الثبات أمام القوات الإسلاميَّة بالرغم من مناعة بلادهم، فاستسلموا إلى تلك القوات.

ويبدو أيضاً أنّ الاضطرابات التي حدثت في جبال القَبْق كانت اضطرابات طفيفة، لذلك بعث مروان مَنْ يعالجها من قادته المرؤوسين ولم يتولَّ معالجتها بنفسه، كما أن عفوه عن تومان شاه وإعادته إلى مملكته دليل آخر على أنّ اضطراباته لم تكن خطيرة بدرجة يستحق عليها أيّ نوع من العقاب، فتمّ تسويتها بسلام.

٤ - وفي سنة ثماني عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٦م)، غزا مروان أرض (وَرْتِنِيس)[١]، فدخلها من ثلاثة أبواب، وأحاط بحصنها إحاطة السِّوار بالمعصم.

وهرب وَرْتَنِيس قائد الحصن وترك حصنه الذي سمي باسمه تحت رحمة المحاصرين، وتوجّه في هربه إلى الخزر، فنصب مروان على الحصن المجانيق وأخذ يقصفه قصفاً عنيفاً متواصلاً. ولكن ورتنيس قتل وهو في طريقه إلى الخزر، فبعث مَن قتله برأسه إلى مروان، فنصَّبه لأهل حصنه الذين تأكد لهم قتله، فانهارت معنوياتهم، ونزلوا على حكم مروان الذي قتل المقاتلة وسبى الذريّة[٢].

---

(١) ورتنيس: حصن في بلاد سُمَيْسَاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤١٣)، سمي باسم قائده ورتنيس.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٣) وابن الأثير (٥/ ١٩٨)، ورد فيه: ورنيس بدلاً من ورتنيس، وورتنيس هو الصواب إذ لا يزال هذا الاسم شائعاً بين الأرمن حتى اليوم.

ويبدو أن ورتنيس قصد الخزر ليستعين به على المسلمين، وحرّض رجاله على الثبات في الحصن حتى الرمق الأخير، ريثما تردهم النجدات معه، فلمّا تبيّن لهم أنه قُتل، لم يبق لهم أمل بالنجاة.

٥ ـ وفي سنة تسع عشرة ومئة الهجريَّة (٧٣٧م)، غزا مروان إِرْمينِيَة، فدخل من باب (اللاّن)، واخترق هذه الولاية حتى خرج إلى بلاد الخزر، فمرّ بمدينة (بَلَنْجَر)[١] و(سَمَنْدَر)[٢]، وانتهى إلى مدينة (البَيْضاء)[٣] عاصمة خاقان، فهرب خاقان منها ومن مروان[٤].

ومن المعروف أنّ جبل القَبق يقطعه ممرّان: الأول عن طريق مدينة باب الأبواب، والثَّاني عن طريق باب اللاّن الذي يطلق عليه في الوقت الحاضر، ممر: (دَارْبِيل) أو ممر: (دايال) على اسم مدينتين يمرّ بهما هذا الممر الحيوي الذي سلكه مروان في هذه الحملة.

وكانت هذه الغزوة من غزوات مروان الشَّاملة التي قصد بها إبراز قوة الدَّولة ومقدرتها على قمع كل انتقاض بكفاية وسرعة.

ويبدو أنّ هذه الغزوات أثمرت في توطيد الأمن والاستقرار في ربوع إِرْمينِيَة بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للسكان الأصليين، فقد كانت سنة عشرين ومئة الهجريَّة (٧٣٨م) سنة سلام واستقرار في أرجاء إِرْمينِيَة، إذ لم يَغْز مروان في تلك السنة، فاستعادت قوات المسلمين أنفاسها، وأكملت استحضاراتها استعدادا لجهاد جديد.

---

(١) بلنجر: مدينة ببلاد الخزر، خلف باب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٧٨).

(٢) سمندر: بلد خلف باب الأبواب بثمانية أيام بأرض الخزر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٣٠ ـ ١٣١).

(٣) البيضاء: اسم مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٣٦).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٤) وابن الأثير (٥/ ٢١٥)، وانظر النجوم الزاهرة (١/ ٢٨٢).

كما أن هذه الغزوة حقّقت بانتصاراتها استعادة فتح أجزاء كبيرة من إرمينية وبلاد الخزر سبق فتحها من الفاتحين الأولين، ولكنها كانت تنتقض بين حينٍ وآخر، إذا وجدت لذلك سبيلاً.

٦ - وفي سنة إحدى وعشرين ومئة الهجريَّة (٧٣٨م)، غزا مروان في إِرْمِينِيَة وهو واليها، فأتى قلعة بيت السرير، فقَتل وسبى.

ودخل مروان (غُومَسْك)[١]، وهو حصن فيه بيت الملك، يكون فيه ملك السرير[٢]، فخرج الملك هارباً حتى أتى حصناً يقال له: (خثرج)[٣] فيه سرير الذهب، فأقام عليه مروان شتوةً وصيفةً محاصراً له، فصالحه على ألف رأس كل سنة ومئة ألف مُدي.

وسار مروان، فدخل (تُومان)، فصالحه ملكها تومان شاه.

وسار مروان، فدخل أرض (زِرِيكران)[٤]، فصالحه ملكها.

وسار مروان حتى دخل بلاد (حمزين)[٥]، فأخرب بلاده، وحصر حصناً له شهراً كاملاً، فسأله حمزين الصلح، فصالحه مروان.

وسار مروان حتى دخل أرض (مسدار)[٦]، فافتتحها على صلح.

---

(١) وردت كذلك في تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٧)، أما في ابن الأثير (٥/ ٢٤٠) فقد وردت: غوميك.

(٢) ملك السرير: يدعى وهرار زانشاه، انظر فتوح البلدان (٢٧٦).

(٣) خثرج: وردت كذلك في تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٦٧)، أما في ابن الأثير (٥/ ٢٤٠) فقد وردت: خيزج، حصن في إقليم السرير، ولا ذكر له في المصادر البلدانية المتيسرة.

(٤) زريكران: هكذا وردت في فتوح البلدان (٢٩٣).

(٥) حمزين: هكذا وردت في ابن الأثير (٥/ ٢٤٠)، أما في تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٧)، فقد وردت حمرين.

(٦) هكذا وردت في تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٧)، أما في تاريخ ابن الأثير (٥/ ٢٤٠) فقد وردت: مسدا.

ثم نزل مروان على (كِيران)[1]، فصالحه طَبَرْسَرانشاه وفَيلان شاه[2].

وكل هذه الولايات على شاطىء البحر من إِرْمينِيَة إلى طَبَرِستان[3].

ومن الواضح أنّ هذه الغزوة كانت لغرض فرض سيطرة الدَّولة على الذين انتقضوا، وإظهار قوتها للذين خالفوا وللذين يتردّدون في إعلان مخالفتهم لسبب أو لآخر، والقوة هي السبيل لقمع الفوضى وفرض النظام إذا عجزت السياسة عن فرضها بالحسنى.

وقد تهيّأ لمروان في هذه السنة من الفتوحات أمرٌ عظيم، ووقع في قلوب الخزر والترك منه رعب عظيم[4].

وقد وطّد أركان الأمن والاستقرار في إِرْمينِيَة، وأصبح الذين كان دأبهم الانتقاض على الدَّولة والشغب عليها وقطع الجزية عنها أو المماطلة في أدائها، يخافون مروان ويهابونه ويطيعونه وينفِّذون أوامره، كما أصبح للدولة هيبة في نفوس سكّان البلاد الأصليين والوافدين، لهذا نعمت إِرْمينِيَة بالسلام والإستقرار، وانصرف مروان للبناء والتعمير، إلى أن عاد أدراجه من إِرْمينِيَة إلى دمشق، على رأس جيش ضخم سنة سبع وعشرين ومئة الهجريَّة (٧٤٤م) مطالباً بالخلافة.

لقد كان مروان في قيادته فاتحاً من أبرز الفاتحين في دولة بني أميّة: فتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعدّدة في سنين كثيرة، وكان لا يفارق الغزو في سبيل اللَّه، وقاتل طوائف من الناس الكفَّار ومن الترك والخزر واللّان وغيرهم، فكسرهم وقهرهم، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي[5].

---

(١) كيران: مدينة بإرمينية بالقرب من البيلقان، انظر معجم البلدان (٧/ ٣٠٥).
(٢) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٧) وابن الأثير (٥/ ٢٤٠) وانظر الطبري (٧/ ٣٠٥).
(٣) ابن الأثير (٥/ ٢٤٠).
(٤) العبر (١/ ١٥٣).
(٥) البداية والنهاية (١٠/ ٤٧).

في الصراع الداخليّ

١ ـ من الولاية إلى الخلافة

تُوفي هشام بن عبد الملك بن مروان سنة خمس وعشرين ومئة الهجريَّة[1] (٧٤٢م)، فتولى الخلافة من بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، فكتب إليه مروان بن محمد بيعته، واستأذنه بالقدوم عليه[2]، وكان نصّ كتاب البيعة الذي بعث به مروان إلى الخليفة الجديد: بارك اللَّه لأمير المؤمنين فيما صار إليه من ولاية عباده، ووراثة بلاده، وكان من تغشِّي غَمْرة سكرة الولاية ما حمل هشاماً على ما حاول من تصغير ما عظّم اللَّه من حقِّ أمير المؤمنين، ورامَ من الأمر المستصعب عليه، الذي أجاب إليه المدخولون[3] في آرائهم وأديانهم، فوجد ما طمع فيه مُستصعباً، وزاحمته الأقدار بأشدِّ مناكبها. وكان أمير المؤمنين بمكان من اللَّه حاطه فيه، حتى أزّره بأكرم مناطق الخلافة، فقام بما أراه اللَّه له أهلاً، ونهض مستقلاً بما حُمِّل منها، مثبتة ولايته في سابق الزُّبُر[4] بالأجل المسمّى، وخصّه اللَّه على خُلقه وهو يرى حالاتهم، فقلّده طَوْقها، ورمى إليه بأزِمّة الخلافة، وعِصم الأمور.

---

(١) الطبري (٧/ ٢٠٠) وابن الأثير (٥/ ٢٦١) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٧٢) والعبر (١/ ١٦٠).

(٢) الطبري (٧/ ٢١٦) وابن الأثير (٥/ ٢٦٨).

(٣) المدخول: مَنْ في عقله دخل، أي فساد.

(٤) الزُّبر: جمع زبور، وهو الكتاب.

فالحمد للَّه الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته، ووثائق عُرَى دينه، وذبّ له عمّا كاده فيه الظّالمون، فرفعه ووضعهم، فمن أقام على الخَسِيسة من الأمور أوْبَق[1] نفسه وأسخط ربّه، ومَنْ عدلت به التوبة نازعاً عن الباطل إلى حق وجد اللّه توّاباً رحيماً.

أُخبر أمير المؤمنين أكرمه اللَّه، أني عندما انتهى إليّ من قيامه بولاية خلافة اللَّه، نهضتُ إلى منبري، عليَّ سيفان مستعدّاً بهما لأهل الغش، حتى أعلمتُ مَنْ قِبَلي ما امتنّ اللَّه به عليهم من ولاية أمير المؤمنين، فاستبشروا بذلك، وقالوا: لم تأتنا خلافة كانت آمالنا فيها أعظم ولا هي لنا أسرّ من ولاية أمير المؤمنين، وقد بسطتُ يدي لبيعتك فجدّدتها ووكّدتها بوثائق العهود وترداد المواثيق وتغليظ الأيمان، فكلّهم حسُنت إجابتُهم وطاعتُهم؛ فأثِبْهم يا أمير المؤمنين بطاعتهم من مال اللَّه الذي آتاكَ، فإنك أجودهم جوداً وأبسطهم يداً، وقد انتظروك راجين فضلك قِبَلهم بالرَّحم الذي استرحموك، وزدهم زيادة يَفْضَل بها مَنْ كان قِبَلك، حتى يظهر بذلك فضلُك عليهم وعلى رعيّتك، ولولا ما أُحاول من سدّ الثّغر[2] الذي أنا به، لخفتُ أن يحملني الشوق إلى أمير المؤمنين أن استخلف رجلاً على غير أمره، وأقدم لمعاينة أمير المؤمنين، فإنها لا يعدلها عندي عادل نعمة وإن عظمت، فإنّ رأى المؤمنين أن يأذن لي في المسير إليه لأشافهه بأمورٍ كرهتُ الكتاب بها فعل[3].

ولا تخلو هذه الرسالة من مجاملة في غير موضعها لا يستحقها الخليفة الجديد، لأن الخليفة الجديد كان صاحب لهوٍ وصيد ولذّات حتى ثقل على الناس وعلى جنده[4]، ولكنها تدلّ على أنّ مروان يميل إلى

---

(١) أوبق نفسه: أي أهلكها.

(٢) الثغر: موضع المخافة من فروج البلدان.

(٣) الطبري (٧/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

(٤) الطبري (٧/ ٢٣١).

الوليد بن يزيد ويدين له بالولاء، وقد بقي على ولائه ما بقي الوليد على قيد الحياة.

فقد بلغ مروان وهو في مقر عمله على إِرْمِينِيَة وأذربيجان والجزيرة سنة ست وعشرين ومئة الهجريَّة (٧٤٣م)، أنّ يزيد بن الوليد بن عبد الملك يدعو سرّاً لنفسه ويبثّ دعاته في الأمصار ويبايع الناس سرّاً، فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان ـ وكان يدعى: سعيد الخير، وكان أكبر بني أمية وأفضلهم حينذاك ـ يأمره أن ينهي الناس ويكفّهم ويحذِّرهم الفتنة ويخوِّفهم خروج الأمر عنهم. وأعظم سعيد ذلك، وبعث بالكتاب إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك، فاستدعى العباس يزيد وتهدّده، ولكن يزيد كتمه أمره، فصدّقه العباس[1]، وانتهى الأمر إلى هذا الحد.

واستطاع يزيد بن الوليد بن عبد الملك قتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك وتولى الخلافة من بعده، فاضطرب أمر بني أميّة اضطراباً شديداً.

ولعلّ أخطر الاضطرابات التي انتشرت انتشاراً خاطفاً، مخالفة مروان بن محمد للخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ست وعشرين ومئة الهجريَّة، وإظهار هذا الخلاف.

وبدأ عبد الملك بن مروان بن محمد بالوثوب على حَرّان والجزيرة فضبطها بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم كتب إلى أبيه مروان وهو بإرمينية يُعْلمه بذلك ويشير عليه بالتعجّل بالمسير إلى دمشق، فتهيّأ مروان للمسير، وأنفذ إلى الثغور من يضبطها ويحفظها، وأظهر أنه يطالب بدم الوليد بن يزيد، وسار ومعه الجنود ومعه ثابت بن نُعَيْم الجُذاميّ من أهل فلسطين.

وسبب صحبة ثابت أنّ هشام بن عبد الملك كان قد حبسه، لأنّ

---

(١) الطبري (٧/ ٢٣٨) وابن الأثير (٥/ ٢٨٤).

هشاماً أرسله إلى إفريقية لمّا قتلوا عامله كُلْثوم بن عِيَاض فأفسد الجند، فحبسه هشام. وقدم مروان على هشام في بعض وفاداته، فشفع بثابت، فقبل هشام شفاعته وأطلق سراحه، فاستصحبه معه مروان إلى إِرْمِينِيَة.

ولما سار مروان مسيره هذا، أمر ثابت بن نُعَيْم مَنْ مع أهل الشَّام بالانضمام إليه ومفارقة مروان، ليعود بهم إلى الشَّام، فأجابوه إلى ذلك، واجتمع معه ضعف مَنْ مع مروان، وباتوا يتحارسون، ولكن مروان هدّدهم، فانقادوا له، فأخذ ثابت بن نُعَيْم وأولاده وحبسهم، وضبط الجند حتى بلغ حرّان، ثم سيّرهم إلى الشَّام.

ودعا مروان أهل الجزيرة إلى التجنيد، ففرض لنيِّف وعشرين ألفاً، وتجهّز للمسير إلى يزيد بن الوليد بن عبد الملك في دمشق.

وكاتبه يزيد ليبايع له، على أن يولّيه ما كان عبد الملك بن مروان ولّي أباه محمد بن مروان من الجزيرة وإِرْمِينِيَة وأذربيجان، فبايعه مروان، وأعطاه يزيد ولاية ما ذكر له[1].

والذي يبدو أنّ مروان تظاهر بالمطالبة بدم الوليد، لأنه خشي أن يعزله الخليفة الجديد يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فلمّا أقرّه على الجزيرة وإِرْمِينِيَة وأذربيجان بايع يزيد وكفى اللّه المؤمنين شرّ القتال، وهكذا كان طموح مروان غير المشروع، هو المحرّك لإقدامه على الخلافة.

والدليل على أنّ طموحه غير المشروع هو الذي دفعه إلى الخلافة، وحرصه على الولاية التي يحكمها من زمن بعيد أولاً وقبل كل شيء، هو أنّه لم يخالف الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان فاسقاً متهتّكاً[2]،

---

(١) الطبري (٧/ ٢٩٧) وابن الأثير (٥/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).
(٢) العبر (١/ ١٦١).

وخالف يزيد بن الوليد بن عبد الملك وكان فيه زُهْدٌ وعدلٌ وخير[1]، لأنَّ الوليد أقرّه على ولايته، ولأن يزيد لم يقرّه في بداية أيام خلافته، ثم أقرّه على ولايته حين علم بمخالفته، فبايع يزيد ونسي خلافه وحمَده إلى حين.

ولكن يزيد بن الوليد بن عبد الملك تُوفي في هذه السنة، وهي سنة ست وعشرون ومئة الهجريَّة بعد أن تولى الخلافة ستة أشهر تقريباً[2]، فتولّى الخلافة من بعده إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك[3]، فأظهر مروان خلافة من جديد، فقد دفعه طموحه غير المشروع إلى الطمع في تولي أعلى منصب في الدَّولة الإسلاميَّة، كأنّ منصبه الحالي لا يرضي طموحه الجّامح بعد اليوم.

وسار مروان بالجنود، وخلّف ابنه عبد الملك في جمع عظيم بالرّقة، فلمّا انتهى مروان إلى قِنَّسرين، لقي بها بِشْر بن الوليد بن عبد الملك، وكان ولاّه أخوه يزيد قِنَّسرين، ومعه أخوه مَسْرور بن الوليد.

واستعدّ الجانبان للقتال، فدعاهم مروان إلى بيعته، فمال إليه يزيد بن عمر بن هُبَيْرة في القَيْسِيّة وأسلموا بِشْراً وأخاه مَسْروراً، فأخذهما مروان وحبسهما، ثم سار ومعه أهل قِنَّسْرين متوجّهاً إلى حِمْص.

وكان من أهل حِمْص قد امتنعوا حين مات يزيد من بيعة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بعد يزيد بعهدٍ منه، على أن يتولى الخلافة من بعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك[4]، فلم يبايع أهل حِمْص إبراهيم وعبد العزيز، فوجّه إليهم إبراهيم لقتالهم عبد العزيز وجند أهل دمشق، فحاصروا أهل حِمْص في مدينتهم.

---

(١) العبر (١/ ١٦٢).
(٢) الطبري (٧/ ٢٩٨).
(٣) ابن الأثير (٥/ ٣١١).
(٤) ابن الأثير (٥/ ٣٠٨).

وأسرع مروان في مسيرته باتجاه حِمْص، فلمّا دنا منها، رحل عنها عبد العزيز، فخرج أهلها إلى مروان وبايعوه وساروا نحو دمشق.

ووجّه إبراهيم بن الوليد الجنود من دمشق مع سليمان بن هشام بن عبد الملك للقاء مروان وصدِّه عن دمشق، فنزل سليمان موضع: (عين الجَرّ)[1] في مئة وعشرين ألفاً، ونزلها مروان في ثمانين ألفاً.

ودعا مروان أهل دمشق إلى الكفِّ عن قتاله وإطلاق سراح ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك من السجن، وكانا قد سُجنا بعد مقتل أبيهما، وضمن لهم مروان أنه لا يطلب أحداً من قَتَلَة الوليد إذا كفّوا عن قتاله، فلم يجيبوه وجدّوا في قتاله.

واقتتل الجانبان ما بين ارتفاع النهار إلى العصر، وكثر القتل بينهما.

وكان مروان ذا رأي ومكيدة، فأرسل ثلاثة آلاف فارس، فساروا خلف عسكره، وقطعوا نهراً كان هناك، وقصدوا عسكر دمشق ليغيروا فيه، فلم يشعر سليمان ومَنْ معه وهم مشغولون بالقتال إلاّ بالخيل والبارقة والتكبير في عسكرهم من خلفهم، فانهزم عسكر دمشق، ووضع أهل حِمْص السلاح فيهم لحنقهم عليهم، فقتلوا منهم سبعة عشر ألفاً، وكفّ أهل الجزيرة وأهل قِنّسرين عن قتلهم، وأتوا مروان من أسراهم بمثل القتلى وأكثر، فأخذ مروان عليهم البيعة لولدي الوليد: الحكم وعثمان، وخلّى عن الأسرى الباقين عدا اثنين من الأسرى توليا قتل الوليد فحبسهما فماتا في السجن.

وهرب يزيد بن خالد بن عبد الله القَسْرِيّ فيمَن هرب مع سليمان إلى دمشق، واجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج، فقال بعضهم لبعض: إنْ بقي ولدا الوليد: الحكم وعثمان حتى يخرجهما مروان ويصير

---

(١) عين الجر: موضع معروف بسهل البقاع، بين بعلبك ودمشق، انظر معجم البلدان (٦/ ٢٥٤).

الأمر إليهما، لم يَسْتَبْقِيا أحداً من قَتَلة أبيهما، والرأي قتلهما، فقُتِلا.

وتقدم جيش مروان كالسيل الجارف إلى دمشق، فدخلها خيل مروان أولاً ثم مشاته بعد الخيل، فهرب إبراهيم وهو الخليفة واختفى، وانتهب سليمان ما في بيت المال وقسمه في أصحابه وخرج من المدينة، وهرب أشياع الخليفة واختفوا، ودخل مروان المدينة لا ينازعه أحد فيها[1].

وما قَتَلَ الحكم وعثمان وهما ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك والوريثان الشرعيان للخلافة مَنْ قتلهما من أصحاب إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك الخليفة المخلوع، ولكن الذي قتلهما هو مروان، فقد ذبحهما بغير سكين، حين أجبر أسرى جيش دمشق في معركة: (عين الجَرّ) على بيعتها، ولا أظنّ أنّ مروان بدرجة من الغباء بحيث يغفل عن خطورة بيعتهما وهما في سجن إبراهيم، ويبدو أنّه أراد أن يُزيل آخر عقبة أمامه تحول بينه وبين الخلافة، فأقدم على ما أقدم ليتخلّص منهما على الرغم من تظاهره بنصرتهما والمطالبة بدم الوليد أبيهما، وهو في الواقع لا يطالب بغير الخلافة لنفسه، لأنّه كان يرى أنه أحق بها من غيره في حينه.

وبدأت تمثيليّة بيعة مروان بالخلافة، إذ لم يبق أحد ينازعه في تولي هذا المنصب الرفيع، فقد أُتي مروان بالغلامين الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك مقتولين وغيرهما فدفنهم، وأُتي بأبي محمد السفياني الذي نجا من القتل بأعجوبة، وكان مع ابني الوليد بن يزيد في السجن، وقد أُتي به في قيوده، فسلّم على مروان بالخلافة!!

وكان مروان يُسلّم عليه يومئذٍ بالإمرة.

واستنكر مروان التسليم عليه بالخلافة، ولكن أبا محمد السفياني قال: إنهما ـ ويريد الغلامين الحكم وعثمان ـ جعلاها لك بعدهما، وأنشده

---

(١) الطبري (٧/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢) وابن الأثير (٥/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).

شعراً قاله الحكم في السجن، وكانا قد بلغا وولد للحكم مولود، وهذا شعر الحكم الذي رواه السفياني لمروان:

ألاَ مَنْ مُبْلِغٌ مروان عنِّي ... وعَمّي الغَمْرَ طال به حنينا[1]

بأني قد ظُلمتُ وصار قومي ... على قتل الوليد مشايعينا[2]

أيذهبُ كلُّهم بدمي ومالي ... فلا غثّاً أصبتُ ولا سَمينا[3]

ومروانٌ بأرض بني نِزارِ ... كليث الغاب مفترسٌ عرينا[4]

أتُنْكَثُ بَيْعَتي من أجل أُمي ... فقد بايعتُم قبلي هجينا[5]

فإنْ أهْلِك أنا ووليّ عَهْدِي ... فمروانٌ أمير المؤمنينا

ثم قال: ابسط يدك أبايعك.

وسمعه مَنْ مع مروان، وكان أول من بايعه معاوية بن يزيد بن حُصَيْن بن نُمَيْر ورؤوس أهل حِمْص والناس بعده.

ولما استقرّ له الأمر، رحل إلى منزله بحرّان.

وطُلب منه الأمان لإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك وهو الخليفة المتنازل عن الخلافة، وسليمان بن هشام بن عبد الملك، فأمنهما. وقد

---

(١) في الطبري (٧/٣١١): طال بذا جنينا.

(٢) في الطبري: متابعينا.

(٣) في الطبري: أيذهب كلبهم.

(٤) ورد في الطبري بعد هذا البيت الأبيات التالية:

أَلَمْ يَحْزُنكَ قَتْلُ فَتَى قُرَيْشٍ ... وشَقُّهُمُ عصيّ المسلمينا

ألاَ فاقْرَ السَّلامَ عَلى قُرَيْشٍ ... وقَيْسٍ بالجزيرة أجْمَعينا

وساد الناقص القَدَرِيّ فينا ... وألقى الحربَ بين بني أبينا

فلو شَهِدَ الفوارس من سُلَيْمٍ ... وكَعْبٍ لم أكنْ لهمُ رهينا

ولو شهِدَتْ ليوثُ بني تَمِيمٍ ... لما بِعْنا تراثَ بنيّ أبينا

(٥) بعد هذا البيت في الطبري:

فلَيْت خُؤولتي من غير كَلْبٍ ... وكانت في ولادة آخرينا

وفدا عليه وهو في حَرَّان وبايعاه بالخلافة، وكان سليمان بـ(تَدْمُر) بمن معه من إخوته ومواليه، فبايعوا جميعاً مروان بن محمد بن الحكم[1].

وليس المهم تحقيق صحّة نسبة هذه الأبيات إلى الحكم، فالظلال على نسبتها كثيفة قاتمة، فبالرغم من سذاجة الأبيات الشعرية، إلاّ أنّها يصعب على الحكم قولها في ظروفه الحرجة وهو بين الحياة والموت وقد بلغ الحلم أو لم يبلغه، كما يصعب على هذا السفياني حفظ هذا الشعر وهو مهدّد بالموت في السّجن يلجأ إلى أحد دهاليسه ويغلق عليه الباب، وخلفه السيوف مُسَلَّطة تريد رأسه، فينقذه من القتل وصول جند مروان في تلك اللحظات الحرجة الحاسمة إلى السّجن.

المهم أنّ مروان حقّق ما طمح إليه في تسنّم سدّة الخلافة، وبعد انتصاره على جيش الخلافة أصبح سيّد الموقف بدون منازع، ولو لم يتطوّع السفياني باختلاق ما أعلنه من أساطير، لتطوّع لإعلان مثلها غيره من النّهازين الخبراء كل الخبرة بإسماع السلطان ما (يحبّ) أن يسمع لا ما (يجبّ) أن يسمع، فأكثر الناس مع (الواقف) لا مع (القاعد) بصرف النظر عن أيّهما يكون معه الحق وأيّهما يكون معه الباطل، فهم مع (القوي) حتى إذا كان على الباطل، على (الضعيف) حتى إذا كان على الحق.

وقد ظنّ مروان أنّه بلغ أوج سعادته في تسنّمه الخلافة، وما درى أنّه بلغ حضيض شقائه في تسنّمها، فقد انتهت بالخلافة أيام رخائه، وبدأت بها أيام شقائه، حتى قُتل شريداً طريداً غريباً محروماً من أبسط حق من حقوق الإنسان: القبر.

٢ ـ أوّل الغيث

أ ـ كانت بيعة مروان بالخلافة سنة سبع وعشرين ومئة الهجريّة

---

(١) الطبري (٧/ ٣١١ ـ ٣١٢) وابن الأثير (٥/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

(٧٤٤م)، وفي هذه السنة بالذات ظهر عبد اللَّه بن معاوية بن عبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة ودعا إلى نفسه، فقاتله جيش الدَّولة وانتصر عليه، فلجأ إلى (المدائن) بعد أن أُعطي له الأمان، ولكنه جمع الجموع فغلب على حُلوان والجبال وهَمَذان وأصبهان والريّ[1]، واشتبك بعدة معارك طاحنة اندحر فيها، فهرب إلى أبي مُسلم الخراساني الذي أعلن الدعوة العباسية بخُراسان، فقتل أبو مسلم الخراساني سنة تسع وعشرين ومئة الهجريَّة[2] (٧٤٦م).

ب ـ وفي هذه السنة انتقض أهل حِمْص على مروان، وسبب انتقاضهم أنه لمّا عاد إلى حَرَّان بعد فراغه من أهل الشَّام، أقام ثلاثة، فانتقض عليه أهل حِمْص.

وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نُعَيْم الذي راسلهم محرِّضاً، وبعث إليهم مَنْ بتَدْمُر من كَلْب في نحوِ من ألف من فرسانهم، فدخلوا حِمْص ليلة عيد الفطر.

وتوجّه مروان في السير إلى حِمْص ومعه الخليفة المخلوع إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك وسليمان بن هشام بن عبد الملك، وكان مروان قد أمنهما، وكان يكرمهما إكراماً كبيراً.

وبلغ مروان حِمْص بعد الفطر بيومين، وقد سدّ أهلها أبوابها، فأحدق بالمدينة، ووقف بإزاء باب من أبوابها، فنادى مناديه الذين عند الباب: ما دعاكم إلى النكث؟!، فقالوا: إنا على طاعتك، لم ننكث!، فقال: فافتحوا الباب، ففتحوا الباب!!

ودخلت قوات مروان حِمْص في نحو ثلاثة آلاف مقاتل، فقاتلهم مَنْ في البلد ولكنّ خيل مروان هاجمتهم بشدّة وتكاثرت عليهم.

---

(١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥/ ٣٢٤ ـ ٣٢٧).
(٢) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٣٧٠ ـ ٣٧٣).

وخرجت قوات مروان حِمْص من باب تَدْمُر، أحد أبواب المدينة، فقاتلهم مَنْ عليه من أصحاب مروان، فقتل عامّة من خرج منه، ولم يفلت منهم غير الشّريد.

وقتل مروان جماعة من الأسرى، وصلب خمسمائة من القتلى حول المدينة، وهدم من سورها نحو غَلْوَة[1].

وغير الواضح في هذه المعركة، هو سبب فتح باب من أبواب المدينة للمهاجمين، ولا تعليل له إلاّ أن يكون سكّان المدينة غير مجمعين على حرب مروان، ففتح له الباب الذين كانوا لا يريدون قتاله من أهل حِمْص، وأفسحوا له المجال لقتال المخالفين.

وعلى كل حال، فقد كانت قوات الجانبين غير متكافئتين، وكان التفوق مع جيش مروان، لذلك انتصر على أهل حِمْص، وبالغ في عقابهم الصارم، على نقضهم الذي لا مسوِّغ له، بعد أن كانوا معه على أعدائه.

ج - وفي هذه السنة أيضاً، سنة سبع وشعرين ومئة، خالف أهل الغُوْطَة[2] وهي الكورة التي منها دمشق، وولّوا عليهم يزيد بن خالد القَسْرِيّ، وحصروا دمشق.

ووجّه إليهم مروان من حِمْص أحد قادته في عشرة آلاف مقاتل، فلمّا دنوا إلى المدينة حملوا على المخالفين.

وخرج عليهم مَنْ بالغوطة، واشتبك الجانبان، فانهزم أهل الغوطة، واستباح جيش مروان عسكرهم، وأحرقوا (المِزَّة)، وكانت قرية كبيرة غنّاء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ[3]، كما أحرقوا

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣١٢ - ٣١٦) وابن الأثير (٥/ ٣٢٨ - ٣٢٩)، والغلوة: مقدار رمية سهم، وتقدّر بثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة ذراع.

(٢) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣١٤ - ٣١٥).

(٣) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٧).

اليمانيين المجاورة للغوطة، وأُخذ يزيد بن خالد فقُتل، وبُعث برأسه إلى مروان بحِمْص[1].

د ـ وفي هذه السنة أيضاً، سنة سبع وعشرين ومئة الهجريَّة، خرج ثابت بن نُعَيْم بعد أهل حِمْص ودمشق، معلناً خلافه لمروان، وكان مع ثابت في خلافه أهل فلسطين.

وتقدّم ثابت بمن معه إلى مدينة (طَبَرِيَّة) فحاصرها، وكان عليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم وهو ابن عم مروان بن محمد بن الحكم.

وكتب مروان إلى قائده الذي بعثه إلى الغوطة يأمره بالمسير إلى أهل فلسطين المخالفين، فسار إليهم، فلمّا قرب منهم خرج أهل طبريّة على ثابت، فهزموه واستباحوا عسكره.

وانصرف ثابت إلى فلسطين منهزماً، ولكن قائد مروان الذي بعثه لقتاله طارده، فالتقوا واقتتلوا، فَهُزم ثابت ثانية وتفرّق أصحابه، وأسر ثلاثة من أولاد ثابت، واستطاع ثابت وابنه رفاعة أن يلوذا بالفرار.

واستعمل مروان أحد رجاله على فلسطين، فظفر بثابت وبعثه إلى مروان موثقاً بعد شهرين، فأمر به وبأولاده الثلاثة، فقتلوا جميعاً، ثمّ حُملوا إلى دمشق، فألقُوا على باب المسجد، ثم صلبهم على أبواب دمشق.

وكان مروان في هذه السنة قد بايع لابنيه عبيد اللّه وعبد اللّه وزوجهما ابنتي هشام بن عبد الملك، وجمع كذلك بني أمية، واستقام له الشّام ما عدا تدمُر، فسار إليها ونزل القَسْطَل[2]، وبينه وبين تَدْمُر أيام،

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣١٣ ـ ٣١٤) وابن خلدون (٥/ ٣٢٩).
(٢) القسطل: موضع بين حمص ودمشق، انظر معجم البلدان (٧/ ٨٦).

وكانوا قد عوّروا[1] المياه، فاستعمل المزاد والقِرب والأعلاف والإبل. وكلّمه الأبرش بن الوليد بن عبد الملك وسليمان بن هشام بن عبد الملك وغيرهما، وسألوه أن يُعذِر إليهم ويحتجّ عليهم، فأجابهم إلى ذلك. ووجّه الأبرش إليهم أخاه عمرو بن الوليد، فلم يستجيبوا له، فقصدهم الأبرش وخوّفهم وحذّرهم، فأجابوا إلى الطّاعة، وهرب بعضهم إلى البر مِمّن لم يثق بمروان، ورجع الأبرش إلى مروان ومعه مَنْ أطاع بعد أن هدم سورها[2].

هـ ـ وكان مروان في هذه السنة أيضاً، قد سير يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة بين يديه إلى العراق لقتال الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجي، وضرب على أهل الشّام بعثاً، وأمرهم باللّحام بيزيد.

وسار مروان إلى الرّصافة[3]، فاستأذنه سليمان بن هشام بن عبد الملك ليقيم أياماً ليقوى ويستريح هو ومَنْ معه، فأذن له مروان بالبقاء.

وتقدم مروان إلى (قَرْقِيسِياء)[4] وبها ابن هُبَيْرَة ليقدّمه إلى الضحّاك في العراق، فرجع عشرة آلاف ممن كان مروان قد أخذهم من أهل الشّام لقتال الضحّاك، فأقاموا بالرصافة، ثم دعوا سليمان بن هشام بن عبد الملك إلى خلع مروان، فأجابهم سليمان إلى ما دعوه إليه وأعلن خلع مروان بن محمد.

وسار سليمان بإخوته ومواليه مع جند الشّام الذين رفضوا السير إلى

---

(١) عوّر البئر: افسدها.

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣١٤ ـ ٣١٥) وابن الأثير (٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

(٣) الرصافة: يريد هنا رصافة الشام التي يطلق عليها رصافة هشام، غربي الرّقة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٥٥).

(٤) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور (خابور الفرات) قرب الرّحبة على ستة فراسخ منها، وعندها مصب الخابور في الفرات، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٥٩ ـ ٦٠).

العراق مع مروان، فعسكر بقنَّسرين وكاتب أهل الشَّام، فأتوه من كلّ وجه.

وبلغ الخبر مروان، فرجع من قرقيسياء، وكتب إلى ابن هُبَيْرَة يأمره بالمقام في قرقيسياء.

واجتاز مروان في رجوعه بحصن الكامل بين قرقيسياء، وقنَّسرين، وكان فيه جماعة من موالي سليمان وأولاد هشام بن عبد الملك، فأرسل إليهم مروان: إني أحذّركم أن تعرضوا لأحد ممن يتبعني من جندي، فإن فعلتم فلا أمان لكم عندي، فأرسلوا إليه: إنا لا نتعرّض بأحدٍ ممن معك.

ومضى مروان، فجعل الذين في حصن الكامل يغيرون على مَنْ يتبعه من أخريات الناس. فبلغه ذلك فتغيظ عليهم.

واجتمع إلى سليمان نحو سبعين ألفاً من أهل الشَّام وغيرهم، وعسكر بقرية (خُسَاف) من أرض قِنَّسرين.

وقدم مروان إلى معسكر سليمان بن هشام، وواقعه عند قدومه مباشرة، فاشتدّ القتال بين الجانبين، فانهزم سليمان ومن معه، وطاردتهم خيل مروان تقتل وتأسر، واستباح جيش مروان معسكر جيش سليمان، ثم وقف مروان في نقطة للسيطرة على السابلة، ووقف ابناه في نقطتين آخرين، ووقف كَوْثر صاحب شرطة مروان في نقطة رابعة، وأمرهم ألاّ يؤتوا بأسير إلاّ قتلوه إلاّ عبداً مملوكاً، فأُحصي قتلاهم يومئذ ما نيّف على ثلاثين ألف قتيل، وقُتل إبراهيم بن سليمان أكبر ولده وخالد بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك، وادّعى كثير من الأسرى لجند مروان أنهم عبيد، فكفّ عن قتلهم وأمر ببيعهم، وكان عددهم أكثر ممن أُصيب من عسكرهم.

ومضى سليمان حتى انتهى إلى حِمْص، وانضم إليه مَنْ أفلت ممن كان معه، فعسكر في حِمْص وبنى ما كان مروان أمر بهدمه من سورها.
وسار مروان إلى حصن الكامل خنقاً على من فيه، فحرصهم وأنزلهم على

حكمه، ومثّل بهم وأخذهم إلى الرَّقّة، فداووا جراحهم، وهلك بعضهم وبقي أكثرهم، وكانت عدّتهم نحواً من ثلاثمائة.

وسار مروان إلى سليمان ومن معه، فقال بعضهم لبعض: حتى متى نهزم من مروان؟!

وتبايع سبعمائة من فرسانهم على الموت، وساروا بأجمعهم مجمعين على أن يبيّتوا مروان إنْ أصابوا منه غِرَّة.

وبلغ مروان خبرهم، فتحرّز منهم، وزحف إليهم في الخنادق على احتراس وتعبية، فلم يُمكِّنهم أن يبيّتوه.

وكمنوا له في حقل للزيتون في طريقه، وخرجوا عليه وهو يسير على تعبية، فوضعوا السِّلاح فيمَنْ معه، فحشد خيوله في المقدمة والمجنبتين، وقاتلهم من ارتفاع النهار إلى العصر، فانهزم أصحاب سليمان مرة أخرى، وقتل منهم نحو ستة آلاف.

ولما بلغ سليمان هزيمة رجاله، خلّف أخاه سعيداً بحِمْص، ومضى هو إلى تَدْمُر فأقام بها.

ونزل مروان على حِمْص، فحصر أهلها عشرة أشهر، ونصب عليهم نيّفاً وثمانين منجنيقاً يُرمى بها ليلاً ونهاراً، وأهل حِمْص يخرجون إليه كل يوم فيقاتلونه، وربّما بيّتوا نواحي عسكره في بعض الأحيان.

ولما طال عليهم البلاء، طلبوا الأمان على أن يمكّنوه من سعيد بن هشام بن عبد الملك وابنَيْه عثمان ومروان، ومن بعض الذين نصبوا له العداء، فاستوثق، من سعيد وابنيه، وقتل أعداءه.

وقيل: إنّ سليمان بن هشام لمّا انهزم بخُساف، أقبل هارباً حتى وصل إلى عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز بالعراق، فخرج معه إلى الضحّاك بن قيس الخارجيّ، فبايعه وحرّض على مروان، فقال بعض شعرائهم:

ألـــم تـــرَ أنّ الـــلّـــه أظْـــهَـــرَ دِيـــنَـــهُ وصلّت قريشٌ خلفَ بكر بن وائل[1]

وكان الضحّاك بن قيس من بني شَيْبَان من بكر بن وائل.

و ـ وفي هذه السنة أيضاً، خرج الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجي في العراق، فسار إليه مروان ومعه يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة الذي قدّمه إلى قرقيسياء، ولكن فتنة سليمان بن هشام جعلت مروان يعود أدراجه من قرقيسياء ويقضي على فتنة سليمان، ثم يعود إليها على رأس جيشه، وكان قد أمر ابن هبيرة بالمقام في قرقيسياء ريثما يعود إليه.

وسبب خروج الضحّاك الخارجي في العراق على الدَّولة، أنّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك حين قُتل، خرج بالجزيرة حَروريّ يقال له: سعيد بن بَهْدَل الشيبانيّ في مئتين من أهل الجزيرة، فيهم الضحّاك بن قيس الشيباني، فاغتنم قتل الوليد واشتغال مروان بالشَّام، فخرج في الجزيرة ثم سار إلى العراق لمّا بلغه أنّ الاختلاف بها أيضاً، فمات سعيد بن بهدل في الطريق، واستُخلف الضحّاك بن قيس، فبايعه الشُّراة (الخوارج)، فأتى أرض الموصل ثم (شَهْرزور)[2]، واجتمعت إليه الصُّفريّة (فرقة من الخوارج) حتى صار في أربعة آلاف.

وهلك يزيد بن الوليد، وكان عامله على العراق عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز، فلمّا تولى مروان الخلافة، كتب إلى النَّضْر بن سعيد الحَرَشِيّ بولاية العراق، فلم يسلّم ابن عمر إليه العمل.

وشخص النَّضْر إلى الكوفة، وبقي ابن عمر بالحيرة، فتحاربا أربعة أشهر، وأمدّ مروان النّضر.

واجتمعت المُضَرِيَّة مع النّضر عصبيّة لمروان حيث طلب بدم

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٢٤ ـ ٣٢٧) وابن الأثير (٥/ ٣٣١ ـ ٣٣٣).

(٢) شهرزور: كورة واسعة في الجبال، بين أربيل وهمذان، فيها مدن وقرى كثيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣١٢ ـ ٣١٤).

الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكانت أم الوليد قيسيّة من مُضَر، وكان أهل اليمن مع ابن عمر عصبية له، حيث كانوا يؤيدون يزيد بن الوليد بن عبد الملك في قتل الوليد.

فلما سمع الضحّاك باختلافهم، أقبل نحوهم وقصد العراق سنة سبع وعشرين ومئة الهجريَّة، فأرسل ابن عمر إلى النّضر: إن هذا لا يريد غيري وغيرك، فَهَلُمَّ نجتمع عليه.

وتعاقدا عليه واجتمعا بالكوفة، وكان كل منهما يصلي بأصحابه.

وأقبل الضحّاك، فنزل بـ: (النُّخَيْلَة)[1]، واقتتلوا قتالاً شديداً، فكشف الخوارج ابن عمر وقتلوا أخاه عاصِماً، فدخل ابن عمر خندقه، وبقي الخوارج يحيطونه إلى الليل ثم انصرفوا.

وفي اليوم الثَّاني اقتتل الجانبان قتالاً عنيفاً، فانهزم أصحاب ابن عمر، ودخلوا خنادقهم، فلمّا أصبحوا تسلل أصحابه نحو واسِط، لأنهم رأوا قوماً لم يروا أشدّ بأساً منهم.

وكان ممن لحق بواسط النّضْر بن سعيد الحَرَشيّ وغيره من الوجوه، وبقي ابن عمر فيمن عنده من أصحابه لم يبرح، فقال له أصحابه: قد هرب الناس، فعلام نُقيم؟!

وبقي ابن عمر يومين آخرين لا يرى إلاّ هاربا، فرحل عند ذلك إلى واسط، واستولى الضحّاك على الكوفة ودخلها.

ووصل ابن عمر إلى واسط، فنزل بدار الحجاج بن يوسف الثقفي، فعادت الحرب بينه وبين النّضر إلى ما كانت عليه قبل قدوم الضحّاك إلى العراق: النضر يطلب أن يسلّم إليه ابن عمر ولاية العراق بعهد مروان له، وابن عمر يمتنع.

---

(١) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٧٦ - ٢٧٧).

وسار الضحّاك من الكوفة إلى واسط، فلمّا رأى ابن عمر والنّضر ذلك، تركا الحرب بينهما واتّفقا على قتال الضحّاك، فاستمرّ القتال بين الجانبين ثلاثة أشهر متواصلاً.

وقال أحد الرجال لابن عمر: ما رأيت مثل هؤلاء! فلِمَ نحاربهم ونشْغلهم عن مروان؟ أعطهم الرِّضا واجعلهم بينك وبين مروان، فإنهم يرجعون عنّا إليه ويوسعونه شراً، فإن ظفروا به كان ما أردت وكنت عندهم آمناً، وإن ظفر بهم وأردت خلافه وقتاله قاتلته وأنت مستريح!.

ثم إنّ عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز خرج إلى الضحّاك وصالحه وبايعه، ومعه سليمان بن هشام بن عبد الملك[1].

ز ـ وفي هذه السنة أيضاً خلع أهل الأندلس أبا الخُطّار الحُسَام بن ضِرار أميرهم.

وسبب ذلك أنه لمّا قدم الأندلس أميراً، أظهر العصبية لليمانية على المُضَريّة، فاتفق في بعض الأيام أنه اختصم رجل من كِنَانة ورجل من غَسّان، فاستعان الكِنانيَ بالصُّمَيْل بن حاتم بن ذي الجَوْشَن الضَّبانيّ، فكلم به أبا الخُطّار، فاستغلظ له أبو الخُطّار، فأجابه الصُّميل، فأمر به فأُقيم وضُرب قفاه، فمالت عِمامته، فلمّا خرج قيل له: نرى عمامتك مالت! فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها!.

وكان الصّميل من أشراف مُضَر، فلمّا دخل الأندلس شرف فيها بنفسه وأوليته، فلمّا جرى له ما ذكرناه جمع قومه وأعلمهم، فقالوا له: نحن تَبَعٌ لك، فقال: أُريد أن أُخرج أبا الخطّار من الأندلس، فنصحه بعض أصحابه أن يستعين بأبي عطاء القيسيّ، وكان من أشراف قيس، وكان يناظر الصّميل في الرياسة ويحسده، وقالوا له: الرأي أنك تأتي أبا

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٢٧ ـ ٣٢٩) وابن الأثير (٥/ ٣٣٤ ـ ٣٣٧).

العطاء وتشدّ أمرك به، فإنه تحرّكه الحميّة وينصرك، وإن تركته مال إلى أبي الخطّار وأعانه عليك ليبلغ فيك ما يريد، والرأي أيضاً أن تستعين عليه بأهل اليمن فضلاً عن مَعَدّ[1].

وسار من ليلته إلى أبي عطاء، فعظّمه أبو عطاء، وسأله عن سبب قدومه، فأعلمه، فلم يكلّمه حتى قام فركب فرسه ولبس سلاحه، وقال له: انهض الآن حيث شئت، فأنا معك، ثم أمر أهله وأتباعه باتباعه.

واستعان الصّميل بثَوابَة بن سلامة الحذّاني، وكان مطاعاً في قومه، وكان أبو الخطّار استعمله على إشْبِيلِيَة وغيرها ثم عزله، ففسد عليه، فدعاه الصميل إلى نصره، ووعده أنه إذا أخرجوا أبا الخطّار صار أميراً، فأجاب إلى نصره، ودعا قومه فأجابوه.

وسار أبو الخطّار إليهم من قُرطبة، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر الفريقان، ثم وقعت الهزيمة على أبي الخطّار، وقُتل أصحابه أشدّ قتل، وأُسر أبو الخطّار.

ولما انهزم أبو الخطّار، سار ثوابة بن سلامة والصّميل إلى قرطبة فملكاها. واستقر ثوابة في الإمارة، فثار به عبد الرحمٰن بن حسّان الكلبيّ وأخرج أبا الخطّار من السجن، فاستجاش (طلب منهم جيشاً) اليمانيّة، فاجتمع خلق كثير. وأقبل بهم إلى قُرطبة، فخرج إليه ثوابة بمن معه من اليمانيّة والمُضَريّة مع الصّميل.

ولما تقاتل الطائفتان نادى رجلٌ من مُضَر: يا معشر اليمانيّة! ما بالكم تتعرّضون للحرب على أبي الخطّار، وقد جعلنا الأمير منكم؟! يعني ثوابة، فإنه من اليمن، ثم أضاف: ولو أنّ الأمير منّا، لقد كنتم تعتذرون في قتالكم لنا، وما نقول هذا إلاّ تحرّجاً من الدماء ورغبة في العافية

---

(١) معد بن عدنان، وكنانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر، بن نَزار بن معدّ بن عدنان.

للعامَّة! فلمّا سمع الناس كلامه، قالوا: صدق والله، الأمير منّا، فما بالنا نقاتل قومنا؟ فتركوا القتال، وافترق الناس، فهرب أبو الخطّار ولجأ إلى مأمنه، ورجع ثوابة إلى قُرطبة، فسمى ذلك العسكر: عسكر العافية[1].

ح ـ وفي هذه السنة أيضاً، توجّه سليمان بن كثير ولاهز بن قُرَيظ وقَحْطَبة إلى مكّة، فلقوا إبراهيم بن محمد الإمام بها، وأوصلوا إلى مولى له عشرين ألف دينار ومئتي ألف درهم ومسكاً ومتاعاً كثيراً، وكان معهم أبو مسلم الخراساني، فقال سليمان لإبراهيم: هذا مولاك.

وكتب بُكَيْر بن ماهان إلى إبراهيم الإمام، أنه في الموت، وأنه قد استخلف أبا سَلَمَة حَفْص بن سليمان، وهو رضيّ للأمر. فكتب إبراهيم الإمام لأبي سَلَمَة يأمره بالقيام بأمر أصحابه، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد أسند أمرهم إليه. ومضى أبو سلمة إلى خراسان، فصدّقوه وقبلوا أمره، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشّيعة وخُمس أموالهم[2].

٣ ـ تصاعد الخلاف

أ ـ دخلت سنة ثمان وعشرين ومئة الهجريَّة (٧٤٥م)، فتصاعدت حدة الخلاف، وكثر المخالفون نوعاً وعدداً، كأنّ مروان هدف للرمي في ميدان للرميّ، تتكاثر عليه السهام، فتصيبه بعضها وتتخطاه أخرى، ولكنها تستنزف قوته وتؤثر في معنوياته وتسحبه سحباً إلى مصيره المحتوم.

فقد بلغت الفوضى في خراسان منتهاها، ليس من جهة واحدة، بل من جهات عدّة.

ولا يمكن حصر كل بواعث الفوضى في الحديث عن سيرة مروان، ولكن لا بأس أن نتطرق إلى نماذج قليلة منها.

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩).
(٢) الطبري (٧/ ٣٢٩) وابن الأثير (٥/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠).

فقد كان يزيد بن الوليد بن عبد الملك قد أعطى الأمان للحارث بن سُرَيْح الذي كان يعيش في بلاد العدو، فعاد أدراجه إلى بلاد الإسلام.

ولما وليَ ابن هُبَيْرة العراق، كتب إلى نصْر بن سَيّار بعهده على خراسان، فبايع لمروان بن محمد، فقال الحارث: إنما آمنني يزيد ولم يؤمني مروان، ولا يجيز مروان أمان يزيد، فلا آمنه، فخالف نصراً.

وأرسل إلى نصر، يدعوه إلى الجماعة، وينهاه عن الفُرقة وإطماع العدو المتربّص بالمسلمين، فلم يجبه إلى ما أراد، وخرج وعسكر مع أصحابه، ثم أرسل إلى نصر: اجعل الأمر شُورى فأبى نصر.

وأمر الحارث جَهْمَ بن صفوان، رأس الجهميّة أن يقرأ سيرته وما يدعو إليه على الناس، فلمّا سمعوا ذلك كثروا وكثر جمعه.

وأرسل الحارث إلى نصر صاحب شرطته ويغيِّر عماله ويقرّ الأمر بينهما أن يختاروا رجالاً يسمون لهم قوماً يعملون بكتاب اللّه، فاختار نصر رجلين من أصحابه، واختار الحارث رجلين من أصحابه أيضاً، وأمر نصر كاتبه أن يكتب ما يُرضي هؤلاء الأربعة المختارين من السّنن وما يختارونه من العمال، فيولّيهم ثغر سَمَرْقَنْد وطخارستان، وكان الحارث يُظهر أنه صاحب الرّايات السّود، فأرسل إليه نصر: إن كنت تزعم أنّكم تهدمون سور دمشق وتزيلون مُلك بني أمية، فخذ مني خمسمائة رأس ومائتي بعير، واحمل من الأموال ما شئتَ وآلة الحرب وسِرْ، فلعمري لئن كنتَ صاحب ما ذكرت إني لفي يدك، وإن كنت لست ذلك، فقد أهلكت عشيرتك.

وقال الحارث: قد علمتُ أنّ هذا حق، ولكن لا يبايعني عليه مَنْ صحبني! فقال نصر: فقد ظهر أنّهم ليسوا على رأيك، فاذكر اللّه في عشرين ألفاً من ربيعة واليمن يهلكون فيما بينكم.

وعرض عليه نصر أن يولّيه ما وراء النّهر (جيحون) ويعطيه ثلاثمائة

ألف، فلم يقبل، فسأله أن يبدأ بالكَرمانِيّ فإن قَتَلهُ فهو في طاعته، فلم يقبل أيضاً.

وقدم على الحارث جمع من أهل خراسان حين سمعوا بالفتنة، وأمر الحارث أن تُقرأ سيرته في الأسواق والمساجد وعلى باب نصر، فقُرئت، فأتاه خلق كثير. وقرأها رجل على باب نصر، فضربه غلمان نصر، فنابذهم الحارث وتجهزوا للحرب.

ودل رجل من أهل (مَرْو) الحارث على نقب في سورها، فمضى الحارث إليه ونقبه ودخل المدينة، فقتل مَن قتل ونهب بيت صاحب شُرطة نصر.

ولكن أصحاب نصر هزموا أصحاب الحارث، فأراد نصر أن يتّفق مع الكرماني على حرب الحارث، ولكنه أخفق في مسعاه، واتّفق الكرماني والحارث على حرب نصر.

ولكن اتفاق الكرماني والحارث لم يدم طويلاً، إذ سأل الحارث الكرماني أن يكون الأمر شورى، فأبى الكرماني، فانتقل الحارث عنه.

ثم إنّ الحارث أتى سور مَرْو فثلم فيه ثلمةً ودخل البلد، وهاجم الكرماني، فاشتدّ القتال بينهما، فانهزم الحارث، فقُتل في هزيمته وقُتل كثير من أصحابه.

وصفت مرو لليمن، فهدموا دور المُضَريّة[1].

ب ـ وفي هذه السنة، وجّه إبراهيم الإمام أبا مسلم الخراساني، واسمه: عبد الرحمٰن بن مسلم، إلى خراسان، وعمره يومئذ تسع عشرة سنة، وكتب إلى أصحابه: إني قد أمرته بأمري، فاسمعوا له وأطيعوا، فإني قد أمَّرته على خراسان وعلى ما غلب عليه بعد ذلك.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٣٠ ـ ٣٤٤) وابن الأثير (٥/ ٣٤٢ ـ ٣٤٧).

وقدم أبو مسلم الخراساني خراسان ومعه كتاب إبراهيم الإمام، فلم يقبل شيعه بني العباس قول أبي مسلم الخراساني، وخرجوا بعد ذلك إلى مكّة والتقوا عند إبراهيم الإمام، فأعلمهم رأيه بأبي مسلم، وأمرهم بالسمع والطاعة له. ثم قال لأبي مسلم: إنك رجل منّا أهل البيت، احفظ وصيّتي! انظر هذا الحيّ من اليمن، فالزمهم واسكن بين أظهرهم، فإنّ اللّه لا يُتمّ هذا الأمر إلاّ بهم، فاتّهم ربيعة في أمرهم، وأما مُضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل مَنْ شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان مَنْ يتكلّم بالعربيّة، فافعل، وأيّما غلام بلغ خمسة أشبار تتّهمه فاقتله. ولا تخالف هذا الشّيخ (يعني سليمان بن كثير) ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمرٌ فاكتف به مني[1].

ولا أعلم توجيهاً أكثر شعوبية وأشدّ حقداً على العرب، مثل هذا التوجيه الذي أصدره إبراهيم الإمام لرأس الشعوبية أبي مسلم الخراساني.

وكان لهذا التوجيه أثره البالغ في انتقال الحكم عملياً من العرب المسلمين إلى غيرهم، وكان بداية الانهيار العربي الإسلامي في الدَّولة، ممّا أفقد العرب منزلتهم السامية المرموقة بين المسلمين.

ج - وفي هذه السنة أيضاً، نشبت حروب طاحنة بين جيوش الدَّولة وجيش الضحّاك بن قيس الخارجي.

فقد حاصر الضحّاك بواسِط عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز، فلمّا طال الحصار على ابن عمر أُشير عليه بأن يدفعه عن نفسه إلى مروان، فأرسل ابن عمر إلى الضحّاك، إنّ مقامكم عليّ ليس بشيء! هذا مروان، فسِرْ إليه، فإن قاتلته، فأنا معك، فصالحه وخرج إليه وصلّى خلفه، فانصرف الضحّاك إلى الكوفة، وأقام ابن عمر بواسط.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٤٤) وابن الأثير (٥/ ٣٤٧ - ٣٤٨).

وكاتب أهل الموصل الضحّاك ليقدم عليهم ليسلُموا إليه، فسار في جماعة من جنوده حتى انتهى إلى الموصل، وعليها يومئذ لمروان عامل من عمّاله.

وفتح أهل الموصل البلد للضحّاك، فدخله وأصحابه، وقاتلهم عامل مروان ومَنْ معه من أهله وهم عدّة يسيرة حتى قُتلوا، واستولى الضحّاك على الموصل وكُورها[1].

وبلغ مروان خبره وهو محاصر حِمْص منشغل بقتال أهلها، فكتب إلى ابنه عبد اللّه، وهو خليفته بالجزيرة، يأمره أن يسير إلى نَصِيبين في مَنْ معه، يمنَع الضحّاك من السيطرة على الجزيرة، فسار إليها في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف، وسار الضحّاك إلى نَصيبين، فحصر عبد اللّه بن مروان فيها، وكان مع الضحّاك ما يزيد على مئة ألف. ووجه الضحّاك قائدين من قادته إلى الرَّقّة في أربعة آلاف أو خمسة آلاف، فقاتلهم حماة المدينة، ووجّه إليهم مروان من رحّلهم عنها.

ثم إنّ الضحّاك قابل جيش مروان المتقدّم باتجاهه بنواحي (كَفَر تُوثا)[2] من أعمال ماردِين، فقاتله يومه أجمع، فلمّا كان عند المساء، ترجّل الضحّاك ومعه من ذوي الثبات وأرباب البصائر نحو من ستة آلاف، ولم يعلم أكثر أهل عسكره بما كان، فأحدقت به خيول مروان وألحّوا عليهم بالقتال حتى قتلوهم عند العتمة. وانصرف مَنْ بقي من أصحاب الضحّاك عند العتمة إلى عسكرهم، ولم يعملوا بقتل الضحّاك ولم يعلم به مروان أيضاً.

وجاء مَنْ عاينه إلى أصحابه، فأخبرهم بمقتل الضحّاك، فخرج قائد

---

(١) تاريخ الموصل للأزردي (٦٩).
(٢) كفر توثا: قرية من أعمال الجزيرة، بينها وبين دارا خمسة فراسخ، وهي بين دارا ورأس العين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٦٣).

من قواده إلى مروان فأخبره، فبعث مروان رأسه إلى مدائن الجزيرة، فطيف به فيها[1].

ولما قُتل الضحّاك، بايع أصحابه الخَيْبَري، وأقاموا يومئذ وعاودوا القتال من بعد الغد، وصافّوه وصافّهم، وكان سليمان بن هشام بن عبد الملك مع الخيبري، وكان قبله مع الضحاك في أكثر من ثلاثة آلاف من أهل بيته ومواليه.

وحمل الخيبري على مروان في نحو من أربعمائة فارس من الشُّراة، فهزم مروان وهو في القلب، وخرج مروان من العسكر منهزماً ودخل الخيبري ومَنْ معه عسكره، ينادون بشعارهم، ويقتلون مَنْ أدركوا، حتى انتهوا إلى خيمة مروان نفسه، فقطعوا أطنابها، وجلس الخيبري على فرشه. وكانت ميمنة مروان وعليها ابنه عبد اللّه ثابتة، وميسرته عليها إسحق بن مسلم العُقَيْليّ ثابتة أيضاً، فلمّا رأى أهل العسكر قلّة مَنْ مع الخيبري، ثار إليه عبيدهم بعمد الخيم، فقتلوا الخيبري وأصحابه جميعاً في خيمة مروان وحولها.

وبلغ مروان الخبر، وقد جاز العسكرُ بخمسة أميال أو ستة منهزماً، فانصرف إلى عسكره، وردّ خيوله عن مواقعها، وبات ليلته في عسكره.

وانصرف أهل عسكر الخيبري، فولوا عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكريّ الحروري، فقاتله مروان بعد ذلك بأسلوب الكراديس، وأبطل الصف منذ يومئذ[2].

وأقام شيبان يقاتل مروان، فتفرق عنه كثير من أصحاب الطمع، وبقي في نحو أربعين ألفاً، فأشار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك أن

---

(١) الطبري (٣٤٤ ـ ٣٤٦) وابن الأثير (٥/ ٣٤٨ ـ ٣٥٠) وانظر تاريخ الموصل (٦٩ ـ ٧١).

(٢) الطبري (٧/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧) وابن الأثير (٥/ ٣٥٠) وانظر تاريخ الموصل (٧١ ـ ٧٢).

ينصرف وأصحابه إلى الموصل، فيجعلوها ظهرهم، فارتحلوا وتبعهم مروان حتى انتهوا إلى الموصل.

وعسكر الخوارج شرقي دجلة وعقدوا جسوراً عليها من عسكرهم إلى المدينة، فكانت ميرتهم ومرافقهم بها، وخندق مروان بإزائهم، وكان أهل الموصل يقاتلون مع الخوارج فأقام مروان ستة أشهر يقاتلهم، وقيل تسعة أشهر.

وكتب مروان إلى يزيد بن عمر بن هُبَيْرة يأمره بالمسير من قرقيسياء بجميع مَنْ معه إلى العراق، وعلى الكوفة المثنى بن عمران العائذيّ، عائذ قُريش، وهو والٍ للخوارج بالعراق، فلقي ابن هبيرة بـ(عين التمر)[1]، فهزمهم ابن هبيرة.

واجتمع الخوارج بالكوفة، فهزمهم ابن هبيرة من جديد.

واجتمع الخوارج بالبصرة، فأرسل شيبان إليهم عُبَيْدَة بن سَوَّار في خيل عظيمة، فالتقوا بالبصرة، فانهزم الخوارج، وقُتل عُبَيْدَة، فاستباح ابن هبيرة عسكرهم، فلم يكن لهم همّة بالعراق، فاستولى ابن هبيرة على العراق.

وكان منصور بن جُمْهور مع الخوارج، فانهزم وغلب على (الماهَيْنِ)[2] وعلى (الجبل)[3] أجمع.

وسار ابن هبيرة إلى واسط، فأخذ ابن عمر وحبسه، ثم وجّه نُباتَة بن حَنظَلَة إلى سليمان بن حبيب، وهو على كُور الأهواز، فسمع

---

(١) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة، بقربها موضع يقال لها: شفاثان انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٥٣).

(٢) الماهين: الماهان هما: الدِّيْنَور وبهاوند، انظر معجم البلدان (٧/ ٣٧٤).

(٣) الجبل: هي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرمسين والري وما بين ذلك.

سليمان الخبر، فأرسل إلى نُباتة داود بن حاتم، فالتقوا بـ(المرتان)[1] على شاطىء نهر (دُجيْل)[2]، فانهزم الناس وقُتل داود بن حاتم.

وكتب مروان إلى ابن هبيرة لمّا استولى على العراق، يأمره بإرسال عامر بن ضُبارة المُرّيّ إليه، فسيّره في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف، فبلغ شيبان خبره، فأرسل الجَوْن بن كلاب الخارجي في جمعٍ، فلقوا عامراً بـ(السِّن)[3]، فهزموه ومن معه، فدخل السِّن وتحصّن فيه، وجعل مروان يمدّه بالجنود على طريق البرّ، حتى ينتهوا إلى السِّن، فكثر جمع عامر.

وكان منصور بن جُمْهور يمدّ شيبان من الجبل بالأموال، فلمّا كثر مَنْ مع عامر، نهض إلى الجَوْن والخوارج، فقاتلهم وهزمهم، وقُتل الجون، وسار عامر مصعداً إلى الموصل.

وانتهى خبر قتل الجون إلى شيبان ومسير عامر نحوه، فكره أن يقيم بين العسكرين: عسكر مروان من جهة، وعسكر عامر من جهة أخرى، فارتحل بمَنْ معه من الخوارج.

وقدم عامر إلى الموصل، فسيّره مروان في جمع كثير إثر شيبان مع هذه الوصايا: إن أقام شيبان أقام، وإن سار سار، وألاّ يبدأه بقتال، فإن قاتله شيبان قاتله، وإن أمسك أمسكَ عنه، وإن ارتحل اتبعه، فكان ذلك حتى مرّ على (الجبل)، وخرج من بيضاء[4] فارس، وبها عبد اللّه بن

---

(١) المرتان: موضع على نهر دُجيل، ولا ذكر لها في معجم البلدان.

(٢) الدجيل: نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس، ومعناه: دجلة الصغيرة، ومخرجه من أرض أصبهان ومصبه قرب عبّادان، وكانت عند دجيل هذا وقائع للخوارج، وفيه غرق شبيب الخارجي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٤١ ـ ٤٢).

(٣) السِّن: مدينة على نهر دجلة فوق مدينة تكريت، لها سور وجامع، وعند السِّن مصب الزّاب الأسفل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

(٤) البيضاء: أكبر مدينة في كورة إصطخر، وسميت البيضاء لأن لها قلعة تبيّن من بعد ويُرى بياضها، وكانت معسكراً للمسلمين يقصدونها في فتح إصطخر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٨٩ ـ ١٩٠).

معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب في جموع كثيرة، فلم يتّفق شيبان معه على أمر، فسار حتى نزل (جِيرَفت)[1] من كَرْمان.

وأقبل عامر بن ضُبارة حتى نزل بإزاء عبد اللّه بن معاوية أياماً، ثم ناهضه فانهزم ابن معاوية ولحق بَهرَة.

وسار عامر بمن معه، فلقي شيبان بجيرَفْت، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت الخوارج واستبيح عسكرهم، ومضى شيبان إلى سِجِسْتان فهلك بها وذلك في سنة مئة وثلاثين الهجريّة (٧٤٧م).

وقيل: بل كان قتال مروان وشيبان على الموصل مقدار شهر، ثم انهزم شيبان حتى لحق بفارس، وعامر بن ضُبارة يتبعه. وسار شيبان إلى جزيرة ابن كاوان في الخليج العربي، ثم خرج منها إلى عثمان، فقتله جُلُنْدِي بن مسعود بن جَيْفَر بن جُلُندي الأزْديّ سنة أربع وثلاثين ومئة الهجريَّة (٧٥١م).

وركب سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان مع شيبان هو ومن معه السفن إلى السِّند، ثم لمّا ولي السفّاح حضر عنده سليمان، فأعطاه يده فقبّلها، ثم قتله السفّاح.

وانصرف مروان بعد مسير شيبان عن الموصل إلى منزل بحرّان، فأقام بها حتى سار إلى الزّاب[2].

٤ ـ تفاقم الخلاف

أ ـ في سنة تسع وعشرين ومئة الهجريّة (٧٤٦م) تفاقم الخلاف بين مروان من جهة وخصومه الكثيرين من جهة أخرى.

فقد أظهر شيعة بني العباس دعوتهم، ولم يعودوا يعملون في

---

(١) جيرفت: مدينة بكرمان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٨٩ ـ ١٩٠).
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٤٩ ـ ٣٥٣) وابن الأثير (٥/ ٣٥٣ ـ ٣٥٦).

الخفاء، فكتب إبراهيم بن الإمام إلى أبي مسلم الخراساني: إني بعثت إليك براية النصر، فارجع من حيث لقيك كتابي، ووجِّه إليّ قَحْطَبَة بما معك يوافني به في الموسم.

وانصرف أبو مسلم إلى خراسان وكان في طريقه إلى مكَّة للقاء إبراهيم الإمام، ووجّه قَحْطَبة إلى الإمام بما معه من الأموال والعروض.

وقدم أبو مسلم مَرْو، فدفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كثير، يأمره فيه بإظهار الدّعوة، فنصبوا أبا مسلم وقالوا: رجل من أهل البيت! ودعوا إلى طاعة بني العباس، وأرسلوا إلى مَنْ قَرُب منهم أو بَعْد ممن أجابهم، وأمرهم بإظهار أمرهم.

ووجه أبو مسلم إلى طخارستان فما دون بَلْخ يأمر أصحابه بإظهار الدعوة في شهر رمضان، كما وجّه مَرْو الرُّوذ والطالقان وخُوارزم بإظهار الدّعوة في رمضان، فإن أعجلهم عدوّهم دون الوقت بالأذى والمكروه، فقد حلّ لهم أن يدفعوا عن أنفسهم ويجرِّدوا السيوف ويجاهدوا أعداء اللَّه، ومَنْ شغله منهم عدوّهم عن الوقت، فلا حرج عليهم أن يظهروا بعد الوقت.

وبثّ أبو مسلم دعاته في الناس، وأظهره أمره، فأتاه في ليلة واحدة أهل ستين قرية.

ولما كان ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من هذه السنة عقد أبو مسلم اللواء الذي بعث به إبراهيم الإمام الذي يُدْعى: (الظِلّ) على رمح طوله أربع عشرة ذراعاً، وعقد الراية التي بعث بها إليه، وهي التي تدعى: (السَّحاب) على رمح طوله ثلاث عشرة ذراعاً، ولبسوا السّواد هو وسليمان بن كثير وإخوة سليمان ومواليه ومن كان أجاب الدعوة، وأوقدوا النيران لليلتهم لشيعتهم وكانت علامتهم، فتجمّعوا إليه حين أصبحوا، وتأول (الظلّ) و(السَّحاب) أن السّحاب يطبِّق الأرض، وأنّ الأرض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي إلى آخر الدّهر.

وقدم على أبي مسلم الدعاة بمن أجاب الدعوة، فدخلوا عسكر أبي مسلم.

ولما حضر عيد الفطر أمر أبو مسلم أن يصلي سليمان بن كثير به وبالشّيعة، ونصب له منبراً.

فلما قضى سليمان الصلاة، انصرف أبو مسلم والشِّيعة إلى طعام قد أعدّه لهم، فأكلوا مستبشرين.

ووجّه نصر بن سيّار مولى له إلى أبي مسلم، فوجّه أبو مسلم أحد قادته إلى مولى نصر بن سيّار ومن معه، واقتتلوا فانتصر أصحاب أبي مسلم على أصحاب نصر.

واستطاع أحد قادة أبي مسلم أن يغلب على (مَرْو الرُّوذ)، وقتل عامل نصر بن سيّار عليها.

وبثّ أبو مسلم الدعاة في أقطار خراسان، فدخل الناس أفواجاً في شيعته وكثروا، وفشت الدعاة بخراسان كلِّها[1].

ب ـ ولم يقف أبو مسلم في هذه السنة موقفاً سلبيّاً من الحرب بين نصر بن سيّار من جهة والكرماني من جهة أخرى.

فقد سيطر الكرماني على مرو، فأرسل له نصر ثلاثة قادة من قادته بالتعاقب، فانتصر عليهم أصحاب الكرماني وكبّدهم خسائر فادحة بالأرواح.

وكان أبو مسلم في أيام الاقتتال بين الجانبين يحرّض القبائل العربيّة على بعضها، وينشر فيها الفتن والأحقاد، فأثمر تحريضه وأينع.

وأقبل أبو مسلم حتى نزل بين خندق الكرماني وخندق نصر، فهابه الطرفان.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/٣٥٣ ـ ٣٦٣) وابن الأثير (٥/٣٥٦ ـ ٣٦٣).

وبعث إلى الكرماني: إني معك، فقبل ذلك الكرماني، فانضم أبو مسلم إليه، واشتدّ ذلك على نصر، وأصبح موقفه حرجاً للغاية.

وأرسل نصر إلى الكرماني ينصحه ألاّ يغترّ بوعود أبي مسلم وجاء في كتابه: واللّه إني لخائف عليك وعلى أصحابك منه، فادخل مَرْو ونكتب كتاباً بيننا بالصلح، وهو يريد أن يفرِّق بينه وبين أبي مسلم، فدخل الكرماني منزله في مَرْو، وأقام أبو مسلم في العسكر.

وأرسل الكرماني إلى نصر: اخرج لنكتب بيننا ذلك الكتاب، فأبصر نصر منه غِرّة، فوجّه إلى ابن الحارث بن سُرَيح، وكان الكرماني قد قتل أباه - في نحو ثلاثمائة فارس، فطعن الكرماني في خاصرته فَخَرّ عن دابّته، وحماه أصحابه، حتى جاءهم ما لا قِبَل لهم به، فقَتل نصر بن سيّار الكرماني ثم صلبه.

وأقبل ابن الكرماني وقد جمع جمعاً كثيراً، فصار إلى أبي مسلم واستصحبه معه، فقاتلوا نصر بن سيَّار حتى أخرجوه من دار الإمارة، فمال إلى بعض دور مَرْو، وأقبل أبو مسلم حتى دخل مَرْو، وأتاه علي بن الكرماني وأعلمه أنه معه، وسلّم عليه بالإمرة.

وحين نزل أبو مسلم بين خندق الكرماني وخندق نصر، ورأى نصر قوّته، كتب إلى مروان بن محمد يعلمه حال أبي مسلم وخروجه وكثرة من معه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد الإمام وكتب إليه بأبيات:

أرى بَيْنَ الرَّمادِ وَمِيضَ جَمْرِ ... وأخشى أن يكونَ له ضِرام[1]

فإنّ النار بالعُودَيْن تُذْكَى ... وإنّ الحربَ مَبْدَؤها كلامُ[2]

فقلتُ من التعَجُب ليت شِعْرِي ... أأيقاظٌ أميّةُ أم نِيَامُ!

---

(١) في الطبري (٧/ ٣٦٥): فأحج بأن يكون له ضِرام.

(٢) في الطبري: وإنّ الحرب مَبْدؤها الكلام.

فكان جواب مروان: إنّ الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فاحْسِم الثؤلول[1] قبلك، فقال نصر: أما صاحبنا فقد أعلمكم أنّه لا نَصْر عنده.

وكتب نصر إلى يزيد بن عمر بن هُبيرة يستمدّه، وكتب إليه بأبيات شعر:

أَبْلِغْ يَزيدَ وخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ ... وقد تبَيَّنْتُ ألاّ خَيْرَ في الكَذِبِ
إنّ خُراسان أرْضٌ قد رأيتُ بها ... بَيْضاً لو أفْرَخَ قد حُدِّثْتَ بالعَجَبِ
فِراخُ عامَيْنِ إلاّ أنّها كَبِرَتْ ... لَما يَطِرْنَ وقد سُرْبِلْنَ بالزَّغَبِ
إلاّ تدارَكْ بِخيلِ اللّهِ مُعْلِمَةً ... ألْهَبْنَ نيرَانَ حَرْبٍ أيّما لَهَبِ

فقال يزيد: لا تُكثِر، فليس له عندي رجل!

ولما قرأ مروان كتاب نصر، الذي وصل كتابه مع وصول رسول لأبي مسلم إلى إبراهيم الإمام، وقد عاد من إبراهيم ومعه جوابه لأبي مسلم يسبّه فيه ويلعنه حيث لم ينتهز الفرصة من نصر والكرمانيّ إذ أمكناه، ويأمره ألاّ يدع متكلّماً بالعربيّة في خرسان إلاّ قتله، فلمّا قرأ مروان الكتاب، كتب إلى عامله بالبلْقاء ليسير إلى (الحُمَيْمَة)[2] وليأخذ إبراهيم بن محمد، فيشدّه وثاقاً ويبعث به إليه، ففعل ذلك، فأخذه مروان وحبسه[3].

وكان مروان معذوراً، كما كان يزيد بن عمر بن هبيرة عامل مروان على العراق معذوراً أيضاً. فقد كان كل واحد منهما مشغولاً بمعالجة الفتن والاضطرابات الناشئة في أرضه، فكان على نصر بن سيّار أن يصطلي بناره، دون انتظار المعونة العاجلة أو الآجلة من أحد.

---

(١) الثؤلول: بثر صغير صلب مستدير، يظهر على الجلد كالحمصة أو دونها.
(٢) الحميمة: بلد من أرض السراة من أعمال عمّان في أطراف الشام، منزل بني العباس، انظر معجم البلدان (٣/٣٤٦).
(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧/٣٦٧ ـ ٣٧١) وابن الأثير (٥/٣٦٣ ـ ٣٦٦).

ج ـ وفي هذه السنة أيضاً ظهر أمر أبي مسلم وسار إليه الناس، وجعل أهل مَرْو يأتونه ولا يعرض لهم نصر ولا يمنعهم، وأبو مسلم في خباء ليس له حرس ولا حُجّاب. وعَظم أمره عند الناس، وقالوا: ظهر رجل من بني هاشم له حلم ووقار وسكينة، فانطلق إلى أبي مسلم فتية من أهل مَرْو يطلبون الفقه، فسألوه عن نسبه فقال: خيري خير لكم من نسبي، وسألوه أشياء من الفقه فقال: أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا، ونحن إلى عونكم أحوج منا إلى مسألتكم فاعفونا.

وعادوا أدراجهم خائبين، لا يعرفون لأبي مسلم نسباً، ولا يجدون عنده فقهاً.

ووجد نَصْرُ العربَ متفرقين، كأنهم لا يشعرون بالخطر المحدق بهم، فقال شعراً يخاطب به العرب ويحثّهم على الاتّفاق معه على حرب أبي مسلم:

أبْلِغْ ربيعةَ في مَرْو وفي يمن	أن اغضبوا قبل ألاّ ينفع الغضبُ
ما بالكم تُنشبون الحربَ بينكُمْ	كأنّ أهل الحِجَى عن رأيكم غُيُبُ
وتتركونَ عدوّاً قد أحاطَ بكم	ممّنْ تأشّبَ لا دِينٌ ولا حَسَبُ
لا عُرْبَ مثلكُمُ في النَّاس نَعْرِفُهُم	ولا صَريحَ موالٍ إنْ هُمُ نُسِبُوا
مَنْ كان يَسْأَلُني عن أهلِ دينهم	فإنّ دينهُمُ أنْ تَهْلِكَ العَرَبُ
قومٌ يقولون قولاً ما سمعتُ به	عن النَّبِيِّ ولا جاءَتْ به الكُتُبُ

عن النَّبِيِّ ولا جاءَتْ به الكُتُبُ وعزم العرب على الاتفاق لمحاربة أبي مسلم دفاعاً عن أنفسهم، ولكنهم اتفقوا على ألاّ يتّفقوا، فما زال أمرهم في هبوط، وأمر أبي مسلم في صعود، حتى استطاع اكتساحهم لا لقوّته التي لا تُقهر، ولكن لتفرقهم الذي لا يلتئم[1]!

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٦٣ ـ ٣٦٧) وابن الأثير (٥/ ٣٦٦ ـ ٣٧٠).

د ـ وفي هذه السنة لم تقتصر الفوضى على خراسان، بل شملت معظم أجزاء الدَّولة، فقد غلب عبد اللَّه بن معاوية بن عبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب على فارس وكُوَرها، فلمّا قدم ابن هُبيرة العراق والياً، بعث إليه مَنْ يحاربه، فانتصر عليه، وهرب ابن معاوية إلى أصحاب أبي مسلم، فأمر بقتله[1].

وبلغ الاستهتار بسلطة الدَّولة والعبث بهيبتها مبلغاً جعل الخوارج يحضرون موسم الحج وعلى رأسهم أبو حمزة الخارجي، معلنين الخلاف لمروان وآل مروان، فأخلى عامل مروان مكَّة المكرَّمة، ودخلها أبو حمزة بغير قتال[2].

وقصد عامل مروان المدينة المنوَّرة، فبعث جيشاً من المدينة لقتال أبي حمزة، وكان جيش المدينة مترفاً لا علم له بالحرب ولا يصبر عليها، فقضى عليه أبو حمزة قضاءً مبرماً، ودخل المدينة المنوَّرة ومضى عاملها وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان إلى الشَّام.

وخرج أبو حمزة من المدينة المنوَّرة يريد الشَّام، فالتقى في الطريق بجيش مروان الذي بعثه لقتاله، فقُتل أبو حمزة وكثير من رجاله[3].

هـ ـ وفي هذه السنة أيضاً، مات أمير الأندلس ثوابة بن سلامة، فاختلف الناس: المُضَريّة أرادت أن يكون الأمير منهم، واليمانيّة أرادت أن يكون الأمير منهم، فبقوا بغير أمير.

وخاف الصُّميل الفتنة، فأشار بأن يكون الوالي من قريش، فرضوا كلّهم بذلك، فاختار لهم يوسف بن عبد الرحمٰن الفِهْريّ، وكتبوا إليه بما اجتمع عليه الناس من تأميره، فلم يوافق على تسنّم هذا المنصب الرّفيع،

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٧١ ـ ٣٧٤) وابن الأثير (٥/ ٣٧٠ ـ ٣٧٣).
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٧٤ ـ ٣٧٦) وابن الأثير (٥/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥).
(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٩٣ ـ ٣٩٩) وابن الأثير (٥/ ٣٨٨ ـ ٣٩١).

فقالوا له: إن لم تفعل وقعت الفتنة، ويكون إثم ذلك عليك»، فأجاب حينئذٍ، وسار إلى قرطبة فدخلها، وأطاعه الناس.

فلما انتهى الأمر إلى أبي الخطّار حول ولاية يوسف قال: إنما أراد الصّميل أن يصير الأمر إلى مُضَر، وسعى في الناس حتى ثارت الفتنة بين اليمنَ ومُضَر.

وحين رأى يوسف نشوب الاختلاف، فارق قصر الإمارة بقرطبة وعاد إلى منزله.

واجتمعت اليمانية إلى أبي الخطّار، واجتمعت المضريّة إلى الصميل، وتزاحفوا واقتتلوا أياماً كثيرة لم يكن بالأندلس قتال أعظم منه ولا أعنف، فانجلت الحرب عن هزيمة اليمانية.

ومضى أبو الخطار منهزماً، فاستتر في رحى كانت للصّميل، فدُلّ عليه، فأخذه الصميل وقتله.

ورجع يوسف بن عبد الرحمٰن إلى قصر الإمارة في قرطبة، وازداد الصميل شرفاً، وكان اسم الإمارة ليوسف والحكم إلى الصّميل!

وخرج على يوسف بن عبد الرحمٰن بن علقمة اللخمي بمدينة أَرَبُونَة، فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى قُتل وحُمل رأسه إلى يوسف.

وخرج عليه عُذْرة المعروف بالذِّمّيّ، وإنما قيل له ذلك لأنه استعان بأهل الذِّمَّة، فوجّه إليه يوسف عامر بن عمرو، وهو الذي تنسب إليه مقبرة عامر من أبواب قرطبة، فلم يظفر به وعاد مفلولاً، فسار إليه يوسف بن عبد الرحمٰن، فقاتله وقتله واستباح عسكره[1].

٥ ـ الفيضان

أ ـ كانت سنة ثلاثين ومئة الهجريّة (٧٤٧م) سنة الفيضان بالخلاف والفتن والاضطرابات والقلاقل وسفك الدماء بالنسبة لمروان والدّولة، فقد

---

(١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥/ ٣٧٦ ـ ٥٣٧).

ضاعت المقاييس وتردّت الأحوال وشاعت الفوضى وذهبت هيبة الخلافة والدَّولة، وأصبح الخلاف هو القاعدة والأمن هو الاستثناء.

فقد دخل أبو مسلم الخراساني مَرْو وبايعه الناس بها، وأصبح الحاكم بأمره في خراسان كلّها.

واتفق علي بن الكرماني مع أبي مسلم، وكان السبب في ذلك أن ابن الكرماني ومَنْ معه وسائر القبائل العربيَّة بخراسان لمّا عاقدوا نَصْراً على أبي مسلم، عظم عليه وجمع أصحابه لحربهم، فكان سليمان بن كثير بإزاء ابن الكرماني، فقال له سليمان: إنّ أبا مسلم يقول لك: أما تأنف من مصالحة نصر، وقد قتل بالأمس أباك وصلبه؟! ما كنت أحسبك تجامع نصراً في مسجد تصليان فيه!!، فأحفظه هذا الكلام، ورجع عن رأيه، وانتقض صلح العرب.

وبعث نصر إلى أبي مسلم، يلتمس منه أن يدخل مع مُضَر، وبعث أصحاب ابن الكرماني، وهم ربيعة واليمن، إلى أبي مسلم بمثل ذلك، وراسلوه بهذا أياماً، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين حتى يختار أحدهما، وأمر أبو مسلم شيعته أن تختار ربيعة واليمن، فإنّ الشيطان - كما قال لهم - في مُضَر، لأنهم أصحاب مروان وعمّاله وقتلة يحيى بن زيد.

وقدم الوفدان، فجلس أبو مسلم وأجلسهم، وجمع عنده من شيعته سبعين رجلاً، ليختاروا أحد الفريقين!

وقام سليمان بن كثير من شيعته، فتكلّم، وكان خطيباً مفوّهاً، فاختار ابن الكرماني وأصحابه. وقام آخر فاختارهم أيضاً، ثم قام ثالث فقال: إنّ مُضَر قتلة آل النبي ﷺ، وأعوان بني أميّة وشيعته مروان وعمّاله، ودماؤنا في أعناقهم، وأموالنا في أيديهم، ونصر بن سيّار عامل مروان ينفّذ أموره ويدعو له على منبره ويسميه: أمير المؤمنين، ونحن نبرأ إلى اللّه عزّ وجلّ

من أن يكون نصر على هدىً، وقد اخترنا علي بن الكرماني وأصحابه، فوافق السبعون من شيعة أبي مسلم على هذا الكلام، واختاروا ابن الكرماني وأصحابه.

ونهض وفد نصر عليهم الكآبة والذلّة، ورجع وفد ابن الكرماني منصورين.

وعاد أبو مسلم إلى مقرّه، وأمر الشيعة أن يبنوا المساكن، فقد أغناهم اللّه من اجتماع كلمة العرب عليهم.

وأرسل ابن الكرماني إلى أبي مسلم، ليدخل مدينة مرو من ناحيته، وليدخل هو وعشيرته من الناحية الأخرى، فأرسل إليه أبو مسلم: إني لستُ آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على محاربتي، ولكن ادخل أنت، فأنشِبِ الحربَ مع أصحاب نصر.

ودخل ابن الكرماني، فأنشب الحربَ، وبعث أبو مسلم أحد قادته في خيل، فدخلوا مرو، ونزل قائد أبي مسلم في قصر الإمارة، ثم بعثوا إلى أبي مسلم ليدخل إليهم، فدخل مرو، والفريقان يقتتلان!

ومضى أبو مسلم إلى قصر الإمارة، وأرسل إلى الفريقين: أن كفّوا، ولينصرف كل فريق إلى عسكره، فتوقّف الاقتتال، وصفت الأمور في مرو لأبي مسلم.

• •

وأمر أبو مسلم بأخذ البيعة من الجند، وكانت البيعة: أبايعكم على كتاب اللّه وسنّة رسوله محمد ﷺ، وعلكيم بذلك عهد اللّه وميثاقه والطّلاق والعتاق والمشي إلى بيت اللّه الحرام، وعلى ألاّ تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبتدئكم به ولاتكم[1].

وخرج نصر بن سيّار من مرو لآخر مرة، ولم يَعُد إليها بعد خروجه الأخير أبداً.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٧٧ ـ ٣٨٥).

وما كان أبو مسلم الخراساني يؤمن بالشّعار البرّاق الذي رفعه، وهو الشّعوبي الحاقد، ولكنه رفع هذا الشعار ليستقطب به الناس تحت لوائه، لأنّ الناس أصبحوا لا يثقون بالدَّولة ورجالها، فاستهواهم شعار أبي مسلم وشيعته، دون أن يعرفوا في حينه أنّ أبا مسلم وأصحابه أشدّ ضلالاً من الدَّولة ورجالها، فلمّا اكتشفوا حقيقة أبي مسلم وأنصاره الذين كان شعارهم الحقيقي: القضاء على كل عربي في خراسان، كان الوقت المناسب قد ضاع إلى الأبد!

وهكذا أرادوا النجاة إلى طريق الحق، فضلوا ضلالاً بعيداً.

ب ـ وبدأت في هذه السنة التصفيات الجسدية للعرب، لا فرق بين المتعاونين مع أبي مسلم أو الذين كانوا يقاتلون نصراً لمَا كان أبو مسلم يقاتله وعدوّ عدوّك صديقك كما يقول المثل وبين الذين كانوا محايدين أو كانوا غير متعاونين معه.

فقد كان شيبان بن سَلَمَة الخارجي يقاتل نصراً بالتعاون مع ابن الكرماني، لأن نصراً من عمال مروان، وشيبان يرى رأي الخوارج، ومخالفة ابن الكرماني نصراً لأنّ نصراً قتل أباه، ولأن نصراً مُضَريّ، وابن الكرماني يمانيّ، وبين الفريقين من العصبية ما هو مشهور. فلمّا صالح ابن الكرماني أبا مسلم على ما تقدّم وفارق شيبان، تنحّى شيبان عن مَرْو؛ إذ علم أنه لا يقوى على حرب أبي مسلم وحليفه ابن الكرماني، بعد أن غادر نصر مرو إلى الأبد.

ولمّا استقام الأمر لأبي مسلم في مرو، أرسل إلى شيبان يدعوه إلى البيعة، فقال شيبان: أنا أدعوك إلى بيعتي! فأرسل إليه أبو مسلم: إن لم تدخل في أمرنا، فارتحل عن منزلك الذي أنت به!

وأرسل شيبان إلى ابن الكرماني يستنصره، فرفض ابن الكرماني أن ينصره.

وبعث أبو مسلم أحد قادته، فقتل شيبان وعدداً من بكر بن وائل العرب[1].

وثنّى أبو مسلم بقتل عليّ بن الكرماني وأخيه عثمان بن الكرماني، فقد اتفق أبو مسلم أن يقتل هو خليفة علي بن الكرماني ويقتل قائده المدعو: أبو داود عثمان الكرماني، فقتل أبو دادو عثمان وقتل من أصحابه العرب خلقاً كثيرة. أما أبو مسلم فقد أمر عليّ الكرماني أن يسمي له خاصته ليولّيهم ويأمر لهم بجوائز وكسوات، فسمّاهم له، فقتله أبو مسلم وقتل أصحابه جميعاً[2]!!

وهذا هو مصير الذي يوالي أعداء قومه على قومه!

وغلب أبو مسلم على خراسان، وبعث عمّاله على البلاد، فقتل قَحْطَبة بن شبيب أحد قادة أبو مسلم بضعة عشر ألفاً، وقتل قائد آخر من قادته ثلاثين ألفاً[3] كلهم من العرب.

ج ـ ولم تتوقف في هذ السنة التصفيات الجسدية التي نفذها أبو مسلم بالعرب المسلمين عند هذا الحد، بل امتدّت إلى جُرْجان أيضاً.

فقد أقبل قَحْطَبة إلى جرجان، وكان فيها نُباتة بن حَنْظَلة عامل يزيد بن هُبَيْرة عليها، فقال قَحطبة: يا أهل خُراسان! أتدرون إلى مَنْ تسيرون؟! ومَنْ تقاتلون؟! إنّما تقاتلون بقيّة قومٍ حرقوا بيت اللّٰه تعالى!.

وقدم قحطبة، فنزل بإزاء نُباتة، ومعه نصر بن سيّار، وقد خندقوا عليهم، فلمّا رآهم أهل خراسان هابوهم وتكلّموا في ذلك وأظهروه، لأن قوات نُباتة كانت في عدّة لم ير الناس مثلها. وبلغ قحطبة خوف جيشه من جيش الدَّولة، فقام فيهم خطيباً فقال: يا أهل خراسان! هذه البلاد كانت

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦) وابن الأثير (٥/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣).
(٢) الطبري (٧/٣٨٦ ـ ٣٨٨) وابن الأثير (٣٨٣ ـ ٣٨٥).
(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٨٨ ـ ٣٩٠) وابن الأثير (٣٨٦ ـ ٣٨٧).

لآبائكم، وكانوا يُنْصَرون على عدوِّهم، لعدلهم وحسن سيرتهم، حتى بدّلوا وظلموا، فسخط اللَّه عز وجل عليهم، فانتزع سلطانهم وسلّط عليهم أذلّ أمّة كانت في الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم، وكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم، ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم، وأخافوا أهل البرّ والتقوى من عترة رسول اللَّه، فسلّطكم عليهم لينتقم منهم بكم، لتكونوا أشدّ عقوبة، لأنكم طلبتموهم بالثأر. وقد عهد إليّ الإمام أنكم تلقونهم في مثل هذه العدّة، فينصركم اللَّه عز وجل عليهم، فتهزمونهم وتقتلونهم.

والتقى الفريقان يوم الجمعة من شهر ذي الحجة، فقال قحطبة لأصحابه: إنّ الإمام أخبرنا أنكم تُنصرون على عدوِّكم هذا اليوم من هذا الشهر، فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل من أهل الشَّام عشرة آلاف من العرب المسلمين، وقتل نُباتة، وبعث إلى أبي مسلم برأسه[1].

وكان نص رسالة أبي مسلم إلى قحطبة: أما بعد، فناهض عدوّك، فإنّ اللَّه عز وجل ناصرك، فإذا ظهرت عليهم فأثخن في القتل[2].

وهذا هو بيت القصيد: أن يُثْخن في قتل العرب المسلمين.

ولم تكد تجف دماء العرب المسلمين في جرجان، إلاّ وقتل قحطبة بن شبيب من أهل جرجان ما يزيد على ثلاثين ألفاً، لأنه بلغه عنهم بعد قتل نُباتة أنهم يريدون الخروج عليه، فدخل إليهم واستعر منهم وقتل منهم صبراً هذا العدد الضخم من الرّجال[3].

د ـ وكأنّ هذه التصفيات الجسدية للعرب المسلمين في خراسان وما وراء النَّهر وجرجان والمشرق الإسلامي عامّة لم تكن كافية في هذه السنة،

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٩١ ـ ٣٩٣) وابن الأثير (٥/ ٣٨ ـ ٣٨٧).
(٢) الطبري (٧/ ٣٩٢).
(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٠١ ـ ٤٠٢) وابن الأثير (٥/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣).

فقد كان في الحجاز حرب بين جيش الدَّولة والخوارج تكبّد فيها الجانبان خسائر جسيمة[1]، وكان في اليمن حروب طاحنة بين جيش الدَّولة وجيش عبد اللّه بن يحيى الملقب بطالب الحق تساقط من الجانبين خسائر فادحة[2].

وهكذا تكسّرت النِّصال على النِّصال، وكان العرب المسلمين هم الخاسرين في هذا الصِّراع المرير.

٦ ـ الطوفان

أ ـ ودخلت سنة إحدى وثلاثين ومئة الهجريَّة، فأصبح الفيضان المتمثل بالفوضى والانحلال في الدَّولة فيضاناً، فقد استمكن أبو مسلم الخراساني من خراسان والمشرق الإسلامي، ومات نصر بن سيّار الذي لم يقصِّر في الدِّفاع عن خراسان وفي فضح أخطار عمليَّات أبي مسلم وسوء نيّته وحقده الدفين على العرب المسلمين، فكشف قبل غيره مبكِّراً ما يهدف إليه أبو مسلم في دعوته الشعوبيّة بالخطب والرسائل النثرية والشعرية أيضاً التي وجهها إلى مروان وعامله على العراق ابن هبيرة وقادة العرب المسلمين في خراسان وفي المشرق الإسلامي، ولكن جهوده وجهاده ذهبت أدراج الرياح، لأنَّ الدَّولة وبخاصة رئيسه المباشر وهو ابن هبيرة لم ينصره كما ينبغي وكان قادراً على نصره بلا مراء، ولأن الناس في خراسان انجرفوا بتيار شعارات أبي مسلم الزائفة التي لم يلتزم بحرف منها، فلمّا اشتد عضده بدأ بتصفية أنصاره وأعدائه من العرب والمسلمين، وحينذاك ندم الذين عاونوه من العرب المسلمين حين لا ينفع الندم.

ولعلّ موت نصر بن سيّار هو المؤشر الرئيس للطوفان الجارف الذي أتى على الدَّولة وعلى العرب المسلمين، فاقتلع الدَّولة من جذورها،

---

(١) الطبري (٧/٣٩٣ ـ ٣٩٩).
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٠٠) وابن الأثير (٥/ ٣٩٢).

وجعل من العرب المسلمين مواطنين من الدرجة الثّانية، وجعل من الشعوبيين مواطنين من الدرجة الأولى[1].

ب ـ ولما مات نصر، تقدّمت قادة بني العباس إلى (الرَّيّ)[2]، فدخلها الحسن بن قحطبة بدون مقاومة تقريباً.

وحين استقر أمر قادة أبي مسلمْ بالرّي، هرب أكثر أهلها لميلهم إلى بني أميّة، فأمر أبو مسلم بمصادرة أملاكهم وأموالهم.

وأخذ قحطبة أمره في الري بالحزم والاحتياط وضبط الطرق، وكان لا يسلكها أحد إلاّ بجوازٍ منه.

وبلغ قحطبة أنّ بـ(دَسْتَبي)[3] قوماً من الخوارج وصعاليك تجمعوا بها، فوجّه إليهم أحد قادته في عسكر كثيف، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى ظفر بهم، فتحصّن عددٌ منهم حتى أمنهم، وأقام معه بعضهم وتفرّق بعضهم.

وكتب أبو مسلم إلى ملك طبرستان يدعوه إلى الطاعة وأداء الخراج، فأجابه إلى ذلك.

وكتب إلى صاحب (دُنْبَاوَنْد)[4] بمثل ذلك، فأجابه: إنما أنت خارجيّ، وإن أمرك سينقضي.

وغضب أبو مسلم، وكتب إلى أحد قادته بالري يأمره بالمسير إلى دنباوند وقتاله، إلى أن يذعن بالطاعة.

---

(١) انظر تفاصيل موت نصر بن سيّار في الطبري (٧/٤٠٣ ـ ٤٠٤) وابن الأثير (٥/٣٩٥ ـ ٣٩٦).

(٢) الري: مدينة مشهورة تعتبر قصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مئة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً، انظر معجم البلدان (٤/٣٥٥).

(٣) دستبي: كورة كبيرة مقسومة بين الري وهمذان، انظر معجم البلدان (٤/٥٨).

(٤) دنباوند: جبل بنواحي الري، انظر معجم البلدان (٤/٨٩).

وسار إليه القائد وراسله، فامتنع من الطاعة وأداء الخراج، فأقام القائد محاولاً إخضاعه، ولكنّه عجز عن ذلك لوعورة بلاده وصعوبتها، وكان صاحبها يرسل إلى قائد أبي موسى كل يوم عدّة كثيرة من الدَّيْلم يقاتله في عسكره، وأخذ عليه الطرق، ومنع المِيْرَة، وكثرت في أصحاب ذلك القائد الجرّاح والقتل، فلمّا رأى أنه لا يبلغ غرضاً عاد إلى الري بخُفَّي حُنَيْن.

ولما ورد كتاب قحطبة على أبي مسلم بنزوله الري، ارتحل أبو مسلم عن مَرْو ونزل نيسابور.

وأما قحطبة، فإنّه سيّر ابنه الحسن بعد نزوله الرّي بثلاث ليالٍ إلى همذان، فسار عنها حماتها من أتباع الدَّولة إلى (نَهَاوَنْد)[1] وفرض الحصار عليها الحسن بن قحطبة[2].

ج ـ وفي هذه السنة قتل عامر بن ضُبارة أكبر قادة الدَّولة بعد نصر بن سيّار، في معركة حاسمة بين جيش الدَّولة وقوات أبي مسلم الخراساني.

فقد ذكرنا أنّ ابن ضُبارة هزم عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب، فهرب الأخير إلى خراسان وسلك إليها طريق كرْمان، فسار ابن ضُبارة في أثره.

وبلغ ابن هبيرة مقتل نُبَاتة بن حنظلة بجرجان، فكتب إلى ابن ضُبارة وإلى ابنه داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة أن يسيروا إلى قحطبة، وكانا في كَرمَان، فسارا في خمسين ألفاً، ونزلوا بأصبهان، وكان يقال لعسكر ابن ضُبارة: عسكر العساكر.

وبعث قحطبة إليهما جماعة من القواد، وعليهم مُقاتِل بن حكيم

---

(١) نهاوند: مدينة عظيمة في قبلة همذان، بينهما ثلاثة أيام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٢٩ ـ ٣٣٢).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥) وابن الأثير (٥/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

العَكّيّ، فساروا حتى نزلوا مدينة (قُمّ)[1].

وبلغ ابن ضُبارة نزول الحسن بن قحطبة بنهاوند، فسار ليعين مَنْ بها من أصحاب مروان، فأقبل قحطبة من الرَّي حتى لحق مقاتل بن حكيم العكّيّ.

وتوجّه قحطبة نحو ابن ضبارة وداود بن يزيد بن هبيرة، وكان عسكر قحطبة عشرين ألفاً.

وأمر قحطبة بمصحف على رمح، ونادى: يا أهل الشّام! إنّا ندعوكم إلى ما في هذا المصحف!، فشتموه وأفحشوه في القول، لأنهم يعلمون أنّ قوله يخالف عمله.

وأمر قحطبة أصحابه بالحملة، فحمل العكّيّ على جيش ضُبارة، فانهزم أهل الشّام بدون مقاومة تذكر، فقُتلوا قتلاً ذريعاً بلا هوادة ولا رحمة.

وانهزم ابن ضُبارة حتى دخل عسكره، وانهزم ابن هبيرة أيضاً، فاتبع قحطبة ابن ضبارة وقتله.

وأصاب قحطبة عسكر ابن ضبارة، فأخذ منه ما لا يُعلم قدره من السِّلاح والمتاع والرّقيق والخيل، وما رئيَ قط عسكر فيه من أصناف الأشياء ما في هذا العسكر، كأنه مدينة كاملة.

وكانت هذه المعركة بشهر رجب من هذه السنة بنواحي أصبهان[2].

وقد أثرت هذه المعركة في معنويات جيش الدَّولة فانهارت، وفي معنويات قوات أبي مسلم فارتفعت كما تحسّنت القضايا الإدارية في جيش أبي مسلم لثراء ما غنموه من عسكر ابن ضبارة.

---

(١) قم: مدينة تذكر مع قاشان، تقع بين أصبهان وساوة، بينهما وبين ساوة اثنا عشر فرسخاً ومثله بينها وبين قاشان، انظر معجم البلدان (٧/١٥٩).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/٤٠٥ ـ ٤٠٦) وابن الأثير (٥/٣٩٨ ـ ٣٩٩).

د ـ وفي هذه السنة، وبعد انتصار قحطبة في أصبهان على جيش الدَّولة وقتل قائد من أبرز قادتها، كتب قحطبة إلى ابنه الحسن وهو يحاصر نهاوند يبشِّر بانتصاره وقتل ابن ضبارة، فكبّر أصحاب ابن قحطبة، ففتّ ذلك في عضد المحاصرين في نهاوند من قوات الدَّولة، فاقترح أحد قادتهم أن يخرجوا لقتال ابن قحطبة قبل أن يأتيه أبوه أو مدد من عنده، فإذا أخفقوا تفرّقوا في البلاد، كل واحد أو مجموعة في البلد الذي يأويهم ويأمنون فيه على أرواحهم.

ولكنّ الرّجّالة من المحاصرين قالوا: تخرجون وأنتم فرسان على خيول وتتركونا؟!.

وأقام قحطبة على أصبهان عشرين يوماً، ثم سار فقدم على ابنه بنهاوند، فحصرهم ثلاثة أشهر: شعبان ورمضان وشوال، ووضع عليهم المجانيق، وضيّق عليهم الحصار.

وأرسل إلى أهل الشَّام يدعوهم إلى الاستسلام وأعطاهم الأمان، ففتحوا له الباب.

وخرج الذين لم يوافقوا على الاستسلام، فدفع قحطبة الأسرى إلى قادته، ثم أمر فنودي: مَنْ كان بيده أسير ممن خرج إلينا، فليضرب عنقه، وليأتنا برأسه.

وقتل الأسرى، فلم يبق أحد ممن كان قد هرب من أبي مسلم إلاّ قتل، إلاّ أهل الشَّام فإنه وفى لهم وخلّى سبيلهم، وأخذ عليهم عهداً ألاّ يمالئوا عليه عدوّاً.

ولما حاصر قحطبة نهاوند، أرسل ابنه الحسن إلى (مرج القَلْعَة)[1]،

---

(١) مرج القلعة: مرج بينه وبين حلوان مرحلة، وهو من حلوان إلى جهة همذان انظر معجم البلدان (٨/ ١٦).

فاستولى على (حُلْوَان)[1] التي انسحب منها حماتها[2].

هـ ـ وفي هذه السنة أيضاً استمرّ تطبيق الخُطّة المرسومة لتطهير خراسان وما حولها من بلاد المشرق الإسلامي بالتدريج من العرب المسلمين، والتقدّم لتطهير العراق من قوات الدَّولة، والاستيلاء عليها من قبل قوات أبي مسلم الخراساني، وبعد الاستيلاء على بلاد الجبال، جاء دور منطقة شَهْرَزُور، فبعث قحطبة للاستيلاء عليها أربعة آلاف مقاتل بقيادة قائدين من أهل خراسان، فنزلوا على فرسخين من شهرزور في العشرين من ذي الحجّة، وقاتلوا عثمان بن سفيان الذي كان على مقدمة عبد اللَّه بن مروان بن محمد بن الحكم وهو ابن الخليفة بعد يوم وليلة من نزولهم، فانهزم أصحاب عثمان وقُتل عثمان، وأقام قائدا قحطبة في بلاد الموصل.

وسيّر قحطبة العساكر مدداً لقائديه، فاجتمع معهما ثلاثون ألفاً.

ولما بلغ مروان خبر هذه الهزيمة، وكان يومها بحرّان، سار منها ومعه جنود أهل الشَّام والجزيرة، والموصل، وحشر معه بنو أميّة أبناءهم، وأقبل حتى نزل نهر الزّاب الكبير[3].

و ـ وفي هذه السنة أيضاً، خرج يزيد بن عمر بن هبيرة نحو قحطبة في عدد كثير لا يُحصى ومعه حَوْثرة بن سُهَيْل الباهليّ، وكان مروان أمدّ به ابن هبيرة.

وسار ابن هبيرة حتى نزل (جَلُوْلاء)[4]، واحتفر الخندق الذي كانت

---

(١) حلوان: حلوان العراق، وهي في آخر حدود السّواد، بين جلولاء وهمذان، انظر معجم البلدان (٣/ ٣٢٢).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٠٧ ـ ٤٠٩) وابن الأثير (٥/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٠٩) وابن الأثير (٥/ ٤٠٠ ـ ٤٠١).

(٤) جلولاء: منطقة من مناطق السّواد في طريق خراسان بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، تقع على نهر عظيم يمتدّ إلى بَعْقُوبة (نهر ديالي)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٢٩ ـ ١٣٠)، ومكانها معروف اليوم، وكان معسكراً للجيش ثم أصبح قصبة عامرة.

العجم قد احتفرته أيام معركة جلولاء في الفتح الإسلامي سنة ست عشرة الهجريّة (٦٣٧م)، وأقام ابن هبيرة في هذا الخندق.

وأقبل قحطبة حتى نزل (قَرْمِيسين)[١]، ثم سار إلى حُلْوان، ثم إلى (خَانِقِين)[٢] وأتى (عُكْبَرَاء)[٣]، وعبر دجلة ومضى حتى نزل (دِمِمَّا)[٤] دون (الأنبار)[٥].

وارتحل ابن هبيرة بمن معه منصرفاً مبادراً إلى الكوفة لمواجهة قحطبة، وقدّم حَوْثرة في خمسة عشر ألفاً إلى الكوفة.

وقيل: إنّ حوثرة لم يفارق ابن هبيرة، والأول أصح، لأن ابن هبيرة لا بدّ أن تكون له مقدمة، وحوثرة يومئذ أبرز قادته، فمن المعقول أن يعهد إليه بهذا الواجب دون غيره من القادة.

وأرسل قحطبة طائفة من أصحابه إلى الأنبار، وأمرهم بإحضار ما فيها من السفن إلى (دمِمَّا) ليعبروا الفرات، فحملوا إليه كل سفينة هناك، فقطع قحطبة الفرات حتى صار في غربيّه، ثم سار يريد الكوفة، حتى انتهى إلى الموضع الذي فيه ابن هبيرة.

---

(١) قرميسين: بلد بينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً، قرب الدِّيْنَوَر، وهي بين همذان وحلوان على جادة الحج، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٦٣).

(٢) خانقين: بلد من نواحي السّواد في طريق همذان من بغداد، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ لمن يريد الجبال، ومن قصر شيرين إلى حلوان ستة فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣)، وهي مدينة عراقية عامرة معروفة اليوم بهذا الاسم.

(٣) عكبراء: بليدة من نواحي دُجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٠٣).

(٤) دمما: قرية كبيرة على الفرات قرب بغداد عند الفلّوجة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٨٣).

(٥) الأنبار: مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ، انظر معجم البلدان(١/ ٣٤٠ ـ ٣٤٢)، وهي قريبة جداً من مدينة الفلوجة المعروفة اليوم، وأطلال الأنبار ما تزال قائمة.

وخرجت هذه السنة[1]، وجاءت السنة الجديدة، وكانت السنة المنصرمة سنة أصبحت المبادرة بيد قوات أبي مسلم الخراساني، وفقدت الدَّولة المبادرة فيها نهائياً، وكانت سنة إنتصارات بالنسبة لقوات أبي مسلم، وسنة إندحارات بالنسبة لقوات الدَّولة، ممَّا جعل قوات أبي مسلم تتمتّع بالمعْنَوِيَّات العالية وقوات الدَّولة تعاني من انهيار معنوياتها.

٧ ـ الكارثة

أ ـ دخلت سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريَّة (٧٤٩م)، وهي سنة الكارثة التي قضت على دولة وجاءت بدولة جديدة: قضت على الدَّولة التي كان العرب المسلمون فيها مواطنين من الدرجة الأولى، وجاءت بدولة أصبح فيها العرب المسلمون مواطنين من الدرجة الثَّانية، فانقضى عهد الدَّولة الواحدة، وحلّ عهد الدول المتفرقة، وانقضى عهد الفتح واستعادة الفتح ومضى إلى غير رجعة، وابتدأ عهد الدِّفاع المُسْتَكِن، وتكاثرت الهزائم والمصائب والنكبات.

لقد سقطت الدَّولة العربيَّة في هذا العام، والعرب مادة الإسلام بلا مراء.

فقد عبر قحطبة هذه السنة في شهر المحرّم لثمانٍ مضين منه نهر الفرات وصار في غربيّه، وكان ابن هبيرة قد عسكر في فم الفرات من أرض الفلّوجة التي تقع على الفرات غربي بغداد وعلى مسافة ثلاثة وعشرين فرسخاً من الكوفة، وقد اجتمع إليه فلول جيش ابن ضبارة، وأمدّه مروان بحَوْثرة الباهلي، فقال حوثرة وغيره لابن هبيرة: إن قحطبة قد مضى يريد الكوفة، فاقصد أنت خراسان، ودعه ومروان، فإنك تكسره، وبالحريّ أن يتبعك •، فقال: ما كان ليتبعني ويدع الكوفة، ولكن الرأي أن أبادره إلى الكوفة.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤١٠) وابن الأثير (٥/ ٤٠١ ـ ٤٠٢).

واستعمل ابن هبيرة على مقدمته حوثرة، وأمره بالمسير إلى الكوفة، وكان الفريقان يسيران على جانبي الفرات.

وقال قحطبة لرجاله: إنّ الإمام أخبرني أنّ لي في هذ المكان وقعة، يكون النصر فيها لنا.

ونزل قحطبة (الجباريّة)[1] في طريقه إلى الكوفة، وقد دلّوه على مخاضة، فعبر منها وقاتل حوثرة، فانهزم أهل الشّام.

ولكنّ جيش قحطبة فَقَدَ قحطبة، فقال أصحابه: مَنْ كان عنده عهد من قحطبة فليخبرنا به! فقال مُقاتل بن مالك العَتْكيّ: سمعتُ قحطبة يقول: إن حدث بي حَدَثٌ، فالحسن ابني أمير الناس.

وبايع الناس حُمَيْد بن قحطبة لأخيه الحسن، وكان قد سيّره أبوه في سريّة، فأرسلوا إليه وأحضروه، وسلّموا إليه الأمر.

ولما فقدوا قحطبة بحثوا عنه فوجدوه في جدول وحرب بن سالم بن أحْوَر قتيلين، فظنّوا أنّ كل واحد منهما قد قتل صاحبه.

وقاتل أهل خراسان، فانهزم أهل الشّام.

ولما انهزم حوثرة لحق بابن هبيرة، فانهزم ابن هبيرة بهزيمته، ولحقوا بواسط، وتركوا عسكرهم بما فيه من الأموال والسلاح[2].

ولا يمكن أن نطلق تعبير: معركة، على هذا الذي حدث بين الجانبين، فلم يكن هناك قتال بالمعنى الصحيح، بل كان هناك هزيمة منكرة أو فضيحة على أصدق تعبير، فما كادت مقدّمة ابن هبيرة تنهزم، إلاّ وانهزم الجيش كله وعلى رأسه قائده ابن هبيرة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على انهيار معنويات جيش الدّولة وسوء قيادتها وتغلغل الدعوة العباسية بين صفوفها سراً.

---

(١) الجبارية: لا ذكر لها في معجم البلدان.

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤١٤ ـ ٤١٧)، وابن الأثير (٥/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

وقد كان قتل قحطبة وتغيبه عن قيادة أصحابه مدة كان خلفه فيها بعيداً عن ساحة القتال، فرصة ذهبية بالنسبة لجيش الدَّولة، ولكنه لم ينتهزها في تحطيم قوات أبي مسلم، فقد كان في شغل شاغل عنها بالهزيمة التي تقبّلها بدون قتال تقريباً.

إنّ هذه المعركة خير مؤشر على أن الدَّولة القائمة تسير بخطىً حثيثة إلى الزوال.

ب ـ ولعلّ أوضح دليل على انهيار الدَّولة القائمة ما حدث بالكوفة، فقد خرج محمد بن خالد بن عبد اللَّه القَسْريّ بالكوفة مسوِّداً قبل أن يدخلها الحسن بن قحطبة، وأخرج عنها عامل ابن هبيرة، ثم دخلها الحسن.

وكان من خبره أن محمداً خرج بالكوفة ليلة عاشوراء مسوِّداً وعلى الكوفة زياد بن صالح الحارثي، وعلى شُرَطه عبد الرحمٰن بن بشير العِجْلِيّ. وسار محمد إلى قصر الإمارة بالكوفة، فارتحل زياد ومَنْ معه من أهل الشَّام، ودخل محمد القصر.

وسمع حوثرة الخبر، فسار نحو الكوفة، فتفرّق عن محمد عامَّة مَنْ معه لمّا بلغهم الخبر، وبقي في نفر يسير من أهل الشَّام ومن اليمانيين الذين كانوا قد هربوا من مروان، وكان معه مواليه أيضاً.

وأرسل أبو سَلِمَة الخلّال ـ ولم يظهر بعد ـ إلى محمد يأمره بالخروج من القصر تخوّفاً عليه من حوثرة ومَنْ معه، لم يبلغ أحداً من الفريقين هلاك قحطبة بعد.

وبلغ حوثرة تفرّق أصحاب محمد عنه، فتهيّأ للمسير نحوه.

وبينما محمد في القصر، إذ أتاه بعض طلائعه فقال له: قد جاءت خيل من أهل الشَّام، فوجّه إليهم عدّة من مواليه، فناداهم الشَّاميون: نحن بجيلة وفينا مليح بن خالد البجلي، جئنا لندخل في طاعة الأمير، فدخلوا!!

ثم جاءت خيل أعظم منها مع رجلٍ من آل بَحْدَل، فلمّا رأى ذلك حوثرة من صنع أصحابه، ارتحل نحو واسط.

وكتب محمد بن خالد من ليلته إلى قحطبة ـ وهو لا يعلم بهلاكه ـ يُعْلِم أنّه قد ظفر بالكوفة.

وقدم رسول محمد بن خالد على الحسن بن قحطبة، فلمّا دفع إليه كتاب محمد بن خالد، قرأه على الناس، ثم ارتحل نحو الكوفة، فأقام محمد بالكوفة يوم الجمعة والسبت والأحد، وصبّحه الحسن بن قحطبة الإثنين.

وقيل: إنّ الحسن بن قحطبة أقبل نحو الكوفة بعد هزيمة ابن هبيرة، وعليها عبد الرحمٰن بن بشير العِجْلِيّ، فهرب عنها، فسوّد محمد بن خالد وخرج في أحد عشر رجلاً، وبايع الناس.

ودخل الحسن بن قحطبة الكوفة من الغد، فأتوا أبا سَلَمَة ـ وهو من بني سَلِمَة ـ فاستخرجوه، فعكسر بالنُّخَيْلَة[1] يومين، ثم ارتحل إلى (حمّام أَعْيَن)[2]، ووجّه الحسن بن قحطبة إلى واسط لقتال ابن هبيرة.

وبايع الناس أبا سَلِمَة حفص بن سليمان مولى السُّبَيْع، وكان يقال له: وزير آل محمد، واستعمل محمد بن خالد بن عبد اللَّه القَسْريّ على الكوفة، وكان يقال له: الأمير، حتى ظهر أبو العبّاس السفّاح.

ووجّه أبو سلمة إلى المدائن حُمَيْد بن قحطبة في قواد، وبعث المُسَيّب بن زهير وخالد بن برمك إلى (دَير قُنّى)[3]، وبعث إلى (عير

---

(١) النخيلة: موضع قرب الكوفة، على سمت الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).

(٢) حمّام أعين: موضع بالكوفة مشهور، منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص، انظر معجم البلدان (٣/ ٣٣٤).

(٣) دير قنى: دير على ستة عشر فرسخاً من بغداد منحدراً بين النُّعمانية، وهو في الجانب الشرقي، معدود من أعمال النهروان، بينه وبين دجلة ميل، وعلى دجلة مقابل مدينة صغيرة يقال لها: الصافية، وقد خربت، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٦٤).

التمر) وإلى الأهواز وبها عبد الواحد بن عمر بن هبيرة، فخرج عنها عبد الواحد إلى البصرة.

كما بعث إلى البصرة أيضاً أحد قادته، ولكن قائدها دافع عنها، فانهزم قائد أبي سلمة، وكان قائدها سلم بن قتيبة الباهلي الذي ظل في البصرة حتى أتاه قتل ابن هبيرة، فتخلى عنها[١].

ويبدو أن انتشار الدعوة للعباسيين سرّاً، هي التي أدّت إلى ضعف مقاومة رجال الدَّولة عن دولتهم في العراق واستسلامهم بشكل أو بآخر بدون مقاومة تذكر لقادة أبي مسلم، وسيرهم تحت ألويتهم وتأييدهم لهم في الناحيتين العسكريَّة والإدارية، ولعلّ بقاء نشاط أبي سلمة في الكوفة سرّاً مكتوماً، دليل على حذقه في الأعمال السريّة وحذره ويقظته، فلم يعرف شأنه أحد من رجال الدَّولة إلاّ بعد أنّ انسحب قادة الدَّولة من الكوفة وتسلّمها العبّاسيون، وحينذاك فقط ظهر أبو سَلِمَة كأقوى رجل في الدَّولة المرتقبة.

ج - وفي هذه السنة، سار أبو العباس عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس من (الحُمَيْمَة) إلى الكوفة بعد استسلامها لقادة أبي مسلم الخراساني. وكان سبب مسيره على رأس بني العباس من آل بيته، أنّ إبراهيم الإمام لمّا أخذه رسول مروان إلى السِّجن الذي توفي فيه، نعى نفسه إلى أهل بيته وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد اللّه بن محمد وبالسّمع والطاعة له، وأوصى إلى أبي العباس وجعله الخليفة بعده، فسار أبو العباس ومَنْ معه من آل بيته إلى الكوفة، حتى قدموها في صفر، وشيعتهم من آل خراسان بظاهر الكوفة بحمّام أعْيَن، فأنزلهم أبو سَلِمة الخلاّل دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم، وكتم أمرهم نحواً من أربعين يوماً من جميع القواد والشِّيعة.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣١٧ - ٤٢٠) وابن الأثير (٥/ ٤٠٤ - ٤٠٧).

وبويع لأبي العباس عبد اللّه بن محمد يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول[1] من سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريّة (٧٤٩م).

وهكذا أصبح للدولة الإسلاميَّة خليفتان: أمويّاً وعباسيّاً لا بد من تصفية الحساب بينهما ليذهب خليفة ويبقى خليفة.

وسار مروان من حرّان على رأس عشرين ومئة ألف إلى الزَّاب الكبير[2] للقاء قائد قحطبة الذي استولى على شَهْرَزور، وهو أبو عَوْن عبد الملك بن يزيد الأزْديّ، فوجّه أبو سَلِمَة إلى أبي عون ثلاثة من قادته، مع كل قائد ثلاثة آلاف.

ولما ظهر أبو العباس السفّاح وبويع له بالخلافة، بعث إلى أبي عَوْن قائدين من قادته، مع الأول منهما ألفان، ومع الثّاني ألف وخمسمائة، ثم بعث قائداً ثالثاً في ألفين، ثم أردفهم برابع ومعه خمسمائة، ثم قال أبو العباس: مَنْ يسير إلى مروان من أهل بيتي؟ فقال عبد اللّه بن عليّ: أنا، فسيّره إلى أبي عَوْن، فقدم عليه، فتحوّل أبو عون عن سرادقه وخلاّهُ له وما فيه.

فلما كان لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومئة، سأل عبد اللّه بن علي عن مخاضة في الزّاب، فدلّ عليها، فأمر عُيَيْنَة بن موسى أحد قادته المرؤوسين، فعبر في خمسة آلاف، فانتهى إلى عسكر مروان، فقاتلهم حتى أمسوا، ثم رجع إليه عبد اللّه بن علي.

وأصبح مروان، فعقد الجسر وعبر عليه، فنهاه وزراؤه عن ذلك،

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/٤٢١ ـ ٤٣١) وابن الأثير (٥/٤٠٨ ـ ٤١٧).

(٢) الزاب الكبير: هو الزاب الأعلى، بين الموصل وأربيل، ويجري بين الجبال والأودية، وماؤه شديدة الحمرة، ويوم الزاب بين مروان وبني العباس كان على الزاب الأعلى بين الموصل وأربيل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٦٣ ـ ٣٦٥).

فلم يقبل. وسير ابنه عبد اللَّه بن مروان، فنزل أسفل من عسكر عبد اللَّه بن علي، فسرّح إليه عبد اللَّه بن علي قائداً من قادته يدعى: المخارق في أربعة آلاف.

والتقى الجانبان، فثبت جيش مروان، وانهزم أصحاب المخارق وثبت المخارق، فأُسر هو وقسم من جماعته، فسيرهم قائد مروان إلى مروان مع رؤوس القتلى.

ولما بلغ الهزيمة عبد اللَّه بن علي، أرسل إلى طريق المنهزمين مَنْ يمنعهم من دخول معسكره، لئلا يؤثروا في معنويات رجاله، فبقوا خارج ميدان القتال[١].

وأشار أبو عَوْن على عبد اللَّه بن علي، أن يبادر مروان بالقتال، قبل أن ينتشر خبر هزيمة المخارق بينهم، فيفت ذلك في أعضادهم، فنادى عبد اللَّه بن علي في جيشه بلبس السلاح والخروج إلى الحرب.

وسار عبد اللَّه إلى مروان، وجعل علي ميمنته أبا عون، وعلى ميسرته الوليد بن معاوية، وكان عسكره عشرين ألفاً، وقيل: اثني عشر ألفاً، وقيل غير ذلك.

وأرسل مروان إلى عبد اللَّه يسأله الموادعة، فرفض عبد اللَّه وأنشب القتال.

وأمر مروان ألاّ تبدأهم قواته بالقتال، ولكن الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، وهو خَتَن مروان بن محمد على ابنته تحرش بهم، فغضب مروان وشتمه.

وقاتل الوليد بن معاوية بن مروان أبا عوْن، فانحاز إلى عبد اللَّه، فقال موسى بن كعب أحد قادة عبد اللَّه بن علي: يا عبد اللَّه! مُر الناس،

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣) وابن الأثير (٥/ ٤١٧ ـ ٤١٨).

فلينزلوا، فنودي: الأرض... الأرض... فنزل الناس وأشرعوا الرّماح وجثوْا على الرُّكَب فقاتلوا جيش مروان، وجعل أهل الشّام يتأخّرون كأنهم يُدفعون دفعاً.

واشتدّ بين الجانبين القتال.

وقال مروان لقُضاعة: انزلوا، فقالوا: قل لبني سُلَيْم فلينزلوا، فأرسل إلى السّكاسك: أن احملوا، فقالوا: قل لبني عامر فليحملوا!

وأرسل إلى السّكون أن احملوا، فقالوا: قل لغطَفَان فليحملوا!

وقال لصاحب شرطته: إنزل، فقال: واللّه ما كنت لأجعل نفسي غرضاً. قال: أما واللّه لأسوءنّك! فقال: وِددْتُ واللّه أنك قدرتَ على ذلك!!

وكان مروان ذلك اليوم لا يدبّر شيئاً إلاّ كان فيه الخلل، فأمر بالأموال فأخرجت، وقال للنّاس: اصبروا وقاتلوا وهذه الأموال لكم، فجعل ناس من الناس يصيبون من ذلك، فقيل له: إنّ الناس قد مالوا على هذا المال، ولا نأمنهم أن يذهبوا به! فأرسل إلى ابنه عبد اللّه: أن سِرْ في أصحابك إلى مؤخّر عسكرك، فاقتل مَنْ أخذ من المال وامنعهم!!

ومال عبد اللّه بن مروان برايته وأصحابه، لينفِّذ أمر والده في حماية المال، فقال الناس: الهزيمة... الهزيمة! فانهزم مروان وانهزموا، وقطع الجسر، وكان مَنْ غرق يومئذ أكثر ممن قُتل.

وكانت هزيمة مروان بالزّاب يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة[1].

وكانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة، فقد بدأت دولة جديدة

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٣٢ ـ ٤٣٥) وابن الأثير (٥/ ٤١٧ ـ ٤٢١).

هي دولة بني العباس، وأنهَت دولة قديمة هي دولة بني أميّة، وكان المتوقع أن يكون فيها القتال استقتالاً من الجانبين المتقاتلين، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فما قاتل جيش مروان، ولا صبر على القتال ساعات، وانهزم بدون قتال جماعي تقريباً، وربما قاتل أفراد منه فأحسنوا القتال، ولكن القتال الفردي لا تأثير له في سير المعركة، والقتال الجماعي هو الذي له تأثير في سير المعركة.

ونعود إلى أسباب هزيمة مروان في هذه المعركة الحاسمة وشيكاً، عند الحديث عن سمات مروان قائداً في فقرة: القائد.

الإنسان

١ ـ لمّا هُزم مروان في معركة الزَّاب الحاسمة، هرب من ساحة المعركة، وعبر نهر دجلة من مدينة (بَلَد)(١) حتى أتى مدينة حَرَّان، فأقام بها نيّفاً وعشرين يوماً.

وسار عبد اللّه بن علي العباسي حتى أتى الموصل، فدخلها وعزل عامل مروان عليها واستعمل عليها عاملاً جديداً، وذلك بُعَيد معركة الزَّاب مباشرة.

وسار في أثر مروان، فلمّا دنا منه حمل مروان أهله وعياله ومضى منهزماً، وخلّف بمدينة حرّان ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد بن الحكم وتحته أمّ عثمان ابنة مروان.

وقدم عبد اللّه بن علي حرّان، فلقيه أبان مسوِّداً مبايعاً له، فبايعه ودخل في طاعته، فأمنه ومن كان معه بحرّان والجزيرة.

ومضى مروان إلى حِمْص، فلقيه أهلها بالسّمع والطّاعة، فأقام بها

---

(١) بلد: مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل، بينهما سبعة فراسخ، وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٦٥).

يومين أو ثلاثة، ثم غادرها، فلمّا رأى أهل حِمْص قلّة مَن معه، طمعوا فيه وقالوا: مرعوب منهزم، فأتبعوه بعد ما رحل عنهم، فلحقوه على أميال من المدينة.

ورأى مروان غبرة الخيل، فوضع لهم كميناً. فلمّا جاوزوا الكمين صافهم مروان فيمن معه وناشدهم ألاّ يقاتلوه، فأبوا إلاّ قتاله. وقاتلهم مروان، وأتاهم الكمين من خلفهم، فانهزم أهل حِمْص وقُتلوا حتى انتهوا إلى قريب المدينة.

وأتى مروان دمشق، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان، فخلّفه فيها وقال: قاتلهم حتى يجتمع أهل الشَّام.

ومضى مروان حتى أتى فلسطين، فنزل (نهر أبي فُطْرُس)[1]، وقد غلب على فلسطين الحكم بن ضبعان الجُذامي، فأرسل مروان إلى عبد اللَّه بن يزيد بن رَوْح بن زنباع الجُذامي فأجاره.

وكان السفّاح قد كتب إلى عبد اللَّه بن علي يأمره باتباع مروان، فسار في أثره حتى أتى الموصل، فتلقّاه من بها مسوّدين وفتحوا له المدينة. ثم سار إلى حرّان فتلقاه أهلها مسوّدين أيضاً، فهدم عبد اللَّه الدّار التي حُبس فيها إبراهيم الإمام. وسار عبد اللَّه من حرّان إلى (مَنْبِج)[2] وقد سوّدوا، فأقام بها، وبعث إليه أهل (قِنَّسْرِين)[3] ببيعتهم، وقدم عليه أخوه عبد الصمد بن علي، أرسله السفّاح مدداً له في أربعة آلاف، فسار

---

(١) نهر أبي فطرس: موضع قرب مدينة الرّملة من أرض فلسطين، والنهر مخرجه من أعين في الجبل المتصل بنابلس، ويصب بالبحر الميت، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٣٣).

(٢) منبج: مدينة كبيرة واسعة، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ، انظر معجم البلدان (٨/ ١٦٩).

(٣) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٨ ـ ١٧٠).

بعد قدوم عبد الصمد إلى قنسرين ليومين، وكانوا قد سوّدوا، فأقام يومين. وسار إلى حِمْص وبايع أهلها وأقام بها أياماً. ثم سار إلى (بَعْلَبَك)[1] فأقام بها يومين، ثم سار فنزل (المِزَّة)[2] مزّة دمشق، وهي قرية من قرى الغوطة، فقدم عليه أخوه صالح بن علي مدداً له.

وحاصر عبد اللّه بن علي دمشق، فدخلها عَنْوَة يوم الأربعاء لخمس مضين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريَّة.

وأقام عبد اللّه بن علي في دمشق خمسة عشرة يوماً، ثم سار يريد فلسطين، فلقيه أهل الأردن وقد سوّدوا، وأتى نهر أبي فُطْرُس وقد ذهب مروان، فأقام عبد اللّه بفلسطين، فأتاه كتاب السفّاح يأمره بإرسال صالح بن علي في طلب مروان.

وانطلق صالح حتى بلغ (العَرِيش)[3]، فأحرق مروان ما كان حوله من علف وطعام.

وسار صالح، فنزل نهر النّيل، ثم سار حتى أتى (الصَّعِيد)[4]، وبلغه أنّ خيلاً لمروان يحرقون الأعلاف، فوجّه إليهم قوة من قواته، فأخذوا وقُدم بهم على صالح وهو بـ(الفُسْطَاط)[5]. وسار فنزل موضعاً يقال له:

---

(١) بعلبك: مدينة قديمة فيها آثار قديمة، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام من جهة الساحل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٢٦).

(٢) المزّة: قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ، انظر معجم البلدان (٨/ ٤٧)، وهي ضاحية من ضواحي دمشق الحديثة.

(٣) العريش: مدينة كانت أول عمل من أعمال مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

(٤) الصعيد: بلاد واسعة كبيرة بمصر، فيها عدة مدن عظام منها مدينة أسوان وهي أوله من ناحية الجنوب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٦٠ ـ ٣٦١).

(٥) الفسطاط: مدينة في مصر بناها عمرو بن العاص فاتح مصر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣٧٧ ـ ٣٨٤)، وهي مدينة القاهرة القديمة حول جامع عمرو بن العاص الموجود حالياً.

(ذات السلاسل)[1]، وقدّم أبا عَوْن عامر بن إسماعيل الحارثي وشُعْبَة بن كثير المزني في خيل أهل الموصل، فلقوا خيلاً لمروان فهزموهم وأسروا منهم رجالاً فقتلوا بعضاً واستحيوا بعضاً. وسألوهم عن مروان، فأخبروهم بمكانه على أن يؤمنوهم. وساروا فوجدوه في كنيسة في (بوصير)[2]، فوافوه ليلاً وكان أصحاب أبي عَوْن قليلين، فقال عامر بن إسماعيل: إن أصبحنا ورأوا قلّتنا أهلكونا ولم ينجُ منّا أحد، وكسر جفن سيفه، وفعل أصحابه مثله، وحملوا على أصحاب مروان فانهزموا، وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه. وصاح صائح: صُرع أمير المؤمنين، فابتدروه، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة فاحتزّ رأسه، فأخذه عامر وبعث به إلى أبي عوْن، وبعثه أبو عون إلى صالح بن علي، فسيّره صالح إلى أبي العباس السفّاح.

وكان قتله لليلتين بقيتا من ذي الحجة، ورجع صالح إلى الشّام، وخلّف أبا عوْن بمصر، وسلّم إليه السلاح والأموال والرّقيق.

وحين وصل رأس مروان إلى السفّاح سجد شكراً للّه.

ولما قتل مروان، هرب إبناه عبد اللّه وعُبيد اللّه إلى أرض الحبشة، فلقوا من الحبشة بلاء شديد؛ قاتلهم الحبشة، فقتل عبيد اللّه ونجا عبد اللّه في عدّة ممن معه، فبقي إلى خلافة المهديّ، فأخذه نصر بن محمد بن الأشعث، عامل فلسطين للمهدي، فبعث به إلى المهديّ.

ولما قتل مروان كان عمره ستاً وخمسين سنة قمرية، إذ ولد سنة ست وسبعين الهجريَّة، وقتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريَّة، وأربعاً

---

(١) ذات السلاسل: لا ذكر لها في معجم البلدان، ويبدو أنها في الصعيد.

(٢) بوصير: هي قرية بوصير قثوريدُس من كورة الأشْمُونين، إحدى كور الصعيد الأدنى غربي النيل، وهي القرية التي قتل بها مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، انظر معجم البلدان (١/ ٢٦١ ـ ٣٠٦).

وخمسين سنة شمسية[1]، إذ ولد سنة (٦٩٥م) وقتل سنة (٧٤٩م).

وكانت ولايته على الخلافة من حين بويع إلى أن قُتل خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوماً.

وكان يكنّى: أبا عبد الملك، وكان أبيض أشهل شديد الشّهلة، ضخم الهامة، كثّ اللِّحية أبيضها، رَبْعَة، وكان حازماً شجاعاً إلاّ أنّ مدّته انقضت فلم ينفعه حزمه ولا شجاعته[2].

وكان كثير المروءة، كثير العُجب، يعجبه اللّهو والطرب، ولكنه كان يشتغل عن ذلك بالحرب[3].

أولاده: عبد الملك، وعبد الرحمٰن، وعثمان، وعبد اللَّه، وعبيد اللَّه، وعبد الغفّار، ويزيد، وأبو عثمان، ومحمد، وأبان[4].

نزل حرّان من أرض الجزيرة، وكان جميع من ملَكَ قبله من بني أمية ينزلون دمشق، ومنهم من كان يَتَبَدَّى، وكانت أيامه كلها فتناً وحروباً، ولم تصفُ له الأمور[5]، فما استراح لحظة بعد أن تولى الخلافة، وقاتل في عدة جبهات داخلية: جبهة بني أمية المخالفين، وجبهة بلاد الشّام، وكان المفروض أن تكون هاتان الجبهتان له لا عليه. كما قاتل في جبهة الحجاز واليمن والأندلس، والعراق وخراسان وبلاد المشرق الإسلامي كافة، ولعلّ أخطر الجبهات التي قاتل فيها هي جبهة خراسان بخاصة وجبهة المشرق الإسلامي بعامّة، فهذه الجبهة التي قضت عليه خليفةً وعلى دولة الأمويين في الشّام، وأدّت فيما أدّت إليه إلى قيام الدّولة العباسية.

---

(١) ورد أنّ عمره حين قتل اثنتان وستون سنة، وقيل: أن عمره تسع وستون سنة، ولا يصح هذا، لأن سنة مولده معروف وسنة قتله معروف أيضاً، وهو كما ذكرنا في أعلاه.

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٣٧ ـ ٤٤٣) وابن الأثير (٥/ ٤٢٤ ـ ٤٢٩) وابن كثير (١٠/ ٤٤ ـ ٤٦) وانظر العبر (١/ ١٧٤).

(٣) ابن كثير (١٠/ ٤٧).

(٤) جمهرة أنساب العرب (١٠٧) وانظر العقد الفريد (٤/ ٤٦٩).

(٥) التنبيه والإشراف (٣٢٥).

٢ ـ وينبغي أن تفرّق بين مروان الوالي، ومروان الخليفة، فبقدر ما كان مروان الوالي موفّقاً في عمله إدارياً وقائداً وإنساناً، كان مروان الخليفة غير موفّق في عمله إدارياً وقائداً وإنساناً.

فقد استعمل هشام بن عبد الملك على الجزيرة وأذربيجان وإِرْمِينِيَة ابن عمه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم سنة أربع عشرة ومئة الهجريَّة كما علمنا، خلفاً لمَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان.

وكان سبب ذلك أنه كان في عسكر مَسْلَمَة بإِرْمِينِيَة حين غزا الخزر، فلمّا عاد مَسْلَمَة من غزوته سار مروان إلى الخليفة هشام، فلم يشعر به حتى دخل عليه، فسأله عن سبب قدومه، فقال: ضِقْتُ ذرعاً بما أذكره، ولم أرَ مَنْ يحمله غيري!، قال: وما هو!، قال مروان: قد كان من دخول الخزر إلى بلاد الإسلام، وقتل الجَرَّاح[1] وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين. ثم رأى أمير المؤمنين أن يوجِّه أخاه مَسْلَمَة بن عبد الملك إليهم، فواللَّه ما وطىء من بلادهم إلاّ أدناها، ثم إنه لمّا رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك، فكتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر، فاستعدّ القوم وحشدوا، فلمّا دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية، وكان قُصاراه السلامة، وقد أردتُ أن تأذن لي في غزوةٍ أُذهب بها عنّا العار وأنتقم من العدوّ. قال هشام: قد أذنت لك، وقال: وتمدّني بمئة وعشرين ألف مقاتل، قال: قد فعلتُ، قال: وتكتم هذا الأمر عن كل واحد!، قال: قد فعلت، وقد استعملتك على إِرْمِينِيَة[2].

وكان مروان قد خرج متخفياً عن مَسْلَمَة إلى هشام[3]، أي أنه عاد من الجبهة الأماميَّة في حالة الحرب دون إذن مَسْلَمَة ودون علمه!!

---

(١) هو الجراح بن عبد اللَّه الحكمي، الذي قتله الخزر سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية في إقليم اللان من أقاليم إرمينية بالقرب من مدينة الباب (دربند) على الخزر.
(٢) ابن الأثير (٥/١٧٧).
(٣) ابن خلدون (٣/١٩٧).

وفي رواية أخرى: لمّا أقبل مَسْلَمَة، زحفت إليه الخزر، فلم يشعر مَسْلَمَة حتى طلعوا عليه، فقاتلهم وحال بينهم الليل. وبات المسلمون يحيون، وانصرف الخزر، وقفل مَسْلَمَة واستخلف مروان بن محمد[1].

والتناقض بين الروايتين واضح، فإن مَسْلَمَة عاد إلى دمشق بعد أن قتل خاقان ملك الترك وأقوى عاهل في المنطقة، وعاد مَسْلَمَة بعد أن أحكم أموره في إِرْمِينِيَة[2]، فلم يدخل الوهن على المسلمين إذاً، بل العكس هو الصحيح، وقد تغلغل مَسْلَمَة بالعمق في بلاد الخزر، فكيف لم يطأ من بلادهم إلاّ أدناها!!

أمّا الادّعاء بأنّ مَسْلَمَة كتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر، أفسح فيه المجال للخزر بإكمال استعداداتهم وإنجاز حشودهم، فليس معقولاً ولا منطقياً، إذ لا يمكن أن يتصرف أيّ قائد مسؤول في الدنيا هذا التصرّف: ينذر عدوّه بالحرب، ويفسح المجال له للاستعداد، ثم يتراخى عنه ثلاثة أشهر!!

أما أن مَسْلَمَة لم تكن له نكاية بالخزر، فهذا ما يدحضه سير القتال المسجل في التاريخ العربي الإسلامي بالتفصيل، ويدحضه ما أنجزه مَسْلَمَة في حرب الخزر بالذّات.

يبقى ما ورد عن خروج مروان متخفياً من مَسْلَمَة إلى هشام، فهذا ما لا يمكن أن يحدث بالنسبة للجندي الاعتيادي البسيط، إذ لا يمكن أن يعود إلى أهله أو يترك موقعه إلاّ بإذن من قائده، فكيف بمثل مروان، وقد كان الرجل الثّاني من جيش مَسْلَمَة وابن عمّه وأقرب المقرّبين إليه وأحد قادته الأقربين!

ولو كان مروان مبيّتاً الوشاية بابن عمّه مَسْلَمَة، لاستأذنه في القفول

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٩).
(٢) ابن الأثير (٥/ ١٧٩).

إلى دمشق بحجة أو بأخرى، فيعود أدراجه إلى دمشق، إذ ليس من المعقول أن يعود من مدينة (الباب) على بحر الخزر إلى دمشق، والمسافة بين البلدين شاسعة، والوقت الذي تقطع به تلك المسافة طويل، ثم يبقى أمر عودته سرّاً مكتوماً على مَسْلَمَة، فلا يعرف عن رحيل مروان وغيابه شيئاً.

كما أنّ العلاقة الوثيقة بين مَسْلَمَة ومروان من جهة، والعلاقة الوثيقة بين هشام ومَسْلَمَة من جهة أخرى، تجعل من الصعب على مروان أن يشي بمَسْلَمَة، وتجعل من الصّعب على هشام أن يتقبّل وشاية مروان، وخاصة وأنها تناقض الواقع والحقائق الناصعة ولا يمكن أن يصدقها عاقل!

كل ذلك يجعلنا نعتمد الرواية الثَّانية، وهي أن مَسْلَمَة بعد أن أنهى واجبه على أحسن ما يرام، قفل راجعاً، واستخلف مروان على الجيش وعلى ولايته، ففي هذه السنة: سنة أربع عشرة ومئة الهجريَّة، قفل مَسْلَمَة بن عبد الملك عن مدينة (الباب) بعد ما هزم خاقان وبني (الباب)، فأحكم ما هنالك، فولى هشام إِرْمِينِيَة وأذربيجان والجزيرة مروان[1].

ويبدو أن مَسْلَمَة بعد عودته من إِرْمِينِيَة، اقترح على هشام أن يولي مروان مكانه، فاستجاب هشام لاقتراح مَسْلَمَة المنطقي المعقول.

ولم يكن هشام ليعزل مَسْلَمَة الذي كان الرّجل الثَّاني في الدَّولة الأموية بعد هشام وشيخ بني أمية ودماغهم المفكر بدون رغبة مَسْلَمَة في التخلي عن ولايته. وليس من المعقول أن يعزل مَسْلَمَة لعدم كفايته، لأن كفاية مَسْلَمَة فوق الشبهات، ولأن هشام بن عبد الملك ولاّه لكفايته المتميِّزة، حتى يُعيد سيطرة الدَّولة على تلك الأصقاع النائية في ظروف حرجة للغاية، وهي ظروف النكسة التي راح ضحيتها القائد الجرّاح الحكميّ.

---

(١) الطبري (٧/ ٩٠).

وممَّا يلفت النظر أنّ مَسْلَمَة لم يَغْزُ ولم يتولَّ ولاية منذ سنة أربع عشرة ومئة الهجريَّة، حتى توفّاه اللّه سنة عشرين ومئة الهجريَّة أو سنة إحدى وعشرين ومئة الهجريَّة.

وغياب مَسْلَمَة عن تحمّل أعباء الجهاد في الفتح واستعادة الفتح في تلك الظروف التي قلّ فيها القادة المتميِّزون ـ وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً على النهوض بمثل هذا الفرض ـ ليس طبيعياً، بالرغم من ثقة هشام المطلقة بمَسْلَمَة، وبالرغم من حاجة الدَّولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ.

والذي يبدو أن تخلّي مَسْلَمَة عن الجهاد كان لأسباب اضطرارية خارجة عن إرادته، فتخلى عن الجهاد مكرهاً لاعتلال صحته وإصابته بالمرض الذي أقعده عن الجهاد.

وعلى كل حال، فقد تولّى مروان إِرْمِينِيَة وأذربيجان والجزيرة لكفايته المتميِّزة، فقد كان الرجل الثَّاني في القيادة الفعلية بعد مَسْلَمَة، فلمّا تخلّى مَسْلَمَة عن قيادته وولايته طوعاً واختياراً، كان مروان هو الرجل المناسب للعمل المناسب الذي يخلف مَسْلَمَة بن عبد الملك، وقد أثبتت المعارك التي خاضها وإدارته القادرة لولايته أنه كان عند حسن ظَنِّ هشام به، وأنه لم يخيِّب ظنّه بل جعل ظنه يقيناً.

وكان مروان في أيام ولايته يتّسم بالطموح، يحبّ السلطة ويحرص عليها، ويوالي مَنْ يُرضي طموحه ويعادي من لا يرضي طموحه.

وقد كان موقفه من يزيد بن الوليد بن عبد الملك حين علم أنه يدعو سراً لنفسه ويعتزم أن يقود ثورة مسلحة على الخليفة القائم الوليد بن يزيد بن عبد الملك، موقفاً مشرّفاً حقاً، فكتب إلى شيخ بني أميّة وكبيرهم في حينه سعيد بن عبد الملك يحذِّره مغبّة اللعب بالنار والفتنة ويخوِّفه نتائج هذا الشّغب الذي يؤدي إلى خروج الأمر عن بني أميّة كافة، لأنه يفرِّق كلمتهم ويُشتِّت شملهم ويزرع بينهم الحقد والعداوة والبغضاء.

وعلم يزيد بن الوليد بمحاولة مروان أن يثنيه عن الثورة على الخليفة القائم، ولكن يزيد مضى في تنفيذ مخطّطه، فاستولى على السلطة بعد قتل الوليد بن يزيد، وأصبح يزيد خليفة بيده مقاليد السلطة والأمور.

وأعلن مروان خلافه ليزيد بن الوليد، ولكنه نسي خلافه حين أبقاه يزيد على ولايته، ممّا يدل على أن خلافه كان دفاعاً عن منصبه لا دفاعاً عن المبادىء.

ولما مات يزيد بن الوليد، أعلن خلافه من جديد على إبراهيم بن الوليد الذي تولّى الخلافة بعد يزيد، ويبدو أنه تمادى به طموحه، ففتق فتقاً في العائلة المالكة لم يستطع رتقه أبداً، فكأنه حفر قبره بيديه، فخسر حتى القبر لمّا أصبح بحاجة إلى القبر، وخسر الأمويون الخلافة التي كان مروان أحد أسباب زوالها عنهم.

ولما استُخلف مروان، دخل الشعراء يهنئونه بالخلافة، فتقدم إليه طُريح بن إسماعيل الثقفيّ خال الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فقال: الحمد للّه الذي أنعم بك على الإسلام إماماً، وجعلك لأحكام دينه قِواماً، ولأمّة محمد المصطفى جُنّةً ونظاماً ثم أنشد:

تَسوء عِداك في سدادٍ ونَعْمَةٍ   خلافتُنا تِسْعِينَ عاماً وأشهرا

فقال مروان: كم الأشهر؟، فقال: وفاء المئة يا أمير المؤمنين، تبلغ فيها أعلى درجة، وأسعد عاقبة، في النّصْرة والتّمكين، فأمر له بمئة ألف درهم!

ثم تقدّم إليه ذو الرُّمة مُتَحانياً كَبْرَة[1]، قد انحلّت عمامته مُنحدرةً على وجهه، فوقف يُسوِّيها، فقيل له: تقدّم، قال: إني أُجلُّ أمير المؤمنين أن أخطُب بشرفه مادحاً بلَوْثة عِمامتي، فقال مروان: ما أمَّلتُ أنّه قد أبقت

(١) الطبري (٧/ ٩٠).

لنا منك مَيّ ولا صَيْدَح[1] في كلامك إمْتاعاً، قال: بلى واللّه يا أمير المؤمنين، أرِدُ منه قَراحاً، والأحسن امتداحاً، ثم تقدّم فأنشد شعراً يقول فيه:

فقلت لها: سِيري أمامَك سيِّدٌ   تَفَرَّعَ من مروان أو من محمد

فقال له: ما فَعَلَت مَيّ؟، فقال: طُوِيَت غدائرها ببُرْدٍ بَلِيَ، ومحا التُّراب محاسن الخدّ، فالتفت مروان إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك فقال: أما ترى القوافي تنثال انثيالاً، يُعطى بكلُ مَنْ سَمَّى من آبائي ألف دينار، فقال ذو الرُّمّة، لو علمتُ لبلغتُ به عبد شمس[2]!.

واستمتع مروان بما قيل في مدحه، ثم ذهبت زفّة الخلافة بعد أيام العسل القصيرة، فلمّا انقضت أيامه لم يرثه أحد، وهكذا على صاحب السلطان ألاّ يفكّر إلاّ بانقضاء سلطانه، ليعرف كيف يحصل على السلطان وكيف يعمل بعد الحصول عليه، والعاقبة للمتقين.

إن طموح مروان غير المشروع، قاده إلى السلطة وإلى الهلاك أيضاً.

وليس من شك في كفايته الإدارية المتميّزة والياً، فقد أحسن في عمله كل الإحسان، ونعمت الأقطار التي كان يديرها بالأمن والاستقرار، وكان حازماً ذكيّاً لا يكلّ ولا يملّ من العمل المتواصل والجهد الجهيد.

وكان بليغاً في تعليقاته وفي رسائله، فقد كتب إلى نصر بن سيار في أمر أبي مسلم: الظّاهر يدلّ على ضعف الباطن، واللّه المستعان.

ووقع إلى ابن هبيرة أمير العراق: الأمرُ مضطرب، وأنت نائم، وأنا ساهر، وكتب إلى حوثرة حين وجّهه إلى قحطبة: كُنْ من بَيات المارقة على حذر.

---

(١) أي أنه طعن في السنّ، فتقوس ظهره.
(٢) ميّ: صاحبة ذي الرمّة، صيدح: ناقته.

ووقع حين أتاه غرق قحطبة وانهزام ابن هبيرة: هذا واللّه الإدبار، وإلاّ فمن رأى مَيْتاً هزم حيّاً!.

وكتب جواباً لأبيات نصر بن سيّار إذ كتب إليه:

أرى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ويُوشِكُ أن يكون له ضِرَامُ

الحاضر يَرى ما لا يرى الغائب، فاحسم الثُّؤلول[1]، فكتب نصر: الثُّؤلول قد امتدّت أغصانُه، وعظُمت نِكايته، فوقّع مروان: يداكَ أوْكَتَا، وفوكَ نَفَخ[2].

لقد كانت نهاية مروان مأساة من المآسي، وما جنى عليه غير نفسه الأمّارة بالسّوء، فيداه أوْكَتَا وفوهُ نفخ، كما قال مروان في أحد توقيعاته!

ولعلّ مصير مروان المؤلم والمحزن معاً، يكون عبرة للذين يقودهم طموحهم غير المشروع لتولي السلطة بأيّ شكل وأسلوب، دون التفكير في النتائج القريبة والبعيدة، فكم من سلطة أودت بصاحبها وأردته وأودت بغيره وأردته وجرّت عليه وعلى غيره الويلات والمصائب!

ومن السّهل في كثير من الأحيان الحصول على السلطة بطريقة أو بأخرى، والصعوبة في الاحتفاظ بها، لتفيد لا لتضر، ولتبني لا لتهدم، ولتعمُر لا لتخرّب، ولا خير في سلطة يقتصر دورها على الضرر والهدم والتخريب.

تلك هي مجمل عبرة مروان بن محمد لمن يريد أن يعتبر.

---

(١) العقد الفريد (١/ ٣١٩ ـ ٣٢٠).

(٢) الثؤلول: الخراج، وقيل: هو بثر صغير صلب مستدير في صور شتى.

(٣) هذا مثل، وأصله أنّ رجلاً كان في جزيرة، فأراد أن يعبر على زق لم يحسن إحكامه، حتى إذا توسّط البحر خرجت منه الريح، فلما أشرف على الغرق، استغاث بآخر، فقال هذا المثل: يداك شدّتا فم الزق (الجراب)، وفوك نفخه، انظر العقد الفريد (٤/ ٢١٠).

١ ـ أسباب الهزيمة:

أ ـ العصبيّة العربيّة:

تعصّب الأمويون للعرب، وتجلّى ذلك في معاملتهم للمسلمين من غير العرب معاملة كانت تختلف الاختلاف كلّه عن معاملتهم للعرب المسلمين: يسمّون المسلم من غير العربي: (المولى)، وهي تسمية تشعر بسيادة العنصر العربي المسلم، ولا يسوون العربي المسلم وغير العربي المسلم في العطاء ومناصب الدَّولة العليا، وينظرون إلى غير العرب نظرة احتقار وازدراء.

وهذه العصبيّة للعرب، ألّبت الأعاجم في البلاد المفتوحة على العرب وأشعلت في نفوسهم عصبية مناوئة للعصبية العربيّة وهي العصبية الأعجميّة أو الشعوبيّة، فأدّت هذه العصبية من الجانبين إلى إثارة الضغائن والأحقاد في صفوف الأمة الإسلاميَّة الواحدة، فتفرّق الشّمل المجتمع وتصدّعت الوحدة المتماسكة.

وكان من نتائج هذه العصبية في الجانبين، استقطاب الأعاجم تحت لواء الدعوة العباسية التي بدأت سنة مئة الهجريَّة (٧١٩م). وشبَّت وترعرعت في خراسان حتى أصبحت قوة ضاربة في عهد مروان، فاستطاعت السيطرة على خراسان وسائر المشرق الإسلامي والعراق، واستطاع جيشها إحراز النصر على جيش مروان، لأنّه جيش له (قضيّة) يقاتل من أجل تحقيقها والدّفاع عنها، ولا عبرة بتعداد الجنود والمقاتلين، فالنصر لأصحاب (القضية)، والهزيمة لمن لا (قضية) له.

وقد كان جيش العباسيين (منظماً) ينخرط في تنظيم واحد، له مبادىء معيّنة يلتزم بها وأهداف معروفة يسعى إلى تحقيقها، بعكس جيش مروان الذي تربطه سجلّات الديوان وحدها وهي رابطة الارتزاق.

والقوة القليلة المنظمة، تنتصر على القوة الكبيرة غير المنظمة، وهذا ما حدث بالنسبة لاندحار جيش مروان وانتصار جيش العباسيّة عليه.

والعصبية العربيَّة هي التي حدت بالشعوبيين إلى تنظيم صفوفهم تحت شعارات معينة لتحقيق أهداف معيّنة، وهي القضاء على العنصر العربي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ب ـ العصبية القبلية:

وهي عصبية أضيق نطاقاً من العصبية العربيَّة، ولكنها أبلغ ضرراً وأشدّ خطراً من العصبية العربيَّة، لأنها تجعل من كل قبيلة أمة مستقلّة، وهي تقتضي من أفراد القبيلة أن يتعاونوا ولو على الباطل، وأن ينصروا المظلوم منهم والظالم، ومعنى ذلك أنها تفرِّق العرب وتجعل بأسهم بينهم شديداً.

وبلغ من خطورة العصبية القبلية وآثارها المدمِّرة أنها كانت سبباً من أهم أسباب قتل خليفة من الخلفاء الأمويين، وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

فقد قُتل خالد القَسْريّ وهو من اليمانية، والوليد بن يزيد من المُضريّة، والعصبية القبلية بين مُضَر واليمن على أشدّها حينذاك، فسُرّ الوليد بمقتل القسريّ وأظهر التشفي والشماتة، وتجلّى ذلك في قصيدة له قال فيها:

شَدَدْنا مُلكُنا ببني نِزارِ ... وقَوَّمْنا بهم مَنْ كان مالا
وهذا خالدٌ أضْحى قَتِيلاً ... ألاّ مَنَعوه[1] إنْ كانوا رجالا
ولكنّ المذلّةَ ضَعْضَعَتْهُم ... فلم يَجِدوا لذلّتهم مقالا[2]

---

(١) الضمير في منعوه: يرجع إلى اليمانيّة.
(٢) الأخبار الطوال للدينوري (٣٣٣).

وهي قصيدة طويلة كان لها في نفوس اليمانيّة أسوأ الأثر، فاجتمعوا في مدن الشَّام، واتّجهوا في جموع من اليمانية كبيرة إلى الخليفة في دمشق. وخرج الوليد إليهم في جموع من المضريّة واقتتلوا قتالاً عنيفاً حاقت به الهزيمة بمُضَر، فتحصّن الوليد بقصره ولكنهم تسلّقوا عليه القصر وقتلوه[1]، فتولى الخلافة يزيد بن الوليد الذي استعان باليمانية.

وكما تعصّب الوليد بن يزيد للمضريّة على اليمانية، تعصب مروان للمضرية على اليمانية أيضاً، فلجأ اليمانية إلى أحضان دعاة بني العباس، وكانوا في جيشهم، بينما كان المضريون في جيش مروان. وهكذا كان الأعاجم واليمانية مع العباسيين. وكانت مُضَر وحدها مع مروان، وكان المفروض أن يكون العرب المسلمون كلهم مع مروان.

ج ـ العصبية العائلية:

خالف مروان سلفه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، فقاد جيشه من إرْمينِيَة والجزيرة إلى العاصمة دمشق، واستطاع بالقوّة أن يجعل إبراهيم يخلع نفسه ويتولّى مروان الخلافة فشق بذلك شقاً في العائلة الأموية لم يستطع رتقه أبداً.

وقد انضم كثير من بني أمية إلى أعداء مروان، فقاتلوا في صفوفهم، وبلغ الانشقاق حداً جعل قسماً منهم ينضم حتى إلى صفوف الخوارج وغيرهم، كما مرّ بنا في الحديث على: الصراع الداخليّ.

وكما خالف مروان سلفه إبراهيم بن الوليد، خالفه عدد غير قليل من بني أميّة وحاربوه حرباً لا هوادة فيها، أدّت فميا أدّت إليه إلى استنزاف قواته.

كما أن قسماً من بني أمية خالفوه في المناطق التي كانوا يتولون

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري (٣٣٣).

إدارتها، كما فعل عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز، الذي شق عصا الطاعة على مروان، وقاتل في العراق قوات مروان.

وكان المفروض أن يكون بنو أميّة مع مروان لا عليه، وكانوا يومئذ قوة ضخمة لا يُستهان بها عَدَداً ومَدَداً.

وللإنصاف نذكر أنّ أول من شق صفوف الأمويين قبل مروان، هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك، الذي قاد ثورة على الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وقتله في قصره، وتولى الخلافة من بعده.

د ـ انحلال الضبط:

نعني بالضبط أو الانضباط أو الطاعة، تنفيذ أوامر القائد دون تردّد عن طيبة خاطر.

وقد انهار الضبط في الجيش الأموي وفي الدَّولة، فلا الجنود ينفّذون أوامر القائد، ولا الناس يخضعون للسلطة.

ولعلّ من أسباب انحلال الضبط وانهياره حرب الاستنزاف بين جيش الدَّولة وبين أعداء الدَّولة التي طالت كثيراً، فأصبحت الحرب هي القاعدة والسلام هو الاستثناء، وكلما طالت الحرب زاد التذمّر وضعف الضبط.

ولعلّ من أسبابه الدعوة السريّة للعباسيين التي استمالت إلى جانبها كثيراً من الناس، وأصبح معتنقوا هذه الدعوة رَتلاً خامساً بين صفوف جيش الحكومة ومكانتها وبين أفراد الشعب، يثيرون الإشاعات، ويثبطون العزائم، وينشرون الفوضى والارتباك.

ومن مظاهر انحلال الضبط، أنّ مروان يولي والياً على العراق، فلا ينصاع السلف للخلف، ويؤدي الخلاف الناشب إلى الاقتتال بين الوالي السابق والوالي الجديد.

ومن مظاهره ما حدث في الأندلس من حرب طاحنة بين مُضَر

واليمن، وتولية الأندلس أميراً لا من الخلافة بل من مراكز القوة في الأندلس!!

ومن مظاهره ما حدث من اقتتال بين جيش الدَّولة والخارجين عليها في الحجاز واليمن ممَّا أدّى إلى ارتباك مواسم الحج ارتباكاً شديداً.

أما في خراسان والمشرق الإسلامي، فقد كانت سلطة الدَّولة في إجازة طويلة!

وكل هذا الانحلال أدّى إلى تردّي معنويات جيش الدَّولة وإلى انهيار الضبط فيه، وتجلّى هذا الانحلال في الضبط فميا ظهر في معركة الزّاب الحاسمة، فما أصدر مروان أمراً إلى قوّاته المحاربة إلاّ ولم يُنفّذ أمره باستهتار عجيب.

وبلغ العصيان حدّاً في تلك المعركة الحاسمة لم يبلغه في معركة أخرى، فالقبائل رفضت تنفيذ أوامر مروان دون استثناء، حتى الرجل الذي كان على شرطته، عصى أوامره عصياناً فاضحاً، والمفروض أنّ مثل هذا الرّجل من أقرب المقربين إلى الخليفة ومن أخلص المخلصين له، ولكنه أثر العافية على الخطر، كأنّه كان واثقاً بأنّ الهزيمة النكراء ستحلّ بمروان وشيكاً.

والجيش الذي يصاب بانحلال الضبط وانهيار المعْنَويَّات لا ينتصر أبداً.

والدَّولة التي تفقد هيبتها لا يمكن أن تبقى أبداً.

هـ ـ تجاوز الاحتياط:

حشد مروان جيشه في الزَّاب لخوض معركته الحاسمة، وكان من حقّه وواجبه أن يحشد كل القادرين على حمل السلاح من أنصاره لخوض تلك المعركة الحاسمة.

ولكنه كان عليه أن يفكر في معارك أخرى، يقاوم بها بالعمق أنصار

العباسيين، فإذا انهزم في معركة الزَّاب، فينبغي أن يخوض معارك أخرى في حلب ودمشق وفلسطين وفي مصر، ويفكّر بإعداد قوات احتياطية، تدافع عن الدَّولة في معارك متعاقبة، وألاّ ينتهي في معركة واحدة كما حدث، ثم يصبح بعد هزيمته شريداً طريداً، ليست لديه قوات احتياطية تدافع عنه وعن الدَّولة كما ينبغي.

والظاهر أنّ مروان لم يفكر بإعداد قوات احتياطية، تقاتل في حالة هزيمته في لقائه الأول والأخير، ولهذا كانت معركة الزَّاب هي معركته الأولى والأخيرة، ثم انتهى أمره وأمر الدَّولة بعد الهزيمة، وأصبح همّه الحفاظ على حياته كأيّ إنسان، يهرب من بلد إلى بلد آخر، وقوات العباسيين تطارده، إلى أن استطاعت قتله في الصعيد من أرض مصر، فانتهى خليفة وانتهت دولة الأمويين.

إن إهمال إعداد قوات احتياطية خطأ فاحش لا يُغتفر لمروان، دفع ثمنه حياته ومصير دولته.

٢ ـ سماته القياديّة:

لا ينبغي أن يُحكم على سمات مروان القيادية بمناقشة معركة الزَّاب الحاسمة التي خسرها مروان، لأنه خاض معارك كثيرة من معارك الفتح واستعادة الفتح ولتوطيد الأمن الداخلي، وينبغي استنتاج سماته القيادية من دراسة معاركه كافة لا من دراسة معركة واحدة.

ويبدو أن مروان كان قائداً متميِّزاً في مزاياه القيادية حين كان والياً على إِرْمينِيَة وأذربيجان والجزيرة، ونتائج معاركه التي خاضها هناك تؤيِّد مزاياه القيادية المتميِّزة وتشهد عليها، لأنه فتح فتحاً جديداً، واستعاد فتح مناطق شاسعة انتقضت على الدَّولة، وأعاد الأمن والاستقرار والنظام إلى ربوع الأقاليم التي يتولّى حكمها، وسرّ نجاحه في مهمته قائداً وإدارياً، أنه كان متفرِّغاً للواجبات القيادية والإدارية، لا تشغله السياسة العليا عن هذه المهمّة.

فلما تولى مروان الخلافة، خَفَتَ بريقُ قيادته بالتدريج، لأنّه شُغل بتوطيد الأمن الداخلي وبمصاولة الثورات المحليّة، في معارك طاحنة يخسر الجانبان فيها في الاقتتال، ولا رابح فيها لجانب دون آخر، لأنّ السيوف العربيَّة والإسلاميَّة أصبحت على العرب والمسلمين لا على أعدائهم، فتوقف الفتح واستعادة الفتح، وتنفس أعداء المسلمين الصعداء، فقد أصبح المسلمون بأسهم بينهم شديداً، يحسبهم غيرهم جميعاً وقلوبهم شتى!

لقد كان مروان قائداً لامعاً حين تفرّغ للقيادة والإدارة، ولكنه أصبح قائداً مهزوماً حين تفرّغ للسياسة وأصبحت القيادة من واجباته الثانوية، وهكذا تفسد السياسة كلّ شيء تتدخل فيه، وبخاصة العسكريَّة التي هي بحاجة إلى التفرّغ الكامل، فإذا تدخّلت السياسة بالعسكريَّة، فسدت السياسة وأفسدت العسكريَّة، وتاريخ الحرب قديماً وحديثاً خير دليل.

وقد شهد المؤرخون على كفاية مروان القيادية في مدّة ولايته على إِرْمِينِيَة وأذربيجان والجزيرة من سنة أربعة عشرة ومئة الهجريَّة إلى سبع وعشرين ومئة الهجريَّة، فذكروا: أنه فتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعدِّدة في سنين كثيرة، وكان لا يفارق الغزو في سبيل اللّه، وقاتل طوائف من الناس الكفّار ومن الترك والخزر واللان وغيرهم، فكسرهم وقهرهم. وقد كان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي[١]. وكان بطلاً شجاعاً، ذكره الخليفة أبو جعفر المنصور مرّةً فقال: للّه درّه! ما كان أحزمه وأسوسه وأعفّه عن الفيء[٢].

وكان مروان مجرّباً صابراً على التّعب والنصب[٣]، وكان شجاعاً

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ١٧).
(٢) العبر (١/ ١٧٨).
(٣) التنبيه والإشراف (٣٢٨).

حازماً إلاّ أنّ مدّته انقضت فلم ينفعه حزمه ولا شجاعته[1].

تلك هي سماته القيادية التي نوّه بها المؤرخون والتي برزت أيام ولايته، ولم تَتَخَلَّ عنه بالطبع هذه السمات المتميِّزة بعد أن تولّى الخلافة، ولكن السياسة طغت عليها فغطّتها بحجاب كثيف وحجبتها عن الأنظار.

لقد كان قائداً فاتحاً، حريصاً على الغزو أعظم الحرص، منتصراً على أمم شتى من الترك والخزر واللان وغيرهم، شجاعاً بطلاً مقداماً حازماً، صابراً على التّعب والنّصب، أميناً على الغنائم.

والحصول على المعلومات عن العدو، مهمّة شاقّة للغاية، تعمل عدّة أجهزة من أجهزة الجيش على تحقيقها، كالعيون والأرصاد ومفارز الاستطلاع المختلفة والاستطلاع الشخصيّ وقد تميّز مروان بقابليته الفذّة على حزر تعداد عدوه بسرعة وسهولة ويسر وبمنتهى الدقّة أيضاً.

ذكر كاتب مروان مُصْعَب بن الربيع الخثعميّ قال: لمّا انهزم مروان وظهر عبد اللّه بن علي العباسي على الشّام، طلبتُ الأمان فآمنني، فإني يوماً جالس عنده، وهو مُتّكيء، إذ ذكر مروان وانهزامه، قال: أشهدت القتال؟ قلت: نعم أصلح اللّه الأمير! فقال: حدّثني عنه! قلت: لمّا كان ذلك اليوم قال لي: احزر القوم! فقلتُ: إنما أنا صاحب قلم، ولستُ صاحبَ حرب، فأخذ يمنة ويسرة ونظر فقال: هم اثنا عشر ألفاً! فجلس عبد اللّه، ثم قال: ما له قاتله اللّه! ما أحصى الديوان يومئذٍ فضلاً عن اثني عشر ألف رجل[2].

والقائد الذي يتمتع بهذه المزيّة في معرفة تعداد عدوّه، يستطيع أن يُعدّ خطّته على هدى وبصيرة، لأنه أحرز على أهمّ المعلومات عن عدوّه، فيختصر الطريق في إعداد خطّته السريعة السليمة لمصاولة ذلك العدو.

---

(١) ابن الأثير (٥/٤٢٩).
(٢) الطبري (٥/٤٣٩).

وهذه المزيّة إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على ذكاء القائد وتمتّعه بالتجربة العملية في علومه العسكريَّة النظرية.

ومن دراسة المعارك التي خاضها مروان، نستطيع أن نستنتج أنه كان حذراً يقظاً، لا يسير إلاّ على تعبية، ليحرم العدو من مباغتة قواته، فلا يستطيع عدوّه أن يباغته في الحرب.

فقد حاول رجال سليمان بن هشام بن عبد الملك أن يبيتوا جيش مروان، فلم يفلحوا في محاولتهم.

وكان مروان ذا رأي ومكيدة، ولعلّ إرساله ثلاثة آلاف فارس، التفوا حول حماة دمشق عندما أراد مروان الاستيلاء عليها، فضربوا جيش دمشق في وقت لا يتوقعونه ومن مكان لا يتوقّعونه أيضاً، دليل على ما يتمتّع به مروان من رأي ومكيدة في إعداد خططه العسكريَّة وتنفيذها[1].

وكان تنفيذ خطة الالتفاف التي أعدّها مروان مباغتة كاملة بالمكان والزّمان معاً.

وما دمنا في مجال الحديث عن المباغتة، التي هي أهمّ مبدأ من مبادىء الحرب على الإطلاق، فقد باغت مروان الخزر في بلادهم، بإظهار مهادنتهم علناً، واستعداده لحربهم سرّاً، وتأخير وفدهم، ثم ترحيلهم على طريق طويل، بحيث وصلوا إلى ملك الخزر في الوقت الذي وصل إليه مروان، دون أن يترك له الوقت الكافي للإستعداد، ممّا أدّى إلى اندحار الخزر اندحاراً كاملاً وانتصار مروان انتصاراً مؤزراً، لأنّ مروان باغت الخزر بالزمان مباغتة لم تترك أمامهم غير الرضوخ إلى مروان[2].

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢) وابن الأثير (٥/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).
(٢) انظر فتوح البلدان (٢٩٢ ـ ٢٩٤) وابن الأثير (٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦١).

وقد كان مروان في مدّة ولايته على إِرْمينِيَة وأذربيجان والجزيرة يطبّق مبدأ: اختيار المقصد وإدامته، تطبيقاً جيداً، فكان مقصده في معاركه كسر شوكة المخالفين في ولايته وإعادتهم إلى طاعة الدَّولة، وفرض هيبة الدَّولة في المناطق التي يحكمها، فنجح في تحقيق مقصده أعظم النجاح.

وكان يطبق مبدأ: التعرّض تطبيقاً مثالياً، فلا يكاد يسمع بحشود معادية في منطقة من مناطق ولايته المترامية الأطراف، إلاّ ويبادر إلى التعرّض، لإحباط نياتها في الانتفاض والثورة.

وكان يطبق مبدأ: حشد القوة، فيحشد رجاله في المكان المناسب والزمان المناسب بكمية من المقاتلين والمعدّات كافية لتحقيق المقصد المطلوب، فما خاب في معركة واحدة في مدة ولايته، وانتصر في جميع المعارك التي خاضها بسهولة ويسر على أعدائه.

وكان يطبّق مبدأ، الاقتصاد في المجهود، فلا إسراف في الحشد ولا تقصير فيه، بل يقتصر على حشد القوات المناسبة لتنفيذ المقصد المناسب.

وكان يطبق مبدأ: الأمن، فكان حذراً يقظاً لا يسير إلاّ على تعبية، يعجز عدوّه عن تبييته أو مباغتته، وعلى العكس من ذلك، فقد استطاع مروان في كثير من عمليّاته العسكريَّة مباغتة أعدائه وتبييتهم.

وكان يطبق مبدأ: المرونة، فلم تكن خططه التعبوية جامدة، بل كانت مرنة يحوِّرها بحسب ظروف المعركة وتطوّرها.

وكان يطبّق مبدأ: التعاون بين قواته التي يقودها، وبين هذه القوات والقوات المحليّة للبلاد المفتوحة، ويعتبر مروان أوّل من نظَم واجبات القوات المحلية للتعاون مع قواته الأصلية، بحيث تعرف كلُ قوة من تلك القوات المحلية واجبها بالضبط، دون التباس أو غموض.

وكان يطبق مبدأ: إدامة المعْنَوِيَّات بالنصر، فنجح في ذلك نجاحاً

باهراً يوم كان والياً، ولكنه لم ينجح في إدامة المعْنَوِيَّات بعد أن أصبح في قمة السلطة العليا خليفة للمسلمين.

وكان يطبق مبدأ: الأمور الإدارية، تطبيقاً رائعاً، فلم يعرف عن جيش قاده في وقت من الأوقات أنه جاع أو عطش أو عانى نقصاً من شؤونه الإدارية.

تلك هي قابلية مروان المتميِّزة في تطبيق: مبادىء الحرب.

أما سجاياه القيادية الأخرى، فقد كان سريع القرار، وكانت قراراته صحيحة سليمة في كل معاركه التي خاضها عدا معركة (الزّاب)، فقد كانت قراراته خاطئة للغاية، لأنه كان مرتبكاً في هذه المعركة، أمله بالنصر قليل، ومعنوياته منهارة، ولأن رجاله تخلّوا عن تنفيذ أوامره في أحرج الأوقات وأخطرها.

وكان شجاعاً بطلاً، لا غبار على شجاعته الشخصية، إلاّ في معركة الزَّاب، فقد انهزم من ساحة المعركة، فلطّخ سيرته بعار الهزيمة التي لا تناسب خليفة من الخلفاء لذلك رفض أهل الموصل السماح له وللمنهزمين من رجاله لعبور دجلة عن طريق مدينتهم، لأنهم لم يصدِّقوا أن الخليفة يمكن أن ينهزم، فقال قائلهم لرجاله المنهزمين معه، كذبتُم! أمير المؤمنين لا يفرّ[1].

وكان ذا إرادة قوية ثابتة، يتحمل المسؤولية كاملة دون تردّد أو تملّص، يتمتع بمزية سبق النظر، فيحسب لكل أمرٍ حسابه ويُعدّ له عدّته، ويتمتّع بشخصية قوية نافذة.

ولعلّ من أبرز سماته القيادية، هي مزية تحمل المشاق والصبر عليها، فقد كان: صابراً على التعب والنّصب[2].

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٤٢٤).

(٢) التنبيه والإشراف (٣٢٨).

ولكنه لم يكن يتبادل الثقة الكاملة بينه وبين رجاله، ولا المحبة المتبادلة، لأنه كان ظالماً[1]، صارماً[2]، وكان يُغري بين القبائل ويُغضب بين العشائر، واصطفى قيس عَيْلان وانحرف عن اليمن وبادأها العداوة، فصارت عليه إلباً، وعليه حرباً[3].

لهذا تخلّى عنه رجاله في أحرج الأوقات والظروف: في معركة الزّاب الحاسمة ولم يقاتل ولاته على المدن والأمصار كما ينبغي، بل استسلموا دون مقاومة تذكر لجيش بني العباس.

لقد كان الناس يهابون مروان ويخافونه خوفاً شديدا حين كان في السلطة قوياً، لأنه كان ظالماً لا يبالي بالقتل والصّلب، حتى صَلَبَ الموتى والقتلى أيضاً، كما جرى في معركة حِمْص عندما نكث أهلها، فقد صلب خمسمائة من القتلى حول المدينة وهدم قسماً من سور المدينة[4] انتقاماً من أهلها.

وبالغ في القتل مبالغة جعلت القلوب التي حوله تتغيّر عليه سراً وتظهر له الولاء علناً، أما الذين كانوا مع الأعداء، فقد قاتلوه بعنف وشدّة، لأنّه صدّع قلوبهم بالظلم والتعصّب والانتقام.

ولكن حين أصبح ضعيفاً، وبدت بوادر انهيار سلطته، خلع الناس عنهم لباس الخوف، وكشفوا له ولأعوانه نياتهم، فهؤلاء الذين بقوا حول مروان مضطرين اضطراراً، ولم يستطيعوا التخلّي عنه نظراً لظروفهم الخاصة أو لأسباب قاهرة، وهم أهل الشّام، أقرب المقربين إلى بني أمية وحماة دولتهم وقاعدتهم الأمنية، وبذلوا قصارى جهدهم للتخلص من

---

(١) العبر (١/ ١٧٨).
(٢) البداية والنهاية (/٤٧).
(٣) التنبيه والإشراف (٣٢٨).
(٤) ابن الأثير (٥/ ٣٢٩).

مروان، فقدم جنودهم إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان في جيش مروان، فاتصلوا به سراً وحسّنوا له خلع مروان وشجّعوه عليه، وقالوا له: أنت أرضى عند الناس من مروان وأولى بالخلافة، فأجابهم إلى ذلك، فسار بإخوانه ومواليه معهم، فعسكر بقنسرين، وكاتب أهل الشّام، فأتوه من كلّ وجه[1].

وبلغت درجة بغض مروان من أبناء شعبه، أنّ قسماً من بني أميّة لجؤوا إلى أعدائه وقاتلوه إلى جانبهم، حتى أنّ قسماً منهم لم يتورّع عن اللجوء للخوارج والصلاة خلفهم والقتال إلى جانبهم، لا محبة بهم بل كرهاً لمروان.

والقائد الذي لا يحبه رجاله ولا يثقون به، لا يمكن أن ينتصر أبداً.

ولعلّ مروان وما حاق به، يكون عبرة للمعتبر.

وأخيراً، لم يكن مروان يتمتع بمزية المقدرة على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب وبرز هذا النقص فيه واضحاً جلياً أيام خلافته، فقد كان بحاجة ماسة إلى كفايات عالية تسيطر على أجزاء دولته الشاسعة، فولى من لا كفاية له، وأهمل أصحاب الكفايات الرفيعة، فأسلمه قادته، وولاته الإمّعات إلى مصيره المؤلم في أحرج الظروف والأحوال.

مروان في التاريخ

يذكر التاريخ لمروان أنه فاتح قُونِيَة من أرض الرّوم، وكَمْخ من أرض الجزيرة.

ويذكر له أنه استعاد فتح كثير من إِرْمِينِيَة وأذربيجان والجزيرة، ووطّد أركان الأمن والاستقرار فيها.

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٣٣١).

ويذكر له أنه تولى إِرْمِينِيَة وأذربيجان والجزيرة ثلاث عشرة سنة، نعمت فيه تلك المناطق بالهدوء والاستقرار والأمن بشكل لم تنعم به من قبله ولا من بعده.

ويذكر له أنه مزّق بني أميّة إرضاءً لطموحه غير المشروع في تولي الخلافة فلمّا تولاها كانت وبالاً عليه وعلى الدَّولة القائمة.

ويذكر له أنه يخافه الناس حين كان قوياً في سلطته، فلمّا ضعف تخلّى عنه الناس وأسلموه لأعدائه.

ويذكر له أنه كان قائداً لامعاً وإدارياً حازماً في ولايته، لأنه كان متفرّغاً للقيادة والإدارة.

فلما تولى الخلافة شغلته السياسة عن واجباته إدارياً وقائداً، فأتلف نفسه وأودى بآل بيته وقرض الدَّولة القائمة.

إنه مضى إلى غير رجعته، ولكن عبرته في التاريخ باقية ما بقي التاريخ.

عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان
فاتح شطر بلاد الرّوم

نسبه وأيامه الأولى

هو عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ القرشي الأمويّ[1].

أبوه: أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أعظم خلفاء بني أميّة فتحاً، وأكثرهم جهاداً.

وأمه: أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان بن الحكم[2]، فهو أموي من جهة الأب ومن جهة الأم أيضاً.

نشأ وترعرع في أحضان البيت المالك: أبوه خليفة، وجدّه خليفة، وجدّ أبيه خليفة، وأهل بيته خلفاء وأمراء وقادة وولاة.

وعاش أيامه الأولى في العصر الذهبيّ للأمويين: أيام استعادة (الوحدة) والاستقرار للدولة الإسلاميَّة، التي استعادها عبد الملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين الهجريَّة[3] (٦٩٢م) بعد فتن واضطرابات داخلية طاحنة

---

(١) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ ـ ١٠٥) وفوات الوفيات (١/ ٢١) وتهذيب ابن عساكر (٣/ ٢٠٢).

(٢) الطبري (٦/ ٤٩٦) والعيون والحدائق (١٢).

(٣) انظر التفاصيل في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ١١٣ ـ ١١٤).

وضع حداً لها بما عرف عنه من كفاية عالية وحنكة ودهاء[1].

وقد كان عبد الملك بن مروان يدفع الأتاوة لإمبراطور الرّوم في (القِسطنطينية) منذ توليه الخلافة حتى استعاد (الوحدة)[2]، فانطلق الفتح الإسلامي بعد سنة (الوحدة) حتى توفي عبد الملك بن مروان سنة ست وثمانين الهجريَّة[3] (٧٠٥م)، فاستأنف هذا الفتح الوليد بن عبد الملك الذي فتحت في أيامه فتوحات عظيمة[4]، فكانت أيامه في الفتح كأيام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه انطلاقاً وسرعةً وضخامةً.

وفي هذا المناخ الذي يتّسم بالاستقرار والفتح، نشأ عبد العزيز وترعرع، في ظروف ملائمة لاستكمال مزاياه الشخصية بالعلم والتدريب.

وكان التعليم النظري لاستيعاب العلوم المتيسرة السائدة ميسوراً حينذاك ليس لبني أمية وحدهم، بل لسائر الناس، وربما يكون الفرق الوحيد بين تعليم أبناء الخلفاء وغيرهم من المسلمين، هو أنّ أبناء الخلفاء يتلقّون العلم على أساطين العلماء وجهابذة الشيوخ، فقد استقدم الوليد بن عبد الملك صالح بن كَيْسَان وضمّه إلى ابنه عبد العزيز ليؤدبه ويعلمه[5]، وصالح هذا أحد الثقاة العلماء[6]، وكان جامعاً من الحديث والفقه والمروءة[7]، وكان من فقهاء المدينة المعدودين، وقد استقدمه الوليد بن عبد الملك من (المدينة) المنوَّرة خصِّيصاً لابنه عبد العزيز[8].

---

(١) ابن خلدون (٣/١٥٣ ـ ١٥٤).

(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٩١) وتاريخ الخميس (٢/ ٣١١) والعبر (١/ ١٠٢) وشذرات الذهب (١/ ٩٧).

(٣) الطبري (٦/ ٤٩٦) وابن خلدون (٥/ ٩) وابن خلدون (٣/ ١٤٨) البداية والنهاية (٩/ ١٦٤).

(٤) الطبري (٦/ ٤٩٦) وابن الأثير (٥/ ٩) وابن خلدون (٣/ ١٤٨) والبداية والنهاية (٩/ ١٦٤).

(٥) المحبر (٤٧٧).

(٦) ميزان الاعتدال للذهبي (١/ ٤٥٩).

(٧) تهذيب التهذيب (٤/ ٣٩٩).

(٨) المحبّر (٤٧٧).

وقد نشأ عبد العزيز في (دمشق) عاصمة الخلافة، ليتعلّم القرآن وعلومه، وكان أبوه شديد الاهتمام بحفظ القرآن وتلاوته: يبرّ حملة القرآن ويكرمهم ويحمل عنهم ديونهم[1]، ويختم القرآن كثيراً في رمضان وفي سائر الأيام[2]، ويشجِّع الناس على حفظه[3]، فلا عجب أن يهتم اهتماماً بالغاً بتعليم ابنه عبد العزيز القرآن وعلومه على أبرع العلماء، كما درس عبد العزيز الحديث النبوي الشّريف وعلومه، وتعلّم التاريخ والسِّيَر وأيام العرب قبل الإسلام وبعده، واتقن علوم اللغة العربيَّة صَرْفاً ونحْواً وبلاغةً وبياناً وشعراً ونثراً، كما تعلم فنون الأدب في مجال الشعر والنثر، وحفظ نماذج من نتاج الخطباء والأدباء والشعراء، ولم يغفل الحساب والهندسة وتقويم البلدان.

وكان الخلفاء في تلك الأيام، يعتبرون اللّحن في اللغة عيباً من أشنع العيوب، كما كانوا يهتمون بحفظ القرآن الكريم وتفسيره، والحديث الشريف وحفظ ما تيسر منه، كما كانوا يروون البليغ من كلام العرب شعراً ونثراً، ويبذلون غاية جهودهم لتعليم أولادهم ومن يلوذ بهم هذه العلوم والآداب والفنون.

وكما كان الخلفاء يحرصون على تعليم أولادهم العلوم المختلفة والآداب والفنون، كانوا يحرصون أيضاً على تعليم أولادهم العلوم العسكريَّة والعملية والنظرية.

وقد تعلّم عبد العزيز العلوم العسكريَّة النظرية: إقامة المعسكرات تنظيم المعسكر، اختيار مناطق التعسكر وشروط المعسكر الجيّد، فنون التعبية كإخراج المقدمات والمؤخرات والمجنبات، وأساليب الحماية، والاستفادة من الأرض وزرع الربايا والكمائن، ومعالجة المشاكل غير المتوقعة، وتأمين القضايا الإدارية في الميدان، وطرق رفع

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٦٥).
(٢) البداية والنهاية (٩/ ١٦٢).
(٣) الطبري (٦/ ٤٩٦).

المعْنَوِيَّات. . . . إلخ. وكل هذه العلوم تلقّن من قادة مجربين لهم في الحروب باع طويل.

كما تدرّب على الفنون العسكريَّة العملية: ركوب الخيل، والرمي بالسِّهام، والتصويب الدقيق، والضرب بالسيوف، والطّعن بالرِّماح، والسِّباحة، وتحمل المشاق العسكريَّة: سيراً على الأقدام مسافات طويلة في أيام متعاقبة وظروف قاسية صيفا وشتاءً، والحرمان من الطعام والشراب مدة من الزمن، وتناول الطعام الخشن والماء العسر، والابتعاد عن المأكل الليِّن والشراب السّائغ، وهذا ما نطلق عليه في المصطلحات الحَدِيثَة تعبير: التدريب العنيف.

ولكن هذا التدريب العسكري وحده لا يكفي، لأنه تدريب (فرديّ) فلا بدّ من تلقِّي التدريب (الإجمالي)، وهو ممارسة الجهاد قائداً وجندياً في ساحة القتال، ليطبق ما تعلمه (فرداً) من فنون عسكريَّة عملية، على القتال ضمن المحاربين تطبيقاً عملياً، وهذا ما نطلق عليه: تطعيم المعركة. . . . إذ لا فائدة من التدريب الفردي، إلاّ إذا طُبِّق عملياً في التدريب الإجمالي، وأفضل أنواع التدريب الإجمالي هو ممارسة القتال عملياً.

وقد كان أسلوب التدريب على القتال شائعاً في أيام خلفاء بني أمية عامَّة بالنسبة لأولاد الخلفاء، أما الوليد بن عبد الملك فقد دأب على زج أولاده في معارك الجهاد، وكان يرسل بنيه في كل غزوة إلى بلاد الروم[1]، وقد أرسل عبد العزيز في غزوة تدريبية للعمل تحت إشراف عمه مَسْلَمَة بن عبد الملك، فلمّا وثق بقدرته القيادية ولاّه غزوة مستقلّة، كما سيرد تفصيل ذلك في: جهاد عبد العزيز.

وقد كان التدريب العملي في الأمور السياسية والإدارية ميسوراً لعبد العزيز، فهو إلى جانب أبيه الخليفة وقريب منه، والخليفة كان هو

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٦٤).

المرجع الأعلى في تصريف تلك الأمور، وعنه تصدر القرارات الخطيرة، كما أنه كان إلى جانب الحكّام من بني أمية وغيرهم، فكان يرى ويسمع ما يحدث في القمة من تصريف أمور الدَّولة، وهذه تجارب عملية مفيدة له أعظم الفائدة في تكوين شخصيته وإكمال تعلّمه وتدريبه.

لقد تهيَّأ لعبد العزيز العلم المكتسب والتدريب العملي والتجربة، ممَّا كان له أثر عميق في تكوين شخصيته قائداً وإدارياً وسياسيّاً.

جهاده

١ ـ في سنة إحدى وتسعين الهجريَّة (٧٠٩م) غزا عبد العزيز الصائفة[١]، وكان على الجيش مَسْلَمَة بن عبد الملك[٢]، وكان ميدان هذه الغزوة أرض الرّوم.

ولكن هذه الغزوة لم تقتصر على بلاد الرّوم، بل تغلغلت باتجاه الشمال الشرقي مخترقة (أذربيجان)[٣] حتى بلغ مَسْلَمَة ومعه عبد العزيز مدينة (الباب)[٤]، فَفُتِح على يديهما مدائن وحصون[٥].

---

(١) الصائفة: الغزوة في الصيف، وبها سميت غزوة الروم، لأنهم يغزون صيفاً اتقاء البرد والثلج.

(٢) الطبري (٦/ ٥٥٤) وابن الأثير (٤/ ٥٥٥) والبداية والنهاية (٩/ ٨١) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٢).

(٣) أذربيجان: معناها في الفارسية أرض النار أو معابد النار، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك، وأذربيجان: صقع جليل ومملكة عظيمة، والغالب عليها الجبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٥٩) والمسالك والممالك للإصطخري (١٠٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤).

(٤) الباب: مدينة باب الأبواب، ميناء كبير على بحر الخزر، وهي مدينة كبيرة محصّنة، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (١٠٩ ـ ١١٩) ومعجم البلدان (٢/ ٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٦)، وهي مدينة دربند كما يطلق عليها في الوقت الحاضر.

(٥) الطبري (٦/ ٤٥٤) وابن الأثير (٤/ ٥٥٥) وابن خلدون (٣/ ١٥٤) والبداية والنهاية (٩/ ٨١) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٢) وانظر تاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢).

وكانت هذه الغزوة بالنسبة لعبد العزيز غزوة تدريبية على فنون القتال، تعلّم فيها الكثير من أبرز قادة الأمويين في أيامه مَسْلَمَة بن عبد الملك، وأغنى بها تجربته العملية.

وكان في غزوته هذه قائداً مرؤوساً على قسم من جيش مَسْلَمَة، ومن المحتمل أن يكون على جيش (دمشق)، لأنه كان على هذه المدينة في أيام والده الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان.

وقد شهد عن كثب كيف تدار المعارك، وكيف يجري القتال، وما هي التدابير التعبوية التي يتخذها القائد في مسير الاقتراب وفي القتال وفي العودة بعد انتهاء الواجب، وما هي التدابير الإدارية في اختيار المعسكرات والتعسكر والتموين والتنقل وإخلاء الجرحى.

ومن الواضح أنه تحمّل أعباء كثير من الواجبات الإدارية والقتالية قبل نشوب القتال وفي أثنائه وبعده، قائداً لقسم من الجيش الغازي.

وهذا هو الأسلوب الناجع لتدريب القادة على فنون القتال، وأفضل طريقة لأسلوب تطعيم المعركة.

والظاهر أنه أثبت جدارة في مهمته التي جرت بإشراف عمه مَسْلَمَة، وهو قائد متمرّس قدير.

٢ ـ وفي سنة أربع وتسعين الهجريَّة (٧١٢م) غزا عبد العزيز بلاد الرّوم، فبلغ حصن (غزالة)[١] في هذه الغزوة[٢] وفتحها[٣].

---

(١) غزالة: لا ذكر لهذا الحصن في المصادر الجغرافية القديمة المتيسرة بين أيدينا، والظاهر أنه حصن صغير ثانوي، وهي غزالة في منطقة (ملطية) من أرض الروم، انظر ابن خلدون (٣/ ١٥٤).

(٢) الطبري (٦/ ٤٨٣) وابن الأثير (٤/ ٥٨٢) وتاريخ ابن خياط (١/ ٣١١) وابن خلدون (٣/ ١٥٤).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ٩٥) وابن خلدون (٣/ ١٥٤).

ومن المعروف أنّ هذا الحصن كان قد فتحه سنة ثمان وثمانين الهجريَّة (٧٠٧م) مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان[١]، ممَّا يدل على أنّ الرّوم استعادوه من المسلمين بعد فتحه، فأعاده عبد العزيز إلى سيطرة المسلمين مرة أخرى.

لقد كانت حياة عبد العزيز في مجال القيادة قصيرة حقاً، فما الذي صرفه عن تلك الحياة الخصبة المثمرة؟!

الإنسان

كان عبد العزيز بالنسبة إلى والده الوليد بن عبد الملك أفضل أولاده، فكان حين يذكر ولده يقول: عبد العزيز سيِّدهم[٢].

وقد بذل الوليد بن عبد الملك قصارى جهده لتعليم ولده عبد العزيز، فاستقدم لتأديبه أبرز علماء المدينة المنوَّرة في حينه إلى (دمشق) وأوكل إليه تأديبه ـ كما ذكرنا ـ بالإضافة إلى أبرز علماء عاصمة الأمويين (دمشق) الذين اختارهم الوليد لتأديب ولده، ممَّا يدل على أنّ الوليد أولى ابنه عبد العزيز عناية خاصة ميّزه بها على سائر إخوته.

ولكي يكون قريباً منه يحظى برعايته الكاملة، ولاّه (دمشق)، فبقي عبد العزيز في منصبه هذا حتى مات الوليد[٣] سنة ست وتسعين الهجريَّة[٤] (٧١٤م).

ولا بدّ أن يكون عبد العزيز استحوذ على ثقة أبيه الوليد، فأراد أن يخلع أخاه سليمان بن عبد الملك ويبايع لولده عبد العزيز، فأبى سليمان. وكتب الوليد إلى عُمّاله ودعا الناس إلى ذلك، فلم يجبْهُ إلاّ الحجاج بن يوسف الثقفي وقُتيبة بن مسلم الباهلي وخواص من الناس. وكتب إلى

---

(١) الطبري (٦/ ٤٣٦) وابن الأثير (٤/ ٥٣٢).
(٢) العيون والحدائق (١٤٩).
(٣) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣١٦).
(٤) الطبري (٦/ ٤٩٥) وابن الأثير (٥/ ٨) والعبر (١/ ١١٢).

سليمان يأمره بالقدوم عليه، فأبطأ وتلكّأ، فعزم الوليد على المسير إليه ليخلعه وأخرج خِيمه، فمات قبل أن يسير إليه[1].

ولم يكن خلع سليمان بن عبد الملك عن ولاية العهد أمراً سهلاً، فقد كان الوليد وسليمان وليّي عهد عبد الملك بن مروان[2]، وفي عنق الناس بيعة سليمان والوليد على حد سواء، فليس من السهل التخلي عن هذه البيعة. وركوب الوليد مخاطر خلع سليمان، يدل على مبلغ ثقته بعبد العزيز، واستعداده لذلك كل جهوده من أجله.

ولم يكن الوليد ليحرص على أن يخلفه عبد العزيز، ويركب من أجل تحقيق هذا الهدف أصعب المراكب، ويعرّض نفسه والدَّولة إلى احتمال نشوب تمرد يقوده سليمان وأنصاره، وإلى احتمال تذمر الناس من فعلته، فقد نصحه أحد المقربين إليه بقوله: إنّ الناس لا يجيبونك إلى هذا، ولو أجابوك لم آمنهم على الغدر بابنك[3] إلاّ لثقته الكاملة بابنه عبد العزيز وحبّه الشديد له، وهذه الثقة لا تأتي عفواً ولا تكون لأسباب عاطفية، فلا بد أنّ عبد العزيز حازها لأنه أثبت جدارته في تولي الخلافة ذكاء وفطنة وقابلية إدارية وعسكريّة وسياسية، بعد أن جرّبه أبوه الوليد في تلك المجالات كافة، فنجح قائداً وإدارياً وسياسياً.

ويبدو أنه كان ملتزماً بتعاليم الدِّين الحنيف، بعيداً على مزالق الشباب، والدليل على ذلك أنّ أباه ولاّه إمرة الحج سنة ثلاثة وتسعين الهجريّة[4] (٧١١م)، واختلف فيمن حجّ بالناس سنة أربع وتسعين الهجريّة

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩)، وانظر ابن الأثير (٥/ ١٠) والعيون والحدائق (٨٢) والعقد الفريد (٤/ ٤٢٣) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٣٣).

(٢) الطبري (٦/ ٤٩٨).

(٣) الطبري (٦/ ٤٩٩).

(٤) الطبري (٦/ ٤٨٢) وابن الأثير (٤/ ٥٧٨) وتاريخ ابن خياط (١/ ٣٠٩) والنجوم والزاهرة (١/ ٢٢٧) والمحبّر (٢٦).

(٧١٢م)، فقيل: مَسْلَمَة بن عبد الملك أو عبد العزيز بن الوليد[١]، ولا يمكن أن يتولى الحج بالناس إلاّ متديّن عميق التدين.

وكاد يزيد بن عبد الملك سنة ثلاث ومئة الهجريَّة (٧٢١م) أن يعهد إليه بولاية العهد ليتولى الخلافة من بعده، ولكن مَسْلَمَة بن عبد الملك صرفه عن عزمه قائلاً: أيهما أحبّ إليك، أخوك أم ابن أخيك؟، فقال يزيد: بل أخي، ثم عهد لأخيه هشام بن عبد الملك من بعده[٢].

ولا يمكن أن يفكر يزيد بن عبد الملك أن يعهد بولاية العهد لعبد العزيز مفضلاً إياه على إخوته، لو لم يكن عبد العزيز متحلياً بمزايا تؤهله لتولي هذا المنصب الرفيع.

ولعل أفضل وصف لعبد العزيز ما قاله رجل من أهل الشَّام: ليس من ولد الوليد أحدٌ إلاّ مَنْ رآه يحسب أنه أفضل أهل بيته، ولو وُزِنَ بهم أجمعين عبد العزيز لرجَحَهُم[٣].

لا عجب ـ وتلك هي مزاياه ـ أن يثق بنفسه كاملة، وأن يعرف قدره ومكانته، فيرى أنه أحق بالخلافة من سائر بني أمية بعد موت سليمان بن عبد الملك.

فقد بلغ عبد العزيز ـ وكان غائباً ـ موت سليمان بن عبد الملك، ولم يعلم ببيعة الناس لعمر بن عبد العزيز وعهد سليمان إلى عمر، فعقد لواء ودعا إلى نفسه، ثم بلغته بيعة الناس عمر بعهد سليمان، فأقبل حتى دخل على عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: قد بلغني أنك كنت بايعت مَنْ قِبَلك، وأردت دخول دمشق!، فقال: قد كان ذاك، وذلك أنه بلغني أنّ الخليفة سليمان لم يكن قد عَقَدَ لأحد، فخفت على الأموال أن تُنْتَهَب، فقال عمر: لو بويعتَ وقمتَ بالأمر ما نازعتك ذلك، ولقعدتُ في

---

(١) الطبري (٦/ ٤٩١).
(٢) ابن الأثير (٥/ ٩١) والعقد الفريد (٤/ ٤٤٢).
(٣) العقد الفريد (٤/ ٤٢٣).

بيتي، فقال عبد العزيز: ما أحبّ أنه ولي هذا الأمر غيرُك، وبايع عمر[1].

وهكذا تخضع الرجولة المتكاملة للحق عندما يظهر لها دون تردّد، ولكنها لا ترضخ بالتنازل عن حقِّها قبل أن ينبلج لها الحق واضحاً جلياً. فهي تطالب بحقوقها عندما ترى الحق معها، ولكنها تتخلى عن مطالبتها إذا وجدت مَن هو أحق منها، وهذا دليل على قوة الشخصية السوِيّة التي تخضع للحق ولا تخضع لغير الحق.

وقد مدحه الشعراء، ولست أجهل أن مدائحهم ـ وبخاصة لذوي السلطان ـ لا تنطبق على الواقع ولا تصلح أن تكون دليلاً على أنّ مَن مدحوهم يتحلّون بالسجايا الواردة في قصائدهم، وأنّ وراء تلك المدائح رغبة أو رهبة أو تزلفاً، ولكن بعد حديثنا عن سجايا عبد العزيز، لا بدّ من ذكر لمحات من الشعر الذي قيل في مدحه، لا للاعتماد على ما ورد فيها من مديح دليلاً على سجاياه، لأن سجاياه برزت قبل إيراد شواهد المديح، بل لتكون الأمثلة الشعرية في مدحه آخر الدلائل على سجاياه حسب.

فقد أراد الوليد أن يكون عبد العزيز وليّ عهده، فدسّ في ذلك القوّاد والشعراء، فقال جرير:

إذا قيل أيّ الناس خير خليفة خليفة؟ أشارت إلى عبد العزيز الأصابع[2]

رأوه أحقَّ الناس كلِّهم بها وما ظلموا إذ بايعوه وسَارعُوا[3]

وقال جرير أيضاً يحفّي الوليد على بيعة عبد العزيز:

فماذا تَنْظُرونَ بها وفيكُم جسورٌ بالعَظَائم واعْتِلاءُ[4]

---

(١) الطبري (٦/ ٥٥٣) وابن الأثير (٥/ ٤١).

(٢) انظر ديوان جرير (٣٥٧).

(٣) الطبري (٦/ ٥٠٦)، وقد وردت: فبايعوهُ وسارعوا، وفي نسخة أخرى كما ذكرنا في أعلاه.

(٤) هذا البيت من ديون جرير (٩)، والاعتلاء: القوة على الشيء، يقال اعتليت الشيء إذا قويت عليه.

إلى عبد العزيز سَمَت عيون ... الرّعِيّة إذ تَحَيَّرتِ الرِّعاءُ[١]

إليه دَعتْ دواعيه إذا ما ... عَمادُ المُلكِ خَرّت والسَّماءُ

وقال أُولُو الحُكومَةِ من قُرَيشٍ ... علينا البَيْعُ إنْ بلغَ الغلاءُ[٢]

رأوا عبد العزيز وليَّ عَهْدٍ ... وما ظلموا بذاك ولا أساؤوا

فَزَحْلِفُها بأَزْفُلِهَا[*] إليه ... أميرِ المؤمنين إذا تشاءُ[٣]

ولو قد بايعوكَ وليَّ عَهْدٍ ... لقامَ القِسْطُ واعْتَدَلَ البناءُ[٤]

وقال جرير يمدح عبد العزيز:

إذا قُلْتَ لي: عبد العزيز كَفَيْتَني ... زماناً فَشَتْ عِلَّاتُه ومَباخِلُه

فَيَوْمانِ من عبد العزيز تَفاضَلا ... ففي أيِّ يَوْمَيْه تَلومُ عواذِلُه

فيومٌ تَحوطُ المسلمين جِيَادُه ... وَيَوْمٌ عَطاءٌ ما تُغِبُّ نَوافلُه

وللتُّرْكِ من عبد العزيز وقِيعَةٌ ... وللرُّوم يومٌ ما تَتِمُّ حَواملُه[٥]

فما وَجَدوا عبد العزيز مُغَمَّراً ... ولا ذا سِقَاطٍ عند أمرٍ يُحاوله

ولا جافِياً عن قائم السَّيف قَبْضَهُ ... إذا الفَشِل الرِّعْدِيدُ[*] قَفَّتْ أنامِلُه

يُقَلِّصُ بالفَضْلَيْنِ: فَضْلِ مُفَاضةٍ ... وفَضْلِ نِجَادٍ لم تُقَطَّعْ حمائلُه[٦]

فلا هو في الدنيا مُضِيعٌ نَصِيبَهُ ... ولا عَرَضُ الدنيا عن الدِّين شاغِلُه[٧]

فهذا بَديعٌ ليس في الناس مثلُه ... وهذا مديحٌ لا يُكَذَّب قائلُه

---

(١) هكذا ورد في الطبري (٦/٥٠٦)، أما في ديوان جرير (٩)، فورد: إن تخيرت الرّعاء.

(٢) ويرى بفتح الغين وكسرها، والغلاء من المغالاة: المسابقة.

(٣) فزحلفها إليه: أي أدفعها، بأزفلها، بأجمعها.

(*) للشرح والبيان.

(٤) الطبري (٦/٥٠٦ ـ ٥٠٧)، وديوان جرير (٩).

(٥) أي تسقط أجنّتها.

(*) الرعديد: للشرح.

(٦) أراد أن يرفع فضل الدرع الطويلة، فتكون قصيرة عليه، وكذلك حمائل سيفه.

(٧) ورد هذا البيت في الطبري (٨/٦٦٣)، وفي ابن الأثير (٦/٤٣٨): يضيع.

أبَيْنَا، فما يدعو إلى غيرك الهَوَى   وما من خليل بابْن ليلى[1] نبادله
أتى زمَنُ البَيْضاء بعدكَ فانْتَحَى   على العَظْم حتى أسلمتُه حوامِلُه[2]
فَرِش لي جناحِي واتَّخذِنِيَ بازِياً   تَخَطّفُ حَبّات القُلوبِ أُجادِلُه[3]

وقد أكثر الشعراء من مدح عبد العزيز، نكتفي بما أوردناه نماذج لتهافت الشعراء عليه بالمديح، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على جوده وكرمه، والجود والكرم من مزايا الرجال.

وقد ذكرنا إخوته في سيرة أخيه العباس بن الوليد، فلا يفيد ذكرهم هنا[4].

وأم عبد العزيز ومحمد، هي أم البنين ليلى بنت عبد العزيز بن مروان بن الحكم[5]، وفي رواية أنّ أشقاءه محمد ومروان وعَنْبَسَة أبناء الوليد بن عبد الملك[6].

وأم والدته: ليلى بنت سهيل بن حَنْظَلة بن الطُفَيْل بن مالك بن جعفر بن كِلاب[7].

وتزوج عبد العزيز ميمونة بنت عبد الرحمٰن بن عبد اللّٰه بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، فولدت له عبد الملك وعَتِيقاً، وفي عتيق يقول الشاعر:

---

(١) ليلى بنت عبد العزيز بن مروان أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز، وهي أم عبد العزيز ابن الوليد.
(٢) السنة البيضاء: المشمسة الصائفة التي لا سحاب فيها.
(٣) انظر القصيدة كاملة في ديوان جرير (٤٣٤ ـ ٤٣٥) ـ شرح ديوان جرير ـ تأليف محمد إسماعيل عبد اللّٰه الصاوي ـ القاهرة ـ ١٣٥٣ هـ.
(٤) انظر اسماء إخوته في الطبري (٦/ ٤٩٦) جمهرة أنساب العرب (٨٩) والعيون والحدائق (١٢ ـ ١٣).
(٥) الطبري (٦/ ٤٩٦).
(٦) العيون والحدائق (١٢) والعقد الفريد (٤/ ٤٢٢).
(٧) انظر جمهرة أنساب العرب (٢٨٥) والعيون والحدائق (١٢).

ذهب الجودُ غير جود عَتِيقٍ ابن عبد العزيز من ميمونهْ

بنت قرم مهذّب من قريشٍ قد أبى اللَّه أن تكون هجينه[1]

وابنه عتيق بن عبد العزيز كان يرشح للخلافة، قتله عبد اللَّه بن علي العباسي كما قتل ابنه أبا بكر بن عتيق[2].

وميمونة زوجة عبد العزيز، تزوجت بعده أخاه محمد بن الوليد بن عبد الملك[3]، ممّا يدل على أنّ عبد العزيز توفى قبل شقيقه محمد بن الوليد.

وتزوج أم حكيم بنت يحيى بن الحكم[4] بن أبي العاص الأمويّة.

وذكر أنّ عبد العزيز لم يُعْقِب[5]، وهذا ليس صحيحاً.

كما تزوج عبد العزيز أمة اللَّه بنت الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.

وقد تولى عبد العزيز أول قيادة له سنة إحدى وتسعين الهجريَّة (٧٠٩م) كما ذكرنا في موضوع: جهاده.

وكان الخلفاء يولون أبناءهم المناصب القيادية إذا بلغوا العشرين من العمر، يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً.

ومعنى هذا أنّ عبد العزيز ولد حوالي سنة إحدى وسبعين الهجريَّة (٦٩٠م)، وقد بقي حياً حتى سنة ثلاث ومئة الهجريَّة (٧٢١م)، إذ أراد يزيد بن عبد الملك أن يجعله وليّ عهده، ولكن لا نعرف سنة وفاته بالضبط، لأن المؤرخين وكُتّاب السِّير سكتوا عن تاريخ وفاته، كما سكتوا

---

(١) المحبّر (٤٤٨) وانظر جمهرة أنساب العرب (٨٩).
(٢) المحبّر (٤٤٨).
(٣) المحبّر (٤٤٥).
(٤) المحبّر (٤٤٩).
(٥) العقد الفريد (٤/ ٤٢٢).

عن تاريخ أخيه محمد الذي خلفه على زوجة أمة اللّه بنت الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.

وليس من المحتمل أنه عاش حتى سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريَّة (٧٤٩م)، وهي السنة التي أباد فيها العباسيون كل مَن قدروا عليه من الأمويين بعد استيلائهم على السُّلطة.

ولم يتحدث المؤرخون وكُتاب السِّير عن المناصب التي تولاّها عبد العزيز بعد وفاة والده الوليد بن عبد الملك بن مروان.

والظاهر أنه زهد في المناصب، لأنه كاد أن يصبح خليفة، فتجاوزته الخلافة، فكل منصب بالنسبة للخلافة تافه، لذلك وضع هذا المنصب وحده نصب عينيه، فدعا إلى نفسه بعد وفاة سليمان بن عبد الملك، ثم رضخ للخليفة القائم عمر بن عبد العزيز. كما أنّ عمّه يزيد بن عبد الملك عزم على توليته من بعده، لولا أن صرفه عن عزمه مَسْلَمَة بن عبد الملك.

ومهما يكن من أمر، فإنّ طموحه إلى الخلافة لم يتحقق، فخسر قمّة المناصب، ولم يربح المناصب التي دون القمّة.

وهكذا تجمدت كفايات عبد العزيز العالية في مجالي القيادة والإدارة، بعد وفاة أبيه الوليد بن عبد الملك بن مروان، فحرمت الدَّولة من جهوده وهو لا يزال في ريعان الشباب وأوج العطاء، حتى توفّاه اللّه مأسوفاً عليه.

القائد

عمل عبد العزيز في القيادة العسكريَّة سنتين: سنة قائداً مرؤوساً لعمّه مَسْلَمَة بن عبد الملك، وهي سنة تدريبية على واجبات القيادة في الميدان، وسنة قائداً مستقلاً، يتحمّل واجباته القيادية مسؤولاً مباشراً، ليضع ما تعلّمه من الفنون العسكريَّة النظرية والعملية موضع التنفيذ العملي.

كما عمل في جبهتين مختلفتين من جبهات القتال خلال حياته العسكريَّة العملية: جبهة (أذربيجان) حتى بلغ مع مَسْلَمَة (الباب) على بحر

(الخزر)، وجبهة الرّوم في منطقة (مَلَطْيَة) ففتح حصن (الغزالة) وعاد من غزوته منتصراً.

وعلى الرغم من أنّ حياته العسكريَّة في القيادة كانت قصيرة جداً، لأنّ أباه الوليد بن عبد الملك استأثر به فآثر أن يكون إلى جانبه والياً على (دمشق) عاصمة الأمويين في المشرق، ومستشاراً يتدرّب عملياً على إعطاء القرارات العسكريَّة والإدارية والسياسية التي تصدر من أعلى سلطة في الدَّولة، وتؤخذ آراؤه فيما يعترض الدَّولة من مشاكل ومعضلات، ويستشار في إصدار القرارات الحاسمة السَّوْقِيَة، ويُعدّ إعداداً مناسباً بإشراف الخليفة القائم... إلاّ أنّ مدّة قيادته القصيرة تنمّ على قابلية متميِّزة في القيادة بالإضافة إلى قابلياته المتميِّزة الأخرى، أهّلته للترشيح إلى منصب ولاية العهد، ليكون الرجل الثَّاني في الدَّولة خلال حياة الخليفة وليكون الرجل الأول في الدَّولة بعد موت الخليفة، ممَّا يدلّ على نجاحه في قيادته، ونجاحه في مهامه الأخرى.

وإذا كان للعاطفة ما في ترشيحه والياً للعهد، لأنّ الوالد يحبّ لولده ما يحبّه لنفسه، ولكن العاطفة وحدها لم تكن السبب الأول والأخير لترشيحه، خاصة وأنّ الوليد كان له تسعة عشر ولداً من الذكور، وترشيحه لولاية العهد دون سواه من أشقائه وإخوته دليل قاطع على أنه كان أفضل منهم جميعاً في كفايته وحسن تصرّفه وأخلاقه قائداً وإنساناً.

لقد كان عبد العزيز ذكيّاً ألمعيّ الذكاء، وكان متّزناً مكيثاً غير متهوِّر، وكان بعيد النظر يحسب لكل شيءٍ حسابه، وكان آلفاً مألوفاً يحبّ رجاله ويحبّونه، وكان ذا شخصية نافذة رصينة ممَّا يوحي بالثقة به من رجاله، فيثق بهم كما يثقون به.

وكان جواداً كريماً، وهذه الصفة لها مكانتها في قلوب الذين يحبّون المال حبّاً جمّاً، ولها مكانتها في قلوب الذين لا يحبّون المال أيضاً، فليس هناك من يكره الجواد الكريم.

وصفة الجواد والكرم، تؤدي بصاحبها إلى استقطاب الرجال من حوله، الذين يقاتلون جهاداً في سبيل اللّه، والذين يقاتلون كسباً للمغانم.

وكان ملتزماً بتعاليم الدِّين الحنيف، ملتزماً بمتطلبات الحياة، فهو يعمل لآخرته كما يعمل لدنياه.

وكان لا يتخلّى عن مُثُله العليا، دمثَ الأخلاق، سليم القلب، طيِّب السَّريرة، حسن الطويّة، مأمون النقيبة، لا يلحق الأذى بالمحسنين بل يشد أزرهم ويدافع عنهم، ولكنه لا يتغاضى عن المسيئين بل يعاقبهم ويحاسبهم ويحملهم على الطريق السويّ.

وكان قائداً (تعرّضياً)، يتّخذ أسلوب الهجوم السيَّار للدفاع عن الحدود الإسلاميَّة والثغور، ويتجنّب أسلوب الدِّفاع المُسْتَكِنْ، لأنه في أحسن نتائجه يصدّ المعتدي ولا يؤدي إلى النصر. كما أنّ نقل ساحة القتال إلى ميدان العدو في حالة الهجوم، يؤدي إلى إيقاع الخسائر في بلاد العدو ويصون بلاد المسلمين من الدمار.

لقد كان عبد العزيز يطبّق مبدأ: الهجوم خير وسائل الدِّفاع.

وكان يطبق مبدأ (التحشد)، فكان يوجّه القوات المناسبة لتحقيق هدفه من القتال.

وكان يطبق مبدأ: (الاقتصاد بالقوة) فلا يسرف في حشد قوات كبيرة بالنسبة للهدف المقصود.

وكان يطبِّق مبدأ: (الأمن) في مسير الاقتراب، فيخرج المقدمات والمجنبات والمؤخرات لحماية جيشه، ويحمي معسكراته في أثناء التعسكر، ويطبق ترتيبات القتال الشائعة حينذاك في أثناء القتال: ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة ومؤخرة، وهي ترتيبات أمنيّة لحماية قواته من المباغتة. كما يهتم بالسّاقات في أثناء الانسحاب من بلاد العدو، حماية لقواته من المطاردة.

وكان يطبق مبدأ: (توخي الهدف)، فيقرر سلفاً الهدف الذي يريده، وينظِّم خطته لفتح ذلك الهدف، دون أن يحيد عنه إلى هدف آخر، دون مسوِّغ.

وكان يطبّق مبدأ: (القضايا الإدارية)، فيُعدّ عدّته للتموين والأعطيات والنقل والطبابة والبيطرة، حتى ليكاد جيشه لا يفتقد شيئاً من قضاياه الإدارية.

ويجب أن نتذكر أنّ بني أميّة كانوا ماهرين إلى أبعد الحدود في إعداد الخطّة الإدارية وتنفيذها، مع الإعداد مسبقاً لأدق التفاصيل الإدارية، حتى المخيط والخيط يعدّونها للجيش، بحيث تكتفي قواتهم اكتفاءً ذاتياً منذ رحيلها عن قواعدها للفتح حتى عودتها إلى تلك القواعد.

وكان يطبق مبدأ: (إدامة المعْنَوِيَّات)، ويبذل قصارى جهده أن تتحلّى قواته بالمعْنَوِيَّات العالية، وخير وسيلة لإدامة المعْنَوِيَّات هو النصر.

لقد توفّر في عبد العزيز العلم العسكري النظري والعملي بما لا مزيد عليه باعتباره من أبناء الخلفاء، وبذلك حاز على شرط من شروط القيادة المتميّزة وهي: العلم المكتسب.

وشهد غزوتين من غزوات الفتح، فحاز على شرط آخر من شروط القيادة المتميّزة وهي: التجربة العملية.

ولكن يجب أن نتذكر أن تجربته العملية كانت قصيرة على كل حال.

أما الشرط الثالث من شروط القيادة المتميّزة وهي: الطبع الموهوب، فإنه كان يتحلّى بصفات ذكرناها في صدر صفاته القيادية، وهي تدل على طبع موهوب، كما أن تسنّمه القيادة يدل على رغبته في خوض غمار الحرب، إذ لا يمكن للخليفة أن يولي منصب القيادة إلاّ من يحب المسؤولية ويميل إلى القتال ولا يخشى الأخطار، ويتحمل مشاق الحرب، ويكون شجاعاً مقداماً.

ومن دراسة سير القادة من أبناء الخلفاء يظهر لنا بما لا يقبل الشك أنّ الخلفاء لم يولوا القيادة كل أبنائهم، بل ولّوها قسماً منهم، وهذا القسم الذي تولى القيادة لا بدّ أن يتولاّها لرغبته في الجهاد وتيسر الكفاية لتحمل جميع متطلباته، وإلاّ فالمجال واسع لابن الخليفة غير القادر على تحمل أعباء الحرب أن يتولى المناصب المريحة الأخرى.

وبالرغم من تمتع عبد العزيز بسمات الطبع الموهوب أو ببعض سمات هذا الطبع، ولكن انتصاراته كانت انتصارات تعبوية ذات أثر محدود في الفتح، والعهد بأصحاب الطبع الموهوب أن يحقّقوا انتصارات سَوْقِيَة حاسمة ذات أثر باقٍ في الفتح.

ولعلّ محاولة أبيه الوليد بن عبد الملك بن مروان أن يوليه ولاية العهد ليصبح خليفة المسلمين بعد وفاته، حرم عبد العزيز من إبراز كفايته القيادية في فتح مستدام، فخسر الخلافة ولم يربح الفتح.

وقد برز في أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان قادة من ذوي الطبع الموهوب، ففتحوا فتحاً مستداماً، كمحمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي في فتوح المشرق، وموسى بن نصير وطارق بن زياد في فتوح المغرب، وربما حرم الفتح من قيادة عبد العزيز لأن أباه أراد أن يخلفه في قيادة الأمة، فجرت الرياح بما لا تشتهي السفن.

عبد العزيز في التاريخ

يذكر التاريخ لعبد العزيز جهاده في الدّفاع عن الدَّولة، وفتحه حصن (الغزالة) في بلاد الرّوم.

ويذكر له أنه تولّى مدينة (دمشق) عاصمة الدَّولة وقاعدة الفتح الإسلامي الرئيسة في أيام والده الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي كانت أيامه أيام العصر الذهبي للفتح في عهد بني أميّة، وكان العصر الذهبيّ الأول للفتح في عهد عمر بن الخطّاب ﷺ . وقد أحسن

عبد العزيز في إدارته غاية الإحسان لهذه القاعدة الرئيسة، ممَّا كان له أثر حاسم في الفتح.

ويذكر له أنه لمع مبكراً وهو في ريعان الشباب، فاستحق أن يتولى المنصب الثَّاني في الدَّولة: ولاية العهد، من أجل أن يخلف أباه الوليد بن عبد الملك، فيصبح من بعد أبيه خليفة المسلمين.

ولكن الأقدار حرمته من اعتلاء سدّة الحكم، إذ مات أبوه قبل أن يحقق لعبد العزيز البيعة.

ويذكر له أنّ عمّه يزيد بن عبد الملك بن مروان قرّر أن يستخلفه مفضلاً له على أولاده وإخوته، ولكنّه صُرِف في آخر لحظة عن قراره.

ويذكر له تمسّكه بالمُثل العليا، وتحليه بالخلق الكريم، والتزامه بالسجايا الخلقية الرفيعة، فكان موضع ثقة الناس به وتقديرهم وإعجابهم.

يرحمه اللّه بقدر ما قدّم للدولة من خدمات وما قدّم لآخرته من أعمال حسنة، وجعله قدوة يحتذي به الشباب من العرب والمسلمين.

قادة فتح بلاد الروم

تأليف

محمود شيت خطّاب

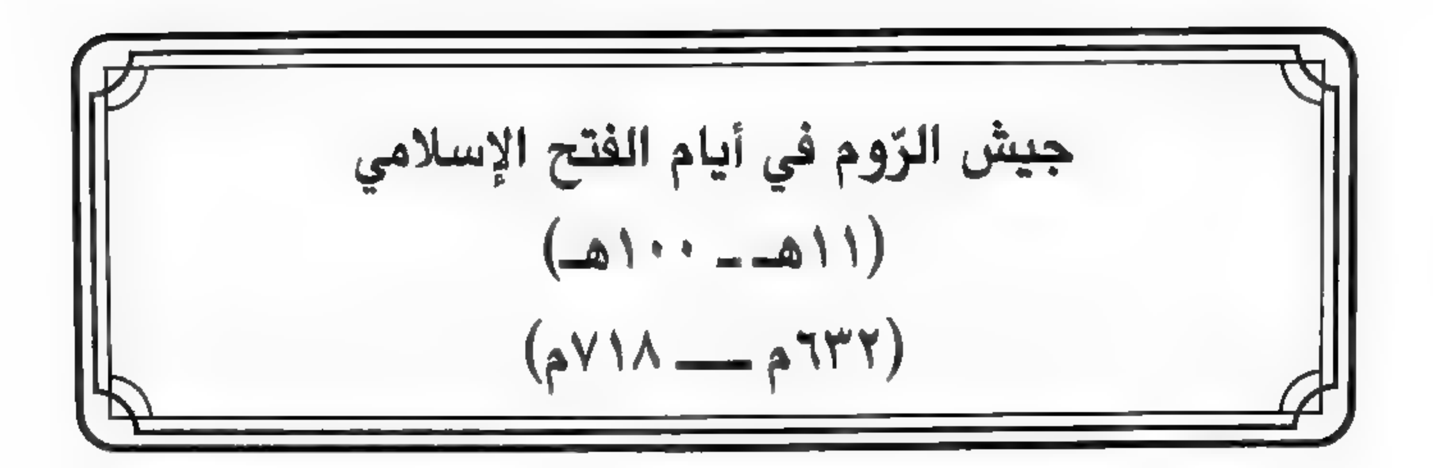
اللواء الركن

الجزء الثَّاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

[سورة الروم: ٣٠، ١ ـ ٥]



جيش الرّوم في أيام الفتح الإسلامي
(١١هـ ـ ١٠٠هـ)
(٦٣٢م ـــ ٧١٨م)

القوات البرية

١ ـ التنظيم:

تطور جيش الرّوم بالتدريج أسوة بالجيوش العالمية الأخرى، فقد كان الناس في أوائل أدوار تمدنهم قبائل يدافع عنها القادرون على حمل السلاح من رجالها، فإذا تهدّد القبيلة خطر عسكري اجتمع رجالها بلا ترتيب ولا نظام... ثم ينال كل واحد من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة شكيمته. فلمّا تحضّر الناس وتقاسموا الأعمال ونشأت الدول، كان من قدم المهن عندهم الكهانة والجندية.

وأول دولة نظّمت الجند على أسس تنظيمية ثابتة هي الدّولة الفرعونية في مصر، فقد جنّدت جنداً من الزنوج والأحباش.

محمّد الفاتح
فاتح القُسطنطينيّة

أيامه الأولى

كان فتح القُسْطَنْطِينيَّة من الأحداث العالمية الكبرى، فقد كان إيذاناً بانتهاء العصر الوسيط وبداية العصر الحديث.

وقد ظلّت القُسْطَنْطينيَّة عشرة قرون معقلاً للمسيحية، لم تستسلم للغزاة الطامعين بها، وثبتت أمام تسعة وعشرين حصاراً، حتى فتحها محمد الفاتح، فأصبحت معقلاً من معاقل المسلمين حتى اليوم.

ولد محمد الفاتح في السادس والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة الهجريَّة (٢٠ من نيسان ـ أبريل ١٤٢٩م)، وتولى السلطة مرتين في حياة والده مراد الثَّاني الذي كان ورعاً متديناً، فتنازل عن السلطة لابنه محمد، ثم ذهب إلى (مغنيسيا) في آسيا الصغرى ليقضي بقية حياته في عزلة وطمأنينة، ويتفرغ في هذه الخلوة إلى عبادة اللّٰه والتأمل في ملكوته. ولكن أعداء الدّولة العثمانية انتهزوا فرصة تخلي مراد الثَّاني عن العرش وتولي ابنه محمد الفاتح البالغ من العمر إذ ذاك أربع عشرة سنة من عمره، فقرّروا طرد الأتراك من أوروبا. وعاد مراد الثَّاني إلى العرش من جديد، وهزم أعداءه الخارجيين، ثم عاد إلى خلوته متنازلاً عن العرش. ولكن جنود الإنكشارية في (أدرنة) ثاروا وشغبوا وهاجوا، فعاد مراد الثَّاني ثانية إلى العرش، وقضى على الفتنة الداخلية، وأعاد الأمور إلى نصابها.

وفي الثالث من شهر المحرم سنة خمس وخمسين وثمانمائة الهجريَّة (٥ من شباط ـ فبراير ١٤٥١م) توفي السلطان مراد الثَّاني والد محمد الفاتح.

وفي اليوم السادس عشر من شهر محرم الحرام سنة خمس وخمسين وثمانمائة الهجريَّة (١٨ من شباط ـ فبراير ١٤٥١م) تولى محمد الفاتح عرش آبائه وأجداده وهو في الثَّانية والعشرين من عمره.

لقد تدرب محمد الفاتح على إدارة الدَّولة عملياً قبل والده: تدرّب على نطاق محليّ، لأنه تولّى إدارة مناطق من الدَّولة، فكان المسؤول الأول عنها، وتدرّب على نطاق الدَّولة كلِّها حين تولّى السلطنة مرتين في حياة والده، فعرف كيف يتحمّل المسؤولية كاملة في حياة والده، وأفاد من هذه التجارب العملية بعد وفاة أبيه، وعرف كيف يواجه مشاكل الدَّولة والحكومة، وخبر الرجال وكشف مواطن الضعف والقوة فيهم. كما درس نظم الدول الداخلية وقدّر مهمتها الخارجية ومشاكلها الدولية.

كما تدرب على القيادة العسكريَّة في حياة والده، إذ كان معه في المعارك التي خاضها في أواخر حياته، فتعلّم من والده الذي كان قائداً متميِّزاً أساليب إدارة القتال والسيطرة على القوات العسكريَّة في الميدان.

محاولات الفتح الأولى

ركّز محمد الفاتح بعد توليه السلطنة كلّ اهتمامه على فتح القُسْطَنْطينيَّة، فكان أمر فتحها يشغل كلّ تفكيره ويسيطر على عقله وقلبه، فكأنّه تولى منصبه لتحقيق هذا الهدف الحيوي لا لشيء آخر غيره.

ومن المعروف أنّ المسلمين اهتموا كثيراً بفتح القُسْطَنْطينيَّة منذ أيام الدَّولة الإسلاميَّة الأولى، وقد حاول قسم من الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وسلاطين بني عثمان قبل محمد الفاتح أن يفتحوا القُسْطَنْطينيَّة، ولكن محاولاتهم لم يكتب لها النجاح.

كانت أول محاولة للمسلمين لفتح القُسْطَنْطينيَّة في خلافة عثمان بن عفان ﷺ، وذلك في أواخر سنة اثنتين وثلاثين الهجريَّة (٦٥٣م)، إذ قصدها جيش بقيادة معاوية بن أبي سفيان أمير الشّام يومئذ، فاخترق آسيا الصغرى حتى ضفاف البسفور. كما قصدها أسطول إسلامي بقيادة بُسْر بن أبي أرْطَاة لدعم الجيش الإسلامي البري، فتحرّك من (طرابلس الغرب) صوب القُسْطَنْطينيَّة، ولكن هذه المحاولة لم تنجح[١].

وفي سنة أربع وأربعين الهجريَّة (٦٦٤م)، كانت الحملة الثّانية في عهد معاوية بن أبي سفيان بعد أن تولى الخلافة، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضاً.

وفي سنة تسع وأربعين الهجريَّة (٦٦٩م) أعاد معاوية الكرّة لفتح القُسْطَنْطينيَّة، فبعث جيشاً بقيادة سفيان بن عَوْف ومعه يزيد بن معاوية وجماعة من أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار منهم عبد اللَّه بن العبّاس وعبد اللَّه بن عمر وعبد اللَّه بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري. وسار الأسطول الإسلامي بقيادة بُسْر بن أبي أرْطاة، واخترق مضيق الدردنيل دون مقاومة.

واستمرّ حصار المدينة براً وبحراً سبعة أعوام دون جدوى، فانسحب المسلمون سنة ثمان وخمسين الهجريَّة (٦٧٨م) إلى قواعده[٢].

وفي سنة ست وتسعين الهجريَّة (٧١٥م) تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك، فأعاد الكرة وانتدب أخاه مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم وأمره ألاّ يبرح القُسْطَنْطينيَّة حتى يفتحها أو يأتيه أمره. وسار مَسْلَمَة في أوائل سنة ثمانٍ وتسعين الهجريَّة (٧١٦م) مخترقاً هضاب الأناضول، وفتح عدّة مدن وحصون للرّوم، ثم بدأ حصار القُسْطَنْطينيَّة، فحاصرها

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٥٠).
(٢) الطبري (٢/ ٨٦) وابن الأثير (٣/ ١٧٥، ١٨١، ١٨٢، ١٨٦).

ثانية في اليوم الثَّاني من محرم سنة تسع وتسعين الهجريَّة (١٥ آب - أغسطس ٧١٧م)، ولكن لم تمض أسابيع قلائل على حصارها حتى توفي سليمان بن عبد الملك في العاشر من صفر سنة تسع وتسعين الهجريَّة (٧١٧م)، ودخل فصل الشتاء وكان شديد البرد، فانسحب مَسْلَمَة إلى ثغور الشَّام[1] بعد تولّي عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك، وأمر بانسحاب مَسْلَمَة إلى قواعده.

ولم تحاول الخلافة بعد ذلك أن تعمل جادة لافتتاح القُسْطَنْطينيَّة، وإن كانت جيوشها قد اقتربت غير مرة من هذه العاصمة. وقد وقعت أشهر هذه الغزوات أيام الخليفة المهديّ من بني العباس، حيث سار ولده هارون الرَّشيد في صيف سنة خمس وستين ومائة الهجريَّة (٧٨٣م) غازياً للدولة البيزنطية، فاخترق هضاب الأناضول حتى أشرف على ضفاف البسفور الآسيوي، وعسكر فوق تلال خريسوبوليس (أسكوتاري) في مواجهة القُسْطَنْطينيَّة، وكان على عرش القياصرة يومئذ طفل هو قسطنطين السادس، ومقاليد الحكم بيد أمّه الإمبراطورة إيريني (ريني)، فهزم المسلمون البيزنطيين هزيمة نكراء، واضطرت إيريني أن تعقد الصلح وأن تتعهّد بدفع جزية سنوية للمسلمين[2].

وكانت أول محاولة للعثمانيين لفتح القُسْطَنْطينيَّة في سنة ثمان وتسعين وسبعمائة الهجريَّة (١٣٩٥م)، ولكن وصول تيمورلنك إلى حدود الدَّولة العثمانية الشرقيَّة اضطر السلطان بايزيد إلى التخلي عن الحصار[3].

وقد كانت القُسْطَنْطينيَّة محطّ أنظار العثمانيين ومعقد آمالهم، منذ بداية حكمهم، فأوصى السلطان عثمان مؤسس الدَّولة العثمانية خلفاءه

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١٠).
(٢) انظر التفاصيل في: مواقف حاسمة (٣٤ ـ ٤٥).
(٣) محمد الفاتح (١٠).

بفتحها، فلم يُوفَّق السلاطين بعد عثمان في تحقيق هدفهم، حتى جاء السلطان محمد الفاتح، فكتب اللَّه له أن يكون فاتح هذه المدينة العظيمة، ومن يومها حمل لقب: الفاتح.

وكما تعرضت القُسْطَنْطينيَّة لمحاولات فتحها من المسلمين، تعرضت أيضاً عبر تاريخها الطويل لمحاولات غزوها من غير المسلمين، ولم تسلم حتى من الصليبيين، فقد تحولت الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الأصلي وهو غزو بلاد المسلمين، فاحتلّت القُسْطَنْطينيَّة سنة إحدى وستمائة الهجريَّة (١٢٠٤م)، ونهبت أملاكها ودمّرت معالمها ومزّقت أكبر دولة مسيحية في العصور الوسطى. ولكن البيزنطيين استطاعوا أن يستعيدوا عاصمتهم سنة ستين وستمائة الهجريَّة (١٢٦١م) بعد نصف قرن تقريباً من الحكم اللاّتيني وبعد كثير من التضحيات والخسائر بالأرواح والممتلكات وكثير من الجهد والعناء.

أهميّة القُسْطَنْطينيَّة

تحتل مدينة القُسْطَنْطينيَّة موقعاً سَوْقيّاً (استراتيجياً) فريداً، حَبَته الطبيعة بأهم عوامل الدِّفاع الطبيعية التي تساعد المدافعين عنها على الثبات. تحوطها من الشرق مياه البسفور، وتحدّها من الغرب والجنوب مياه (المرمرة)، ويقسمها القرن الذهبي إلى قسمين عظيمين هما: (بيرا) وهو القسم الشمالي الشرقي، وإستانبول وهي المدينة البيزنطية الحقيقية. وتحتل إستانبول مثلثاً عظيماً من المرتفعات الصخرية تشرف قاعدته على (المرمرة) وضلعه الأيمن على مياه القرن الذهبي والميناء، وكان كلّ من هذين الجانبين يحرسهما سور واحد. أما الضلع الثالث وطوله ستة أميال، فهو الجانب المتّصل بأرض القارة الأوروبية، يحميه خط مزدوج من الأبراج والحصون المنيعة، وخندق عميق مزدوج، وفيه اثنا عشر باباً، وفي كل زاوية من زوايا المثلث قلعة منيعة، وكانت مياه القرن الذهبي الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي، تغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد

طرفاها عند مدخله بين سور (غلطة) وسور إستانبول[1].

وهكذا تهيّأت أسباب الدِّفاع المديد لهذه المدينة: أسباب طبيعية، وأسباب اصطناعيّة، ممَّا جعلها موقعاً حصيناً وقلعة آمنة، من الصعب على الغزاة احتلالها.

كما أنّ هذه المدينة تحتلّ موقعاً فريداً في العالم، فهي تقع عند ملتقى القارتين آسيا وأوروبا.

وقد نوّه نابليون بأهميتها وخطورتها، فقال في شأنها: لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القُسْطَنْطينيَّة أصلح المدن لتكون عاصمة لها. وقد ذكر نابليون في مذكراته التي كتبها في منفاه بجزيرة (سانت هيلانا): أنه حاول عدّة مرات الاتفاق مع روسيا على اقتسام الإمبراطورية العثمانية، ولكن وقفت القُسْطَنْطينيَّة كلّ مرة عقبة كؤوداً دون الاتفاق، فقد كانت روسيا تلحّ في امتلاكها، ونابليون يصرّ على عدم تسليمها، إذ كانت هذه المدينة وحدها في نظره تساوي إمبراطورية كاملة، وهي تعد بمثابة مفتاح العالم، مَنْ استولى عليها استطاع أن يسيطر على العالم بأجمعه. وقد كان نابليون في أشد الحاجة إلى صداقة روسيا لمواجهة عدوّته اللّدود إنكلترا، ولكنه برغم ذلك لم يستطع أن يضحي بالقُسْطَنْطينيَّة[2].

ومن المعروف أنّ الإمبراطورية العثمانية عندما شاخت، أصبح الغربيون يطلقون عليها اسم: (الرجل المريض)، وقد استطاع هذا المريض أن يبقى حياً بفضل مدينة القُسْطَنْطينيَّة، لأنّ الروس والبريطانيين والفرنسيين والألمان وغيرهم من دول الاستعمار، كانوا يختلفون دوماً على القُسْطَنْطينيَّة، فكلّ دولة تريدها لنفسها، وفي نفس الوقت لا تسمح لغيرها باحتلالها.

---

(١) مواقف حاسمة (١٧٥).
(٢) محمد الفاتح (٢٦ ـ ٢٧).

وحين احتلّ الحلفاء مدينة القُسْطَنْطينيَّة بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م)، اختلفوا على امتلاكها، فعاونوا مصطفى كمال سراً وعلانية على إجلائهم جميعاً عنها، إذ كانت كلُّ دولة من تلك الدول تفضِّل أن تعود إلى الأتراك على أن تصبح ملكاً لغيرها.

وقد أصبحت هذه المدينة ضرورية للعثمانيين بعد أن امتدّ ملكهم فشمل مناطق آسيوية وأوروبية شاسعة، فكان لا بدّ لهم من فتحها لتكون نقطة التقاء أملاكهم في أوروبا وآسيا من جهة، وليزيلوا من أمامهم حصناً حصيناً يهدِّد وجودهم في عقر دارهم ويفصل أملاكهم إلى شطرين كبيرين، وكان وجودها بالنسبة للعثمانيين تحت سيطرة البيزنطيين نقطة ضعف في دولة بني عثمان، ومَكْمَن خطر داهم عانوا منه الأمرين في تاريخهم الطويل.

آخر الأباطرة

أ ـ وحين تولى محمد الفاتح، كان على عرش بيزنطة قسطنطين الحادي عشر الذي اعتلى العرش سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة الهجريَّة (١٤٤٩م)[١] وهو في ريعان الشباب، وكان على يقين أنّ عاصمته مهددة بأفدح الأخطار، وأنّ قواته ضعيفة بالنسبة لقوات العثمانيين، وأنّ عليه أن يبذل قصارى جهده لاستقدام قوات من دول الغرب المسيحية لمعاونته في صدِّ العثمانيين دفاعاً عن القُسْطَنْطينيَّة.

وقد حاول الزواج بمارية الصربية أرملة السلطان مراد الثَّاني والد محمد الفاتح، وذلك عقب عودتها إلى وطنها بعد وفاة زوجها، وكان محمد الفاتح يحترمها كثيراً ويعرف لها مكانتها وقدرها، ويعتبرها كوالدته، ففكر قسطنطين أنّ زواجه بها قد يحميه من محمد الفاتح.

---

(١) تولى بعد وفاة أخيه الإمبراطور يوحنا السابع.

وبرغم أنها كانت في الحلقة الخامسة من عمرها، إلاّ أنّ قسطنطين الشاب القوي قَبِلَ هذا الزواج مُؤَمِّلاً من ورائه أن يكسب قوّة والدها (جورج برانكوفتش) وعطف محمد الخامس، ولكن هذه الفكرة تلاست، لأنّ مارية نذرت نفسها لله واعتزلت الناس، وقبعت في أحد الأديرة.

وحاول قسطنطين مصاهرة إمبراطور (طرابزون) وهو داود كومنينوس كما أشار عليه رجال بلاطه، كما حاول مصاهرة ملك الكرج (جورجيا) علّه يجد منه المساعدة في وقت الحاجة؛ لأنّ الكرج بلاد بدوية، رجالها أشدّاء أقوياء، ولكن لم يتم هذا الزواج لنشوب الحرب بينه وبين العثمانيين.

ويقال أيضاً: إن قسطنطين فكّر في الزواج بابنة رئيس جمهورية البندقية (فينيسيا)، لكنه ما لبث أن عدل عنه خوفاً من الرأي العام الذي كان يتّهمه بالميل إلى اللاّتين. بيد أن هذا العدول عن الزواج اعتبرته البندقية إهانة لها، فكان ذلك من أسباب تثاقلها عن نصرة قسطنطين حينما أحاطت به الأخطار واشتدّ الحصار على القُسْطَنْطينيَّة.

ب ـ ومن جهة أخرى لم ييأس قسطنطين من معونة الغرب، واعتقد أنّ اشتداد الخطر على القُسْطَنْطينيَّة وإحداق المسلمين بها سيحمل الغرب على المبادرة إلى نجدته ونصرته، فبعث إلى جميع ملوك الغرب وأمرائه يستصرخهم ويستغيث بهم، كما بعث إلى البابا نقولا الخامس يستنصره وينذره بأنه إذا سقطت القُسْطَنْطينيَّة بيد العثمانيين فإنهم سيهاجمون بعد ذلك إيطاليا نفسها. وذكر قسطنطين قبوله لمّا اتُّفق عليه في مجمع فلورنسة الكنسي من أمر توحيد الكنيستين الشرقيَّة والغربيَّة، واعتذر عما كان من مسلك الرّوم تجاهه وتجاه توحيد الكنيستين. وكان قسطنطين في ذلك مثل مَنْ سبقه من الأباطرة، لم يقبل هذا الاتحاد إلاّ طمعاً في نيل المعونة من دول الغرب الكاثوليكية، أما في قرارة نفسه فلم يكن أقلّ عداء من بطريرك الكنيسة الشرقيَّة ومن الشعب البيزنطي للاّتين ومذهبهم الدِّيني وكلّ ما جاء

من روما[1].

وذهبت محاولات قسطنطين سدى، كما كانت استغاثاته صرخة في وادٍ.

نقض العهد

ومن المذهل حقاً أن يتصرّف قسطنطين تصرفاً أهوج، وهو يعرف عزم العثمانيين على فتح القُسْطَنْطينيَّة، فقد استثار محمداً الفاتح ونقض العهد الذي كان بينه وبين العثمانيين، فانتهز محمد الفاتح هذه الفرصة السّانحة، وصمّم علناً على فتح القسطنطينة.

ذلك أن الفاتح عقب توليه السلطنة عقد السلام مع قسطنطين وغيره من الحكّام، ورضي أن يخصص راتباً كبيراً للأمير العثماني (أورخان) الذي كان معتقلاً في القُسْطَنْطينيَّة. ويبدو أنَّ قسطنطين أغراه هذا التسامح من جانب محمد الفاتح، فانتهز أول فرصة للغدر به، فإنّ محمداً الفاتح لم يكد يجلس على عرش السلطنة، حتى ثار به إبراهيم أمير القرمان وأثار معه عدّة أشخاص، زعم أنهم أبناء الأمراء القدامى لكرميان وإيدين ومنتشا ودفعهم إلى هذه الأقاليم ليستولوا على ميراثهم. وبعث محمد الفاتح قوّات لقتاله وسار هو في أثرهم، وفوجىء الأمير إبراهيم بهذا الزحف السّريع، ووجد أنه أضعف من أن يناحر الجيش العثماني، فكفّ عن القتال وتقدّم إلى السلطان الفاتح بنفسه باكياً مستعطفاً، وقدّم إليه ابنته توكيداً لخضوعه، وتعهّد أن يخرج معه في حملاته المقبلة، على أن يحتفظ بإمارته. ورقّ الفاتح لبكائه، وقبل منه ما طلب، وعفا عما كان منه[2].

وانتهز قسطنطين زحف محمد الفاتح إلى آسيا الصغرى لقمع ثورة

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٥ ـ ٣٧) وانظر: محمد الفاتح (٤٠).
(٢) عاشق زاده تاريخي ـ صولاق زاده تاريخي ـ سعد الذيد تاج التواريخن منجم باستي.

إبراهيم أمير القرمان، فبعث إليه وفداً يطلب منه أن يدفع فوراً نفقات الأمير أورخان، ويدفعها مضاعفة، وإلاّ فإنّه سيطلق سراح هذا الأمير ويثيره عليه ويمدّه بجيش من عنده ويجلسه على عرش السلطنة العثمانية!!..

ولا يبعد أن يكون ثمة تواطؤ وتآمر بين هذين الرجلين: إبراهيم وقسطنطين على الإيقاع بالفاتح والقضاء على دولته، وقد غرّتهما حداثة سنه.

ولا يبعد أن يكون قسطنطين قد أراد إظهار عضلاته، حتى يخيف الفاتح ويختبر نياته المبيّتة.

وذهب رسل قسطنطين إلى محمد الفاتح بآسيا الصغرى يحملون إليه الإنذار والوعيد، فلم يرض السلطان الفاتح أن يقابل هذا العدو بمثله قبل الانتهاء من أمر أمير القرمان، وكان فوق ذلك بعيداً عن مقر دولته بأدرنة في أوروبا، حتى لا يعمد قسطنطين إلى قطع خط الرجعة أو عرقلة خطوط مواصلاته وسد المسالك البحرية التي تربط بين جبهة القتال وقواعده... لذلك أحسن مقابلة رسل قسطنطين ولاينهم في القول ووعدهم بالنظر في طلبهم.

وما إن عاد السلطان إلى أدرنة، حتى أمر بإلغاء الراتب الذي خصص لأورخان، وأخذ يعدُّ العُدّة لحصار القُسْطَنْطينيَّة والقضاء على هذه المدينة التي ما فتئت تهدّد الدَّولة العثمانية من حين إلى حين.

والواقع أنّ تصرّف محمد الفاتح مع رسل قسطنطين في تلك الظروف الحرجة التي كان يختارها وهو في حرب لا يعلم أحد نتائجها، وخط رجعته تحت رحمة البيزنطيين، وخطوط مواصلاته البرية والبحرية تحت رحمتهم أيضاً كان تصرّفاً حصيفاً جداً، فقد تمالك نفسه وسيطر على أعصابه وكتم نياته وأظهر الموافقة وهو يخفي الرفض، وعزم عزماً أكيداً على تحقيق حلم آبائه وأجداده في فتح القُسْطَنْطينيَّة.

لقد كان محمد الفاتح مع والده مراد الثَّاني في حرب الصليبيين، فشهد بنفسه الهلع الذي انتاب المسلمين عندما سمعوا بأنّ جموع الصليبيين قد أحاطت بهم من البر والبحر، وسمع والده السلطان مراد قبل معركة (وارنة) يقسم: لئن كشف اللَّه عني هذا البلاء، لأزحفنّ لساعتي إلى القُسْطَنْطينيَّة، وقد برّ بيمينه فزحف إليها وحاصرها، ولكن وسائله لم تُعنه على فتحها. ولم يكن للسلطان مراد وهو شيخ كبير من العزم والقوة والمصابرة ما لابنه محمد، فكرر له قبل وفاته وصاة جدِّه عثمان بفتح القُسْطَنْطينيَّة، وأدرك السلطان الفاتح نفسه بأنّه لن يستقر له أمن ولا طمأنينة ما بقيت القُسْطَنْطينيَّة العاصمة الطبيعية لامبراطوريته في يد أعدائه.

لقد عانى العثمانيون ما عانوا من الدَّولة البيزنطية، وحين عجزت بيزنطة عن منازلتهم في ميادين القتال، عمدت إلى منازلتهم بالدس والمكيدة والفتنة، فهي تارة تثير عليهم أمراء آسيا في الشرق، وتارة تؤلب عليهم أمراء الغرب، وتارة تحرّض عليهم هؤلاء وهؤلاء وتغريهم بقتال العثمانيين.

ولم ينس محمد الفاتح أنّ بيزنطة هي التي حرّضت تيمورلنك على قتال آبائه وأجداده، فسبّب ما نزل بالدَّولة العثمانية من نكبة وبلاء.

ولم ينس أنّ القُسْطَنْطينيَّة تفتح أبوابها لكل خارج على الدَّولة العثمانية، كما كانت تعتقل الأمراء العثمانيين وتحبسهم لديها، ثم تهدِّد بهم السلاطين العثمانيين وتطلقهم في اللّحظة المواتية، وتجرّ على الدَّولة العثمانية بذلك حرباً أهلية دامية.

وهو يعلم أنّ طريق الاتصال بين الجزء الآسيوي من الدَّولة العثمانية والجزء الأوروبي منها تسيطر عليه القُسْطَنْطينيَّة، وفي وسعها قطعه أو عرقلته. ولم يكن للعثمانيين أسطول يؤمِّن لهم السيادة في بحر (مرمرة)، وطالما هدّدت القُسْطَنْطينيَّة الجزء الأوروبي من الدَّولة العثمانية بالخطر الدّاهم، فكانت هذه المدينة شوكةً في جسم الدَّولة العثمانية وخنجراً

مسموماً لطعنها من الخلف في أخطر الظروف والأحوال[1].

كان لا بد من وضع حدٍّ نهائي لمشكلة القُسْطَنْطينيَّة، وكان أمر فتحها بالنسبة للدولة العثمانية قضية حياة أو موت.

ولكن السلطان الفاتح كان ملتزماً بعهد قطعه على نفسه في بداية حكمه لقسطنطين: أن يسالمه ولا يحاربه إذا التزم قسطنطين بهذا العهد.

ونقض قسطنطين هذا العهد، فتحلّل محمد الفاتح من عهده، فندم قسطنطين ولات ساعة مندم، وشعر بما يعده الفاتح فتملكه الفزع واستخذت قواه وكف عن تهديداته، بعد فوات الأوان.

التمهيد للفتح

كانت مجمل خطّة محمد الفاتح لفتح القسطنطينية: عزلها بقطع الاتصال بينها وبين البلاد الأخرى، وتطويقها بقوات جسيمة، والتضييق عليها بالحصار المديد، ودكّ حصونها بالمدفعية، ثم القيام بهجوم وإدامة زخم الهجوم، حتى تستسلم المدينة.

وقد توقّع محمد الفاتح أن تهبَّ أوروبا المسيحية لنجدة القُسْطَنْطينيَّة، فكان أول ما قام به الفاتح من استعدادت عقد إتفاقية سلميَّة مع البندقية والمجر والأفلاق والبوسنة وغيرها من الدول والإمارات، وعقد هدنة مع هونياد المجري لمدة ثلاث سنوات.

وشرع في بناء قلعة منيعة على الشاطىء الأوروبي من البسفور بإزاء القلعة التي بناها بايزيد الأول على الشاطىء الآسيوي عند أضيق موضع من القناة، ليحكم بذلك إغلاق هذا الممر المائي ويحول دون وصول أيّ مساعدة قد تأتي من اتجاه البحر الأسود.

وكانت القلعة الجديدة مواجهة لأسوار القُسْطَنْطينيَّة وعلى بعد نحو خمسة أميال من تلك الأسوار.

---

(١) انظر التفاصيل في: محمد الفاتح (٤٣ ـ ٤٦).

وقد استخدم الفاتح مواد البناء وآلاف العمال والبنائين من جميع أنحاء إمبراطوريته، وشارك بنفسه مع كبار رجال دولته والقضاة والفقهاء في أعمال البناء، فخلعوا ملابسهم الزاهية الثمينة وانتشروا بين العمال وزاحموهم بمناكبهم في نقل الأتربة والأحجار ومواد البناء.

وازدادت مخاوف قسطنطين واشتدّ هلعه وتبخّر غروره، فلم يَعُدْ يطالب بمضاعفة نفقات الأمير أورخان، بل بعث إلى السلطان محمد الفاتح يتضرّع ويلتمس منه أن يكفّ عن بناء القلعة!

وأجاب الفاتح رسل قسطنطين: ليس فيما أقوم به ما يهدّد مدينتكم، إنما هي من أسباب الحيطة أتّخذها لدولتي، وليس في ذلك أيّ نقض للعهد. إنّ لكم القُسْطَنْطينيَّة بأسوارها، وليس لكم وراء ذلك من شيء! هل نسيتم ما انتاب والدي من الفزع عندما تحالف إمبراطوركم مع المجر وأراد منعه من عبور البحر إلى أوروبا، وسدّت سفنه المضيق، فاضطر مراد أن يستعين بالجنوبيين؟ لقد كنت حينذاك في أدرنة، وكنت لا أزال فتىً يافعاً، وقد ارتعد المسلمون من الخوف والفزع، وكنتم تسخرون منهم وتشمتون. لقد أقسم والدي في موقعة (وارنة) ليقيمنّ قلعة ههنا على الشاطىء الأوروبي، وها آنذا أبرّ بيمينه، وليس لكم الحق أو القوة في منع ما أقوم به الآن في أرضي، فإنّ كلا الشاطئين لي. أما الشاطىء الآسيوي فلأنّه يسكنه المسلمون، وأما الشاطىء الأوروبي فلأنّ الرّوم قد هجروه، وأنتم لا تقدرون على الدِّفاع عنه. اذهبوا إلى سيدكم وأخبروه أنّ السلطان العثماني الآن يختلف عن أجداده، فإنّ لي عزماً فوق عزمهم، وقوة فوق قوتهم. انصرفوا الآن إلى دياركم بسلام، ووالله ما جاءني أحد منكم بعد ذلك بمثل هذه الرسالة إلاّ قتلته[1].

---

(١) قريتو وولوس ـ تاريخ سلطان محمد ثاني ـ أحمد مختار ـ فتح جليلي قسطنطينية وانظر: محمد الفاتح (٤٦ ـ ٤٧).

ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تمّ بناء هذه القلعة الضخمة الجبّارة، في شكل مثلّث، سُمْك جدارها عشرون قدماً، في كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص، سُمْكه اثنان وثلاثون قدماً. ونصبت على الشاطىء مجانيق ومدافع ضخمة، صُوِّبت أفواهها على القناة تمنع السفن من المرور، ومن ثمّ سميت هذه القلعة الجديدة: (بوغازكسن) أي قاطع البوغاز، وعرفت بعد ذلك بـ(روململي حصار) أو قلعة الروململي، ووقفت أمام أختها القلعة التي بناها بايزيد على الشاطىء الآسيوي والتي تدعى: (كوزل حصار) أي القلعة الجميلة أو (أناطولي حصار) التي أمر الفاتح بترميمها وتقويتها.

وقد تم بناء هذه القلعة الجديدة في شهر شعبان سنة ست وخمسين وثمانمائة الهجريَّة (أواخر آب ـ أغسطس ١٤٥٢م).

كان الهدف من بناء هذه القلعة الجديدة إلى جانب سيطرتها على مدخل البسفور، أن تكون قاعدة عسكريَّة لعمليَّاته الحربية في أوروبا ومستودعاً لمواد التموين وللأسلحة والذخيرة.

وتولى قيادة القلعة (فيزر آغا) وبإمرته أربعمائة من قوات الإنكشارية، وكانت أوامر السلطان لهذه الحامية واضحة صريحة جازمة: ألاّ يسمح لأية سفينة أجنبية بالمرور إلاّ بعد تفتيش دقيق ودفع الضريبة المقررة، وإن أبت أن تطيع أطلقت عليها النيران وأغرقت.

وفي اليوم الثَّاني عشر من شهر شعبان سنة ست وخمسين وثمانمائة الهجريَّة (٢٨ آب ـ أغسطس ١٤٥٢م) قصد الفاتح على رأس قسم من قواته[١] القُسْطَنطينيَّة، ثم عاد بعد ثلاثة أيام إلى (أدرنة).

كان هدفه من هذه العملية: استطلاع أسوار وأبراج المدينة واختبار

---

(١) كان تعدادها خمسين ألف جندي.

مدى قوّتها واستعدادها، ومن المؤكّد أنّ الفاتح كانت لديه معلومات مفصّلة عن الأسوار المحيطة بالقُسْطَنْطينيَّة والأبراج الموجودة فيها، ولكنه أراد أن يكمل تلك المعلومات باستطلاعه الشخصي، وأن يؤثّر في معنويات الرّوم ويبلبل أفكارهم، فلا يعرفون بصورة أكيدة: أيريد حقاً فتح المدينة، أم يريد تهديدهم.

ولعله أراد بهذه الزيارة أن يختبر ردّ فعل دول الغرب تجاه إقدام المسلمين على محاصرة القُسْطَنْطينيَّة، ولعله أراد بها أيضاً تضليل قسطنطين بأنّ العثمانيين لا ينوون فتح عاصمته بل يريدون تهديده فحسب.

ومضى الفاتح يكمل معداته للحصار، لأنه أدرك أنه سيكون حصاراً طويلاً شاقاً، ولكي يُتِمّ عزل القُسْطَنْطينيَّة ويُحكم تطويقها، بعث قائده (طرخان) في شهر شوال (بداية تشرين الأول ـ أكتوبر) إلى (المورة) لمناجزة حاكمها توماس وديمتريوس ومنعهما من مساعدة أخيهما قسطنطين إمبراطور القُسْطَنْطينيَّة، كما أرسل فريقاً من قواته لتطهير المناطق المجاورة لهذه المدينة.

وبذلك أكمل الفاتح الأقسام التمهيدية من خطة فتح القُسْطَنْطينيَّة، ومن الواضح أنه كان معنياً باستكمال أدق الاستحضارات، ليكون نجاح خطته مضموناً، فلا يترك ثغرة قد تؤدي إلى إخفاقه في فتح المدينة كما أخفق آباؤه وأجداده من قبل.

كانت فكرة فتح القُسْطَنْطينيَّة قد استحوذت على محمد الفاتح وسيطرت على جميع جوارحه، حتى كاد لا يتحدّث إلاّ في هذا الأمر، ولا يأذن ممن يجالسونه بالحديث في غيره، لدرجة أن أصبح أمر الفتح همّه الذي يشغله بالليل والنهار حتى أرقه وحرمه النوم.

وأقبل الشتاء، فاغتبط قسطنطين بذلك، وظنّ أنّ البرد سيعوق الاستعدادات الحربية للعثمانيين، وبعث قسطنطين إلى الفاتح يحاول صرفه

عما هو بسبيله، فقال الفاتح للرسل: إذا كان إمبراطوركم يخشى الحرب، فليسلِّم لي القُسْطَنْطينيَّة، وأقسم أنّ جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه أو ماله، ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام، ومَن شاء رحل عنها وذهب لمّا أراد في أمن وسلام أيضاً[١].

وأيقن قسطنطين ألاّ مناص من الحرب، فحاول تخريب قلعة (روملي) التي بناها الفاتح، ولكن العثمانيين تصدّوا للرّوم وردّوهم على أعقابهم.

وحدثت بعد ذلك مناوشات بين العثمانيين والرّوم، كما نشب القتال في بعض القرى المجاورة للقسطنطينية بين الطرفين، هلك فيه كثير من الرّوم.

وأحكم الفاتح الطوق على القُسْطَنْطينيَّة، فاشتدّ الذعر بقسطنطين، وأمر بإغلاق أبواب المدينة، وقبض على جميع مَنْ فيها من رعايا العثمانيين، وكان فيهم قسم من غلمان السلطان الفاتح، فأطلق قسطنطين سراحهم وردّهم إلى سيدهم، وبعث معهم رسالة خطية إلى السلطان محمد يقول فيها: لمّا كان من الجلي أنك تريد الحرب أكثر من السلام، ولما كنتُ غير مستطيع أن أقنعك بإخلاصي واستعدادي لأن أكون لك تابعاً، لذا فالأمر للّه، وسأوجه وجهي إلى اللّه، فإذا كانت إرادته تقضي بأن تصبح هذه المدينة مدينتك، فلا مردّ لقضاء اللّه وقدره، وأما إذا ألهمك الرغبة في السلام، فسأكون سعيداً ما بقيت، ومع ذلك فإني أعفيك من كلِّ تعهداتك واتفاقاتك معي، وسأغلق أبواب هذه المدينة وأدافع عن شعبي إلى آخر قطرة من دمي....

محاولات قسطنطين

وجدَّ قسطنطين في إصلاح أسوار المدينة وأبوابها وتكديس المواد

---

(١) Zia Saki, Fatih Istanbulu Aldi

التموينية والأسلحة والعتاد وإعداد قواته المسلحة للقتال.

وبعث قسطنطين إلى الغرب مرة أخرى يستغيثه ويستنجده، وأعلن في رسالته للبابا أنه قد قبل ما قرره مجمع فلورنسة في توحيد الكنيستين الشرقيَّة والغربيَّة، وطلب إليه أن يرسل مَن ينفذ ذلك، واستعجاله في إرسال المعونة والنجدة. ولم يكن موقف ملوك الغرب وأمرائه تجاه القُسْطَنْطينيَّة في هذه المرة خيراً من موقفهم من قبل، فقد شغلتهم منازعاتهم ومشاكلهم الخاصة عن تلبية استغاثة قسطنطين، وكان للاختلافات الطائفية بين الكنيستين الشرقيَّة والغربيَّة أثر في سكوت حكّام الغرب عن نجدة البيزنطيين.

ومع ذلك بدأت قوات رمزية بسيطة ترد إلى القُسْطَنْطينيَّة، قد لا يكون لها أثر مادي في سير المعركة، ولكن كان لها أثر معنوي لا شك فيه، خاصة في سكّان المدينة الذين استبدّ بهم الخوف والهلع على مصيرهم المرتقب.

فقد جاءت سفينتان من البندقية استطاعتا أن تمرقا إلى البسفور وتلقيا مراسيهما في القرن الذهبي.

وجاء الكاردينال (إيزيدور) مبعوث بابا روما ومعه مائتا مقاتل لنجدة المدينة ولإتمام توحيد الكنيستين الشرقيَّة والغربيَّة، وتبعته ثماني سفن من جزيرة (كريت) تحمل النبيذ للمحاصرين.

ثم جاء المغامر الجنوي (جون جستنيان)[١] على سفينة محملة بالمؤن والذخائر، ومعها سفينة أخرى، وكان معه سبعمائة مقاتل. وقد استقبله الإمبراطور استقبالاً رائعاً وعيّنه قائداً عاماً للقوات المدافعة عن القُسْطَنْطينيَّة.

---

(١) وصل القسطنطينية في ١٨ محرم سنة ٨٥٧ هـ (٢٩ يناير ١٤٥٣ م).

وبدأ القائد العام الجديد ينظّم أمر الدِّفاع عن القُسْطَنْطينيَّة، فوضع مدافعه الصغيرة على الأسوار، وقسّم المدافعين على حسب شعوبهم وأجناسهم، وخصّص لكل واجباته، وقام بتدريب الرهبان والمدنيين الذين يجهلون فنّ الحرب وليس لديهم من وسائلها إلاّ الحماسة لها والرغبة في قتال المسلمين لإنقاذ مدينتهم وسكانها والتضحية بأرواحهم فداءً لها.

وخصّص الإمبراطور لجون جستنيان وأتباعه مهمة الدِّفاع عن النقط الخطيرة والأبواب المهمة، وكان جون مقاتلاً معموراً ذائع الصيت في الشجاعة والمهارة في فنون القتال، وقد جاء من تلقاء نفسه للدفاع عن القُسْطَنْطينيَّة عندما علم بما حاق بها من خطر، فوعده قسطنطين بأن يكافئه بجزيرة من جزر الأرخبيل إذا ما صدّ الأتراك ونجت القُسْطَنْطينيَّة من أخطارهم.

لقد تمخّضت دول أوروبا، فولدت نحو ألف مقاتل نجدة للقسطنطينية، فنافست بذلك الجبل الذي تمخض فولد فأرة!

وقرر قسطنطين الاعتماد على نفسه وعلى مناعة القُسْطَنْطينيَّة للدفاع عنها، كما قرر وضع سلسلة لإغلاق ممر القرن الذهبي أمام السفن المعادية[1]، تبدأ من طرف المدينة الشمالي وتنتهي عند حي (غلطة)، تلك المدينة الجنوبيَّة المستقلّة التي ترك لسكّانها أمر حمايتها عند طرفها الشمالي، وهذه السلسلة هي التي وقفت أمام الأسطول العثماني وعملت على حماية السفن البيزنطية التي تجمعت وراءها. وكان لها شأن كبير ودور هام في الدِّفاع عن المدينة المحاصرة.

إكمال الإعداد

في خلال ذلك كان محمد الفاتح في عاصمته (أدرنة) يضاعف أهبته

---

(١) سد مدخل القرن الذهبي في ١٢ نيسان ـ أبريل ١٤٥٣م.

بعزم لا يعرف الكلل، وكانت قواته المسلّحة تحشد في العاصمة التي أصبحت معسكراً كبيراً، وقد تجمّع فيها الجنود العثمانيون من آسيا وأوروبا من النظاميين والمجاهدين، وكانت حماسة الجيش العثماني للقتال عظيمة، وكان رجاله يعتقدون بأنهم يؤدون مهمة سامية في الحياة ويقومون بحرب مقدسة يبتغون من ورائها المثوبة من اللّه وينتظرون نصره، يشاركهم الشيوخ وعلماء الدِّين ويشدّون أزرهم ويستثيرون روح الجهاد والتضحية في الجند.

وفي تلك الأثناء حضر إلى الفاتح المهندس المجري (أوربان) وهو أمهر صانع للمدافع في زمانه، وكان قد طاف ببعض بلدان أوروبا وعرض صناعته على بعض ملوكها، فلم يصغ إليه أحد. وقصد هذا المهندس القُسْطَنْطينيَّة ولبث هناك زمناً يعرض على قسطنطين، غير أنّ الإمبراطور ضنّ عليه بالمال.

وفرّ أوربان إلى محمد الفاتح الذي استقبله استقبالاً حسناً، وبالغ في الحفاوة به، وفتح له أبواب خزائنه وغمره بالمال والعطايا، وعرف كيف يستغلّه أحسن استغلال، وسهّل له كل الوسائل لإتمام إنتاج المدافع، ووضع تحت تصرفه ما طلبه من آلات وعمال فنيين.

وسأل السلطان: هل يمكنك أن تصنع مدافع أضخم من التي صنعتها حتى الآن؟

وأجاب أوروبان: في استطاعتي أن أصنع لك مدفعاً يدك أسوار القسطنطينية ولو كانت في مناعة أسوار بابل، غير أني مهندس ولست جندياً فلا أعرف أين توضع المدافع.

وضحك محمد الفاتح وقال: أنا الجندي! ما عليك إلاّ أن تصنع المدافع التي أريدها، أما أين توضع وكيف تُصوّب، فدع ذلك لي.

وشرع أوربان في صنع المدافع، يعاونه في ذلك المهندسان

التركيان: صاريحه ومصلح الدِّين، ويشرف عليهم السلطان بنفسه. وبعد ثلاثة أشهر صنع المدافع التي طلبها منه الفاتح، وكان من بينها مدفع عملاق لم ير مثله قط في ضخامته وكبر حجمه، يزن سبعمائة طن وتزن القنبلة الواحدة التي يطلقها هذا المدفع اثني عشر ألف رطل، ويجره مائة ثور يساعدها مائة من الرجال الأشدّاء يزحفون به زحف السلحفاة. وعندما أريد تجربته لأول مرة في أدرنة أنذر السلطان سكّان المنطقة، فسمع دويّه على بعد ثلاثة عشر ميلاً، وسقطت قذيفته على بعد ميل، وغاصت في الأرض ستة أقدام. وقد قطع هذا المدفع الطريق على أدرنة إلى مربضه أمام أسوار القُسْطَنْطينيَّة في شهرين، وهو طريق يقطع عادة في يومين!!

وصنع أوروبان إلى جانب هذا المدفع الضخم الذي دعوه بـ(المدفع السلطاني) لأنه سلطان المدافع، مدافع أخرى من عيارات مختلفة، فأصبحت بذلك قوة المدفعية العثمانية متفوقة على قوى المدفعية كلها في العالم، وكان لهذا التفوق أثره الحاسم في فتح القُسْطَنْطينيَّة وفي فتوح العثمانيين في أوروبا وغيرها في أيام محمد الفاتح وخلفائه من بعده.

ورأى السلطان الفاتح أنّ الطريق إلى القُسْطَنْطينيَّة من ناحية الدردنيل لا تزال مفتوحة، تدخل منها السفن المعادية وتخرج في حريّة تامة، فأمر بالإسراع في بناء سفن جديدة وإصلاح السفن القديمة وحشدها في بحر مرمرة لمنع أيّ سفينة معادية من تموين القُسْطَنْطينيَّة، وقد بلغ عدد هذه السفن على اختلاف أنواعها وأحجامها أربعمائة سفينة[1]، كان المسلح منها تسليحاً تاماً اثنتي عشرة سفينة فقط.

وفي يوم الجمعة العشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة الهجريَّة (٣٠ آذار ـ مارس ١٤٥٣م) كان الفاتح قد أتم استعداداته العسكريَّة: طهّر المنطقة المحيطة بالقُسْطَنْطينيَّة من العدو، وسيطر عليها،

---

(١) هناك تقديرات أخرى تذكر أنّ عدد السفن بين ٣٥٠ إلى ٣٠٠ إلى ٢٥٠.

وضمن عدم معاونة الدول المسيحية القريبة من القُسْطَنْطينيَّة لها عند نشوب القتال، وكدّس الأسلحة والعتاد والذخيرة والقضايا الإدارية، وسيطر على المنافذ المائية للقسطنطينية، وحشد القوات المسلحة النظامية وغير النظامية، وحرّض قواته على القتال، وبثّ فيها روح الجهاد، ورفع معنوياتهم بالعقيدة الراسخة المستمدة من تعاليم الدِّين الحنيف.

الزَّحف

زحف محمد الفاتح بجيشه إلى القُسْطَنْطينيَّة، وما إن وصل إلى مشارف المدينة حتى خطبهم خطبة بليغة حثّهم فيها على الجهاد وصدق القتال، وقرأ عليهم في ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المبشِّرة بفتح القُسْطَنْطينيَّة، وأبان لهم أيّ أجر يحوزون بفتحها الذي سيعزُّ الإسلام ويرفع قدره بين الأمم. وكان في طليعة الجيش الشيوخ والعلماء والدراويش يتقدّمهم الشيخ العالم العامل آق[1] شمس الدِّين والمولى أحمد الكوراني والمولى خسرو والأشرف من آل بيت النبي ﷺ، وكان الجميع يدعون اللّه أن ينصر جيش المسلمين ويبيِّض وجوه المجاهدين والمقاتلين.

وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة الهجريَّة (٥ من نيسان ـ أبريل ١٤٥٣م) بلغ الجيش الإسلامي أمام أسوار القُسْطَنْطينيَّة، وكان منظراً من أروع ما روى التاريخ: جموع زاخرة من الجند بين مشاة وخيالة ومدفعية وهندسة... إلخ. بأعلامهم الخفاقة المزهوة، وقوافل النقلية مثقلة بمواد التموين والعتاد والذخيرة. واختلطت صيحات الرجال بصهيل الخيل، وامتزج التكبير بالموسيقى[2] العسكريَّة، وكانت تعلو رؤوس الناس عمائم بيض هي عمائم

---

(١) آق: الأبيض، الأبرش. وآق شمس الدين: شمس الدين الأبرش أو الأبيض.

(٢) كان العثمانيون أول من عرف الموسيقة العسكرية في العالم، وعنهم أخذت جميع أمم أوروبا.

.Sir Edward Greasy. History of the Ottoman Turks

العلماء العاملين. ولما آن وقت صلاة الظهر نشر السلطان سجادته واستقبل القبلة وكبَّر للصلاة وكبَّر الجيش اللّجب في صوت جهير رهيب وراء إمامه وقائده.

وشرع السلطان بعد ذلك يتأهّب لحصار القُسْطَنْطينيَّة، فعبَّأ جنده ونظَّمه ووزَّع العُدَد والآلات، ووضع كلّ شيء في موضعه ونسّقه تنسيقاً يدل على براعته الفائقة في الفنون العسكريَّة.

خطة الحصار

وفي اليوم التالي، يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة الهجريَّة (٦ من نيسان ـ أبريل ١٤٥٣م) بدأ حصار القُسْطَنْطينيَّة.

ولكي ندرس خطّة الفاتح في الحصار، لا بدّ لنا من معرفة طبيعة المدينة المحاصرة وأبرز عوارضها الطبيعية والاصطناعية ـ بخاصة التي سيرد ذكرها في عمليَّات الحصار والفتح.

مدينة القُسْطَنْطينيَّة مثلَّثة الشكل، جانب منها على بحر (مرمرة) وجانب على ميناء القرن الذهبي، ويمتد على طول كل منهما سور واحد. أما الجانب الثالث فيقع في الجهة الغربيَّة ويصل المدينة بأوروبا، وحوله خطان من الأسوار طولهما أربعة أميال يمتدان من شاطىء بحر (مرمرة) إلى شاطىء القرن الذهبي، يبلغ ارتفاع السور الداخلي منهما نحو أربعين قدماً، وقد دعم بأبراج شبيهة بأبراج طولها ستون قدماً، والمسافة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدماً. ويبلغ ارتفاع السور الخارجي نحو خمسة وعشرين قدماً، وقد حِصّن بأبراج السور الداخلي، وإن كانت أصغر حجماً من الأولى قليلاً، وهذا السور الخارجي وحده كان من القوة والمناعة بحيث يكفي لحماية أي مدينة من مدن العصور الوسطى. وبين هذين السورين: الداخلي والخارجي أرض مكشوفة متوسط عرضها نحو خمسين أو ستين قدماً. ويقع أمام السور

الخارجي سور ثالث لس بذي خطر، يسهل اقتحامه ويمكن أن نطلق عليه: متراساً، وبين السور الخارجي والمتراس أرض مكشوفة أيضاً، أمامها مباشرة خندق واسع يبلغ عرضه نحو ستين قدماً، ويعتبر هذا الخندق الخط الدّفاعي الأمامي عن القُسْطَنْطينيَّة.

وللسور الخارجي أبواب كثيرة، والتي جاء ذكرها في أثناء الحصار هي: باب (أدرنة)، وباب المدفع (طوب قبو) وكان القدماء يسمونه باب القديس رومانوس، والباب العسكري.

لقد خلقت القُسْطَنْطينيَّة صالحة للدفاع عنها إلى أبعد الحدود براً وبحراً، لذلك استعصى فتحها على الغزاة عبر القرون الطويلة.

وعوارضها الطبيعية والاصطناعية، جعلت من الميسور الدِّفاع عنها بقوات صغيرة بالنسبة لقوات المهاجمين.

لذلك كانت مهمة محمد الفاتح في فتح القُسْطَنْطينيَّة شاقّة عسيرة، فلا عجب أن يبذل ما بذله من جهود جبارة إعداداً لقواته المسلحة البحرية والبرية على حدٍ سواء، وفتح خزائنه على مصراعيها لإكمال استعداداته العسكريَّة، حتى ينهض بهذا الواجب الشّاق العسير.

كانت خطّة الفاتح لحصار المدينة تتلخص بتقسيم قواته إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ الميمنة:

وتتألف من جنود الأناضول بقيادة إسحٰق باشا ومحمود بك، وتمتد من بحر مرمرة أقصى جناحها الجنوبي إلى (طوب قبو).

ب ـ الميسرة:

وتتألف من جنود أوروبا والمجاهدين والجنود غير النظاميين بقيادة (قره جه باشا)، وتمتدُّ من ميناء القرن الذهبي أقصى جناحها الشمالي إلى باب (أدرنة) بمواجهة السور.

ج ـ القلب:

ويتألف من جنود الإنكشارية والجنود المختارة بقيادة محمد الفاتح، ويواجه الجزء الأوسط من السور الذي من (طوب قبو) إلى باب (أدرنة)، وهذا الجزء من السور يعتبر أضعف جزء فيه، إذ يقع في وادي (ليكوس)، وقد وُجِّه إليه أشد الهجوم.

وقد أقام الفاتح مقر قيادته خلف القلب.

والواقع أنّ هذه الخطة مرنة جداً، إذ ولّى كل قسم من أقسام جيشه قيادة خاصة به، وأعطى حرية العمل للقادة ضمن قواطعهم تطبيقاً للخطة العامَّة وتنفيذاً لتفاصيلها، ومع ذلك سيطر على زمام القيادة العليا، لتأمين التعاون الكامل بين قواته في الحصار.

ولكي يحرم القُسْطَنْطينيَّة من معاونة الجنويين في حي (غلطة) أمر زغنوس باشا مع فرقته بالتعسكر على المرتفعات المشرفة على هذا الحي، لمراقبة الجنويين ومنعهم من إمداد المدينة المحاصرة ومراقبة الشاطىء الشمالي من القرن الذهبي، وأمره الفاتح أن يقيم جسراً عند نهاية الميناء لتسهيل الاتصال ونقل الجنود من إحدى الضفتين إلى الأخرى عند الحاجة، وليتمكّن من المشاركة في الهجوم على المدينة من ناحية البر، وبذلك أصبحت فرقة زغنوس باشا احتياطاً لقوات الفاتح بالإضافة إلى واجباتها الأخرى.

ونصب السلطان أمام السور البري المدافع بالنسبة لمَدَياتِها، فوضع ذات المدى القصير قريبة من الأسوار وحماها بالجنود والتحصينات، ووضع ذات المدى المتوسط خلفها، ووضع ذات المدى الطويل خلف المدافع الثَّانية، وبذلك رتّب مدفعيته بالعمق، ووضع لها خطّة مفصّلة لقصف الأسوار. وكانت المدفعية العثمانية مؤلفة من أربع عشرة سرية مدفعية[1]، وقد نصب المدفعية الضخمة منها مقابل باب رومانوس، ومنذ

---

(١) سرية مدفعية، بطّريّة مدفعية.

ذلك الوقت عرف هذا الباب باسم: (طوب قبو)[1].

وانتشرت السفن العثمانية في بحر (مرمرة) لمنع ما قد يأتي من السفن المعادية من الغرب لإنجاد القُسْطَنْطينيَّة ومراقبة السور الواقع على بحر (مرمرة). وقد أمر السلطان قائد بحريته (بالطه أوغلي) بتطهير بحر (مرمرة) والاستيلاء على جزر الأمراء[2]، وقد استولى عليها (بالطة أوغلي) وانتشل منها المعتقلين والمسجونين والدهاليز المظلمة التي كانوا فيها وأطلق سراحهم، ثم وضع في هذه الجزر حاميات عثمانية.

وخشي قسطنطين أن تقتحم هذه السفن ميناء القرن الذهبي وتحاصر المدينة من تلك الناحية، فقد كان السور القائم هناك أضعف الأسوار كلها، ومن هذا الجانب دخل الصليبيون القُسْطَنْطينيَّة سنة إحدى وستمائة الهجريَّة (١٢٠٤م)، فشدّد الحراسة على هذا الميناء.

كما أعدّ قسطنطين كل ما استطاع إعداده من جند وعتاد ومواد تموينية لمقاومة هذا الحصار ومحاولة صدِّه، ووزّع جنوده على أسوار القُسْطَنْطينيَّة، واتّخذ هو مقرّه تجاه قلب الجيش العثماني ما بين باب (أدرنة) و(طوب قبو) ومعه القائد الجنوي (جستنيان) الذي ولاّه منصب قائد الدِّفاع العام كما ذكرنا سابقاً.

وقد اختلف المؤرخون في تقدير الجيش العثماني، فالمؤرخون البيزنطيون القُدامى[3] يبالغون في تقديره ويرفعونه إلى ثلاثمائة ألف مقاتل أو أربعمائة ألف مقاتل. ومن الواضح ـ كما قال الأستاذ (مازاس): إن هؤلاء المؤرخين يبالغون في تعداد الجيش العثماني بقصد تهوين شأن

---

(١) طوب قبو، باب المدفع.

(٢) تقع هذه الجزر في وسط بحر مرمرة، وكانت منفى لأباطرة الروم وأمرائهم، لذلك سميت جزر الأمراء.

(٣) أمثال فانتزتس ودوكاس وخالكونديل.... إلخ.

الهزيمة التي نزلت بالروم[1] وتهوين شأن النصر الذي أحرزه العثمانيون، ويقدِّر قسم من المؤرخين الغربيين الجيش العثماني بمائة وخمسين ألفاً أو مائة وستين ألفاً، وهو تقدير أقرب إلى الاعتدال، وإليه ذهب قسم من المؤرخين العثمانيين أنفسهم[2].

أما المدافعون عن قسطنطينية، فقد اتفق الكتّاب المعاصرون من الرّوم على وجه يشبه الإجماع على تقديرهم بثمانية آلاف مقاتل، ويكاد يجمع المؤرخون الأوروبيون المحدثون على الأخذ بهذا التقدير، وقدّروا أنّ نصف هؤلاء المدافعين من الرّوم، والنصف الآخر من اللاتين.

أما مؤرخو الأتراك المحدثون[3]، فيستبعدون هذا التقدير ويستقلّونه ويرونه نوعاً من الاعتذار للرّوم عن هزيمتهم، وهم يعدّون عدد المدافعين بما لا يقل عن ستين ألفاً.

والواقع أنّ تقدير الرّوم عدد المدافعين بثمانية آلاف مقاتل ليس معقولاً، إذ شارك في الدِّفاع عن القُسْطَنْطينيَّة حتى الرهبان والقسس وغيرهم من المدنيين دفاعاً عن دينهم أو حمية.

كما أن المدينة المحاصرة استوعبت كل الرّوم الذين أُجِلّوا عن مدنهم وقراهم التي فتحها العثمانيون قبيل فتح القُسْطَنْطينيَّة وتكدّسوا في داخل المدينة المحاصَرة.

فإذا قدرنا عدد الرّوم في القُسْطَنْطينيَّة بما لا يقل عن نصف مليون نسمة، فإن الجيش المدافع عنها لا يقل عن خمسين ألف مقاتل، لأنّ القاعدة العسكريَّة تنص على أن القادرين على حمل السلاح من مجموع السكان يبلغ عشرة بالمائة.

---

(١) Mazas, Les Hommes Illustres

(٢) أحمد مختار ـ فتح جليل قسطنطينية.

(٣) كأحمد مختار باشا وضياء شاكر.

والقاعدة العسكريَّة في قتال المدن تنص على أن نسبة المهاجم إلى المدافع تكون ثلاثين للمهاجم وواحد للمدافع، نظراً لاحتماء المدافع بالحصون والقلاع والأسوار والأبنية والشوارع والمزارع والبساتين.

فإذا قدّرنا عدد المدافعين من الرّوم بما لا يقل عن خمسين ألف مقاتل، فإنّ انتصار العثمانيين عليهم وهم بين ثلاثمائة ألف مقاتل وأربعمائة ألف مقاتل يعتبر مفخرة للعثمانيين، لأنّ نسبة المهاجمين إلى المدافعين لا تزيد على ستة على واحد أو ثمانية على واحد في أكثر تقدير.

تلك هي الحقيقة، أما الدِّفاع عن هزيمة الرّوم بشتى المعاذير، فلا سند له نتيجة للدراسة العسكريَّة الفنية.

المناوشات

أخذت المدفعية العثمانية تقصف أسوار القُسْطَنْطينيَّة ليلاً ونهاراً، وكان لاصطدام القنابل بالأسوار دويّ هائل يملأ نفوس سكّان القُسْطَنْطينيَّة رعباً وهلعاً وبخاصة في ساعات الليل الهادىء البهيم، وقد أثّر ذلك في معنويات المحاصَرين تأثيراً سيئاً.

واستبسل الفريقان، فكان المدافعون يبادرون فوراً إلى إصلاح ما يصيب الأسوار من عطب، بينما يندفع العثمانيون بين الحين والآخر بكل بسالة وإقدام لاقتحام الأسوار.

واستطاعت المدفعية العثمانية أن تهدّ جزءاً من السور الخارجي عند وادي (ليكوس)، فاندفع العثمانيون نحو الثغرة في اليوم الثامن عشر من نيسان ـ أبريل ١٤٥٣م وتسلّقوا السور بالسلالم.

وقذف (جستنيان) بجميع جنوده المدرعين إلى موضع الثغرة، فاشتدّ القتال بين الطرفين وانهمرت السهام والنبال من كل جانب حتى حلّ ظلام الليل، فأمر الفاتح رجاله بالانسحاب بعد أن استحصل على مزيد من المعلومات عن الرّوم.

وفي نفس ذلك اليوم، حاولت بعض السفن العثمانية تحطيم السلسلة القائمة على مدخل ميناء (القرن الذهبي) واقتحامه، ولكن سفن الرّوم والطليان التي كانت أكثر ارتفاعاً من السفن العثمانية الصغيرة القصيرة، استطاعت صبّ قنابلها ونيرانها على السفن العثمانية وصدها بعد تكبيدها خسائر بالأرواح والسفن.

هذان النصران التعبويان في البر والبحر، رفعا معنويات المدافعين عن القُسْطَنْطينيَّة من جهة، وشحذا همم العثمانيين من جهة أخرى.

وفي صبيحة الجمعة أحد عشر من شهر ربيع الأول (في صبيحة اليوم العشرين من نيسان ـ أبريل ١٤٥٣م) ظهرت في بحر (مرمرة) خمس سفن قادمة من الغرب تحمل الرجال والمعدات والمؤن: أربع منها بعث بها البابا وجنوى والخامسة للإمبراطور، وكان سكّان القُسْطَنْطينيَّة يتوقّعون وصول مثل هذا المدد ويترقّبونه. وما إن علم الفاتح بأمر هذه السفن حتى ترك مقره وأسرع على حصانه إلى شاطىء (غلطة) وأمر قائد بحريته (بالطة أوغلي) بملاقاة هذه السفن وقال له: إما أن تستولى على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفّق في ذلك فلا ترجع إلينا حياً.

وتحفز (بالطة أوغلي) في مجموعة من سفنه لملاقاتها وقتالها، ووقف السلطان مع رجاله على ساحل (غلطة) يشاهدون المعركة ولكن سفن العثمانيين لم تقو على مصاولة السفن النصرانية الخمس، لأنّ السفن العثمانية بنيت قبيل البدء في حصار القُسْطَنْطينيَّة على عجل، فجاءت غير محكمة البناء ولا متقنة الصنع، ولم يكن هناك في السفن العثمانية غير ثماني عشرة سفينة كانت على شيء من القوة، أما سائر السفن فكانت لا تعدو أن تكون قوارب صغيرة مكشوفة مملوءة بالجند، ولم تكن مسلّحة بالمدافع، ذلك أنّ العثمانيين كانوا حديثي العهد بالبحرية وأساليب قتالها، وكان الطليان في ذلك الحين سادة البحر بلا منازع. وكانت السفن النصرانية فوق ذلك محكمة البناء متفوقة بالحجم والقوة كاملة العدة

والعتاد، وقد لبس رجالها الدروع والزرود، وأخذوا يطلقون قنابلهم ونيرانهم الفتاكة على القوارب العثمانية الصغيرة، وهي تحاول بمجاديفها الخشبية مغالبة الريح الشديدة التي كانت تعوقها عن التقدم.

وسكنت الريح فجأة، فتوقفت السفن الخمس عن السير وانكمشت أشرعتها، وكانت قد قاربت مدخل (القرن الذهبي). وانتهز (بالطة أوغلي) هذه الفرصة، فانقض بسفنه على السفن الخمس محاولاً إحراقها بالنار، ولكن سرعان ما يُصبّ عليها الماء فيطفئها.

وعاود (بالطة أوغلي) الهجوم مرة بعد أخرى، حتى أصيبت إحدى عينيه. واحتدم القتال، واستقتل العثمانيون، وتساقط منهم عدد كبير من الشهداء.

وكان الفاتح على شاطىء (غلطة) يراقب المعركة بعين لا تطرف وهو لا يكاد يستقر فوق ظهر جواده، فلمّا رأى ما حاق برجاله من قتل وسفنه من تدمير، لم يتمالك نفسه فاندفع نحو البحر حتى غاص جواده إلى صدره. وكانت السفن على مرمى حجر منه، وكان يلوّح لبالطة أوغلي بأعلى صوته: يا قبطان...! يا قبطان....!.

وكانت الشمس قد بدأت تغيب، وفجأة هبّت الريح من الجنوب قوية، فنشرت السفن الخمس أشرعتها ومرقت من بين السفن العثمانية بخفّة واندفاع، وانفلتت إلى (القرن الذهبي)، حيث أنزلت السلسلة الضخمة، ثم شدها الرّوم مرة أخرى ووصلت السفن الخمس سالمة. وهكذا انتهت معركة (غلطة) البحرية بخسارة فادحة في السفن والبحّارة العثمانيين، فخرج السلطان من الماء وقد ابتلّت أطراف ثيابه وعلاها ماء البحر الممزوج بالدم، وعاد إلى المعسكر وهو مطرق في صمت رهيب.

أما سكّان القُسْطَنطينيّة فقد غمرتهم موجة من الفرح والاغتباط بما أحرزوه من نصر، وزاد أملهم وثقتهم في المستقبل، ولاح لهم أنّهم

سيهزمون العثمانيين ويردّونهم على أعقابهم عن أسوار القُسْطَنْطينيَّة.

أما السلطان فقد أنَّبَ (بالطة أوغلي) وعزله من منصبه وعيّن مكانه حمزة باشا.

كما استفاد الفاتح من مدفعيته، فضاعف قصفها للأسوار، في محاولة لرفع معنويات رجاله والتأثير في معنويات المدافعين عن القُسْطَنْطينيَّة.

سُفُن البَرّ

أخذ السلطان يفكِّر في خطّة تؤدي إلى إدخال سفنه في القرن الذهبي، للسيطرة على هذا الميناء وحصار القُسْطَنْطينيَّة من أضعف جوانبها وإضعاف الدِّفاع عن السور البري وتشديد المراقبة على سكان مدينة (غلطة) من الجنويين الذين يعملون بوجهين: وجه معه ووجه مع أعدائه، ثم تسهيل المواصلات مع قاعدته في (روم‌للي حصار).

وقد حاولت السفن العثمانية مرات عديدة تحطيم السلسلة الضخمة القائمة عند مدخل الميناء فلم توفق، وكان أحد طرفي السلسلة يقع في شاطىء (غلطة) مدينة الجنويين، وكانت العلاقة بينهم وبين سلطان علاقة سلام وإن كانوا يميلون بعواطفهم إلى الرّوم ويتمنّون لهم النصر.

ولاحت للسلطان فكرة بارعة هي نقل السفن العثمانية من مرساها في (بشكطاش) إلى (القرن الذهبي)، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناثين مبتعداً عن حي (غلطة) خوفاً على سفنه من الجنويين.

وكانت المسافة بين الميناثين نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة، بل كانت وهاداً وتلالاً. وأمر الفاتح فَعُبِّدت الأرض وسُوِّيَت، وأُتي بألواح خشبية دُهنت بالزيت والشّحم ورُصفت على الطريق الممهّد لها بطريقة تسهل انزلاق السفن عليها وجرّها، واختار الخفيفة وأمر بتزليقها على هذه الألواح المدهونة، فنشرت أشرعتها وجرها العمال

فسارت وكأنها تجري على البحر.

وكان أصعب جزء من الطريق هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، إلاّ أنّه بصفة عامّة كانت السّفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن نسبياً.

وقد تمّ للسلطان نقل السفن في ليلة واحدة هي ليلة ٢١ ـ ٢٢ نيسان (أبريل سنة ١٤٥٣م)، وكان مجموع ما نقل في تلك الليلة سبعين سفينة نقلت من البسفور إلى القرن الذهبي عبر الطريق البري. وقد صرف الفاتح أنظار الرّوم في القُسْطَنْطينيّة والجنويين في (غلطة) وهم أقرب الناس إلى اكتشاف نقل السفن، فقد نصب على الهضاب الواقعة خلف أسوار (غلطة) كثيراً من المدافع فقصفت ميناء (القرن الذهبي) بخاصة قصفاً مركّزاً طيلة يوم ١١ نيسان (أبريل)، وقد أصيبت إحدى سفن الرّوم فغرقت، كما احتمت بقية السفن بأسوار (غلطة). وفي نفس الوقت حاولت السفن العثمانية عدّة مرّات اقتحام السلسلة القائمة عند مدخل القرن الذهبي دون جدوى.

كما ضاعفت المدفعية القائمة تجاه السور البري للقسطنطينية قصفها الشديد ليلاً ونهاراً.

وقد نجحت هذه الخطة في صرف انتباه الرّوم والجنويين عما يجري من نقل السفن براً، لذلك لم يحاول أحد عرقلة نقلها بهجوم مضاد أو قصف بالمدفعية.

كانت هذه الخطّة الجريئة الحصيفة مباغتة كاملة للرّوم، مع أنّ فكرة نقل السفن براً فكرة قديمة استخدمت في الماضي، ولكن تطبيقها وتنفيذها بهذه السرعة وبهذه الدقّة وبهذا الكتمان جعلها مباغتة للرّوم أثرت في معنوياتهم أسوأ تأثير.

فقد استيقظ أهل القُسْطَنْطينيّة في صباح يوم ٢٢ نيسان (أبريل) على

صيحات المسلمين: اللَّه أكبر. . . . اللَّه أكبر تمتزج بأنغام موسيقاهم العسكريَّة، عقب نزولهم في ميناء (القرن الذهبي)، وأطلوا من فوق أسوارهم ليروا تحت أعينهم سبعين سفينة عثمانية في الميناء برجالها ومعداتها، فانتابهم الهلع والفزع وانهارت معنوياتهم انهياراً شديداً.

ودفعت السفن العثمانية إلى أعلى الميناء حيث الماء ضحضاح وتحميها القوات البرية العثمانية من الضفتين، فلا تجرؤ السفن المعادية الراسية في الميناء على الدنو منها، وأمر السلطان الفاتح بعد ذلك بأن يبني جسر عائم، فجمعت الصفائح والصناديق الخشبية وشدّت ببعضها بالكلاليب والحبال الضخمة، وثبتت عليها ألواح من الخشب، ثم نصبت عليها المدافع لقصف الجانب المواجه للميناء من أسوار القُسْطَنْطينيَّة، فأصبحت سفن الرّوم في (القرن الذهبي) مطوقة من جانبين بالسفن العثمانية: من أعلى الميناء ومن خارجه أيضاً، وهي لا تكف عن محاولة تحطيم السلسلة القائمة عند مدخله، فأصبحت السفن النصرانية بذلك في خوف دائم وحذر شديد.

القتال البحري

واضطر قسطنطين أن يضع في جانب السور المشرف على ميناء (القرن الذهبي) عدداً مناسباً من الجنود لحمايته ومراقبة السفن العثمانية. ثم دعا (جستنيان) وبعض كبار رجال الجيش واجتمع بهم في كنيسة (سانت ماري) وشاورهم في أمر السفن العثمانية التي استقرّت في ميناء القرن الذهبي، فأجمع رأي المؤتمرين على وجوب التخلص منها وذلك بمباغتتها ليلاً وإحراقها.

وأخذ (جاكومو كوكو Jacomo Coco) من أهل البندقية على نفسه قيادة هذه الحملة التدميرية، فتسرّب الخبر إلى الجنويين في (غلطة) فأبلغوه إلى السلطان الفاتح. وفي نفس الوقت أرسلوا وفداً إلى المؤتمرين طالب قسطنطين بعدم الاستعجال في أمر خطير كهذا، وأن يشاركوهم في الحملة

التدميرية بشرط أن تؤجل العملية يوماً واحداً، ليكونوا يداً واحدة على العثمانيين.

وقَبِلَ قسطنطين ما عرضه وفد الجنويين عليه، وتأجّل تدمير السفن العثمانية إلى ليلة أخرى.

وفي فجر يوم ٢٤ نيسان (أبريل)، بعث الجنويون مرة أخرى إلى السلطان الفاتح يخبرونه بما تمَ بين المؤتمرين، فحشد الفاتح من فوره عدداً من الجند ومعهم المدافع والأسلحة الكافية لاقتناص السفن المعادية.

وفي الهزيع الأخير من يوم ٢٤ نيسان (أبريل)، غادرت السفن النصرانية ميناء (غلطة) للانقضاض على السفن الإسلاميَّة، وكان اللّيل حالك السواد، فلم تكد السفن النصرانية تقلع وتبدأ الإبحار حتى لمح بعضهم ناراً تضاء في قمة برج (غلطة) كأنما تنذر العثمانيين بإقلاع السفن لتنفيذ الخطة التدميرية.

ومضت السفن النصرانية في سيرها، فلمّا قاربت الهدف أبى القائد البندقي إلاّ أن يكون له السبق في تدمير السفن العثمانية، فدلف بسفينته إلى الأمام. ولم تكد تتقدم خطوات أخرى إلى الأمام باتجاه السفن العثمانية، حتى دهمتها قنبلة ضخمة أعقبتها قنبلة أخرى مماثلة، ففلقتها وابتلعها اليم في لمح البصر بمن فيها وما فيها. ولم تعلم السفن الأخرى في الظلام الدامس بما حلّ بسفينة (كوكو)، ولعلها اعتقدت أنه هو الذي أطلق قنابله على السفن العثمانية، فدلفت سفينة أخرى إلى الأمام، ولم تكد تتقدّم بضع خطوات حتى دهمتها قنبلة شديدة الانفجار فخرقتها هي الأخرى. وأسرع رجالها إلى سد الثلمة وعادوا بها مسرعين، وقد أوشكت على الغرق.

وفرّت بقية السفن الرومية مذعورة بعد ملاحقتها بالقنابل، وأَسَرَ العثمانيون قسماً من بحّارة السفينة الغارقة وقتلوهم، فانتقم قسطنطين لذلك وعلّق على أسوار القُسْطَنطينيَّة رؤوس مائتين وستين من الأسرى العثمانيين.

وجهّز قسطنطين حملة ثانية لحرق السفن العثمانية بقيادة (جستنيان)، ولكنها لم تكن أكثر حظّاً من سابقتها، وأخفقت في مهمتها أيضاً.

ولم يكن من الممكن أن تظل السفن العثمانية والسفن الرومية قابعة في ميناء (القرن الذهبي) بغير صدام، فما لبث أن نشبت بينهما معارك محليَّة ومناوشات يومية، وكانت الحرب سجالاً بينهما.

وفي خلال ذلك لم تتوقّف المدفعية العثمانية عن إطلاق قنابلها على أسوار القُسْطَنْطينيَّة، بينما يبذل المحاصرون قصارى جهدهم لسد الثغرات وتطهير الخنادق من الأنقاض.

تضييق الخناق

بدأ سكان القُسْطَنْطينيَّة منذ أوائل شهر مايس (يونيو) من سنة ١٤٥٣م يشعرون بتناقص المواد التموينية داخل المدينة المحاصَرة وبخاصة الخبز والنبيذ، فاضطر كثير من المقاتلين أن يغادروا مواقعهم للبحث عن غذائهم وغذاء عوائلهم، وهذا أخطر ما يصادفه المحاربون في أثناء القتال، لأنّ المحارب الذي لا يجد ما يطعمه لا يقوى على القتال، فالجندي يمشي على بطنه كما يقولون، ولأنّ المحارب تنهار معنوياته إذا علم أنّ مَن يعول لا يجدون ما يطعمون.

وأمر قسطنطين بأن يُحمل الزاد (الطعام) إلى المقاتلين في مواقعهم، لكي لا تستهدف الأسوار لمباغتة العثمانيين، كما أمر بتوفير الطعام لعوائل المقاتلين، وسأل قسطنطين البنادقة عن أسباب تخلّف البندقية عن إرسال النجدة والمعونة إلى القُسْطَنْطينيَّة تنفيذاً للاتفاق المعقود بينهما في ٢٦ كانون الثَّاني (يناير) سنة ١٤٥٣م.

وفي أثناء هذه الظروف القاسية فكّر قسطنطين في إرسال سفينة لحث أسطول البندقية في بحر الأرخبيل على الإسراع لمعاونة القُسْطَنْطينيَّة، ولكن هذه السفينة التي كانت تحمل آخر أمل للعاصمة البيزنطية لم تجد أسطول البندقية فعادت خائبة حزينة.

في ذلك الحين شنّ العثمانيون هجوماً عنيفاً على أسوار القُسْطَنْطينيَّة، فاشتدّ الضيق والكرب والبلاء على المحصورين. وأشار خاصة قسطنطين عليه وفي مقدمتهم البطريك وجستنيان بالخروج من القُسْطَنْطينيَّة إلى بعض الأمكنة القريبة المجاورة، ويستنجد بنفسه من حوله من النصارى لعلهم يخفّون إلى نجدته، لكنه رفض هذا الرأي وعزم البقاء في عاصمته حتى النهاية.

وهذا يدلّ على انهيار معنويات قادة المحاصَرين، فلو أنّ قسطنطين غادر القُسْطَنْطينيَّة لغادرها رجاله وعلى رأسهم قادته، ولكن قراره على الثبات جعلهم يثبتون.

وبعث قسطنطين رسلاً آخرين إلى إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وسائر بلاد الإفرنج يحملون الكتب إلى أمرائها وملوكها تبيّن لهم الخطر المحدق بالقُسْطَنْطينيَّة ووجوب المبادرة إلى إرسال المعونة والنجدة قبل فوات الأوان.

وعمد الفاتح إلى تشديد الخناق على القُسْطَنْطينيَّة من ناحية السور القائم على ميناء (القرن الذهبي).

ولما رأى أنّ السفن الرومية الكبيرة القوية الراسية في الميناء والبالغ عددها نحو ثلاثين سفينة، قد عاقت سفنه الصغيرة الموجودة هناك عن تسديد ضرباتها إلى السور، كما وقفت حارسة قوية على السلسلة التي تسدّ مدخل الميناء، صمّم على إغراق هذه السفن بطريقة جديدة، فنصب على الهضاب الواقعة خلف (غلطة) مدافع جديدة ضخمة أخذت تقصف الميناء بشدة، وقد أصابت إحدى القنابل سفينة جنويّة تجارية فأغرقتها في الحال. وغرقت بقية السفن الرومية ولاذت بأسوار (غلطة)، فأصبحت بنجوة من قصف المدفعية العثمانية.

واشتكى الجنويّون إلى الفاتح من إغراق سفينتهم وهم على الحياد

حريصون على السّلام، وكان الفاتح يعرف حقيقة أمرهم وموقفهم من القتال الدائر بينه وبين أهل القُسْطَنْطينيَّة، فأجاب بأنه كان يجهل جنسية السفينة المغرقة وكان يحسبها تابعة للعدو، ووعدهم بالتعويض العادل فيما بعد.

وظلّت السفن العثمانية تهاجم ميناء (القرن الذهبي) مرة بعد مرة، كما ظل العثمانيون من ناحية البر يهاجمون السور مرة بعد مرة، وكان الفاتح يرى في إدامة زخم الهجوم براً وبحراً ليلاً ونهاراً سبيلاً إلى إنهاك قوى المحاصرين مادياً ومعنوياً، حتى أرهق أعصاب المحاصَرين وأصبحت نفوسهم مرهقة مكدودة تثور لأتفه الأسباب. ونتيجة لذلك تكرّر النزاع في القُسْطَنْطينيَّة بين البنادقة والجنويين، وكثيراً ما انتهت تلك المنازعات إلى الاقتتال في شوارعها، فيهرع إليهم قسطنطين وقد اخضلت عيونه بالدمع يضرع إليهم ويناشدهم اللَّه إلاّ كفّوا عن هذا النزاع والشجار، وأن ينصرفوا إلى قتال عدوهم المشترك.

وعقد قسطنطين مؤتمراً حربياً، فاقترح أحد رجاله مباغتة العثمانيين بهجوم شديد يستهدف بالدرجة الأولى مخازن المؤن ومستودعات السِّلاح والعتاد، فإنّ ذلك حري بإحياء العزيمة وبعث الهمة في رجاله، ولكن صرف النظر عن تنفيذ هذه الخطة لاستحالة نجاحها.

وفيما هم مجتمعون جاءهم جندي وأخبرهم بأنّ العثمانيين شنّوا هجوماً شديداً باتجاه وادي (ليكوس)، فوثب قسطنطين على فرسه وانطلق خُضراً حتى وصل إلى موضع الهجوم حيث كان القتال لا يزال محتدماً على أشده بين العثمانيين والرّوم. وزج قسطنطين بقواته الاحتياطية لصدّ هجوم العثمانيين، وذهب كثير من الناس إلى الكنائس يصلّون ويتضرّعون حتى مطلع الفجر عندما بلغهم انسحاب العثمانيين إلى قواعدهم، وكان ذلك في يوم الجمعة الثّاني من شهر جمادى الأولى (اليوم الثّاني عشر من مايس ـ مايو).

وفي يوم الأحد الرابع من جمادى الأولى (يوم ١٤ مايس ـ مايو) نقل محمد الفاتح مدافعه من هضاب (غلطة) لتساعد المدفعية الموجودة عند باب (القديس رومانوس)، وليضاعف قصف أصعب نقطة في السور البري. وقد قاوم المدافعون مقاومة باسلة، وسدّوا الثغرات التي أحدثتها مدفعية العثمانيين في السور.

الحرب النفسية

إلى جانب هذه الهجمات المتعاقبة التي قامت بها القوات العثمانية في البر والبحر، كان الفاتح يفاجىء عدوّه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار وحرب الأعصاب.

فقد سمع المحصورون من سكّان القُسْطَنْطينيَّة ذات ليلة يوم ١٦ مايس (مايو) ضربات شديدة تحت الأرض، أخذت تعلو وتقترب شيئاً فشيئاً كأنها تتلمّس طريقها للخروج.

وحمل هذا الخبر إلى قسطنطين وقادته، فخفّوا إلى مصدر الضربات، وهناك أدرك المهندسون الرّوم لأول وهلة أنّ العثمانيين يحفرون أنفاقاً خارج السور ليدخلوا المدينة من تحت الأرض.

وأمر قسطنطين أن يحفر الرّوم نفقاً باتجاه نفق المسلمين إلى مسافة بعيدة، حتى إذا التقى النفقان خرج العثمانيون بدورهم من نفقهم لخوض معركة، خاضوها في أرض حددها لهم العدو. وكان العثمانيون لا يعلمون شيئاً عما يدبّر لهم، فاستمروا يحفرون بعزم ودأب. وما إن وصلوا إلى الفجوة التي حفرها الرّوم حتى تملكهم الفرح وظنوا أنهم اهتدوا إلى سرداب خفيّ يوصل إلى المدينة، ولكن فرحهم لم يطل، فلم تكد أعينهم تلمح السماء، حتى صبّ الرّوم عليهم الغاز والنفط والمواد الملتهبة، فمنهم منن اختنق ومنهم من احترق، ومنهم من عاد أدراجه خائباً.

ولكن هذا الاخفاق لم يفتّ في عضد المسلمين، فعاودوا حفر

الانفاق مرة بعد مرة في مواضع مختلفة من المنطقة الممتدّة بين (أكرى قبو) وشاطىء (القرن الذهبي)، إذ كانت هذه المنطقة أصلح مكان للقيام بالحفر، وظلّوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار.

وأصاب الرّوم من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف، حتى صاروا يتسمّعون بين حين وحين إلى مواطىء أقدامهم، وكثيراً ما كان يخيّل إليهم الخوف أنّ الأرض ستنشق ويخرج منها الجنود العثمانيون.

ولم يكن هذا العمل سهلاً هيّناً، فإنّ هذه الأنفاق التي حفرها العثمانيون قد أودت بحياة كثير منهم ماتوا اختناقاً واحتراقاً في باطن الأرض، كما وقع كثير منهم في أيدي الرّوم فقطعت رؤوسهم وقذف بها إلى معسكر السلطان.

ولم يكد سكان القُسْطَنْطينيَّة يستفيقون من الدهشة التي انتابتهم من أنفاق العثمانيين التي حفروها تحت مدينتهم، حتى باغتهم الفاتح باختراع جديد من وسائل الحصار تفتقت عنه ألمعيته وعبقريته الفذّة. فقد استيقظ أهل القُسْطَنْطينيَّة صباح يوم الأحد الثّاني من جمادى الأولى (يوم ٢١ مايس ـ مايو)، فإذا بهم يرون أمامهم قلعة ضخمة شاهقة من الخشب أكثر ارتفاعاً وسموّاً من السور الخارجي، ذات ثلاث طبقات كُسيت كلّها بالجلود السميكة المبلّلة بالماء لئلا تؤثر فيها النار والنبال. وكان في كل طبقة منها عدد من الجنود يحملون القذائف ومختلف معدّات القتال، وتحمل في أسفلها التراب والأحجار والأخشاب لردم الخنادق، وفي أعلاها سلالم من الحبال عصبت في أطرافها كلاليب تلقى على أعلى السور فتنشب فيه ويمرّ عليها الجنود كالقنطرة أو الجسر، بينما النبالة يصوّبون نبالهم على كلّ من يظهر رأسه من السور، ولم يكن بمقدور المدافعين عن المدينة نصب مدافعهم الكثيرة على الأسوار، لأنّ اهتزازها عند إطلاق القنابل منها قد يزلزل الأسوار ويهدُّها.

وقد هال أهل القُسْطَنْطينيَّة أمر هذه القلعة الجبارة، ووقف قسطنطين

ومَنْ معه من أهل المدينة ينظرون إليها في عجب ودهشة وفزع، وقد شهد المؤرخ البندقي (بار بارو) الذي شهد هذه القلعة بنفسه فقال: لو اجتمع نصارى القُسْطَنْطينيَّة على أن يصنعوا مثل هذه القلعة، لمّا صنعوها في شهر، وقد صنعها المسلمون في ليلة واحدة بل في أقل من أربع ساعات.

وأقيمت هذه القلعة الجبّارة تجاه باب القديس رومانوس (طوب قبو) الذي يدافع عنه المغامر الإيطالي (جستنيان)، فلم يعد في إمكان المحاصَرين إصلاح الثغرات الخارجية التي تدكها المدفعية العثمانية طالما هذه القلعة واقفة لهم بالمرصاد، بل أخذت القذائف الحجرية الضخمة تنهال من هذه القلعة نفسها فدكت أحد أبراج السور القريبة عند (طوب قبو). واندفع المسلمون نحو هذه الثغرة، واقتربت القلعة إلى السور، وتسلّق قسم من الجنود العثمانيين السور بالسلالم، وحمي القتال واشتدّ الخطر على المدينة.

ولاح لقسطنطين أنّ الهزيمة في هذه المعركة ستؤدي إلى كارثة قاصمة، فاستبسل هو ورجاله في القتال. وطلب إحضار مواد سريعة الالتهاب تحرق كل ما يصادفها ولا يطفئها الماء، وأخذ المدافعون يقذفون بهذه المواد الملتهبة قلعة العثمانيين، فما لبث أن احترقت الجلود المبللة بالماء التي تكسو القلعة والتهمتها النار.

وانتهت المعركة بتحطيم أربعة أبراج وامتلاء الخندق بالتراب والحجارة، وانسحب العثمانيون بعد حلول الظلام.

ونظر الفاتح إلى قلعته الخشبية التي أصبحت كومة من الرماد، فابتسم قائلاً: غداً نصنع أربعة منها.

لقد كان الفاتح يقاتل عدوّه بأسلوبين: أسلوب الحرب الاعتيادية، وأسلوب الحرب النفسية.

وكان بحق كتلة من النشاط والعزم والتصميم، ومثالاً للقيادة البارعة النادرة القادرة.

اليـأس

أصبح سكّان القُسْطَنْطينيّة في همّ دائم وقلق لا ينقطع، يتطلعون ذات اليمين وذات الشمال وإلى فوقهم وأسفلهم، لا يدرون من أين يدهمهم الخطر والهلاك.

وبات الناس في القُسْطَنْطينيّة على مثل هذا الحال من الخطر والتخوف والتوجس، لا يغمض لهم جفن ولا يستقر بهم مضجع، فكان لذلك أثر في إرهاق أعصابهم ونهك قواهم وتوهين عزائمهم، ففتر نشاطهم وكلّت أيديهم شيئاً فشيئاً عن سد الثغرات التي أخذت تتّسع في عدة مواضع من السور.

وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر جمادى الأولى (الثالث والعشرين من مايس ـ مايو)، عادت السفينة التي أرسلها قسطنطين إلى بحر الأرخبيل للتفتيش عن أسطول البندقية التي كانت القُسْطَنْطينيَّة تؤمل أن ينجدها في ساعة محنتها، فأدخل بحارتها على قسطنطين وأخبروه بأنهم جابوا بحر الأرخبيل عرضاً وطولاً ولم يلقوا سفينة واحدة من سفن البندقية، فاغرورقت عينا قسطنطين بالدموع. وانتشر هذا النبأ الأليم في أرجاء القُسْطَنْطينيَّة، وانتشر معه الألم والحزن وخيبة الأمل.

وهكذا قطع المحصورون كل أمل في مجيء النجدة من الغرب، ووضعوا كل أملهم في هذا السور الضخم العملاق الذي لم تنقطع مدفعية العثمانيين عن قصفه لحظة واحدة من ليل أو نهار، واستحوذ اليأس والقنوط على بطريرك القُسْطَنْطينيَّة فاعتزل منصبه واختلى في أحد الأديرة ليقضي بقية حياته في الصلاة والعبادة والاستغفار.

وفي صبيحة يوم الأربعاء الخامس من شهر جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة الهجريّة (اليوم الرابع والعشرين من مايس ـ مايو) عقد مؤتمر في قصر الإمبراطور حضره قسطنطين ووكيل البطريرك وكبار رجال

الجيش للتشاور والتداول، وكان يسود المؤتمر جو من التشاؤم واليأس، وارتسمت على وجه قسطنطين أمارات الجهد والإعياء. وجرت مناقشة الآراء، وأظهر وكيل البطريرك يأسه من إنقاذ المدينة، فاقترح على الإمبراطور أن يغادرها وينجو بنفسه قائلاً: إذا لم نستطع إنقاذ المدينة، فلا أقل من أن ننقذ الإمبراطور. ووقع هذا الاقتراح وقعاً شديداً على نفس قسطنطين فأغمي عليه، فلمّا أفاق من غشيته أعادوا عليه الاقتراح، ولكنه أصرّ على البقاء في المدينة مهما تكن العواقب.

وفي خلال هذا المؤتمر الحزين، كان يسمع من بعيد دوي القنابل العثمانية وهي تدكّ الأسوار، وصيحات الجنود تتعالى بالتهليل والتكبير. وامتطى الإمبراطور جواده كدأبه كل يوم ليفتش مواقع الجنود، وكان يتوقّف بين موقع وآخر ويترجّل عن جواده ويصعد أعلى السور وينظر إلى معسكر العثمانيين، ثم يهبط ويستأنف طوافه وقلبه يتفطّر ألماً وحسرة.

حدثت في ذلك الوقت بعض الأحداث والظواهر الطبيعية كان لها أثر سيء في المعْنَوِيَّات، لا سيما معنويات أناس كسكّان القُسْطَنْطينيَّة اجتمع عليهم الجهد والإعياء واليأس من طول ما عانوا من أهوال الحصار وويلاته والإيمان العميق بالخرافة والطيرة، فقد خرج في يوم السابع عشر من شهر جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة الهجريَّة (الخامس والعشرين من مايس ـ مايو) موكب من الرجال والنساء وحملوا معهم تمثال العذراء، وأخذوا يجوبون أنحاء القُسْطَنْطينيَّة وهم يستغيثون ويتضرعون.

وفيما كان الموكب يخترق طرقات المدينة، إذ سقط التمثال من أيدي حامليه ووقع إلى الأرض، فارتفعت صيحات الفزع والألم وتسابقوا إلى رفعه، وتشاءموا بهذا الحادث ورأوا فيه نذيراً بسقوط المدينة. ولم يمض وقت طويل، حتى ثارت زوبعة شديدة وبرقت السماء وأرعدت، ثم تهاطل المطر غزيراً مدراراً، فطغى الماء وعاق الناس عن السير.

وفي يوم السبت السابع عشر من شهر جمادى الأولى (اليوم السادس

والعشرين من مايس ـ مايو)، تجمّعت السحب والضباب في السماء وتكاثفت، ثم انقض نيزك من السماء على قبة كنيسة (آيا صوفيا) كاد يخطف الأبصار، فازدادا تشاؤماً واشتدّ بهم الفزع، واعتقدوا أنّ اللّه قد تخلّى عنهم وعن مدينتهم.

وقصد وكيل البطريرك وقسم من كبار الرهبان قسطنطين ونصحوا له بمبارحة المدينة، فقد ظهرت أمارات تدلّ على قرب سقوطها بيد العثمانيين بعد أن رفع اللّه عنها حمايته ورعايته. وما أن سمع قسطنطين هذا القول حتى غشي عليه وسقط إلى الأرض، وعندما أفاق قال لمن حوله: إذا كانت هذه هي إرادة اللّه، فأين نفرّ من غضبه؟! سأبقى هنا وأموت معكم.

وكان هناك أناس في المدينة تداعب أخيلتهم أطياف من الأماني والتعلّات تبعث في نفوسهم شعاعاً من الأمل والنور في هذا الجو المظلم الكئيب. كان فريق من هؤلاء الناس يذكرون كيف حاصر السلطان مراد الثّاني والد السلطان الفاتح مدينة القُسْطَنْطينيَّة وأطبق عليها بخيله ورجاله، ولكنه اضطر آخر الأمر إلى أن يرفع الحصار عنها، وكان فريق من هؤلاء يردِّدون نبوءة مشهورة ذائعة وهي: إنّ العثمانيين إذا انتصروا، سيزحفون حتى يبلغوا كنيسة (آيا صوفيا)، وهناك يهبط ملك من السماء فيقهرهم ويردُّهم على أعقابهم!!!

هكذا كانت حال القُسْطَنْطينيَّة في أيامها الأخيرة وهي تدنو من نهايتها، تتوزّعها الأوهام والأماني والنبوءات.

أما قسطنطين وجنوده، فكانوا يعرفون الحالة على حقيقتها ويدركون خطر الموقف وشدّة بأس العدو.

قُبَيْل الهجوم العام

مضت سبعة أسابيع والحصار قائم على قدم وساق، وقد تهدّمت أجزاء كثيرة من السور وأبراجه وامتلأ الخندق بالأنقاض، بعد أن كلّت أيدي المحصورين عن رفعها.

وأصبحت أمام السلطان الفاتح ثلاثة مسالك للهجوم واقتحام المدينة: الأول ما بين (تقفور) وباب (أدرنة)، و الثَّاني في (وادي ليكوس) عند باب القديس رومانوس (طوب قبو) وهو أكبر الأماكن تهدّماً وانهياراً، والثالث بالقرب من الباب العسكري الثالث.

واعتقد الفاتح أنّ السبيل قد تمهَّد أمامه، وأنّ الوقت قد حان للقيام بالهجوم العام.

ولكنه قبل أن يُقْدِم على تنفيذ الهجوم العام، بعث برسالة إلى قسطنطين يدعوه فيها إلى تسليم المدينة قبل أن يستمرّ القتال وتُراق الدماء وتكون المدينة غنيمة للفاتحين، وأوفد إليه إسماعيل اسفنديار أوغلو الذي كانت تربطه بقسطنطين صحبة قديمة، وعرض عليه أن يسلِّم القُسْطَنْطينيَّة بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الخراب والبؤس والشقاء وتهدّمت أسوارها، وأن يجنِّب الأطفال والنساء والشيوخ أهوال الحرب وويلاتها، وعرض عليه باسم السلطان أن يكون حاكماً على (المورة) كما كان من قبل. أما سكّان المدينة فمن أراد رحل عنها بما شاء من أمواله، ومَن آثر البقاء فيها ضمن لهم السلطان الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم. فإن أبى قسطنطين هذا، فلا ينتظرنّ غير الحرب الشعواء الضروس التي لا ترحم.

واجتمع قسطنطين برجاله وأهل مشورته وعرض عليهم رسالة الفاتح، فمال قسم منهم إلى تسليم المدينة، ولكنّ جستنيان ونفر من رجال الحرب أصرّوا على مواصلة القتال مهما تكن نتائجه. وكان ذلك رأي قسطنطين، فقال لرسول الفاتح: إنه يشكر اللّه إذا جنح السلطان إلى السلم، وإنه يرضى أن يدفع له الجزية، أما القُسْطَنْطينيَّة، فإنه قد أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته، فإما أن يحتفظ بعرشها أو يدفن تحت أسوارها ●. فلمّا بلغ الفاتح جواب قسطنطين قال: حسناً، عما قريب سيكون لي في القُسْطَنْطينيَّة عرش، أو يكون لي فيها قبر.

وعمد السلطان إلى مضاعفة قوة مدفعيته واستمرار قصفها للأسوار بدون انقطاع، وقد تمكّن المهندسون من ابتكار مدفع جديد يرمي قنابله إلى أعلى فتتخطى الأسوار وتسقط في قلب المدينة، كما هي الحال في مدافع الهاون[1]، وكانت المدفعية قبل ذلك ترمي بصورة مستقيمة، فتصيب الأسوار ولا تتخطّاها، وبابتكار المدافع الجديدة أصبحت المدينة كلها لا الأسوار وحدها تحت رحمة قصف المدفعية العثمانية.

وبالإضافة إلى ذلك، عقد السلطان الفاتح مؤتمراً حربياً في مقره حضره وزراء وكبار قادة جيشه والشيوخ والعلماء للنظر في الموقف وما يجب اتخاذه من مقرراته لمعالجته، وطلب الفاتح إلى الحاضرين أن يعلن كل منهم رأيه بصراحة وفي حرية تامة.

وأشار قسم من الحاضرين بالمبادرة إلى الهجوم العام فوراً على المدينة، قبل أن يتسرّب اليأس إلى نفوس الجنود.

وقال الوزير العجوز خليل باشا: إنّ الحميّة والحماسة شيء جميل يستحق الثناء والتقدير، ولكن يجب التريّث والتبصّر قبل الهجوم على قلعة قوية كالقُسْطَنْطينيّة، فقد حاصرت أكبر الجيوش في العالم هذه القلعة أكثر من سبع وعشرين مرة انتهت بالخيبة والإخفاق. والمهم ليس ضرب الحصار على المدينة، بل الاستيلاء عليها، وقد مضى الآن أكثر من أربعين يوماً على حصارنا لها، وبذلنا في ذلك أغلى التضحيات وأفدحها، ولم تبد أية بارقة للنجاح، فالأنفاق التي حفرناها لم تُجْدِنا شيئاً، والقلاع الخشبية حُرقت، والمهندسون قُتلوا. وقد أشرت من قبل بدء الحصار أن هذا العمل أمر عسير لن يحقق الغاية التي نريدها، وقد ظهر لكم الآن صدق قولي ورجاحة رأيي بعد أن مضى عليه أكثر من أربعين يوماً. وإذا أحسنا الغرض والظن واستولينا على القُسْطَنْطينيّة، فإنّ شعوب النصرانية في العالم

---

(١) مدفع قوس.

كله ستتألّب علينا وتزحف إلينا بجموع لا قِبَل لنا بها، ولن تدعنا حتى تسترد القُسْطَنْطينيَّة من أيدينا، فخير لنا أن نقنع بجزية كبيرة نطلبها من قسطنطين ونرفع الحصار عن المدينة ونعود إلى ديارنا في الوقت الذي نستطيع أن نفعل ذلك بأمان.

ولم يكن كلام خليل باشا يخلو من التعريض والنقد للسلطان، وكان الفاتح قد لمس من خليل باشا ما يثير الريبة والشك وما يستحق المؤاخذة والعقاب، ولكنه أغضى وأمسك عنه وأسرّ الأمر في نفسه حتى تواتيه الفرصة. فما زاد الفاتح بعد أن أتمّ خليل باشا كلامه أن تبسم، ثم التفت إلى زغنوس باشا وسأله رأيه. وكان زغنوس لا يزال في عنفوان الشباب، شديد العزم وثّاب الهمّة، وهو الذي كان يشرف على حفر الأنفاق تحت أسوار القُسْطَنْطينيَّة لاقتحامها من بطن الأرض. قال زغنوس: حاشا وكلاّ أيها السلطان! أنا لا أقبل أبداً ما قاله خليل باشا، فما أتينا هنا إلاّ لنموت لا لنرجع. إنّ خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة، ولكنه لن يبوء إلاّ بالخيبة والخسران. إنّ جيش إسكندر الكبير الذي قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من جيشنا، فإذا كان ذلك الجيش قد استطاع أن يستولي على تلك الأرض العظيمة الواسعة، أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة؟! وقد أعلن خليل باشا أنّ دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم منا، ولكن ما الدول الغربيَّة هذه؟! هل هي الدول اللاتينية التي شغلها ما بينها من خصام وتنافس؟ هل هي دول البحر الأبيض المتوسط التي لا تقدر على شيء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أنّ تلك الدول أرادت نصر بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن، ولنفرض أنّ أهل الغرب بعد فتحنا القُسْطَنْطينيَّة هبّوا إلى الحرب وقاتلونا، فهل سنقف منهم مكتوفي الأيدي بغير حراك؟! أَوَلَيس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟

يا صاحب السلطنة! أما وقد سألتني رأيي، فلأعلنها كلمة صريحة:

يجب أن تكون قلوبنا قوية كالصخرة، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقل ضعف أو خور، لقد بدأنا أمراً، فواجب علينا أن نتمّه، ويجب أن نزيد هجماتنا قوة وشدّة، ونفتح ثغرات جديدة وننقضّ على العدو بشجاعة، لا أعرف شيئاً غير هذا، ولا أستطيع أن أقول شيئاً غير هذا.

وبدت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح لسماع هذا القول، والتفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه، فأجاب على الفور: إن زغنوس باشا قد أصاب فيما قال، وأنا على رأيه يا سلطاني. ثم سأل الشيخ آق شمس الدِّين والمولى الكوراني عن رأيهما، وكان الفاتح يثق بهما كل الثقة، فأجابا: إنهما على رأي زغنوس باشا، وقالا: يجب الاستمرار في الحرب، وبالعناية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر.

وسرت الحميّة في جميع الحاضرين، وابتهج السلطان الفاتح واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر، ولم يملك نفسه من القول: مَنْ كان مع أجدادي في مثل قوتي؟!.

والواقع أن الفاتح لم يقل هذا القول تفاخراً ومباهاة، بل قاله لرفع معنويات قادته العسكريين وقادته السياسيين وقادته الدِّينيين. ومع ذلك فهو صادق في تقدير قوته، إذ كان يتفوّق على أجداده بعدد رجاله وضخامة مدفعيته وبأسطوله البحري.

وانفرد الفاتح بعد المؤتمر بوزيره زغنوس باشا وقال له: يجب ألاّ نضيّع شيئاً من الوقت، فقد دكّت الأسوار، وأعدت العدة للهجوم، وتخيرنا مواضعه، فاذهب إلى الجنود وأخبرهم أنّ ساعة الهجوم قد أزفت، وانظر أثر هذا القول فيهم، وارجع به إليّ.

وذهب زغنوس باشا إلى المعسكر، وجمع الجند حوله، وقال لهم: إنّ سلطاننا المعظم يرى أنّ الحصار والغارات التي دامت أسابيع كافية، وآن أوان الهجوم العام، ولا يرى متى يصدر أمره به، وأظنه قريباً جداً، لقد حانت الساعة لكي تظهروا شجاعتكم وبسالتكم في هذا الهجوم، ولا

ريب في أنه يحتاج إلى أعظم الجهد وأكبر التضحيات، فهل أنتم مستعدون؟.

ولم يكد زغنوس باشا يلقي سؤاله، حتى جلجل هذا المعسكر الواسع المترامي بدوي كهزيم الرعد، وهتف الجند بصوت واحد: اللَّه أكبر. . . . اللَّه أكبر.

وعاد زغنوس باشا إلى الفاتح ليخبره بما رأى وسمع، فاطمأن السلطان إلى أنّ رجاله عند حسن ظنه، وأن معنوياتهم عالية جداً، وأنهم مستعدون للتضحية والفداء.

وفي يوم الأحد الثامن عشر من شهر جمادى الأولى السابع والعشرين من مايس (مايو) أمر الفاتح جنوده بالصّيام تطهيراً وتزكية للنفوس وتقوية للعزيمة والإرادة.

وزار الفاتح في ذلك اليوم سور القُسْطَنْطينيَّة من بحر (مرمرة) إلى القرن الذهبي يستطلع أجزاءه بدقّة وبتفحّص ما أحدثته المدفعية فيه من ثغرات، والمواضع التي لا تزال تحتاج إلى الدك والهدم منه.

ولم تنقطع المدفعية طوال ذلك اليوم واليوم التالي عن قصف السور وبخاصة المواضع التي رممها المحاصرون.

وفي مساء ذلك اليوم أوقد الجنود العثمانيون النيران والمشاعل والقناديل، وأشعلت الشموع على رؤوس الرماح حول معسكرهم، وتصاعد الضوء إلى الفضاء في توهّج ونور،وتشربت مياه بحر (مرمرة) والبسفور باللون الأحمر، واستحالت السماء إلى قبّة حمراء.

وتعالت صيحات المسلمين وهم يهتفون بأعلى صوتهم: لا إله إلا اللَّه، محمد رسول اللَّه. يقول رئيس الأساقفة (ليونار Léonard) الذي شهد هذا المنظر الرائع بأم عينيه، إذ كان في القُسْطَنْطينيَّة مع المحصورين: لو أنك سمعت مثلنا صيحاتهم المتوالية المتصاعدة إلى السماء: (لا إله إلا اللَّه، محمد رسول اللَّه) لأخذتك الروعة والإعجاب.

وأمضى السلطان يوم الإثنين التاسع عشر من شهر جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة الهجريَّة الثامن والعشرين من مايس (مايو) في إكمال استعدادته الخيرة، فطاف بالسور مرة أخرى ليكمل استطلاعه الشخصي المفصل، كما فتّش جنوده، ليتعرّف على درجة استعدادهم وحالتهم المعنويّة.

وقصد في نفس اليوم إلى مرسى أسطوله في (بشكطاش) يصحبه حمزة باشا أمير البحر، ليطلع بنفسه على ما اتخذه من الاستعدادات. وسأل الفاتح قائد بحريته حمزة باشا إن كان ثمة نقص في شيء، فأجابه: كل شيء قد تمّ، وإننا في انتظار أوامركم لتنفيذها، فطلب إليه الفاتح أن يشترك جميع الأسطول في الهجوم العام، ويصفّ سفنه حول السور الواقع على بحر (مرمرة)، ويتسلقه الجنود بالسلالم والحبال، ويقتحموا المدينة. ثم بعث الفاتح إلى سكان (غلطة) من الجنويين يحذرهم من مساعدة القُسْطَنْطينيَّة، فقد كان على علم تام بما كانوا يفعلونه طوال أيام الحصار.

وكان الفاتح كلما مرّ بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحميَّة والنخوة، وأبان لهم أنهم بفتح القُسْطَنْطينيَّة سينالون شرف الدنيا والآخرة، ويأمن العثمانيون بفتحها دسائس هذه المدينة التي طالما مالأت عليهم الأعداء والمتآمرين، وسيكون لأول جندي يرفع راية الإسلام فوق سور القُسْطَنْطينيَّة الجزاء الأوفى والإقطاعات الواسعة وأجر اللّه في الجنة.

وكان الشيوخ والعلماء يتلون عليهم آيات القتال والجهاد، وما أعدّ اللّه للمجاهدين من حسن الجزاء، ثم يقولون لهم: لقد نزل سيدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة المنوَّرة في دار أبي أيوب الأنصاري، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا[1].

---

(١) أحمد مختار، فتح جليل قسطنطينية.

وكان هذا القول يلهب ويبعث في نفوسهم أشدّ النخوة والحمية الدِّينية، فيسجدون إلى الأرض، ويدعون اللّه عز وجل ويبتهلون إليه أن يتم لهم النصر المبين.

وعاد الفاتح إلى مقره، فدعا إليه قادة جيشه وأصدر إليهم التعليمات الأخيرة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: إذا تمّ لنا فتح القُسْطَنْطينيَّة تحقّق فينا حديث من أحاديث رسول اللّه ﷺ ومعجزة من معجزاته، وسكيون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً، أنّ الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً، ويجب على كلِّ جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون.

وأخلد الجنود العثمانيون إلى الراحة والنوم استجماعاً للقوة والنشاط واستعداداً للقتال الذي أزف موعده، وخيّم على المعسكر الإسلامي سكون عميق شامل أثار دهشة سكّان القُسْطَنْطينيَّة وأثار فيما بينهم كثيراً من التساؤل والقلق، وأحسّ الناس في المدينة أنّ هبوب العاصفة قد اقترب، وأنّ الهجوم العام وشيك الوقوع، فدقّت أجراس الكنائس تدعو الناس إلى الصلاة والدعاء والاستعداد والتأهب.

وأرهقت أعصاب كثير من المحصورين في هذا الجو المتوتّر، وضاقت بهم أنفسهم وعيل صبرهم، ففرّوا إلى معسكر المسلمين ينشدون فيه الأمن والسلامة والطمأنينية لأنفسهم، فأحسن المسلمون لقياهم ومعاملتهم. وقد التجأ إلى المعسكر الإسلامي فيمن التجأ الراهب (بتروا) في ثلاثمائة من أصحابه، فأكرمهم المسلمون وأحسنوا معاملتهم. ووقع ذلك موقعاً حسناً في نفس الراهب وشرح صدره للإسلام، فأسلم وعرف منذ ذلك الحين بمحمد بترو.

وكانت الجاسوسية تعمل بحذق ونشاط من جانبي الرّوم والعثمانيين

على السواء، فكانت لقسطنطين عيون وجواسيس في المعسكر العثماني يتنسطون[1] الأخبار ويكتبونها في ورقة، حتى إذا ما جنّ الليل ثبتوها في السهام وقذفوا بها إلى المدينة، وكذلك كان يفعل جواسيس السلطان داخل القُسْطَنْطينيَّة.

وقد أظهر الرّوم البخل والشح حتى في هذا الوقت الذي تستهدف فيه مدينتهم لأعظم الأخطار، فقد خبأ الأغنياء أموالهم وكنوزهم وضنّوا بها على وطنهم، فصارت فيما بعد غنيمة باردة للعثمانيين، كما أبى كثير من الرّوم أن ينقلوا الأحجار والتراب إلى السور إلاّ إذا أخذوا أجراً على هذا العمل، واضطر اللاتين أن يدفعوا لهم ما طلبوا.

ولكن الرّوم واللاتين قصدوا الكنائس وعلى رأسهم قسطنطين للدعاء!

الهجوم العام

في الساعة الأولى من يوم الثلاثاء العشرين من شهر جمادى الأولى سنة سبع وثمانمائة الهجريَّة (٢٩ مايس ـ مايو ١٤٥٣م) سمعت فجأة في المعسكر العثماني دقّة ضخمة بالطبل إيذاناً للجند بالتأهب، أعقبها ثلاث دقّات أخرى مثلها، ثم تتابعت الدقات في جميع أرجاء المعسكر ونفخ في الأبواق وتصاعدت التكبيرات مجلجلة مدويةً من اتجاهي البر والبحر. وكان لذلك كله دوي هائل مخيف في ذلك السكون العميق المظلم، أثار الفزع والرعب في قلوب أهل القُسْطَنْطينيَّة، وهرع كثير منهم إلى الكنائس التي دقّت أجراسها، وانطلق الجنود العثمانيون يهجمون على سور القُسْطَنْطينيَّة من البر والبحر، طبقاً للخطّة المرسومة التي وضعها الفاتح وأصدرها إلى قادته.

---

(١) يتتبعون.

وكان أشدّ الهجوم وأعنفه قد رُكِّز نحو وادي (ليكوس) الواقع بين (طوب قبو) في الجنوب وباب (أدرِنة) في الشمال. وكان هذان البابان يقعان على نشز مرتفع الوادي بينهما متطامناً منخفضاً، وكان السور القائم في تلك المنطقة وبخاصة الجانب الذي يلاصق (طوب قبو) قد تهدّم تهدماً كبيراً، فأقام جستنيان مكانه متراساً قوياً تحصّن به.

وقد قسّم الفاتح جنوده الذين يقاتلون في هذه المنطقة إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول مؤلف من جنود الروملّلي والمتطوعين المستجدين من أجناس مختلفة، وقد تقدَّم هؤلاء الجنود إلى الأمام، حتى إذا صاروا على مرمى قوس من السور توقّفوا وأخذوا يمطرونه بالقذائف والسِّهام، فردّ عليهم المدافعون بالمثل. واندفع فجأة تحت هذا الوابل من القذائف والسهام كثير من المهاجمين نحو السور وأقاموا عليه مئات السلالم لتسلقه، فأسرع المدافعون وقلبوا هذه السلالم بمن كان عليها، وقذفوا وراءهم الصخور والأحجار الضخمة. ولم يمنع ذلك المهاجمين من معاودة تسلّق السّور مرة بعد مرة، ونجح قسم منهم في ارتقائه واحتلال موطىء قدم عليه. وحدث صراع عنيف بالسلاح الأبيض، فالتحم الطرفان في معركة ضاربة استمات فيها جستنيان ورجاله، واستطاعوا ردَّ المهاجمين على أعقابهم، وقد استمر هذا القتال العنيف نحو ساعتين.

وأمر السلطان هذا القسم من جنوده بالانسحاب، ودفع إلى الهجوم القسم الثّاني من جنوده وهم الأناضول. أما المدافعون فقد ظنّوا لأول وهلة عند انسحاب المهاجمين أنّهم قد دحروا العثمانيين، ولكنهم لم يكادوا يتنفسون الصعداء حتى بوغتوا بهجوم أشدّ وطأة وعنفاً من الهجوم الأول، فقد كان جنود الأناضول أحسن تدريباً وأفضل تنظيماً وأكثر ضبطاً وأشدّ فراساً في القتال.

ومن الواضح أنّ السلطان كان يرمي من هجومه الأول استنزاف طاقات المدافعين وإرهاقهم، قبل أن يضربهم الضربة الشديدة القاضية،

فاستخدم جنوده الذين كانوا من الدرجة الثّانية تنظيماً وتدريباً وضبطاً وتجربة، واستطاع تحقيق هدفه الابتدائي من الهجوم.

كانت أشعة الفجر قد بدأت تنير المكان، وبذلك انتهى هجوم العثمانيين الليلي ليبدأ هجومهم النهاري.

واندفع العثمانيون يهاجمون السور، وقد لبس قسم منهم الدروع وهم يهلّلون ويكبّرون، وأقام كثير منهم السلالم للتسلق.

وأدرك قسطنطين خطورة الموقف، فأتى إلى هذا المكان بمزيد من الجند وآلات الرمي والقذف ونصب مدافع صغيرة. ونشط جستنيان وجنوده المدرعون، وقاوموا هذا الهجوم العنيف مقاومة عنيفة باسلة، وصبّوا قذائفهم ونيرانهم الحامية على المهاجمين، وقلبوا السلالم التي أسندت إلى السور، ولكن ذلك لم يزد العثمانيين إلاّ حماسة وشدّة في القتال وتصميماً على إحراز النصر.

ووقف الفاتح على ظهر حصانه يرقب هذه المعركة الدامية، وكان أشد القتال يجري على السور نفسه، حيث التحم المهاجمون والمدافعون بالسلاح الأبيض، ولكن القذائف والسهام التي صبت بكثافة على المهاجمين كبدتهم خسائر فادحة بالأرواح.

وأمر السلطان الفاتح بانسحاب جنوده، كما أمر بتكثيف نيران المدفعية على السور ومواقع المدافعين، فنصبت المدافع في أقرب مكان من السور، وأخذت تقصف المنطقة التي يدافع عنها جستنيان، وتحت ستار قصف المدفعية الكثيف زحف الجنود العثمانيون، وهاجموا مرة أخرى السور، ولكن جستنيان وجنوده ثبتوا لهذا الهجوم أيضاً.

وبينما كان القتال مستعراً عنيفاً مريراً عند السور البري، كان هناك قتال آخر لا يقل عنفاً وشدّة وضراوة في البحر، فقد أخذت السفن العثمانية بقيادة أمير البحر حمزة باشا في بحر (مرمرة) وكذلك السفن

العثمانية الراسية في (القرن الذهبي) أمكنتها من السور، وأخذ الجنود يطلقون عليه قذائفهم ونبالهم، وأخذ فريق منهم يتسلّقونه بالسلالم والحبال وغيرها من أدوات التسلّق، والتحموا في صراع دام مع المدافعين الذين هبوا إلى قذف السلالم إلى البحر وإطلاق النيران والسهام والقذائف على الجنود العثمانيين.

وقد أثار هذا الهجوم الشديد من ناحية البحر الفزع والرعب بين سكان القُسْطَنْطينيَّة، وجأرت أصواتهم بالدعاء والضراعة، ودقّت أجراس الكنائس دقّات شديدة متوالية. وظلّ الصراع على جانبي السور البحري على هذا النحو من الشدّة والعنف إلى آخر الحصار، وإذا كان العثمانيون لم يفلحوا في اقتحام المدينة من ناحية الأسوار البحرية، فإنهم شغلوا عدداً كبيراً من المدافعين الذين كان بالإمكان استخدامهم لتقوية الدِّفاع، على الأسوار البرية.

أما جنود الأناضول الذين كانوا يهاجمون وادي (ليكوس)، فقد أمرهم محمد الفاتح بالانسحاب، وكان المدافعون قد بلغوا أقصى المدى من الكلال والجهد والأعياء، وكان الفاتح يرمي من هذه الهجمات المتواصلة إرهاق المدافعين وإجهادهم واستنزاف طاقاتهم قبل أن يضربهم الضربة الأخيرة القاضية.

واغتبط جستنيان ورجاله بانسحاب العثمانيين، وارتفعت صيحات الفرح والنصر من جانب السور، وقال جستنيان للإمبراطور قسطنطين وقد طفح وجهه بالبشر: يا صاحب الجلالة! اطمئنوا، فإنّ سيوفنا قد ردّت العدو.

ولم يكد جستنيان يأخذ قسطه من الراحة، ولم يكد السلطان الفاتح يسحب رجاله من السور، حتى أمر مدفعيته بقصف السور بشدّة وعنف، ثم جاء بالقسم الثالث من جنوده وهم الإنكشارية، وكانوا خير الجند تدريباً وتنظيماً وضبطاً وحنكة وبسالة وقيادة، وأصدر إليهم أوامر الهجوم.

كان تنفيذ الهجوم في هذه المرة أكثر إحكاماً ودقّة، وكان الشيوخ والعلماء يشجّعونهم ويحرّضونهم على القتال والجهاد، وكان الصبح قد أضاء وأمكن رؤية كلّ شيء بسهولة ووضوح.

وقاد السلطان الفاتح بنفسه هؤلاء الجنود إلى حافة الخندق، وهناك أمر الرماة والنبالة بأن يمطروا المدافعين بالنبال والسهام بحيث لا يقدر أحد منهم أن يطلّ برأسه من فوق السور.

وتحت هذا الستار الكثيف من النبال المنهمرة الكثيفة، زحف الإنكشارية وهاجموا السور كالأسود، وكان هجوماً هائلاً مريعاً اهتزّت له جوانب القُسْطَنْطينيَّة. وفي مثل لمح البصر أقام كثير منهم السلالم على السور وقفزوا منها إلى أعلى السور في خفة مدهشة. وكانت تكبيراتهم العالية ودقّات الطبول الضخمة وقصف المدفعية الكثيف، تحدث دوياً يصمّ الآذان وتلقي الرعب والفزع في نفوس سكان القُسْطَنْطينيَّة وتؤثر في معنوياتهم وتزعزعها وتؤدي بها إلى الانهيار.

وحمي وطيس القتال وبلغ أقصى مداه من العنف والشدّة، لا سيما عند (طوب قبو) وباب (أدرنة)، وقد أدرك الفريقان أنها الساعة الأخيرة الحاسمة من تلك المعركة التي بدأت من خمسين يوماً.

وأصيب جستنيان بجرح بالغ عجز عن احتماله، فأزمع على الانسحاب من الميدان لتضميد جرحه، وطلب إلى الإمبراطور أن يتولى القيادة مكانه. وارتاع قسطنطين لهذا الأمر، ورجا جستنيان ملحاً في رجائه ألاّ يترك مكانه، فإنّ ذلك سيفتّ في عضد الجند ويثبّط عزيمتهم في وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى مَن يشدّ أزرهم، وإنّ مصير المدينة كلها متوقف على قراره، ولكن جستنيان أصرّ على أن ينقل في الحال إلى سفينته الراسية في الميناء.

ويظهر أنّه كان قد أيس من استمرار الدّفاع وصدّ العثمانيين عن

القُسْطَنْطينيَّة، فآثر الانسحاب والنجاة بنفسه. ونُقل القائد الجنوي إلى سفينته الراسية وراء السلسلة في (القرن الذهبي)، ومن هناك نقل إلى جزيرة (خيوس) حيث قضى نحبه، بل لعله مات قبل وصوله إليها.

وتولى قسطنطين القيادة المباشرة بنفسه، وحاول رفع معنويات رجاله المنهارة دون جدوى.

وكان هجوم الإنكشارية يزداد عنفاً وشدّة في هذه المنطقة، وارتقى كثير منهم أنقاض السور، وثبّتوا أقدامهم فيها. وشارك السلطان الفاتح بنفسه في هذه المرحلة الأخيرة من الصراع، فاجتاز الخندق بحصانه، وأخذ يدير القتال بنفسه.

ولم يمض وقت طويل على انسحاب جستنيان وتولي قسطنطين مكانه في القيادة بمنطقة (طوب قبو)، حتى انطلقت من الجهة الشماليَّة للسور صيحات عالية مفزعة ما لبثت أن سرت في جميع أنحاء المدينة وهي تدوي، لقد دخل العثمانيون المدينة...

والتفت قسطنطين إلى الشمال، فإذا الأعلام العثمانية ترفرف على بعض الأبراج القريبة من باب (أدرنة).

وكان يقود القوات العثمانية في هذه المنطقة (قره جه بك)، وقد حاول من قبل ذلك اقتحام هذا الباب فأخفق، فجمع قواته وشنّ عليه هجوماً آخر أشدّ عنفاً وقوة، فزحزح المدافعين عن أماكنهم، ووثب جنوده على أنقاض السور المتراكمة إلى جنوب هذ الباب، وتمكّن أحدهم من قتل قائد الحامية، وبمقتله انهارت مقاومة المدافعين، فولّوا هاربين وتدفقت جموع العثمانيين نحو المدينة.

فلما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية المرفرفة، أطلق العنان لفرسه واتّجه نحو الشمال ليستخبر عن الأمر بنفسه، فإذا جموع العثمانيين تتدفق إلى المدينة كالسيل. ونزل قسطنطين عن حصانه، وخلع ملابسه

الإمبراطورية وسلّ سيفه وأخذ يخبط ذات الشمال وذات اليمين، حتى كلّت يده وأصابه أحد الجنود العثمانيين بضربة سيف قاتلة، فخرّ مضرجاً بالدماء.

وصاح صائح بأنّ الإمبراطور قد قُتل، فزاد ذلك في فزع سكّان القُسْطَنْطينيَّة ورعبهم.

ولم يقف بعد ذلك شيء في وجه العثمانيين لدخول المدينة، فقد تفتّحت لهم جميع الأبواب والمنافذ، بعد أن فرّ حماتها وذهبوا يلتمسون النجاة لأنفسهم. واشتدّ الهرج والمرج في المدينة، واختلط الحابل بالنابل، وتزاحم الناس يدفع بعضهم بعضاً، كل يطلب النجاة لنفسه فلا يدري أين يجدها.

أما عن القتال في جانب البحر، فقد ناجز العثمانيون من فوق سفنهم الراسية في بحر (مرمرة) المدافعين، وظلّوا على ذلك إلى أن رفعت الأعلام العثمانية فوق الأبراج القائمة على السور البري، فرآها المدافعون، فخارت قواهم واستخزت عزائمهم، فمنهم من استسلم، ومنهم من فرّ مع الفارين.

وانتهت صفحة من صفحات تاريخ القُسْطَنْطينيَّة الطويل بهزيمة البيزنطيين، وبدأت صفحة جديدة من صفحات تاريخها الطويل بفتح العثمانيين.

وكان آخر سطر من سطور آخر صفحة من صفحاتها البيزنطية: أنّ قسطنطين آخر أباطرة الرّوم مات بشرف في ساحة القتال، وآثر شرفه على حياته، فسقط صريعاً ولم يسقط السيف من يده.

وكان أول سطر من سطور أول صفحة من صفحات العثمانيين، أنّ السلطان الفاتح صمّم أن يكون له عرش في القُسْطَنْطينيَّة أو يكون له قبر فيها، فاعتلى العرش لأنه طلب الموت فوهبت له الحياة.

ليت قادة العرب والمسلمين اليوم يتلقون هذا الدرس الثمين.

الفاتح في القُسْطَنْطينيَّة

وقف محمد الفاتح وهو على صهوة جواده ينظر إلى جنوده وهم يدخلون من كلّ حدب وصوب القُسْطَنْطينيَّة ترفرف عليهم أعلام النصر، وأقبل عليه كبار رجاله تطفح وجوههم بالبشر والسعادة يهنئونه بالفتح، فكان الفاتح يجيبهم حمداً للّه، ليرحم اللّه الشهداء، ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر.

أما أهل القُسْطَنْطينيَّة فقد تملكهم الخوف والذعر، إذ كانوا يعتقدون أنّ العثمانيين وحوش كاسرة. ولعلّهم ذكروا دخول الصليبيين مدينتهم قبل قرنين ونصف، وما ارتكبوه فيها من التقتيل والتدمير والتحريق.

وكان معظم سكان القُسْطَنْطينيَّة قد لجؤوا إلى الكنائس وبخاصة كنيسة آيا صوفيا التي غصّت بجموعهم، وغلقوا على أنفسهم الأبواب.

وعند الظهيرة توجّه الفاتح إلى القُسْطَنْطينيَّة على ظهر جواده، يحفّ به كبار رجال دولته وحرسه، وقد أعجبته المدينة بآثارها الرائعة ومبانيها الفخمة، وكان ألوف من العثمانيين يحيطون بموكبه.

ولما بلغ الفاتح منتصف المدينة، توقف عن السير وقال لمن حوله من الجند: أيها الغزاة المجاهدون! حمداً للّه وشكراً، لقد أصبحتم فاتحي القُسْطَنْطينيَّة. قال رسول اللّه ﷺ: لَتُفْتَحَنَّ القُسْطَنْطِينِيَة، ولَنِعْمَ الأميرُ أميرَها، ولَنِعْمَ الجيشُ ذلك الجيشُ[1]، ثم هنّأهم بالنصر ونهاهم عن القتل والنّهب والسّلب، وأمرهم أن يكونوا أهلاً للشرف الذي حباهم به الرسول ﷺ.

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/٣٠٦).

وترجّل الفاتح عن فرسه، واستقبل القبلة وسجد على الأرض، وحثا التراب على رأسه شكراً للّه على ما منحه من توفيق ونصر، ثم استأنف سيره إلى كنيسة آيا صوفيا، ولما اقترب منها، وصلت إلى سمعه أصوات خافتة حزينة هي أصوات الصلوات والدعوات التي كانت تجري فيها. وقصد الفاتح إلى أحد أبواب الكنيسة، وكان باباً منيعاً حصيناً، فوجده مغلقاً. وعلم الراهب بمقدم الفاتح، فأمر بفتح ذلك الباب على مصراعيه، وانتاب الناس خوف عظيم وفزع لحضور السلطان، وتوجّسوا شراً وقطعوا ما كانوا فيه من الصلاة والدعاء، وساد بينهم لغط وضجيج، فما كان من الفاتح إلاّ أن طلب من الراهب أن تستمر الصلاة كما كانت من قبل، وأن يبقى كل إنسان في مكانه دون أن يجزع، فتمّت الصلاة في هدوء وأمان.

وسجد الفاتح مرة أخرى سجدة الشكر، وأخذ يحمد اللّه ويشكره، ثم طلب إلى الراهب أن يأمر المصلين بالعودة إلى منازلهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وأن يعود كل إنسان إلى ما كان يمارسه من عمل وحرفة. ونزل هذا الكلام برداً وسلاماً على هؤلاء الناس الذين كانوا يتوقّعون أن ينزل بهم أشدّ أنواع البطش والتنكيل، وشاعت في نفوسهم الراحة والطمأنينة، وبعث الفاتح إلى مختلف أرجاء المدينة نفراً من رجاله لتأمين الناس وليعودوا إلى حياتهم العادية.

وفيما كان الفاتح يطوف بأرجاء كنيسة آيا صوفيا، إذ سمع قرعاً ونقراً من ورائه، فالتفت فرأى أحد جنوده يضرب بفأس في يده عموداً من المرمر كانت معلقة عليه إحدى الصور المقدّسة عند المسيحيين، واقترب الفاتح من الجندي وقال له غاضباً: ماذا تعمل؟! فأجابه الجندي الأمّيّ بكل بساطة: ألستَ مسلماً؟ أريد محو آثار الكفّار! فقال له الفاتح: ليس من الحق تخريب المعبد، ثم خطف الفأس من يده وضربه بها على رأسه.

وكان نفر من الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة خوفاً من القتل، فلمّا سمعوا بما فعله الفاتح، ولمسوا حسن رعايته للنصارى، خرجوا من

مخابئهم وأعلنوا إسلامهم، وعرف أحدهم الذي كان أكبرهم سناً باسم: بابا محمد[1].

وأمر السلطان الفاتح بعد ذلك بتحويل تلك الكنيسة إلى مسجد، وطلب إلى أحد العلماء الذين كانوا برفقته أن يؤذن، فجلجل صوته بالأذان، وأدّى صلاة العصر، وأعلن أنه سيصلي صلاة الجمعة القادمة في المسجد الجديد.

وقصد إلى قصر الإمبراطور، وتجوّل في صالاته وغرفه، وقد كان مهملاً بدت عليه الوحشة والظلام والكآبة.

وسأل الفاتح عن قسطنطين وجستنيان ونوتاراس، فلم يأته منهم غير نوتاراس الذي كان يقوم بالإدارة المدنية في القُسْطَنْطينيَّة أثناء الحصار. وقد أحسن الفاتح لقاءه وسأله عن الإمبراطور، فأجاب بأنه لا يعلم عنه شيئاً. فسأله السلطان عن مصير جستنيان فأجاب: إنّ كل ما يعلمه عنه أنه عقب إصابته بالجرح، نقل إلى سفينة راسية بميناء القرن الذهبي، فأرسل الفاتح من فوره قسماً من رجاله إلى (طوب قبو) للبحث عن الإمبراطور، كما أرسل أناساً أخرين إلى الميناء للبحث عن السفينة التي يرقد فيها جستنيان وإنزاله إلى البر وإحضار أمهر الأطباء لمعالجته.

وقد كان السلطان بطلاً يكرِّم البطولة ولو كانت في ألد أعدائه، وكان قد أظهر إعجابه بجستنيان عندما كان يدافع عن السور بحذق ومهارة وبسالة.

وجاء جندي يحمل رأس قسطنطين وقد ظنّ أنه جاء بما يفرح السلطان، فسأل الفاتح نوتاراس إن كان حقاً رأس قسطنطين، فأجاب بالإيجاب وهو يبكي، وعزّ على السلطان أن يُمثَّل بالإمبراطور ويُزدرى به على هذا النحو، فأمر بقطع رأس ذلك الجندي الذي ارتكب هذه المثلة

---

(١) أحمد مختار: فتح جليل قسطنطينية.

وأن يحتفل بدفن الإمبراطور قسطنطين بما يليق بمكانته ومنزلته[1].

وسلك السلطان الفاتح نحو أهل القُسْطَنْطينيَّة سياسة التسامح والرأفة، وأمر جنوده بحسن معاملة مَن في أيديهم من الأسرى والرفق بهم، وقد بذل الفاتح كل ما كان في وسعه لتخفيف آلامهم وفك أسرهم، وفدى عدداً من كبار الأسرى بماله الخاص. وكان كثير من سكّان القُسْطَنْطينيَّة قد فرّوا من المدينة عندما دخلها العثمانيون خوفاً من القتل، فأصدر الفاتح بياناً عاماً دعا فيه هؤلاء الفارين للعودة إلى مدينتهم ومنازلهم، وأمّنهم على حياتهم وأموالهم، ودعا إلى عودة التجّار والحرفيين إلى أسواقهم لمزاولة أعمالهم ومهنهم، ووعد الجميع بحرية العبادة وممارسة شعائر دينهم.

وكان الفاتح يعلم أنّ الرّوم متمسّكون بدينهم، فرأى أنّ خير ما يجمع شملهم ويشجّعهم على العودة إلى بلدهم والاطمئنان إلى حكمه هو أن يظهر العناية بالناحية الدِّينية. وكانت البطريركية إذ ذاك شاغرة، فعمل على تنصيب بطريرك رومي جديد بنفس المراسيم الفخمة التي كانت تتبع في عهد الأباطرة الأُوَل، فاجتمع الأساقفة وانتخبوا (جناديوس) بطريركاً لهم، وقد كان من أقوى المعارضين لاتحاد الكنيستين الشرقيَّة والغربيَّة. وبعد انتخابه سار في موكب حافل من الأساقفة إلى الفاتح، فاحتفى به أعظم احتفاء، وبالغ في تكريمه والترحيب به، وتناول معه الطعام على مائدته، وتحادث معه حديثاً طويلاً، ثم قدّم إليه بعد ذلك عصا البطريركية وقال له: إنك البطريرك، وليحفظك اللّه، واعتمد دائماً على صداقتي ومودتي، وتمتّع بكل ما كان يتمتّع به سلفك من الحقوق والامتيازات.

ولما همّ البطريرك بالانصراف، نهض له الفاتح ورافقه إلى باب القصر، وأعانه على ركوب الجواد المطهّم الذي أُعِدّ له، وأمر وزراءه وكبار رجال دولته أن يصحبوه إلى مقره الذي هيىء له.

---

(١) الأب دي كوبيه اليسوعي، كشف المكتوم.

وقد تأثّر البطريرك لمّا لقيه من محمد الفاتح من بالغ الحفاوة، وشعر بشيء من الخجل، فقال للسلطان: إنّ الأباطرة النصارى لم يفعلوا قط مثل هذا لمن سبقه من البطاركة.

وأصدر الفاتح بعد ذلك مرسوماً للبطريرك أمَّنه فيه على شخصه، وجعله برتبة الوزراء، وعهد إليه النظر في أمور الرّوم من الناحيتين الدّينية والمدنية كالزواج والطلاق والميراث فأصبح البطريرك بذلك زعيماً دينياً وسياسيّاً للرّوم.

ولم تمض بضعة أيام على فتح القُسْطَنْطينيَّة، حتى ساد الأمن والسكينة ربوع المدينة، واستأنف الناس حياتهم المدنية العادية في أمن وسلام.

وكان الدوق نوتاراس كما ذكرنا قد قابل السلطان ولقي منه كل حفاوة ورعاية. وقد عاتبه السلطان على عدم تسليم المدينة بعد أن أرسل إليها الإنذار الأخير، فأجاب نوتاراس بأنّ استمرار المقاومة يرجع إلى الجنود الأجانب وإلى الرسائل التي كان يبعثها أحد وزراء السلطان إلى قسطنطين يحثّه فيها على مواصلة المقاومة وعدم الاستسلام، ويطمعه في رفع الحصار، وقد اهتم قسطنطين بهذه الرسائل وعمل بها. وما أن سمع خليل باشا هذا الكلام حتى ظهر عليه الارتباك والخوف، وكان واقفاً بجانب السلطان فصاح: كلا يا سلطاني! من المستحيل أن يوجد في معيتكم مَن يرتكب هذا الخزي والعار، إنّ هذا الكافر يفتري كذباً، فلا تسمحوا له بالكلام واقطعوا رأسه، فقال له السلطان: فلماذا ترتبك إذن؟ ألاّ تجيب على هذه التهم الموجهة إليك؟! وعزله السلطان عن الوزارة وعهد بها إلى محمود باشا، ورعاية لكبر سن خليل باشا، اكتفى بمصادرة أمواله وحبسه، وقد بقي في السجن حتى وافاه الأجل المحتوم.

وأما نوتاراس فقد صفح عنه السلطان وأكرمه ووهب له ولأولاده مالاً كثيراً، وذهب في اليوم التالي إلى بيته لعيادة زوجته المريضة، فواساها

وأسبغ عليها من عطفه ورعايته. ولكن نوتاراس ومَن معه من نبلاء الرّوم أغرتهم هذه المعاملة الحسنة من الفاتح وأطمعتهم، فأخذوا يأتمرون لإخراج المسلمين من القُسْطَنْطينيَّة، وبعثوا إلى إيطاليا يدعون إلى حملة صليبية ضدّهم، فأمر السلطان الفاتح باعتقالهم وقتلهم.

واستعرض الفاتح جنوده بعد فتح القُسْطَنْطينيَّة استعراضاً عسكريّاً، ومثل هذا الاستعراض من التقاليد العسكريَّة التي لا يزال متّبعاً في الجيوش الحَدِيثَة حتى اليوم، ثم أقيمت بين الجنود مسابقة في الرماية بمختلف الأسلحة، فأقبلوا عليها بشوق وكفاية. والحق أنّ الجنود العثمانيين المشاة منهم والفرسان والمدفعية أبدوا مهارة فائقة في التصويب الدقيق أثناء الحصار، فحرّم رماةُ السهام على المدافعين عن الأسوار الظهور من شرفاتها، ودكّ جنود المدفعية تلك الأسوار وكانت إصابتهم مركّزة تركيزاً مباشراً، وكان لتدريب العثمانيين على الرماية تدريباً راقياً أثر كبير في إحراز النصر.

وقد أقام الفاتح لجنوده بعد انتهاء مسابقة الرماية مآدب حافلة كرّم فيها الأبطال الذين برزوا في القتال والأبطال الذين تفوّقوا في الرماية بخاصة وسائر الجنود والمجاهدين والعلماء والشيوخ الذين شهدوا الفتح، وقد استمرت المآدب ثلاثة أيام، أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات والأفراح، وكان السلطان الفاتح يخدم جنوده بنفسه، وقد وزع عليهم العطايا والهدايا والمنح.

وفي أثناء الاحتفالات خطب الشيخ العالم الورع آق شمس الدِّين الذي شحن الجنود بطاقات دينيَّة مذهلة في أيام الحصار، فقال: يا جنود الإسلام! اعلموا واذكروا أنّ النبي ﷺ قال في شأنكم: (لَتُفْتَحَنَّ القُسْطَنْطِينِيّة، ولَنِعْمَ الأميرُ أمِيرَها، ولَنِعْمَ الجيشُ ذلك الجيشُ)، ونسأل اللّه سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا جميعاً. ألاّ لا تسرفوا ما أصبتم من أموال الغنيمة ولا تبذِّروا وأنفقوها في البر والخير لأهل هذه المدينة،

واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه، ثم التفت إلى الفاتح وقال له: يا سلطاني! لقد أصبحت قرة عين آل عثمان، فكن على الدوام مجاهداً في سبيل اللّه ثم صاح مكبراً بصوت جهوري جليد[1].

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدِّين بعد فتح القُسْطَنْطينيَّة إلى قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري بموضع قريب من سور القُسْطَنْطينيَّة، فأمر السلطان الفاتح ببناء المسجد والحجرات والقبة على ذلك الموضع. وما إن تمّ بناء المسجد حتى قصد إليه السلطان وأدّى فيه الصلاة. وهناك نهض الشيخ آق شمس الدِّين وسلّم إليه سيفاً عظيماً، وجرت السنّة بعد ذلك أن يكون تقليد السلطان وتنصيبه في ذلك المسجد.

وبعد ذلك الفتح المبين على السلطان محمد الثَّاني كنية: (أبو الفتح).

استكمال الفتح

وقد أثار فتح القسطنطينية أشدّ الفزع والرعب بين أهل (غلطة)، وكانت هذه المدينة أثناء الحصار تعمل بوجهين، وتنافق الفريقين المتقاتلين على السواء، فكانت تقدِّم معونتها إلى الفاتح وتنقل إليه أسرار الرّوم العسكريَّة، وفي نفس الوقت كانت تنقل إلى الرّوم أسرار العثمانيين العسكريَّة وترسل جنودها إلى القُسْطَنْطينيَّة للدفاع عنها[2]، وتزويد المحاصَرين بالمواد التموينية والأسلحة.

وكان الفاتح على علم بكل ما كانت تفعله (غلطة) ضده أثناء الحصار، ولكنه آثر الإغضاء إلى أن تواتيه الفرصة المناسبة، فلمّا فتح القُسْطَنْطينيَّة رأى حاكم (غلطة) أن يتفادى الاصطدام بالعثمانيين في حرب لا قِبَل له بها، فبعث إلى السلطان الفاتح في نفس اليوم الذي فتحت فيه

---

(١) أحمد مختار: فتح جليل قسطنطينية.
(٢) فريدون بك: منشآت السلاطين.

القُسْطَنْطينيَّة وفداً يحمل الهدايا ومفاتيح (غلطة) ويلتمس منه عطفه وأريحيته، وطلب الحاكم إلى السكّان ألاّ يقلقوا ويظلّوا هادئين رابطي الجأش، وأمر السفن الراسية في الميناء أن تبقى في أماكنها، وكان الحاكم يرمي من وراء ذلك كلّه أن ينال أفضل ما يمكن نيله من الشروط والمزايا.

وجاء زغنوس باشا إلى (غلطة) فأمّن أهلها باسم السلطان وهدّأ روعهم، غير أن قسماً من الناس تسلّلوا في جنح الليل وفرّوا على السفن، فغضب السلطان الفاتح لذلك، وذكر للوفد الجنوي أنه كان على علم تام بأعمال سكّان (غلطة) ومعاونتهم لأهل القُسْطَنْطينيَّة أثناء الحصار، وأنّ ذلك نقض للعهد وخروج على الحياد، فطلبوا الصفح من السلطان، وتضرّعوا إليه في ذلك، حتى رضي وعفا عنهم، وأمّن أهل (غلطة) على حياتهم وأموالهم.

وأصدر زغنوس باشا مرسوماً في هذا الأمر باسم السلطان، ضمن لهم فيه حرية العبادة وبقاء كنائسهم، وأن تكون لهم إدارتهم الداخلية الخاصة وينتخبوا حاكمهم بأنفسهم، وضمن لهم كذلك حرية التجارة في جميع أرجاء الدَّولة العثمانية براً وبحراً على أن يدفعوا جزية سنوية وتهدم أسوار مدينتهم. وبعد خمسة أيام من فتح القُسْطَنْطينيَّة، زار الفاتح مدينة (غلطة)، فنزع عنها جميع الوسائل التي قد تغريها أو تعينها على العصيان والثورة، فجرّدها من السلاح وهدم أسوارها من ناحية البر لتكون مفتوحة أمام الجيوش العثمانية، وأبقى على أسوارها من ناحية البحر.

ووجد الفاتح كثيراً من البيوت والمحلات في (غلطة) خاوية قد هجرها أهلها وأصحابها، فأمر بإحصاء هذه المباني وتسجيلها في سجل خاص لكي لا يضيع منها شيء. وبعث الفاتح رسولاً خاصاً ومعه رسالة من الحاكم الجنوي إلى الجنويين الذين فروا إلى جزيرة (خيوس) يدعوهم للعودة إلى (غلطة) حيث يستعيدون جميع أملاكهم، وأمهلهم ثلاثة أشهر وهي مدة كافية لانجلاء الموقف ومعرفة الحقائق بعيداً عن التهويل

والدعايات المعادية والإشاعات المغرضة، فإن عادوا خلال هذه المدة أعيدت إليهم جميع أملاكهم ومتاجرهم وأموالهم وأمتعتهم، وإلاّ أصبحت للدولة.

وقد كان استسلام مستعمرة (غلطة) أسوأ ما نزل من الكوارث بجمهورية (جنوى) الإيطالية، فضاعفت نشاطها وجهودها في محاربة العثمانيين، وأخذت تؤلب دول أوروبا لشن حرب صليبية شاملة عليها.

صدى الفتح

الواقع أنّ معاملة الفاتح لسكّان القُسْطَنْطينيَّة ـ وبخاصة إذا قورنت بمعاملة الفاتحين في أيامه، تعتبر معاملة مثالية حقاً.

وإذا قورنت هذه المعاملة الحسنة بمعاملة الصليبيين السيئة حين استولوا على القُسْطَنْطينيَّة قبل قرنين ونصف من ذلك العهد، نجد أنّ سماحة المسلمين وأريحيتهم مع النصارى أفضل بكثير من معاملة الصليبيين لإخوانهم في الدِّين.

وهذا الفرق الشاسع في المعاملة، اعترف به المؤرخون المنصفون من المسيحيين، أما غير المنصفين فلا عبرة لادعاءاتهم ولا قيمة لافتراءاتهم لأنهم يصدرون عن حقد وضغينة ويخضعون لنوازع الهوى لا لحقائق التاريخ[(١)].

---

(١) من المؤسف أن ينقل قسم من الكتاب العرب المسلمين مزاعم المفترين الحاقدين من مؤرخي الغرب، بدون تمحيص دقيق ولا دراسة عميقة.
من هؤلاء الكتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه: مواقف حاسمة، فقد نقل افتراءات الغربيين بحذافيرها في بحثه: فتح العثمانيين للقسطنطينية (١٦٩ ـ ٢٠٠). وافترض توفر النية الحسنة في نقله، لأنه اقتصر على المصادر الأوروبية فقط، والمصادر غير المنصفة منها بوجه الخصوص، وآمل أن يعيد النظر فيما كتب ويرجع عما سجله من أخطاء تاريخية، فليس ما كتبه تاريخاً بل اتهامات باطلة يرفضها المنطق والعقل، ولا تتناسب مع علمه وفضله وجهوده في خدمة التاريخ العربي الإسلامي.

لقد كان حصار محمد الفاتح للقسطنطينية هو الحصار العثماني الخامس لعاصمة الدَّولة الشرقيَّة، وقد حاصرها بايزيد مرتين ثم حاصرها ولده موسى الثالث مرة، وحاصرها مراد الثَّاني الحصار الرابع، ثم كان الحصار الخامس والأخير على يد محمد الفاتح.

وحوصرت القُسْطَنْطينيَّة منذ تأسيسها تسعاً وعشرين مرة، وسقطت في أيدي الغزاة سبع مرات، كانت في كلِّ مرة تعود بعدها إلى ملك القياصرة، وسقطت للمرة الثامنة في يد محمد الفاتح، وكانت خاتمة القياصرة وخاتمة الدَّولة الرومانية الشرقيَّة، وكان خروجها لأول مرة من حظيرة النصرانية إلى حظيرة الإسلام.

وهكذا سقطت القُسْطَنْطينيَّة في يد العثمانيين بعد حصار صارم دام ثلاثة وخمسين يوماً، وبعد قتال عنيف أبدى فيه العثمانيون أعظم ضروب الإقدام والجرأة والشجاعة، وبذلك سقطت هذه المدينة بعد حياة طويلة حافلة دامت منذ أنشأها قسطنطين ألفاً ومائة وخمساً وعشرين سنة. وقد كان سقوط القُسْطَنْطينيَّة في يد العثمانيين حادثاً جللاً، اهتزّت له أوروبا النصرانية من أقصاها، ورأت فيه نذيراً مزعجاً لتجدد قوى الإسلام. والحق أنّ النصارى قد انبعث فيهم نوع من الروح الصليبية القديمة، وتداعى النصارى إلى طرح الحزازات والاختلافات والاتحاد ضد العثمانيين. وأنحى الكاردينال (سنت أنج Saint Ange) باللوم على اللاتين وقرّعهم على تخاذلهم عن نجدة الرّوم، وألقى عليهم تبعة هذه الكارثة المفجعة. وكان البابا نيقولا الخامس أشدّ الناس تأثراً بنبأ سقوط القُسْطَنْطينيَّة في يد العثمانيين، وجدّ في توحيد الدول الإيطالية وتأليبها على قتالهم، ورأس مؤتمراً عقد في روما أعلنت الدول المشاركة فيه عزمها على التهادن فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقواها ضدّ العدو المشترك. وكاد هذا الحلف الصليبي يتمّ لولا أنّ البابا اشتدّ عليه أثر الصدمة العنيفة من نبأ سقوط القُسْطَنْطينيَّة فأضناه الكمد والهم فمات في ٢٥ من آذار (مارس) سنة ١٤٥٥م، وترك لخلفائه مواصلة العمل لإكمال ما شرع به.

وكان من أعظم الناس تأثراً باستيلاء العثمانيين على القُسْطَنْطينيَّة فيليب الطيب دوق (بورغنديا). وقد كان هذا الدوق بطبعه ذا نزعة صليبية عارمة، وكان من أشدّ الناس حماسة لقتال العثمانيين من قبل سقوط القُسْطَنْطينيَّة. فلمّا استولى العثمانيون على هذه المدينة وجاءه رسول البابا سنة ١٤٥٣م يستحثّه على قتال محمد الفاتح، التهب حماسة وحمية واستنفر جميع النصارى إلى هذا القتال، وذهب بنفسه إلى ألمانية يستنهض إمبراطورها فريدريك الثالث الذي وعده خيراً. وبعث هذا الإمبراطور بدوره إلى ملك فرنسا شارل السابع، ولم يكن شارل في حاجة إلى مثل هذه الإثارة والتحريض، فقد كان يتحفّز حمية وشوقاً إلى قتال العثمانيين، ولكن كان عليه إذ ذاك أن يواجه عدواً آخر أكثر قرباً منه وأشدّ خطراً عليه وهم الإنكليز، فرأى أن ينهي أمره معهم أولاً، ثم يتفرّغ بعد ذلك للعثمانيين، واكتفى آنئذٍ بأن عاون في تقوية تحصينات جزيرة (رودس) التي كان يتوقّع أن يغزوها السلطان الفاتح.

أما الدوق فيليب الطيب، فإنه ما إن عاد إلى (فلاندرس) حتى أقام حفلة تمثيلية في مدينة (ليل Lille) لاستثارة الحمية والنخوة، دعا إليها نبلاء قومه. وعُرض في هذه الحفلة منظرٌ يمثّل سقوط القُسْطَنْطينيَّة واستغاثتها بحماة النصرانية، وأعلن الدوق بعد ذلك أنه سيسير بنفسه إلى قتال العثمانيين، وحذا حذوه جميع النبلاء والفرسان.

ولم تلبث أن تحوّلت فكرة قتال العثمانيين إلى قتال المسلمين كافة وغزو بلادهم انتقاماً للقسطنطينية[1].

---

(١) يقول المؤرخ ابن تغري بردي في كتابه: (حوادث الدهور)، وفي هذا الشهر (ربيع الآخر ٨٦١ هـ ـ مايس ـ مايو ١٤٥٧م) وردت الأخبار من الإسكندرية وغيرها من بلاد الساحل، أنّ الإفرنج عمرت نحو ثلاثمائة مركب لغزو سائر سواحل الإسلام من الروم إلى الإسكندرية ودمياط مكافأة لأخذ السلطان محمد بن عثمان اسطنبول من الإفرنج خزاهم الله، فلم يلتفت السلطان لهذا الخبر لعزة شوكة الإسلام ونصرته إن شاء الله إلى يوم القيامة. =

أما النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان الفاتح أو يتاخمونه في (طرابزون) و(آماسيا) وبلاد (المورة) و(لسبوس) وغيرها، فقد اضطرهم قربهم من الفاتح أن يكتموا شعورهم الحقيقي، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم إلى السلطان في (أدرنة) لتهنئته على انتصاره العظيم، وكان في مقدمة هؤلاء المهنئين رسل حاكمي (المورة) أخوي الإمبراطور قسطنطين.

ولم يجد السلطان الفاتح بُدّاً من مواصلة الحرب إزاء الثورة العارمة والسخط الشديد في أوروبا، فاستطاع أن يقضي على كل الدول النصرانية القريبة من (بيزنطة)، فقضى على قوات البلقان والبلغار وهزم المجر هزيمة ساحقة.

عند ذلك بدأت أوروبا تنصرف عن حرب العثمانيين، إذ وجدت أنّ بُعْد المسافة وسوء المواصلات في ذلك الوقت، يحول دون قتال العثمانيين. وظهر واضحاً أنّ هذه الاتفاقيات ووحدة الصف المسيحي لو تمت فإنها لا تستطيع قهر العثمانيين أو التغلب عليهم، وبخاصة بعد معركة (نيكوبوليس) التي دافع فيها العثمانيون عن مركزهم أذهل ملوك أوروبا وأمراءها وشعوبها، وكانت نتيجة هذه المعركة خيبة أمل المسيحيين بدرجة لم يعد معها من السهل استثارة الأوروبيين من جديد لحرب المسلمين. كما أنّ هذه الحملات كانت تستلزم جمع المال الوفير للاستعداد للحرب ولتحرير الأسرى بعد الحرب، ولم يعد الأوروبيون يطمئنون بسهولة إلى إنفاق أموالهم في حملات غير مضمونة النتائج ولا مأمونة العواقب. ولكن بالرغم من ذلك لم تكن البابوية زعيمة المسيحية لتنصرف إلى اليأس أو تخلد إلى السكون، فكانت تخشى اعتداء العثمانيين على البلاد المجاورة لهم والتي تخضع للنفوذ البابوي الدِّيني، فحوّلت البابوية الفكرة الصليبية

= والواقع أنه بعد ذلك بقليل وصل إلى الشرق أسطول صليبي وأخذ يغير على المدن الإسلامية في شواطىء آسيا الصغرى ويخرّبها، ولكنه اقتصر على ذلك ولم يتعده إلى المدن الإسلامية. انظر الهامش رقم ١ في ص (١٠٥) من كتاب: محمد الفاتح.

من محاولة انتزاع الأرض المقدّسة من المسلمين إلى صراع دفاعي هدفه إنقاذ أوروبا الكاثوليكية من العثمانيين. لذلك حاول البابا بيوس الثّاني بكل ما أوتي من مقدرة خطابية ومهارة سياسية تأييد الفكرة الصليبية الجديدة، وحاول توحيد أوروبا ضد العثمانيين.

فقد حاول أولاً أن يقنع العثمانيين باعتناق الدِّين المسيحي ولكنه لم يرسل البعثات التبشيرية لذلك الغرض إلى القُسْطَنْطينيَّة أو إلى (أدرنة) وبلاد العثمانيين الأخرى، بل اكتفى بإرسال خطاب إلى السلطان الفاتح يطلب منه أن يعضد المسيحية كما عضدها من قبل قسطنطين وكلوفيس، وأن يكفِّر عن خطاياه باعتناق المسيحية ويخلص لهذا الدِّين.

وبالطبع كانت محاولته هذه عبثاً من العبث، وأكبر الظن أنه كان يعلم مقدّماً بأن الفاتح لا يوافق على هذه الدعوة ولا يعتبرها دعوة جدية تستحق أقل الاهتمام.

ولما أخفق البابا في محاولته هذه، لجأ إلى خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، وذلك عن طريق إقناع الدول المسيحية بتكوين حملة صليبية جديدة ضدّ العثمانيين، ولكن الدول الأوروبية والجمهوريات الإيطالية لم تنفِّذ هذا المشروع بالرغم من الخطر الذي يهدِّد معظمها وبالرغم من أنّ القيام بحملة صليبية ما زالت من المثل العليا الأوروبية. فقد وعدت بعض الدول الأوروبية بالاستعداد لتحقيق فكرة البابا، وعندما جاء وقت العمل اعتذرت دول عديدة بكثرة مشاغلها ومتاعبها الداخلية، وانتهى الأمر باتفاق الملكيات الأوروبية والجمهوريات الإيطالية في (لودي) على الاتحاد ضد العثمانيين وذلك في سنة (١٤٥٤م)، ولكن ذلك الاتفاق سرعان ما تحطّم، فقد انفصلت (البندقية) عن الاتحاد وعقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع العثمانيين رعاية لمصالحها التجارية وغيرها في الشرق الأدنى، وقامت الحرب على قدم وساق في شبه الجزيرة الإيطالية، واهتم الكاثوليك باضطهاد أتباع (يوحنا هوس) أكثر من اهتمامهم بمحاربة المسلمين. وكانت انكلترا منهمكة في مشاغلها الدستورية وحروبها

الأهلية، أما فرنسا فقد خرجت من حرب المائة عام وهي في حالة داخلية لا تسمح لها بإشعال حرب ضدّ العثمانين، كما كانت إسبانيا تناضل في ذلك الوقت في سبيل وحدتها القومية ضدّ المسلمين في الأندلس.

لقد قدّرت البابوية وقدرت دول الغرب الخطر الحقيقي الداهم نتيجة لسقوط القُسْطَنْطينيَّة بيد العثمانيين، وقد شعروا جميعاً أنهم بفقدانهم هذه المدينة فقدوا أعظم عضد وأمنع معقل يحمي النصرانية في المشرق، وشعرت الأمم النصرانية كلّها بأنها تواجه موجة جديدة من الخطر مشحونة بالويل والثبور على حاضرها ومستقبلها. لقد بدأت الفتوح العثمانية تنساب بسرعة مذهلة إلى شمال البلقان وجازت إلى ما وراء الدانوب، وبدأت القوة البحرية العثمانية تتوغّل في مياه البحر الأبيض المتوسط وتهدِّد سيادة البندقية وجنوى البحرية، وكان استيلاء الفاتح على ثغر (أوترانتو) في جنوبي إيطاليا سنة (١٤٨٠م) عاملاً جديداً في إذكاء الفزع والروع في إيطاليا وباقي الأمم النصرانية.

والحقيقة أنّ سقوط القُسْطَنْطينيَّة كان فاتحة لسلسلة طويلة من الفتوح والانتصارات العثمانية الباهرة في البر والبحر، ولم يأت أواسط القرن السادس عشر حتى استطاع العثمانيون أن يبسطوا سلطانهم على مناطق شاسعة من أوروبا الوسطى مثل المجر ورومانيا وجنوب بولونيا وأجزاء من شرق النمسا، وزحف العثمانيون على (فينا) وحاصروها لأول مرة في سنة (١٥٢٩م)، ثم حاصروها للمرة الثّانية في سنة (١٦٨٣م)، وبالرغم من إخفاق العثمانيين في هذين الحصارين الشهيرين، فإنّ مجرّد وصول الفتوح العثمانية إلى قلب أوروبا النصرانية على هذا النحو كان مثار الروع في جميع الأمم الأوروبية، وكان في أحيان كثيرة عاملاً من عوامل جمع كلمة العروش النصرانية واتحادها على مقاومة الخطر المشترك ورد الغزاة إلى الجنوب والشرق.

ولم تستطع الدول الأوروبية أن تفعل شيئاً حاسماً ضدّ العثمانيين نظراً

لظروفها الداخلية واستشراء العداوة فيما بينها، كما أنّ العثمانيين كانوا في أوج قوتهم وعظمتهم، وكانوا يسيرون على الطريق الصحيح إدارة وتنظيماً.

لقد كان سقوط القُسْطَنْطينيَّة كارثة قاصمة للدول الغربيَّة، وكان نصراً حاسماً للإسلام والمسلمين.

فقد استقبلت دول الشرق الإسلامي فتح القُسْطَنْطينيَّة بأعمق مشاعر الفرح والحبور، بعكس استقبال دول الغرب لهذا الفتح، إذ عم الفرح والابتهاج بين المسلمين في ربوع آسيا وإفريقية.

وما إن وصل رسل السلطان الفاتح إلى مصر والحجاز وفارس والهند وهي أكبر الدول الإسلاميَّة في ذلك الوقت يحملون نبأ هذا الفتح، حتى هلّل المسلمون وكبّروا، وأُذيعت البشائر من منابر المساجد وأقيمت صلوات الشكر، وزيِّنت المنازل والشوارع والدكاكين والحوانيت، وعلِّقت على الجدران والحوائط الأعلام والأقمشة المزركشة المختلفة الألوان، وأمضى الناس في هذه البلاد أياماً كأحسن ما تكون أيام الأعياد الإسلاميَّة روعة ورونقاً وبهاء.

وندع المؤرخ المصري المعاصر أبا المحاسن بن تغري بردي يصف شعور الناس وحالهم في القاهرة بعد أن وصل إليها رسول السلطان الفاتح ورفقته في الثالث والعشرين من شهر شوال سنة سبع وخمسين وثمانمائة الهجريَّة (٢٧ من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٤٥٣م) بنبأ فتح القُسْطَنْطينيَّة ومعهم الهدايا وأسيران من عظماء الروم، قال: قلت ولله الحمد والمنّة على هذا الفتح العظيم، وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء إسطنبول، وطلع بهما إلى السلطان (سلطان مصر إينال) وهما من أهل القُسْطَنْطينيَّة وهي الكنيسة العظمى باسطنبول، فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم، ودقّت البشائر لذلك، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً. ثم طلع القاصد المذكور، وبين يديه الأسيران إلى القلعة في يوم الإثنين الخامس والعشرين من شهر شوال، بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته

بشوارع القاهرة، وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا في ذلك إلى الغاية، وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل...[1].

ويقول ابن تغري بردي في كتاب آخر: ثم طلع قاصد متملك بلاد الرّوم ورفقته إلى القلعة من غير أن يحضر القضاة، وتمثلوا بين يدي السلطان، وقدموا ما معهم من الهدية التي أرسل بها مرسلهم، وكانت تسعة أقفاص...، فقبلها السلطان ورحّب به، ثم أنزل إلى محل إقامته ومعه رفقته وهم يتفرّجون في الزينة، وكانت عظيمة واستمرت أياماً، وتغالى العوام في شأنها مع استمرار دق البشائر في صباح كل يوم أياماً[2].

ويقول ابن إياس صاحب كتاب (بدائع الزهور): فلمّا بلغ ذلك دقت البشائر بالقلعة ونودي في القاهرة بالزينة، ثم إن السلطان عين برسباي أمير خورثاني رسولاً إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح.

وما يقال عن الأفراح التي أقيمت بمصر، يقال عن الأفراح التي أقيمت في كل بلد إسلامي في آسيا وإفريقية.

لقد كان من حق المسلمين أن يحتفلوا بهذا النصر الإسلامي الحاسم.

الفتوح الأخرى

١ ـ كان فتح القُسْطَنْطينيّة أول الغيث، ثم انهمرت الفتوح كالطوفان. وليس في نيتي تفصيل فتوحه، ولكنني سأمرّ عليها مرّ الكرام لإعطاء صورة مختصرة جداً عنها.

لقد كانت العثمانيين سيادة على كثير من أجزاء البلقان، ولكنها كانت

---

(١) النجوم الزاهرة.
(٢) حوادث الدهور.

سيادة هشَّة مزعزعة تقوى حيناً وتضعف أحياناً، ولكن بعد أن وضع الفاتح يده على القُسْطَنْطينيَّة مفتاح أوروبا الشرقيَّة تيسّرت الطريق وتوطّدت سيادة العثمانيين، وبدأت حقاً إمبراطوريتهم في أوروبا وسهل على محمد الفاتح فتح البلاد الصربية واليونان والأفلاق[1] والقريم والجزر الرئيسة في بحر الأرخبيل، وتمّ ذلك كله في خلال بضعة وعشرين عاماً من حكمه، ولم يزد خلفاؤه من بعده شيئاً ذا بال على فتوحاته الأوروبية.

وكان أول هدف قصده الفاتح هو صربية التي تحدّها من الغرب الدَّولة المجرية الكاثوليكية، وكان الصرب متعصبين لمذهبهم الأرثوذكسي تعصب الرّوم له. وكانت بعض أجزاء صربية تحت سيطرة العثمانيين، وكان بعض أجزائها تحت سيطرة المجر، وكانت إذا جاءها الخطر من قِبَل العثمانيين لاذت بالمجر، وإذا جاءها الخطر من قِبَل المجر لاذت بالعثمانيين. وكان أمير صربية إذ ذاك (جورج برنكوفيتش)، وبالرغم من أنه كان يدفع الجزية للعثمانيين إلاّ أنه لم يكن في الحقيقة مخلصاً في تبعيته لهم، بل كان يخادعهم ويداجيهم ويتربّص بهم، أو كما قال السلطان الفاتح نفسه عنه: كان يظهر الصداقة ويبطن العداوة. فلمّا جاءه رسول هونياد المجري يعرض عليه المشاركة في الحلف الذي ستعقده بعض الدول الأوروبية ضد الفاتح الذي عظم خطره على أوروبا بعد فتحه القُسْطَنْطينيَّة، بادر إلى الموافقة عليه وتأييده، ولم يخف أمر ذلك على السلطان الفاتح الذي كان يبثّ العيون والأرصاد في كل مكان، ولتفادي هذا الخطر بادر إلى غزو صربية قبل أن تتخذها القوات المتحالفة قاعدة للهجوم على العثمانيين، فلمّا علم جورج برنكوفيتش بزحف السلطان الفاتح نحوه أمر الناس أن يلجؤوا إلى الأماكن الحصينة وفرَّ هو إلى المجر بعد أن وعدهم بالعودة إليهم بالمدد والقوة من هناك.

---

(١) Valachia.

وأفزع ذلك البابا وشرع للنصارى صلاة التبشير فتدق النواقيس ويتوجّه النصارى إلى العذراء يسألون العون ويطلبون النصر على العثمانيين، وطلب البابا إلى الناس في جميع بلاد النصرانية الا يغفلوا عن دق الناقوس صباح كل يوم والذي سماه: ناقوس الأتراك.

ودعا الباب أهل أوروبا إلى قتال العثمانيين، واختار هونياد المجري ليتولى قيادة الحملة الصليبية يعاونه في ذلك مندوبه (جان أنجيلو Jean Angelo)، وذلك الراهب الخطيب المتحمس (جان كابسترانو)، وكثير غيرهما من رجال الدِّين. وتكوّن حلف صليبي ضد العثمانيين شارك فيه ملك المجر وملك (أرجونة) وعدة من أمراء إيطاليا ودوق (بورغنديا) والبنادقة والجنويون وفرسان (رودس) وألمانيا وبوهيميا وبولندا وصربية.

ولم ينتظر الفاتح حتى يدهمه الهجوم، بل سار إلى بلغراد في مائة وخمسين ألف مقاتل، وحاصر تلك المدينة براً وبحراً، ودارت معارك طاحنة حولها، وتكبّد الفريقان خسائر فادحة، وجرح السلطان الفاتح في فخذه جرحاً بليغاً نزف الدم منه فسقط عن ظهر جواده مغشياً عليه، وكاد يقع في الأسر لولا استقتال رجاله دفاعاً عنه.

وانسحب السلطان الفاتح بجنوده، وأقيمت الاحتفالات في جميع أنحاء العالم المسيحي لا سيما روما مقر البابوية، حيث أقيمت احتفالات ومهرجانات عظيمة احتفالاً بانسحاب العثمانيين، وأمر البابا بأن يُتَّخذ اليوم السادس من أغسطس سنة (١٤٥٦م) وهو اليوم الذي انتصر فيه الجيش الصليبي على العثمانيين عيداً باسم (عيد التجلي).

وأعاد السلطان الفاتح الكرة على صربية، فانتصر انتصارات حاسمة على الصربيين سنة ثلاث وستين وثمانمائة الهجريّة (١٤٥٩م)، فأصبحت صربية عدا بلغراد ولاية من ولايات العثمانيين من ذلك الحين.

كما أصبحت (البوسنة) كلّها سنة سبع وستين وثمانمائة الهجريّة (١٤٦٣م) ولاية من لايات العثمانيين وأقبل أهلها على اعتناق الإسلام.

كما أصبحت (الهرسك) بعد عام ولاية من ولايات العثمانيين، وأقبل أهلها على اعتناق الإسلام أيضاً.

وأصبحت (أثينا) في حكم العثمانيين نهائياً سنة أربع وستين وثمانمائة الهجريَّة (١٤٦٠م)، كما أصبحت (المورة) ولاية عثمانية أيضاً في نفس السنة، وبذلك أصبحت اليونان كلها للدولة العثمانية.

وفي سنة ست وستين وثمانمائة الهجريَّة (١٤٦٢م) أكمل السلطان الفاتح ضمّ جزر بحر الأرخبيل إلى الدَّولة العثمانية.

وفي سنة أربع وثمانمائة الهجريَّة (١٤٧٩) استتبّ الأمر للعثمانيين في الأفلاق (Valachia) وهي من رومانيا.

ومهّد لفتح البوغدان (Moldavia) حتى استسلمت لابنه بايزيد الثَّاني سنة اثنتين وستين وتسعمائة الهجريَّة (١٥٥٤م).

وفتح أماصرة وهي مدينة على البحر الأسود في آسيا سنة خمس وستين وثمانمائة الهجريَّة (١٤٦١م).

واستولى على إمارة سينوب الواقعة على البحر الأسود في آسيا في السنة نفسها.

وفتح أرضروم في السنة نفسها أيضاً، وكانت قد حالفت الصليبيين ضد السلطان محمد الفاتح.

وفتح (طرابزون)[1] أيضاً، وكان إمبراطورها قد حالف الصليبيين ضد السلطان محمد الفاتح، وقد تمّ فتحها في سنة ست وستين وثمانمائة الهجريَّة (أواخر سنة ١٤٦١م).

---

(١) إمارة رومية نصرانية تقع في شمال شرقي آسيا الصغرى على شاطىء البحر الأسود، وقد كانت هذه البلدة بما حبتها الطبيعية من غزارة الثروة وحسن الواقع هدفاً للغزاة والمغامرين. وقد حاول مراد الثاني سنة ١٤٤٢م كما حاول الجنيد شيخ أردبيل وجد إسماعيل مؤسس الأسرة الصفوية بفارس فتحها، فردتهما أسوارها وقلاعها المنيعة.

وبذلك قضى السلطان محمد الفاتح بما أظهره من حسن السياسة ونفاذ البصيرة وقوة العزيمة وسرعة الحركة على تلك المحالفة الكبرى أو المؤامرة الكبرى التي دُبِّرت للقضاء عليه وعلى دولته، وقد كانت تلك المؤامرة معقد آمال كبيرة للمشاركين فيها لا سيما إمبراطور طرابزون وأمير أرضروم والبابا.

كما طهّر الفاتح حدوده الشماليَّة من كل خطر، فامتدت أملاكه حتى البحر الأسود شمالاً.

٢ ـ وجدَّ البابا[(١)] في إعداد حملة صليبية جديدة، وقد أرادها هذه المرة أن تكون حملة فريدة، إذ قرر أن يخرج بنفسه في هذه الحملة، وكتب إلى الأمراء في البندقية وبورغنديا للخروج مع قواتهم حتى يلقي في نفوس المسلمين الروعة والرهبة.

وفي يوم ٢٢ من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٤٦٣م أذاع البابا منشوراً حماسياً بليغاً على جميع النصارى دعاهم فيه إلى الحرب المقدّسة ضد العثمانيين، وأعلن أنّ احتشاد الجيوش سيكون في مدينة (أنكون[(٢)] Ancone)، وأنذر أنّ صواعق الكنيسة ستنزل على المتخاذلين والذين يعكرون صفو السلام في الداخل بمحاربة بعضهم بعضاً. ولكي يجمع البابا أكبر قدر من المال، أمر ببيع صكوك الغفران في جميع أرجاء القارة الأوروبية، وجعل لكل ذنب ثمناً محدّداً، والصك الكامل لغفران الذنوب كان ثمنه عشرين ألف فلورن.

وفي يوم (١١ من تشرين الثّاني سنة ١٤٦٣م) كتب البابا إلى دوق البندقية، إنه عزم أن يقوم في الصيف القادم بحملة ضدّ العثمانيين بصحبة الكرادلة والجنود المغاوير . . .

---

(١) هو البابا بيوس الثاني.
(٢) مدينة في منتصف إيطاليا على ساحل بحر الأدرياتيك.

وكتب البابا إلى أمير ألبانيا وغيره يحثّهم على حشد جنودهم للحرب المقدّسة ضدّ العثمانيين.

ولم يكن السلطان الفاتح في غفلة عما يدبّره البابا وحلفاؤه ويعدونه لمحاربته، فحاول أن يفسد هذه المحالفة الصليبية الكبرى ضدّه، ولكنه أخفق في مسعاه، فلم يبق أمامه إلاّ أن يعتمد على نفسه وعلى قوته، وتأهب لملاقاة الحملة الصليبية التي ستهاجمه من أوروبا وآسيا.

واطمأن الباب إلى نجاح خطته، ورسخ في قلبه أن الحملة القادمة ستقضي قضاء مبرماً على الدَّولة العثمانية، وفي (١١ من حزيران ـ يونيو ١٤٦٤م) أدّى البابا بيوس الثَّاني آخر صلواته في كنيسة الرسل بروما، ثم بدأ سيره إلى (أنكون) ليبحر منها إلى الشرق.

وهذه أول مرة في تاريخ البابوية والنصرانية وآخر مرة أيضاً، يخرج فيها البابا من روما ليتولى قيادة حملة صليبية بنفسه، وقد انتابت البابا عند بدء سفره من روما حمى خفيفة، ولكنه لم يحفل بها وطلب إلى أطبائه ألاّ يذكروا عن ذلك لأحد شيئاً.

ولم تمض على رحلته ثلاثة أيام، حتى بلغه أنّ جموع الصليبيين المحتشدين في مدينة (أنكون) يجأرون بالشكوى لأنهم لا يجدون ما يستعينون به على السفر، فأوفد إليهم البابا الكاردينال (جان كرفاجا Jean Carvajal) لتهدئتهم. ولم يكد يقترب البابا من بحر الأدرياتيك حتى شاهد مجموعات من الصليبيين وهم يعودون إلى أوطانهم، وقد انصرفوا عن هذه الحملة المقدّسة!

وكان بين المحتشدين في (أنكون) عدد كبير من رجال الحرب الأشدّاء المدربين على القتال، ولكنهم لمّا وجدوا أنّ الكنيسة لا تدفع إليهم شيئاً غير صكوك الغفران، إزورّوا عنها وانصرفوا إلى بلادهم ساخطين ساخرين!!....

وكان قد توافد كثير من العامَّة والبسطاء من أرجاء أوروبية كثيرة إلى (أنكون) بدون سلاح ولا أرزاق ولا مال، دفعتهم الحماسة الدِّينية الساذجة التي تتأجج في صدورهم، وكانوا واثقين أنهم سيزوّدون بكل ما يحتاجون إليه من سلاح وأرزاق ومال، إن لم يكن ذلك بوسيلة من وسائل الأرض فبمعجزة من معجزات السماء... وطال بهم الانتظار، وألحّ عليهم الجوع، ولم يغن عنهم البابا شيئاً، لذلك فترت عزيمتهم وخابت آمالهم، وعادوا إلى أوطانهم في حالة يرثى لها. والتقوا بالبابا وهو يتهادى في محفته، فحزّ في نفسه أن يكون أول ما تقع عليه عينه انصراف هؤلاء إلى بلادهم، وأول ما تسمع أذنه قولهم: هل نشبع بصكوك الغفران؟! عل نطعم أهلنا صكوك الغفران؟!.

وقال البابا فيما قال: ... على أني لن أخوض غمار القتال بنفسي، فإنّ ضعف بنيتي وجلال الكهنوتية التي لا يليق بها الضرب بالسيف يحملاني على الابتعاد عنه. ولكنني سأجثو على ركبتيّ على كوثل[1] مرتفع أو على قمة جبل، وبين يديّ القربان المقدّس، وستحيطون أنتم بي[2] من حولي، وندعو اللّه بقلوب خاشعة ذليلة أن يهب النصر لجنودنا، وكان هذا نص كلامه حين خطب الكرادلة.

ومن الواضح أنّ البابا كان يزمع أن يحوز النصر على العثمانيين الأقوياء بالدعوات!!

وحطّ البابا رحاله في (أنكون) ينتظر ما سيمده به ملوك وأمراء أوروبا من جند وعتاد وسلاح ومواد تموينية وسفن حربية وسفن نقل، ولكنه لم يجد شيئاً ممّا كان قد أمّل، إذ لم تؤت دعوته ما كان يتوقعه، ففرنسا قد شغلتها دسائس ملكها لويس الحادي عشر ومكائده وألمانيا قد شملتها

---

(١) الكوثل: مؤخر السفينة.
(٢) يريد الكرادلة.

الفوضى والاضطرابات تحت حكم إمبراطورها الضعيف فردريك الثالث، وأمير البندقية التحق بالبابا كرهاً لا طوعاً، واعتذر دوق البندقية عن الالتحاق بالحملة متعللاً بعدم قدرته على السير بنفسه وبأسباب داخلية.

واغتمَّ البابا لعدم تلبية دعوته غماً شديداً، وثارت به العلل والأسقام، ورزحت تحت وطأتها القاتلة شيخوخته الذابلة. وعندما شاهد أسطول البندقية في الميناء على أهبة السفر قال في توجع وحسرة: لقد كنت قبل اليوم أنشد الأسطول لأبحر به فلا أجده، وها هو ذا اليوم يحضر إليّ فلا يجدني، فقد أحسّ الوهن يسري في جسمه، وشعر بدنو أجله، فدعا إليه جميع الكرادلة لتوديعهم، وطلب منهم أن يصلّوا لأجله.

ومات البابا بيوس الثَّاني بين أيدي الكرادلة في (١٤ آب ـ أغسطس ١٤٦٤م).

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الفريدة التي دعا إليها البابا بيوس الثَّاني للقضاء على الدَّولة العثمانية. على أن أثرها لم يقف عند هذا الإخفاق وهذه المأساة المحزنة، فإنها فوق ذلك أشاعت في نفوس النصارى نوعاً من القنوط واليأس من إعداد حملة صليبية أخرى ضدّ العثمانيين.

ولم يفت البابا بيوس الثَّاني قبل موته بعد أن تحقق من إخفاق الحملة التي أعدّها أن يعود إلى محاولته الأولى، فوجّه نداء آخر إلى السلطان الفاتح دعاه فيه إلى التنصّر.

وكان ذلك آخر عمل قام به البابا بيوس الثَّاني في سبيل النصرانية، وهو على يقين أنه عمل لا ينجح أبداً!!!

٣ ـ ونشب القتال بين العثمانيين والبندقية في (المورة) واليونان وجزر بحر الأرخبيل، ودامت الحرب ثلاث سنوات انتهت سنة (١٤٦٤م) فلم يكن لها من نتيجة غير الدمار والخراب على الرّوم الذين أخذوا يلوذون بالعثمانيين وينشدون حمايتهم.

كما نشب القتال بين العثمانيين وإمارة (القرمان) التي كانت واحدة من الإمارات العشر التي قامت على أنقاض الدَّولة السلجوقية، وكانت أشدّها بأساً وأقواها شكيمة وأوسعها رقعة، انتهت في ربيع سنة خمس وسبعين وثمانمائة الهجريَّة (١٤٧١م) بفتح (القرمان) وضمها إلى الدَّولة العثمانية.

واختار الكرادلة بول الثَّاني من أهل البندقية ليكون خلفاً لبيوس الثَّاني، فلم تكد تتمّ مراسم تتويجه حتى جمع الكرادلة وشاورهم في أنجع الوسائل للقيام بالحرب المقدسة ضد العثمانيين. وما لبث البابا أن شغل عن هذا الأمر وانصرف إلى محاربة ملك بوهيميا (جورج بوديبراد George Podebrad) لحماية المنحرفين عن الكثلكة في بلاده.

ووجّه الفاتح الذي صمّم أن ينزل ضربة قوية بالبندقية حملة إلى مستعمرتها الكبرى: جزيرة (نيجربون Negrpont) التي تعدّ من أكبر جزر بحر الأرخبيل والتي تقع في الناحية الغربيَّة من هذا البحر لا يفصلها عن الأرض اليابسة اليونانية غير قناة بحرية تعرف بقناة (أوريب Euripe)، فاستطاع اقتحامها في اليوم الثالث عشر من شهر محرم الحرام سنة خمس وسبعين وثمانمائة الهجريَّة (١٢ تموز ـ يوليو ١٤٧٠م).

وكان لسقوط (نيجربون) مَجِنّ المسيحية وحِصْنها دوي هائل في الغرب بأسره، فإنّ الناس في أوروبا إلى ذلك الوقت كانوا يعتقدون أنّ العثمانيين في البر وحده، وكان فتح هذه الجزيرة دليلاً على أنّ قوة العثمانيين في البحر أيضاً. وبذلك أصبحت الشواطىء الإيطالية مفتوحة أمام العثمانيين.

لذلك انصرف البابا بولص الثَّاني بكل قواه إلى جعل دول إيطاليا كلّها جبهة واحدة أمام العثمانيين، فربطها بحلف واحد وثيق أذيع على الناس يوم (٢٢ من كانون الأول ـ ديسمبر ١٤٧٠م) وأقيمت له الأفراح والأعياد في كل مكان.

ولم يكتف البابا بولص الثّاني بهذه الجبهة الإيطالية المتّحدة، بل أراد أن يقيم سداً منيعاً في كل موضع قد يتقدّم منه العثمانيون، فأصلح ما بين الإمبراطور فردريك الثالث وماتياس كورفان ملك المجر وجعلهما يداً واحدة على العثمانيين.

واستطاع الصليبيون الاتصال بأمير تركماني هو أوزون[١] حسن وعقد محالفة معه، وكان يحكم الحدود الشرقيّة للدولة العثمانية، ولكن السلطان انتصر على جيش أوزون حسن سنة ثمان وسبعين وثمانمائة الهجريّة (١٤٧٣م) في إقليم أرْزَنْجَان وكبّده خسائر فادحة.

وعلى أثر وفاة البابا بولص الثّاني في (تموز سنة ١٤٧١م) خلفه على كرسي البابوية (سيكست الرابع Sixte IV)، فواصل جهود سلفه في محاربة العثمانيين، ورأى أنّ أول خطوة يجب خطوها في هذا السبيل هو أن يستأصل جميع أسباب الشقاق والنزاع بين ملوك أوروبا ويصلح ما بينهم ويوحّد جهودهم وقواهم ويوجُهها جميعاً نحو غاية مشتركة هي تحطيم الدول العثمانية. لذلك بعث كردنالاً ليصلح ما بين لويس الحادي عشر ملك فرنسا وشارل (دون بورغنديا) ويزيل ما بينهما من خلاف ويؤلبهما على محمد الفاتح، ولمثل هذا الغرض بعث كردنالاً آخر إلى ملكي (أرجونة) في إسبانيا والبرتغال وكردنالاً ثالثاً إلى ملكي بولندا والمجر، وجمع البابا كل ما قدر عليه من مال لتجهيز الحملة الصليبية إلى الشرق.

على أنّ الرسل الذين بعثهم إلى مختلف الملوك لم يحرزوا ما كان ينتظره من النجاح والتوفيق، وأسفرت الجهود الأخيرة التي بذلها البابا عن تكوين حلف ثلاثي بينه وبين البندقية ونابولي عرف باسم حلف (غارافا Garaffa)، وهو اسم المندوب البابوي الذي إليه يرجع أكبر الفضل في عقده.

---

(١) أوزون: الطويل، وأوزون حسن، حسن الطويل.

وكانت البندقية قد أرسلت أسطولها البحري إلى الشرق بقيادة (بترو موسينجو)، وقد وجّه حملته هذه نحو آسيا حيث يكون أغلب سكانها من المسلمين. وتشجيعاً لجنوده وعد بأن يمنح دوقة ذهبية مكافأة لكل من يأتيه برأس مسلم، وهي مكافأة سخية مغرية أدّت إلى قتل آلاف من نصارى الرّوم وقُدِّمت رؤوسهم على أنها رؤوس مسلمين! ووعد بمنح ثلاث دوقات ذهبية لمن يأتيه بأسير رجلاً كان أو أمرأة من المسلمين!!!

وكان (موسينجو) قد قام بتخريبات واسعة النطاق في شواطىء آسيا الصغرى، عندما جاءته في أوائل شهر محرم الحرام سنة سبع وسبعين وثمانمائة الهجريَّة (منتصف حزيران ـ يونيه ١٤٧٢م) أمداد من السفن: ست عشرة منها أرسلتها نابولي، وتسع عشرة أرسلها البابا.

وانضمت إلى هذا الأسطول الصليبي بعد ذلك سفينتان لرودس، فبلغت وحداته بذلك خمساً وتسعين سفينة.

وأغارت هذه السفن على (أنطاكية) وهي مدينة تجارية كبيرة في جنوبي آسيا الصغرى حافلة بمختلف البضائع، وأغارت على شواطىء (أيونيا)، أغارت على أزمير، فدمّروا المساجد والكنائس وقتلوا المسلمين والمسيحيين.

وفي السنة التالية أي سنة ثمان وسبعين وثمانمائة الهجريَّة (١٤٧٣م) تلقى (موسينجو) أمراً بأن يتبع في حملته القادمة الأوامر التي يصدرها الأمير التركماني الخائن أوزون حسن ويحاول الاتصال به، فواصل تخريباته في آسيا الصغرى التي كان يصحبها دائماً أشد ضروب القسوة والفتك والتدمير وانتهاك المحرمات والمقدسات.

ولكن (موسينجو) عاد إلى جزيرة (قبرص) بعد أن جاءه نبأ هزيمة أوزون حسن التي أدت إلى وقف الحملات النصرانية البحرية على مدن آسيا الصغرى.

وطلب الفاتح إعداد ثلاثمائة سفينة للقيام بغزوة جديدة، وأمر بالتقدم

نحو شبه جزيرة القريم في السادس والعشرين من شهر محرم الحرام سنة ثمانين وثمانمائة الهجريَّة (أول حزيران ـ يونيو ١٤٧٥م)، ففتح مدينة (كفه) وهي أكبر قاعدة تجارية للجنويين في القريم، وفتح جزيرة القريم بسهولة.

وبسيطرة العثمانيين على القريم وسيطرة أسطولهم على البحر الأسود، أصبح هذا البحر بحيرة عثمانية لا ينازعهم في سيادتها منازع.

وبقي أمام السلطان الفاتح أعدائه: البندقية.

وهاجم الفاتح المدن التي تخضع للبنادقة، بل هاجمهم في عقر دارهم، فاجتمع مجلس الشيوخ وقرر عقد صلح مع الفاتح وذلك يوم (٢ من مايس ـ مايو ١٤٧٨)، ولكن موافقة البندقية على شروط الفاتح جاءته متأخرة، لأنه كان في طريقه على رأس جيشه إلى (ألبانيا).

وفي اليوم الرابع عشر من ربيع الأول ثلاث وثمانين وثمانمائة الهجريَّة (١٥ من حزيران ـ يونيو ١٤٧٨م) استسلمت (كرويا) المدينة المنيعة الحصينة في ألبانيا للفاتح.

وفي اليوم الثالث من ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة الهجريَّة (٢٦ من كانون الثَّاني ـ يناير ١٤٧٩م)، وقَّع ممثل البندقية باسم حكومته معاهدة الصلح بينها وبين السلطان الفاتح، وبمقتضاها تخلّت البندقية عن (أرجوس) و(نيجربون)، وسلّمت (لنموس) وجميع ألبانيا ما عدا بضعة مواقع على الساحل، وتدفع للسلطان الفاتح تعويضاً حربياً قدره مائة ألف دوقة، وضريبة سنوية قدرها عشرة آلاف دوقة.

وكانت هذه الشروط هي الشروط التي أصرّ على فرضها السلطان الفاتح على البندقية ليقبل معاهدة الصلح معها.

وأصبح في وسع الأسطول العثماني بعد إبرام هذه الإتفاقية أن يجوب بحار الشرق بحرِّية وأمان، كما جعل كبرى الدول الإيطالية فوق ذلك طوع يدي الفاتح.

وفي اليوم الرابع من شهر جمادى الآخرة سنة خمس وثمانمائة

الهجريَّة (١١ من آب ـ أغسطس ١٤٨٠م) استولى العثمانيون على مدينة (أوترانتو) الإيطالية. واستحوذ الفزع على البابا سكست الرابع ولاح له أن روما ستسقط بيد العثمانيين كما سقطت القُسْطَنْطينيَّة من قبل، وزاد في فزعه ما شاع من أن العثمانيين سينزلون في ساحل (مارس Marches) في وسط إيطاليا، فهمّ البابا بالفرار من إيطاليا، ولكنه تلبّث قليلاً وأذاع على أمراء النصرانية رسالة يدعوهم فيها أن يتصافوا ويتهادنوا فيما بينهم ويوجهوا جميع قواهم ضد العثمانيين.

وحشد أمراء إيطاليا قواتهم، ولكنهم لم يستطيعوا زعزعة العثمانيين عن مواضعهم.

وحشد السلطان الفاتح جيشاً ضخماً في (أسكدار)، وغادر السلطان القُسْطَنْطينيَّة في أوائل الربيع من سنة ست وثمانين وثمانمائة الهجريَّة (١٤٨١م) ليتولى قيادة جيشه، ولكن المنية عاجلته في (أسكدار)، فمات القائد البطل وبقي الجنود بلا قيادة.

وقع النّعي

كان قائد الحملة الإيطالية كذلك أحمد باشا لا يزال في الميناء الألباني (فالو) يتهيأ للإبحار بجيشه الجديد إلى (أوترانتو) حينما بلغه نعي السلطان الفاتح، فعدل عن السفر وعاد أدراجه إلى القُسْطَنْطينيَّة.

وما لبث أن ذاع نبأ الوفاة في الشرق والغرب، فأحدث دوياً هائلاً اهتزت له النصرانية والإسلام على السواء.

أمّا النصرانية فقد كانت هزّتها هزة فرح وابتهاج، وتلقّت النبأ كأحسن ما تتلقى أعظم البشرى. وكانت جزيرة (رودس) لقربها من المدينة التي توفي فيها السلطان الفاتح أسبق إلى معرفة النبأ، فغمرها فيض من الغبطة والفرح لا يوصف، إذ كانت تتخوّف من هجوم جديد يشنّه عليها السلطان الفاتح بنفسه، فلم يكد يصل إليها نبأ وفاته حتى أمر رئيسها بإقامة صلوات

الشكر على نجاتهم من هذا: العدو المخيف.

ولم يكن ملك ناپولي أقلّ ابتهاجاً بتلقي هذا النبأ، فقد تنفس الصعداء وبادر فعرض على الجيش العثماني المعسكر في (أوترانتو) أن ينسحب منها بأمان ويعينه على الرحيل منها. ولكن الجنود العثمانيين أبوا أول الأمر أن يصدّقوا نبأ وفاة سلطانهم وحسبوه خدعة لبلبلة أفكارهم وإضعاف عزيمتهم فأصرّوا على البقاء في أماكنهم. ولما رأى دوق (كلابريا) منهم ذلك شنّ عليهم القتال وهجم عليهم هجوماً شديداً وجعل شجعان رجاله في مقدمة الجيش، ولكن العثمانيين ردّوهم على أعقابهم مدحورين.

ولم يمض على ذلك غير قليل، حتى جاءهم النبأ اليقين عن وفاة السلطان محمد الفاتح، فانتابهم من ذلك همٌ شديد وحزن عميق، فقد كانوا يرجون أن يستأنفوا زحفهم لفتح جميع إيطاليا بعد أن استولوا على مفتاحها في الجنوب. وعرض ملك نابولي مرة أخرى على الجنود العثمانيين أن ينسحبوا آمنين على حياتهم وأمتعتهم وعتادهم. وقبل العثمانيون ذلك هذه المرة، وشرعوا ينسحبون عن إيطاليا، ولكن الإيطاليين لم يفوا بما تعهّدوا فاعتقلوا قسماً منن الجنود الإنكشارية الذين كانوا في المؤخرة وصفّدوهم بالسلاسل.

على أنّ ما أقامه رئيس فرسان (رودس) وملك (نابولي) من مباهج وأفراح واحتفالات لوفاة السلطان الفاتح لا يكاد يعدّ شيئاً إلى جانب ما أقامته (روما) من مباهج وأفراح واحتفالات، وكان أشدّ الناس اغتباطاً فيها بطبيعة الحال البابا سيكبست الرابع الذي كان قد حاول الفرار من روما حين اقترب العثمانيون من مقر عرشه، فلم يكد يبلغه وفاة محمد الفاتح حتى أمر بفتح جميع الكنائس وأقيمت فيها الصلوات والاحتفالات، وسارت المواكب العامّة تجوب الشوارع والطرقات وهي تنشد أناشيد النصر والفرح بين طلقات المدافع، وظلّت هذه الاحتفالات والمهرجانات قائمة

في روما طيلة ثلاثة أيام. ولم تفعل البابوية مثل ذلك قط لموت أيّ رجل من رجال الإسلام من قبل ولا من بعد، ولا غرو فقد حاربت البابوية السلطان الفاتح بكل ما ملكت من قوة وحيلة طيلة ثلاثين سنة، وألّبت عليه ملوك وأمراء ورؤساء الغرب والشرق، فلم يُغْنِ ذلك عنها شيئاً. وحاولت أن تستميله وحبّبت إليه اعتناق النصرانية وأغرته بملك الخافقين والمجد القاهر في الأرض، فلم تفلح في مسعاها وباءت بالإخفاق الشنيع.

وظلّ السلطان الفاتح في جهاده يمضي قدماً لا يصدّه شيء، حتى أنزل جنوده في جنوبيّ إيطاليا، فارتاعت البابوية وأوشكت أن تلقى مصرعها، ولكن القدر المحتوم كان قد جعل للفاتح أجلاً ينتهي عنده، لا يستقدم ساعة ولا يستأخر، فتخلّصت النصرانية من أعظم خطر كان يهددها.

انطفأت فجاة الآمال الضخام التي كانت معقودة على قيادة محمد الفاتح بانطفاء حياته الغالية، وكان موته نكبة عظيمة للإسلام والمسلمين، فلا عجب أن بكاه المسلمون بحرارة ولوعة في جميع أرجاء الأرض، وحزنوا عليه حزناً شديداً، وأقيمت المآتم في كلّ أرض إسلامية على النطاقين الرسمي والشعبي.

لقد أدّى واجبه كاملاً لدينه وأمته، وجاهد في اللّه حق جهاده، ولعلّ فرح أعدائه من جهة وحزن المسلمين لفقده من جهة أخرى خير دليل على مبلغ جهاده لإعلاء كلمة اللّه.

لقد كان رجلاً حقاً، وكان أمة في رجل ورجلاً في أمة، ومثله في الرجال قليل.

الإنسان

١ ـ ربما يتبادر إلى الأذهان أنّ السلطان الفاتح رجل حرب وسياسة، أمضى كل عمره في الغزو والجهاد والفتح، فلم يترك أثراً في ميادين الحياة العامّة الأخرى.

إنّ حياة الفاتح لا تتّصل بالحرب والسياسة فحسب، وإنما تتّصل بالثقافة والفكر والعلم والفن والإدارة والحكم أيضاً، وقد كانت للسلطان الفاتح في كل هذه الميادين جولات باهرة لا تقلّ روعة وعظمة عن جولاته في ميداني الحرب والسياسة.

قضى الفاتح أيام طفولته بمدينة (أدرنة) وكانت عاصمة العثمانيين، فاهتمّ أبوه السلطان مراد الثَّاني بتنشئته وتربيته جسمياً وعقلياً: درّبه على ركوب الخيل ورمي القوس والضرب بالسيف، وعندما شبّ وترعرع ولاّه أبوه بعض الولايات بآسيا الصغرى يتدرّب فيها على شؤون الحكم والإدارة، ثم أخذ أبوه يستصحبه معه بين حين وآخر إلى بعض المعارك ليعتاد الحرب، ويتعلّم القيادة العسكريّة، ويتمرّس بالقتال وأساليبه.

وقد عُني أبوه من جهة أخرى عناية فائقة بتعليم ابنه محمد الفاتح وتثقيفه، غير أنّ محمداً أظهر أول الأمر جموحاً وإعراضاً شديداً عن التعاليم والدرس، ولم يسلس قيادة لأحد من المعلمين الذين ندبهم أبوه لتعليمه!

وسأل أبوه عن رجل ذي جلالة ومهابة وشدّة، فدلّ على المولى أحمد بن إسماعيل الكوراني الذي كان طويل القامة، كثّ اللِّحية مهيب الطلعة، فأعطاه السلطان مراد قضيباً ليضرب به. ودخل على محمد الفاتح والقضيب في يده وقال له: أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري، فضحك منه محمد وسخر من كلامه، فعاجله المولى الكوراني بضربة قوية ارتاع لها الفتى الشموس ثم استخذى لها، وأدرك أنه أمام معلّم من نوع جديد يختلف عمن سبقه كل الاختلاف. وكأنما كانت هذه الضربة الأولى الحازمة التي تلقّاها محمد هي الطّلسم الذي أعاده إلى رشده، إذ أقبل بعدها على التعليم بنهم وجدّ ونشاط، فما مضى عليه غير قليل من الوقت حتى ختم القرآن الكريم. واستبشر والده بذلك واغتبط، وغمر المولى الكوراني بالعطايا والأموال الغفيرة.

ولم يسمع السلطان مراد بعد ذلك بأستاذ برع في علم من العلوم أو مهر في فن من الفنون أو اشتهر بخصله من خصال الفضيلة إلاّ ويستدعيه ويبعثه إلى ابنه محمد لتعليمه وتأديبه[1]، وفي مقدمتهم المولى محمد بن فرامز خسرو: وكان إماماً بارعاً مفنناً محققاً نظاراً طويل الباع راسخ القدم[2]، وتلقى العلم على كثيرين غيره.

وإلى جانب هؤلاء الشيوخ والفقهاء، أحضر السلطان مراد إلى ابنه أساتذة في الرياضيات والجغرافية والفلك والتاريخ واللّغات المختلفة. وقد حذق محمد الفاتح من هذه اللّغات ـ فضلاً عن لغته التركية ـ العربيَّة والفارسية واللاتينية واليونانية.

ولم ينقطع محمد الفاتح بعد توليه السلطنة عن التعلم والدرس، فما توسّم في رجل نبوغاً أو تضلّعاً في علم من العلوم إلاّ واتّخذه معلّماً لنفسه. وأكبّ الفاتح على دراسة التاريخ لا سيما ما يتعلّق بسير عظماء الشرق والغرب، فقرأ بإمعان حياة القياصرة وأعجب بشخصية الإسكندر المقدوني، فقد لمح فيها صورة من نفسه ورأى فيها قوة النفس وصحة العزم وسرعة التنفيذ بعد إحكام الخطة وعدم التردّد. كما قرأ سيرة النبي ﷺ وسير الخلفاء الراشدين وقادة الفتح الإسلامي وسير الخلفاء والأمراء والقادة المسلمين، كما اهتمّ بوجه خاص بفلسفة أرسطو والرواقيين والفلسفة الإسلاميَّة واتخذ له في ذلك أساتذة من العلماء النابهين.

وكان أول ما عُني به السلطان الفاتح بعد فتح القُسْطَنْطينيَّة أن أنشأ

---

(١) وقد كان المولى الكوراني أول أساتذة محمد الفاتح عالماً فقيهاً، شهد له علماء عصره بالتفوق والإتقان، ويقول السيوطي في ترجمته: ودأب في فنون العلم حتى فاق في المعقولات والأصلين والمنطق وغير ذلك، ومهر في النحو والمعاني والبيان، وبرع في الفقه واشتهر بالفضيلة.... انظر السيوطي في: نظم العقيان.

(٢) السيوطي في نظم العقيان، وكان الفاتح يسميه: ● أبا حنيفة زمانه ● انظر الشقائق النعمانية وشذرات الذهب.

المدارس والمعاهد وعمل على نشرها في جميع أرجاء دولته. وقد كانت أول مدرسة في الدَّولة العثمانية هي التي أنشأها السلطان أورخان بمدينة (أزنيق)، وسار مَنْ بعده من السلاطين على منواله، وانتشرت المدارس في (بروسة) و(أدرنة) وغيرهما من المدن.

أما السلطان الفاتح فقد بزّ أسلافه ومَنْ جاء بعده من السلاطين في هذا المضمار: بزّهم بما كان له من الثقافة العالية الممتازة، وبما بذله من جهود كبيرة في نشر العلم وإنشاء معاهده، وما أدخله من الإصلاح والتنظيم في مناهج التعليم، وما أسبغه من رعاية كريمة على أهل العلم والأدب والفن.

فقد أنشأ السلطان الفاتح المدارس وبثّها في المدن الكبيرة والصغيرة، بل أنفذها إلى القرى النائية وأوقف عليها الأوقاف العظيمة، ونظّم هذه المدارس ورتّبها على درجات ومراحل ووضع لها المناهج وحدّد العلوم والمواد التي تدرس في كل مرحلة، واتّخذ لها الامتحانات فلا ينتقل طالب من مرحلة إلى أخرى إلاّ بعد أداء أمتحان دقيق عسير. وكان السلطان الفاتح يحضر هذه الامتحانات ويشهدها بنفسه، كما كان يزور هذه المدارس بين حين وآخر ويستمع إلى الدروس التي يلقيها الأساتذة، ثم يوصي الطلبة بالجد والاجتهاد، ويجزل العطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة، وكان التعليم في جميع هذه المدارس بالمجان.

وكانت المواد التي تدرس في هذه المدارس: النحو، والصرف، والمنطق، وعلم الكلام، وعلم الأدب، والحساب، وعلوم البلاغة من البيان والبديع والمعاني، والهندسة والهيئة والفقه والحديث والتفسير.

وأشهر المدارس التي أنشأها الفاتح هي المدارس الثمان التي أنشأها على جانبي مسجده الذي بناه في القُسْطَنْطينيَّة، على كل جانب منه أربع مدارس يتوسّطها صحن فسيح، لذلك سُمِّيت هذه المدارس أيضاً بمدارس الصّحن، وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته. وألحقت بهذه

المدارس مساكن للطلبة يتناولون فيها طعامهم، كما يتناولون منحة مالية شهرية، وكانت الدراسة في هذه المدارس تجري في جميع أيام السنة. وأنشئت بجانب المدارس مكتبة خاصة، وكان يشترط في الرجل الذي يتولّى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل الصلاح والعلم عارفاً بأسماء الكتب والمؤلفين ويعير الطلبة والمدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منظّمة دقيقة، ويسجّل أسماء الكتب المستعارة في سجل خاص. وهذا الأمين مسؤول عن الكتب التي بعهدته، بل مسؤول عن سلامة أوراقها، وتفتّش هذه المكتبة كل ثلاثة أشهر على الأقل.

وأدخل السلطان الفاتح في مناهج التعليم نظام التخصص، فجعل للعلوم النقلية والنظرية قسماً خاصاً وللعلوم العملية التطبيقية قسماً خاصاً أيضاً.

وحذا العلماء والوزراء حذو سلطانهم، وتنافسوا في إنشاء المدارس والمعاهد، ممّا أدّى إلى انتشار العلم وازدهاره، وقد أضفى السلطان الفاتح على المدرِّسين والأساتذة رعاية كريمة سابغة، ووسّع لهم في المعيشة، ليتفرغوا للعلم والتعليم.

وليس أعرف بمكانة العلماء وأقدراهم ممن مارس العلم وجهد في سبيله، وقد كان السلطان الفاتح عالماً بحق بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، فقرّب إليه العلماء وأعلى شأنهم ورفع قدرهم وشجّعهم على العمل والإنتاج وبسط لهم يداً ندية سخية لا تضنّ بالبذل والعطاء. وكان السلطان الفاتح يجل العالمَ لعلمه وفضله أياً كان جنسه ودينه وموطنه، وقد حدث بعد فتح (القرمان) أن أمر بنقل العمال والصناع إلى القُسْطَنْطينيَّة، غير أنّ وزيره روم محمد باشا اشتدّ في الأمر وتعسّف الناس وأصابهم منه عنت ورهق، وكان من بينهم نفر من أهل العلم والفضل في مقدمتهم الشيخ أحمد جلبي بن السلطان أمير علي من سلالة العالم الصوفي المشهور جلال الدِّين الرومي، فلمّا علم السلطان الفاتح بأمره اعتذر إليه وأعاده إلى

وطنه مع رفقائه تحفّ بهم مظاهر التجلّة والتكريم مثقلين بالهدايا. وممّا يلفت النظر أنّ السلطان الفاتح لم يبعث شخصية من شخصياته إلى الشيخ أحمد جلبي للاعتذار إليه عن سوء معاملة روم محمد باشا له، بل ذهب إليه بنفسه واعتذر إليه وأعاده مع مَنْ أراد من صحبه إلى موطنه معزّزاً مكرّماً.

وفي فتوحه كان يشدِّد على عدم قتل الأسرى من العلماء وأصحاب المعارف، وحدث بعد هزيمة أوزون حسن أن وقع في يد العثمانيين عدد كبير من الأسرى، فأمر الفاتح بتخلية سبيل العلماء مثل القاضي محمد الشريحي الذي كان من فضلاء الزمان والسيد محمد المنشي وكثير غيرهما من العلماء والفضلاء، وأكرمهم وأحسن معاملتهم وأغدق عليهم بالعطايا السخية وأسند إليهم المناصب العالية في الدَّولة.

وبعد فتح (طرابزون) وقع في أسر الجيش العثماني فيلسوف شاعر من الرّوم يدعى: (جورج أموير تزس) كان قد وصل إلى الفاتح ذكره وشهرته العلمية، فأحسن لقياه واستصحبه معه القُسْطَنْطينيَّة وأصبح من خاصّته، ورفع الفاتح منزلته ومنحه أعطيات واسعة، وصار يذاكره في المسائل الفلسفية وغيرها، وقد شرح اللَّه صدر هذا الفيلسوف فيما بعد للإسلام، فأسلم وحسن إسلامه.

وكان السلطان الفاتح يتطامن صاغراً متخشّعاً أمام العلماء وأهل الورع والتّقى، ويستشيرهم في أخطر أموره، وينصت إلى نصائحهم ويتقبّلها بقبول حسن، وينفّذ تعاليمهم نصاً وروحاً.

حدث بعد فتح القُسْطَنْطينيّة أن دخل السلطان الفاتح على الشيخ الزاهد المتصوف آق شمس الدِّين في خيمته وهو مضطجع فلم يقم له، وقبّل السلطان الفاتح يد الشيخ وقال: جئتك لحاجة عندك، قال: ما هي؟ قال الفاتح: أريد أن أدخل الخلوة عندك أياماً، قال الشيخ: لا! فأعاد عليه السلطان هذا الطلب مراراً والشيخ يقول: لا! فغضب السلطان الفاتح وقال:

إنّ واحداً من الأتراك يجيء إليك وتدخله الخلوة بكلمة واحدة!! فقال الشيخ: إنك إذا دخلت الخلوة، تجد هناك لذة فتسقط السلطنة من عينك وتختل أمورها، فيمقت اللّه إيانا، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا وكذا. . .، وذكر ما بدا له من النصائح، ثم أرسل إليه ألفي ليرة ذهبية، فلم يقبلها الشيخ. وقام السلطان الفاتح، فودعه الشيخ وهو مضطجع على جنبه كما كان، ولما خرج السلطان الفاتح قال لابن ولي الدِّين: ما قام الشيخ لي، وأظهر التأثر من ذلك، فقال ابن ولي الدِّين: إنّ الشيخ شاهد فيكم الغرور بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسّر للسلاطين العظام، وإنَّ الشيخ مُرَبٍ، فأراد بذلك أن يدفع عنكم الغرور، وبعد يوم دعا الشيخ آق شمس الدِّين في الثلث الأخير من الليل، فبادر إليه الأمراء يقبلون يد الشيخ. قال الشيخ: وجاء السلطان محمد خان والليل مظلم، وما أدركته بالبصر بسبب يد الظلمة، ولكن عرفته روحي فعانقته وضممته إليّ ضماً شديداً، حتى ارتعد وكاد أن يسقط فما خليته إلى أن يزول عنه الحال. وقال السلطان الفاتح: كان في قلبي شيء في حق الشيخ، فلمّا ضمني إليه انقلب ذلك حباً، ثم إنه دخل مع الشيخ الخيمة، فجلس بين يديه حتى طلع الفجر، وأذّن الشيخ للصلاة، وصلى السلطان خلفه، ثم قرأ الشيخ الأوراد والسلطان جالس أمامه على ركبتيه يستمع الأوراد[١].

وحدث أيضاً أنّ السلطان الفاتح بعث مع أحد رجاله بمرسوم إلى المولى الكوراني وكان إذ ذاك يتولى قضاء العسكر، فوجد فيه أمراً يخالف الشرع، فمزقه وضرب مَنْ جاء به وحمّله إليه، وشق ذلك على السلطان الفاتح وتغلّبت عليه ثورة الغضب، فعزل الكوراني من منصبه ووقع بينهما نفور وجفوة.

ورحل المولى الكوراني إلى مصر حيث احتفى به سلطانها قايت باي وأكرمه غاية الإكرام، وأقام عنده مدة من الزمن.

---

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية.

وما لبث الفاتح أن ندم على ما كان منه، فكتب إلى السلطان قايت باي يلتمس منه أن يرسل إليه المولى الكوراني، فحكى السلطان قايت باي كتاب الفاتح ثم قال: لا تذهب إليه فإني أكرمك فوق ما يكرمك هو، فقال المولى الكوراني: نعم هو كذلك، إلاّ أنّ بيني وبينه محبة عظمية كما بين الوالد والولد، وهذا الذي جرى بيننا شيء آخر، وهو يعرف ذلك مني ويعرف أني أميل إليه بالطبع، فإذا لم أذهب إليه يفهم أنّ المنع من جانبك فيقع بينكما عدواة ●، فاستحسن قايت باي هذا الكلام، وأعطاه مالاً جزيلاً، وهيّأ له ما يحتاج إليه من حوائج السفر، وبعث معه هدايا عظيمة إلى السلطان الفاتح[1].

وحين وصل المولى الكوراني إلى القُسْطَنْطينيَّة، أسند الفاتح إليه القضاء ثم الإفتاء وأجزل له العطاء، وأكرمه إكراماً لا مزيد عليه.

وكان العلماء والشيوخ يصحبون الفاتح في غزواته وحروبه، فكانوا في كل ميدان من ميادين القتال في طليعة الجيش إلى جانب السلطان: يثيرون الحميّة الدِّينية، ويتلون على الجنود آيات الجهاد والنصر، ويقاتلون كما يقاتل الجنود، ويضربون لهم أروع الأمثال في الشجاعة والإقدام.

وقد دأب محمد الفاتح منذ كان أميراً على (مغنيسيا) على مراسلة العلماء والمثقفين من الأمراء في فارس ومصر والعراق والهند وغيرها. وبقي الفاتح على هذه السنة الحسنة بعد توليه السلطنة: وضاعف ما كان يسبغه على العلماء والأدباء من تكريم ورعاية ومنح، فكان يرسل إلى خوجه جهان أول كتّاب الهند في زمانه ألف دوقة في كل عام، وكذلك إلى المولى عبد الرحمٰن الجامي من أعاظم علماء وشعراء فارس في ذلك العهد.

وممن كان يكاتبهم السلطان الفاتح من علماء مصر الشيخ محمد بن

---

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية.

سليمان المحيوي المعروف بالكافياجي، وهو أستاذ السيوطي العالم المصري المعروف، وقد أثنى عليه العلماء والمؤرخون المصريون ثناءً عظيماً لعلمه وفضله وخلقه وورعه[1]، وكان الفاتح يكاتبه ويهدي إليه الهدايا السنية.

وما سمع السلطان الفاتح قط عن عالم في مملكته أصابة عوز وإملاق إلاّ بادر إلى مساعدته ومنحه ما يستعين به على الحياة والعيشة الرضيّة، بل إنّه جعل للعالم الذي يعتزل عمله لسبب من الأسباب راتباً خاصاً يعرف بـ(راتب التقاعد) يستعين به على تكاليف الحياة صوناً له عن ذل السؤال وصوناً للعلم أن يُمْتَهن، ولا يقلّ هذا الراتب في كثير من الأحيان عن الراتب الذي كان يتقاضاه في أثناء عمله.

وكان من أثر ما أفاضه السلطان محمد الفاتح على العلم وأهله من رعاية سابغة وتقدير كريم وبذل سخي، أن توافد إلى رحابه العلماء والأدباء والشعراء والفنانون من كل حدب وصوب، واجتمع في بلاطه من جميع هؤلاء عدد عديد من العرب والترك والفرس والرّوم واللاتين.

وكان السلطان الفاتح يقضي الأوقات التي يستجمّ فيها بالقُسْطَنْطينيَّة من الحروب في عقد المجالس العلمية والأدبية، فيباحث العلماء في المسائل العلمية ويعقد بينهم المناظرات المختلفة، وقد يشتد وطيس بعضها وتمتد عدة أيام.

وجرت عادة الفاتح في شهر رمضان المبارك أن يستحضر إلى قصره بعد صلاة الظهر جماعة من العلماء المتضلّعين في تفسير القرآن، فيقوم في كل مرة واحد منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها، ويناقشه في ذلك سائر العلماء ويجادلونه. وكان الفاتح يشترك أيضاً في هذه

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، وابن إياس: تاريخ مصر، والسيوطي: بغية الرعاة في طبقات اللغويين والنحاة.

المناقشات، فكان هذا الدرس الدِّيني بمثابة امتحان لهؤلاء العلماء واختبار لمقدرتهم وكفايتهم، فيبعثهم ذلك على التنافس في الإجادة والإتقان.

والحق أنّ العالم في حضرة الفاتح كان عرضة للسؤال والامتحان، وكان يعجبه من العالم أن يكون حاضر العلم سريع الإجابة. وقد حدث يوماً أن سأل السلطان الفاتح وهو في طريق عودته إلى القُسْطَنْطينيَّة المولى محي الدِّين المعروف بابن المغنيسي الذي اشتهر بالجد في التحصيل والانكباب على الدرس عن بيت عربي فقال المولى: أتفكر فيه بالمنزل ثم أجيب! فقال الفاتح لبعض رجاله: احضروا مولانا سراج الدِّين، فحضر، وسأله السلطان عن ذلك البيت فقال: هو للشاعر الفلاني من قصيدته الفلانية من البحر الفلاني، ثم قرأ البيت وحقّق معناه، فقال السلطان الفاتح لابن المغنيسي: ينبغي أن يكون العالم هكذا في العلم والمعرفة والتتبّع[1].

وحتى في ميادين الحرب، كان السلطان الفاتح ينتهز الأوقات التي يتوقّف فيها رحى القتال، فيعمد إلى مناظرة مَنْ يكون معه من العلماء، وبلغ من حبه لأهل العلم ومجالسهم أنه نبذ ملابس السلطنة الفاخرة وآثر عليها لباس العلماء وتزيًا بزيِّهم.

ولم يكن السلطان الفاتح أقل ولعاً وكلفاً بندوات الأدباء والشعراء ومجالسهم، ولا غرو فقد كان هو نفسه شاعراً، وكان يكتب أشعاره باسم: (عوني)، وهو يُعَدّ أول شاعر من السلاطين اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً، وللفاتح ديوان شعر باللغة التركية.

وكان الفاتح يطرب لسماع الشعر في أي لغة من اللغات التي كان يحذقها، ويتمثّل بالشعر في بعض المناسبات، كما تمثّل ببيت من الشعر الفارسي عند دخوله قصر الإمبراطور قسطنطين. وحدث بعد فتح

---

(١) الشقائق النعمانية.

القسطنطين أن رفع إليه الشاعر الإيطالي (فيليف Philephe) رسالة وقصيدة يلتمس منه فيهما إطلاق نسوة من ذوي قرباه وقعن في أسر العثمانيين، فأمر السلطان الفاتح من فوره بإطلاق سراحهن بغير فدية[١].

وكان طبيعياً بعد ذلك كله أن يطنب الشعراء والأدباء في مدح السلطان الفاتح لمّا أسداه إلى العلم والأدب من كريم الرعاية وجميل التقدير والتشجيع، وقد مدحه كل شاعر باللغة التي يحسنها.

وفي المجالس العلمية والأدبية التي كان يحضرها الفاتح كان يحرص أشدّ الحرص على أن يسودها جوّ الوقار العلمي وآداب المناظرة والحديث، فكان يطلب إلى كل مناظر أن يكون أميناً في قوله وفي إيراد كلام مناظره، فلا يدلِّس ولا يغالط. وكان يكره من رجل العلم النفاق والغرور والادعاء ويبتغي منه أن يكون قدوة حسنة للناس في القول والعمل ولا يتغاضى الفاتح عن عالم صدر منه ما يجافي الدِّين أو المروءة، فإنه يبعده من مجلسه ويقطع اتصاله به ولو كان من المقربين إليه.

وينكر على الشعراء التبذّل والمجون والدّعارة، ويعاقب الشاعر الذي يخرج عن آداب المجتمع أو يطرده من بلاطه، ولا غرو فقد نشِّىء الفاتح منذ صغره على خير ما يُنشَّأ أمراء زمانه تربية وأدباً.

وعمد السلطان الفاتح إلى إذكاء روح العمل والإنتاج وتنشيط الحركة العلمية بجميع وسائل التشجيع المعنويّة والماديَّة، وكثيراً ما كان يطلب إلى نفر من العلماء الكتابة في موضوع واحد، ليدفعهم التنافس والتسابق إلى الإجادة والإتقان، ثم يمنح المتسابقين مكافآت جزيلة ويخصّ المتفوّقين بالخلع السنية، فازدهرت النهضة الفكرية في حياته وخصب الإنتاج وكثر التأليف.

---

(١) وقد كتب هذا الشاعر الإيطالي فيما بعد أرجوزة شعرية في حياة السلطان محمد الفاتح، وهي لا تزال مخطوطة وموجودة الآن بمكتبة جنوى.

ولم يفت السلطان الفاتح الثاقب البصر أن يستعين بالنقل والترجمة في بعث النهضة الفكرية ونشر العلم والمعرفة بين قومه، فأمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة بالعربيَّة واليونانية واللاتينية والفارسية إلى اللغة التركية. من ذلك كتاب: (مشاهير الرجال) لبلوتارك، وقد علّق الأستاذ بيوري على ذلك بقوله: ... فإذا كان السلطان الفاتح نفسه يعرف اللغة الرومية، فلا شك أنّه قد أمر بترجمته لتعميم نشره وفائدته بين رعاياه. كما نقل إلى التركية من العربيَّة كتاب: (التصريف) في الطب لأبي القاسم الزهراوي الطبيب الأندلسي مع زيادات في صور الآلات الجراحية وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليَّات الجراحية.

وقد عثر السلطان الفاتح بعد فتح القُسْطَنْطينيَّة بكتاب بطليموس في الجغرافية وخريطة له، فقام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومي جورج أميروتزوس، ثم طلب إليه الفاتح وإلى ابنه (ابن العالم الرومي) الذي كان يجيد اللغتين الرومية والعربيَّة ترجمة الكتاب إلى العربيَّة وإعادة رسم الخريطة مع التحقيق في أسماء البلدان وكتابتها بوضوح باللغتين العربيَّة والرومية، وكافأهما على هذا العمل بعطايا مجزية.

وليس أدلّ على اهتمام الفاتح باللغة العربيَّة من أنه طلب إلى الأساتذة بالمدارس الثمان التي أنشأها حول مسجده في القُسْطَنْطينيَّة أن يجمعوا بين الكتب الستة في علم اللغة كالصحاح والتكملة والقاموس وأمثالها. ودعم الفاتح حركة التأليف والترجمة لنشر المعرفة بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامَّة، وأنشأ له في قصره خزانة خاصة احتوت غرائب الكتب والعلوم، وعيّن المولى لطفي أميناً عليها، وكانت تضمّ اثني عشر ألف مجلّد عندما احترقت عام (١٤٦٥م). وجدير بالذكر هنا أنّ الفاتح كان كثيراً ما يستعيض عن مال الجزية بالكتب والمخطوطات، فمن ذلك أنه طلب مرة من إحدى الجمهوريات الإيطالية أن تدفع له الجزية ببعض المخطوطات الإيطالية.

٢ ـ على أن أهمّ ما يسترعي النظر والإلتفات في السلطان الفاتح هو ما اتّصف به في الناحيتين الدِّينية والعلمية على السواء من رحابة صدر وسعة أفق وسماحة نفس وإدراك صحيح لمعنى حرية الضمير وحرية الرأي والقول تطبيقاً لتعاليم القرآن الكريم: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾[1]، فبرغم ما بلغه من سعة الملك وقوة السلطان ونفاذ الكلمة، لم يشأ أن يفرض دينه على أحد، ولم يشأ أن يفرض رأيه على أحد.

كان هونياد المجري إبان قتاله للعثمانيين قد طلب إلى برنكوفيتش الصربي أن يمضي هو الآخر في قتال العثمانيين، فسأله برنكوفيتش: وماذا تصنع بديننا إذا أنت انتصرت على الأتراك؟ فأجاب هونياد: أحمل الناس على اعتناق الكاثوليكية، وأُقيم الكنائس الكاثوليكية في كل مكان، وكان الصربيون يتبعون الكنيسة الشرقيَّة.

ووجّه برنكوفيتش نفس السؤال إلى السلطان الفاتح، فأجاب: أقيم إلى جانب كل مسجد كنيسة، والناس أحرار في دينهم، فمَنْ شاء ذهب إلى المسجد، ومَنْ شاء ذهب إلى الكنيسة[2].

ويزداد تقديرنا لهذه المعاني المعنويّة الرفيعة في نفس الفاتح إذا نظرنا إلى العصر الذي عاش فيه، عصر التعصّب الدِّيني والفكري ـ لاسيما في الغرب الأوروبي، حيث تلطّخت أقطاره بالمذابح والمجازر البشريَّة الفاجعة ضد المخالفين في العقيدة والرأي. ومذبحه (سانت بارثلمي Saint - Barthelemy) التي حدثت في فرنسا بعد نحو قرن من وفاة السلطان الفاتح وفتك فيها الكاثوليك بموافقة ملك فرنسا شارل التاسع بمواطنيهم

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢: ٢٥٦).

(٢) Themperely, History of Serbia.

البروتستانت غيلة وغدراً وذبحوهم ذبح الخراف، حادثة معروفة مشهورة في التاريخ ورواياتها متواترة لا شك فيها.

ولماذا نذهب بعيداً، والمذابح بين الكاثوليك والبروتستانت قائمة على قدم وساق في النصف الثَّاني من القرن العشرين، فقد نشبت معارك طاحنة بين الطائفتين المسيحيتين عام (١٩٧٠ و١٩٧١م) في إيرلندا على مسمع ومشهد من العالم كله!! ولا تزال المعارك بين هاتين الطائفتين قائمة على قدم وساق.

لقد كان السلطان الفاتح بطبعه بَحَّاثةً طالباً للعلم محباً للعلماء شديد الكَلَف بالعلوم التطبيقية[1] والعلوم الدِّينية بخاصة.

وكان مسلماً صادق الإسلام، مؤمناً قوي الإيمان، وكان أول ما رضع من لبان العلم والمعرفة في صغره هو القرآن الكريم. وكان أثناء وجوده في القُسْطَنْطينيَّة لا تفوته صلاة الجماعة بالمسجد الجامع، وكانت خطبه في السلم والحرب تفيض حمية ونخوة على الدِّين الحنيف.

وقد كان لفتح القُسْطَنْطينيَّة حوافز كثيرة ذكرنا قسماً منها، ولكن الحافز الدِّيني كان له مكان عظيم في نفس محمد الفاتح دفعه إلى الاستقتال في الحرب والإصرار على الفتح. وقد ذكر الفاتح هذا الحافز في كلماته قبل المعركة وفي أثنائها وبعدها، وعزم على أن يفوز بتحقيق البشارة النبوية في الحديث الشريف، لتفتحن القُسْطَنْطينيَّة، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش جيشها[2].

---

(١) استفاد الفاتح من المهندسين في تطوير أسلحته وبخاصة المدفعية وابتكار أسلحة جديدة، ولعله أول من بذل جهده لابتكار المدفعية الضخمة ذات القنابل الشديدة الانفجار.

(٢) ورد في أسد الغابة لابن الأثير، وفي الإصابة لابن حجر العسقلاني، وهو حديث صحيح رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده والحاكم في مستدركه، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوي (٢/٣٠٦).

وهذا الحديث الشريف يطالعك مكتوباً في أبرز مكان من مسجد الفاتح في القُسْطَنْطينيَّة الذي بناه الفاتح وحرص على تتويجه بهذا الحديث النبوي الشريف.

وكان سعيداً أعظم السعادة بفتح القُسْطَنْطينيَّة، لأنه استبشر بهذا الحديث النبوي الشريف، كما استبشر المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها بتحقيق هذه البشارة النبوية.

كما وردت أحاديث تُبشِّر بهذا الفتح في صحيح مسلم[1].

ولتديّن السلطان الفاتح، فقد كان لرجال الدِّين في نفسه مكانة عظيمة، ومن خير ما أسداه نحو العلم والعلماء ما ابتدعه من التنسيق والتنظيم في درجات العلماء ومراتبهم والتمييز بين المناصب والوظائف العلمية كالتدريس والقضاء. وقد جعل التدريس نفسه درجات وكذلك القضاء درجات، فلا يشغل وظيفة من هذه الوظائف إلاّ من ثبتت كفايته وأهليته لها. أمّا الوظائف الصغيرة التي ليست بذات خطر كالإمامة أو الأذان في المسجد، فكان يكفي فيمن يشغلها أن يكون قد أصاب قدراً من الثقافة الدِّينية. وكان السلطان الفاتح يحتفظ في قصره بثبت فيه أسماء العلماء ومنزلة كلٍّ منهم في العلم، وما له من كفاية وإنتاج، فإذا ما خلا منصب من المناصب الكبيرة في الدَّولة رجع إلى هذا السجل واختار للمنصب الشاغر أصلح العلماء له.

١٣ ـ وقد أظهر السلطان الفاتح في الناحية الإدارية كفاية ومقدرة لا تقلان عن كفايته ومقدرته في الناحيتين السياسية والعسكريَّة.

وقد كان أول ما قام به عند توليه السلطة أن عزل الموظفين القدامى غير الأكفاء وعيّن مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفاية وحدها أساساً في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته.

---

(١) راجع أحاديث فتح القسطنطينية في صحيح مسلم (٨/ ١٧٦ ـ ١٧).

واهتم الفاتح بالناحية المالية، فوضع القواعد المحكمة الصارمة في جباية أموال الدَّولة وقضى على إهمال الجباة وتلاعبهم، وحارب الرشوة والمرتشين بشدّة.

وكان الفاتح شديد الحرص على العدالة الدقيقة الحازمة في كل جزء من أجزاء مملكته، شديد الحرص على تحقيق الرفاهية والرخاء لجميع رعاياه.

وكان عند خروجه إلى بعض الغزوات والحروب، كثيراً ما يتوقف في بعض أطراف مملكته ويأمر بنصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم، ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته.

وكان ممَّا قصد إليه الفاتح من تعلم اللغات الأجنبيَّة كاللاتينية والرومية أن يتمكن من الاتصال المباشر بشعوبه العديدة ذات اللغات المختلفة ويقف على أحوالها بنفسه.

وقد عُني الفاتح بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل في أمور الناس، فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة ومن المتصفين بالإنصاف والنزاهة والاستقامة وحسب، بل لا بد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع تجلة واحترام بين الناس، وأن تكفي مؤونتهم الماديَّة كفاية تامة، سداً لسبل الإغراء والرشوة، فوسّع لهم الفاتح في المعيشة كل التوسعة، وأحاط منصبهم بهالة مهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة.

أما القاضي المرتشي، فلم يكن له عند السلطان الفاتح من جزاء غير القتل.

وكان كثيراً ما يعسّ بالليل ويجوب الطرقات والدروب، ليتعرف أحوال الناس بنفسه، ويتسمّع إلى شكاواهم.

أما فيما يتعلق بالأعمال المتصلة بالعمران والأغراض السلميَّة، فقد

أكثر الفاتح من إنشاء المباني العامَّة والطرق والجسور في أرجاء مملكته.

وأنشأ الفاتح كثيراً من المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمَّامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامَّة.

ولابد لنا من وقفة قصيرة لننظر في إعجاب ودهشة إلى ذلك النظام الدقيق الذي وضعه السلطان الفاتح للمستشفيات أو دور الشفاء كما يسميها العثمانيون، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب، ثم زيد إلى اثنين من حُذَّاق الأطباء من أي جنس كان، يعاونهما كحّال وجرّاح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين. ويشترط في جميع المشتغلين بدور الشفاء أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم، وألاّ تُصرف الأدوية لهؤلاء المرضى إلاّ بعد التدقيق في إعدادها. وأكثر من هذا كله أنه كان يُشترط في طبّاخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها، وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجان، ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم.

وقد كان السلطان الفاتح شديد الحدب على الفقراء والمساكين براً بهم، ولم يكن في صدقاته وإحسانه نحوهم يفرق بين المسلم وغير المسلم، حتى لُقِّب بأبي الخيرات وأبي الحسنات.

وعُني الفاتح بالتجارة والصناعة وعمل على إنعاشهما بكل الأسباب والوسائل، وكان من أثر ذلك أن عمّ الرّخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء البلاد، وفي عهده ضربت النقود الذهبية لأول مرة في تاريخ الدّولة العثمانية.

وبالرغم ممَّا بلغه الفاتح من سعة الملك وعظم السلطان وعزة المجد والقوة، فإنه لم يداخله البطر والغرور، وبقي متواضعاً يخفض جناحه لجميع الناس وبخاصة أهل العلم، وكان يزور العلماء في دورهم ويتناول ما يقدِّمونه إليه من طعام وشراب، وكان في ملبسه ومأكله أقرب إلى

التقشّف والزهادة، وكان أستاذه المولى الكوراني يعظه دائماً ويخاطبه باسمه، وإذا لقي السلطان يسلِّم عليه ولا ينحني له ويصافحه ولا يقبِّل يده ولا يذهب إليه يوم عيد إلاّ إذا دعاه.

وكثير من العلماء في عهد الفاتح كانوا على مثال المولى الكوراني في الإباء والصرامة والحرص على قول الحق، لا يغضبون إلاّ للَّه ولا يرضون إلاّ له، يجابهون الوزراء ورجال الدَّولة بل السلطان الفاتح نفسه بأشد القول وأعنفه، لا يخشون لومة لائم ولا يبتغون من وراء ذلك إلاّ صلاح الدِّين والدنيا.

وكان إذا أنكر أحد من العلماء على الفاتح شيئاً هدّده بالخروج من مملكته أو يصلح ما ينكر، ولم يكن أشق على نفس الفاتح من أن يرى عالماً يخرج من بلاده، وقد وجد الفاتح في هؤلاء العلماء العاملين خير عون له وسند في تنفيذ سياسته التي كان يتوخى منها نشر العدل والرخاء في شعبه.

لقد مات قبل السلطان الفاتح عظماء في الإسلام، ومات بعده عظماء، فلم تحفل النصرانية بموت أحد منهم مثلما حفلت بموت هذا السلطان، وقد رأينا فيما تقدم ما أقامته البابوية في روما من الحفلات والمهرجانات الصاخبة ابتهاجاً بموته، وظلّت الرهبة من الفاتح تخيِّم على أوروبا حقبة من الزمن، وظلّت ذكراه تُلقي الفزع والرعب في قلوب أهلها إلى عشرات السنين بعد وفاته.

وفي سنة (١٦٨١م) أي بعد موت السلطان الفاتح بقرنين، ألّف مؤرخ فرنسي يدعى (جبييه) كتاباً في تاريخ حكم السلطان محمد الفاتح، وأهدى كتابه هذا إلى لويس الرابع عشر أو لويس الأكبر أعظم ملوك فرنسا وأعظم ملوك عصره. وقد قال المؤلف في مقدمة كتابه: إنه إذ يسأل اللَّه لملك فرنسا طول البقاء وأن يهب له المجد والسؤدد والقوة والسعادة، يرجو من اللَّه كذلك ألاّ يظهر مرة أخرى على وجه الأرض حاكم

كالسلطان محمد الفاتح، فقد كان حكمه بلاء ونكبة عل النصارى والنصرانية.... وهذا ما يجب أن يتمناه دوماً بدون انقطاع لا الفرنسيون وحدهم، بل جميع الشعوب النصرانية الأخرى.

ومع ذلك لم يشتهر أحد السلاطين العثمانيين لدى الأوروبيين وكثر تحدثهم عنه، مثل السلطان الفاتح، وهو أول سلطان عثماني بل أول حاكم إسلامي أطلق عليه الأوروبيون لقب: (السيد العظيم Grand Seigneur).

ولد محمد الفاتح في السادس والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة الهجريَّة (٢ نيسان ـ أبريل ١٤٢٩م).

وتولى السلطنة في السادس عشر من محرم الحرام سنة خمس وخمسين وثمانمائة الهجريَّة (١٨ شباط ـ فبراير ١٤٥١م) وهو في الثَّانية والعشرين من عمره.

وتوفي في مدينة (أسكدار) يوم الخميس الرابع من ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة الهجريَّة (٣ مايس ـ مايو ١٤٨١م) وهو في الثَّانية والخمسين من عمره بحساب السنة الشمسية وفي الثالثة والخمسين من عمره بحساب السنة القمرية حكم فيها إحدى وثلاثين سنة تقريباً.

ويعد الفاتح أعظم سلاطين آل عثمان طرّاً وأعظم ملوك عصره، ويصحَ أن يقال إنه كان محور السياسة الدولية في عهده وصاحب الكلمة الأولى في الشؤون العالمية. وقد اتصلت علاقاته السياسية وحروبه بالقارات الثلاث: آسيا وإفريقية وأوروبا، ووطّد السيادة العثمانية في أوروبا توطيداً راسخاً. وقد مدّ قسم من خلفائه حدود الدَّولة العثمانية بفتوحات جديدة في المجر، ولكنها لم تثبت ولم تعمّر طويلاً، فما عتمت أن زالت وامّحت. أما فتوحات السلطان محمد الفاتح، فقد ظلّت في معظم أجزائها ثابتة راسخة إلى ما بعد النصف الثَّاني من القرن التاسع عشر.

لقد كان محمد الفاتح فذاً عظيماً في كل ميادين الحياة.

كان فذاً عظيماً في ثقافته وعلمه، عاش طوال حياته تلميذاً لا يكفّ عن الحرص على المعرفة، حامياً للعلوم والآداب والفنون، أسبغ على أهلها أكرم رعاية وأسناها، وقدّر كرامة الإنسان وجعل حرية الضمير وحرية الفكر والقول مشاعاً لجميع الناس.

وكان عظيماً فذاً في حروبه وسياسته، قلّما ارتدّ عن غاية استهدفها، لا يبطره الظفر إذا انتصر، ولا تقعده الهزيمة إذا انكسر.

وكان فذّاً عظيماً في إدارته لملكه وحسن حكمه لرعاياه وسماحته نحو أهل الأديان الأخرى.

وكان فذّاً عظيماً في تدينه وورعه وتقواه، وفي استقامته وعدله وتقشّفه، وفي خضوعه للحق ولو كان مراً[1].

رضي اللّه عن القائد الفاتح، الإداري الحازم، السياسي البارع، التقيّ النقيّ، المجاهد الصادق، السلطان محمد الفاتح قاهر الرّوم وفاتح القُسْطَنْطينيَّة.

---

(١) سالم الرشيدي (الدكتور) ـ محمد الفاتح ـ القاهرة ـ ١٣٧٥ هـ ـ انظر التفاصيل في هذا الكتاب، وقد اعتمدنا في أكثر المعلومات الواردة بهذا الفصل على هذا الكتاب القيم، وهو أفضل كتاب ألف عن محمد الفاتح باللغة العربية نال به مؤلفه الفاضل الشهادة العالمية (الدكتوراه).
وتقضي الأمانة العلمية أن أعزو الفضل إلى هذا الكتاب في ما ورد بهذا الكتاب، وللمؤلف أعمق الشكر وأعظم التقدير.

المصادر والمراجع

اللوسي (محمود شكري اللوسي)

١ ـ بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب ـ ط ٣ ـ تحقيق الأستاذ محمد بهجة الأثرث ـ القاهرة ١٣٤٢ هـ.

ابن الأثير (عز الدِّين أبو الحسن علي با أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري):

٢ ـ الكامل في التاريخ ـ بيروت ـ ١٣٨٥ هـ.

ابن تغري بردي الأتابكي (جمال الدِّين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي):

٣ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ.

ابن حبيل (أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي):

٤ ـ المحبّر ـ تحقيق غيلزه ليختين شتيتر (الدكتورة) ـ بيروت ـ ١٣٦١ هـ.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدِّين أبو الفضل أحمد علي بن حجر العسقلاني):

٥ ـ تهذيب التهذيب ـ حيدر أباد الدكن ـ ١٣٢٧ هـ.

ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي):

٦ ـ أسماء الخلفاء والولاة ـ ملحق بجوامع السيرة ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

٧ ـ جمهرة أنساب العرب ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ ١٣٨٢ هـ.

ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي):
٨ ـ صورة الأرض ـ ليدن ـ ١٩٣٨م.
٩ ـ صورة الأرض ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد اللّٰه بن عبد اللّٰه المعروف بابن خرداذبة):
١٠ ـ المسالك والممالك ـ تحقيق (M.J. De Goeje) ـ ليدن ـ ١٨٨٩م.
ابن خلدون (عبد الرحمٰن بن خلدون المغربي):
١١ ـ تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ـ بيروت ـ ١٩٦٦م.
ابن دقمان (إبراهيم بن محمد بن أيدم العلائي المعروف بابن دقماق):
١٢ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار ـ تحقيق الدكتور ڤوليرس Vollers بولاق ـ ١٨٩٣م.
ابن رستة (أبو علي أحمد بن عمر المعروف بابن رستة):
١٣ ـ الأعلاق النفيسة ـ ليدن ـ ١٨٩٢م.
ابن سعد (أبو عبد اللّٰه محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري):
١٤ ـ الطبقات الكبرى ـ بيروت ـ ١٣٧٦ هـ.
ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي):
١٥ ـ عيون التواريخ ـ مخطوط في دار الكتب بالقاهرة رقمه (١٤٩) تاريخ.
فوات الوفيّات ـ تحقيق محيي الدِّين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٥١م.
ابن شاهين (غرس الدِّين خليل بن شاهين الظاهري):
١٧ ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ـ تحقيق بولس راويس ـ باريس ١٨٩٤م.
ابن عبد الحكم (أبو محمد عبد اللّٰه بن عبد الحكم):
١٨ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ـ القاهرة ـ ١٣٧٣ هـ.
ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي):
١٩ ـ العقد الفريد ـ القاهرة ـ ١٩٦٢م.
ابن العبري (غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري):
٢٠ ـ مختصر تاريخ الدول ـ بيروت ـ ١٨٩٠م.
ابن المعتز (عبد اللّٰه بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرَّشيد):

٢١ ـ طبقات الشعراء ـ القاهرة ـ ١٣٧٥ هـ.
ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة اللّه بن عبد اللّه بن الحسين بن عساكر):
٢٢ ـ تاريخ دمشق ـ مخطوط بدار الكتب في القاهرة رقمه (٤٩٢) تاريخ.
٢٣ ـ تهذيب ابن عساكر ـ دمشق ـ ١٣٢٩ هـ.
ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي):
٢٤ ـ شذرات الذهب ـ القاهرة ـ ١٣٨٧ هـ.
ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمذاني المعروف بابن الفقيه):
٢٥ ـ مختصر كتاب البلدان ـ تحقيق (M.J. De Goeje) ـ ليدن ـ ١٨٨٥م.
ابن قتيبة (أبو محمد عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري):
٢٦ ـ الشعرا والشعراء ـ بيروت ـ ١٩٦٤م.
٢٧ ـ عيون الأخبار ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ.
٢٨ ـ المعارف ـ تحقيق بروت عكاشة ـ ١٩٦٠م.
ابن كثير (عماد الدِّين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير):
٢٩ ـ البداية والنهاية ـ بيروت ـ ١٩٦٦م.
أبو الفدا (عماد الدِّين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفدا):
٣٠ ـ تقويم البلدان ـ تحقيق رينود والبارون ماك كوكين ديسلان ـ باريس ـ ١٨٤٠م.
٣١ ـ المختصر في أخبار البشر ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
أبو الفرج الأصبهاني (أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني):
٣٢ ـ الأغاني ـ طبعة دار الكتب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
أبو نعيم (أبو نعيم الأصبهاني).
٣٣ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ القاهرة ـ ١٣٥١ هـ.
أحمد رضا:
٣٤ ـ معجم متن اللغة ـ بيروت ـ ١٣٧٧ هـ.
الأَزِيلي (عبد الرحمٰن سنبط قنيتو الأَزيلي):
٣٥ ـ خلاصة الذهب المسبوك في مختصر تاريخ الملوك ـ بغداد ـ بلا تاريخ.
الأزديّ (أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي):

٣٦ ـ تاريخ الموصل ـ القاهرة ـ ١٣٨٧ هـ.
أسد رستم (الدكتور):
٣٧ ـ الرّوم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ـ بيروت ـ ١٩٥٥ هـ.
اسمذارد (ر. ر. اسمذارد) بالاشتراك:
٣٨ ـ الجغرافية العمومية ـ مراجعة وتنقيح محمد عوض إبراهيم ـ القاهرة ـ ١٣٢٧ هـ.
الإصطخري (أبو إسحٰق الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي):
٣٩ ـ الأقاليم ـ مطبوع على الحجر ـ تحقيق مدلر.
٤٠ ـ المسالك والممالك ـ تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحسني ـ مراجعة شفيق غربال ـ القاهرة ـ ١٣٨١ هـ.
الأصفهاني (حمزة بن حسن الأصفهاني):
٤١ ـ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ـ بيروت ـ ١٩٦١م.
البسوي (أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوي):
٤٢ ـ المعرفة والتاريخ ـ تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ـ بغداد ـ ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦م.
البشاري (أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي بالبشاري):
٤٣ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ تحقيق (M.J. De Goeje) ط ٢ ـ ليدن ـ ١٩٠٦ هـ.
البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري):
٤٤ ـ أنساب الأشراف ـ تحقيق (S.D.F. Goitein) القدس ـ ١٩٣٦م.
٤٥ ـ فتوح البلدان ـ تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ـ بيروت ـ ١٣٧٧ هـ.
بينز (نورمان بينز).
٤٦ ـ الإمبراطورية البيزنطية ـ تعريب الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد

ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ):

٤٧ ـ البيان والتبيين ـ تحقيق حسن السندوبي ط٤ ـ القاهرة ـ ١٣٧٥ هـ.

٤٨ ـ الحيوان ـ القاهرة ـ ١٣٦٢ هـ.

٤٩ ـ عظماء من ذوي العاهات خلّدهم التاريخ ـ القاهرة ـ ١٣٩٢ هـ.

الجهشياري (أبو عبد اللّه محمد بن عبدوس الجهشياري):

٥٠ ـ الوزراء والكتاب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

الخانجي (محمد أمين الخانجي):

٥١ ـ منجم العمران ـ القاهرة ـ ١٣٢٥ هـ.

الخطيب البغدادي (أبو بكر بن علي بن ثابت بن أحمد مهدي الخطيب):

٥٢ ـ تاريخ بغداد ـ القاهرة ـ ١٣٤٩هـ.

خليفة بن خياط:

٥٣ ـ تاريخ خليفة بن خياط ـ تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ـ النجف ـ ١٣٨٦ هـ.

الذهبي (الحافظ شمس الدِّين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي):

٥٤ ـ تاريخ الإسلام ـ القاهرة ـ ١٣٦٧ هـ.

٥٥ ـ دول الإسلام ـ حيدر أباد الدكن ـ ١٣٦٤ هـ.

٥٦ ـ العبر في خبر من غبر ـ الكويت ـ ١٩٦٠م.

الزاوي (طاهر أحمد الزاوي):

٥٧ ـ ترتيب القاموس المحيط ـ القاهرة ـ ١٩٥٩م.

الزبيدي (محب الدِّين أبو الفيض السيد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي):

٥٨ ـ تاج العروس في جواهر القاموس ـ القاهرة ـ ١٣٠٦ هـ ـ ١٣٠٧ هـ.

الزبيري (أبو عبد اللّه المصعب بن عبد اللّه بن المصعب الزبيري):

٥٩ ـ نسب قريش ـ تعليق إ. ليفي بروفنسال ـ القاهرة ـ ١٩٥١ ـ ١٩٥٣م.
الزركلي (خير الدِّين الزركلي):
٦٠ ـ الأعلام ـ ط ٢ ـ القاهرة ـ ١٣٧٣ ـ ١٣٧٨ هـ.
زيدان (عبد الكريم زيدان):
٦١ ـ أحكام الذميين والمستأمنين ـ بغداد ـ ١٣٨٢ هـ.
السامر (د. فيصل السامر):
٦٢ ـ الدَّولة الحمدانية في الموصل وحلب ـ بغداد ـ ١٩٧٠م.
الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري):
٦٣ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ـ ١٩٦٤م.
العجّاج (عبد اللَّه بن رؤبة التميمي):
٦٤ ـ ديوان العجاج ـ تحقيق الدكتور عزة حسن ـ بيروت ـ ١٩٧١م.
العصامي (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكيّ):
٦٥ ـ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
علي صافي حسين:
٦٦ ـ مَسْلَمَة بن عبد الملك ـ القاهرة ـ ١٩٦٤م.
عنان (محمد عبد اللَّه عنان):
٦٧ ـ مواقف حاسمة ـ القاهرة ـ ١٣٤٥ هـ.
غلوب (جون باحوت غلوب):
٦٨ ـ الفتوحات العربيّة الكبرى ـ تعريب خيري حمّاد ـ القاهرة ـ ١٩٦٤م.
الفيروزأبادي (مجد الدِّين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي):
٦٩ ـ القاموس المحيط ـ القاهرة ـ ١٣٠٦ هـ.
القزويني (زكرياء بن محمد محمود القزويني):
٧٠ ـ آثار البلاد وأخبار العباد ـ بيروت ـ ١٣٨٠ هـ.
القلقشندي (أبو العباس أحمد القلقشندي):
٧١ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ـ تحقيق إبراهيم الأبياري ـ القاهرة ـ

١٩٥٩م.
كرد علي (محمد كرد علي):
٧٢ ـ خطط الشّام ـ ط ٢ ـ بيروت ـ ١٣٨٩ هـ.
كليتي (برنارودين كليتي):
٧٣ ـ فتح القُسْطَنْطينيَّة ـ ترجمة شكري محمود نديم ـ بغداد ـ ١٩٦٢م.
لسترنج (Guy Le Strange):
٧٤ ـ بلدان الخلافة الشرقيَّة ـ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ـ بغداد ١٣٧٣ هـ.
مجمع اللغة العربيَّة (القاهرة):
٧٥ ـ المعجم الوسيط ـ ط ٢ ـ القاهرة ـ ١٩٧٣م.
مجهول (مؤلف مجهول):
٧٦ ـ العيون والحدائق في أخبار الحقائق ـ تحقيق (M.J. De Goeje) ليدن ـ ١٨٧١م.
محمود فهمي المهندس.
٧٧ ـ البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ـ بولاق ـ ١٣١٢ هـ.
المرزباني (أبو عبد اللّه محمد بن عمران بن موسى المرزباني):
٧٨ ـ معجم الشعراء ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ القاهرة ـ ١٣٧٩ هـ.
المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي):
٧٩ ـ التنبيه والإشراف ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
٨٠ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ بيروت ـ ١٣٨٥ هـ.
المقدسي (مطهر بن طاهر المقدسي):
٨١ ـ البدء والتاريخ ـ شالون ـ ١٩١٦م.

النووي (أبو زكريا محي الدِّين بن شرف النووي):

٨٢ ـ تهذيب الأسماء واللغات ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

هنس (فالتر هنس Wal the Hinz):

٨٣ ـ المكاييل والأوزان الإسلاميَّة وما يعادلها في النظام المتري ـ ترجمة عن الألمانية الدكتور كامل العسيلي ـ عمان (الأردن) ـ ١٩٧٠م.

ولهاوزن (يوليوس ولهاوزن):

٨٤ ـ الدَّولة العربيَّة وسقوطها ـ ترجمة يوسف العش ـ دمشق ـ ١٣٧٦ هـ.

ياقوت الحموي (شهاب الدِّين أبو عبد الله ياقوت الحموي):

٨٥ ـ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ـ كوتنكن ـ ١٨٤٦م.

٨٦ ـ معجم البلدان ـ القاهرة ـ ١٣٢٣ هـ.

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي):

٨٧ ـ البلدان ـ ليدن ـ ١٨٩٢م.

88- Chambers encyclopedia.

89-Encyclopedia Britannica

Brooks.E.W.

90-The Arabs in Asia Minor 641-750-Journal of Hellenic Studies-Vol 18-1898.

91-Byzantines and Arabs in the Time of Early, Alasid.750 to 813-English

Historicab Review-First Par-October-1900.

92-The Compain of 716 to 718 from Arabic sources-Journal of Hellenic studies-

Vol. 19-1899.

93-Arabic lists of the Byzantine Themes-Journal of Hellenic studies-

Vol 21-1951.

Bury.J.B:

94-History of the Later Roman Empire from the Ball of the Jrene to Accession of Basil

1,(812-867)-London.

95-History of the Later Roman Empire from Arcedius to jrane(395-565)-London.

Chei RA,M.A:

96-La Lutte Arrabes E7 Byzantins-Alexandrie -1947.

Gibbon.E.

97-Decilne and Fall of Roman Empire-London - 1897- 1902)

Vasilieav.A.A:

98-The Byzantin Empire.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الجزء الثاني



أسماء الفاتحين:
حبيب بن مسلمة
سلمان بن ربيعة الباهلي
مسلمة بن عبد الملك
عبد الله بن عبد الملك بن مروان
العباس بن الوليد بن عبد الملك
داود بن سليمان بن عبد الملك
معاوية بن هشام بن عبد الملك
مروان بن محمد بن مروان
عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك
محمد الفاتح